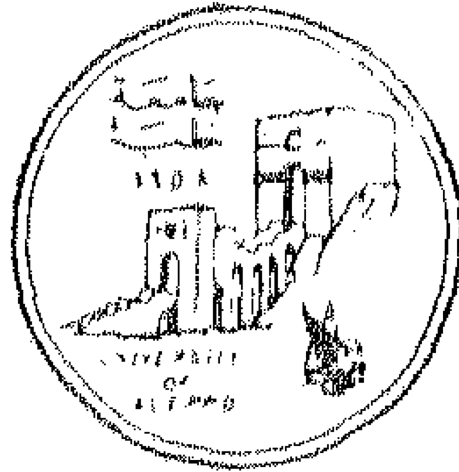
جامعة حلب

معهد التراث العلمي العربي و جمعية العاديات بحلب

عاديات حلب

أدبي

حولية تبحث في تراث العرب العلمي والحضاري
تصدر عن جامعة حلب بالتعاون مع جمعية العاديات



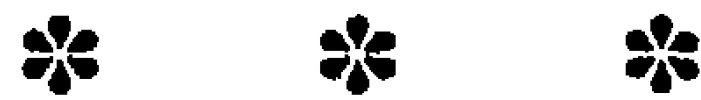
الكتابان الثامن والتاسع
١٩٩٨

عادیات حلب

عاديات حلب

حــولية تصــدر ربيــع كل عــام

تقبل البحوث بالعربية أو الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية



المراسلات باسم : رئيس جامعة حلب ـــ سورية

جامعة حلب

معهد التراث العلمي العربي و جمعية العاديات بحلب

عاديات حلب

حولية تبحث في تراث العرب العلمي والحضاري

تصدر عن جامعة حلب بالتعاون مع جمعية العاديات



الكتابان الثامن والتاسع

١٩٩٨

هيئة التحرير

المحتوى

هذا الكتاب

تعود حولية " عاديات حلب " بجزأيها الثامن والتاسع لتأخذ مكانها في الإصدارات العربية في مجال التراث والتاريخ والآثار.

وتمثل هذه الحولية أرقى أشكال التعاون العلمي بين جهتين تعملان في المجال الأكاديمي والتراثي . هما جامعة حلب وجمعية العاديات .

ومن المعلوم أن جامعة حلب تنفرد بين سائر الجامعات العربية بوجود " معهد التراث العلمي العربي " فيها. هذا المعهد الذي أنشئ قبل أكثر من عقدين من الزمن لمتابعة توثيق التراث العلمي العربي ودراسته وتحليله وتحقيقه . وهي مهمة جليلة نحن في أمسّ الحاجة إليها لمعرفة ما لدى أمتنا من تراث غني في مجال العلوم المختلفة .

وقد قام المعهد بإعداد جملة من المؤتمرات والندوات المتصلة بتاريخ العلوم عند العرب ، سواء أكان ذلك في القطر العربي السوري أم خارجه . كما ساهم المعهد في عدد من المؤتمرات الدولية في هذا الشأن .

أما " جمعية العاديات" فهي بدورها رائدة الجمعيات الأثرية والتراثية في الوطن العربي. فهي أول جمعية من نوعها في الأقطار العربية .

تأسست الجمعية يوم ٢/ ١٩٢٤/٨ بهدف المساهمة في حماية التراث بشتى أشكاله ومعانيه : معمارياً وفكرياً وفنياً . وقد أصدرت خلال الثلاثينات مجلة حملت اسم " مجلة العاديات السورية " . وتوقفت هذه المجلة مع الحرب العالمية الثانية .

ولهذا فليس بغريب أن يكون اللقاء بين جامعة حلب وجمعية العاديات لإصدار هذا الكتاب السنوي تحقيقاً منهما لخدمة التراث العربي وتقديمه في صورة بهيّة .

إن جمعية العاديات وهي تقترب من عامها الخامس والسبعين تمضي في سبيلها فتيّة عامرة بالحيوية ، وقد غدت تضم بين ذراعيها الصفوة المثقفة في مدينة حلب في شتى مجالات العلم والمعرفة والحياة . ففي الجمعية اليوم أكثر من مائتي أستاذ جامعي،ومئات الآثاريين والمؤرخين والمهندسين والأطباء والقضاة والمحامين والأدباء والاقتصاديين والفنانين . وهم يعملون من خلال لجان

متخصصة ، وبصورة طوعيّة ، رغبة منهم في أداء واجب وطني تجاه مدينتهم وتاريخهم وأمتهم .

هذه الجمعية التي أسسها مؤرخ حلب الشيخ كامل الغزي ، وعرفت رجالاً وأعلاماً كباراً في تاريخها مثل الشيخ المؤرخ راغب الطباخ والعلامة خير الدين الأسدي والأب الباحث جبرائيل رباط والدكتور الباحث عبد الرحمن الكيالي ، وسواهم من الأعلام . ولكل منهم إسهاماته الفكرية والتراثية والاجتماعية .

ويكتسب لقاء الجامعة والجمعية أهمية خاصة لأن مسرحه مدينة حلب التي تضرب عميقاً في جذور التاريخ كأقدم مدينة ما تزال مأهولة حتى اليوم، وكأهم مدينة أثرية في العالم الإسلامي بمساحتها القديمة وتنوع أوابدها زمنياً ومعمارياً ووظائف، بين قلعة فريدة ، وأسواق لا مثيل لها في العالم ، وجوامع وكنائس وحمامات وخانات ومدارس ودور باذخة . إلى جانب الدور الاقتصادي الكبير الذي لعبته المدينة كواحدة من أهم المراكز التجارية في طريق القوافل العالمية بين الشرق والغرب . إضافة إلى دورها الفكري والفني والثقافي على امتداد العصور، هذا الدور الذي بلغ ذروته في بلاط سيف الدولة الحمداني الذي بذّ الخلفاء والسلاطين بمن اجتمع لديه من أدباء ومفكرين وشعراء وعلماء.

إننا ونحن نتشبث بتراثنا وتاريخنا لا ننسى أننا على أبواب قرن جديد وألفية ثالثة ، وأن العالم من حولنا يتطور ويتغير بخطوات لاهثة متسارعة في مجال المعرفة والمعلومات والاتصالات . ونحن إذ يجب علينا أن نلج العصر الحديث من أوسع أبوابه ، فإن علينا أن نحافظ على شخصيتنا الوطنية والقومية ، وعلى هويتنا الثقافية والحضارية، لكي لا نذوب في تيارات العولمة الطاغية التي تريد أن تجعل من الكرة الأرضية مجموعة قرى تدور في فلك واحد مهيمن متسلط .

ومن هنا تأتي حيوية الدور الذي يقوم به كل من معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب وجمعية العاديات ، في حفظ تراث الأمة ، وجلاء شخصيتها وهويتها ،والإفادة من معطيات العصر الحديث في توثيق هذا التراث وصيانته واستشراف آفاق المستقبل من خلاله .

ولقد حرصنا في هذا الكتاب على الإطار الأكاديمي للمادة العلمية التي نقدمها، وهي في الأساس جزء من المحاضرات والندوات التي ألقيت في جمعية

العاديات ، أو أقيمت بالتعاون بين الجمعية ومعهد التراث العلمي العربي ، أو بين الجمعية وبعض الجهات الأكاديمية الأخرى .

وهذا الإطار الأكاديمي ينتظم التاريخ القديم ، والتنقيبات الأثرية التي تحرص جمعية العاديات على مواكبتها ومتابعة نتائجها . كما ينتظم جوانب التاريخ الإسلامي عمارة وسياسة وفكراً وأدباً وفناً ، مع التركيز على مدينة حلب كمحور لهذه الاهتمامات والدراسات .

ولهذا فإن كتابنا يضم دراسات حول الحقبة النطوفية ، ومملكة إيبلا ، ومملكة أوغاريت ، والممالك الآرامية ، ومملكة آلالاخ ، وسهل عكار في الحقبة البرونزية الوسيطة ، إلى جانب دراسات حول الظاهر بيبرس ، وسيف الدولة وقساطل حلب ، ومكتبات حلب، وبيمارستاناتها ، وعصر الظاهر غازي الأيوبي ، ولهجة حلب ، وحلب في عيون الشعراء، يضاف إلى ذلك دراسات عامة حول الحروب الصليبية ، واللغات القديمة ، والرحلات ، وعصر قايتباي المملوكي ، والرقة . وهذا كله يجعل من الكتاب حصيلة متنوعة تدور في إطار التاريخ والتراث والآثار .

إننا ، ونحن نضع هذا الكتاب بين يديّ القارئ ، لا يسعنا إلاّ أن نتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساهم فيه تأليفاً وترجمةً وإعداداً وإشرافاً وطباعةً وإخراجاً .

ونخصّ بشكرنا الأستاذ الدكتور رئيس جامعة حلب ، والأستاذ الدكتور مدير معهد التراث العلمي العربي.

كما نشكر القائمين على مطبعة جامعة حلب لما بذلوا من جهد ودأب في سبيل إخراج هذا الكتاب .

ونود أن نشير إلى أننا سوف نخصص الكتاب العاشر من هذه الحولية "عاديات حلب " للذكرى الماسية " الخامسة والسبعين " لإنشاء جمعية العاديات.

التحرير

الممالك الآرامية في سورية

الدكتور فاروق إسماعيل

يعود اهتمامي بالآراميين وممالكهم إلى مطلع الثمانينات عندما شجعني أستاذي الفاضل الدكتور أحمد هبو على إعداد رسالة ماجستير عن لغة نقوشهم الأولى ، وقد أنجزتها عام ١٩٨٤ ثم انصرفت إلى الكتابات المسمارية. ولكن مرور السنين وتواليها لم يمح في نفسي ميلاً خاصاً إلى الموضوع ، ولذلك عدت إليه مرة أخرى وأعمل منذ حوالي سنة في إعداد كتاب جامعي عن لغتهم وتاريخهم .

أعتقد أن المصادر الأساسية لكتابة بواكير تاريخ الآراميين وممالكهم في سورية هي نوعان:

١-الكتابات المسمارية،ولاسيما حوليات الملوك الآشوريين من الألف الأول ق.م. والنقوش الآرامية وهي أبجدية قليلة العدد نسبياً ، ولكنها ذات أهمية خاصة بسبب آراميتها.

٢-الآثار الفنية الآشورية والآرامية ، لأنها تفيد في كتابة التاريخ الحضاري، وهي غير وافية بعد ،ولاشك في أن اتساع نطاق التنقيب الأثري سيكشف عن شواهد أخرى منها .

وللتنبيه أشير إلى أنني لا أود عدّ كتاب (العهد القديم) وماورد فيه من أخبار مصدراً للبحث العلمي، ولاسيما أن المصادر التي ذكرتها تفي بالغرض كما سنرى . أما المراجع فالأجنبية منها كثيرة جداً،وفيها تيارات ومنطلقات عدة متباينة ، وهي متتالية بشكل لافت للنظر منذ أواخر القرن الماضي . أما العربية فمعدودة وجزئية .

لاخلاف في أن الآراميين في الأصل قبائل بدوية موطنها الأم أطراف البادية السورية العربية ولاسيما المناطق الفراتية القريبة من جبل بشري . وقد كانت هذه المناطق وما يتصل بها جغرافياً مسرحاً لقبائل بدوية أخرى منذ أواخر الألف الثالث ق.م ، وقد اتضحت لنا فصائلها وأنماط حياتها بشكل جلي في نصوص مدينة ماري (القرن الثامن عشر ق . م) عرفتنا تلك النصوص على عدد منها ، وأشهرها أمورو وسوتو وخاني وماريمينا وبنو شمأل ، كما ذكرت النصوص البابلية عدداً آخر منها مثل أمنانوم ويَخْروروم وغيرها .

إذاً كانت تلك المنطقة بشكل متواصل مسرحاً لقبائل بدوية سامية متعددة الأسماء متشابهة في نمط حياتها ومعيشتها منذ النصف الثاني من الألف الثالث حتى أواسط الألف

الأول ق . م ، أي على مدى زمني يبلغ حوالي ألفي سنة . ولذلك لأستبعد وجود صلة توحد وتواصل بين الآراميين وتلك القبائل التي تميز من بينها الأموريون الذين تعود بواكير تاريخهم إلى عهد مملكة إبلا في القرن الرابع والعشرين ق . م .

كان البدو الأموريون يشكلون القسم الأساس من سكان مملكة إبلا ، وتبدو كتابات إبلامدونة بلهجات مختلفة جزئياً. ولعل ذلك هو السبب الرئيس في كثرة استخدام كتّابها الرموز السومرية، (لأن تلك الرموز كانت تستوعب الاختلافات اللهجية، وتعين القارئ الإبلائي على أن يقرأ ويلفظ حسب لهجته،ويبقى المعنى مفهوماً موحداً بين متكلمي كل اللهجات). [١] .

ونجد ضمن أسماء الأعلام الأمورية الشائعة في ممالكهم الرئيسة (ماري، يمخد/حلب، قطنا / تل المشرفة ، آبوم / تل ليلان، ألالاخ / تل العطشانة ، ترقا / العشارة ...) في مطلع الألف الثاني ق.م أسماء مصوغة من جذور لغوية لها تواصلها في الآرامية القديمة ؛ إضافة إلى عدد من الكلمات. وقد تنبه اللغويون إلى ذلك منذ أن نشر مارتن نوت كتابه (أسماء الأعلام الإسرائيلية في إطار الأسماء السامية المشتركة) عام١٩٨٠ ، وقد لقي ذلك صدى واسعاً لدى المهتمين بـ (العهد القديم) ، وصدرت لهم دراسات عدة سعت إلى تسخير ذلك في خدمة إغراض أخرى .

إنهم يؤمنون اعتماداً على بعض ما جاء في العهد القديم بالصلة الوثيقة بين الآراميين الإسرائيليين وبالتالي فإن تأكيد صلة الآراميين بالأموريين هو حسب زعمهم دليل على الوجود الإسرائيلي في تلك الممالك السورية القديمة منذ مطلع الألف الثاني ق . م . إنها نتيجة خاطئة مبنية على أساس خاطئ مضلل ذي غرض سياسي لاتاريخي علمي . ولو سلمنا بالأهمية التاريخية لـ (العهد القديم) ـــ وهو أمر نفيته منذ البداية ـــ فإن ما جاء فيه من إشارات معدودة إلى صلة الآراميين بالإسرائيليين غير مقنع ولا يمكن أن يكون دليلاً علمياً .

لقد ورد في(العهد القديم) أن اسم حفيد ناحور أخي إبراهيم هو آرام (التكوين ٢٢ : ٢١) ، وزوجة اسحق هي رفقة بنت بتوئيل الآرامي وأختُ لابان الآرامي (التكوين ٢٥:٢٠ ، ٣١ : ٢٠)، وجاء على لسان يعقوب : أرامياً تائهاً كان أبي

---

(١)راجع : فون زودن : في تصنيف لغة إبلا . تر : فاروق إسماعيل . دراسات تاريخية ٥٣ /٥٤ (١٩٩٥) ، ص ٧

(التثنية ٢٦ : ٥) وقال يهوه : ألم أُصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير (عاموس ٩ : ٧).

إن هذه الإشارات لا تدل على ما استخلص منها ، فالاسم آرام هو من الأسماء المشتركة في معظم اللغات السامية، ويعتمد على جذر لغوي مشترك يفيد السمو والعلو ، وليس مقصوراً على اسم القوم (الآراميين) .

وأنبه هنا إلى أن اللفظ الشائع لاسم القوم (الآراميين ، آرام) ليس دقيقاً ، وهو يعتمد على تلك الصيغة التوراتية التي شاع استخدامها. فإذا ما عدنا إلى الكتابات المسمارية المقطعية الأقدم، وهي ـــ على خلاف الكتابات الأبجدية ـــ تقدم لنا الصوامت (الحروف) مع صوائتها (حركاتها) ، وبالتالي تساعد على اللفظ الدقيق، لوجدنا أن الاسم يرد فيها حتى أواخر القرن الثامن ق . م (حتى عهد سرجون الثاني ٧٢١ ـــ ٧٠٥ ق . م) بضم الراء أو كسرها (أرومو، أريمي) أو عدم تحريكها (أرمايا) ، بعد ذلك نجد الراء في عدد قليل من الشواهد محركة بالفتح.

أما الوصف بـ (الآرامي) فهو في دلالته يعني البدوي المتنقل في البوادي ، وليست له في تلك الشواهد التوراتية أية دلالة إثنية . ولاحظ في هذا السياق المرادف الذي جاء صفة له (تائهاً).

أما مدينة أو بلاد قير التي عُدّت موطناً رئيساً ومنطلقاً للآراميين فلا نعرفها في آية مصادر أخرى ! لذلك كله فإن ذلك الرأي يبقى في حيز المزاعم . أما اقتراح إمكانية الصلة بين الأموريين والآراميين فيعتمد على عدة معطيات من أهمها :

١ ـــ الإطار الجغرافي الموحد الذي أوضحناه سابقاً .

٢ ـــ التماثل في الحروف الجذرية للاسمين (آرام ، أم ر) مع مراعاة القلب المكاني، وهي ظاهرة صوتية شائعة في لغاتنا القديمة .

٣ ـــ غلبة البداوة على نمط الحياة ، وهو أمر ميز كليهما (الأموريين والآراميين) عن سكان المناطق الحضارية المجاورة .

٤ ـــ المشابهات اللغوية المعجمية وانضواء لغتيهما في إطار مجموعة واحدة من " اللغات السامية " .

إنها معطيات عامة لها جزئياتها وتفصيلاتها ، وهي شاملة لمسائل عامة (الإنسان ، الأرض ، اللغة ، نمط الحياة المعيشة) ، وهي أساسية في عملية تحديد الأصول المشتركة .

الشواهد المبكرة عن الآراميين:

تبدأ المصادر الكتابية بذكر الآراميين حكاماً في مناطق متفرقة من وادي الفرات الوسط بدءاً من القرن الثاني عشر ق . م . ولكن ثمة شواهد مبكرة تذكر أسماءً ومناطق تبدو ذات صلة بهم ، ولكنها مضللة وهي لا تتجاوز التشابه اللفظي، ومنها نذكر ما ورد في نقش للملك الأكدي نرام سين (٢٢٥٤ ـــ ٢٢١٨ ق . م) من أنه حارب bel Aram Harsamatki . وما جاء في نص ديني يعود إلى أواخر عهد شولجي ثاني ملوك سلالة أور الثالثة (٢٠٩٤ ـــ ٢٠٤٧ ق . م) وبالتحديد السنة السادسة والأربعين من عهده (٢٠٤٩ ق . م) حيث يذكر فيه أن سيد Erin Arami قدم الأضاحي مع سيد اشنونا (تل أسمر في منطقة وادي ديالا)، أو النص الذي يعود إلى السنة التاسعة من عهد شوسين رابع ملوك السلالة (٢٠٣٧ ـــ ٢٠٢٩ ق. م (٢٠٢٩ق . م) حيث يرد فيه اسم شخص ذي صلة بمدينة شيمورم بصيغة Aramuiku ، وتبدو الشواهد الثلاثة هذه دالة على أسماء أماكن في مناطق شرقي دجلة .

وهناك شواهد أخرى على أسماء أشخاص تبدو مشابهة لاسم آرام وردت في نصوص من ماري وألالاخ ونوزي(يورغان تبه قرب كركوك)تعود إلى القرون ١٨، ١٧، ١٥، مثل:
(Aramma / Arammara , Arammasuni , Aram – pate , Aramm – uxni)

وفي نصوص أوغاريت نجد اسم مكان بصيغة (أرامي) في منطقة نهر العاصي .

وهناك اسم آخر مختلف لفظاً هو (أخلامو) ولكنه مؤكد الصلة بالآراميين لأن الكتابات المسمارية الآشورية بدءاً من نقوش تجلت فلاسر الأول(١١١٤ ـــ١٠٧٦ ق.م) توردہ مرادفاً موازياً لاسم (أرومو) وبصيغة توحي بأنهم كانوا جزءاً أساسياً من القبائل الآرامية ، وذلك بصيغة (الأخلامو الآراميون) ويعني الاسم : الرفاق المتحالفون).

ويذكر هؤلاء الأخلامو في نصوص أقدم تعود إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر ق.م فقد كشفت البعثة البلجيكية المنقبة في موقع تل الدير (سيبار أمنا نوم) غربي بغداد عن أرشيف كتابي ضخم نشر المجلد الأول منه عام ١٩٩١ ، وجاء في إحدى رسائله (رسالة من بلشونو إلى أبيه يعلمه فيها أنه لايستطيع تحقيق رغبته في شراء شعير له لأن الأخلامو لم يأتوا بعد)[٢] .

---

(١) - K Van Lerberghe ; G . Voet :Sippar – Amnanum . The Ur – Utu Archive Vol . 1 Uni of Ghent 1991 . (89 : 16, 19) .

(٢)– Weidner : Die El – Amarna Tafeln . Leipzig 1912 (200 , 8 , 10) .

كما يذكر الأخلامو في رسالة قصيرة من تل العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م) [٣] القرن الرابع عشر ق . م يذكر فيها أن الملك الآشوري أريك دن ايلي (١٣١٧- ١٣٠٦ق .م) حارب الأخلامو والسوتو ، وثمة رسالة موجهة من الملك الحثي ختوشيلي الثالث إلى الكاشي كدشمان انليل الثاني ملك بابل (١٢٦٣ - ١٢٥٥ ق . م) أي أواسط القرن الثالث عشر ق .م يذكر فيها أن الأخلامو صاروا يشكلون خطراً على الطريق بين المملكتين .

ثم تكثر المدونات الاشورية والبابلية من ذكر الحروب مع الأخلامو خلال القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق . م ويبدو أُهم كانوا يستقرون آنذاك بشكل رئيس في جهات الخابور والفرات . ثم يبدأ اسمهم بالاتصاف بصفة الآراميين التي تطغى عليهم وتُخفي الاسم أخلامو .

الآراميون في النقوش الملكية الآشورية:

تقدم النقوش أو الحوليات التي أمر الملوك الآشوريون بتدوينها لتسجيل مآثرهم وأعمالهم مادة وفيرة عن بواكير تاريخ الآراميين ، وهي تشير - بشكل عام - إلى بدء تكون كيانات آرامية كانت تشكل خطراً أساسياً عليهم ، وتهدد حدودهم الغربية ، وتمنعهم من تحقيق أطماعهم في السيطرة على مناطق الجزيرة والفرات . ولذلك فإن حملاتهم ضد الآراميين كانت متواصلة وشبه سنوية . وعلى الرغم من التفاوت الكبير في المستوى الحضاري والعسكري بين الآشوريين والآراميين فإن الآشوريين لم يكونوا قادرين على إخضاعهم بسهولة مما يدل على بأسهم واستفادتهم من خبرتهم بأحوال البادية في الهجوم المفاجئ والإغارة على الجيوش الآشورية المنظمة وقدرتهم على التغيير المفاجئ والسريع لمراكز إقامتهم واستئناف حياتهم المألوفة التي كانت تعتمد على النهب والسلب واعتراض طرق القوافل التجارية .

تذكر نقوش الملك الآشوري تجلت فليزر الأول (١١١٤ - ١٠٧٦) أنه قام في السنة الرابعة من حكمه بحملة ضد الأخلامو الآراميين الموجودين في المنطقة الواقعة بين سوخي (المنطقة الواقعة بين عانا وماري) وكركميش (جرابلس) وهزمهم . ويبدو أن الآراميين انسحبوا ، ونهب الملك ست مستوطنات لهم هناك ، وعاد إلى عاصمته آشور ومعه أسلاب وغنائم كثيرة . ونقرأ في نقوشه أنه قام خلال حكمه الذي دام تسعاً وثلاثين سنة بثمان وعشرين حملة ضدهم في المنطقة الواقعة بين الرمادي وتدمر وجبل بشري ،

وهو أمر يدل على مدى خطورهم على المملكة الاشورية وعلى سعيهم لبسط نفوذهم على مناطق أخرى مجاورة .

انتهى عهده في فترة شهدت فيها بلاد آشور وبابل والمنطقة عامة الجفاف والقحط والمجاعة، فتغلغل الآراميون بشكل مكثف في بلاد آشور ، واحتلوا نينوى ، وفرّ تجلت فليزر الأول وجيشه أمامهم . كما هاجموا بلاد بابل ، ولم يجد التحالف الآشوري البابلي في مجابهتهم وانتشروا في مناطق واسعة من البلاد . كما استطاعوا السيطرة على مناطق مثلث الخابور وطور عابدين (كشياري) . وقد وصف النقش المدون على المسلة المسماة بـ " المسلّة المحطمة " العائدة إلى عهد أشور بل كالا (١٠٧٣ - ١٠٥٦) ق . م استمرار المشاكل بين الآشوريين والآراميين هناك .

وأنبه إلى أن هذه الأحداث تذكرنا بتغلغل الأموريين المفاجئ في أواخر الألف الثالث ق .م (أي قبل ألف سنة تقريباً) في أواسط بلاد الرافدين في عهدي المملكة الأكدية وسلالة أور الثالثة وبناء سور مارتو (الأموريين) لمواجهتهم وصدهم ، وكذلك بما يطرحه الأثري الأمريكي هارفي وايس ــ اعتماداً على نتائج تنقيباته في تل ليلان ــ من أن كارثة طبيعية حصلت في منطقة الجزيرة أدت إلى مجاعة دفعت بجموع الأموريين إلى بلاد الرافدين مما خلق فيها أزمات واضطرابات قادت إلى السقوط المفاجئ لمملكة أكد العظمى. وهناك فجوة تاريخية تمتد حوالي قرن من الزمن تلي عهد آشور بل كالا لا نعرف عنها شيئاً يذكر لغياب الوثائق ، وربما يكون ذلك من تأثيرات الظرف الطبيعي المفاجئ ، ولاشك في أن الآراميين استفادوا منها في مد نفوذهم وتنظيم أمورهم .

ثم نقرأ في نقوش أشور دان الثاني (٩٣٤ - ٩١٢ ق . م) أنه قام بحملة ضدهم في مناطق آشورية في الأصل صارت آرامية في عهد أسلافه (في عهد أشور رابي الثاني ١٠١٢ - ٩٧٢ ق. م).

يبدو أنه في هذه الفترة (القرن العاشر ق . م) ظهرت كيانات سياسية آرامية في مناطق الجزيرة السورية ثم في جميع المناطق السورية . وصارت النقوش الآشورية تذكر أخبار صراعاتها معها ذكراً يدل على أنها كانت دويلات أو إمارات أو مشيخات مستقلة متميزة ، وهو أمر يتم على نقلة حضارية متميزة للآراميين وعلى بدء مرحلة جديدة متطورة من تاريخهم ، ولكنهم ــ كما سنرى ــ لم يتمكنوا من تجاوزها ومتابعة تطويرها بالتوحد في كيان واحد يجعل منهم قوة عظمى في المنطقة ، ويعود ذلك إلى سببين

رئيسين؛ داخلي يتمثل في عدم تطور البنية الاجتماعية القبلية لديهم ، وخارجي هو عـــدم توقف محاربة الآشوريين لهم .

الممالك الآرامية في سورية:

لقد كانت ممالكهم ترتبط بمدينة مركزية تتبع لها عدد من القرى ، وتقوم بـــالحكم فيها أسرة متميزة ذات شأن يتولى وجهاؤها أو شيوخها الإدارة والحكم وراثياً ، ولذلـــك لصقت صفة (بيت) بمعظمها ، وحملت أسماء منسوبة غالباً إلى مؤسســـيها عشـــائر أو أفراد.

وسنبدأ باستعراضها حسب الترتيب الجغرافي لها بدءاً من أقصى الشمال الشرقي .

١ ـ دويلات تيمانا :

ظهرت في أواسط القرن العاشر ق.م(في عهد تجلت فليزر الثاني٩٦٦-٩٣٥ق.م) ثلاث دويلات صغيرة متجاورة كونتها قبيلة تيمانا الآرامية في السفوح الجنوبية لـــ " طور عابدين " في مناطق نصيبين وماردين، هي: دويلة نصيبين وكان رئيسها نورهدد من أقوى خصوم الآشوريين هناك . دويلة خوزيرينا (سلطان تبه في الجنوب الشرقي من مـلودين) ورئيسها ماملي . دويلة جيدارا (وقد سماها الآراميون رقماتو) في الجنوب الغـــربي مـــن ماردين ، وكان حاكمها يدعى موقورو .

تميزت هذه الدويلات بموقعها الجغرافي الهام الذي كان الآشوريون يسيرون عـبره في حملاتهم إلى بلاد الأناضول الجنوبية ، ولذلك ركز أدد نيراري الثـاني (٩١١ـ٨٩١ ق. م) اهتمامه على القضاء عليها فحاربهما بضراوة ست سنوات متتاليـة(٩٠٠ ـ٨٩٥ ق . م) وأخضعها لنفوذه واحدة تلو الأخرى ؛ خوزيرينا في ٨٩٨ ، جيدارا في ٨٩٧ ، وأخـــيراً نصيبين في ٨٩٥ ق.م حيث أسر حاكمها نورهدد ، ونقله مع أفراد قبيلته إلى مناطق قريبة من نينوى .

٢ ـ بيت بخياني :

قامت هذه المملكة في منطقة الجزيرة العليا أو " مثلث الخابور " وامتدت بين مناطق دويلات تيمانا شمالاً وشرقاً ومملكة بيت عديني غرباً حيث كان يفصل بينهما نهر البليـخ . وعاصمتها هي جوزانا في موقع تل حلف الشهير قرب مدينة رأس العين .

لقد كشفت تنقيبات الألمـــاني فـــون أو بنـــهايم (١٩١١ - ١٩١٣ ، ١٩٢٧ - ١٩٢٩) عن جوزانا وآثار كثيرة منها يمكن مشاهدتها في قاعة حلف في المتحف الوطـــني

بحلب ، ومنها واجهة المتحف المنسوخة عن واجهة القصر – المعبد المكتشف في حلف (وأصلها نقل إلى برلين). كما كشف في الموقع عن مجموعة من الكتابات المسمارية الآشورية المفيدة في كتابة تاريخ المملكة . وجرت في موقع الفخيرية المجاور لمدينة رأس العين تنقيبات أمريكية في مطلع الستينات بإدارة ملك ايوان وكشفت عن شواهد معمارية هامة ، إضافة إلى عدد من النقوش الكتابية . وعثر في الموقع نفسه مصادفة في شباط ١٩٧٩ على تمثال كامل ارتفاعه حوالي مترين يمثل شخصاً هو حاكم المملكة واسمه هديسعي . دُوّن على الجزء الأمامي من ثوبه نقش آشوري وعلى الخلفي نقش آرامي وهما متماثلان في المضمون ، ويعود إلى أواسط القرن التاسع ق . م ويمكن مشاهدته في المتحف الوطني بدمشق . وهذا النقش الآرامي المؤلف من ثلاثة وعشرين سطراً ذو أهمية خاصة من الناحيتين التاريخية واللغوية ، وهو أقدم النقوش الآرامية المتكاملة المكتشفة حتى الآن .

واعتماداً على هذه الشواهد المادية والكتابية يمكن رسم المشهد العام السياسي والحضاري في هذه المملكة ، وهي شواهد وفيرة مقارنة بشواهد الممالك الآرامية الأخرى.

ويبدو منها– بشكل عام – أن المملكة وجدت في زمن مبكر يعود إلى القرن الحادي عشر ق.م وأنها منسوبة على الأرجح إلى مؤسسها المدعو (بخياني ، بحياني) ، ونعرف من حكامها بعده :

خديانو ، كابارا (ابنه) في القرن العاشر ق. م ، وقد ورد ذكرهما في نقش من الموقع نفسه . وينسب إلى الابن (كابارا) أنه رمم أو أعاد بناء القصر ــ المعبد .

وفي نقش للملك الآشوري أدد نيراري الثاني (٩١١ – ٨٩١ ق.م) يؤرخ بـ ٨٩٤ق.م نقرأ أنه هاجم بلاد خاني جلبت (الجزيرة العليا) ودخل جوزانا عاصمة بخياني دون مقاومة ، وأرغم حاكمها أبي سلمو على دفع الجزية ، مما يشير إلى أنه كان يحكم في أواخر القرن العاشر أو مطلع التاسع ق . م .

من حكام القرن التاسع نعرف – اعتماداً على النقش الثنائي اللغة (الآرامي-الآشوري) اثنين هما شمش نوري وابنه هد يسعي الذي حكم في أواسط القرن .

في الربع الأخير من القرن التاسع اضطربت أحوال المملكة الآشورية بسبب الصراعات الداخلية في القصر الملكي ، فاستغلها آراميو بيت بخياني وثاروا ضد الاحتلال الآشوري المتكرر لبلادهم ، وذلك في ٨٢٧ ق . م . ولكن أدد نيراري الثالث (٨١٠ ــ ٧٨٣ ق . م) الذي سيطر على الوضع وأنهى أزمة المملكة انصرف في مطلع عهده إلى

اخضاع بيت بخياني وقضى على الثورة فيها (٨٠٨ ق.م) ونصب حاكماً آشورياً عليها هو (منّوكي آشور) ، وغدت مقاطعة تابعة لحكام آشور ، وثمة رسائل كثيرة مكتشفة في آشور أرسلها حكام جوزانا إلى القصر الملكي أو بالعكس تفيد في رصد أحوالها تحت السيادة الآشورية .

٣ ـ بيت زماني :

قامت هذه المملكة في منطقة طور عابدين جنوبي منابع نهري الفرات ودجلة . كانت آميدي (آمد ، ديار بكر) عاصمة لها .

تشير المدونات الآشورية إلى نشاط آرامي عسكري متميز في تلك المنطقة منذ أواخر القرن الحادي عشر ق.م حسب ما ورد في نقوش أشور ناصر بال الثاني اللاحقة(٨٨٣ - ٨٥٩ ق .م).

ذكرت مملكة بيت زماني أول مرة في نقوش توكولتي نينورتا الثاني (٨٩٠ -٨٨٤) ق.م حيث تحدث عن حملة قام بها ضد حاكمها الآرامي أمّي بعلا وذلك في أواخر عهده(٨٨٥ ق. م) ونعلم أن أمي بعلا صار بعد ذلك حليفاً وتابعاً مخلصاً للآشوريين ، فتمرد عليه السكان ، وخلعوه عن عرش الحكم ، ونصبوا بورامانو أمير مدينة سينابو مكانه . وقد أثار ذلك الآشوريين فجرد آشور ناصر بال الثاني حملة ضخمة إليها ، وحاصر العاصمة ثم دخلها وصلب بورامانو ، وقضى على التمرد ، وعين حاكماً جديداً موالياً هو أرتيانا (ايلانو ؟) ، ونشر حاميات عسكرية آشورية في أبرز مدن المملكة.ولكن التمردات لم تنته فهاجم المملكة من جديد ، وفرض السيادة الآشورية عليها ، وصارت مقاطعة آشورية تعرف باسم (آميدي) .

٤ ـ بيت عديني :

تقع مناطق هذه المملكة بين وادي البليخ وغربي الفرات(حتى حوالي منبج ، الباب). وقد كشف عن عاصمتها تل برسيب في موقع تل أحمر (٢٠ كم جنوبي جرابلس) .

وصل الآراميون إلى تلك المناطق منذ أواخر القرن الحادي عشر ق . م ، وخلفوا الحثيين في السيادة عليها ، وهي منطقة هامة جغرافياً لأنها تضم أفضل الممرات بين ضفتي الفرات . ويبدو من النقوش الآشورية أنهم كانوا يسيطرون آنذاك على مدن هامة مثل بيترو (عند مصب نهر ساجورا (الساجور) في الفرات وموتكينو على الضفة اليسرى للفرات .

أما أول ذكر للمملكة فيرد بصيغة " بلاد ابن عديـــني " " mat mar Adini " في نقش من السنة الثالثة عشرة من عهد اددنيراري الثـــاني ٩١١ ـــ ٨٩١ ق .م (أي ٨٩٩ ق. م) ، ويتحدث فيه عن حملة له نحو الغرب ووصوله إلى الخابور ، ثم عن تلّقيه سمكتـين فراتيتين نادرتين من حاكم بيت عديني ، وهو تعبير عن الولاء وطلب للإخاء . ونلاحـــظ فعلاً أن المملكة بقيت بعيدة عن حملات الآشوريين المدمرة أكثر من ثلاثين سنة (خـــلال عهدي توكولتي نينورتا الثاني وأشور ناصر بال الثاني ٨٩٠ ـــ ٨٥٩ ق . م)، وكـــانت بيت عديني خلال ذلك تدفع الجزية لهم أحياناً ، ونعلم أن أشورنا صربال الثاني نقل قسـماً من سكانها إلى بلاده للاستفادة منهم في بناء قصره الجديد في كلخو (نمرود) .

أما في عهد أخوني بن عديني فقد اشتدت مقاومة المملكة للآشـــوريين ، وكـــان أخوني يحاول توحيد القوى الآرامية،فشهد عهده حروباً متلاحقة مع الآشوري شـــلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) . لقد قام بحملات عدة على المملكة ودمر كثيراً مـــن مدنهـــا وحاصر العاصمة ونهبها مرة (٨٥٦ ق . م) ثم هاجمها مرة أخرى واضطر أخـــوني إلى الهرب والانتقال إلى الضفة الثانية للفرات ، واعتصم مع حاشيته في قمة جبل .

وفي ٨٥٥ ق. م قام شلمنصر بحملة ضده في معقله وقبض عليه واقتاده مع حاشـيته إلى آشور ، وحول المملكة إلى مقاطعة آشورية ، وبدل اسم العاصمة إلى كار شـــلمنصر (حصن شلمنصر) ، وصارت بعده تابعة لمقاطعة حران الآشورية .

لقد كشفت تنقيبات تورو دنجن (١٩٢١ ـــ ١٩٣١) في تل أحمر عن عاصمـــة المملكة وعن قصر ضخم تضمن رسوماً جدارية ملونة رائعة ومنحوتات كثيرة ، وتعـــود معظم آثارها إلى القرن التاسع ق . م . وقد استأنفت منذ عدة ســـنوات بعثـــة جامعـــة ملبورن الاسترالية التنقيب في الموقع ، وكشفت حتى الآن عن شواهد معماريـــة جديـــدة وعثرت على بعض النقوش الكتابية .

٥ ـــ إمارات الفرات الأوسط :

ظهرت في منطقة الفرات الأوسط (ونعني بها المنطقة الواقعة على ضفتي الفـــرات وجزء من الخابور بـــين دير الزور وعانا وصـــور والبوادي المتصلة بها) إمارات صغـــيرة أو مشيخات يتردد ذكرها في المدونات الآشورية. وأهمها ثلاث هي :

آ ـــ بيت خالوبي :

في المثلث الذي يشكل رأسه مصبّ الخابور في الفرات وعاصمتها سورو (صـــور شرقي دير الزور على طريق الحسكة) . التزم أمراء القبائل الآرامية فيها بدفـــع الجزيـــة

بسلام واحترام للآشوريين ، وقبلت بسيادتهم الشكلية غير المباشرة فترة طويلة خلت من الحروب حتى أواسط القرن التاسع ق . م . وتحدثنا تقارير الملوك الآشوريين عن مرورهم بعاصمتها سورو واستلام الجزية من حكامها (برعتاره بن خالو ، حراني) بدءاً من أواخر القرن العاشر ق . م .

ولكن بعد اعتلاء آشور ناصر بال الثاني العرش (٨٨٣ – ٨٥٩ ق . م) تغيرت العلاقات، و ظلت هذه المنطقة آرامية صرفة ، وتشكل جزءاً أساسياً من موطنهم الأم الذي أشرنا إليه سابقاً، وشهدت توترات عسكرية . فقد ظهر تمرد في سورو (سنة ٨٨٢ ق . م) ضد أميرها الآرامي المعين من قبل الآشوريين وهو خاماني وقتل ، واختار السكان حاكماً جديداً من آرامي بيت عديني اسمه آخي عبابا . فدفع ذلك الملك الآشوري إلى الانتقام من المتمردين على قراره ، وأعدمهم ، ونصب حاكماً جديداً هو عزي ايلو . وصارت سورو مركزاً انطلق الآشوريون منه لقمع التمردات في المناطق المجاورة .

ولكن بعد زمن نجد أن عزي ايلو راح ينظم صفوفه للتمرد أيضاً ، فلحق به الآشوريون وفر إلى مدينة كيينا ، ثم التجأ منها إلى جبل بشري ؛ وتم فرض السيادة الآشورية التامة على الإمارة :

ب ـ لاقي :

امتدت هذه الإمارة بين جنوب شرقي دير الزور وعلى ضفتي الفرات بمسافات مختلفة حتى مناطق الحدود السورية العراقية . وكانت عاصمتها هي مدينة سيرقو /ترقا القديمة (حاليا تل العشارة).

يتردد ذكرها في المدونات الآشورية بدءاً من عهد أدد نيراري الثاني (٩١١ ـ ٨٩١ ق. م) وتستمر الإشارة إليها ككيان آرامي حتى أواخر القرن التاسع ق . م حيث صارت مقاطعة آشورية في عهد أدد نيراري الثالث (٨١٠ ـ ٧٨٣ ق . م) .

لم تسلم كجاراتها من حملات الآشوريين وإرهاقهم الاقتصادي بطلب الضرائب والإتاوات وعانت من ويلاتهم وانتقامهم من حركات التمرد بين قبائلها وقيامهم بعمليات التهجير القسرية.

إن التنقيبات الأثرية في الموقع جارية منذ زمن طويل ولكن معظم المكتشفات المادية والكتابية تعود إلى الألف الثاني ق . م عندما كانت المدينة (ترقا) مركزاً لمملكة خانا الأمورية . أما آثار الفترة الآرامية الآشورية فلا تتجاوز منحوتة من حجر البازلت تعود إلى عهد توكولتي نينورتا الثاني ٨٩٠ ـ ٨٨٤ ق . م عليها كتابة مسمارية تصف انتصاره

على دويلة لاقي الآرامية. وقد صورت عليها دويلة لاقي بشكل رمزي في هيئة أفعى كبيرة ملتوية دمرها الإله أدد الذي يلوّح بفأس في ذراعه الأيمن .

ويرد في الكتابات الآشورية ذكر لعدد من المدن اللاقية مثل كيينا ، صفرو ، أقرباني ومواقعها غير محددة بعد . وتتفرد عن غيرها من الإمارات بأن الكتابات الآشورية تذكر عددا من شيوخها (nasiku) ، مما يوحي بأنها لم تكن تنضوي في إطار حاكم واحد رئيس ، بل تخضع لشيوخ قبائل أو بطون كثر .

ج ــ من الإمارات الأخرى في هذه المنطقة نذكر خيندانو في الجنوب الشرقي من لاقي (مناطق غربي راوا) وعلى مساحة صغيرة . وسوخي في مناطق عانا التي كانت عاصمة لها تسمى (خانات) ، وبشكل مواز للفرات . وقد كانت عامرة وفيها مدن كثيرة نعرف أسماءها من الكتابات الاشورية ومن بعض النصوص التي اكتشفت هناك خلال حملة إنقاذ مواقع سد القادسية الذي غمر تلك المواقع ومنها مدينة عانا الشهيرة في معظم مراحل تاريخ المنطقة بدءاً من القرن الثامن عشر ق .م (نصوص ماري) .

٦ ــ مملكة يأدي ــ شمأل :

سيطر الآراميون في أواسط القرن العاشر ق . م على معظم مناطق المدن الحثية اللوفية السابقة في شمالي سورية ومنها مدينة شمأل (حالياً زنجيرلي) على السفوح الشرقية لجبل الأمانوس (كاورداغ) بالقرب من الحدود السورية التركية ضمن تركيا .

كانت شمأل عاصمة لمملكة يأدي المحاطة من الجهات الأربعة بعدد من الدويلات الصغيرة الحثية الآرامية مثل جرجم ، أ'نقي،ملز،قوّ (عاصمتها أضنة)،خيلكّو،تبل ... وفي الجنوب منها بيت آجوشي وحزرك الآراميتين . فهي تقع في أقصى الشمال الغربي من الممالك السورية الآرامية .

لقد تميزت هذه المملكة بعدة ميزات أهمها :

آ ــ الجو السياسي المحموم فيها وكثرة عدد الملوك الذين حكموها، وقد بلغ عددهم عشرة ملوك.

ب ــ تعاونها وتبعيتها غير المباشرة وشبه الدائمة للمملكة الآشورية .

ج ــ أوجد الموقع الجغرافي المتطرف لها تميزاً حضارياً معتمداً على التمايز العرقي فيها، كما حافظ على لهجتها الآرامية بسبب عزلتها .

د ــ وفرة المكتشفات الأثرية المادية والكتابية التي كشفت فيها، وهي بذلك أحسن حالاً من جميع الممالك الأخرى، رغم أن التنقيب الألماني فيها لم يدم سوى خمسة مواسم

بين (١٨٨٨ - ١٩٠٢) ، وقد شملت المكتشفات أجزاء هامة المدينة (السور المزدوج ذو البوابات الثلاث،قصور متعددة، منحوتات وأعمال فنية مختلفة، وأربعة عشر نقشاً كتابياً مدونة بثلاث لغات (الآرامية القديمة، لهجة شمال الآرامية ، الفينيقية).

إن أول حاكم آرامي معروف للمدينة هو جبار ثم بمه ثم حيا أو حيان ـ حسب النقوش الآشورية ـ حوالي (٩٢٠ق.م) (حكم حوالي ٨٧٠ ـ ٨٥٠ ق.م)، وتذكر النقوش أن الأخيرين هما اللذان بنيا المدينة وجعلاها حصناً منيعاً. و لم تكن هناك صلة قربى بين أولئك الملوك الثلاثة .

في عهد حيان استقرت شؤون المملكة وصار لها شأنها المتميز، و لم يعد هناك تأثير كبير للتقاليد الحثية اللوفية التي كانت شائعة هناك. وبدأ يتردد في النقوش الآشورية كخصم في الحروب عدة مرات وملتزم بدفع الجزية مرات أخرى .

خلفه ابنه شئيل وقد استمر في دفع الجزية للآشوريين، ثم خلفه أخوه كيلموا (٨٤٠/٨٣٥- ٨١٥/٨١٠ق.م) وتشير كتابة له باللغة الفينيقية إلى تحول حقيقي في المملكة إذ يشير فيها إلى أنه قام بما لم يقم به الملوك السابقون، وإلى أن الحياة الاقتصادية ازدهرت، والعدالة سادت بين طبقات الشعب .

ومن الملوك الآخرين المتميزين فنموا الأول بن قرل (؟ ـ ٧٤٥ق.م) ويذكر أيضاً أن (عصا السلطة صارت في يده، وازدهرت الزراعة، وتأسست مدن وقرى جديدة، وكثرت النذور والأضاحي للآلهة، وأن في أيامه "أكلت يأدي وشربت".

شاعت الفوضى بعد ذلك في عهد برصور ابنه. فاغتصب العرش شخص من خارج السلالة ولكن فنموا الثاني نجا من المجزرة، واتصل بالملك الآشوري تجلت فلسيزر الثالث الذي تدخل لنجدته، وقتل مغتصب العرش، وعين فنموا ملكاً في حوالي ٧٤٣ق.م.

تفيد النقوش بأن فنموا حاول إصلاح الأوضاع الاقتصادية في المملكة، وتحالف بإخلاص مع الآشوريين وشاركهم في حملاتهم، وتابع ذلك ابنه براكب (٧٣٣/٧٣٢ ـ ٧٢٠ ق.م).ثم صارت يأدي مقاطعة آشورية ومركزاً لنفوذهم في بلاد الأناضول .

٧ ـ بيت آجوشي :

عندما اتجه الآراميون نحو الغرب أو الشمال الغربي لاقوا مجابهة من بقايا المراكز الحثية المتأخرة هناك، ولكنها كانت مقاومة ضعيفة لم تمنع الآراميين من الاستقرار ثم إنشاء ممالك لهم ومنها مملكة بيت آجوشي التي يرجح أنها ظهرت في مطلع القرن التاسع ق.م في منطقة حلب ولا سيما شماليها بين منبج وعفرين تقريباً، وكانت هذه المنطقة تسمى قبل

ذلك ياخان، وصارت مدينة رفاد (تل رفعت) عاصمة سياسية للمملكة وحلب مدينة دينية رئيسية فيها .

لقد نقب لوقت قصير في موقع تل رفعت، وكشف فيه عن طبقات استيطان تمتد من تواكير الألف الأول حتى القرن السابع ق.م، وعثر فيه على بقايا بيوت سكنية وبوابة وغيرها، كما كشف عن كسرة نقش كتابي بالخط الفينيقي الآرامي لم ينشر بعد حتى (١٩٨٩).

ويمكن تحديد الإطار العام لتاريخ المملكة السياسي اعتماداً على المصادر المسمارية الآشورية بالدرجة الأولى، وهي توضح أسماء عدد من ملوكها الذين حكموا بين حوالي ٨٧٠ ــ ٧٤٠ ق.م أي حوالي ١٣٠ سنة وعددهم خمسة ملوك هم : آجوشي، أرامو/أدرامو، عتر سمكي، برحش، متيع ايل، ولعل آخرهم متيع ايل هو أشهرهم فهو صاحب معاهدتين من أهم المعاهدات السياسية في الشرق القديم، معاهدته مع ملك آشور أشورنيراري الخامس (٧٥٤ ــ ٧٤٥ ق.م) و المعاهدة الآرامية التي عثر على نصها في السفيرة، وقد عقدها مع برجاية ملك كتك التي يختلف الباحثون في تحديد موقعها .

والمعاهدة الأخيرة (الآرامية) ــ وهي من معاهدات التبعية أي يفرض طرفٌ شروطه وعلى الطرف الثاني الالتزام بها ــ ذات أهمية خاصة في الجانب اللغوي لأنها بنصها الطويل (٢١٤ سطراً) تشكل القسم الأكبر من مفردات اللغة الآرامية القديمة وتراكيبها النحوية وغير ذلك. وهي تؤرخ بأواسط القرن الثامن ق.م .

ويبدو من المدونات الآشورية أن مملكة آجوشي لم تكن منعزلة عن العالم الآرامي، بل كانت تشارك في تحالفات الممالك الآرامية الأخرى ضد آشور أو ضد بعضها ، مثل التحالف الذي سعت مملكة بيت عديني إلى تشكيله ضد شلمنصر الثالث أوالذي نظمه ملك دمشق ضد زكور ملك حماة اعتماداً على ماجاء في النقش الآرامي المكتشف في آفس .

كانت نهاية المملكة على يد تجلت فليزر الثالث (في ٧٤٠ ق.م) بعد أن حاصرها ثلاث سنوات ، وصارت مقاطعة آشورية .

٨ ــ مملكة حماة ولعش :

امتدت مملكة حماة القديمة التي نشأت في أواخر القرن التاسع ق.م في مناطق مدينة حماة الحالية ولاسيما مناطق العاصي. وقد أكدت نتائج التنقيبات الدنمركية في قلعة مدينة حماة (١٩٣٢ ــ ١٩٣٨) وجود الطبقة الآرامية فوق طبقة حثية، وكشفت البعثة عن

حوالي أربعين نقشاً آرامياً صغيراً لا يتجاوز النقش الواحد يضع كلمات معظمـــها أسمـــاء أشخاص، إضافة إلى عشرين نصاً مسمارياً، وجميعها محفوظة في جامعة كوبنهاغن .

كانت مملكة حماة الآرامية متميزة بموقعها الجغرافي بين البادية والجبال الســـاحلية، وكانت تحارب آشور وكذلك الممالك الآرامية الأخرى، وتسعى دائماً إلى عقد تحالفـــات ولا سيما ضد آرام دمشق. وتفيدنا النصوص في معرفة أسماء عدد مـــن ملوكـــها وأهـــم أحداث عهودهم، وأبرزهم:

توعي ثم ابنه يورام، أرخوليني الذي شارك في تحالف ضم ممالك أخـــرى بقيـــادة برهدد ملك دمشق ضد الآشوري شلمنصر الثـــالث (٨٥٩ ــ ٨٢٤ ق.م) وذلـــك في معركة قرقر (خربة قرقر قرب جسر الشغور) الأولى ٨٥٣ ق.م، واللافت للنظر أن اســـم ارخوليني تصدر قائمة أسماء المتحالفين .

بعده يأتي ابنه أوراتامي الذي خلف بضعة نقوش بالكتابة التصويرية اللوفية عـــثر عليها في حماة، ويفتخر فيها بأعماله العمرانية والعسكرية كبناء سور لمدينة حماة، واعتراف عدد من الدويلات بقوته .

من أشهر ملوكها زكور (سابقاً زكير) الذي كان يحكمها في عـــهد أدد نـــيراري الثالث (٨١٠ ــ ٧٨٣ق.م) وأبرز آثاره نقش كتابي عثر عليه في آفـــس ســـنة ١٩٠٣ (محفوظ في متحف اللوفر بباريس) يتضمن سبعة وأربعين سطراً، مؤلف من ثلاثة أجـــزاء. يصف فيه ارتقاءه عرش مملكة حماة وضمه لعش إليها ومجابهته الحلف الآرامي الذي شـــكله برهدد ملك دمشق ضده، وذلك بفضل التحصينات القوية التي أنشأها في مركزه الجديـــد في مدينة حزرك (لعش)، وبفضل مساعدة الآلهة. وهو نقش ذو أهمية تاريخية لغوية دينية .

وربما يكون هذا التحالف وهذا التوحد الآرامي ضد مملكة حماة يعود إلى موقفـــها الحيادي من صراع دمشق مع الآشوريين، ومهادنتها حكام آشور، إضافة إلى الخطر الـــذي صارت تشكله بعد أن وسعت مناطق نفوذها في لعش (شمال شرقي حماة).

أما ملكها الأخير إيلو يوبيدي فقد صار يشترك في التحالفات والثورات ضد أشور، وقد كان من المشاركين الرئيسيين في معركة قرقر الثانية ضد سرجون الثـــاني (٧٢٢ ــ ٧٠٥ق.م) عام ٧٢٠ق.م. وبهزيمة التحالف المصري الآرامي في المعركة أخضع ســـرجون الثاني حماة وحولها إلى ولاية آشورية بعد أن رحّل قسماً كبيراً ممن ســـكانها إلى بـــلاده، وأسكن في مناطق حماة آشوريين أتى بهم من البلاد .

٩ ـــ مملكة دمشق :

لم تصلنا من دمشق أية وثائق آرامية قديمة، ولكن ثمة وثائق يعتقد أنها حررت فيها أو من قبل ملوكها وهي :

نقشان مدونان على قطعتي عاج ينسبان إلى الملك حزائيل، كانتا ضمن أسلاب الآشوريين من دمشق، تركوا واحدة في حداتو (أرسلان طاش) ووصلت الثانية إلى كلخو (نمرود).

– نقش كتابي مدون على نصب يصور الإله ملقرت (من أواخر القرن التاسع ق.م) عثر عليه في البريج شمالي حلب سنة ١٩٣٠. ولكن الدراسات الحديثة تشكك في أن يكون الملك برهدد المذكور في النقش هو برهدد ملك دمشق Pitard, BASOR 272 (1988) 3 -21 .

– نقش من القرن التاسع ق.م عثر عليه في تل القاضي (دان القديمة) في فلسطين في صيف ١٩٩٣. ويعتقد أنه يصف نصراً حققه برهدد ملك دمشق هناك ، وأقام المسلة في تلك المنطقة التي خضعت له. ومازالت الآراء تتضارب في حقيقة هذا النقش وما ورد فيه.

– عثر في جزيرة ساموس اليونانية على حلية برونزية كانت تستخدم لجاماً للخيل تعود إلى أواخر القرن التاسع أو بواكير الثامن ق.م، وعليها نقش آرامي جاء فيه حرفياً :

(الذي أعطى الإله هدد لسيدنا حزائيل من الوادي (العمق)، في سنة عبور سيدنا النهر) .

وتذهب بعض الأبحاث إلى أن المقصود هنا هو حزائيل ملك دمشق، ومنطقة العمق هي المقصودة في النص ؟

تتردد أخبار مملكة دمشق في المصادر الأخرى بشكل رئيس في المدونات الآشورية (وبالطبع مراراً في العهد القديم). كانت دمشق في البدء مدينة صغيرة ثانوية الأهمية، تبدأ المدونات الآشورية بتسليط الأضواء عليها بدءاً من القرن التاسع ق.م، ونعلم أنها كانت الطرف الأساسي في التحالف الذي دخل معركة قرقر الأولى ٨٥٣ق.م ضد شلمنصر الثالث وقد تكررت حملات شلمنصر الثالث عليها خلال عهد برهدد الثاني وكذلك حزائيل (٨٤١، ٨٣٨ق.م). لقد رفع حزائيل شأن مملكته ووسع حدودها في شرقي الأردن، وتوجهت أنظاره إلى المدن الفلسطينية. أما ابنه برهدد الثالث فقد قاد التحالف ضد زكور ملك حماة وواجه الآشوري أدد نيراري الثالث الذي حاصره في دمشق .

يبدو أن المملكة ضعفت بعد ذلك وفقدت أجزاء من مناطقها في عـــهد رصينـــو ، واستمر تردي الأوضاع فاجتاحها تجلت فليزر الثالث وهدم المدن التابعة لهـــا وحـــاصر دمشق حوالي سنتين حتى خضعت له في ٧٣٢ ق.م، ونكل بأهلـــها ونفـــاهم، ثم قســم المملكة إلى أربع مقاطعات آشورية .

لقد لا حظنا سمة عامة في المشهد التاريخي للممالك الآرامية تتلخص في أنها ابتليـت بعدو قوي قاسٍ ذي إمكانات ضخمة، لم يتراجع عن اضراره علـــى إخضـــاع المنـــاطق السورية لحكمه نظراً لأهميتها الجغرافية والاقتصادية، فخضعت له واحدة تلو الأخـــرى. كما لا حظنا أن تلك الممالك توزعت في جميع أرجاء سورية، وبذلك يمكن أن نقول إن تاريخ سورية في النصف الأول من الألف الأول ق.م هو تاريخ الممالك الآرامية .

أعلم أني أغفلت أموراً لا يســـمح زمن المحاضرة بهـــا أو تخرج عن الإطار الزمـــاني أو المكاني لها، فلم أتحدث عن الحضارة والمظاهر الحضارية في تلك الممالك، وركزت علـى التاريخ السياسي، و لم أتحدث عن الإسهامات الآرامية الحضارية المتميزة بعد ذلك رغـــم افتقادهم الكيانات السياسية الخاصة ولا سيما في مجال الكتابة واللغة التي بقيت حية حـــتى أيامنا متمثلة بالسّريانية .

وأخيراً أنبه إلى أن قلة الوثائق الآرامية أو شواهد الممالك الآرامية لا يعني أنها غـــير موجودة، ولكنها تنتظر الكشف عنها، إذ بينت المسوحات الأثرية في عدد مـــن منـــاطق سورية الشمالية وجود تلال كثيرة فيها سويات من العصر الآرامي. فقـــد جرى مســـح أثري في وادي قويق (منطقة تل رفعت) أظهرت وجود ستة وثلاثين تلاً من ذاك العصـــر (ماترس ١٩٨١) وآخر في وادي الجراح ومنطقة تل ليلان أظهرت وجود سبعة وعشـــرين (ماير ١٩٨٦)، ومثل هذه الأعداد في المسح الذي أجراه كونه في وسط الخابور وأســـفله ١٩٧٧/١٩٧٤، ومسح كول ماير في منطقة وادي الفرات بين الطبقة والعشـــارة ١٩٨٤، ومسوحات مونشاميرت (أوسط الخابور ١٩٨٤)، واكرمانس في وادي البليـــخ ١٩٨٤. ولا شك أن الكشف الأثري المتزايد هو وحده الكفيل بزيادة معلوماتنـــا عـــن تلـــك الممالك الآرامية أو عن تاريخ سورية في النصف الاول من الألف الأول ق.م .

ألقيت المحاضرة في جمعية العاديات بحلب

في صيف

بتاريخ / / ١٩

المراجع

آ ـ العربية

الكتاب المقدس .

أبو عساف ، علي (١٩٨١) : مملكة بيت بخياني. مجلة دراسات تاريخية ، العـدد السادس .

(١٩٨٢) :دمية الملك هد يسعي ملك جـوزن . الحوليـات الأثرية العربية السورية ، مج ٣٢ ، ص ٣٥ ـ ٥٨ .

(١٩٨٨) :الآراميون تاريخـاً ولغـة وفنـاً . دار أمـاني ، طرطوس.

إسماعيل ، فاروق (١٩٨٤) : لغة نقوش الممالك الآرامية " دراسة مقارنـة في ضوء اللغات السامية " رسالة ماجستير ، جامعة حلب .

فرزات ،محمد حرب(١٩٩٦):مملكة أرفاد الآرامية وآشور حتى أواسـط القـرن الثامن ق.م: بعض المعطيات الجديدة . ضمن الكتاب : إسماعيل، فاروق : بحوث النـدوة العالمية حول تـاريخ سـورية والشـرق الأدنى القـديم (٣٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق . م) . منشورات جامعة حلب .

مـرعي ، عيد (١٩٩١) : تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عـام ٥٣٩ ق . م . دار الأبجدية للنشر ، دمشق .

ب ـ الأجنبية :

Abou Assaf , A . – Bordreuil , P . – Millard (1982) :
La Statue de Tell Fekherye et son inscription bilingue assyro–araméene . Paris .

Abu Taleb , M . M . (1973) : Investigations in the History of North Syria 1115 – 717 B .C . Diss . Uni of Pennsylvania .

Donner , H . Roellig , W . (1971 – 1976) :
Kanaanaeische und Aramaeische Inschrften . 3 Baende , 3 . Aufil, Wiesbaden

Malamat, A. (1973) : The Aramaeans.

In : Wiseman, D.J. (ed.) Peoples of Old Testament Times. Oxford, pp. 134 – 155.

Millard, A.R. (1983) : Assyrians and Arameans. Iraq 45, 101 – 108.

Pitard, W.T. (1988) : The Identity of The Bir-Hadad of the Melqart Steta. BASOR 272, 3- 21.

(1994) : Arameans. In : Hoerth , A.J. et al. : Peoples of the Old Testament World. Baker Books. 207 – 230 .

Reinhold, G.G. (1989) : Die Beziehungen Altisraels zu den aramaeischen Staaten in der israelitisch – Judaeischen Koenigezeit. Peter Lang – Verlag, Frankfurt a.M.

Schwarts, Glenn M. (1989) : The Origins of the Arameans in Syria and northern Mesopotamia : Research problems and potential strategies. In : Festschr. Van Loon, Rotherdam. 275 – 291 .

Tropper, J. (1993) : Die Inschriften von Zincirli, ALASP, Band 16, Ugarit – Verlag, Muenster.

الحقبة النطوفية والمزارعون الأوائل

د. إحسان شيط*

إن حلب المحروسة ، يمتد تاريخها إلى أبعد بكثير من ذاكرة الإنسان التاريخية، وتمتد حدودها من وادي الفرات الأوسط إلى وادي العاصي، قد لعبت دوراً هاماً في تقرير التحولات الكبرى في تاريخ البشر.

ولعل سبب اختياري لهذا الموضوع هو صداقة قديمة تعود إلى أكثر من ثلاثين سنة،تربطني بالفرات، أزوره أسبوعياً للنزهة والاستجمام والصيد ،وخاصة في منطقة مسكنة التي تقع على بعد ٩٠ كم شرقي حلب . وهي تجاور المريبط وأبو هريرة وحبوبة وهي من أهم المواقع في تاريخ التحضر البشري.

ولا شك أن التلال المحيطة بمنطقة حلب ، وضفاف الفرات مازالت تخفي الشيء الكثير من المعلومات عن بدايات التحضر الإنساني .

والكشف المهم الذي تم في مغارة الديدرية في منطقة جبل سمعان ، يعطينا فكرة عن تنوع آثار بلادنا وكثرتها ، إذ تم العثور على هيكل عظمي لطفل نياندرتالي يعود إلى ما قبل ٧٠ ألف سنة مدفون بطريقة تشير إلى طقوس جنائزية . وهو أقدم هيكل عظمي يعثر عليه في سورية، وأكمل هيكل عظمي من نوعه في العالم . وقد ترك لنا الإنسان النيادرتالي في هذا الكهف ، المطل على وادي نهر عفرين ، الكثير من أدواته الحجرية . ويعتقد أن بلادنا كانت مأهولة خلال المليون سنة السابقة . وأن أقدم آثار الإنسان على ضفاف الفرات تعود إلى ٦٠٠٠٠٠ سنة .

ولكن الاكتشافات الهامة حدثت عندما نظمت الحكومة السورية ، بالتعاون مع منظمة اليونيسكو، حملة تنقيبات أثرية ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المواقع الأثرية في منطقة الغمر . وكان عددها ٥٦ موقعاً ، تم الكشف عن ٢٣ موقعاً ، وابتلعت مياه البحيرة الباقي إلى الأبد. وتعتبر هذه الاكتشافات مهمة ، لأنها كشفت النقاب عن أكبر التحولات التي حدثت في تاريخ الإنسان. وأكدت على أهمية منطقة حلب ووادي الفقرات الأوسط الذي لعب دوراً في أكبر ثورة عرفتها البشرية ، خلالها تحول الإنسان من كائن يعيش ضيفاً على الطبيعة ، يعيش على الصيد والتقاط ثمار الأرض، ويسكن العراء والكهوف، إلى كائن مستقر منتج لقوته، وذلك عندما اكتشف الزراعة وطرق تدجين الحيوان ، وسكن البيوت في القرى والمدن . ترافق هذا التغيير المادي بتغير فكري،

---

*باحث - نائب رئيس جمعية العاديات.

سمح برؤية هذا العالم رؤية أخرى ، تتميز بثورة في الرموز والقيم الأفكار والمعتقدات ، مازال أثرها سارياً حتى اليوم .

تم اكتشاف الزراعة في فترة جيولوجية تدعى بالهولوسين ، فلنتعرف على الفرات تلك الفترة .

البيئة الطبيعية الفراتية في فترة الهولوسين

يجري نهر الفرات على قعر بحر انسحب منذ ٥٠ مليون سنة ، تاركاً طبقة زسوبية يتراوح سمكها بين ٣ إلى ١٠كم .حفر النهر في الطبقة مجراه بعرض ٤ إلى ٢٠كم وبعمق٣٠ إلى ٤٠ م. حمل النهر أيضاً رسوبيات التي شكلت بدورها مصاطب نهرية ممتدة على سرير النهر.تشكلت هذه المصاطب في فترة الهولوسين التي بدأت منذ ١٠آلاف سنة، وهي أرض الزور الحالية وتقع المصاطب القديمة على أكتاف النهر وتصل إلى فترة بليستوسين التي تعود إلى عدة ملايين من السنين.

كانت الأحراش النهرية تكسو سرير النهر، وتتألف من كل أنواع القصب والنجيليات ، وتنبت فيها أشجار الطرفة، والصفصاف،و الدردار ،و الزيتون ، واللوز، والفستق ،والبلوط، والخوخ ، والكرمة . وتعيش فيها قطعان الخنازير، والوعول، والبقر، حتى إن الفيلة كانت تسرح فيها حتى القرن الثامن قبل الميلاد.

أما الأكتاف النهرية والوديان التي تتخللها فقد كانت مكسوة بالشجيرات والنباتات العشبية ، وكان من بينها القمح، والشعير، وبعض البقول كالعدس ، والبازاليا. وتعيش فيها الغزلان ، والخيليات، والنعام، والأرانب....أما الطيور المستوطنة والمهاجرة فكانت تتألف من الدرج ،و الحمام ، ودجاج الماء،والإوز، والبط، والترغل، والقطا...أما الأسماك التي كانت تسبح في مياه النهر فقد أحصى السومريون منها ٥٠ نوعاً ، ونعد منها اليوم أكثر من عشرين نوعاً منها سمك البني، والجري ، والكرسين ، والشلع، والشبوط ، والبراق، والبوري، والبرميد، وسمك الحيات.....

كان اكتشاف الزراعة أهم حدث في تاريخ البشر.وقد شغلت الأسئلة حول هذا الاكتشاف العملاق أذهان المفكرين من مؤرخين وآثاريين وعلماء إناسة وعلماء طبيعة.وكانت الأسئلة متنوعة ومتعددة ،منها تدور حول علاقة الإنسان بالبيئة وتتناول الدوافع .ومنها تتعلق بالزمان والمكان. وللإجابة على سؤال تحديد المكان والزمان لا بد لنا

من الرجوع إلى منطقة أبو هريرة على الفرات الأوسط والتعرف على حقبة تاريخية تدعى بالحقبة النطوفية نسبة إلى وادي نطوف بالقرب من القدس .

الحضارة النطوفية

تم استقرار الإنسان ولأول مرة في تاريخه (ما قبل الألف العاشر) في فترة تدعى فترة الحضارة النطوفية . كشفت عنها أعمال التنقيب في أبو هريرة والمريبط. استقر الإنسان في بيوت مستديرة نصف مدفونة في الأرض ، تقع على الأكتاف النهرية ، وتشكل مجمعات سكنية مكونة من عشرات البيوت، يسكنها من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ شخص. اعتمد الإنسان في تأمين قوته على التنوع الواسع في الموارد الطبيعية ، في البيئة النهرية الغنية التي كان يعيش فيها مثل السمك والقواقع من النهر، والخنازير والوعول والأبقار في الأحراش التي تغطي سرير النهر، والغزلان والخيول على أكتاف النهر.

وكان لصيد الغزال في حاوي أبو هريرة شأناً خاصاً : فحاوي أبو هريرة أو وادي السلماني انخفاض في الأرض يشطر البادية السورية من الشمال إلى الجنوب ، وتسيل فيه مياه أمطار البادية ، لتصب عند موقع أبو هريرة على نهر الفرات . وهو واد دائم الخضرة، نظراً لتجمع مياه الأمطار فيه،كانت ترتع فيه ملايين الغزلان.تسد الأعشاب الخضراء عادة حاجة الغزلان من الماء في الأيام العادية، إلا أنها تضطر إلى التروح إلى شاطئ النهر، في فصل التكاثر في نهاية الربيع، وذلك لحاجة الأمهات إلى المزيد من الماء، لإفراز الحليب . وكانت غزلان البادية الشامية، من الأردن حتى الفرات ، تتجمع حوالي موقع أبو هريرة ، اكتشفت إنسان أبو هريرة النطوفي تكرار هذه الرحلة السنوية ، فنصب لهذه الغزلان الكمائن والأشراك ، وصادها صيداً كثيفاً . وتمكن من تأمين ٨٠٪ من حاجته السنوية من البروتينات عن طريق لحومها المحفوظة.

كما اعتمد الإنسان أيضاً ، لتأمين قوته ، على جمع الحبوب البرية التي تنبت في الوديان المجاورة. استطاع هارلان جمع ما يعادل ٢,٤ كغ قمحاً بواسطة منجل حجري خلال ساعة واحدة ، واستنتج أن الإنسان كان يستطيع حصاد حاجته السنوية من القمح إذا عمل ثلاثة أسابيع . واستطاع هذا الإنسان أن يخزن الحبوب البرية التي تنضج في أواخر الربيع .كما ظهرت في هذه الفترة الأدوات الحجرية الكبيرة والصغيرة التي تركب على مقابض عظيمة أو خشبية،ومن أعظمها آلة مهمة جداً هي قدوم المريبط،وتتألف من نصل من

الصوان يثبت على ساعد مزوى من الخشب، فيأخذ شكل الفأس الحالي، وتستعمل في أغراض شتى . ولد هذا الاستقرار جماعة لها عادات اجتماعية ودين وفن . وعلي الرغم من عدم وجود دلائل على عبادة منظمة فإنه دفن موتاه حسب تقاليد محددة . ونحت الإنسان النطوفي أشكالاً حيوانية وإنسانية على العظام والأحجار ، وفي نهاية الفترة النطوفية أي في ١٠٠٠٠ق.م ظهرت بعض المستجدات منها، تقني (كظهور أول رؤوس للسهام) ، وبعضها الآخر أيديولوجي ، كظهور أول آثار عبادة الإلهة الأم وعبادة الثور، هذه العبادات سيكون لها مستقبل كبير.وحتى ذلك الحين لم يحدث أي تطور في المجال الاقتصادي . حيث كان الصيادون وصيادو الأسماك وملتقطي الثمار يعيشون على ما تقدمه لهم الطبيعة يوماً بيوم، ولكن هذا الاستقرار أدي حدوث أكبر انقلاب في تاريخ البشر، وهو اكتشاف الزراعة في بداية العصر الحجري الحديث.

اكتشاف الزراعة في بداية العصر الحجري الحديث
قبل الفخار A و B الألفين الثامن والسابع
وبعد الفخار الألفين السادس والخامس

(الألف التاسع ٨٣٠٠ق م) : قدمت حفريات المريبط وبقراس وحالولة وتل مشنقة والجرف الأحمر الدليل على ظهور الزراعة في وسط مستقر . وكان الدليل انتشار نوع معين من القمح وذلك لأن القمح له نوعان : النوع الأول ينتثر باكراً عن سنابله عند نضوجه، وهذا لا يصلح للزراعة، لأنه لا يمكن جمعه. والثاني لا يتناثر وهو النوع المفضل لأنه يمكن حصاده وجمعه. وبفحص غبار الطلع المتحجر تم اكتشاف النوع الثاني منتشراً في مناطق عديدة ، مما يدل على تدخل الإنسان في حصول هذا الإنتشار. ويشهد على هذا النشاط الزراعي وجود حبوب القمح المتفحمة أو المتحجرة، ووجود أدوات جرش الحبوب في العديد من المواقع الأثرية . استمر تطور الزراعية في المريبط خلال فترة استقرار دامت ألف سنة. وكانت الزراعية البدائية جزءاً من خطة غذائية هادفة لإنتاج القوت والاعتماد على أنواع معينة منه . سببها الأول اجتماعي أكثر من بيئي . وتميزت بالاعتماد على الزراعة بشكل رئيسي (حضارة الخبز) والتركيز على صيد آكلات الأعشاب الكبيرة، والعزوف النسبي عن أشكال الصيد الأخرى كصيد الأسماك والحيوانات الصغيرة. وأدى اكتشاف الزراعة إلى اكتشاف تدجين الحيوان.

استمر السكن في البيوت المستديرة كالسابق. ولكن ظهرت إلى جانبها البيوت المستطيلة . كما توسعت القرى لتتسع إلى ٢٠٠٠-٣٠٠٠ نسمة . ويلاحظ استعمال أدوات حجرية مصقولة ، وقطع فخارية مخصصة للأغراض التزيينية والطقسية. واستمر تقديس الإلهة الأم والإله الثور، مع استمرار عادة دفن القرون في جدران المنازل .

تابعت المجتمعات النيوليتية تحولاتها الاقتصادية والاجتماعية على امتداد الألفين الثامن والسابع . وفي الألف السابع ق م ظهرت ثقافة العصر الحجري الحديث قبل الفخار ب PPNB : وظهرت البيوت المستطيلة المتعددة الغرف ذات الأرضية المستوية . وظهر الطرقات بين البيوت. وتوسعت القرى وكان بعضها محصناً . عاش الفلاحون على الزراعة، وتربية المواشي(تدجين الماعز والأبقار) ، ومارسوا الصيد (آكلات الأعشاب الكبيرة التي يتطلب صيدها عملاً جماعياً منظماً) . واستعملوا الأدوات الحجرية المصقولة. وانتشر استعمال ما يسمى بالآنية البيضاء، وهي أوان من الحجر المصقول تستعمل عادة في الشؤون المنزلية . و لم يكن الفخار قد انتشر بعد. ويوجد ما يشير إلى ظهور عبادة منظمة تدور حول الإلهة الأم والثور. وتظهر طقوس جنائزية منها عادة احتفاظ السكان بجماجم أسلافهم في بيوتهم . وتميزت هذه الفترة بانتقال بعض المزروعات من مناطقها ، حيث كانت تنمو أصلاً بشكل بري، إلى مناطق بعيدة مثل رأس شمرا والقوم.

بقراص على الشاطئ الأيمن للفرات قرية نيوليتية من الألف السابع، معاصرة لتل الرماد في جبل الشيخ . فيها بيوت متعددة الغرف، مبنية من اللبن غير المشوي ، يفصل بينها طرقات . ويوجد رسوم نعامات على بعض الجدران . وعثر على دمى من الطين المشوي تمثل أشكالاً بشرية وحيوانية . وكان اقتصاد بقراص يقوم على تربية الماعز ، والزراعة البعلية والزراعة المروية.

اكتشاف الفخار

ثقافة تل حلف وثقافة العبيد- (امتدت خلال الألفين السادس والخامس ق م.) ومن مواقعها في بلادنا تل حلف، وتل العبر، وتل كشكشوك ، وتل مشنقة . واستمرت خلال الألفين السادس والخامس ق م. انتشرت حياة القرية .في كل مكان ، وانتشرت الزراعة البعلية والمروية ، وتم تدجين الماعز والأغنام والبقر والخيول . كما انتشر استعمال الفخار في الحياة اليومية والاقتصادية . أنتجت حضارة تل حلف فخاراً ملوناً جميلاً مزيناً

بنقوش هندسية، وتطورت صناعة النسيج والحصر . تحمل الدمى نفس المواضيع الرمزية للإلهة الأم الثور.لقد تطورت الصلات التجارية بين كثير من المواقع . وتعرف حضارة الفخار بالحضارة الكالكوليتية أي الحضارة الحجرية النحاسية لاستعمال النحاس التدريجي فيها.

حضارة العبيد: تظهر في الألف الرابع تتميز بظهور المركز الإداري الديني وهو بناء صرحي مختلف عن البيوت السكنية . مما يشير إلى وجود عبادة منظمة . ووجدت مراسم وطقوس جنائزية تشير إلى الاعتقاد بوجود حياة ثانية بعد الموت. وانتشر استعمال المحراث في الزراعة وتوسعت المساحات المروية. وظهر تنظيم جديد للاقتصاد تميز بالمبادلات تجارية الواسعة. وتطورت صناعة الفخار بظهور دولاب الخزاف البطيء ، واستمرت هذه الصناعة تؤمن الأدوات الضرورية للحياة اليومية والاقتصادية ، وتشكل هذه التطورات بمجملها خطوة مهمة نحو التمدن.

وفي موقع تل المشنقة في الجزيرة السورية اهتمت البعثة الدانمركية بشكل خاص بدراسة البقايا الإنسانية للتوصل إلى معلومات عن الحالة الصحية السائدة في تلك الفترة ، ومن دراسة الأسنان تبين وجود تسحجات كثيرة في الميناء ربما تكون قد نشأت عن تأثير الرمل الموجود في الأطعمة المؤلفة من حبوب مجروشة ، ومن دراسة ١٣هيكلاً عظيماً، تبين أن ٧ منها تعود إلى أفراد تتراوح أعمارهم بين٢٠و٣٠سنة ،و٣ هياكل لأطفال دون ١٥سنة، واثنان لأفراد بين ٤٠و ٦٠ سنة.

وتدل هذه الإحصائيات على تدني العمر الوسطي للسكان. وهذا أمر يمكن فهمه إذا ربطناه بظروف المعيشة القاسية السائدة في تلك الأيام .

حضارة المدن

تظهر في نهاية الألف الرابع ٣٢٠٠ ق م ، وقد كشفت عنها حفريات حبوبه كبيرة، جبل عارودة، تل قناص ، تل براك ، تل فري ، تل منباقة ، تل حلاوة ، تل حديدي ، تل السلنكحية.

حبوبة كبيرة.

تمثل فترة ظهور المدن التي تعيش على اقتصاد متنوع. وتتمركز فيها السلطة السياسية ، وينفصل فيها القصر عن المعبد.

وهي مدينة على الضفة اليمنى للفرات في الموقع الذي يتزوي فيه إلى الشرق. طولها ٧٠٠ م وعرضها ١٥٠ م وتغطي ١٨ هكتاراً . بنيت المدينة على أرض عذراء حوالي ٣٤٠٠ ق م . لها سور من اللبن غير المشوي له أبراج وتخترقه بوابتان . تنتظم البيوت في حبوبة حول طريقين يخترقانها من الشمال إلى الجنوب محاذيين لمجرى النهر. معظم البيوت يتألف من قاعة طولانية ، ولكن بعض البيوت له بهو متوسط يحيط به بهوان جانبيان ، وبعض البيوت الأخرى تنفتح على فناء تحيط به غرف أخرى . وفي الطرف الجنوبي للمدينة – تل قناص – يوجد أكروبول مؤلف من بناءين إداريين – دينيين وبعض الأبنية الملحقة بهما.

وفي كثير من البيوت وجد مع الأثاث وثائق تشير إلى نشاط اقتصادي كبير. منها أختام اسطوانية وقطع صغيرة من الفخار تمثل رموزاً لبضائع معينة ، توضع في كرات من الطين وتختم لتوثيق هذه البضائع . كما وجدت أوعية فخارية مختلفة منها الأوعية الناقوسية، وهي نوع من الفخار التجاري الرديء ، ربما كان يستعمل في الأغراض الاقتصادية . وكانت هذه المدينة مركزاً تجارياً مهماً يصل الساحل السوري بجنوب بلاد الرافدين عن طريق النهر. وهي معاصرة لحضارة أوروك حيث بدأت الكتابة والتاريخ. وبعد حبوبة كبيرة دخلت الإنسانية في مرحلة جديدة تتمثل في حضارة المدن ، التي ما نزال نعيش فيها. وبالنسبة إلى الحضارة فإننا لا نغالي إذا قلنا في البدء كان الفرات...

المراجع

المزارعون الأوائل — سلطان محيسن

الصيادون الأوائل — سلطان محيسن

الفرات الأوسط وأولى المجتمعات الزراعية الرعوية — جاك كوفان

نتائج التنقيبات في تل حالولة — ميكل موليست

مملكة أوغاريت والقوى العظمى

بقلم الدكتور ميخائيل استور *

تعريب: الدكتور شوقي شعث *

مقدمة

يعود استيطان موقع أوغاريت إلى العصر الحجري الحديث، وأصبح في العصر البرونزي الباكر يضم مدينة كبيرة، نمت لتصبح مركزاً تجارياً رئيساً في شمال سورية وذلك في العصر البرونزي الحديث ويعود ذلك إلى موقعها الجغرافي الهام الواقع عند عقد المواصلات الرئيسة بالمنطقة والذي يربط سورية الوسطى والشمالية بالبحر المتوسط عبر ممر بداما في سلسلة جبال اللاذقية . لأوغاريت ميناء يبعد عنها أقل من ميل واحد (مينة البيضا) (١) كما كانت تبسط سيطرتها على عدد من المراسي في الشمال والجنوب مما جعلها موقعاً متوسطاً يربط بين جزر وسواحل المتوسط ، هذا وتقع أوغاريت على الطريق الساحلي الهام الذي يربط مصر ببلاد الأناضول عبر ممرات جبال الأمانوس وطوروس.

والجدير بالذكر أيضاً أن أوغاريت محاطة بسهل خصب كان ومازال ينتج القمح والشعير أما سفوح ومنحدرات جبال اللاذقية فقد كانت مغطاة بأشجار الكرمة والزيتون بينما كانت المناطق المرتفعة توفر الأخشاب اللازمة للبناء وصناعة السفن ووجد السكان في البحر مصدراً للأصداف للاستفادة منها في صناعة الأصباغ الأرجوانية الهامة. وبالرغم من أن أوغاريت لم تصبح قوة رئيسة ، إلا أنها لم تكن مجرد دولة - مدينة فينيقية كنعانية الطابع - فمنطقتها كانت واسعة بالمقدار الذي يمكن اعتبارها دولة متوسطة الحجم وذلك حتى قبل أن يتوسع شوبيلوليوما ، فعلاوة عن العاصمة كانت هناك قرى واسعة تتبعها ، وقد تعرفنا إلى ذلك من خلال اكتشاف عدد من التلال الكبيرة ، ومن خلال النصوص الإدارية الأوغاريتية التي تذكر مدناً مزدهرة ذات تجارة وصناعة متطورة .

---

* عنوان المقال الأصلي باللغة الانجليزية :

Ugarit and the great powers , by Michael C. Astour , published in Retrospect 50 years of Ugarit and Ugaritic , edited by : Gordon youna

جامعة البنوي الجنوبية / الولايات المتحدة

* المتحف الوطني استاذ محاضر في جامعة حلب / حلب / سورية

لقد كانت المنطقة الأساسية لأوغاريت محصورة بين البحر غرباً ،وجبال بلوغيلوس (المعروفة بجبال اللاذقية اليوم) شرقاً ، ورأس البسيط شمالاً ورأس باير جنوباً . كانت تضم سهل جبلة في الجنوب وبلغت مساحتها نحو ٢٢٠ كم٢ . وبناء على ذلك كان التاريخ السياسي لأوغاريت غنياً بما جعلها مؤهلة لأن تلعب دور الدولة القوية من المرتبة الأولى على المسرح السوري، فالنصوص الأوغاريتية إلتي تم الكشف عنها الآن تعود إلى عهد أقدم من القرن الرابع عشر ق.م (٢)، ولكن بإمكاننا أن نتصور الخطوط العامة للحوادث والظروف الأبكر من هذا التاريخ عبر المصادر الأخرى التي وردت عن أوغاريت ومن بعض الإشارات غير المباشرة في بعض الوثائق الأثرية والكتابية المحلية .

أوغاريت في عصر محفوظات القصر الملكي في إبلا (الألف الثالث)

إن أقدم الإشارات عن أوغاريت وجدت في محفوظات إبلا التي اكتشفت مؤخراً في تل مرديخ وقد اتفقت وجهتا نظر الأستاذ باولو ماتييه الأثري والأستاذ باتيناتو المختص بالكتابات على أن تاريخ رقم هذه المحفوظات يعود إلى نهاية الألف الثالثة ق .م على الرغم من أن هذا التاريخ كان موضع جدل بينهما في البداية. ومبدئياً لا بد أن ننتظر نشر مزيد من التقارير والدراسات والنصوص التي تظهر تباعاً حتى نستطيع أن نكوّن صورة ثابتة عن دور إبلا السياسي في العصر البرونزي القديم ويبقى الانطباع السائد الآن ناتجاً عما تحدث عنه مكتشفو إبلا بأنها كانت أقدم قوة سياسية تعاصر سرجون الأكادي في آسيا الغربية فقد وصفها سرجون بأنها تمتد بحدودها حتى غابات الأرز وجبال الفضة(٣)، ولكنه أصبح واضحاً الآن فقط بأن ما قصده بجبال الفضة هي جبال طوروس وليست غابات الأرز في جبال لبنان (٤) ومن هنا نستطيع أن نستنتج السبب الحقيقي الكامن وراء غزو جوديا لمدينة أورشو في أقصى شمال سوريا في جبال إيبلا (٥) .ومن هنا يطرح السؤال نفسه وهو هل كانت إبلا الألف الثالثةق.م عاصمة امبراطورية موجودة؟(٦) أم أنها كانت مجرد مركز لمنطقة تقع تحت سيطرتها (٧) ، يبدو أن المشكلة هي مشكلة مصطلحات فقط - ، فليس من المعقول لمملكة سورية، تعقد المعاهدات مع البلدان البعيدة مثل آشور وحمازى وتطالب بالسيطرة على كانيش (٨) (ولها الحق في ذلك) وتخوض حرباً مع مملكة ماري من أجل السيطرة على وادي الفرات (٩) ، أن تكون مجرد تابع فلا بد أن تكون لها أهمية سياسية ذاتية .

وقد ورد ذكر لأوغاريت في كتاب صدر حديثاً تحت عنوان (الأطلس الجغرافي للشرق الأدنى) (١٠) ثبت الآن خطأ قراءة النص للأستاذ فالقراءة الجديدة تفيد أن المعاهدة عقدت مع ابرسال وليس مع آشور، وحتى الآن لا يعرف مكان ابرسال هذا على الرغم من أهميته في معرفة أصول الأسماء التاريخية ودراسة مظاهرها (١١) إلا أنه لا يقدم لنا معلومات عن العلاقات السياسية والاقتصادية بين أوغاريت وإبلا، وبغض النظر عما ورد في هذا الكتاب يمكننا أن نقتبس بعض ما قاله الأستاذ باتيناتو (١٢) بأن سورية كانت في عصر محفوظات ايبلا مكونة- إضافة إلى إبلا نفسها - من عدد من الدويلات المتوسطة الحجم من بينها أورشو وحماة وأوغاريت ودويلات أخرى صغيرة كنا قد تعرفنا على نموذج منها في السابق وهذا النموذج سيصبح مألوفاً في تعاقب التاريخ الأوغاريتي.

وفي الوقت نفسه يمكننا أن نستنتج بأن النحاس الذي كانت تستورده إبلا من قبرص والذي ورد ذكره في بعض رقم تل مرديخ (١٣) ، كان يصل عن طريق أوغاريت لأن ميناءها هو أقرب الموانئ السورية إلى كل من قبرص وتل مرديخ .

أوغاريت ومصر:

لقد ظلت إيبلا والمدن السورية الأخرى محافظة على علاقاتها مع الامبراطورية السومرية زمن سلالة أور الثالثة ولكنها كما يبدو فقدت دورها السياسي في سوريا فيما بعد، حيث نجد شو- سن وهو أحد ملوك سلالة أور الثالثة- وربما آخرهم يدّعي سيادته على : إبلا وماري وتوتول (على البليخ) وعلى مكان يبدأ بأسمه بالمقطع(ma) يأتي بعده موقع أورغش (في شمال بلاد ما بين النهرين) ، وموغوش (في منطقة الألاخ في وادي العاصي الأدنى)(١٤) وازن و جبيل(بيلوس) وابارنوم (في أقص شمال بلاد ما بين النهرين) وهي الجبال التي تقطع منها أخشاب الارز والتي تعرف الآن بجبال الأمانوس) (١٥) ، ولم يرد ذكر أورشو التي كانت ترسل سفراءها بانتظام إلى أور وبالتالي لم تذكر أوغاريت أيضاً في مدونات أور الثالثة مما يدعو إلى الاستغراب خاصة إن جبيل ذكرت مع أنها الأبعد مسافة.

وبالرغم من أننا لم نجد ذكراً لأسماء المدن المحلية لسوريا الشمالية في نصوص اللعنات المصرية إلا أنه من المعروف أن مصر حافظت على نوع من العلاقات الدبلوماسية معها، ففي الفترة التي تلت سقوط امبراطورية أور الثالثة اهتم ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية بشمال سورية (١٦).

فالعثور على تمثال لأبي الهول مقدم من الأميرة "ايتا" ابنة امنحـلت (١٩٢٩-١٨٩٥ ق.م) إلى معبد نينغال في قطنة (المشرفة اليوم (١٧))، وعلى تمثال عليه كتابة للفرعون امنمحات الثالث (١٨٤٢- ١٧٩٧ق.م) والذي عثر عليه في بلدة النيرب بالقرب من حلـب (١٨) واستقبال معبد الرب داغان في أوغاريت عدداً من النذور المصرية مثل تمثال لأبي الهـول خاص بأمنمحات الثالث ودمية الوزير سنوسرت عَنخ مع والدته وأخته، وأيضـاً تمثـال نصفي لملكة غير معروفة من السلالة الثانية عشرة (١٩) ، كل هذه الاكتشافات المذكـورة آنفاً تؤكد على وجود تلك العلاقات المصرية بشمال سورية ، ويرى الأستاذ وليـام وورد بأن هذه الآثار كانت رموزاً للصداقة المصرية للأرباب المحليين مع الأخذ بعين الاعتبار أنها لا تشير بالضرورة إلى احتلال عسكري ولا إلى سيادة سياسية على الشؤون المحلية بالرغم من أن هذه المدن التي عثر فيها على هذه الهدايا الجميلة لم تكن قليلة الأهمية: فأوغـاريت مثلاً كانت مركزاً تجارياً كبيراً مثلما كانت قطنة وحلب وهذا ما جعل لهذه المدن أهميـة عند المصريين(٢٠) . لذلك فإن وجود الهدايا الملكية المصرية وهدايا كبار الضباط والرسميين في أوغاريت تدل على أنها كانت على علاقة هامة مع مصر في زمن المملكة المتوسطة.

أوغاريت في عصر سيادة يمحاض:

تلقي محفوظات ماري ، بعد ذلك مباشرة (٢١) ، الضوء علـى صـورة الوضـع السياسي الجديد في سورية الشمالية . ثم تأتي محفوظات الالاخ (تل عطشانة اليوم الطبقـة السابعة) ، والتي هي أكثر تواضعاً من أرشيف ماري، وبعد فجوة زمنية تقدر بجيل تقريبـاً لتتحدث عن اتحاد عدد من الممالك الإقطاعية تحت زعامة حاكم قوي إلى أن العاصمـة ابتعدت هذه المرة مسافة ٦٠ كم تقريباً شمال شرق إبلا إلى حلب التي لم تذكرها نصـوص إبلا (٢٢) إلا أنها كانت مركزاً لإقامة الملوك الكبار لمملكة يمحاض (غالباً ما يكون الاسـم اسماً قبلياً عمورياً) ولا بد لنا أن نذكر شيئاً عن تركيب هذه المملكة لأنها كانت القـوة الأعظم في سورية الشمالية في ذلك العصر رغم أن تاريخها وجغرافيتها لا تدخل في هـذا الباب .

يذكر رقيم من محفوظات ماري (٢٣) أنه كانت هناك علاقة قوية بين خمـس دول رئيسة في منطقة الهلال الخصيب وهي : ماري ، بابل ، لارسا ، اشنونا ، ويمحـاض وأن كل ملك من ملوك هذه المدن الأربع الأولى كانت يتبعه خمسة عشر ملكـاً أمـا ملـك يمحاض باريم ليم فكان متبوعاً من قبل عشرين ملكاً وتمدنا رسالة أخـرى مـن مـاري

بمعلومات تاريخية مفادها أن مملكة حلب كانت قد وطدت نفسها على أن تكون القـــوة السياسية الأولى في الهلال الخصيب بتلك الفترة (٢٤) .

أما المقاطعات أو المدن التي كانت تابعة ليمحاض فنستطيع تقســيمها إلى ثلاثــة مجموعات :

المجموعة الأولى: تضم المدن الواقعة حول العاصمة والتي كانت يمحــاض تفــرض عليها سيطرة مباشرة ومنها : الالاخ ، نيخي ، ايبلا ، بيتين ، توبا ، ناشتاربي ، وايمار .

والمجموعة الثانية : وهي تلك التي تلي المجموعة الأولى من ناحية البعد عن العاصمــة مثل: خاشوم ، زروار ، أورشوم ، كركميش ، أوغاريت دولة الرابيين القبلية ، تكــون مجموع ما سيطرته عليه يمخاض من مساحة يبلغ زهاء ٤٣ ألف كم٢ .

أما الشاهد الذي يقول بأن أوغاريت كانت دولة تابعة ليمحاض فهو ذو طبيعـــة ظرفية ، ونستطيع أن نستدل على ذلك من رسالة حمورابي ملك يمحاض إلى زمرى ليـــم ملك ماري والتي تلقي الضوء على الحالة الدولية لأوغاريت تقــول الرســالة : (رجــل أوغاريت كتب اليّ ما يلي ، أرني بيت زمرى ليم ، أرغب في مشاهدته، الآن أرسل لــك خادمة) (٢٥) ويبدو أن أولبرايت اعتمد على هذه الرسالة عندما قال "إن أوغاريت كانت تتبع حلب في عصر ملكها حمورابي (٢٦) ، وعلى الرغم من أن العلاقات المباشـــرة مــع القوى الأجنبية كانت حقاً من حقوق السيادة الكاملة للمالك في الشرق الأدنى القــديم إلا أن ذلك الحق لا يشمل الممالك التابعة أو المتعاونة (٢٧) .

وهناك أيضاً شاهد آخر وهو عبارة عن رسالة إلى ملك ماري ، الذي هــو علــى الأغلب زمرى ليم ، تتحدث هذه الرسالة عن رحلته إلى أوغاريت ،(٢٨) فقـــد كـــانت ماري ويمحاض في ذلك الوقت حليفين قريبين جداً ، وزيارة دبلوماسية من قبل حــــاكم ماري تبدو بأنها تدخل في إطار التحالف السياسي آنذاك.أما الرقيم المعروف باسم رقيـــم القصدير Tin tablet فإنه يصف آوغاريت مرتين كمكان إقامة المتعاملين بالقصدير الآتـين من ماري وكمكان يتم فيه تسليم القصدير القادم من ماري(٢٩) للكفتوريين (الكريتيين) أو للمترجمين الذين كانوا بدون شك على دراية بلغة كريت في ذلك الوقت. مـــن هنـــا نستطيع أن نقول بأن الأشياء التي ذكرتها نصوص ماري بأنها أشياء كفتوريـــة لا بــد أن تكون قد وصلت ماري عن طريق أوغاريت (٣٠) وبما أن طريقين من الطرق البرية الثـلاث الموصلة إلى أوغاريت تمر عبر يمحاض فإنها في افضل الأحوال ليست سوى مينـــاء لمدينــة تجارية هامة تبحث عن علاقات طيبة مع الدول القوية لتأمين مصالحها . إذاً واســـتناداً إلى

مفهوم المعاهدات السياسية في ذلك العصر فإن يمحاض يمكن أن تكـون راعيـة لمصـالح أوغاريت .

إن رقم الالاخ في الطبقة السابعة كانت قد ذكرت ولمرة واحدة فقط أوغـاريت كوطن بورروقا(٣١)،والذي رقيّ مـن قبـل كتشـن K.A.Kitchen إلى مرتبـة ملـك أوغاريت(٣٢) ، ولكنه لم يكن سوى مشتر للصوف في ألالاخ (٣٣) .

سورية الشمالية بين حتي وميتاني ومصر :

في الربع الثاني من القرن السادس عشر بدأ تحول سياسـي عميـق في سـورية الشمالية برزت نتيجة له دولتان جديدتان وقويتان على حدودها هما:المملكة الحثية شمالاً ، ومملكة ميتاني / حورى شرقاً . فقد بدأ حاتوشيلي الأول سلسلة حملاته ضـد يمحـاض والدول التابعة لها ، كما أن الحوريين القاطنين شمال بلاد ما بين النهرين دخلـوا الحـرب مباشرة وعلى عدة جبهات ضد الحثيين وذلك دفاعاً عن أنفسهم أولاً ولكونهـم حلفـاء وحماة ليمحاض وبسبب مواجهتها للقوى الخارجية الكبيرة لم تستطيع يمحاض أن تصـد لمدة طويلة كمملكة قوية دافعت عن الممالك التابعة لها ثم عن وجودها بشـجاعة كبـيرة فأضعفتها تلك الحروب الطويلة المدمرة لدرجة كبيرة فلم يكن أمامها في النهايـة سـوى الخضوع إما لأعدائها الحثيين أو لحلفائها الحوريين ، ووقع ذلك بـالفعل رغـم محاولـة استعادة استقلالها من قبل فرع صغير من سلالتها وذلك بعد موت مورشـيلي الأول . وفي نفس الوقت ظهرت على مسرح سورية الشمالية قوة ثالثة ، فقد قام الملك المصري تحوتمـوس الأول نحو ١٥٢٠ ق.م بحملة ضد البلاد التي سميت ميتاني فوصل إلى الفرات ثم عاد بطريـق نيادني) ، المنطقة الجنوبية الغربية من يمحاض ، ولكن في النهاية كان على أدريمي المطـالب بعرش حلب أن يتحول إلى تابع لميتاني حيث نصب كملك مسلوب السيادة ذلك حيـث سمح له أن يأخذ العاصمة التاريخية حلب ولكن كان عليـه أن ينتقـل إلى ألالاخ الأقـل أهميّـة، ومنذ ذلك الوقت لم يعد الاسم الثاني اليمحاض مستعملاً ، وكان عليه أن يقتنع هو وخلفاؤه أن يلقبوا أنفسهم بلقب " ملك ألالاخ " أو " ملك موكش " .

فحل الآن مايسمى، كونفدرالية موكش - نوخاشي ، محل مملكة حلب الكبـيرة ولم تعد منطقتها تشمل الدول التابعة المحيطة ما عدا " خاشو " كما أن التأثـير الحـوري الذي كنا نلاحظه بشكل واضح في ظل ملوك يمحاض قوياً جداً الآن بسـبب السـيادة السياسية لميتاني لأن إخضـاع آلالاخ والـدول المرتبطـة بهـا في اتحـاد كونفـدرالي نحو ١٥٠٠ق.م كان قد مهد الطريق لميتاني للوصول إلى وسط وجنوب سـورية حيـث

أصبحت تونيب وقطنة وقدشي ومناطق عمقي ودمشق وباشان والجليل ومعظم أنحاء فلسطين إما ممالك تابعة لميتاني أو مناطق تدار من قبل حكام أو حاميات ميتانية. وعند عودة المصريين في عهد تحوتمس الثالث إلى فلسطين بعد عشرين عاماً سموا المنطقة " حورو "أي البلاد التي يحكمها الحوريون، بل وحتى في ظل السيادة المصرية بعد مئة عام تلت ظلت الأسماء السائدة بين حكام فلسطين وسورية الوسطى والجنوبية هي الأسماء الحورية والنهدو– آرية ، لأن الحكم المفضل ، بالنسبة لأغلبية الأمراء المحليين (٣٤) وذلك في فترة الصراع الثلاثي على سورية بين خاتي وميتاني ومصر، كان الحكم الميتاني .

أوغاريت وتحالفها الأول مع حتي :

نجد في رسالة وجهها الملك الحثي شوبيلوليما إلى نقمادو ملك أوغاريت نحو عام ١٣٦٦ ق.م/ في بداية الفترة التي تعرف بفترة الحرب السورية الأولى (٣٥) ، وفيها يخاطبه مذكراً بالماضي : " إن أجدادك كانوا أصدقاءوليسوا أعداء لحتي فكن أنت الآن يا نقمادو في نفس الطريق عدو أعدائي وصديق أصدقائي".(٣٦)

ويتساءل الأستاذ نوغيرول الذي نشر الوثائق الأوغاريتية الدبلوماسية قائلاً : في أي وقت حدث هذا ، هل يعود إلى فترة نشاطات الأميرَ بتخانا (أو بتحانا) في سورية؟ (٣٧) لا بد أن نفكر في الوقت (نعرف الوقت) الذي تراجع فيه تحتموس الرابع من شمال سورية حين أظهر حاتوشيلي قوته هناك ، وبإمكاننا أن نعتبر انتفاضة أوغاريت ضد الحامية المصرية فيها ، والتي سحقها أمينوفس الثاني مباشرة ، يمكننا اعتبارها داخلة في هذا السياق.(٣٨)

ولكن الأحداث التي ذكرها نوغيرول لم تحدث حقيقة، فالأمير بتحانا الذي كان نشيطاً في سورية لم يكن الملك (٣٩) بل قائداً من قادرة شوبيلوليوما الذي أخذ على عاتقه إخضاع المدن الواقعة بين ألالاخ وتونب(٤٠) أثناء الغزوة السورية الثانية (نحو ١٣٦٨ق.م)* ، وتحوتمس الرابع لم يتراجع عن سورية الشمالية بل كسب أرضاً جديدة هناك ، أما الملك المفترض حاتوشيلي الثاني فهو غير موجود تاريخياً (٤١)،وأيضاً لم تكن هناك حامية مصرية في أوغاريت في زمن أمنحوتب الثاني بالإضافة إلى أن حكمه لا يتطابق مع تقدم الحثيين في سورية (٤٣) .

* هكذا وردت في النص (المغرب) .

إن الوجود العسكري الحثي في سورية ، وهو على فترتين تاريخيتين يمكن أن يقيّم من خلال الفقرة التالية : إن حاتوشلي الأول ومورشلي الأول بحروهما السوزية حوالي عام ١٥٧٠ وعام ١٥٣٠ ق.م ، وحملة توضاليا (تود خاليا) مؤسس الدولة الحثية الجديدة ، الذي ارتقى العرش حوالي عام ١٤١٥ق.م واستمد شرعيته من مقدمة معاهدة تلمي شاروما،وهزيمة الميتانين وتدمير حلب (٤٣). إذ كان كل واحد من الملوك الثلاثة مسؤولاً مسؤولية أما كلية أو جزئية عن تدمير الالاخ ، فقد وضع حاتوشيلي نهاية لمدينة الطبقة السابعة،(٤٤) ووضع مورشيلي نهاية لمدينة الطبقة السادسة وقد عزا توضاليا لنفسة تدمير القصر الملكي في الطبقة الرابعة . (٤٥) وبما كانت ألالاخ قريبة من حدود أوغاريت الشمالية فان ظهور جيش حثي فيها يكون تهديداً للمدينة البحرية الغنية مما يجعلها تبحث عن خام قوي . ويبدو أن أوغاريت كانت خاضعة للنفوذ المصرى زمن حملة توضاليا وعليه فان الحروب السورية في القرن السادس عشر جعلت منها حليفة للحثيين.

أوغاريت في المنطقة المحايدة من سورية:

بعد انسحاب الحثيين من سورية زمن ملكهم حانتيلي وتركهم ساحة الصراع، بدأ قرن من الصراع المصري – الميتاني للسيطرة على المنطَقة: فنحو ١٥٢٠ ق. م وصل جيش مصرى الفرات، ثم أصبحت معظم سورية تحت السيادة الميتانية وذلك نحو ١٥٠٠ ق.م . ودشن تحتموس الثالث عهده نحو ١٤٨٢ ق.م حتى أصبح يسيطر على فلسطين والساحل البحري وحتى أولازا وصومور شمالاً ، وانطلاقاً من قواعده هناك هاجم سورية الداخلية عبر وادي العاصي ولكن أكبر انتصار له كان عام ١٤٧٢ ق.م وفيه هزم قدشي، قطنة، ستزار ، منطقة حلب، وهذه هي المرة الثانية في التاريخ التي يصل فيها المصريون إلى الفرات ، وفي عام ١٤٧١ احتل تحوتمس مدنا في منطقة نوخاشي ولكن المصريين فقدوا شمال سورية في العام التالي وفشلت محاولات تحوتمس لاستعادتها حيث وصلت الجيوش الميتانية جنوباً حتى مدينة عزيعانا التي يبدو أنها كانت تقع في موضع العشارنة على نهر العاصي جنوب أفاميا (٤٦) ، ونجد الكتبه في حوليات عام ١٤٦٧ ق.م (حوليات عام ١٤٦٩و١٤٦٨ق.م مفقودتان) يدونون أحداث المعارك الجديدة في نوخاشي وأخبار أخذ الجزية من ألالاخ . ويغلب الظن أن فترة السيادة المصرية في شمال سورية كانت قصيرة كما حدث في المرة الأولى.وقد سجلت حوليات تحوتمس الثالث حملة في عام ١٤٦٣ ق. م واضطر المصريون ثانية إلى محاربة الميتانيين حول تونب وقدشي وبعد

ذلك بفترة قصيرة استعاد الميتانيون تونب (٤٧) . ومن الغرابة بمكان عدم ذكر أوغاريت في حوليات تحوتمس الثالث ولا بين الدول الأجنبية التي أرسلت هدايا دبلوماسية ، لذلك لم تذكر في نقوش الفرعون الأخرى أو حتى في نصوص معاونيه ، وأيضاً لم تظهر في قائمة ماريبنا العائدة لتحوتمس الثالث نفسه، والتي لم تعدد الأماكن الشمالية التي وصلتها جحافل المصريين فحسب بل ذكر علاوة على ذلك مواضع في أجزاء أخرى من الامبراطورية الميتانية .

وقد لا يعني شيئاً غياب ذكر مدينة أوغاريت في قائمة ماريبنا لأن الكثير من الوثائق مخربة حتى في النسخ الباقية منها (٤٨) ، فقد غابت أسماء كثيرة من القوائم العائدة لتحوتمس الثالث إلى جانب ما هو غائب ، لدرجة أن ثلاث عواصم من الدول الهامة الواقعة شمال الساحل السوري قد غابت مثل أرواد ، أو شناتو ، وسيانو، وعلاوة على ذلك فإننا نعرف أسماء مالا يقل عن مئة وست بلدان وقرى واقعة ضمن الحدود القديمة لأوغاريت أو في حدود مملكة سيانو - أو شناتو (٤٩) هذا و لم تذكر أي من حوليات تحوتمس الثالث أو قائمة ماريبنا (٥٠) .

وعندما يعبر المرء حدود أوغاريت الشمالية إلى ممتلكات ألالاخ ،وجبال بلوغيلوس (اللاذقية) في بلاد كونفدرالية موكش - نوخاشي - نيا ، فإنه يجد أسماء مدن محلية وقرى بأعداد كبيرة لدرجة أنه لا يمكن ذكرها هنا (٥١) .

ونخلص إلى أن المنطقة الواقعة إلى الشمال من صومور وإلى الجنوب من ألالاخ وإلى الغرب من جبال بارغيلوس (اللاذقية) كانت تكوّن منطقة حيادية بين مصر وميتاني أثناء معظم القرن الخامس عشر، إذا تذكرنا أنه لاوجود لتأثير حوري يمكن مشاهدته في أوغاريت يمكن مقارنته مع التأثير الحوري القوي في ألالاخ في السوية الرابعة، وتلك الحالة عرفتها الآنسة دروور (٥٢) . نخلص إلى القول بأن كل المنطقة الواقعة إلى شمال صومور وإلى الجنوب من ألالاخ كانت تكون منطقة حيادية بين مصر وميتاني ولا نعلم كيف حدث هذا ، ولكننا نعلم أن حياد هذه المنطقة كان محترماً من قبل القوتين الكبيرتين في ذلك العصر، ميتاني ومصر (٥٣) ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا لم تذكر قائمة ماريبنا أسماء المدن الواقعة في المنطقة الحيادية ، إذ كانت التقاليد المصرية تتجاهل المدن التي لا تندرج في شريحة المدن الخاضعة أو العدوّة ؟

هل ذكر أمنحوتب الثاني أوغاريت ؟

هناك زعم بأن أوغاريت كانت محتلة من قبل حامية مصرية ، هذا ماذكر في نصب الكرنك الذي يعود إلى أمنحوتب الثاني (١٤٥٢- ١٤٢٦-م) خليفة تحوتموس الثالث . ذلك لأن افتراضاً يقول بأن آ – كو–تا–تا A- Ku- ta- ta (٥٤) ، الواردة في النص هي تحريف عن آ – كو – ري – تو A- Ku – ri – tu التي يعبّر المصريون بها عادة عن أوغاريت (٥٥) ، وقد عارض هذا التفسير عالمان فقط هما ييفين (٥٦) ودروور (٥٧).

ونحن بدورنا لا نتردد في تأييد الأقلية في رفضها الحاسم لفكرة عدم وجود أي ذكر لأوغاريت في السطر الثاني عشر من نصب الكرنك (٥٨).

وفي السادس والعشرين من أول شهر في الصيف (٥٩) في السنة السابعة من حكمه (١٤٤٧ ق.م) ، وأثناء قيامه بحملته الأولى على سورية ، عبر أمنحوتب نهر العاصي ليس بعيداً عن مقاطعة قطنة.

ثم يسكت النصب عن الأيام الأربعة عشر التالية وتذكر التقارير التي تليها أن الملك وجنوده جاؤوا في العاشر من شهر الصيف الثاني إلى مدينة – نيا – وذلك في طريق عودة جلالته إلى الجنوب نحو مصر، ونيا (وتعرف أيضاً نيخي و ني) كانت تقوم مكان قلعة المضيق (أفاميا) (٦٠) ولقد بني التجول الثاني الذي قام به أمنحوتب الثاني أثناء الأيام الأربعة عشر المنوه عنه أعلاه على افتراض يستند على القائمة الجغرافية القصيرة العائدة له (٦١) . وهنا لا بد من الإشارة إلى أن أمنحوتب الثاني لابد أن يدور حول جبل الزواية وعند ما يصل إلى نيا وهي الجزء الأساسي من الرحلة ، يسمع جلالته أن بعض الآسيويين الذين كانوا في مدينة آ- كو – تا- تا قد حاكوا مؤامرة لطرد حامية من المدينة وطرد أميرها الذي كان مخلصاً لسيده، أي موالياً للمصريين ، فجاء أمنحوتب الثاني إلى المدينة وهزم العصاة ووطد الأمن وعاد منتصراً من هناك وبذلك أصبحت جميع تلك البلاد خاضعة له .

وبعد ذلك وفي العشرين من شهر الصيف الثاني وجد نفسه في مكان يدعى طاراخا Ta- ra - ha الواقع على الطريق المؤدية من نيا إلى قادش وذلك في طريق عودته إلى مصر عن طريق البقاع وفلسطين .

يزودنا النصب بتواريخ محددة خلال الأيام العشرة ، من اليوم العاشر وحتى اليوم العشرين من شهر الصيف الثاني ، وهي المدة التي استمر فيها أمنحوتب وجيشه من نيا سر إلى أكوتات حيث استغرقت منه يوماً على أقل تقدير محاربة العصاة ثم العودة إلى نيا ، ومن هناك ساريوما اضافياً وهكذا فالمشكلة ليست في كون أكو تاتتا تحريفاً لأكوريتا

(أوغاريت ؟) وإنما في امكانية القيام بهذه الرحلة وهي الذهاب من قلعة المضيق إلى رأس شمرا أوغاريت ثم العودة إلى قلعة المضيق ثانية وذلك في تسعة أيّام .

ومن بين الباحثين الذين تقبلوا الأمر الباحث أديل E.Edel . الذي علل سبب تقبله الفكرة هو أنه قدرّ المسافة بين نيا ورأس شمرا بثمانين كم بدلاً من ستين (كخط مباشر) أي بزيادة تقدر بالثلث تقريباً وبهذه الحالة فقط وصل (أمنحوتب الثاني بالوقت المحدد.(٦٢) فليست هناك بطبيعة الحال، طريق مباشرة يمكن اجتيازها بين نيا وأوغاريت وذلك لوجود مستنقعات الغاب التي يصعب عبورها ووجود المنحدرات الشديدة لجبال اللاذقية مما يحتّم على المرء أن يقوم بدورة طويلة ماراً بجسر الشغور ومن ثم ممر بداما، يبلغ طول هذا الطريق في الوقت الحاضر ١٣٠ كم ، وربما كان أطول في العصر القديم أو أكثر التواءً ، (٦٣) ، فإذا افترضنا أن معدل سير الجيش عبر طريق برّي وعر هو عشرون كم يومياً فإنه ليس ممكناً أن يقطع مسافة ٢٦٠ كم معظمها تمر عبر الجبال في ثمانية أيام، من هنا نستنتج أن أوغاريت خارج نطاق المسافة التي سارها أمنحوتب الثاني من نيا وبذلك يكون المكان الحقيقي لمدينة آ- كو - تا- تي غير مؤكد بسبب الغموض الذي اكتنف النسخة المصرية .

أوغاريت تحت الحكم المصري

لقد حدث تبدل مفاجئ في العلاقات بين مصر وميتاني وذلك إبّان حكم تحوتمس الرابع _ ١٤٢٦-١٤١٧ ق .م) ومعاصره أرتاتاما ملك ميتاني ، فلقد تبدل العداء إلى صداقة ، هذا ما تذكره رسائل تل العمارنه وقد تكون أسباب ذلك التحول عائدة إلى نمو وتطور قوة الطرفين بحيث لم يعد بإمكان أحدهما حسم الصراع لصالحه، هذا من جهة ، أما من الجهة الأخرى فقد خاف الميتانيون من القوة الحثية المتناهيه لذلك حرصوا أن تكون علاقتهم جيدة مع المصريين ، على أي حال فقد أتى توضاليا إلى الحكم بعد موت تحوتمس الرابع ، وحسبما ذكره أرتاتاما حفيد توشراتا فإن تحوتمس الرابع هو الذي طلب يد ابنة أرتاتاما سبع مرات (٦٤) ، ولكن ما نعرفه حول ترتيب الأوضاع السياسية في سورية ، هو أن ميتاني هي التي قدمت تنازلات لمصر ليس في قادش وقطنة فقط ولكن في تونيب أيضاً وفي المقاطعة الواقعة إلى الشمال والتي كانت قبل ذلك بقليل تابعة لميتاني ثم أصبحت تحت السيادة المصريتة، ومقاطعة تونيب كانت في الواقع مقسمة ، فالقسم الشمالي كان من ممتلكات اليم - اليما Elim - ilimma ملك ألالاخ (٦٥) مع ما تبقى من ممتلكات من

كونفدرالية موكش- نوخاشي – ني في منطقة الحماية الميتانية ، وقد يتصور المرء أن أوغاريت فقدت حيادها نتيجة للعلاقات الودية التي حصلت بين المصريين والميتانيين ، فيبدو أن ميتاني أطلقت يد مصر في الساحل السوري شمال عمورو حيث تظهر ولأول إشارة لتبعية أوغاريت إلى مصر أثناء حكم أمنحوتب الرابع ، خليفة تحوتمس الرابع (١٤١٧-١٣٧٩ق.م) فقد ذكرت أوغاريت لأول مرة في المدونات المصرية (٦٦) العائدة لفترة حكم هذا الفرعون، وكذلك " مينة البيضا" ميناؤها . وتظهر على أحد الأبنية التي تعود لعهده أو لعهد سلفه ربة أسيوية من شوكسي suksi المدنية التي تقع إلى الجنوب من أو غاريت (٦٧) ، وقد يدل هذا على اهتمام المصريين بذلك الجزء من سورية ، وهناك رسائل تعتبر في مجموعها واضحة، منها رسالة من أوغاريت غير محفوظة تماماً تتضمن كما يبدو تقريراً إلى ملكها من محافظ الميناء معخادو Mahadu حول بعثه إلى مصر ، وفيها يتحدث عن الملك السرمدي امنحوتب الثالث الذي كتب اسم عرشه بنفس الطريقة الواردة في مراسلات العمارنة (٦٨) . وهناك أيضاً مجموعة من رسائل تل العمارنة (EA , 45 - 49) والتي كانت مرسلة من أوغاريت أصلاً ، وقد أرسلت احداها من الملك اميشتمرو (٦٩) وأخرى من خليفة نفمادو (٧٠) ، أما الرسالة الثالثة فأرسلت من سيدة ، المقطع الأخير من اسمها (خيبا Hepa) وهي بالتأكيد ملكة أوغاريت (٧١) . وتتضمن تلك الرسائل إعلان مرسليها بأنهم خدم للملك المصري ، هذا وتعود أقدم هذه الرسائل (EA 45) إلى عهد أمنحوتب الثالث . أما الرسالتان EA 46.47 فتشيران إلى أن أبناء المرسلين كانوا أيضاً تابعين إلى مصر ، وهذا مايؤكد بان تبعية أوغاريت إنها تعود على الأقل إلى جيل أو جيلين قبل اميشتمرو والذي يعود حكمه إلى الفترة ما بين ١٣٩٠-١٣٧٠(٧٢) وبكلمات أخرى فإن خضوع أوغاريت إلى مصر كان في عهد تحوتمس الرابع .

إن الظروف التي أصبحت فيها أوغاريت تحت سيطرة مصر غير معروفة ولكنها كما يبدو كانت سلمية ،فأوغاريت تربح الكثير في علاقاتها مع مصر من الناحية التجارية، ومن ناحية أخرى فان السياسة الخارجية المصرية تعتبر الوصول إلى أوغاريت نجاحاً كبيراً لها ،ففي ذلك الوقت سيطرت أوغاريت على جارتها الجنوبية المملكة المتحدة سيانو واوشناتو (٣٧) وقد اعترف الملوك المصريون بتلك العلاقة .

إن موقع أوغاريت غير معروف بشكل واضح في إطار النظام الإداري المصري في سورية إذ يظهر أن الولايات الآسيوية التي كانت تابعة لمصر كانت مقسمة إلى ثلاث مقاطعات يحكم كل منها مفوض مصري (رابيسو) وهي : كنعان وعاصمتها غزة ، أوبي

وعاصمتها كوميدي، وعمورو وعاصمتها صومور (٧٤) . فهل كانت أوغاريت واتباعـها تابعة للمفوض عموري أم أنها كانت منطقة منفصلة عن الأمبراطورية وليس فيها حـاكم مصرى مقيم .

يبدو أن ملوك أوغاريت كانت لهم حظوة لدى الفراعنة فنجـد أن نقمـادو لا يرسل الهدايا فحسب بل يطلب من الفرعون أن يرسل إليه شابين نوبيين ليخدما في قصـره كما يسأله ارسال طبيب (EA 49) ، وفي إناء من الالباتر مصري الصنع وجد في القصـر الملكي بأوغاريت ، عثر على هدايا قدمت إلى ملك أوغاريت نقمادو وذلك بمناسبة زفافـه إلى سيدة مصرية من سيدات المجتمع الراقي والتي لم تكن أميرة لأنه، حتى ذلك الوقت ، لم تكسر القاعدة التي كانت تقضي بأن لا تتزوج الأميرات المصريات الأجـانب ، ويمكـن الحكم بأنها وصيفة (٧٥) من سيدات المجتمع الراقي المصري وليست أميرة من خلال غطـاء الرأس الذي تلبسه.

اميشتمرو والغارة الحثية الأولى

إن رسالة اميشتمرو إلى الفرعون (EA 45) هامة لسبب آخر فـهي إلى جـانب كونها تشير إلى اعتماد أوغاريت على مصر ، وعلى الرغم من أنها تالفة إلى درجة كبـيرة، إلا أنه من الممكن أن نستخلص منها أن ملك بلاد كذا (ناقصة) أرسـل سـفراء ه إلى أميشتمرو مرتين يلومه فيها على وقوفه إلى جانب مصر ويهدده بالانتقام إذا لم يخضع لـه. ونستنتج من ذلك أن ملك أوغاريت كان مخلصاً لفرعون مصر لذلك كان يخشى أن يقـوم الملك صاحب التهديد بالعدوان على أوغاريت ومن ثم احتلالها.

لقد أكمل كنودتزون Knudtzon منذ فترة طويلة عبارة لوغال كـور(أورو – أورخا – أت – تي)في السطر رقم ٢٢ ، كما رمّم عبارة (لوغال كـور/ أوروخـا – أت– تي) في السطر رقم ٣٠ (٧٦) ، ولابد من القبول بأن ماذهب إليه صحيح رغـم أن الاستاذ ليفراني يرى أن هذا بأنه إشارة إلى الأعمال العدائية التي قام بها عبـدي عشـيرتا ملك عمورو هذه الأعمال التي ذكرت في المعاهدة بين نقمادو وعزيرو (٧٧) ، وحيـث أن عشيرتا لم يصبح ملكاً (٧٨) ، فلابد أن يكون المكان الذي وصف فيه بالملك هـو هـذه الرسالة المرسلة إلى سيده المصري. وعلى عكس ذلك فإننا نجد أن التفسيرات الحثية تمكننـا من الربط بين رسالة أميشتمرو وبين الغارة الحثية على ممتلكات توشراتا ملـك ميتـاني ،

حيث هزم الحثيون فأرسل الميتانيون خبر انتصارهم إلى حليفهم امنحوتب الثالث محملة بالهدايا من الغنائم التي أخذوها من الحثيين (٧٩) .

وقد أشار كتشن Kitchen أن رسالة توشراتا التي أشرنا إليها (EA17) لا يمكن أن تكون قد كتبت بعد العام الرابع والثلاثين بل يمكن أن تعود إلى العام الثلاثين من حكمه (٨٠) ، إن هذه الحوادث تشير إلى أن الغزوة السورية الأولى وقعت أحداثها في الأعوام الواقعة بين ١٣٨٨و ١٣٨٥.والسؤال الآن من هو الملك الحثي الذي قاد هذه الحملة غير الناجحة ؟ هل كان شوبيلوليوما. ؟إن تاريخ ارتقاء شوبيلوليوما العرش يظهر في وثيقة أعماله كما رواها ولده (٨١٧) حيث يقول إنه أمضى عشرين عاماً من حكمه في استعادة الممتلكات الحثية في الأناضول وبعد ذلك قام بمهاجمة البلاد الحورية (ميتاني) واحتل سورية. ولما كانت الأحداث الأخيرة (الحرب السورية الأولى) قد حدثت ، كما سنرى ، عام ١٣٦٦ ق.م ، فأن شوبيلوليوما يكون قد ارتقى العرش عام١٣٨٦ ق.م (٨٢). وعليه فمن المحتمل أن يكون الملك الحثي زمن الغارة هو شوبيلوليوما، وعلى أي حال ، فإن جزءاً من الأعمال التي تعود إلى شوبيلوليوما في حياته الباكرة (٨٣) تخبرنا بمشاركته في حملة تحت قيادة والده (٨٤) وذلك عند ما كان أميراً ، وكذلك أرسله والده ليطرد جيوش السوتو من جبال ناني .

إن وجود السوتيين (وهم مجندون من رجال القبائل السورية) كأخصام للحثيين يشير إلى سورية كمسرح للحملة ، وإن ذكر جبال ناني يساعد على تحديد كونها جبالاً محلية ، فناني أو نامني من تظهر في النصوص الحثية بأنها من أصول حورية أو كنعانية وهي تأتي عادة متلازمة مع خازي كجبل مزدوج التسمية لرب العاصفة (٨٥) ، وفي قائمة الجبال التي وردت في وصف احتفالات حيشووا وخازي وناني تبدو وكأنها شيء واحدٌ (٨٦) .

نجد في مرسوم شوبيلوليوما المتعلق بحدود مملكة أوغاريت حسبما ورد في القائمة رقم٤٧ (أورو- خال - بي) وذلك في النسخة الأولى و (أورو خال - بي - خور - ساج - نانا - آ) في النسخة الأخرى . في حين تظهر بالوثائق الاوغاريتية (أورو خال بيح خور ساج حازى) وبذلك يبدو واضحاً بأن اسم ناني هو اسم آخر لـ خلزي (٨٨) الذي أصبح يحمل اسم كاسيوس في العصور الكلاسيكية ويسمى الآن جبل الأقرع في لواء الاسكندرونة (٨٩).

يمر الطريق القادم من الأناضول إلى أوغاريت وبعدها إلى فينيقية ، عابراً العاصي عند انطاكية عند الطرف الشرقي لجبل الأقرع وهي ذات الطريق حتى اليوم . وكانت حدود أوغاريت الشمالية في عهد اميشتمرو لاتبتعد إلا أميالا قليلة إلى الجنوب منه وعليه فالوجود العسكري الحثي عند أبواب هذه المملكة في الشمال يفسر قلق أميشتمروا ، فالظروف التاريخية والطبوغرافية المذكورة في أعمال شوبيلوليوما تتوافق مع الحالة التي وصفها خطاب اميشتمرو ، فكلاً من الوثيقتين تشير إلى الأخرى وتشير أيضاً إلى نفس الأحداث ، أي أنها تشير إلى الغزوة الحثية التي صدّها توشراتا، وهكذا فإن أميشتمرو أنقذ من تطفل الحثيين ليس بواسطة السيادة المصرية ولكن عن طريق التحالف المصري الميتاني ، إذ يجب أن لا يسمى هذا العمل العسكرى ، اذا صح تفسيرنا، " بغزوة شوبيلوليوما السورية الأولى" (٩٠) ، لأن شوبيلوليوما لم يشارك في موقع قيادي بل في موقع مساعد.

نقمادو وشوبيلوليوما

لقد توفي اميشتمروا في حوالي منتصف حكم أخناتون فرعون مصر ، لذلك فان سنوات حكمه الأخيرة تتوافق مع بداية الاضطرابات التي أثارها عبدي عشيرتا في عمورو(٩١) ، فتابع نقمادو ابنه وخليفته ، سياسة والده المحابية للمصريين كما نرى، ولكن بعد ذلك بقليل بدأت الأوضاع السياسية في سوريا تتغير بسرعة فتحولت أوغاريت إلى النفوذ الحثي ؟ وسنعرض هنا أهم الأحداث بصورة مقتضبة جداً (٩٢).

ففي عام ١٣٦٨ ق.م قام شوبيلوليوما بحملته السورية الثانية حيث سار نحو الجنوب منطلقاً من ميليتين Meliten ، ليس بعيداً عن شاطئ الفرات، ونصّب هناك حاكماً موالياً للحثيين في نوخاشي ، ووقّع معاهدة مع تونب وأعاد إليها مدنها الشمالية التي فقدتها ، كما وثّق علاقاته مع عبدي عشيرتا . وفي السنة الثالثة عبر توشراتا نهر الفرات وأبقى ناخوشي على الحالة التي كانت سائدة فيها ، ثم تقدّم نحو عمورو، حيث كانت قوة بحرية مصرية قد نزلت فيها واحتلت صومور، وقتل عبدي عستيرتاً من قبل أتباعه أو (أعوانه).

لقد سجّل هذا النجاح ، الذي حققته السياسة الخارجية المصرية بعد غياب امتد سنوات طويلة ، على الأنصاب ودوّن في النصوص مصوّراً تقديم الجزي من سوريا وبلاد النوبة (٩٣) ، ذلك كان في العام الثاني عشر من حكم أخناتون وهو عام ١٣٦٧ لذلك فإن الغزوة السورية الثانية تكون قد وقعت في عام ١٣٦٨ ، أما غارة شوبيلوليوما ،

المعروفة (بالحرب السورية الأولى) والتي انتزع فيها كل الممالك الموالية لمصر فقد بدأت عام ١٣٦٦(٩٤).

لقد بدأت الحرب السورية الأولى عندما بدأ شوبيلوليوما حملته على ميتاني من الشمال ، فقام ملوك موكش ، نوخاشي ، وني بالتحالف لمقاومة الملك الحثي وذلك عندما كان معسكراً إلى الشرق من نهر الفرات ودعوا نقمادو لينضم إلى تحالفهم، وبما أن مصر وميتاني كانتا متحالفتين ، ولكن لم يبق من تحالفهم هذا إلا ما كان متصلاً بالدول المتحالفة مع المصريين، وبما أن نقمادو كان قد طلب المساعدة من المصريين (٩٥) ، بسبب كل هذه العوامل فقد كان الملوك المعادون للحثيين في المنطقة الميتانية لديهم كل الأسباب كي يتوقعوا من أوغاريت التابع المصري أن تساعدهم .

إلا أن شوبيلوليوما أرسل، في نفس الوقت ، إلى نقمادو مذكرا إياه بالصداقة القديمة التي كانت بين أوغاريت والحثيين وواعداً بالمساعده ضد الملوك المعادين للحثيين وضامناً له أن كل أسير يقع في يده وكل مدينة حدودية يحتلها سوف تبقى في يده (٦٩)، أي في يد ملك أوغاريت لذلك كان قرار نقمادو بالوقوف إلى جانب الحثيين .

احتلت القوات المتحالفة ، أي قوات ممالك موكش - نوخاشي - ني منطقة أوغاريت وخربتها ونهبتها ولكنها سرعان ما حرمت من قطف ثمار نصرها على نقمادو لأن شوبيلوليوما كان قد وصل مع جيشه فعبر الفرات واحتل حلب أولاً وبعد ذلك ألالاخ عاصمة موكش ، ولكن ني وبعض مدن نوخاشي ،ستزار، قطنة وقادش تابعت المقاومة لفترة قصيرة ، وحالما دخل الملك الحثي ألالاخ حضر نقمادو وقدم له خضوعاً رسمياً (٩٧) وهكذا بدأ العصر الحثي في تاريخ أوغاريت.

مغانم ومغارم أوغاريت في ظل السيادة الحثية

فرض شوبيلوليوما جزية على ملك أوغاريت ، نقمادو (٩٨) ، مقدارها عشرون مناً حثياً وعشرون شيكلا من الذهب إضافة إلى مجموعة من الأواني الذهبية والفضية وقطع من القماش وكمية من الصوف الارجواني الأحمر والأزرق تقدّم إلى الملك والملكة وولي العهد وإلى كبار الضباط الحثيين وبما أننا لا نعلم مقدار الجزية التي كانت تدفعها أوغاريت إلى مصر في السابق لذلك فإنه لا يمكننا الحكم فيما إذا كانت الجزية أثقل أو أخف وطأة من الأولى، لقد فرض الحثيون على عمورو جزية مقدارها ٣٠٠ شيكل (٩٩)من الذهب

وذلك لأن أوغاريت اعتبرت أكثر غنى من عمورو، عموماً لا يبدو أن تلك الجزية كانت ثقيلة على اقتصاد أوغاريت (١٠٠).

وإذا كانت هناك أية زيادة في الجزية فإنها ولاشكّ بسبب التوسع والثراء على حساب موكش المهزومة وحلفائها. فهناك مرسوم يسمى" مرسوم شوبيلوليوما" اعترف به فيما بعد مورشيل الثاني ، يأتي على ذكر تفاصيل الحدود الجديدة لأوغاريت (١٠١) وعليه يمكن تلخيص المكاسب الاقليمية لمملكة أوغاريت على النحو التالي : في الشمال توسعت حدودها من بداما إلى جبل الأقرع وبذلك أضيفت منطقة تقدر مساحتها بحوالي ألف كم٢ معظمها من الغابات الهامة ، وفي الشرق توسعت أوغاريت لتضّم منطقة واسعة على طول وادي العاصي وسهل الروج ومنطقة جبل الزاوية وقسماً من سهل قنسرين مع جزء يمتد في مستنقع المتخ، وتبلغ مساحة الأجزاء الشرقية هذه حوالي ٢٢٢٥ كم٢ أغلبها مناطق زراعية مزروعة بالعنب والزيتون ، وبذلك بلغت مساحة ماكسبته أوغاريت من الأراضي حوالي ٣٢٢٥ كم٢ أي بمقدارمملكتها السابقة وفي هذه المساحة لاتدخل سيانو- أوشناتو التابعة لها (١٠٢) .

هذه هي المغانم ، أما فيما يتعلق بالمغارم التي قدمتها أوغاريت فأولها فقدان السيطرة على مملكة سيانو التي أصبحت تابعة مباشرة للملكة الحثية في كركميش وذلك في عهد مورشيل الثاني، ومن أجل هذا كتب ملك أوغاريت إلى الملك الحثي طالباً تخفيض الجزية المفروضة عليه بمقدار الثلث نظراً لنقص الموارد (١٠٣) بسبب فقدانها لمملكة سيانو التي كانت تابعة لها ويبدو أن مرد ذلك حسب رأي نوغيرول هو أن العلاقات بين أوغاريت وسيانو وصلت إلى حد من السوء أصبح معها من الصعب السيطرة عليها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر (١٠٤) ، أما الخسارة الأخرى التي خسرتها أوغاريت فهي تقلص تجارتها مع مصر ومع الممتلكات المصرية في آسيا بسبب المنازعات المصرية - الحثية ، وهذا ما جعل أوغاريت تتجه نحو الأناضول لتنمية تجارتها وبذلك أصبحت الأسواق الأناضولية مفتوحة لها ، وقد ساعد ذلك على تأسيس بنك حقيقي " بيت مركزي للمقايضة" برأس مال معقول في حاتوشي ، من قبل القوافل الاوغاريتية و الشركات التجارية لتسهيل تعاملها التجاري (١٠٥) ، ومما يؤكد ازدهار العلاقات التجارية بين أوغاريت والحثيين ما نجده في رسالة موجهة إلى أحد كبار التجار في أوغاريت من نظيره الحثي يخبره عن امكانية التجارة الرابحة في المملكة الحثية (١٠٦) ، وفي عدد التجار الزائرين إلى أوغاريت من الحثيين خاصة من مدينة أورا Ura الميناء الذي يقع غرب كيليكيا والذي يتمتع بحماية

خاصة من الملك الحثي الذي كانت مصالحه تدار من قبل رجال : عمـــال محليـــين : أو إداريين لهم مصالح مشتركة بين أوغاريت والحثيين(١٠٧).

وتحدثنا النصوص الأوغاريتية (عقود ووثائق) عن وجود رجال في أوغاريت (يشلو إليهم في بعض الأحيان باسم تمكارو) قادمين من المدن والمناطق الأناضولية التالية:كـــور- حات- تي (١٠٨)(وكو - تار- نحو - دا - أش - شي) في جنوب الأناضول الأوسط(١٠٩) و كو - با -ا - لي /با -لي التي من المحتمل أن تكون بلاد بالا pala (١١٠) وأورو - حا - با- أل - لا وهي البلاد الواقعة في الغرب الأوسط من بلاد الأنـــاضول (١١١) وأورو- أودا وهي مدينة هيد Hyde في العصور الكلاسيكية ليقونيا (١١٢) وأورو - تا - جا - رى - مـــا وهي مثل تغاراما Tagaramaفي ملتيين(١١٣) .هذا وهناك عبء إضافي تحملته أوغاريت أيضاً بسبب تحالفها أوخضوعها للحثيين وهو أنه فرض عليها أن تشلوك بجنودها وعرباتهـــا في الحروب الحثية ، ولكن هناك استثناء واحد هو الحرب الأخيرة الميؤوس منها ضـــد غــزو شعوب البحر. لقد دعيت القوات المسلحة الأوغاريتية فقط للخدمة في سوريا لإخماد ثورة تات tetteملك نوخاشي ضد مورشيل الثاني(١١٤) . ولتحارب تحت زعامة قادش في صــف الجيش الامبراطورية الحثي ضد الجيش المصري بقيادة رمسيس الثـــاني(١١٥) ، وفي المرحلـــة الأخيرة من الحرب الحثية المصرية كان عليها أن تدافع عن ممتلكات عمور الساحلية الـــتي استردتها حديثا وحافظت عليها من احتلال مصري متوقع (١١٦) ، كما كـــان عليـــها أن تدفع مبالغ طائلة في الحروب التي وقعت في الجبهات الأخرى (١١٧) .

لقد بقيت أوغاريت مخلصة لحتي حتى نهايتها المحزنة ولكن من المؤسف له أننا لم نجـــد رقيماً حثياً واحداً في رأس شمرا فمعظم الوثائق الأوغاريتية كتبـــت باللغـــات الســـومرية والأكادية والعمورية ، ويؤكد هذا عدم اهتمام الحثيين بنقل ثقافتهم وآدابهم وديانتـــهم إلى الآخرين ، أما فيما يتعلق بالأختام تحمل نقوشاً الفيروغليفية حثية والـــتي ظـــهرت مـــع المواطنين السوريين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (١١٨) ،فلم تصل إلى أوغاريت.

ظلت أوغاريت وعمورو أكبر الممالك السورية في ظل الحكم الحثي وعلى الرغم من الحساسية التي كانت بين المملكتين في سنوات الاضطراب في عهد " عبـــدي عشـــيرتا " والحرب السورية الأولى ، إلا أنه بعد عودة عزيرو من مصر وخضوعه رسمياً للدولة الحثيـــة هو ونقماد ملك أوغاريت عقد هذان الأخيران معاهد صداقة وتعاون فيما بينـــهما (١٢٣) ، ومن بنـــود تلك المعاهدة الرئيسة تعهد عزيرو بأن يدافع عن أوغاريت في حـــال تعرضها

لعدوان من طرف ثالث ، وبالمقابل يدفع نقمادو خمسة آلاف شيكل من الفضة إلى عزيرو ملك عمورو ، بعد ذلك تزوج اميشتمرو ملك أوغاريت أميرة عمورية وهي أبنة الملك بنتشينا ولكن النهاية المفجعة لهذا الزواج سببت شرخاً عميقاً في العلاقات بين أوغاريت وعمورو مما تطلب بذل جهد كبير وتدخلات ووساطات من قبل إيني تيشوب - Ini Tešub ملك كركميش وتوضاليا ملك حتي الكبير (١٢٤) وذلك حتى تعود العلاقات إلى طبيعتها.

ومن خلال تدخل الملوك الحثيين في المنازعات التي كانت تحدث بين الدويلات التابعة لها(مثل منازعات أوغاريت - سيانو / أو شناتو ، برغا نوخاشي (١٢٥) ،فإننا نجد أن الحكومة الحثية حرصت على أن تحافظ على السلم الداخلي في منطقتها بسوريا وقد كان هذا مفيداً بالنسبة لمملكة أوغاريت حيث انتعشت تجارتها مع هذا الجزء من البلاد وخاصة مع كنزا (قادش) حيث كانت تصدر كمية كبيرة من البرونز والقصدير (١٢٦).

عودة العلاقات التجارية بين أوغاريت والامبراطورية المصرية

انقطعت العلاقات التجارية التقليدية بين أوغاريت ومصر بسبب الحروب المصرية الحثية وقد حاول ملك أوغاريت أرخالبا (١٣٤- ١٣٣٥ قزم) ترميم هذه العلاقة خلال فترة حكمه القصيرة، إلا أنه فقد عرشه بسبب هذه المحاولة (١٢٧) ،ولكن كان من نتيجة معاهدة السلام التي عقدت بين رعمسيس الثاني وحاتوشيل الثالث عام ١٢٨٤ ق. م والتي استمرت حوالي تسعين عاماً، تمكنت أوغاريت من إعادة روابطها التجارية مع مصر وإعادة ممتلكاتها في فينيقيا وفلسطين ، في الواقع كانت أوغاريت تتمتع بميزة هامة ألا وهي وقوعها على الطريق الهام المتجه من الشمال إلى الجنوب أي من الأناضول إلى مصر وأن السيطرة على هذا الطريق تيسّر لها الامتياز الذي منحه الملك الحثي توضاليا إلى أميشتمرو ملك أوغاريت من أجل السيطرة على حركة قوافل الخيول (الأحصنة) من حتي إلى مصر وبالعكس (١٢٨) ، وقد ساهم في تنشيط العلاقات التجارية بين أوغاريت ومصر أيضاً أولئك التجار الأوغاريتيين الذين قاموا بعمليات تجارية واسعة في حتي حيث شاركوا في قوافل التجارة إلى مصر (١٢٩) ، وهناك ذكر لحادثة إعادة تاجر أوغاريتي من قبل أربعة ضامنين له كان على وشك السفر إلى مصر قصد التجارة (١٣٠) ، أن هناك ذكراً لسفينة أوغاريتية أبحرت إلى مصر ولكنها تعرضت لعاصفة بالطريق واضطرت للوقوف في عكا (١٣١) ، كما تحدثنا النصوص عن رحلة تجارية مشتركة إلى مصر قام بها مواطنون من

أوغاريت وأوشناتو (١٣٢) ، ومن ناحية أخرى فهناك مصريون، بعضهم يحمل أسماء مصرية صرفة وبعضهم يحمل أسماء سامية ،زاروا أوغاريت ودخلوا في معاملات مالية(١٣٣) وآلت إليهم أرض بطريق الإرث منحها إليهم الملك (١٣٤) ، واشتروا كميات كبيرة من الزيت(١٣٥) ، وشاركوا في شراء محاصيل من البيت الملكي (١٣٦)كما كانوا اتحاداً متميزاً أو مجموعة فيما بينهم (١٣٧) . هؤلاء الأشخاص الذين أشير إليهم بأنهم مصريون كانوا غير كنعانيين(١٣٨) .

وكان سكان كنعان أيضاً الخاضعين للسيادة المصرية (فينيقا وفلسطين) معترفا بهم في أوغاريت على أنهم أصحاب اعتبار حقوقي ومسؤولية جماعية وكانت مصالحهم محمية من قبل سيدهم فرعون مصر(١٣٩) ، كما أنهم ظهروا في بعض الأحيان في الوثائق الأوغاريتية كمجموعة حرفية ينتسبون إلى مدن معينة وأهم مجموعة من هؤلاء كانت الجالية الاسدودية (نسبة إلى اسدود المدينة الفلسطينية) (١٤٠) ، فكان لهؤلاء نشاط كبير في عالم أوغاريت التجاري ويبدو أن الأوغاريتيين كانت لهم نفس الامتيازات في اسدود ، فيحدثنا رقيم (رسالة أوغاريتية عثر عليها في تل رأس العين بفلسطين مؤخراً) عن أهمية النشاطات التجارية الأوغاريتية في جنوب كنعان (١٤١) ، هذا وقد كان لأوغاريت نشاط تجاري مع جبيل ، وبيروت وصيدا وصور وعكا وعسقلان (١٤٢) .

ومما يؤكد رغبة أوغاريت في اقامة علاقات طيبه مع مصر، السيف البرونزي الجميل الذي يحمل شعار الفرعون مرنبتاج(١٤٣) ويبدو أن هذا السيف كان قد أعد في أوغاريت ليكون هدية دبلوماسية للفرعون ولكنه لم يسلم إليه ربما بسبب موته.

أوغاريت، آشور وبابل

إذا أردنا مقارنة النشاطات التجارية الناجمة لمملكة أوغاريت في سواحل البحر المتوسط الشرقية، من الشمال إلى الجنوب ، بنشاطاتها مع الشرق نجد الأخيرة قليلة الأهمية، على الرغم من وجود جالية آشورية في أوغاريت (١٤٤) ، يشير إليها رقيم عثر عليه في أرض رأس شمرا / أوغاريت وهو عبارة عن رسالة أرسلت من آشور من قبل شخصية رسمية اسمه بيلوبور إلى ممثلة في أوغاريت تتعلق بأمر يدخل في اهتمامات ملكتها (١٤٥)، على أي حال نجد آشور في إحدى الوثائق تظهر في وضع يختلف عن باقي البلاد، كونها في حرب مع الحثيين المسيطرين سياسياً على أوغاريت(١٤٦)، وحيث أن الكثير كان قد كتب عن هذه الحرب في شمال سورية ، فإنه من المناسب أن نسوق توضيحاً قصيراً هنا.

في رسالة بعث بها توضاليا الملك الحثي إلى أمشتمرو نقلها أني تيشــــوب ملــك كركميش حول حالة الحرب بين حتي وأشور يذكر أن هذه الحرب سببت توقف التجـلوة بينهما وكان وقف التجارة مع آشور أحد شروط توضاليا إلى ملك عمور شوشغا مـــــووا Šaušgamuwa (١٤٧) ،وحيث أنه ذكر في وقت متأخر في حوليات توكولـــتي نينورتـــا الأول (١٤٨) إنه في السنة الأولى من حكمه (١٢٤٤ ق.م) عبر الفرات وقتل ٨٠٠ حثيـاً، لقد فهم هذا من بعض المؤلفين بأنه اجتياح كبير لسوريا الحثية من قبل الأشوريين ولكـــن بعضهم مثل هلك Helck يشك في أن يكون التقدم الآشوري قد تســـبب في ســـقوط الأسرة الحاكمة في عمورو (١٤٩) ،أمّا كلينغل فيقول إن الأشوريين اجتاحوا شمال ســوريا من أجل الجزية وليس من أجل الضم (١٥٠) ، أما أولبرايت فإنه لا يقيـــم وزنـــا للوضـــع التاريخي والجغرافي الواضح للوثائق التي تعود إلى أواخر أيام أوغاريت حول مقاومة الحثيـين والأوغاريتيين المشتركة لشعوب البحر حوالي ١٢٠٠ - ١١٩٤ ق.م، معيـــداً تفســـيرها بإشارة الاجتياح توكولتي - نينورتا كوما جين في عام ١٢٣٤(١٥١) .

وعلى أي حال فإن كل إدعاءات توكولتي نينورتا المتكررة والتي نجدها في نقوشـــه حول انجازاته في السنة الأولى من اعتلائه العرش ومنها أنه احتل عدداً مــــن المقاطعـــات الصغيرة على طول مجرى نهر دجلة الأعلى ووصل حتى أعالي الفرات عند نقطة ســــانياس التقائه برافدة أرسَانْياس ، من هذه المقاطعات تيبوورزى Tepurzi التي ذكرت في مقدمـــة معاهدة شاتيوازا ŠattiwaZa (١٥٢) وهي مقاطعة حدودية حثّية في الأناضول الشـــرقي، وعليه فإنها تقع إلى الغرب من الفرات الأعلى واحتلالها من قبل الأشوريين بجـــرد عمليـــة لزعزعة السيادة الحثية في تلك المناطق.

إن هذا الحادث الحدودي لايمكن أن يؤدي في الواقع إلى حرب حقيقية ، كما أنـــه لا يؤثر على أمن سوريا الشمالية في النهاية (١٥٣) ، وتشير رسالة أني ـــ تيشوب الموجّهـــة إلى أميشتمرو التي الحنا إليها بوضوح إلى هذا الواقع ، فلقد كان أميشتمرو خائفاً مــــن أن واجبة كتابع يفرض عليه أن يقدم الجنود والعربات لسيده ضد الآشوريين ولقد اســـتبدل ذلك بدفع مساهمة إضافية قدرها خمسون منا من الذهب (١٥٤)،ومن الملفـــت للنظـــر أنّ توضاليا ، دون انتظار لوصول الذهب من أوغاريت، أخذه بكل سهوله مـــن المصـــرف الأوغاريت في حاتوشي .

أما فيما يتعلق بالعلاقة مع بابل الكشّية فإن أوغاريت كانت معروفة جيداً هنـــاك فلقد ذكرت في رسالة وجهها كَدَشْمان - انليل الأول Kadašman-enlil إلى أمنحوتـــب

الثالث تتعلق بأخت ملك بابل الموجودة في حريم الفرعون (١٥٥) ،وبعد ذلك بنحو مئـــة عام يشير خاتوشيلي الثالث في رسالة إلى كدشمان أنليل متعرضاً إلى شكوى الأخير حـــول مقتل تجار بابليين في بلاد عمورو وأوغاريت (١٥٦) ، وفي سياق رسالة خاتوشيلي الثالث،فإنه لا يرد ذكر لأوغاريت وكل الإشارات تنصب على "بنيشينا" ملك عمورو الذي كانت له مطالب على رجال أكاد المدينين له على حد قوله بثلاثة تالينتات من الفضة.ولكننا لم نعثر على أية إشارة إلى البابليين في نصوص رأس شمرا كما أنها لم ترد تحت أي اسم من أسمائـها التي هي: بابلي، أكاد ، كاردونياس ، كاشو ، أوشنارا (شنهارا) (١٥٧) ، كانت قليلـــة جداً نظراً لبعد المسافة بينهما في حين أنها كانت نسبياً معقولة إلى عمورو في الجنـــوب ، ولقد رد كلنغل ذلك إلى أن عمورو تقع على الطريق التجاري الهام الذي يصل لبلاد مـــا بين النهرين عبر تدمر بالبحر الأبيض المتوسط (١٥٨) ، وربما يكون هذا معقولاً خاصـة في ضوء ظهور تدمر ، في لوحات القرن الثالث عشر من أيمار (١٥٩) ، فالطريق من بـابل إلى حتي يصعد على طول الفرات عن طريق توتول ، أيمار ، كركميش (١٦٠) ، وربما يصــل إلى أوغاريت .

علاقة أوغاريت بقبرص والعالم الايجي

لا يمكن إعتبار ألاشيا Alašiya ، والتي أمكن مطابقتها مع قبرص الحالية ، قـــوة كبيرة يمكن مقارنتها مع مصر، أوحتي ، أو آشور وبابل ، ولكنها خلال القرن الرابع عشر ومعظم القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانت مملكة مستقلة (١٦١) ،لها سياستها الدوليـــة المستقلة (١٦٢) .

إن ألاشيا جارة قريبة من أوغاريت فهي لا تبعد عن مينة البيضا (ميناء أوغاريت) سوى ١٠٥ كم كما أنها كانت أحد شركائها التجاريين النشيطين ، فـــهناك إشـــارات كثيرة إلى ألاشيا والالاشيين في نصوص رأس شمرا والتي لا يمكن تعدادها هنا، وكذلـــك هناك إشارات إلى سفنهم وإلى تعامل الأوغاريتيين معهم ، فقد كانت ألاشيا قبـــل تدمـــير أوغاريت (١٣٦) ، بقليل تؤكد عمق الصلات الحميمة بين المملكتين .

وإلى الغرب من آلاشيا (قبرص) تقع جزيرة كبيرة أخرى اسمها كريت عرفـــت في بلاد ما بين النهرين باسم كبتارا Kaptara وفي أوغاريت باســـم كبتـــورى Kapturi (كفتور الكتابية) (١٦٤) ، ولقد رأينا أن حوالي ١٧٠٠ تاجر من الكفتوريين والماريين أتـــو إلى أوغاريت (ربما من أجل تبادل السلع) .

وفي القرن الثالث عشر كانت كريت جزءاً من اليونان الميسينية . وربما كانت هي نفسها أرض أخياوا التي وردت في المدونات الحثية والتي ذكرها توضاليا الملك الحثـــي إلى جانب القوى العظمى وعلى قدم المساواة مع حتي(١٦٥) ، فكريت لا يمكن أن تكـــون إلا المملكة أو الممالك الآخية التي تجمعت حول ميسينيا ، وتقول معاهدة شوشغامووا أن تجاراً من آخياوا زارت موانئ عمورو وأقاموا صلات مع آشور، ولكن بما أن أوغـــاريت هـــي الأقرب من عمورو إلى آشور وايجية فأنه من المنطقي أن يتوقع المرء أن يجدهـــم أكـــثر في أوغاريت، لكن من الغرابة بمكان عدم وجود أي ذكر لهم في نصوص رأس شمـــرا أو أي شيء يمثلها كما أنه لم يعثر أيضاً على أي إسم من الأسماء الشخصية أو العرقية التي تشـــير إلى اليونان الميسينية كبلادها الأصلية ، فالإشارة الوحيدة لجزيرة كريت (كفتور) في رأس شمرا، وهي خارج الأشعار الميثولوجية، تشير إلى سفينة يملكها أحد الأغنياء في أوغـــاريت وهي تعود من رحلتها إلى كبتورى في زمن أميشتمرو (١٦٦) . وهكذا نجد طريقاً بحريـــاً مباشراً بين أوغاريت وكريت ، ولكن القليل من تلك المغامرات وجـــــدت طريقـــها إلى التدوين.

لقد جاء من تلك النواحي من دمروا أوغاريت ، ونعني بهم شعوب البحر الذيـــن سحقوا الحضارة المسينية حوالي عام ١٢٠٠ ق. م وبعد ذلك أكملت طريقها إلى الشـــرق حيث وضعت باجتياح عاصف نهاية فورية لحياة حاتوشي (حاتوشـــا) وأوغـــاريت ، أي وضعت حداً لحياة السيد والتابع على حد سواء وظلت الأولى غافية في سبات عميق حـــتى اكتشفت عام ١٩٠٦ ، أما الثانية فقيّض لها أن تظهر عام ١٩٢٩ أي قبل حـــوالي تســـع وسبعين عاماً من الآن.

الحواشي

١ - كان اسمها الأوغاريتي معخادو Mahadu أنظر إلى أستور (١٩٧٠) ، لا توجد بقايا تعود إلى عصر أقدم من القرن الخامس عشر في التنقيبات الأثريّة في مستوطنه الميناء ، انظر أيضاً أستور (١٩٧٣) ١٨.

٢ - إن أول كتاب حول شارع أوغاريت هو كتاب ماريو ليفراني :

Liverani's storia di Ugarit nell'eta deli archivi politici (1962)

إن أقدم قصر (القرن السادس عشر - الخامس عشر) عثر عليه في رأس شمرا اكتشف من قبل شيفر انظر : (1972) , (1970) Schaeffer قد لا يضم أية مواد كتابية .

٣ - Hirsch (1963) 38

٤ - جرت مطابقة غابة الأرز بلبنان من قبل بوبل Poebel (١٩١٤) ٢٢٣ - ٢٢٤ وحديثاً من قبل بوتيرو اودورور . Drower and Bottero (1968) 38

٥ - إن نص تمثال جودبا (ب) V:53-57 في توروداجان Thureau Dangin (١٩٠٧) ٧٠-٧١ ترجم من قبل ليو أوبنهايم Oppenheim انظر ANET , 268 69 - . وهذا الشاهد هو الذي جعل العلماء يعتمدون قبل اكتشاف محفوظات تل مرديخ ، أن إبلا تقع في منطقة أورشو (غازي عينتاب)

٦ - انظر كتاب ماتييه ، إبلا : اكتشاف امبراطورية (١٩٧٧)

٧ - كما ورد عند بيتيناتو في تقريره في الاجتماع المشترك الخاص به:

AAR - SBL Midwestbranch of AOS at St . Louis , October 30 1976 and in (1977 b) 235

٨ - دوّن تحت رقم ١٢ في TM 75 . G.2136 (قائمة تضم سبعة عشر قطراً بيد ملك ايبلا) ، في بيتيناتو Pettinato (٨٧٩١) ٥١ - ٢،انظر كذلك لنفس المؤلف (٦٧٩١) ٨٤. حول كانيس Kani}š في النصوص الاقتصادية لتل مرديخ [يرفض أركي وغاريللي أن الموقع موضوع المناقشة يتوافق مع كانيش في كبادوكيا نفس الاسم يمكن قراءته بشكل مختلف (حزيران ١٩٨٠)

٩- اقتبس أو لخص النص TM. 75. G. 2367 من قبل بتيناتو (١٩٧٧! - م) .

١٠- 2231 . G . 75 طبع من قبل بيتناتو (١٩٧٨) مع المقـــابلات في نصـــوص أبـــو صلابيخ.

١١- انظر أولبرايت (Albright (1961) 352n.g) حول أصول Toponym بأوغاريت.

١٢- انظر الهامش رقم ٧ وبيتيانو (١٩٧٧ ب) ٢٣٥.

١٣- Pettinato (1976)46 والتقرير المذكور في الهامش رقم (٧) .

١٤- الكتابة الرمزيةفي الاحتفال العائد لرب الصاعقة . غير معروفة

١٥- طبع من قبل Civil (1967) 37-88 .

١٦- يعود الأثرز من امنمحت الاول وسنوسرث الأول ، إذا اعتمد على قصة سنوحي.

١٧- Du Mesnil du Buisson (1935) 17

١٨- Ward W. (1961) 132. 33

١٩- Schaeffer (1933) pl. xv ; (1939) 21

٢٠- Ward (1961) 131, 134, 136 .

٢١- يتبع هذا المؤلف التأريخ القصير (التأريخ المنخفض)

٢٢ - أدين بهذه المعلومات إلى الاستاذ بيتيناتو ،فاقتراحه القائم على 2231 rev -I : 17; Gazetteer I– Li – bi ki رقـــم ٢٧٠ في (T.M. 75. G.) في نصـــوص أبي الصلابيخ قد يشير إلى أنه من غير المحتمل أن تكون حلب لأنه من وجهـــة النظـــر الاشتقاقية : (h) في ذلك الاسم (أوغاريتي : حلـــب hlp وتعـــني " تلّـــه" وفي الأكادية خالبو . halbu وتعني "غابة" لم يلن قد حذف في النصوص[هناك ايـــب Ilib بالقرب من سيّار]

٢٣ - Dossin (1938) 117

٢٤ - Dossin (1956) 67.69

٢٥ - 25) Dossin ap. Schaeffes (1939)16 .

٢٦ - 26) Albright (1940) II, 26

٢٧ - انظر Finet (1964)134 (حول علاقة تالحايوم Talhayum بـــ مــــاري) وانظر EA 9,131-35 (احتجاج البابليون لـــدى الفرعـــون لإســـتلامه رســـائل دبلوماسية من آشور التي كانت تعتبرها بابل تابعة لها).

٢٨ - Jean (1939 a)112 ;(1396) 67; quoted in CAD .B, 211, S.v. beru B.

٢٩ - A. 1270 ، طبقت من قبل دوسان (١٩٧٠) السطران ٨ و ٣١

٣٠ - انظر أستور ١٩٧٣ ، ١٨-٢١ Astcui (1973) 18-21

٣١ - AT 358: 6.

٣٢ - Kitchen (1977) pass

٣٣ - Kitchen (1977) 131 n.6 يشير مثلاً إلى كلنغل (GS II 334) ولكن كل ما قيل حول الـ بوروقا كان " ein Lieterant von wolle " يظهر من المحيط أنه مشتر أكثر منه مقدم (مسلم) للصوف . ولكن هذه التغييرات لا تعني شيئاً في مركزه الاجتماعي.

٣٤ - هذه اللمحة التاريخية مكثفة جداً وعليه لا يمكن أن تزودنا بإشارات منهجية موثقة حول هذه النقطة بالذات . انظر وقائع المؤتمر الرابع والعشرين للآشوريات (باريس تموز ١٩٧٧) الذي كرس إلى الحوريين وتضم بحثاً لنا حول الحوريين في شمال سوريا.

٣٥ - وهكذا وطبقاً لمصطلحات كتشن (١٩٦٢) ، التي تتوافق مع الحرب السورية الثانية التي يذكرها جوتزه (١٩٦٥) Goetze والحملة السورية الثانية التي يذكرها كتشن (١٩٦٦) .

٣٦ - PRU IV 1:7 - 13 نتبع التسلسل الرقمي للنصوص فيPRU IV و PRU III التي نشرها Loretz و Dietrich (١٩٧٢) .

٣٧ - الذي ربط معه نيغيرول Nougayrol أصل الحاراناتي شا بينانا harranati ša ^{m} pithana على حدود المنطقة التي منحت إلى نقمادو من قبل شوبيليوما

٣٨ - Nougayrel , PRU IV , 27 , no.2

٣٩ - والد أنيتاش من كوشارا Anittaš of Kuššara الذي كان معاصراً للمستعمرات الآشورية القديمة في كبادوكيا .

٤٠ - 40) KUB III 16 obv 24 (= weidner , PDK. 136, no. 10) انظر أستور (١٩٦٩) ٣٩٢ ، ٤٠٢

٤١ - Otten (1968) cf . Astour (1972 a)

٤٢ - انظر المقاطع ذات الصله فيما يلي.

٤٣ - 43) KBO I 6 (وكسر أحزي من النسخ) =Weidner PDK No.6

٤٤ - أفاد هو نفسه في KBO x 2 obv . I 15 K Res Gestae (النص الحـــيّ)
KBO I obv . 6

٤٥ - هذا هو استنتاجنا من المطابقة التاريخية بين زمن نشاطات توضاليا في ســـوريا ونهايه عصر محفوظات القصر من السوية الرابعه التي تمثل حكم نقميبا وإليم - إليمّـــا II جيلان بدأا تقريباً حوالي عام ١٤٦٠ (بعد سيطرة تحوتمس الثالث القصيره علـــى سوريا الشمالية) انظر استور (١٩٧٢ - أ) ١٠٨ ورقم ٥٨

٤٦ - انظر آستور (١٩٧٧) ، ٦٢ ، ٦٤

٤٧ - طبقاً للمعاهدة التي وقعت بين نقميبا ملك ألالاخ (في الفترة الواقعـــة بـــين (١٤٦٠- ١٤٣٠ ق.م تقريباً) و إرتيشوبIr - Tešub ملك تونيب AT2 (ترجمه E. Reiner في ANET , 531 - 32)حول موضع تونيب انظر استور ١٩٧٧ .

٤٨ - في الأصل كان تضم ٢٧٠ ، حفظ منها ١٧٠ أو ٦٣%

٤٩ - أنظر رقم ٧٣ فيما يلي

٥٠ - هناك استثناءان رقم ١٤٠ حا / حو - را - كا - في Ha/ H u – ra – Ka - hi الذي يشبه الكلمة حوريكا HuriKa الأوغاريتية(مقطع هجائي من حرســـب Hrsb الآن حراسبو Hrasbõ ، ورقم ١٩٠ تاريبو Ta-ro-b الـــتي تشـــبه تـــاريبو Taribu الأوغاريتية (تربة الآن) وعلى أي حال فإن من الممكن أن يتطابق الســـالفه أيضاً مع حراكي HaraKi الحديثة الواقعة إلى الشرق من جبل الزاوية ، والأخـــيرة تتطابق مع انتـــاراوي (AT) Intarawe = إليتـــاربي Ellitarbi (NASS) الآن الأتارب .

٥١ - للمطابقة بين قائمة هارينا ونصوص ألالاخ انظر أولبرايت ولاميـدن (١٩٥٧)، هلك Helck (١٩٦٢) ١٤٢ - ٤٨ ،/ أستور (١٩٦٣) بطل استعمال في كثـــير من التفاصيل ولا يمكن الاعتماد عليها مرجعياً .

٥٢ - من الواضح أن أرواد وأوغاريت لم تذكرا في انتصـــارات تحوتمـــس الثـــالث وأمينوفس الثاني ، ويظهر أنهما لم تلعبا أي دور في التاريخ المصـــري حـــتى حكـــم امينوفيس الثالث ، ويظهر أن كلا المدينتين تمتعنا بمعاهدة خاصة للعلامات مع مصـــر أثناء الجزء المبكر من القرن الرابع عشر قبل الميلاد لصالح تجارتهم البحريـــة المتبادلـــة Drower (1968 a) 475

٥٣ - يفترض أنـه عثر على إنـاء يحمل شارة تحوتمـس الثـالث في أوغـاريت Liverani (1962) b2 , Nougayrol , PRU IV , 28 ولكن هذا ليس بـالضرورة أن يشير إلى سيادة المصريين على أوغاريت في ذلك الوقت ،حيث فضّلت أن تبقـى علي الحياد من أجل تجارتها.

٥٤ - الإشارة الاخيرة (Gardiner V13) يمكن قراءتها بطريقتين : الأولى تشـبه الحرف السامي تاو Taw والثانية كالحرف الشامي sarnek سامخ أو ، أقل شيوعاً، زاين أو شادي Zayin or ade ، وعلاوة علي ذلك فـإن K المصريـة تحمـل إشارات يمكن كتابتها على شلكين gimmel أو كاف Kaph وحـتى في بعـض الأحيان قوف Qoph .

٥٥ - يظهر أن هذه المعادلة بدأت مع بروغش Brugsch ، أي قبل أعوام من ذكـر أوغاريت لأول مرة في رسالة من تل العمارنة ، وحديثاً جداً وافق لفيف من العلمـاء هذا الرأي مثل :

Schaeffer (1939) 27 ; Gardiner (1947) I , 165 ; (1961) 201;
S . Smith (1949) 53 ; Edel (1953) 150 - 53 ; Nougayrol ,
Pru IV , 27 n . 2, 28 ; HelcK (1962) 157 ; Drioton and Vandier
(1962) 407 ; Garelli (1969) 153; Klengel , Gs II 336 - 37.

٥٦ - Yeivin (1966) 25 ; (1967) 122

٥٧ - Drower (1968 a) 460 - 61 ; (1968b) 133

٥٨ - إن نصب ممفيس العائد إلى أمينحوتب الثاني هو نسخة من نصب الكرنك وهنـاك دراسة مقارنة لكلا النصبين قدمها Edel في عام ١٩٥٣

٥٩ - إن المخاضة المعنيه هنا لا شك أنها في الرستن إلى الجنوب الغربي من قطنة على بعـد ١٥ كم

٦٠ - Gardiner (1947) I , 166 0 68

٦١ - قاعة رقم Simons (1937) , VI

٦٢ - Edel (1953) 150 - 53

٦٣ - هناك طريق يمتد من غبالا abala إلى حماه عن طريق اكسرعيل Ikisrail وتـل سلحب (١٨ كم إلى الجنوب من قلعة المضيق) استخدم أثنـاء فـترة الحـروب الصليبية (دوسان ، طبوغرافية ، ١٤١ - ١٤٢) ، وحسب ريـس Riis فـإن

ذلك الطريق ظل مستعملاً حتى بداية هذا القرن (Riis (1960) 125) . وقد وصف هذا الطريق بصعوبته من قبل المؤرخين العرب والافرنج الصليبيين . فرحلة من قلعة المضيق – تل سلحب – غيالاً – رأس شمرا والعودة إلى تل سلحب سوف لن تكون أقصر من تلك الطريق السهلة عبر ممر بداما.

٦٤ – EA 24 : 16 - 20

٦٥ – كما يأتي من المعاهدة التي عقدت بين الملك الحثـي (الـذي هـو دون شـك شوبيلوليوما) مع لبعو Lab'u ملك تونب ومع شعبها .

KUB III 16 (+ 21) = weidner , PDK 136 - 47 , No. 10. Ilim - ilimma ,

خلف نقميبا الذي حكم في الثلث الأخير من القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

٦٦ – قائمة المواقع الآسيوية في معبد سوليب Soleb في النوّبه Cel . B: 4 حسب الترقيم الذي اتبعه جيفون (١٩٦٤) Giveon = سيمونز (١٩٣٧) Simions قائمة رقم IX:F:5 في سيمونز (١٩٣٧) ، Soleb ف يالنوبّـة Col . B: 4 حسب الترقيم الذي اتبعـه (١٩٦٤) Giveon = سـيمونز (١٩٣٧) Simons قائمة رقم IX في سيمونز (١٩٣٧) ، قائمة رقم X 11 : 12 (الـتي وضعت من قبل سيمونز بأنها موجهة إلى حارمحب Haremheb ولكنها بـالواقع موجهه إلى أمنحوتب الثالث

٧٦ – Helck (1971) 458 , Weippert (1975) 14

٦٨ – PRU II 18 ,

إن ترجمة أوغاريتية لرسالة موجهة إلى ملك مصري تذكر الرب "أمـون وكـل الأرباب المصرية " وعليه لا بد أن يعود تاريخها إلى الفترة السابقة لإصلاح أخنـلتون الديني.

٦٩ – EA 45

فسر الاسم من قبل نيغوريل أم – مي – اس – تام – دو [m] - mi - is - tam – [ru] -انظر XXXVii . PRU III

٧٠ – EA 49

حقق وقرأ اسم المرسل بشكل صحيح من قبل أوليرايت (١٩٤٤) .

٧١ – EA 48

انظر اولبرايت (١٩٤٤) وليفراني (١٩٦٢) ٥١ .

٧٢ - سوف نرى بعد قليل أن أميشتمرو كان يجلس على العرش حوالي عـــام ١٣٨٧ ، وكان لا يزال على قيد الحياة في بداية نشاطات عبدي - عشـــيرتا حـــوالي عـــام ١٣٧١ق. م

٧٣ - حول هذه المملكة انظر مقالتنا في 28-13 (1979)Schaeffer-Fastehrift [UF 11

٧٤ - Helck (1960) = (1962) 256 - 67 ; Kitchen (1969) 80 - 82

٧٥ - Schaeffer (1956) 164 - 68 . Desroches - Noblecourt (1956) 179 - 220

٧٦ - Kriudtzoh , EAT , ad loc ; weber , ibid , 1098 .

٧٧ - Liverani (1962) 24 , concering PRU IV, 122

٧٨ - رب - عدي ملك بيبلوس (جبيل) لم يجد نعتاً في رسائله إلى الفرعون ينعت بـــه عيدي - عشيرنا سوى " العبد ، الكلب " ardu-Klbu وكان عزيرو أول حكـــام العائله الذي تلقب بالملك

٧٩ - EA 17 : 30 - 38

٨٠ - Kitchen (19 62) 24

٨١ - كل الإجزاء المتبقية من هذا العمل طبقت مـــن قبـــل جوتربـــوك Guterbock (١٩٥٦) والفقرة المعنية هنا . KUB x 1 x 9 : I 6 - 23 اقتبست مـــن ترجمـــة كتشن Kitchen (١٩٦٢) ٣ .

٨٢ - معظم الدراسات حول الحثيين والتاريخ العام للشرق الأدنى القديم تـــؤرخ بدايـــة حكم شوبيلوليوما حوالي عام١٣٨٠ ق.م ، لكن هذا لا يمكن أن يتطابق مـــع لغـــة الأعمال السواضحة.تؤرخ جوتـزه Goetzes (1957) 85 حكـــم شـــوبيلوليوما ١٣٨٥- ١٣٤٥ ق. م وهذا قريب مما افترض هنا ١٣٨٦ - ١٣٤٦

٨٣ - Frg.8,Güterbock (1956)62.Cf.Gurney (1966) 683; Klengel,Gs III, 35 ; cornelius (1973) 137.

٨٤ - إن اسم والد شوبيلوليوما غير معروف غالباً هناك توضاليا آخر يفترض أن يملأ هـذا الدور ويعتقد جوتربوك Guterbock (1970) 7577 أن حاتوشيل الثاني (الـــذي يشك في وجوده) هو المقصود ويميل113 Otten (1968) لقبول أرتووانـــداش الأول Arnuwanda š I بدرجة كبيرة .

٨٥ – من أجل المراجع انظر:

Ertem (1973)179 ,184-85 , S.VV.(add KuB XXXIII 108 19 , 20) ; Gonnet (1968).5. v v ; additions Dinçol (1974) 32 .

٨٦ - otten (1969) 250 , No . 19.

٨٧ - PRU IV 9 : 23

٨٨ - PRU IV 5 reu . 6 .

٨٩ - كانت تقع نابي Nanni غير بعيد عن خازي azzi التي ذكرها أوتن مـــن قبـــل (Otten (1969) 252) الذي أخذ عن الدكتور شروت هوف Schrotthoff مــــا يتعلق بتحقيق جبل نا – نا – أ وجبل نابي Mt . Na / na - a and Mt . Nanna أنظر أيضاً كلينغل (GS III , 134) ، ولكن مطابقة خالبي – نانا // خالبي خـــازي Jalbi - Nana // Halbi - Hazi تتحدث عن تحقيق نابي وخازي وليس فقـــط يتعلق الأمر بالمجاوره أو القرب .

٩٠ - حسب المصطلحات التي يستعملها كتشن Kitchen(1962) في صفحة ٢٥ وصفحة ٤٠

٩١ - انظر رقم ٧ 91) See n . 72

٩٢ - هذه الحوادث وثقت نسبياً توثيقاً جيداً واستخدمت بشكل مناسب عدة مـــرات في دراسات تاريخ الشرق الأدنى القديم بشكل عام ، أو في الشارع الحثي بوجه خاص

٩٣ - 39) Aldred (1971) 60 , with refernces ; Helck(1969) 324 .

٩٤ - هناك تطابق مع نفس التواريخ التي أحصيت من قبل كتشن من عـــدة فرضيـــات مختلفة . وفي إطار التأريخ الذي يضع بداية حكم أخناتون الأول عـــام ١٣٧٧ ق.م وليس عام ١٣٧٩ طبقاً لتأريخ هيس W.C.Hayes الذي جـــرى الآخـــذ بـــه في "تاريخ كمبردج القديم" CAH 2 واتبع هنا . وفي كتشن (١٩٦٦) كـــل التواريـــخ خصصت بفترة عامين :

٩٥ - هذا يتبع خاصة من EA 51, 53 , 54 , 55 , 57 , 59

٩٦ - 96) PRU IV 1

الرقيم محفوظ حفظاً جيداً ولكن نقص الختم محير ، فهل يكون نسخة متأخرة .

٩٧ - هذه الحوادث معروفه من مقدمة المعاهدة التي فرضت على نقمـــادو Niqmaddu من قبل شوبيلوليوما ، PRU IV 2 ، والمرسوم الذي أصدره الأخير حول التوســـع الإقليمي لأوغاريت .

٩٨ - حفظت قائمة الجزية في نصين أكاديين ونص أوغاريتي ، PRU IV 2,3 , 4 , PRU

وقد درستا من قبل نوغيرول PRU IV , 37 - 40 و (تيريش ولورتيز (١٩٦٦)

٩٩ – معاهدة مورشيل الثاني مع دوبي – تيشوب ملك عمورو Duppi-Tešub (النص الاكادي) (= Weidner , PDK , 76 - 79 ,no 5) KUB III 14 , obv . 9 ; English transl . Goetze, ANET , 203 - 25

١٠٠ – نشر رقيم أوغاريت الاكادي من قبل توروداتجان (١٩٤٣) وهو يسجل ارسال كميات الصوف الأرجواني من قبل ٢٩ منتجاً . كل منهم يساهم بكمية يتراوح وزنها ما بين ١٠٠ و ٤٠٠ شيكل وكان المجموع عشرون تالينت و ٦٠٠ شيكل والوزن الاجمالي للصوف الأرجواني المسلم كجزية إلى خاتي (لايشمل ألبسة جاهزة) تساوي تالينت واحد.

١٠١ – انظر أستور (١٩٦٩) ٣٩٨ – ٤٠٥ والخريطة . يجب أن تصحح الحدود التي وردت هنا ، أي حدود أوغاريت الجديدة ، كالآتي : (أ) خنزوريوا لا بد أن تتطابق مع حازارين (Henzuriwa مع Hazzarini) في الجزء الجنوبي الغربي من جبل الزاوية وليس في تل خنزير ، (ب) وتحقيق تل مرديخ مع إيبلا التي كانت لا تزال مأهولة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (كما ورد ذكرها في رقيم من أيمار msk 74 . 39 1) ولكنها لا تعود إلى المنطقة الآوغاريتية ، يستدعي بالضرورة نقل الحدود الشرقية لأوغاريت إلى الجنوب من أبنسونا بضعة كيلومترات إلى الغرب ، (ج) لا بد أن تربض ما جدالا Magdala في مجدليا Ma daliya إلى الشمال الشرقي من اريحا وليست مجيدلة Mgeydleh على العاصي . انظر خريطتنا حول سوريا الحيثة المرافقة لهذه المقالة .

١٠٢ – هذا أقل من تقديراتنا الأولية بأقل من ٤٠٠٠ كيلومتر مربع .

١٠٣ – انظر رقم ٧٣ الوارد أعلاه.

١٠٤ – 104) Nougayrol , PRU IV , 290

١٠٥ –إن وجودها معروف من PRU IV 53: 17-19 (حوالي ١٢٤٤)، انظر نميغيرول PRU IV, 22

١٠٦ – أورخايو بالنسبة إلى يابنيو

106) Urha' e to Yabninu , PRU VI 14 ; cf n. 132 below

١٠٧ – 107) PRU III 26 : rev 6; PRU IV 29 , 74, 78, 88; U5N100;

in addition ibid , 33 and 171 one transportation of grain from Mukis to Ura ships. on ugaritian

108) PRU IV 70:5 ; U5 N41 : 38 ; PRU II90:45(ajar of wine for - ١٠٨ Hittite at Ma'hadu).

109) PRU IV 63 and 64

110) U 5 N 41 : 16 ,21

111) U 5 N 45

112) PRU III 26 : obv . 3

113) lbid . rev . 3 . Nougayrol transliterated the last Sign la (?) ; actually it is a "middle horizontal wedge . ma " with an elongated

نقل نغيرول الاشارة الاخيرة ؟ La بالقول إنها ma مع إطالة الطرف الأوسط الافقـــي نفس الشكل تغاراما / تغاراما Tagararma / tegarama الحثية التي وجدت في نقـــش شملنصر الثالث) Laesscqe[19591] Fragm . f: 5 . as Uru Tagri - [ma]

114) PRU IV 7.

115) A - Ku - ri - ta

وردت بين فرق القوات الحثية في التقارير المصرية حول معركة قدشي Qidši (قادش) ، انظر Helck (19591) 206

١١٦ – الخطاب الحيوي والملون المعروف " خطاب الجـــنرال " U5N20 . انظـــر ريـــني Rainey(١٩٧١)من أجل التفسير التاريخي والجغرافي .

١١٧ – انظر فيما يلي " أوغاريت ، آشور وبابل .

١١٨ – أختام شوشغامودا Šaušgamuwa ملك عمور على الرقـــم , PRU IV 48 49.51 ، ختم كيليا Kiliya قسيس سنـــزارو P R U IV 87

١١٩ – اتبعنا المصطلحات الأصلية التي وضعها كتشن (Kitchen(1966) فقد تبـــنى في دراسته التي أصدرها (١٩٦٦) التسمية بدل الحرب الحوريـــة . الـــتي اســـتعملها جوتزه Goetze (١٩٦٥) ١٦ . وكما أشار غـــاريلي Garelli(١٩٦٩) ٣١٤ ، إن تلك الحرب كانت بالواقع ، لا أكثر ولا أقل صورية وليس كتلـــك الحـــروب السابقة " .

١٢٠ - أستور (١٩٦٩) ٤٠٥ - ٨ ، هناك معلومات كثيرة جديدة أعطتها الرقم المكتشفة في مسكنه القديمة - إيمار . انظر أرنو Armaud (١٩٧٥) أضاف فورير Forrer (١٩٢٩) ٧٤ ، مقاطعة كوماجين إلى مملكة كركيمش ولكن لأسباب خاطئة . فقد عرف من المصادر الحثية أن المدن المعروفة في كوماجين تتبع مباشرة إلى مملكة خاتي منذ عهد معاهدة شوبليوليوما مع شوناشورا Šunaššura ملك كزووادنا .

١٢١ ــ نستدل على هذا من وجود رقيم حثي ، ونصب الملك توضاليا (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) وفي ختم هيروغليفي لحاكم حثي في السوية الثانية والسوية الاولى في الالاخ انظر وولي (١٩٥٣) ١٦٠ - ١ Woolley وخاض من الرسالة U5N26 الموجه إلى اميشتمر ومن أمير حثي كان يقيم في الالاخ ولكن كان يملك أيضاً بلدة بليط - ريمي Beletremi (بلليرامون اليوم) بالقرب من حلب تحت ولايته .

١٢٢ - انظر U5N26 ورسائل اميشتمرو . نفس المصدر ٢٧ و ٢٨ التي كانت في رأينا ، موجه إلى أمير حثي يقوم على أمر الآلاخ - حلب .

١٢٣- 123) P R U IV 122

إن تاريخ المعاهدة موضع نقاش . ولكننا نتفق مع كتشن (١٩٦٢) ٣٢ ،٤٦ انظر أستور (١٩٦٩) ٣٩٧ - ٩٨ .

١٢٤ - إن قصة زواج اميشتمرو المحزنة معقدة جداً ومتناقضة ولا علاقة مباشرة لها مع هذه المقالة .

١٢٥ - انظرا أيضاً كلينفل (١٩٦٣) ١٢٤; K B O III 3I3 - II 38

١٢٦- وهناك رسائل أخرى من كنزا Kinza من نفس المصدر ٣٨ و ٤٠

١٢٧ - الشاهد ظرفي ، انظر نوغيرول Nougagrol 58 - 57 P R U IV وليفراني (١٩٦٢)٣١، ٥٧-٦٦

١٢٨ - PRU VI 179

١٢٩ - P R U VI 14 : 19 - 29

وانظر أعلاه رقم ١٠٩ ، PRU II 179 ، منحه ملكين للتجارة مع خاطي ومصر. حول التجار الاوغاريتيين وشركائهم انظر أستور (١٩٧٢) ب.

١٣٠ - 130) PRU V 116

١٣١ - 131) PRU V 59

١٣٢ - 132) U 5 N 42

١٣٣ - 133) PRU III 21

١٣٤ - 134) PRU III 149

١٣٥ - 135) PRU V 95-4

١٣٦ - 136) 91 (UT 311) : 6

١٣٧ - مشريم Msrym وبن مشريم bn msrym ، من بين المجموعـــات الاوغاريتيـــة والأجنبية التي استلمت النبيذ انظر PRU II 89 : 7 , 10

١٣٨ - 138) CTA 91 CUT 311) : 7 Y / L Kn / ny

وتأتي معها مباشرة U5N 36: 6, 8 ؛ N / ma msry

١٣٩ - إن (U5N36) رسالة من ملك أو شخصية كبيرة رسمية من أوغاريت إلى ملـــك مصر حول حل النـــزاع . المثار بشأن كمية التالنت الواحد و ٥٠٠ شيكل مـــن الفضة ، بين الاوغاريتيين والكنعانيين .

١٤٠ - انظر أستور (١٩٧٠) ١٢٣ - ٢٦ .

١٤١ - انظر مقال أون D. I. Owen حول " أوغاريت كنعان ومصر المقدم لهـــذه الندوة .

١٤٢ - 142) PRU II 110 : 4 , PRU III 12: PRU IV 58 , PRU V 106, PRU VI19: 81 126,U5N41.

١٤٣ - 143) Schaeffer (1956) 169-77

١٤٤ - انظر الحاشية رقم ١٤٠ الواردة أعلاه 144) PRU II 8913

١٤٥ - 145) RS. 6 . 198

نشـــرت من قبـــل Tureau-Dangun عـــام ١٩٣٥ انظـــر لفـــراني (١٩٦٢) ١٠١ كلينعل GSII 376، كان المملكات الأوغاريتية ممتلكاتها وتجارها .

١٤٦ - 146) PRU IV 53 .

١٤٧ - معاهدة توضاليا مع شوشغامودا (IUB XX III 1 + la, KUB 43) آخـــر طبعة ودراسة كونه وأوتن Kuhne and Otten (١٩٧١) . وتظهر الفقرة المعنيـــة في المجموعة الرابعة IV14ss الموجودة في كلينغل Klengel GS II . 22223 , 320-22. .

١٤٨ - يمكن العثور على كل النقوش المطلوبة في (Weidner (1959) ، والفقرة المعنية ترجمت في Graysn , ARI, § 773 كما يلي: " في عام ارتقائي العرش ، في بداية حكمي اقتلعت ٢٨و ٨٠٠ حثياً من سوريا خلف الفرات وقد تم إلى بلادي " إن دخول سوريا في الترجمة هو رخصة غير مضمونة فالفرات نهر طويل ويجري لمئات الأميال قبل أن يشكل الحدود التاريخية لسوريا

١٤٩ - 149) Helck (1962) 239 n3

١٥٠ - 150) Klengel , GS II , 322

١٥١ - يحدد أولبرايت Albright (1968)235-36 أن عام ١٢٣٤ ق.م هو العام الأول من حكم توكولتي نينورتي الأول ، كما يحدد نفس العام لتدمير أوغاريت ويعيد ذلك إلى الهجمات الأولى ، غير المعروفة ، لشعوب البحر على سوريا . انظر أيضاً ملاحظاته على تلك المشكلة في دراسته المنشورة عام ١٩٦٦ . ٥١٤ - ٥١٥.

١٥٢ - 152) K B O I 1 obv : I 13,22(= Weidner , PDK , 4-7)

١٥٣ - تحدث عن هذه الحادثة بجلاء السيد مان رانكن Munn - Rankin (1967)290-92

١٥٤ - كانت الجزية السنوية تدفع أربع مرات بالذهب كما فرضت على نقمادو ، كما أشار نوغيرول انظر PRU III ,149 دفعت الجزية من قبل نقمادو ستة مرات بعد أن خفضت إلى الثلث.

١٥٥ - 155) EA 1:34 - 40

ربما تكون ابنة موشكينو Muskenu أو ابنة عاجالي Gagrau أو ابنة أحد رجال هانيجالبات. أو ربما بعض بلاد أوغاريت تلك التي رأها سفيري "

١٥٦ - 156) KBO 110 + KUB III 72 ; Summarizecl Zed Klengel,

١٥٧ - فيما عدا تلك التي ذكرت من البلدان الأجنبية في معاهدة مورشيل الثاني Murshiles II مع نقمادو .

158) Klengel , GS II , 316; Similarly Kuhne (1973) 80n.406

١٦٠ - حول الروابط الاقتصادية بين بلاد بابل وإيمار (مملكة تابعة لكركميش) وانظر : أرنو (١٩٧٥) ٨٨ .

١٦١ - حول احتلال الحثيين لقبرص انظر غوتربوك Gulerbaik الذي يعزو هو وغيره من الباحثين ذلك الحدث إلى توضاليا الرابع (خليفه حاتوشيل الثالث) .

١٦٢ - كما يظهر من الرسائل(EA 33 - 40) خاصة تلك التي وردت معها نصيحة ملك الاشيا إلى الفرعون المصري : " مع ملك خاطي وملك بشانحار أو شانهار) (بلاد بابل) لا تعقد معاهدة". انظر EA 334:49 - 50 .

١٦٣ - انظر U 5 N 21 - 24 من الممكن أن تكون PRU V 61 ترجمة أوغاريتية لرسالة من ملك ألاشيا . كما اقترح في أستور (١٩٦٥) ٢٥٥ .

١٦٤ - لخصت الشواهد المتوفرة حول علاقات أوغاريت مع العالم الايجي في مقالتي التي نشرتها عام ١٩٧٣

١٦٥ - معاهدة مع شوشغامووا (انظ ررقم ١٥٠) ، KUB XXIII I V , 1- 3

١٦٦ - 166) PRU III !12-9-15

١٦٧ - حول الشاهد الأوغاريتي عن الأيام الأخيرة لأوغاريت يمكن الرجوع إلى استور من مقالته إلتي نشرها عام ١٩٦٥ .

مملكة آلالاخ

الدكتور عيد مرعي *

تتميز سورية بغناها الأثري والتاريخي الممتد في أعماق الزمن . فمن عصور ما قبل الكتابة استوطن الإنسان مناطق مختلفة منها، وأقام مدنه الأولى مستفيداً من غناها بالموارد الطبيعية المتعددة ، ومن موقعها كجسر واصل ما بين مناطق الشرق القديم المختلفة .

من هذه المدن ألالاخ Alalach التي يُعرف موقعها الحالي باسم تل عطشانة الواقع عند المجرى السفلي لنهر العاصي بالقرب من انطاكية في لواء اسكندرون السليب. جرى التنقيب في هذا الموقع وفي موقع الميناء القديم الواقع على بعد ٣ كم غربي تل عطشانة ، عند مصب العاصي في المتوسط، والمعروف باسم تل أو قرية الشيخ يوسف، على سبعة مواسم مابين أعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ و ١٩٤٦ - ١٩٤٩،وذلك من قبل بعثة بريطانية برئاسة السير ليونارد وولي L. Woolley الذي كان قد حقق الشهرة والمجد من خلال تنقيباته في جنوبي العراق وكشفه عن مقبرة أور الملكية عام ١٩٢٢.

وقد أظهرت تلك التنقيبات. التي نشر وولي نتائجها في علمي ١٩٥٣ و١٩٥٥ [(١)]، أن الإنسان استوطن موقع الميناء منذ العصر الحجري الحديث (ما بين الألف الثامن والخامس قبل الميلاد)، إذ تم العثور على تمثال للإلهة الأم من الحجر المصقول يمثل امرأة جالسة، ارتفاعه ٧٧مم وأقصى طول له ٦٨مم ، وعرضه ٥٣ مم [(٢)] .

وعُثر أيضاً على فخار محلي أسود اللون ، وعلى فخار حلف المطلي الذي يرقى تاريخه إلى العصر الحجري النحاسي،وعلى أختام مسطحة منحوتة من الحجر أو العظم [(٣)].

---

* أستاذ في كلية الآداب بقسم التاريخ بجامعة دمشق .

(1) Alalakh , an account of the excavations at Tell Atchana in the Hatay , 1937 – 1949 , oxford 1955; A forgatten kingdom , Landon 1953.

ترجم العمل الثاني إلى العربية فهمي الدالاتي بعنوان : آلالاخ مملكة منسية ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٩٢.

(٢) وولي ، آلالاخ مملكة منسية ، ص١٨ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥ - ٢٦.

إن اكتشاف فخار حلف في هذا الموقع يدل على أن هذه المنطقة لم تكن معزولــة، بل كانت لها علاقات مع مناطق بعيدة كمنطقة الجزيرة المركــز الأول لفخــار حلــف المشهور .

أما موقع تل عطشانة فقد كشفت الحفريات فيه عن سبع عشرة سوية أثرية يمتـد تاريخها من بداية العصور البرونزية (بداية الألف الثالث) حتى بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد[٤] ، زمن غزوات شعوب البحر التي دمرت ألالاخ وغيرها من المدن الســـاحلية السورية وصولاً إلى دلتا النيل في مصر.

عُثر في السوية السابعة عشرة على فخار مصنوع بوساطة الدولاب ، وبنى الســكان معبداً لعبادة إلهة المدينة ، وقد تم تجديده خمس عشرة مرة وبأشكال مختلفة،وتم تكريســــه لأكثر من إلهة. وله شكل مكعب من الآجر مساحته خمسة أمتار مربعة ، وارتفاعه أربعـة أمتار [٥].

وبُني فوقه معبد آخر في السوية السادسة عشرة فيه ساحة رئيسة طولها ثمانية عشــر متراً ، وعرضها ستة أمتار ، وأرضها مرصوفة بمربعات من الفخار، وتحيط بهـــا جــدران مبنية بالآجر المطلي بطينة ملساء وكلس ابيض .

كانت السوية السادسة عشرة معــــاصرة للنصــف الثــاني مــن عصــر أوروك (نحو ٣٢٠٠ق.م)، والسوية الخامسة عشرة معـــاصرة لبدايــات عصــر جمــدة نصــر (نحو ٣١٠٠ق.م) والسوية الرابعة عشرة معاصرة لعصر جمــدة نصــر (نحــو ٣١٠٠ – ٢٩٠٠ ق.م) في جنوبي بلاد الرافدين . والدليل على ذلك الصحون الفخارية المتماثلة .

وعُثر في إحدى الحجرات من السوية الثالثة عشرة على خاتم أسطواني نُقــش فيــه مشهد وليمة مقدسة يشبه ما كان سائداً في بلاد الرافدين خلال النصف الأول من عصــر السلالات الباكرة (٢٩٠٠ – ٢٧٠٠ ق.م) [٦].

وكشفت الحفريات في السوية الثانية عشرة عن أعمدة من اللبن تشبه تلك التي عُـثر عليها في أوروك في عصري أوروك وجمدة نصر . وتم العثور أيضاً على خاتمين اســطوانيين

---

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٧ ومابعدها .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٧

(٦) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

من نموذج أختام عصر السلالات الباكرة في بلاد الرافدين ويبدو أن بدايات نشوء القصر الملكي، وقيام سلطة حاكمة غير دينية تعود إلى هذه الفترة .

إن هذه التشابه الكبير بين مكتشفات ألالاخ وآثار جنوبي بلاد الرافدين يدل على وجود اتصالات وثيقة ما بين المنطقتين منذ بدايات الألف الثالث قبل الميلاد على الأقل . ويبدو أن ألالاخ استفادت من موقعها القريب من جبال طوروس الغنية بالفضة، وجبال الأمانوس الغنية بالأخشاب التي كانت مطلوبة بكثرة في بلاد الرافدين، وجعل اتصالها مع ممالك جنوبي بلاد الرافدين قوياً ومستقراً .

وبما أن الملك شاروكين ، مؤسس الإمبراطورية الأكادية في جنوبي بلاد الرافدين، يذكر في كتاباته أنه وصل إلى " غابة الأرز وجبال الفضة " ، أي الأمانوس وطوروس، فمن المحتمل جداً أنه هو المسؤول عن تدمير أبنية السوية الثانية في ألالاخ(٧) .

تتصف السويات السابعة والرابعة بغنى أكبر بالمعلومات التي تمدنا بها عن المنطقة. فقد تم العثور في هاتين السويتين ، بالإضافة إلى الأبنية واللقى الأثرية، على مجموعة من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري واللغة الأكادية (اللهجة البابلية) يزيد عددها عن خمسمائة لوح، وتعود إلى فترتين زمنيتين من الألف الثاني قبل الميلاد.

تلقي المجموعة الأقدم، المكتشفة في السوية السابعة، أضواء على العلاقات في ألالاخ ويمحاض في نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن السابع عشر قبل الميلاد ، عند ما كانت ألالاخ تشكل جزءاً من مملكة يمحاض القوية التي كانت تشمل بسلطتها شمالي سورية كله آنذاك.

أما المجموعة الثانية ، وهي الأحدث، وكشف عنها في السوية الرابعة، فيرقى تاريخها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أي إلى الفترة التي كانت ألالاخ خلالها مملكة تابعة لإمبراطورية حوري – ميتاني .

وقد تمت قراءة هذه الألواح وترجمتها ونشرها من قبل الإنكليزي وايزمان D.J., Wiseman عام ١٩٥٣ في مجلد بعنوان :

The Alalakh Tablets , London 1953

من الجدير بالذكر أن محفوظات إبلا الملكية العائدة إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد تذكر ألالاخ بصيغتين :

---

(٧) المصدر نفسه ، ص٥١

أ - لا - لا خو   و   إ - لا - لا - خو [٨].

دون أن تقدم لنا أية معلومات عن وضعها ومكانتها السياسية ، أو أي شيء آخر . ولكن يمكن القول أنها كانت تدخل ضمن نفوذ مملكة إبلا آنذاك .نعــرف مــن خــلال نصوص ألالاخ أسماء بعض ملوك يمحاض، وأسماء حكام ألالاخ، حيث يذكر أبّـــا إلــــ Abbail بن حمو رابي الأول وخليفته على عرش يمحاض ، الذي بدأ حكمه في منتصـــف القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وكان يسيطر على مناطق تقع شرقي الفرات ، وتخضع لـــه إيمار وكركميش .

ويتحدث نصان من نصوص ألالاخ (١ و ٤٥٦ من السوية السابعة) عن قيامـــه بالقضاء على تمرد نشب ضده في مدينة إريتي Irrite الواقعة شرقي الفرات ، التي كـــان يحكمها أخوه ياريم ليم. وكتعويض لياريم ليم عن تلك المدينة التي دمرت عند القضــــاء على التمرد، أعطاه أبّا إلــ ألالاخ وموراز وبعض القوى الأخــرى في منطقــة العمــق ليحكمها باسمه.

نستنتج من ذلك أن منطقة العمق بكاملها ، ومن ضمنها ألالاخ بالطبع، كـــانت تتبع مملكة يمحاض خلال القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد.

وتبين ألواح السوية السابعة أن ألالاخ كانت لها علاقات تجارية مع مدن ومنـــاطق سورية مختلفة، إذ تظهر في قوائم الجرايات أسماء أشخاص من تونيـــب وأمـــورو وإيمـــار وكركميش وقبرص كمتسلمين لجرايات .

وتذكر إلى جانب ذلك مدن إبلا وأوجاريت وموراز وأرازيت .

وهناك ذكر لأشخاص وخيول وتاجر من أمورو[9]. ويبدو أن علاقات ألالاخ بـــابلا كانت قوية. فأحد النصوص مؤرخ بالسنة التي زوّج فيها الملك عمّي تـــاقوم ملـــك ألالاخ ابنه من ابنة حاكم إبلا [١٠].

ويشير نصان آخران إلى رحلات ملك ألالاخ أو سعاته إلى إبلا [١١] .

---

[٨] مرعي عيد ، إبلا ، تاريخ وحضارة أقدم مملكة في سورية ، دمشق ١٩٩٦، ص ٢٤.

(9) Mari, Aid Der Handel zwischen Syrien und Babylonien in 18. Jahnhundert vor christus , Würzburg 1985, S. 57.

(10) Wiseman . The Alalakh Tablets , 35,10

(11) idid. 377. 3- 4; 269, 3 .

بالإضافة إلى ذلك هناك إشارة إلى علاقات مع أوجاريت وإيمار وكركميش.فالنص رقم ٣٤٩ يذكر أن حاكم كركميش أرسل ثمانية وعشرين ألفاً وثمانمائة رأس من الأغنام إلى ألالاخ، ولكن دون أية إشارة إلى الغرض من وراء ذلك. هناك احتمال أن المرء احتاج صوف هذه الأغنام في ألالاخ لإنتاج الأنسجة، لذلك أُرسلت الأغنام كصفقة تجارية من كركميش إلى ألالاخ .

وتذكر نصوص السوية السابعة العاملين بصناعة النسيج مرات متعددة ربما يكون هذا إشارة إلى المركز البارز لصناعة الأنسجة وأهميتها في اقتصاد ألالاخ . ومن المعتقد أن الأنسجة التي تذكرها نصوص ماري كأنسجة يمحاضية ، كان مصدرها ألالاخ. إذ أن ألالاخ كانت تؤلف في ذلك الوقت جزءاً من مملكة يمحاض، ومن الطبيعي أن تكون التجارة الخارجية باسم المملكة، وليس باسم جزء منها، لذلك عرفت الأنسجة المصَّدرة نسبة إليها وليس إلى ألالاخ .

بالنسبة للوضع الاجتماعي في ألالاخ في القرن السابع عشر قبل الميلاد فيمكن معرفة بعض جوانبه من خلال بعض المعلومات الواردة في النصوص التي تعود إلى عهدَيّ ياريم ليم وابنه عمّي تاقوم.

كان السكان يتألفون من طبقتين رئيسيتين هما الأحرار والعبيد . ويتمتع الأحرار بالامتيازات المختلفة، ونميز بينهم الموظف والتاجر والفلاح والحرفي وغيرهم. أما العبيد فكانوا نوعين : عبيد الدَين وهم مواطنون عليهم العمل في بيت مدينتهم حتى يسددوا دَينهم مع الفائدة التي تتراوح مابين ٢٠ – ٢٥ % . وإذا لم يستطيعوا السداد كانت تهددهم العبودية الدائمة . بهذه الطريقة حصل الملك، الذي كان الدائن في معظم الأحيان، على أيدٍ عاملة رخيصة تعمل في قصره أو أرضه . والنوع الثاني من العبيد هم المدينون الذي تحولوا إلى عبيد دائمين بسبب عجزهم عن سداد ديونهم ، وأسرى الحروب. من الجدير بالذكر أن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً ، وكان معظمهم يعمل في خدمة الملك، ويمكن بيعهم وشراؤهم، ويصل سعر العبد منهم إلى نحو خمسة وعشرين شيقيلاً من الفضة (نحو ٢٠٠ غرام) [١٢] .

من الأهم المكتشفات الأثرية التي تعود إلى هذه الفترة قصر ياريم ليم الذي بناه فوق قصر أقدم منه، وكان يغطي مساحة قدرها ١٠٠X٣٠م. وقد شكل اثنان من جدرانه

---

[١٢] مرعي عيد ، التاريخ ، منشورات جامعة دمشق ١٩٩٠ – ١٩٩١ ن ص ١٢٩ .

المبنية من اللبن وبسماكة بلغت نحو ٤, ٢ م جزءاً من سور المدينة الذي كان يبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أمتار. اتجاهه شمالي جنوبي، وله مدخل وحيد على طوله الغربي يقود إلى قاعة كبيرة تفصل بين جناحي القصرالمؤلّفين من عدد كبير ممن الحجرات. ويبدو أنه كان مؤلفاً من طابقين ، بدليل وجود درج كبير في زاويته الشمالية [١٣]. وقد جُهز القصر بمغاسل من أحجار متشابكة، ومجارٍ للمياه المالحة لنقلها إلى خارجٌ المدينة [١٤].

وعَثر في قاعة الاستقبال الرسمية على بقايا رسوم جدارية مزخرفة بأشكال هندسية تشبه تلك الأشكال التي كانت تزين جدران القصر الملكي في كنوسوس بجزيرة كريت . كما أن تصميم القصر وأسلوب بنائه وتزيينه وغير ذلك من تفاصيل معمارية يشبه ما هو موجود في قصر كنوسوس وأبنية أخرى في كريت [١٥] .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : أيهما أقدم؟ قصر ياريم ليم في ألالاخ أم قصر كنوسوس في كريت ؟

يجيب السير ليونارد وولي على ذلك بقوله : إن قصر ألالاخ أقدم بنحو قرن من الزمن من قصر كنوسوس أو غيره من القصور الكريتية . وتدين جزيرة كريت بهندسة أبنيتها وزخرفتها وزينتها إلى سورية [١٦] .

توقف التطور الحضاري في ألالاخ، الذي تمثله السوية السابعة نتيجة حملات الحثيين على شمالي سورية اعتباراً من منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد . فاعتباراً من ذلك التاريخ شعرت دولة حاتي التي قامت في آسية الصغرى واتخذت من خاتوشا (حالياً بوغاز كوي شرقي أنقرة) عاصمة لها، أنها قوية بشكل كاف لترنو بأنظارها إلى ماوراء جبال طوروس. وكان الوضع الدولي مناسباً لتحقيق مثل هذه الأهداف .

فمصر كانت ضعيفة، وتُحكم من قبل الهكسوس، بينما كان خلفاء حمورابي البابلي منشغلين بالقضاء على أعداء يهددون حكمهم يفتخر الملك الحثي خاتوشيلي الأول (نحو ١٦٥٠ ق.م) بحملاته على شمال سورية فيقول : " في العام التالي [٢] سرت ضد ألالاخ ودمرتها. بعد ذلك سرت ضد أورشو ، ومن أورشو سرت إلى إغاكاليش،

---

[١٣] وولي ، ألالاخ مملكة منسية ، ص ٦١ .

[١٤] المصدر السابق ، ص ٥٦

[١٥] المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

[١٦] المصدر نفسه ، ص٦٤ .

وسرت من مدينة إغاكاليش إلى تيشخينيا . في طريق عودتي دمرت بلاد أورشو وملأت بيتي بكنوز ... في العام التالي [٦] سرت ضد مدينة زارونتي، ودمرت زارونتي. سرت ضد خاشو . أمامه (أمام الملك) اتخذ العدو مواقعه، وكانت قوات مدينة حلب معه. في جبال أدالور (جزء من جبال الأمانوس) ألحق به الهزيمة [١٧] .

مع ذلك لم تكن كل الحملات الموجهة إلى سورية مكللة بالنصر، كما يحاول هذا النص أن يبين.فخاتو شيلي لم يستطع السيطرة على حلب، وترك مهمة إخضاعها لخليفته مورشيلي الأول.

بالنسبة لألالاخ كشفت الحفريات عن آثار حريق كبير شمل القصر الملكي بكامله، فالجدران الجرية السميكة تهدمت بالكامل،وتحول الملاط المؤلف من الرمل والكلس إلى ذرات من الزجاج[١٨] .

بعد هذه الفترة تتميز المعلومات المتوافرة عن ألالاخ بقلتها ، إذا لا تمدنا مكتشفات السويات السادسة والخامسة بأية آثار هامة . ونعرف من المصادر الحثية أن شمالي سورية ، ومن ضخمة ألالاخ بالطبع ، بقي خاضعاً بشكل اسمي للمملكة الحثية القديمة. واستمر هذا لخضوع حتى ظهور إمبراطورية حوري - ميتاني في منطقة الجزيرة وتوسعها باتجاه الغرب ، باتجاه سواحل المتوسط الشرقية في أواخر القرن السادس عشر وبدايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وتمثل هذه القترة في ألالاخ السوية الرابعة التي عُثر فيها على مجموعة من الألواح المسمارية التي تمدنا بمعلومات هامة عن التطورات التي حدثت في ألالاخ آنذاك . ويمثل نقش إدريمي العائد إلى هذه الفترة أهمية خاصة بين النصوص المكتشفة . وهو عبارة عن سيرة ذاتية نقشت على تمثال إدريمي ملك ألالاخ المنحوت من حجر كلسي (يتكون من خليط من الدولوميت والمغنيزيت)، وموجود حالياً في المتحف البريطاني في لندن . وقد عُثر على هذا التمثال البالغ ارتفاعه متراً واحداً وخمسة سنتمترات في ربيع عام ١٩٣٩ محطماً في حفرة في أرضية بناء ملحق بمعبد المدينة، رأسه مفصول عن جسده. وعُثر في البناء على عرش من البازلت ارتفاعه خمسة وستين سنتمتراً،ووُجد أمام العرش مذبح مربع الشكل من البازلت أيضاً، ارتفاعه تسعة وثمانين سنتمتراً.

---

[١٧] مرعي ، عيد ، التاريخ القديم ، ص ١٣٠ .

[١٨] وولي ، آلالاخ مملكة منسية ، ص ٧١ .

من المعتقد أن التمثال كان مقاماً في معبد مدينة ألالاخ عندما هاجمتها شعوب البحر في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد ،ودمرتها وبالطبع تم تدمير المعبد وتكسير التمثال الموجود فيه.

يعد التمثال من ناحية فنية عملاً متواضعاً، له وجه قبيح ومضحك، لكنه يظهر سمات محلية لا علاقة لها بمصر أو ببلاد الرافدين، سواء من حيث تعابير الوجه أو اللباس. يظهر إدريمي جالساً على عرش واضعاً يده اليمنى على صدره واليسرى على حجره، عيناه جاحظتان ووجهه خالٍ من أية حيوية، تلف جسمه عباءة معروفة من تماثيل سورية أخرى، ويعتمر قلنسوةً مخروطية كان يلبسها الملوك والآلهة السوريون لكن أهمية التمثال وقيمته تكمن في النقش الذي يحمله على واجهته الأمامية والمؤلف من مائة وأربعة سطور منقوشة بالخط المسماري واللغة الأكادية، يمثل سيرة ذاتية يروي فيها إدريمي قصة حياته والأعمال التي قام بها.

في بداية النقش يقدم إدريمي نقشه ويذكر اسم والده (السطران ١ - ٢)، وفي السطور ٣-٦ يذكر أن تمرداً حدث في حلب مقر حكم أبيه ، أرغمه هو وإخوته على الهرب إلى مدينة إيمار حيث يقيم أقرباء أمه .

أنا إدريمي بن إليم -إليمّا
خادم أدد وخيبات وعشتار سيدة ألالاخ ، سيدتي .
في حلب بيت أبي
حدثت اضطرابات وهربنا إلى
سادة إيمار إخوة
أمي ، وسكنا في إيمار [١٩] .

مما لاشك فيه أن التمرد الذي حدث في حلب كان بتأييد من مملكة حوري - ميتاني التي تحاول في أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد مد سيطرتها باتجاه الغرب نحو سواحل المتوسط.

كانت حلب قبل ذلك قد فقدت دورها الهام في شمالي سورية نتيجة احتلال الحثي مورشيلي الأول في بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد.

---

[١٩] المقاطع المترجمة من السيرة الذاتية الواردة في هذا المقال مأخوذة من مقالنا : إدريمي ملك ألالاخ ، المنشور في مجلة دراسات تاريخية ،من العددان ٢٩ ت ٣٠ عام ١٩٨٨، ص ١٠٨ وما بعدها .

ولكن بعد موت مورشيلي الأول دخلت الإمبراطورية الحثية في مرحلة من الضعف والفوضى نتيجة الصراعات الداخلية التي حلت بها . ثم استطاعت حلب خلال هذه المرحلة استعادة استقلالها وقوتها ودورها الهام في المنطقة ، وقام على حكمها الملوك شارا إل وأبّا-إل وإليم-إليمّا والد إدريمي .

أدى سقوط حلب وهرب أسرة إدريمي نتيجة التمرد الذي حدث فبها إلى أن يمد باراتارنا ملك مملكة حوري -ميتاني نفوذه حتى سواحل البحر المتوسط الشرقية . لا ترد في النص تفاصيل ما حدث في حلب ، ولكن بما أن النص لا يذكر شيئاً عن هرب إليم-إليمّا والد إدريمي مع الهاربين إلى إيمار ، فيمكن القول أنه قُتل خلال التمرد الذي حدث ، أو أن موته الطبيعي كان دافعاً للقيام بالتمرد.

كانت إيمار واقعة خارج منطقة نفوذ إليم-إليما . أما في القرنين الثامن عشر والسابع قبل الميلاد فكانت تحت سيطرة ملوك يمحاض ، وكانت تقوم بينها وبين ألالاخ علاقات قوية .

بعد إقامة غير محددة من إيمار غادرها إدريمي متوجهاً إلى أرض كنعان في جنوب غربي سورية، وذلك عبر بادية الشام . أما الاسباب التي دعته إلى التوجه إلى ارض كنعان دون سواها فكانت على مايبدو، قرب هذه المنطقة من البحر ومن مناطق النفوذ المصري في سورية، مما يسهل الاتصال مع المصريين، وطلب العون منهم ، إذا دعت الحاجة ، من أجل العودة إلى مملكة أبيه . يضاف إلى ذلك أن أرض كنعان كانت ملجأ للعديد من سكان مملكة إليم-إليما ، كما يرد في النقش صراحة :

حصاني وعربتي وخادمي
أخذتها ، وفي أرض الصحراء
عبرت . ولدى جماعات السوتيين
دخلت . معه (مع الخادم)
بتُّ أمام عرش زاكار . وفي اليوم الثاني
رحلت وإلى أرض كنعان
وصلت . في أرض كنعان
تقع مدينة أميّا.
في مدينة أميّا سكن
أناس من حلب ، وأناس من أرض موكيش،

وأناس من أرض نيخي ، وأناس من أرض أمائي .

فيما بعد توصل إدريمي ، كما يبدو، إلى اتفاق مع باراتارنا ملك حوري – ميتاني، وعاد إلى ألالاخ ليحكم فيها كملك تابع له (السطور ٢٧ –٥٨):

ولدى جماعات الخابيرو أقمت سبع سنوات .

تركت عصافير تطير ، وتفحصت (أحشاء) الحملات .

وفي السنة السابعة رجع أدر إلى رأسي ، ومن ثم ضعت سفناً.

عسكر نولاً جعلتهم يصعدون إلى السفن .

وبحراً من أرض موكيش اقتربت ، وأمام جبل خازي (الأقرع)

وصلت إلى اليابسة . بعد ذلك صعدت .

وعندما سمعت بلدي بي الابقار والأغنام جلبها المرء لي .

وفي يوم واحد وكإنسان واحد ، أرض نيخي وأرض أمائي

وأرض موكيش وألالاخ مدينتي عادوا إليّ .

إخوتي سمعوا (بذلك) وأتوا إليّ . إخوتي استراحوا عندي . حميت إخـــوتي. عـــدا ذلك سبع سنين باراتارنا الملك القوي ملك الحوريين عاداني .

في السنة السابعة إلى باراتانا الملك ، ملك الحوريين أرسلت أنواندا ، وتحدثت عـــن جهود أبائي بأن أبائي كانوا قد خلدوا إلى الهدوء ، وأجدادنا (كانوا) طيبين مع ملـــوك الحوريين،

وأنهم أقسموا فيما بينهم قسماً عظيماً.

الملك القوي سمع عن جهود أبائنا ، وعن القسم فيما بينهم ، وخاف من علامـــة القسم . لأجل فحوى القسم ولاجل جهودنا قبل هديتي الترحيبية ، وفي شـــهر كينونـــو التالي قدمت أضاحٍ كثيرة وأعدت إليه البيت الهارب. في إنسانيتين، في إخلاصي، بشـــكل ودي أقسمت له ، لذلك أصبحت ملكاً على ألالاخ.

ثم يذكر إدريمي أنه قادم بتحصين مدنه وتمتين أسوارها (السطور ٦٠–٦٣) لزيـــادة فاعليتها الدفاعية ورد الهجمات المعادية . كذلك يذكر أنه قام بحملة عسكرية على بعـــض القلاع والمدن الحثية (السطور ٦٤–٨٠).

ولكن يبدو أن تلك الحملة كانت بهدف السلب والنهب، وحدثت في وقت كانت فيه الإمبراطورية الحثية تمر بموجة من الفوضى والاضطرابات الداخلية ، لم تمكنها من الـــرد

على العمل العسكري الذي به إدريمي. ولربما قام إدريمي بذلك بتشجيع من سيده ملك حوري – ميتاني . نقرأ في النقش مايلي :

أسوارها (أسوار المدن)
التي أقامها الأجداد من تراب
جعلتها ترتفع بالتراب
ومن أجل القتال زدتها علواً
أخذت العساكر وإلى أرض خاتي
صعدت ، واستوليت على سبع قلاع (مدن) :
باشاخي ، داماروتلا ،
خولاخان ، زيلا ، إي
أولزيلا وزارونا .
هذه القلاع (المدن) استوليت عليها ودمرتها . بلادخاتي
لم تتجمع ولم تأت ضدي .
صنعت ما يشتهيه قلبي : غنائمهم ،
نهبتها ، أملاكهم وأمتهم وممتلكاتهم
أخذت ووزعتها على عساكري .

ويفتخر إدريمي بتحسين أوضاع السكان المتقدمين، وبتحويل البدو غير المستقرين إلى حياة الحضر من خلال تأمين مساكن لهم (الطول ٨٤-٨٦) يقول :

السكان الذي في بلدي
مسكنهم جعلتهم يسكنون بشكل أفضل .
الذين لم يسكنوا في مسكن (قط)
جعلتهم يسكنون . ووطدت بلدي .

إن هذه أقدم إشارة إلى محاولات توطين البدو . وربما قام بها إدريمي من باب مكافأة بعض البدو الذين ساعدوه في العودة إلى الحكم ، أو أنه نوع من الحنكة السياسية والنظرة بعيدة المدى لجعل هؤلاء العناصر موالية لحكمه .

في نهاية النص يصب إدريمي شتائم ولعنات الآلهة وغضبها على كل من يغيير نفسه أو يزيل تمثاله، ويذكر أنه حكم ثلاثين عاماً كملك في ألالاخ. ويتمنى النصر والحياة الطويلة لكاتب النص المدعو شاروا (السطور ٩٢-١٠٤) .

يتبين لنا خلال النقش أن إدريمي حكم مملكة موكيش وعاصمتها ألالاخ ، التي كان يحدها البحر المتوسط من الغرب وكيزو واتنا (منطقة في كيليكية) من الشمال، ولها حدود مشتركة مع أوجاريت في الجنوب مدة ثلاثة عقود من السنين في بدايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد . أما حلب فبقيت خارج نفوذه تحت السيطرة الميتانية المباشرة.

وعدَّه خلفاؤه مؤسس سلالة جديدة، واستخدموا خاتمه في ختم وثائقهم. وبقي تمثاله مقاماً ومقدساً في ألالاخ قرابة ثلاثمائة عام ، أي حتى العصر الذي حدث فيه التغيُّر الكبير في شمالي سورية بدخول شعوب البحر من جهة ، وانتشار الآراميين وانهيار الإمبراطورية الحثية من جهة ثانية.

يبدو أن حملات الفراعنة المصريين الكبار من الأسرة الثامنة عشرة (نحو تموس الثالث ١٤٦٨ - ١٤٣٩ ق.م وأمنحوتب الثاني ١٤٣٨-١٤١٢) على شمالي سورية لم تطل ألالاخ، ولم تؤد إلى حدوث أية تغيرات فيها .والدليل أن (أمنحوتب الثاني) في نقش إدريمي وفي النصوص الأخرى، واستمرار التطور السياسي والحضاري في الالاخ دون حدوث أي تغيير أو انقطاع .

حسب النصوص اعتلى عرش الالاخ بعد ادريمي ابنه نيقميبا ، وذلك على عكس ما يذكر إدريمي في سيرته الذاتية إذا يقول (السطور ٩٠-٩١):

هذا ما عملته

وعهدت به إلى يد ولدي أدو نيراري.

ربما يكون سبب هذا التناقض الظاهري وجود ولدين لإدريمي ، الأول أدو نيراري الذي لم يحكم لفترة طويلة، والثاني نيقميبا الذي حكم فترة أطول، لذلك تعود الرقم المكتشفة في السوية الرابعة لكنها إلى عهده. أو أن الاسمين لشخص واحد .

من أعمال نيقميبا قيامه بتوسيع القصر الملكي الذي بناه أبوه إلى الضعف تقريباً، وتزويده بحمامات ودورات مياه وأقنية لتصريف المياه، وجعله ثلاثة طوابق، بينما كانت بيوت الأغنياء مؤلفة من طابقين [٢٠] .

كان نيقميبا معاصراً للملك الميتاني ساوشتتار تابعاً له بدليل ظهور طبعة خاتمه الخاص به على عدد من الوثائق لتأكيد سلطته .

---

(٢٠) وولي ، آلالاخ مملكة منسية ، ص ١٠١ .

ويتحدث أحد النصوص (رقم٢) عن معاهدة عقـدها نيقميبيـا ملـك موكيـش وألالاخ مع إر – أدو ملك تةنيب ، المملكة المعتقد أنها كانت تجاور حلب من الجنـوب ، ولها حدود مشتركة مع الالاخ.

المعاهدة تنظم العلاقة ما بين المملكتين ، والملفت للانتباه فيها أن أحد بنودها ينـص على قطع أيدي الأشخاص الذين يخفون العبيد الهاربين مـن مملكـة ألالاخ في تونيـب (السطور٣٠-٣٢):

"إذا لم يحلفوا (أشخاص) وجاء (رجل) وأخرج عبيده من عندهم، فهم لصـوص (شَرّاقو)، أيديهم يجب أن تُقطع up-ta-qa ri-it-ta-an وعليهم أن يدفعوا للقصـر سـتة آلاف (شيكيل) نحاس ".

وتشير معاهدة عقدها أحد الملوك الحثيين مع المدعو لابئو ملك تونيب إلى اتفاق مـا بين ألالاخ وتونيب ، وتذكر ألالاخ وملكها إليم – إليماً الثاني، الذي من المؤكد أنه كـان ابن نيميبا[٢١] . وقد حدثت في عهده كارثة في ألالاخ سـببها تعـرض شمـالي سـورية للهجمات الحثية من جديد بقيادة توتخاليا الثاني، الذي يعد مؤسس الامبراطوريـة الحثيـة الحديثة (نحو ١٤٦٠ ق.م) وسقطت حلب بيده ، وكذلك ألالاخ وتعرضت للتدمير.

غير أن النفوذ الحثي لم يدم طويلاً بعدتوتخاليا الثاني، بسبب تداعي الامبراطورية التي أنشأها، فعاد النفوذ الحوري ــ ميتاني إلى شمالي سورية، وعادت الحياة مـن جديـد إلى ألالاخ، التي يُتقد أن أحد أمرائها كان معاصراً لأواخر عهد الفرعون المصـري اخنـاتون (١٣٦٤ــ١٣٤٧ق.م)، واسمه إتور أدر، الذي تعاون مع ملوك نيـا ونوخاشـي ضـد أوجـاريت ، تم عزلـه مـن قبـل الملـك الحثـي الكبـير شـوبيلوليوما الأول (١٣٨٠ــ١٣٤٦ق.م)، الذي أخضع شمالي سورية كله للسيطرة الحثية،ووصل إلى لبنـان، منهياً بذلك عهد السيطرة الميتانية على هذه المنطقة.

أصبحت ألالاخ بذلك مقاطعة حثية، وأقام فيها موظفون حثيون عُثر على أختامـهم التي استخدموها، وهي على شكل كرات مسطحة تمثل كتابات هيروغليفية [٢٢] . ويمثـل هذه الفترة في الالاخ السويتان الثالثة والثانية، الغنيتان بفخار نوزي الذي كـان شـائعاً آنذاك.

---

(21) Helck . W., Die Beriehungen Äzu Vorderosien in 3. Und 2. Jahrtausend v.chr. , 2. Verbesseste Auelage , Wisbaden 1971, S.293 .

(٢٢) وولي ، آلالاخ مملكة منسية ، ص ١٢٧ .

بقيت الالاخ وغيرها من مدن شمالي سورية خاضعة للحثيين حتى بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، عندما قامت شعوب البحر ، معتمدة على أسلحتهاالحديدية، باكتساح المنطقة والقضاء على بقايا الامبراطورية الحثية أولاً، ثم الاتجاه جنوباً حتى الوصول إلى دلتا النيل حيث هزمهم الفرعون المصري رعمسيس الثالث.

ولاقت ألالاخ التدمير والموت ، ولم تعد تُسكن فترة من الزمن. غير أن مرفأها أُعيد بناؤه فيما بعد ليخدم التجارة الاغريقية، وسمي بوزيديوم **Posidium** عبى اسم إله البحر عند الإغريق. وعُثر على مكتشفات تدل على ازدهار هذه التجارة في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

وفي عام ٣٠١ قبل الميلاد قام سلوقس الأول نيكاتور مؤسس السلالة السلوقية بتأسيس مدينة سلوقية إلى الشمال من بوزيديوم.

وشهد هذا المرفأ بعض الازدهار في العصور اللاحقة، وسُمي مرفأ القديس سمعان اعتباراً من القرن السادس الميلادي [٢٣].

أما ألالاخ فقد بقيت نائمة تحت ركام السنين حتى أيقظتها معاول المنقبين في القرن الحالي.

---

[٢٣] المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

إيبلا: تأسيس حضارة مدنيّة

بقلم آركي- جامعة روما - المعرفة

نقلها إلى العربية: الدكتور شوقي شعث - جاز يوسف

تمثل إيبلا أحد أقدم المراكز التاريخية التي تمكننا الوثائق المكتوبة من العـــودة إليـــها. تعود السلالة الحاكمة فيها إلى ما قبل ٢٦٠٠ ق.م وبهذا فإنها ترجع إلى العصر الأسطوري عصر جلجامش والفرعون خوفو. ونعرف هذا من خلال قائمتين. ففي الأولى وفي ترتيـب زمني متأخر ، تعرف بعشر شخصيات بارزة راحلة "بالملوك المؤلهين". والقائمـــة الثانيـــة، وهي تمرين على الكتابة حيث تفتتح باسم الملك الأخير: إشار - دامـــو Ishar – Damu ، تذكر الأسماء العشرة الموجودة في القائمة الأولى يضاف إليهم خمسة عشر آخرين، أربعـــة منهم هي أسماء أناس كانت تقدم لهم التقدمات في نص نسخ الطقس الخـــاص بـــالزواج الملكي (ب. فرونزارولي, أرشيف ملك إيبلا, الجزء ١١ روما ١٩٩٣, رقم ١و٢) . لقـــد ظهروا وكأنهم الأجداد الأكثر شهرة ، فوضع الملك والملكة في هذه المناسبة عينها، تحـــت حمايتها ليضمنا استمرار السلالة الحاكمة.

إنه لمن الممكن ألا تكون الأسماء الخمسة عشر جميعها تدل على سلســـلة عائليـــة واحدة،وكذلك انتقال المراكز العليا من الآباء إلى الأبناء. ربما كـــان بعضـــهم رؤســـاء مجموعات قبلية وإن اتحادهم أقام المجتمع المدني في إيبلا. على أية حال، إذا جعلنا عشرة إلى خمسة عشرة سنة لكل واحد من هؤلاء القادة والأمراء ، وحتى إذا افترضنـــا أن بعضـــهم كان يعيش في فترة واحدة ، فسوف نصل على وجه التقريب إلى منتصف القرن الســـابع والعشرين ق.م.

على أية حال ، لا يهمنا هنا تشكيل سجلات. وإنما المهم هو أن وثائق تشـــير إلى قيام مركز حضاري قديم، ويعتبر مع مركز لغش Lagash في جنوب بلاد الرافدين الأقـــدم الذي كان أيضاً معاصراً له (النصف الأول من القرن الرابع والعشـــرين). في الواقـــع إن السجلات الأقدم موجودة لكن هذه ليست موجودة حيث أنهـــا متفرقـــة وذات نوعيـــة مختصرة للوثائق، تمكننا من إعادة بناء النظام الاقتصادي الإداري والتي كانت الوثائق تعتـــبر كتابته وموضوعه (الإنتاج).

إننا ندين لهذه السلالة بإنشاء إيبلا كمركز حضاري خلال الفترة المعروفة بـ "التحضر الثاني" والتي تعتبر بشكل عام كبداية للقرن السادس والعشرين. لقد ساهمت التأثيرات القادمة من المنطقة السومرية أثناء القرون الأخيرة من الألف الرابع في نشر شكل من التنظيم الإقليمي المؤسس على المراكز المدنية ولكن، فقط فيما بعد، ومع تبني الكتابة المسمارية مع بداية القرن الرابع والعشرين والمبتكرة في سومر كأداة إدارية، أصبحت الدولة متماسكة في سوريا. ومهما يكن فإن مركزاً حضارياً قديماً ومحصناً في منطقة إيبلا والكائن في تل آفس Tell Afes حوالي /١٢/ كم شمال إيبلا) يعود إلى العصر الحجري النحاسي المتأخر (النصف الثاني من الألف الرابعة).

يتضمن احتفال الزواج لدى الأزواج الملكيين رحلة ذات طقس ديني، تستمر أياماً عديدة إلى المدافن وأماكن عبادة بعض الأجداد المتناثرة فوق السهل الابلائي، وكان ذلك على الأغلب كوسيلة للتعريف بالمنطقة وإضفاء للشرعية على زواجهم ذلك، كان الملك الخامس ،هامانا Hamana يعبد في مكان يدعى أدوهودو Uduhudu شاغيشو وإبيني -لم واشر'د – دامو Shagishu , Ibbini – Lim and Ishrud – Damu (هم الملوك الثامن والعشر والحادي عشر على التوالي) لديهم ضريح في بيناش Binash (بنش) وقد فرضت قائمة الملوك العشرة تقديم العطايا في دارب Darib وهي أتارب حالياً، تقريباً / ٣٠/ كم شمال إيبلا.

إذاً، فمن المؤكد أن الشعب الذي أسس إيبلا والذي كان يتكلم بلغة سامية، كما يتبين من أسماء العلم (وهي لغة تتصل بالأكادية والآرامية والعربية وبعض اللغات من المنطقة نفسها) ، كان قد عاش في المنطقة لعدة قرون. ولكن من المحتمل أنهم كانوا قد بسطوا نفوذهم فوق شعوب ذات أصول لغوية مختلفة. فأسماء العلم والأمكنة المنتهية بلواحق مثل [i/ u G (u/a)] وهي غاليغو / غوليغو Galigy / Guligu وأداينغو (u) Ada Neg ، وأسماء علم مكتوبة برمزين من المقاطع الصوتية، مثل

Zu – ba , Zi – Za, Zi -ti, Zi – ma, Mu –za, Mu –wa, Mu - na ، لايمكن تفسيرها بسهولة على أنها سامية .

وبين أسماء الأرباب أيضاً والتي تبدأ باسم الرب الرئيسي كورا Kura، هناك بعض الأسماء تبقى متميزة تماماً ولا تظهر في المذاهب الحلولية السامية الأخرى. إن مجمع الأرباب في ايبلا يظهر وكأنه مزيج من عناصر سامية وعناصر من طبقات سفلية. والأرباب الثلاثة المستحضرة في مرسوم أصدره الملك هي رب المدينة كورا، ورب الشمس Shamash

(والذي يكتب اسمه دائماً بالرمز السومري أوتو Utu)، وهو كفيل بتحقيق العهود، وهو مؤنث في ايبلا كما هو في اللغة الأوغاريتية والعربية. وأخيراً هَدًّا Hadda، رب العاصفة عند الشعوب السامية الشمال الغربية والذين كان مركز عبادهم في حلب أثناء الألف الثالثة. وبين الأرباب المحليين الأكثر احتراماً لدينا هدا بعل Hidabal فإن اسمه على الرغم من أشكاله المختلفة يبدو لأسباب الكتابة من الصعب تفسيره على أنه ساميّ.

وتغطي الوثائق (٤٥ + ٥٠) سنة، متزامنة مع ثلاثة أجيال من الملوك : إغريش ــ خالاب Igrish – Khalab وإركاب ــ دامو Irkab- Damu- وإشار ــ دامو Ishar – Damu نحن نعلم أن إغريش ــ خالاب كان معاصراً لإبلول ايل Iblul – Il وملك ماري (الذي توفي ربما عند بداية حكم إركاب ــ دامو)، ولكنه لا يمكننا أن نجد تزامناً بين إبلول ايل وملوك الدويلات الرافدية الواقعة في وسط جنوب بلاد الرافدين.

وهناك تزامن آخر يزودنا به غطاء من الالباستر لمزهرية وجدت في المنطقة الإدارية من القصر (حيث كان هناك ارشيف صغير محفوظ ايضاً)، والذي وجد شعار لبيبي الأول Pepi I عليه وهو الفرعون الثالث من السلالة السادسة. والألقاب التي تظهر في الشعار هي التي كانت مستعملة في النصف الأول من حكم بي الأول الطويل الذي فاق الأربعين عاماً. وهذا الاكتشاف يعطينا نقطة ما بعد البداية في قصة خراب القصر terminus Post quem تقليدياً، فإن النصف الاول من فترة حكم سرجون الأكادي والذي يُعتقد أنه حكم لمدة ست و خمسين سنة وكان قد جلى على العرش في حدود ٢٣٤٠ ق.م، وقد اتفق على أنه يتزامن مع النصف الثاني من حكم بِبي الأول. ولكن في الواقع لا يوجد تزامن بين السلالة الحاكمة المصرية وبين مثيلاتها في بلاد الرافدين. إن سرجون الأكادي لا يظفر في نصوص إيبلا، بينا نجد إشكونونو Ishkunnunu مذكوراً (في وثيقة ربما يعود تاريخها إلى آخر ملوك إيبلا) الذي سيظهر ليكون ملكاً لكيش Kish، إحدى المراكز الرئيسة في بابل، التي ضمها إليه مؤخراً سركون لتشكل مملكة أكاد. ومن هنا، فإن الخمسين سنة لوثائق إيبلا يمكن أن يعود تاريخها إلى ماقبل ظهور سركون، أي من ٢٤٠٠ إلى ٢٣٥٠ ق.م. وإما أكثر أو أقل من ذلك ومهما يكن فإنه يمكننا أن نتخيل تطابق السنوات الأخيرة لإشار ــ دامو مع السنوات الأولى لحكم سركون الآن، ولتبسيط الأمور، نحن نتعامل مع أعداد كاملة (بلاكسور) ولكن يجب أن نأخذ في الحساب أن المختصين في التأريخ يميلون إلى خفض بضعة عقود من التواريخ التقليدية المصرية والرافدية.

وهكذا فإن المحفوظات المركزية ترتبط بآخر ثلاثة ملوك من القطاعات الموثّقة إدارياً بشكل أفضل (تلك التي لها علاقة بتوريد المعادن الثمينة وبتوزيع الأقمشة والمعادن الثمينة لأعضاء إدارة القصر وإلى مدن أخرى) يمكننا القول إن الأرشيف يغطي أربعين سنة ونيفاً بشكل متصل ، بينما نجد وثائق منفردة فقط للسنوات السابقة لا يمكن استبعاد احتمال أن الكتابة كانت قد أُدْخِلَتْ إلى إيبلا قبل ذلك ، ولكنه من المؤكد أن إيبلا كانت تحت حكم الملك الثالث من الأخير إغريش ــ خالاب وخليفته إركاب ــ دامو ، وذلك أن المدرسة الكتابية في إيبلا وصلت إلى نفس المستوى الذي وصلته مدارس حكومات القصور في بلاد الرافدين . ويعود تاريخ اكتساب المادة اللغوية السومرية إلى هذه الفترة . ويتطلب النظام المعقد للكتابة المسمارية على الأقل معرفة جزئية بتلك اللغة ؛ ذلك النظام الذي استخدم ليس فقط رموزاً لمقاطع صوتية بل وأيضاً كتابات تصويرية سومرية التي بها يمكننا أن ندل على المصطلحات برمز وحيد. وهكذا نسخ إيبلا قائمة من الكلمات بحسب رمزها الأول. أحد هذه الرقم تم اختياره فيما بعد ليكون الأساس لقوائم ثنائية اللغة، إنها قاموس حقيقي (الأكثر قدماً في التاريخ البشري) حيث نجد المصطلح السومري يقابله المصطلح الابلي هناك ثلاث مجموعات متقاطعة بالنسبة للتأريخ الداخلي للوثائق الإدارية :

١ــ حسابات شهرية تتعلق بتوريد قماشي : (وهي حوالي) (٦٠٠) رقيم فخاري كبير، أبعادها مابين (١٨و ٢٢)سم، تغطي فترة تولي الوزراء أو الولاة الثلاثة : أرّكوم Arrukum وإبريوم Ibrium وإبّي زكر Ibbi _ Zikir ومجموعها أربعون سنة ونيِّفاً .

٢ ــ الحسابات السنوية للمواد الذهبية والفضية التي يدفعها القصر ويبلغ اثنين وثلاثين رقيماً فخارياً كبيراً، يبلغ قياس الأكثر حداثة ٣٦ سم لكل جانب تحتوي على أكثر من ثلاثين عمود كتابة في كل وجه. وقد أوجد هذا النموذج الوالي إبريوم، ويمكن أن ننسب ثمانية عشر فيها إليه، بينما هناك أربعة عشر آخرى تعود بتاريخها إلى نجله وخليفته إبّي ــ زكر. ومهما يكن فإنه قبل ذلك في عهد أرّكوم كانت فكرة تدوين الحسابات السنوية لهذا القطاع من الإدارة موجودة، وهناك رقم يمكن أن نأخذها كبرهان على ذلك بالرغم من اختلافها في الشكل وفي تقديم سجلات أساسية خاصة .

٣ ــ الحسابات السنوية التي تحتوي على سجلات لعمليات توريد الفضة والذهب الإضافة إلى القماش من قبل الولاة و "الاسياد" (وهم الموظفون الأعلى رتبة في الدولة) وولايات المدن التي تتمتع بعلاقات طيبة مع إيبلا. سبعة عشر من هذه الحسابات تعود

بتاريخها إلى فترة إبريوم و أربعة عشر تعود إلى فترة إبي ـــ زكر. وهناك مرحلـــة بدائيـــة أيضاً لهذا النوع من الوثائق تعود إلى عهد أركوم. والوثائق الأكثر قدماً، ثلاثـــين أو مـــا يقارب، هي من الوثائق الشهرية الرئيسة أو أنها ذات نوعية عرضية .

إن وثائق إيبلا تعتبر بالتأكيد من ضمن الوثائق الضخمة والأكثر في العالم القـــديم (إن العصر الكلاسيكي (اليوناني والروماني) لم يترك لنا شيئاً يمكن مقارنته، وكذلك وثائق البردي في مصر، وإذا أردنا أن نقارن علينا أن ننظر إلى العصر الوسيط)، ولكنها ليســـت حالة منفردة في الشرق الأدنى القديم. وأهميتها تعود إلى مدى قدمها .

إذا، ليست مهمة سهلة على العلماء الذين يشتغلون على مثل هذه الوثائق. فنحـــن لا نتعامل فقط مع تحديد أهمية المصطلحات الإدارية منذ أكثر ٤٠٠٠ ســـنة مضـــت في لغات لا نعرف منها إلا الجزء اليسير فقط (وهما اللغتان الإبليـــة والســـومرية). وتكمـــن الحقيقة في أن النصوص هي في غاية البساطة لذلك فهي في غاية الصعوبة لأن تُقيِّم وذلـــك لأن أي فهم للسياق التاريخي والإداري سيكون متعباً .

يبدو وكأن دوامة كانت قد عصفت بأوراق الأرشيف الحديث، خالطـــاً وممزقـــاً إياهم إلى قطع صغيرة. والسبب الرئيس لهذا الدمار هو الحريق الهائل الذي حدث بـــالقصر الملكي الذي نتج عن الغزو والذي أدى بدوره إلى إنهاء الحياة السياسية في إيبلا في الألـــف الثالثة قبل الميلاد. إذا تأملنا فقط الارشيف المركزي، سوف نجد أن (١٧٢٧) لوح كـــامل أو معظمه كامل، ولكن هناك (٩٤٧٣) قطعة كبيرة نسبياً، وآلاف من القطع الأصغـــر، ولكي نحصل على فهم أشمل لخواص عديدة للوثائق، فإن هذه القطع الصغـــيرة لاتهمنـــا بشيء، أما الاشياء الاخرى (كالرسائل والقوائم اللغوية) فهي هامة. أولاً يجـــب وضـــع الألواح بالترتيب مرة ثانية، ثم تصنيفها من خلال المحتوى والنوع، بينما الالواح الاصغـــر حجماً ربما تتعلق بحسابات خاصة أو تتضمن نتائج سنوية لقطـــاع إداري بأكملـــه، إن الشكل نفسه للالواح الكبيرة (نماذج ثخينة أو رقيقة، أكثر أو أقل حدة في الزوايـا إلى أي مدى الجوانب المعاكسة مدورة، الخ) يحدد النموذج الذي تنتمي إليه. والنجاح في إعـــادة تشكيل الألواح المتناثرة يقرره محتواها. إنه لمن الصعـــب إعـــادة ترتيـــب الألـــواح ذات الحسابات الشهرية للقماش حيث أنها كثيرة العدد وتحتوي على أجزاء متشابهة متنوعـــة. وعوضاً عن ذلك فإن العدد المحدود للحسابات السنوية يمكننا من إعادة ترتيـــب جميـــع الأجزاء تقريباً . لقد أعيد وبالإجمال تشكيل لوائح التقدمات والألواح المتعلقـــة بـــإدارة المزارع التي حفظ منها ماهو منقّى، وكذلك القوائم اللغوية، تعود المشـــكلة الرئيســـة في

استخدام هذه الوثائق في إنشاء بنية تاريخية إلى حقيقة كـــون النصـــوص غــير مؤرخــة بالسنوات. فقد كانت معادلات التأريخ السنوي قاعدة سائدة فقط بعد السلالة الأكادية. إنه لشيء متناقض، ولكن هذه الكمية من المادة المكتوبة تجازف بعدم كونها مفسرة بشكل جيد في المفهوم الاقتصادي ـــ التاريخي بشكل دقيق لأنه لا يوجد ترتيب زمني يمكـــن أن يُطبَّق عليها بشكل ناجح. لذلك فمن الضروري أن نقوم بدراسات دقيقة تعتني بوصـــف المظهر الشخصي للإنسان وذلك لوضع الأحداث بترتيب بما يخص الشـــخصي نفســها، وهكذا لكي نقارن المعلومات المستخرجة من أشكال النصوص المختلفة. وكما قال عـــالم الإمبراطورية الرومانية العظيم رونالد سايم Ronalcl Syme مدافعاً عن بوحوته في علـــم وصف مظاهر الشخصية يستخدم المرء ما يملك، وهناك عمل يجب اتمامه" .

والفضل يعود إلى هذا الأسلوب في قدرتنا على تعريف، نوعاً ما، الخطـــط الـــتي استخدمها الإدارة في ايبلا في خلق نظام تحكم بالدولة وفعاليتـــها الإقتصاديـــة. بالنســـبة لإغريش ـــ خالاب، الملك الثالث من الأخير، لدينا وثائق غالباً تتعلق ببضـــائع واردة إلى القصر من قبل "الأستاذ" الذين كانوا مسؤولين عـــــن المراكـــز الإداريـــة والقطاعـــات الاقتصادية، ومثل ذلك وثيقة تربية الماشية. وقلّما نجد مثل هذه الوثـــائق في الحســـابات السنوية. بينما نجد أساسات الإدارة أكثر فعالية خلال الفترة التي كانت بقيـــادة الحـــاكم التالي، إركاب ـــ دامو. وكانت الحسابات الشهرية مرتبة بشكل نظامي من أجل توزيـــع القماش، زد على ذلك، فإن الحاجة إلى حسابات تتعلق بفترات إدارية أطول بدأت تظهر، لذلك فإن ثلاثة حسابات سنوية تكون مرتبة لوحدها وتتعلق بـــالتوريدات إلى القصـــر، واثنين، أيضاً سنوية، يسجلان الكميات الصادرة من ذهب ومن فضة. مـــن المؤكـــد أن أركوم بقي في منصبه حوالي ست أو سبع سنوات. ومع إبريوم الذي خلفه حتى انتـــهاء فترة حكم إركاب ـــ دامو والذي جاء أيضاً من طبقات " الأســـياد"، فـــإن النمـــاذج الرئيسية للوثائق انجزت شكلاً لم يغيره الإداريون في إيبلا جوهرياً فيما بعد حتى خـــراب المدنية بعد أكثر من ثلاثين سنة. وفي إيجاد وإكمال نماذج هذه الوثائق، حيـــث إصـــلاح إداري وضع سيطرة الإدارة بأكملها تقريباً في يد الوالي. بينمـــا وجـــد " الأســـياد " أن مسؤولياتهم تتضاءل . في الواقع إن التوريدات التي كانت قد تمت من قبل الـــولاة ازدادت بينما نقصت إمدادات " الأسياد" . وقد تماشى ذلك مع تطور ملحـــوظ في إيبـــلا الـــتي تطورت من دولة ـــ مدينة إلى دولة إقليمية . نصل إلى هذه النتيجة من خلال التوفيق بـــين المعلومات الاقتصادية، مثلاً الازدياد غير الطبيعي في البضائع المتداولة والمواقف السياســـية

التي برزت من الوثائق الخاصة بالمراسلات مثل تلك التي تخصّ بالعلاقات بين ماري ودول إقليمية أخرى .

إن المحفوظات الملكية تفتقر إليها إيبلا بشكل كامل، وهي المصدر الأول لإعادة تشكيل التاريخ السياسي في الشرق الأدنى القديم. ولكن هذا لا يمكن أن ينسب إلى المصادفة، مع أن هذا أثر في الاكتشافات الأثرية إلى حد ما. لقد كانت الحاجة الإدارية هي التي تحرك عمليات التطور الثقافي الذي أدى إلى تبني الكتابة، بالتدريج هيأت المدرسة الكتابية الإيبلاوية نفسها متجاهلة النماذج الكتابية الأخرى مثل الكتابات التذكارية أو الوثائق التأسيسسة . إنتصارات أجداد إنّا ـــ دَغَن والذي نجد من ضمنهم الجليل إبلول ـــ إل الذي هاجم وادي الفرات الأوسط بأكمله، مخضعاً جزءاً منه، ومرغماً إيبلا ومعها دول أخرى أن تدفع جزية كبيرة وذلك لدرء المواجهة العسكرية المباشرة. ومهما يكن فقد كان تماماً أثناء حكم إنّا ـــ دَغَن حينما تقلصت جزية إيبلا بشكل ملحوظ، وأخيراً أُبْطِلَتْ تماماً. لقد نجح إركاب ـــ داموا في استدراج إيمار، التي كان إبلول ـــ إل قد دمرها مراراً ، إلى مركز تأثير وحوّلها إلى ميناء على الفرات تابع لإيبلا. ولتوقيع هذه العلاقة السياسية الجديدة، تم زواج أميرة من إيبلا من ملك إيمار. ومع قيام علاقات بين الملك إشار ـــ دامو وماري أصبح هؤلاء متساوين وأولئك تساووا مع نَغر Nagar التي تسيطر على دولة إقليمية تغطي حوض الخابور، فتعززت العلاقات . أخيراً كان هناك اتصال بكيش، المركز الرئيسي في بلاد بابل .

إن ما ذُكر أعلاه في تأسيس الدولة الإيبلاوية ينعكس لنا في الوثائق الإدارية. تنقسم الحسابات السنوية للتوريدات إلى أربعة أقسام. الجزء الأول يتضمن التوريدات التي أجراها الوالي نفسه، والتي بلغت في زمن إبريوم أكثر من (١٠٠)كغ فضة وبين (١,٥)و (٥) كغ ذهب، وأشكال مصنوعة من معادن ثمينة وأكثر من ألف قطعة من القماش. ويليه بعد ذلك الجزء الذي يخص التوريدات التي تمت من قِبلْ "الأسياد" والتي كانت قد أصبحت أكثر نزاهةً في هذه الفترة حيث بلغت من ١/٦ إلى ١/١٠ كمية التوريدات التي أجراها الولاة. الجزء الثالث فيه قوائم بالهدايا ومها الهدايا النزيهة (التي لا تعتبر رشوة) التي أهداها ملوك دول صديقة. وأخيراً الجزء الرابع الذي سجل توريدات عرضية. وقد أعطتنا الخلاصة الإجمالية لوثائق إبريوم السنوية السبع عشرة (٣٧٣١)كغ فضة، (٨٦)كغ ذهب وأكثر من (٣٠٠٠٠) قطعة من القماش .

وفي الفترة إبي ـــ زكر الذي خلف والده إبريوم كانت هناك زيـــادة ملحوظـــة في جميع الوثائق الأربع عشرة المنسوبة له (مع أننا نعرف من خلال أحد الرقم أن فترة إدرايـــة امتدت سبعة عشر عاماً)، لذلك فإن الحصة المنسوبة إلى إبريوم كانت أكثر من مضاعفـة . سوف نصل إلى تقييم صحيح للمعلومات إذا أخذنا في الحسبان حقيقة أن نسبة الذهـــب إلى الفضة في ايبلا كانت ١:٥ (فقط نصف المعيار المستعمل في بلاد الرافديـــن في فـــترة مابين الألفين الثالثة والثانية)، وهكذا فإن تسليم كمية صغيرة من الفضة يمكن أن تعـــوّض بزيادة في الذهب. لدينا سنوياً من (٤٢٣) إلى (٧٣٣كغ من الفضة و (١٧٩)كـــغ مـــن الذهب و (٥١٦٠٠) قطعة من القماش. كانت ايبلا في هذه الفترة في رفاهية واسعة.

إن تنامي كميات الفضة المذكورة في الوثائق السنوية المتعلقة بالبضائع الصادرة لهـــو شيء مطرد وفي تواز تام مع البضائع المستوردة. كان هنالك في الوثـــائق الأولى لإبريـــوم حوالي (٥٠)كغ من الفضة بقيت في الخزينة". ومع إبي ـــ زِكِر فإن هنـــــالك (٢٢٠) إلى (٢٧٠)كغ من الفضة الصادرة و (٦٠٠)كغ باقية " في الخزينة".

لقد تم اختيار أرُكوم والياً من بين " الأسياد" وكذلك كان إبريوم في حين أن إبّـــي ـــ زِكِر خلف والده، يمكن هنا القول إنه ورثه مباشرة، وكذلك منصبه سوف نجد لاحقـاً أن ابنه توبُخو ـــ هَدّا Tubukhu – Hadda قد استلمه، وهو الذي استؤمن على مســـؤوليات هامة، ولم تكن إيبلا قد دُمِرتْ بعد . إلى جانب الأسرة الملكية نرى منذ مدة معينة ومـــا بعدها أن أسرة أخرى تظهر حيث منها انتقل المنصب الثاني الأكثر أهمية في الدولـــة مـــن الأب إلى الابن.

لا يتوفر لدينا وثائق خاصة من ايبلا، إلا تلك التي تخص القصر، حيث يوجد فيـــه إضافة إلى ذلك ثغرات إدارية حقيقية. إن غالبية الوثائق المتعلقة بنقل ملكية الحقـــول إلى أعضاء الأسرة الملكية والموظفين الملكيين تُعود إلى الوالي الأول أرُكوم. أما بالنسبة للعقـــود القادمة فيوجد لدينا فعلياً قوائم توريدات للإنتاج الزراعي فقط من القرى. ولكن لا يمكـن لهذا الوضع أن يسبب شكوك تتعلق بالصورة بأكملها التي تظهر من جميع الوثائق المكتوبـة وذلك حسب فرضيتنا. كان المجتمع الإيبلاوي مجتمعاً مركزياً للغاية. وتشير حقيقة أن هـذا الاتجاه يوجد ما يشابهه أيضاً في بلاد الرافدين، في لغَش التي كانت معاصرة لإيبلا (وعلـــى ما يرجح أيضاً، كانت أكثر المراكز قديمة مثل أوروك وشُروبّك)، إلى كيفية تمثيل ما يمكـن أن يدعوه المرء تقريباً بنقطة التطور الإلزامية في تكوين مركز حضاري في الشـــرق الأدنى مثلما حصل في كريت .

لقد تحددت هوية البنية الإدارية في القصر وبما يسمى بالأعداد الضخمة" التي تُذكر في النصوص (لكي نعطيها حقها علينا أن نتذكر أنها تنتمي إلى دولة قديمة) لترينا إلى أي مدى كان اقتصاد إيبلا مركزياً. هناك نص واحد يسجل حوالي (٢٠٠٠)كغ فضة و(١٤٠٠٠) رأس من الغنم و (٩٠٠٠) رأس من الأبقار و (١٤٠٠٠٠٠) مكيال من الحبوب (وهي تعادل حوالي (٣١٠٠٠٠٠٠) ليتر تكفي لمؤونة (٤٢٠٠٠) نسمة ذلك ليترين لكل يوم) ، و(٥٦٠٠) جرة زيت (ربما تحتوي من (١٥٠٠٠٠) إلى (١٧٠٠٠٠٠)ليتر).

لقد ذُكر قبل قليل عن كميات الفضة غير الطبيعية تماماً والمقارنة بتلك الموجودة في منطقة بلاد الرافدين ليس فقط في الألف الثالث بل في الثاني أيضاً. أحد النصوص يتلخص حول الفضة المتراكمة أثناء حكم إغريش ــ خالاب، (١٣٤٨)كغ إلى جانب حوالي (١٨)كغ من الذهب. يصل وزن كمية الفضة المجموعة أثناء فترة تولي الوالي إبريوم (وهي النصف الأول من حكم الملك الأخير: إشار ــ دامو) قرابة (٢٠٠٠)كغ.

إذاً فإن المجتمع الذي كان يسير بواسطة مايسمى نخبة كان يرأسها القصر. ومن هنا فإن توظيف الحيكة وطحن الحبوب. فكان عمال آخرون منتشرين في المراكز الفرعية، بينما كان هناك عدد من السكان الريفيين لا يستهان به. وقد ضمت إيبلا ضمن حدود أراضيها مراكز حضرية أخرى مثل كركميش على نهر الفرات، تقع الآن على الحدود السورية التركية .

كانت الطريقة المتبعة في التكوين الحضري في المنطقة السورية للربا بعض الخصائص المعنية إذا ما قورنت بخصائص معينة في المدن الرافدية. ففي بلاد الرافدين واثناء الفترة المدعوة التحضُّر الأول، كان مركز التجمع التنظيمي الكبير بينما استمرت تشكيلات المعبد، التي أصبحت الآن تحت سيطرة السلالة الملكية، في لعب دور المهين على الإقتصاد. وتعتبر لغش النموذج الموثق الأفضل في هذا المنحى .

بالنسبة للمناطق المنعزلة، وذلك في النصف الثاني من الألف الرابع، يوجد لدينا حالة فلاطية التي تأثرت بالصدى الغريب لتجربة الجنوب المتحضّر. هنا كان المعبد تابعاً لمركز إداري حكومي حيث ظهر أنه هو المهيمن .

بعد بضعة قرون في سوريا ومع فترة التحضر الثانية ــ وكانت إيبلا وماري تمثلان هذا الوضع ايضاً أصبح القصر يشغل مركز المدينة بكل معنى الكلمة، بينما كانت المعابد (على الأقل في إيبلا) لديها درجة محدودة نوعاً ما من السلطة الإقتصادية الذاتية. كان عدد

الموظفين في المعبد قليلاً على عكس ماهو في القصر الذي يتطلب أعماله الكبيرة عدداً من الموظفين وكان الملك والملكة وبعض الأمراء يقدمون بأنفسهم الأضاحي اليومية وعليه يبدو من الواضح في سورية الشمالية أن المعبد لم يكن نواة الدولة مطلقاً .

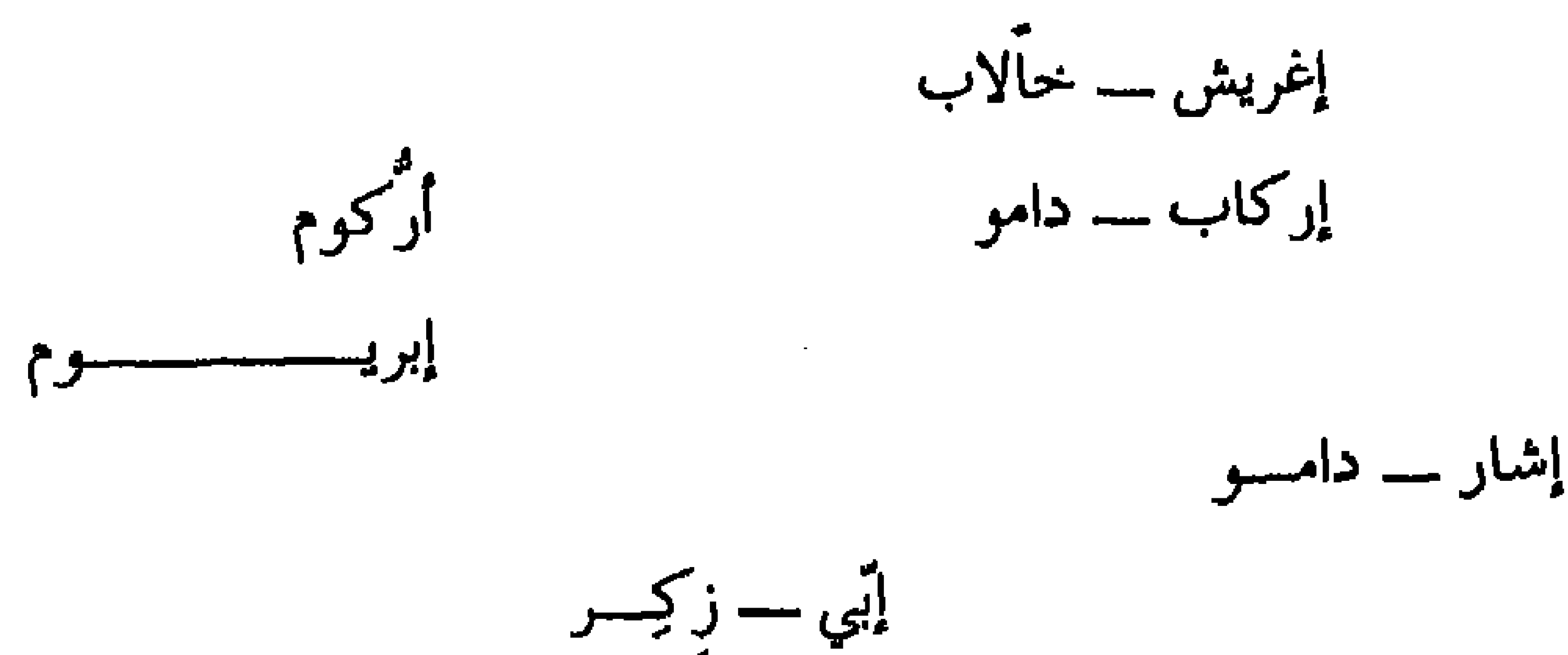
ووفق النظريات المتطورة منذ العشرين سنة الماضية تقريباً، التي تتكرر بشكل مستمر والتي يقال إنها ثانية بشكل محكم من خلال المعلومات عن إيبلا والمقدمة بأسلوب مشوّه، فإن عملية التطور في المناطق البعيدة عن الجنوب الرافدي كانت تحرّك طريق التجارة الدولية، والتي نُظر إليها على أنها المحرك الحقيقي الأول للتغيير الإجتماعي. وبدون شك كان السعي لإكتساب بضائع خاصة غالية سبباً وراء التلاقح بين الثقافات البعيدة ومحرضاً تجاه تغييرات معينة. بينما كانت الدورة التجارية المتمحورة حول إيبلا موسومة بمقايضات احتفالية بين بلاطات الملوك، ومحدودة بعدد ضئيل من البضائع وفي بعض الحالات تتوّج بتحالفات عائلية من خلال الزواج (كانت الأميرات تُرسل من إيبلا كزوجات لملوك الدول مثل حران وإيمار ونغركيش).

وقد قيل مؤخراً أن مجتمعات القصور في سوريا الشمالية تبنت إدارة معقدة وذلك لتوافق النماذج التنظيمية التي قدمها خلفاء سرجون الأكادي. في حين أن إيبلا تبين كيف كان قد بدأ تشكيل دولة إقليمية في سورية الشمالية قبل بداية القرن الرابع والعشرين (كما كان مختلفاً في القرن السابق مقارنة مع جنوب بلاد الرافدين)، باسطة سلطتها على التنظيم الواسع الانتشار في دول ـــ المدن .

إن المساهمة في دراسة تأسيس الدول أثناء الألف الثالث قبل الميلاد من خلال وثائق لهو أمر جدير بالاهتمام .

التاريخ	إيبلا	ماري	كغش	أوروك	أكاد
	كون ـــ دامو	إيشتوب ـــ إشتار	إنانّاتوم الأول		
	أدوب ـــ دامو				
	إغريعش ـــ خالاب	إبلول ـــ إل	إنتمينا		
٢٤٠٠		نيزي			
	إركاب ـــ دامو	إنّا ـــ دغَن	إنانّتوم الثاني		
		إكون ـــ إشار	إنينتارزي	لوغالتارزي	
٢٣٥٠	إشار ـــ دامو	خيدآر	لوغالآندا		
			أوروانمجينا	لوغالزاغيزي	
					سركون

شكل (١) السلالات الموجودة في الشرق الادنى القديم



شكل (٢) الملوك والولاة في إيبلا

الرقة على الفرات، الحفريات الراهنة في عاصمة هارون الرشيد

ميخائيل ماينكه
ترجمة: محمد وحيد خياطة

نرى أنه من الصعوبة بمكان أن نتحدث عن موضوع في هذا المكان الذي يشمل مدينة الرقة الحالية، وهي مدينة مزدهرة في شمالي سورية، ولكن عندما عقد مؤتمر بلاد الشام في عمان، وكان محور ندواته يتعلق بالعصر العباسي، وجدت أنه من المناسب أن أقدم تقريراً عن أعمال التنقيب الأثري القائمة على قدم وساق في هذه المدينة التي عرفت الإسلام منذ عصر باكر، " وأنا مدين لمعهد غوته بالشكر والامتنان لما قدمه لي من تسهيلات في هذا العرض " .

وتكمن أهمية مدينة الرقة من ناحية آثارها الإسلامية الباكرة بأنها مركزاً تاريخياً فريداً من نوعه ولا نذيع سرا إذا قلنا أن أثرين اثنين فقط قاوما عوادي الزمن وثبتا حتى يومنا هذه منذ تأسيس الخلافة العباسية عام ١٣٢هـ/ ٧٤٩م وبناء عاصمة الخلافة التليدة سامراء عام ٢٢١ هـ/ ٨٣٦م، وأولاهما مدينة الرقة على الفرات التي أسسها الخليفة المنصور عام هـ/ ٧٧٢م، وثانيهما قلعة الصحراء الأخيضر قرب مدينة الكوفة التي تؤرخ عادة ١٦١ هـ/ ٧٧٨م وبإمكاننا أن نسد الفجوة التاريخية التي حدثت في عقود السنوات الأولى من حكم الخلافة العباسية باستدراكنا النظري للأثر الذي غاب عن أنظارها وهو المدينة المستديرة بغداد التي أسسها المنصور نفسه عام ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ـ ٧٦٣م، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بدراسة ما استجد من معلومات عن هندسة العمارة في النصف الثاني من القرن الثامن إلى النصف الأول من القرن التاسع .

لا مراء في أن تجاوز الثغرات الموجودة في تاريخ العمارة العباسية الباكرة أمر ممكن وذلك من خلال البحث الأثري، وهذا ما حدث فعلاً، وذلك عندما قامت بعثة أثرية بأعمال التنقيب في الرقة على الفرات بتكليف من فرع معهد الآثار الألماني في دمشق .

لم تكشف الدراسات الأثرية النقاب عن نماذج هندسة العمارة العباسية الأصيلة في مركز الخلافة والسلطة في بغداد فقط بل أفادت في معرفة أساليب العمران طيلة الفترة التي حكم فيها الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ هـ/٧٨٦م ــ ١٩٣ هـ/٨٠٩م)، وهو أشهر خليفة عباسي على الإطلاق .

١-الرقة/نيقفور :

تحتل مدينة الرقة موقعاً استراتيجياً هاماً، وذلك عند ملتقى رافد البليخ على أواسط نهر الفرات، وكانت الرقة تتصل بأواسط بلاد الرافدين عن طريق وادي الفرات، والملاحة النهرية ممكنة بشكل جيد عبر قنوات ري كثيرة التي تصل بنهر آخر لا يقل أهمية عن الفرات وهو الشريان الثاني لبلاد الرافدين ونعني بذلك نهر دجلة. فمن هنا وعلى امتداد نهر البليخ يتفرع طريق باتجاه الشمال حيث تخوم البلاد الإسلامية، التي تنطلق منها غلوات المسلمين على إمبراطورية بيزنطة المسيحية .

فهذا الطريق العسكري التجاري كان يصل طرق القوافل عبر الصحراء السورية باتجاه الجنوب، قاطعاً مدينة الرصافة، التي كانت حاضرة الخليفة الأموي هشام (١٠٥ هـ/٧٢٤م ـــ ١٢٥ هـ/٧٤٣م)، إلى تدمر حتى يصل دمشق العاصمة السورية إلى ماوراء البحر الأبيض المتوسط. أما باتجاه الغرب فهناك طريق آخر يصل الرقة بعاصمة سورية الشمالية حلب مارا بمدينة باليس / مسكنة، وهذا الطريق هو من الطرق التجارية المركزية الهامة. ونظراً للاعتبارات المنوه عنها أعلاه كان الموقع على جانب كبير من الأهمية ، تتنازع عليه كل من سورية وبلاد الرافدين عبر كل العصور، ولم تكن الرقة خاضعة لنفوذ حضارة المنطقتين فقط بل لعبت دوراً بارزاً في مجال الفن فأصبحت حلقة وصل بين الجهتين .

إن وجود المخطط الطبوغرافي المتعدد الطبقات خير مؤشر على التعاقب الحضاري، الذي شهدته المدينة عبر العصور التاريخية، ونحب أن نشير هنا بادىء ذي بدء إلى التعاقب التاريخي في تل البيعة ، الواقع شرقي المدينة الحديثة وهو عبارة عن تل قطره حوالي ٧٠٠م، وقد شهد هذا التل استيطاناً بشرياً منذ الألف الثالث ق.م حتى العصر الهلنستي .

وتقوم جمعية الاستشراق الألمانية بأعمال التنقيب فيه منذ عام ١٩٨٠ على افتراض المدينة البابلية (توتول) في أحشاء هذا التل .

أما الاستيطان الثاني فقد حدث في العصر الهلنستي جنوبي تل البيعة على امتداد نهر الفرات، وكان مؤسس المدينة السلوقي نيكاتور وتبعاً لذلك سمي الموقع نقفور، وقد تم فتح المدينة على يد المسلمين عام ١٨هـ/٦٣٩م ودعيت من قبلهم باسم الرقة الذي يعني أرض سبخه، واصفين بذلك الحال الذي عليه المدينة الواقعة عند نقطة اتصال النهرين حيث يتشكل مايشبه مستنقع وحلي .

وقد تم هنا في وسط المدينة تشييد أول مسجد، ورغم زحف العمران الحديث كلياً على الموقع، كانت أطلاله مازالت بادية للعيان عام ١٩٠٧ عندما زاره العالمان الآثاريان (فريدريش سار وارنست هرتسلفد)، اللذان عملا على كشف مدينة سامراء بعد عدة سنوات من زيارتهما للرقة، وكانا قد جمعا تفاصيلا دقيقة أولية عن العمران الاثري في الرقة. وكان المسجد قد شيد (رقم٣) بواسطة عناصر معمارية كانت مستخدمة في العصر الروماني، وهو بقياس حوالي ٧٣م X١٠٨م.

وكانت قد جرت سلسلة من الأسبار في جنوب الموقع عام ١٩٨٣ ، وظهرت خلال هذه الأسبار أبراج صلدة نصف مستديرة، مبنية من اللبن المشوي داخل طبقات ثخينة من الملاط المخلوط بنسبة عالية جداً بالحصى، مما يشير إلى طبيعة البناء العسكري خلال حكم الامبراطور البيزنطي جوستنيان، وهكذا يعود تأريخ تحصين المدينة (رقم٢) إلى أواسط القرن السادس الميلادي .

٢.الرافقة:

لقد حدث تطور هام في أوائل العصر العباسي، وذلك عندما أمر الخليفة المنصور عام ١٥٥هـ/٧٧٢م بتخطيط وبناء مدينة جديدة كل الجدة غرب مدينة الرقة / نيقفور مباشرة، وقد سميت هذه المدينة الناشئة بالرافقة لأنها ترافق مدينة الرقة، وطبقاً لما ذكره الطبري ٣١٠هـ/٩٢٣م كان يجب على المدينة الجديدة أن تكون مشابهة لمدينة بغداد التي شيدت قبل عشر سنوات. وطبقاً لما ذكره الجغرافي اليعقوبي (٢٨٤هـ/٨٩٧م) فقد عمل في بناء مدينة بغداد آلاف المهندسين والمعماريين والمساحين وعمال بناء مهرة من ذوي الاختصاص، والذين حشدوا من بلاد فارس والرافدين وسوزيا ليعملوا على تنفيذ مخطط المدينة الذي وضعه المهندس الرباح .

وبناء عليه نعتقد أن قسماً من هذه القوى العاملة استخدمت في بناء المدينة الجديدة قرب الرقة، وربما تحت قيادة وامرة المهندس الرباح، ولذا فإن مدينة الرافقة تعطينا فكرة واضحة عما كانت عليه مدينة بغداد العاصمة في السابق .

وعلى الرغم من أن كلا المدينتين استوفيتا حقهما من الدراسة في السابق، إلا معلومات جديدة أصبحت الآن تحت تصرفنا تفيد دراسات الوقت الراهن كما تفيد الدراسات المستقبلية، وهذا الأمر أفادنا في تكوين صورة كاملة عن ملامح عصر التأسيس والإحاطة بتفاصيل أكثر دقة .

١-أسوار المدينة:

يلفت نظرنا شيئان متباينان جديران بالملاحظة بالمقارنة مع بغداد، شكل مدينة الرافقة، فهو يشبه حدوة الحصان المشوهة قليلاً، كما أن الاستدارة غير متقنة وأصغر مما هي عليه في بغداد، فبالمقارنة مع قطر مدينة بغداد الذي يبلغ (٢٦٣٨م) نرى أن قطر المدينة في شمالي سورية لا يتجاوز ١٣٠٠م، ويبلغ طول الأسوار (رقم٥) ٤٥٨٠م لم يزل منها ٢٦٦٠م قائماً في مكانه. ورغم أن هذا الحجم لا يتجاوز نصف حجم المدينة السلف يبقى لافتاً للنظر، فهو يفوق على سبيل المثال مدينة دمشق.

شأن مدينة الرافقة شأن مدينة بغداد حيث كانت محصنة بثلاثة خطوط دفاعية، وللسور جبهة داخلية كانت تحوي في الأصل ١٣٢ برجاً دائرياً، وسورا خارجياً وخندقاً.

وبما أن النظام الدفاعي لكلا المدينتين متشابه فاللافت للنظر هو أن تحصينات الرافقة تبدو أقوى من تحصينات الكائنة في بغداد. بدليل أن الارتفاع الأعظمي لأسوار الرافقة يصل في الأصل إلى حوالي ١٨م وسمكها٦,٢٠ م، فأسوار الرافقة ليست أكثر سمكا بمتر واحد من سمك الأسوار المفترضة لبغداد فحسب بل هي مصمتة أكثر من الناحية الإنشائية.

وعلى النقيض من بغداد ذات الأسوار المشيدة باللبن غير المشوي كما تذكر المصادر فإن أسوار الرافقة مدعمة بواجهة تتألف من طبقات من اللبن المشوي.

٢-باب بغداد والبوابة الشمالية:

لم يبق من الآثار ذات الأبنية المصمتة سوى السور الخارجي، وذلك بسبب زحف البلد وزر بالأطلال الواقعة خارج المدينة بعيداً منذ عقد من زمن مضى.

والشاهد الوحيد لهذا السور هو البوابة الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية والمعروفة باسم باب بغداد (رقم٨) وهذه البوابة كانت في الأصل متصلة بالسور الخارجي، ورغم أن بناء السور مشّيد بأكمله من اللبن غير المشوى إلا أن البوابة مبنية من اللبن المشوى المصمت، ويعزى بناؤها إلى عصر تشييد المدينة، وتشير الزخارف المتقنة الصنع إلى عصر التشييد تم في القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي أي في العصر الذي فتح فيه السلطان نور الدين محمود الزنكي المدينة في عام ٥٤هـ/١١٥٩م.

ومما يدعم هذا الافتراض في إعادة تأريخ السور وجود دليل آخر، ويتجلى هذا الدليل في بوابة أخرى للمدينة (رقم٦) التي كشفت عنها في القوس الشمالي للسور الرئيس

بهدف القيام بأعمال الترميم والصيانة من قبل دائرة آثار الرقة، وتبين أن القسم المكشوف هو عبارة عن برج للبوابة مشيد فوق أساس حجري، له مدخل ثخين، الجدران على شكل محراب وطريق البوابة واسع بعرض ٤م والبابان القائمان هناك مصنوعان من الحديد المصمت وهما الأثران الباقيان من الحديد كما تذكر المصادر التاريخية وكانا لبعض الوقت موجودان في قصر سامراء الرئيس.

إن ترتيب طريق البوابة على شكل غرفة مستطيلة لتكون مدخلاً يشبه إلى حد بعيد مداخل الأخيضر الأربعة المحورية بالقرب من الكوفة .

وينحني المنحدر حوالي ١٠° عند واجهة السور الداخلي تماماً غرب البوابة، ولم يكشف عن المنحدر بعد. ويشكل هذا المنحدر مدخلاً إلى المصطبة القائمة فوق غرفة مدخل البوابة ومتراس السور.

٣ـ الجامع الكبير:

يقود شارع مستقيم من البوابة الشمالية إلى الجامع الكبير (رقم٧) في مدينة الرافقة بقياس حوالي ١٠٨ X ٩٣ م، ويشبه بناء هذا الجامع بناء كان قد بناه المنصور في بغداد قبل عقد من الزمن، رغم أنه يبدو هنا محرفاً فعوضاً عن الأعمدة الخشبية في بغداد نجد جامع الرقة مقسماً بواسطة أعمدة من اللبن المشوي، التي تغطي ساحة واسعة في المصلى على شكل عقود لممرات مقنطرة .

وكان هناك صفان من أعمدة عقود الممرات المقنطرة يحملان في الأصل سقوفاً خشبية تشبه المساجد الأموية في سورية ، وقد تبين ذلك من خلال كتابة موجودة على واجهة عقود الممرات المقنطرة في المصلى، وتذكر هذه الكتابة إعادة بناء قسم من هذا المسجد مع الأسقف الخشبية من قبل السلطان نور الدين محمود الزنكي في عام ٥٦١هـ/١١٦٥م، ولقد ثبت من خلال أسبار عديدة أن هذا هو الشكل الأصلي للمسجد، ونخلص مما تقدم إلى نتيجة مفادها بأن مسجد المنصور في الرافقة هو أول مسجد معروف من نوعه له صحن مكشوف لم يستخدم في بنائه الخشب ولم يعمد على استخدام أعمدة قديمة بل اكتفى بأعمدة مبنية من اللبن .

عثر على بعض الكسر من زخارف خلال أعمال الترميم والصيانة التي قامت بها دائرة آثار الرقة قبل عقد مضى، وتبين من هذه الكسر أنها تشكل القسم الأخير من إطار كان يحيط بمحراب المصلى، وهي على شكل منحوتات جصية تشبه إلى حد بعيد زخارف

المنحوتات الجصية المصنوعة بأسلوب الشطب المعروف في مدينة سامراء، ويبدو أن تطور المدينة التاريخي قد أعاق اضافات مستجدة أعقبت تأسيس عاصمة الخلافة الجديدة في سامراء عام ٢٢١هـ ٨٣٦م، وتشكل هذه الكسرة التي سبقت الاشارة إليها برهاناً اضافياً على أن المنحوتات الجصية بأسلوب الشطب كان متقدماً تقدماً رائعاً في الرقة/ الرافقة. عرفت سلسلة من تيجان الاعمدة المرمرية في الرقة قبل أن تظهر كسرة المنحوتة الجصية عام ١٩٨٦، وتميزت هذه التيجان بأسلوبها التجريدي المتطرف وزخارفها بأشكال نباتية نافرة، كانت تؤرخ مراراً وتكراراً في عصر هارون الرشيد الذي نقل عاصمة الخلافة من بغداد إلى الرقة عام ١٨٠هـ/٧٩٦م، وبقيت كذلك اثنتا عشر سنة حتى عام١٩٢هـ/٨٠٨م.

وعندما تأسست المدينة قبل ربع قرن من عصر هارون الرشيد في عهد جده المنصور، أصبحت تكتسب أهمية واسعة مع توسع الدولة العباسية ، وكان هذا التوسع العمراني المفاجيء متوقعاً، وكان القصد من التيجان الحجرية أن تمثل جزءاً يسيراً من مشروع عمراني ضخم كان قد وضعه هارون الرشيد نصب عينيه .

٣.قصر البنات وهرقلة:

تبقى أحياناً بعض الأبنية في مقر خلافة هارون الرشيد محيرة، فآثار بناء القصر على الطرف الشرقي من مدينة الرافقةسميّ محلياً باسم قصر البنات (رقم٩)، وقد قامت مديرية الآثار منذ وقت بأعمال التنقيب الأثري فيه، وربط تأسيسه خطأً باسم هارون الرشيد، وكان ارنست هرتسفليد قد درس الموقع عام ١٩٠٧ واقترح تأريخاً له يعود إلى القرون الوسطى بناء على وجود زخارف معمارية غنية ترقى إلى العصر، وجاءت لقى المكتشفات الحديثة لتدعم هذا التأريخ، وتؤرخ هذه اللقى حوالي منتصف أو النصف الثاني من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي .

فهذه البناء المتجانس ذو النوعية المعمارية العالية لا يمكن أن يكون مقر الخليفة العباسي بل هو بناء جدد في عهد نور الدين محمود الزنكي كما يبدو ذلك واضحاً في باب بغداد والجامع الكبير .

وجلي أن هناك بناء واحد فقط في المنطقة يرقى بعهده إلى عصر هارون الرشيد وهذا البناء عبارة عن أطلال ضخمة تبعد حوالي ٩كم غرباً من المدينة، وكان أرنست هرتسفليد مصيباً في رأيه عندما عرّف المكان هرقلة بالحدث الذي تكلل بالنجاح عندما

حاصرها هارون الرشيد Heraclea في آسيا الصغرى عام ١٩٠/ ٨٠٦م أي أن هذا الموقع هو نفسه هرقلة، ويتألف هذا البناء في الوسط من ساحة مربعة الشكل طول ضلعها حوالي (١٠٠م) ولها أبراج عند الزوايا مربعة الشكل ذات أواوين محورية موجهة نحو الخارج، ولا يوجد إلى جانب هذه الأواوين التي كانت تستخدم بكل جلاء للأغراض الاستقبال والتشريفات أي غرف أخرى التي لا بد منها للمعيشة، وبناء عليه فقد اقترح الأستاذ قاسم طوير منقب الموقع من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف أن يكون المبنى في الأصل بناء تذكارياً عوضاً عن كونه قصر. وللمبنى المذكور سياج على شكل دائرة كاملة بقطر ٥٠٠م وطرق عبر بوابات البناء تقع على المحور الرئيس مما يوحي أن للبناء وظيفة معتبرة أي على جانب كبير من الأهمية، واللافت للنظر هو التشابه مع مدينة بغداد ذات الشكل الدائري .

ومما لا ريب فيه أن هذا البناء القريب كان يعني رمزاً للقوة المتعاظمة، وعندما يكون الخليفة موجوداً فيه كان يستخدم الأواوين للاستقبال والتشريفات، وقد أصبح هذا المكان قطب العالم، هذه المكانة المرموقة التي كانت تحتلها سابقاً مدينة بغداد التي أسسها الخليفة المنصور، وبناء عليه فإن الهدف من إقامة هذا المبنى هو أن يكون مقر إقامة للخليفة الذي كان يقيم فيه شخصياً مدة كافية من الزمن.

وهارون الرشيد هو الخليفة العباسي الوحيد الذي أقام في الرقة / الرافقة مدة اثنتي عشر سنة، ولم يفكر بالعودة إلى بغداد بعد الانتهاء من العمل المذكور حتى توفاه الله عام١٩٣هـ/٨٠٩م أثناء حملته على خراسان في شرقي إيران .

٤ـ منطقة القصر: الحفريات السابقة ١٩٤٤ـ ١٩٧٠

لم يزل مقر الخليفة هارون الرشيد لغزا محيرا ومبهماً لبعض الوقت، فقد أسفر البحث والتقصي عن وجود عدد كبير من القصور إلى الشمال من الرافقة، حيث تغطي التلال الأثرية بشكل مكثف حوالي ١٠كم٢ من الأرض دون أي عائق يحول دون امتدادها، ولم يتضح امتداد محيط القصر إلا بواسطة سلسلة من الصور الفوتوغرافية التي التقطتها القوى الجوية الفرنسية في العشرينات من هذا القرن .

وخضعت المنطقة الأثرية لحماية السلطات الأثرية منذ عام ١٩٣٦، وقامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بأعمال التنقيب فيها منذ عام ١٩٤٤ واستمرت مع بعض التوقف حتى عام ١٩٧٠، وأسفرت التنقيبات خلال تلك المدة عن كشف خمسة أبنية .

١.القصر المركزي:

كان العمل يتضمن في بدايته إجراء أسبار في القصر المركزي (رقم١١)، وعرف كذلك نظراً لضخامة أبعاده ووجود سياج مزدوج ، ولكن سرعان ماصرف النظر عن متابعة التنقيب بسبب الحالة الراهنة للقصر التي يرثي لها، وكذلك بسبب نهب اللبن المشوى من قبل سكان المنطقة لاستخدامه في إشادة أبنية حديثة بهم إلا أن معهد الآثار الألماني قام بأسبار محدودة عام ١٩٨٧ بالقرب من حدود مجمع الأبنية، وقد عثر على كسر من منحوتات جصية على السطح، استطاعت البعثة المذكورة أن تنقذ منها بعض الزخارف ذات المستوى الفني العالي الجودة والمعروف جيداً في الرقة، وهذا مايدعم افتراضنا بأن البناء يرقى إلى عصر هارون الرشيد وأنه كان مقرا له .

٢.القصر A:

بدأت أعمال التنقيب الأثري المنهجية عام ١٩٤٤/١٩٤٥ في القصر (A) رقم(١٠)، وهو عبارة عن بناء مربع الشكل مسيج بسور مزدوج، وكان قد كشف عنه جزئياً ثم خضع للدراسة في الأعوام ١٩٦٦/١٩٦٧ و ١٩٦٩/ ١٩٧٠، كما عثر على وعاء فخاري محطم عليه كتابة نادرة تذكر أنه من صنع مهني مسيحي يدعى إبراهيم في بلاد الرافدين للأمير سليمان بن الخليفة،وربما المقصود ابن الخليفة المنصور مؤسس مدينة الرافقة.

٣.القصر B:

جرت أعمال التنقيب التالية من عام ١٩٥٠ إلى العام ١٩٥٢ في المجمع المعروف باسم قصر رقم(١٢)، وهو بقياس ٧٤X١٦٨م ومبني كلياً باللبن وتذكر كتابات محفورة على (رنكات Medaillon) اسم الخليفة المعتصم الذي اعتلى العرش عام ٢٢١هـ/٨٣٦م وأسس عاصمة جديدة "سامراء" على دجلة حوالي ١٠٠كم شمالي بغداد.

وتبعاً لذلك يكون البناء المذكور أعلاه قد خضع للاستخدام في السنوات التي تلت عام ٢١٨هـ/٨٣٣م غير أن نسيب صليبي منقب القصر لديه من الأسباب والحجج ما يكفي لتأريخ البناء في عصر هارون الرشيد، وأن البناء خضع لعمليات صيانة وترميم خلال حكم المعتصم .

تتألف تجهيزات القصر الداخلية من وحدات هندسية تنفرد كل منها بوظيفة مميزة، ويتعادل الجناح الرسمي مع الجناح الخاص من حيث الحجم، إلا أن كل منهما مستقل بنفسه بشكل كامل. وهذان الجناحان مقسمان بدورهما إلى مربعات، وفي أحد هذه

المربعات أربعة بيوت مناسبة ذات صحن، لكل واحد منها مخطط مربع الشكل. والقسم الرسمي مجهز بغرفة مؤلفة من ثلاث حجرات كانت مهيئة للتشريفات وقد رصفت أرضيتها بزجاج رائع وزخرف مدخلها بإطارات من المنحوتات الجصية تحمل لفائف أشجار الكرمة .

إن غنى الزخارف الهندسية تشير دون أدنى ريب إلى المركز المرموق الذي يحتله مؤسس البناء، رغم أن اسمه لم يزل لغزا مبهماً .

٤.القصر C:

عثرنا على ملامح مشابهة في البناء الواقع إلى الشرق، والمعروف باسم القصر ((C) رقم (١٣)، جرت أعمال التنقيب فيه عام ١٩٥٣ حيث كشف عن بناء مستطيل مقسم إلى ثلاثة أجزاء ضيقة. وجرت أعمال التنقيب في الجزء المركزي فقط، ويتألف هذا الجزء المركزي من ستة بيوت ذات صحون متصلة ببعضها بعضاً، ونفتقد فيها وجود غرف التشريفات ذات الثلاث حجرات ولذلك نعتقد أنها كانت تستخدم للمعيشة فقط .

أما الخدمات الرسمية فكانت تتم على ما يبدو على تخوم الجناح الغربي، ويتميز النصف الشمالي من الجدار الداخلي الغربي بوجود سلسلة من المحاريب الأثني عشرية مقسمة بشريط من المنحوتات الجصية ذات لفائف أشجار الكرمة المختلفة. كما يقع مسجد صغير في الزاوية الشمالية الغربية ليخدم سكان المجمع وعابري السبيل .

٥.القصر D:

كشف جزئياً عن الأطلال المجاورة باتجاه الشرق والتي تحوي القصر D رقم (١٤) في عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٨ ، وبدا التقسيم إلى ثلاثة أجزاء متطاولة واضحاً هنا أيضاً ، ولكن على النقيض من القصر (c) فإن القسم الأوسط أعد للاستخدام الرسمي في حين أن الأجنحة تتضمن بيوتاً مربعة الشكل في داخلها صحن ، ويقع في الشمال مسجد صغير مجاور كما عثر ثانية على نماذج مكررة في البناء المجاور .

معظم القصور المشيدة خارج الرقة مبنية كلياً من الطين باستثناء بعض الأجزاء المدعمة باللبن المشوي ، ونرجح أن تفضيل هذا النوع المتواضع من مواد البناء يعود إلى الرغبة في تشييد مباني ضخمة بأسرع وقت ممكن ، ومهما يكن الأمر فان هذه المواد لايمكن مشاهدتها من الخارج لأنها مطلية بطبقة ثخينة من الملاط الجصي الأبيض ، وهذه

الطبقة من الطلاء المذكور تستخدم فقط في الأقسام الرسمية أو العامة وتصلح للزخــــارف المعمارية ، وتشكل المنحوتات الجصية النافرة القسم الأعظم منها.

وكانت التحريات في القصور السابقة قد أسفرت عن نماذج عديدة من المنحوتـــات بالأسلوب التجريدي وطنف عليها زخارف كثيرة من لفائف أشجار الكـــروم ، وهـــذه المنحوتات الجصية تمثل عصر البنــــاء في عاصمــــة هـــارون الرشــيد في الرقـــة بـين ١٨٠هـ/٧٩٦م و ١٩٢هـ /٨٠٨م .

محيط القصر : حملات التنقيب الانقاذية ١٩٨٢ـ١٩٨٨ :

تكمن أهمية القصور الواقعة خارج الرقة بأنها تفيدنا بمعرفة تطور العمارة العباســـية كما أشرنا باختصار آنفاً وألمحنا إلى ذلك بفكرة شاملة، ولمزيد من سوء الحـــظ أن محيـــط القصر الذي نقب عنه جزئياً فقط خرب في الآونة الأخيرة، ويعود السبب في ذلـــك إلى أن مدينة الرقة تتطور باستمرار فخلال أعوام قليلة تحولت الرقة من مدينة محليـــة صغـــيرة إلى مدينة كبيرة يقطنها ما يزيد عن ١٠٠ ألف نسمة، هذا الزحف السكاني الذي لم يسبق لــه مثيل كان بسبب النشاط الصناعي والزراعي في كل المنطقـــة ، وأسفر عنه كثافة البناء في المنطقة كلها. عندما كشفت أعمال التنقيب الأخيرة عن أبنية القصرD، أزيلت هذه الأبنيـة بواسطة البلدوزر ليحل محلها سوق لبيع المواشي ذلك في عام ١٩٨١، عندئـــــذ طلبـت المديرية العامة للآثار والمتاحف من معهد الآثار الألماني الذي تأسس حديثاً في دمشـــق أن يقوم بأعمال إنقاذ أثرية لما تبقى من محيط القصر خارج الرقة .

ومنذ عام ١٩٨٢ استطاع المعهد المذكور أن ينجز ثمانية مواسم تنقيبية .

الموسم الأول عام ١٩٨٢ :

وضعت أعمال الإنقاذ في موسمها الأول هدفاً منهجياً نصب أعينها، يتناســـب مـــع التهديد الفعلي الذي يسببه انتشار السكن في الطرف الشرقي من المدينة الآخذ في التوســـع العمراني، وذلك في المنطقة الواقعة مباشرة غرب تل البيعة. وقد تراوحت منطقة الدراســـة التي يقع فيها المبنى التاريخي حوالي ٦٠٠x٤٠٠م، حيث اتضح لنا أن الكشف عن الموقـــع بأكمله ضرب من ضروب المستحيل، ولذلك عمدنا إلى فتح خمسة أسبار تمتد من الشـمال إلى الجنوب بطول أعظمي لكل منها ٧٠م بهدف الوصول إلى الأرضية. على أن تتوســـع أعمال الحفر فيما لو دعى إلى ذلك وجود بقايا عمرانية، ولعل من أهم النتائج التي وصلنـــا إليها من هذا العمل هو أننا استطعنا أن نوقف الزحف السكني مؤقتاً على الموقع . بذلـــك

اتيحت لنا فرصة البحث والتقصي الاثريين لعدد من الابنية وورشات صناعة الفخار على مدى سبعة مواسم ناجحة من عام ١٩٨٣ إلى عام ١٩٨٩ .

وقد دعمت هذه الأبحاث مؤخراً من قبل مؤسسة الأبحاث الألمانية، وذلك في مركز المنطقة الواقعة في الطرف الجنوب الشرقي من نطاق القصر، وتم إنجاز ذلك ١٩٨٢ .

وكانت الصور الجوية للموقع قد أبانت في الأسبار السطحية وجود ساحة عامة، تحيط بها أبنية من ثلاث جهات .

وكنا قد أطلقنا على هذه الأبنية اسم مجمع الأبنية الشرقي (رقم ١٧) و (القصر الغربي) رقم (١٦) والمجمع الشمالي رقم (١٥)، وقد درست هذه المواقع بالتتابع .

٣.القصر الشرقي :

كنا قد عثرنا على بناء بقياس ٧٠x٤٠م اصطلحنا على تسميته بالقصر الشرقي (رقم١٧)، وهو يقع في القسم الجنوبي من المجمع الشرقي، وقد ثبت بعد الكشف عنه في الموسم الأول أنه على جانب كبير من الأهمية، وهو عبارة عن بناء مربع صغير ذي صحن يطل من ناحية الجنوب على وادي الفرات الخصيب .

يتألف الطرف الجنوبي منه من ثلاث غرف واسعة للاستقبال تتصل ببعضها بواسطة فتحة باب واسعة، وكانت إطارات الباب من القسم الرسمي مزخرفة بالأصل سوى بضع كسر، ويعود السبب في ذلك إلى أن أعمال نهب اللبن المشوي لأغراض البناء الحديث قد أساء كثيراً، وللحفاظ على أسوار اللبن المشوي التي جرى الكشف عنها عمدنا إلى إظهار قسم منها ، بإعادة بنائه ، وعلى الرغم من ظهور آثار بناء ديني قديم كان في طور التشييد استطعنا تدريجياً إنجاز مخطط للموقع كما كان في الأصل. كما أن اللقى الصغيرة التي عثرنا عليها استطاعت إن تزودنا بفكرة عن تاريخ البناء، ويأتي على رأس هذه اللقى قطع المسكوكات النقدية، وكما توقعنا فإنها تشير في معظمها إلى عصر هارون الرشيد والمثير للاستغراب أن بعضها يعود إلى عهد الاستيطان الأيوبي المتأخر، وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة فهي تؤرخ في النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، وقد دعم وجود الاستيطان في عصرين مختلفين بواسطة لقى أخرى التقطت من فوق السطح خلال أعمال التنقيب، ومن هذه اللقى على سبيل المثال الفخار. فقد تم العثور على أواني فخارية غير مزججه ترقى بعهدها إلى عصر التأسيس وصحون مزججة بلون التركواز واللون الأسود من العصور الوسطى، التي عاشتها مدينة الرقة، وعرفت بها .

٤.القصر الغربي:

كما استطعنا أن نتأكد من تاريخ بعض الأبنية التي جرى الكشف عنها في المنطقة، والتي تعود إلى عصر التأسيس بواسطة نقود عليها كتابة مقروءة ضربت في عصر هارون الرشيد في دار السك في مدينة الرافقة، وهي مؤرخة في الثمانيات من النصف الثاني للسنوات الأولى من القرن التاسع .

هكذا كان الحال في القصر الغربي (رقم١٦)، فالقصر عبارة عن بناء بقياس حوالي ١٢٠x٩٠م مجاور للساحة العامة من جهة الغرب، وهنا نجد أيضاً أن التقسيمات الهندسية هي التي تحدد شكل معظم أبنية القصر وتسمها بطابعها الغالب .

وهناك قسمان متطاولان في البناء، القسم الغربي ويتألف من ثلاثة بيوت ذات صحن، بينما ثلثا القسم الشرقي مجهز للاستخدام الرسمي كما يتضح ذلك من خلال ترتيب الغرفة ذات حجرات، ويبرز القصر باتجاه الشمال ليطل على ساحة عامة مشكلاً بذلك مستطيلاً متطاولاً .

وقد استخدمت إحدى الغرف لتكون مسجداً للقصر وللعامة كما تبين لنا ذلك من وجود محراب مركزي باتجاه الجنوب .

لقد حفظت غرف التشريفات مجموعة كاملة من زخارف النحت الجصية بشكل ممتاز، وقد استطعنا أيضاً أن نعثر على ٢٩ طنفاً ولوحاً في مكان تواجدهم الأصلي، ويصل طول الواحد حوالي المتر وكانت معظم الطنف تزين فتحات الأبواب ، وهي مرتبة زوجاً زوجاً وكائنة في الزوايا الجنوبية الغربية لتشير على مايبدو إلى اتجاه القبلة وبذلك يكون المكان معدا للمصلين، ويبدو أن الحال هكذا بالنسبة لمعظم الألواح اللافتة للنظر في الزاوية الجنوبية الغربية من المصطبة الجنوبية، وقد مثل عليها شجرة الحياة محاطة حواشيها بلفائف أشجار الكرمة، وتشبه هذه الألواح تلك الألواح المعروفة في القصور الأخرى التي تم الكشف عنها .

٤.المجمع الشمالي:

وكان قد تم الكشف عن بناء يقع إلى الشمال من الساحة العامة خلال الموسم لسادس في ربيع عام ١٩٨٧م، وقد تحول القصر إلى مجمع على شكل ساحة مربعة (الرقم١٥) طول ضلعها يزيد عن ١٥٠م. وأصبح بالإمكان وضع مخطط عام بواسطة سعة أسبار، والساحة مقسومة إلى نصفين كل منهما على شكل مستطيل، وتبعاً لذلك

فقد قسم كل مستطيل إلى أجزاء متعددة، وقد احتلت ساحة صغيرة وسط الطرف الشرقي، وهي مقسمة بسلسلة من قنوات المياه صغيرة الحجم تحدها من الشمال ومن الجنوب باحات مستطيلة الشكل .

وعلى النقيض من ذلك نرى أن المعمار قد وضع نقطة الثقل في وسط الطرف الغربي بواسطة وحدة سكنية مؤلفة من ثلاث صحون بيوت مرتبطة بمحاور طولانية بواسطة صحنين مربعي الشكل، وجعل المدخل على شكل بوابة وسط الواجهة الشمالية .

وعلى الرغم من أن نماذج التقسيمات الهندسية تشبه كلياً الأبنية الأخرى في نطاق القصر، فإن سلسلة من الغرف الصغيرة نسبياً التي يزيد عددها على المئة تطوق صحون البيوت الداخلية بشكل مختلف لافت للنظر. مما تقدم من وصف يستبعد أن يكون البناء المذكور قصراً، والاحتمال الأكثر قبولاً، نظراً لعدد غرف المعيشة الكثيرة والمتشابهة، هو أن هذا المجمع كان ثكنة أو خاناً، ومما يرجح هذا الافتراض كون البناء مربع الشكل .

ومهما يكن من أمر فان وحدة السكن المركزي في وسط الجناح الغربي تحوي أكثر من ٣٠ غرفة اضافية، ومن الواضح أنها كانت مقر آمر الموقع، وهذا الجزء من البناء بعكس ترتيب القصور من ذوي الغرفة المؤلفة من ثلاث حجرات بقياس مصغر .

وكنا قد استطعنا ان نحصل على مجموعة من كسر زجاجية من حفر تحيط بغرفة الثلاث حجرات الشمالية بين أنقاض بلغت ثخانتها مايزيد على ستة أمتار، وتعطينا هذه الكسر الزجاجية فكرة عن نمط الحياة المقبولة بشكل مرض وإن لا ترقى إلى المستوى الذي بلغه بلاط قصر هارون الرشيد.

وكان من بين المجموعة الزجاجية الآنفة الذكر ما يزيد على ١٣٥ وعاء متميزاً وأكثر من٣٠ كاملاً من الناحية الأثرية أن هذه الآنية يمكن ترميمها من القاعدة إلى الحافة.

وبعض هذه الآنية ينتمي إلى الصنف الممتاز وهي عبارة عن أكواب مزخرفة بزخارف مصقولة ذات بريق ولمعان .

والأكثر إثارة في هذه اللقى هو وجود وعاء وحيد متميز Rhytom ووعاء آخر على شكل قرن بطول ٣٠ سم مغشى بخيوط ذهبية على شكل شبكة من المعينات .

٥.المجمع الشمالي الشرقي :

بالإضافة إلى الأبنية الثلاثة الواقعة على الحافة الشرقية لنطاق القصر يوجد تل آخر على الحدود الشمالية للمنطقة التاريخية، وقد خضع التل المذكور لأعمال التنقيب، حيث

أسفرت التنقيبات على مجمع قصر ضخم (رقم١٨) بقياس حوالي ٣٠٠x٤٠٠م في أقصى الشمال الشرقي، و لم يبق سوى بضعة أجزاء من الزاوية الشمالية الغربية التي يمكن مشاهدتها، وكان البناء قد تعرض للهدم القسري عند شق طريق بري يصل إلى تل أبيض على الحدود السورية التركية، وبعدها تقاسم الأرض كل من معمل السكر وشركة الألبان.

وكانت الأسبار العديدة قد أظهرت أسواراً من اللبن المشوي المصمت على ارتفاع مترين تقريباً، ومن الواضح أنها تخص البناء السفلي من سرادق مثير للاهتمام . ولهذا السرادق صحن مزدوج وسلسلة الدعامات المستديرة المحيطة به .

٦. تل أسود :

بالإضافة إلى تلك الأبنية يوجد تل اصطناعي إلى الجنوب من تل البيعة في الزاوية الشمالية الشرقية من المستوطنة الهلنستية الأموية المسماة نيقفور/الرقة، وكنا قد أدخلنا هذا التل في منهاج البحث والدراسة، وذلك لأنه سوف يذهب إلى غير رجعة بشق طريق جديد فيه وقد أطلق على هذا التل اسم تل اسود (رقم ١٩) نظراً لكونه يتألف من طبقات كثيفة من الرماد، وذلك بسبب وجود مصانع للفخار تغطي الموقع بأكمله .

ويتألف التل من أكداس مكدسة من النفايات ومخلفات أفران الفخار، وعلى سبيل المثال لا الحصر يبلغ قياس أحد هذه الأفران ٢x٢م بعد الكشف عنه .

وقد امتد هذا التل المؤلف من سقط المتاع والنفايات من الجنوب إلى الشمال مليزيد على ٥٠م حتى بلغ ارتفاعه (٧م) .

وكنا قد حصلنا على مجموعات كبيرة من الكسر الفخارية من الموقع مشابهة لتلك التي عثر عليها في القصور المنقبة. وان دل هذا على شيء فإنما يدل على الإنتاج المحلي، الذي كانت تزود به قصور هارون الرشيد .

خلاصة:

لقد سمحت لنا مواسم التنقيب الثمانية أن نكون فكرة هامة عن مدينة الرقة منذ عصر التأسيس مروراً بالعصر الذهبي لمدينة إسلامية في بواكير عهدها منذ أواخر النصف الثاني من القرن الثامن إلى بداية القرن التاسع، والفترة الثانية هي التي استهلها الخليفة هارون الرشيد، وذلك عندما قرر فجأة بعد ربع قرن من عهد التأسيس الذي تم على يد جده المنصور أن ينقل مقر خلافته من بغداد إلى الرقة قرب حدود الدولة البزنطية .

وهذا ما دعاه عملياً إلى وضع برنامج عمل للبناء في المنطقة بخارج حدود المدينة في عام ١٨٠هـ/٧٩٦م ومعظم الأبنية المشيدة كانت غالباً عبارة عن قصور للعائلة المالكة وكبار موظفي الدولة من حاشية البلاط .

وبعد عودة الخلافة إلى بغداد بعد ١٢عاماً أي ١٩٢هـ/٨٠٨م، استخدمت تلك القصور على ما يبدو منتجعاً صيفياً مؤقتاً. نستدل على ذلك من بعض النقود القليلة التي تنتمي إلى عهد خلفاء هارون الرشيد المباشرين، ومهما يكن من أمر واعتماداً على ما تقدمه تلك النقود من معلومات فإن القصور المذكورة لا يمكن أن يتعدى عمرها أربعة عقود من الزمن كحد أقصى، وبعد تأسيس عاصمة الخلافة الجديدة سامراء على نهر دجلة في عام ٢٢١هـ/٨٣٦م انشغل الخليفة وحاشيته كلياً بمهمات البناء والتشييد في العاصمة الجديدة مما سبب إهمالاً وعدم عناية بصيانة قصور الرقة، التي لم تعد تلقى من الاهتمام ما يكفي، وبذلك فقدت مدينة الرقة أهميتها الدولية التي عرفتها لوقت قصير من حياتها المزدهرة.

إن الأبحاث التي جرت في الرقة زودتنا بمعلومات عن المنجزات الحضارية التي تمت في عهد الخليفة هارون الرشيد، وهذا جهد يسير بذل خلال ثمانية أعوام من أعمال التنقيب الأثري، وسوف تضيف المواسم المقبلة معلومات جديدة، وتعمل أيضاً على توسيع مداركنا حول هذا الفصل الهام من تاريخ تطور الفن والعمارة الإسلاميين .

دقق من قبل
محمد وحيد خياطة
مدير آثار ومتاحف حلب

حلب في عيون الشعراء

محمد قجة *

مقدمة تاريخية:

حلب المحروسة ، حلب المنصورة ، حلب الشهباء ، حلب التاريخ القديم المتصل المتجدد ، حلب الحجارة البيضاء والقلوب البيضاء ، حلب النسائم الرقيقة، والأرض الطيبة، حلب التسامح والأدب والفن والعراقة والأصالة ، حلب الضاربة في أعماق التاريخ والمستمرة في الحياة مدينة متميزة على مرّ العصور .

ورد ذكرها باسمها الحالي قبل أكثر من خمسة وأربعين قرناً ، أما اسم " حلب " الذي لزم المدينة حتى اليوم ، فقد ورد بأشكال مختلفة مثل :(خالوبو-حلبا-حلباس-حلبو-حلّب-حلاّبا...الخ) . (1)

وفي هذه التسمية مذاهب يبدو أن أقواها ما ذهب إليه الأسدي في أن أصلها مركب من حل- لب بمعنى :محل التجمع ، وذلك قبل أكثر من خمسة وأربعين قرناً . (2)

عايشت حلب التقلبات السياسية المختلفة في ظل الحكم الإسلامي ، فكانت ترتفع تارة ، ويخبو ذكرها طوراً ، ولقد اتخذها بعض الأمويين مقراً دائماً أو مصطافاً ، وذكر ابن الشحنة عن ابن شداد وابن الخطيب : " وقد تقدم لنا أحاديث كثيرة في فضل الشام بأسره، وإذا اعتبرنا الحال في حلب وجدناها منه الواسطة من العقد ، والقلب من الصدر ، والإنسان من العين ، وقد كان جماعة من أمية اختاروا المقام بناحية حلب وآثروها على دمشق مع طيب دمشق وحسنها وكونها وطنهم ، ولا يرغب الإنسان عن وطنه إلا إلى ما هو أفضل منه ، فمنهم هشام بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز، ومسلمة بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ." (3)

وقد بنى مسلمة بن عبد الملك فيها قصر الناعورة عام ٩٠ هـ - ٧٠٨ م، وقد هُدم هذا القصر وأُخذت حجارته لبناء قنّسرين . وبنى سليمان قصر الحاضر السليماني في

* رئيس جمعية العاديات

(1) الأسدي – حلب ١٩٧٢ – مطبعة الضاد – حلب

(2) الأسدي – حلب ١٩٧٢ – مطبعة الضاد – حلب

(3) ابن الشحنة – الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب – ص١٥ دار الكتاب العربي – دمشق ١٩٨٤

أواخر القرن الأول للهجرة وهدمه العباسيون، أما عمر بن عبد العزيز فقد بنى قصره في " خناصرة " قرب حلب .[٤]

وحينما ولي العباسيون الخلافة أهملوا الشام بما فيه حلب ، إلا أن بعض ولاة حلب كانوا من وجوه العباسيين الكبار مثل صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وأولاده والعباس بن المأمون ، وقد بنى صالح قصراً في "بطياس"شرق حلب عام ١٣٧ هـ-٧٥٤ م كما بنى أولاده قصر الدارين خارج باب انطاكية وفي وسطه قنطرة على نهر قويق . وقد شرع ابنه عبد الملك ببناء القصر وأتمه"سيما الطويل"، والي حلب أيام المعتمد العباسي . [٥]

عادت حلب إلى واجهة الأحداث مع قدوم الحمدانيين عام ٩٤٤ . وبلغت أوج بريقها السياسي والأدبي أيام سيف الدولة الذي جعل منها عاصمة هامة قارعت النفوذ البيزنطي سياسياً وعسكرياً . وعلى الرغم من قصر عمر الدولة الحمدانية فإنها قد جعلت من حلب مركزاً لامعاً للثقافة والأدب . وأصبح بلاط سيف الدولة يضم نخبة من رجال الفكر والعلم والأدب لم يجتمع مثلهم لدى أي خليفة عباسي ، ومن أبرزهم : الفارابي ، أبو بكر الخوارزمي ، أبو عبد الله بن خالويه، ابن جني ، المتنبي ، أبو فراس الحمداني ، المعوج الرقي ، أبو بكر الصنوبري ، أبو الفتح كشاجم ، المريمي ، العباسي المصيصي ، أبو المعتصم الانطاكي ، أبو الحسن الشمشاطي ، النامي ، السرّي الرفّاء ، الخليع الشامي ، الوأواء الدمشقي ، أبو نصر بن نباته ، أبو الفرج الببغاء ،أبو الفتح البكتمري، سلامة بن بحر ، أبو الفرج العجلي ، عبد الله بن عمرو ، أبو بكر وابو عثمان الخالديان ، أبو محمد وأبو أحمد أبناورقاء الشيباني ... وغيرهم . [٦]

وقد جمع الشمشاطي أكثر من عشرة آلاف بيت في مديح سيف الدولة لعدد كبير من الشعراء في بلاطه .[٧]

وقد دفعت حلب ثمناً باهظاً حينما هاجمها نقفور فوكاس الامبراطور البيزنطي عام ٩٦٢واستمرت جيوشه تدمّرها وتنهبها وتقتل رجالها وتسبي نساءها لمدة ثمانية أيام متواصلة ، وكان هذا التدمير أقسى من كل تدمير سبقه.

---

[٤] ابن الشحنة – الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب – ص٥٨ دار الكتاب العربي – دمشق ١٩٨٤

[٥] ابن الشحنة – الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص٥٩ – دار الكتاب العربي – دمشق ١٩٨٤

[٦] لثعالبي – يتمة الدهر – جـ ١ ص ١٢ – دار الفكر بيروت ١٩٧٣

[٧] الثعالبي – يتمة الدهر – جـ ١ ص ١٦ – دار الفكر بيروت ١٩٧٣

ومرّ بنو مرداس والسلاجقة حكاماً لحلب دون أثر يذكر . حتى إذا جاء عماد الدين الزنكي جعل منها مركزاً للجهاد ضد الصليبيين ، وأكمل المهمة ابنه نور الدين محمود الذي ترك فيها آثاراً عمرانية بارزه ، وفي العصر الأيوبي تتألق حلب من جديد أيام الظاهر غازي بن صلاح الدين وأبنائه من بعده . وتشهد أكبر نشاط عمراني في تاريخها . ومن جديد تتعرض حلب للدمار على يد هولاكو المغولي عام ١٢٦٠ ، وتدخل بعدها في العصر المملوكي الذي تشهد خلاله دماراً أفظع على يد تيمورلنك المغولي الآخر عام ١٤٠٠ ، حتى إذا جاء عام ١٥١٦ ، دخلت في العهد العثماني.

سنعرض لبعض الموضوعات التي تناول الشعراء من خلالها مدينة حلب ، معتمدين على أبرز النصوص التي يحتاجها كل موضوع . لأن استقصاء ما قيل في حلب يحتاج إلى كتاب بل إلى أكثر من كتاب واحد .

لقد وصف الشعراء مدينة حلب : طبيعتها وقلعتها ونَهرها وأسواقها وأهلها ومبانيها ... الخ . كما عبر الشعراء عن شوقهم وحنينهم إلى هذه المدينة الجميلة ، سواء أكانت مسقط رأسهم أم مكان زيارتهم، كما أفاض الشعراء في الحديث عن حلب كمركز للجهاد والعمل العسكري ضد الغزاة على مر العصور وامتدحوا البطولات التي عرفتها تلك المدينة في قادتها وفي جندها وعامة أهلها . لقد أفصح كثير من الشعراء عن إعجابهم بحلب وسكانها فعبروا عن ذلك بقصائدهم . ولم ينسوا أن يندبوا المدينة وينكوها إذا ألمّ بها طارئ من زلزال أو طاعون أو مظالم حاكم . وسوف نتوقف عند كل واحد من هذه العناصر قليلاً ، وقبل ذلك تجدر الإشارة إلى قصيدة امرئ القيس الرائية التي تحدث فيها عن رحلته إلى قيصر الروم ومروره بأماكن ذكرها باسمها كحوران وحماه وشيزر وتادف في منطقة حلب: [٨]

فلما بدت حوران و الآل دونها ... نظرتَ فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسبابُ اللبانة والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا
ألا ربّ يوم صالح قد شهدته ... بتادفِ ذات التل من فوق طرطرا

---

[٨] امرؤ القيس – الديوان ص ٦١ – دار المعارف – القاهرة ١٩٥٨
[٩] الطباخ – إعلام النبلاء ١/ ١٢٢ – حلب – دار القلم العربي .
[١٠] الطباخ – إعلام النبلاء ١/ ١٢٢ – حلب – دار القلم العربي .

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموتَ فنعذرا

كما ذكر شعراء آخرون بلدة خناصرة ، ودير سمعان قرب حلب وهي التي توفي فيها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ودفن . وقد ورد ذكر" خناصرة " في شعر عدي بن الرقاع:

وإذا الربيع تتابعت أنواؤه فسقى خناصرة الأحصِ وزادها

وقال كثيّر يرثي عمر بن عبد العزيز ويشير إلى مكان ضريحه: (٩)

سقى ربنا من دير سمعان حفرة بها عمر الخيرات رهناً دفينها
صوابح من مزن ثقال غواديا دوالحَ دهماً ما خضات دُجونها

حتى الشريف الرضي الشاعر المعروف في القرن الرابع الهجري ، رثى عمر بن عبد العزيز رغم موقفه من الأمويين (١٠)

يا بن عبد العزيز لو بكت العينُ فتى من أمية لبكيتكْ
ديرَ سمعان فيك مأوى أبي حفصٍ فودّي لو أنني قد أويتُكْ

حلب وشعر الوصف:

يتردد اسم حلب في دواوين عمالقة الشعر العربي منذ العصر العباسي الأوّل حتى يومنا هذا ، ويكفي أن شعراء كالبحتري والمتنبي والمعري والصنوبري وعشرات سواهم تغنوا بحلب طبيعة وجمالاً ونهراً وقلعةً ... حتى نكاد نشك هل ما كتب من شعر عن قويق قيل فيه أم في نهر آخر .

قال البحتري : (١١)

أمرر على حلب ذات البساتين والمنظر السهل والعيش الأفانين

---

(١١) البحتري – الديوان ٤/ ٢٣١٩ – حلب دار المعارف بمصر ٩٦٣ .

(١٢) البحتري – الديوان ٢/ ١١٣٥ – حلب دار المعارف بمصر ٩٦٣ .

(١٣) البحتري – الديوان ٢/ ١١٤٧ – حلب دار المعارف بمصر ٩٦٣ .

* بطياس : ضاحية شرق حلب

ويصف قويق والطبيعة من حوله :[12]

يا برق أسفر عن قويق فطـــرّتي حلب فأعلى القصر من بِطيـــاس
عن منبت الورد المعصفر صبغُـــه في كـــل ضاحيـــة ومجـــنى الآس
أرض إذا استوحشتُ ثم أتيتـــها حشدت عليَّ فأكثرت إيناســـي

ويستعرض البحتري أماكن ذكرياته في حلب داعياً أن يسقيها الغيــث وأن تجــود محبوبته " علوة " الحلبية بالوصال :[13]

أقام كل مُلِثّ الـــودق رجّـــاس على ديار بعلوى الشـــام أدراس
فيها لعلوة مصطـــافٌ ومرتبـــعٌ من بانقوسا وبـــابلّي وبطيـــاس*
منازل أنكرتنـــا بعـــد معرفـــة وأوحشت من هوانا بعد إنيـــاس
يا علوَ لو شئت أبدلت الصـــدود وصلاً ،ولان لصبٍّ قلبك القاسي
هل من سبيل إلى الظُهران من حلب ونشوة بـــين ذاك الـــورد والآس
أمدّ كفي لأخذ الكأس من رشـــأ وحاجتي كلها في حامل الكـــاس
بـــبرد أنفاســـه يشـــفي العليل إذا دنا فقرّ بها مـــن حـــرّ أنفاســـي

ولا يخفي البحتري تعلقه بحلب ورياضها وطبيعتها فيقول:[14]

عصبيتي للشام تضـــرم لوعـــتي وتزيد في كلفـــي وفي أشـــجاني
أن تكتئب حلبٌ فقد غلبت علـــى حَلَبِ الغمامِ وصَوْبِـــهِ التـــهتانِ
وعلى أنيق الروض يزهـــر بينـــه أفوافُ نَـــوْرٍ مُعجـــب الألـــوان
غيث تحمـــل عنـــهمُ متوجـــهاً من غربهـــم لمشـــارق البلـــدان
إن عاج في أهل الفـــرات فإنـــه سيقال:جـــاءهم فـــرات ثـــانِ

أما المتنبي فيتحدث عن فيضان قويق وخوضه مياهه للوصول إلى قصر سيف الدولة، فهو في فيضانه كالبحر :[15]

---

[14] البحتري – الديوان ٤/ ٢٢٣٨ دار المعارف بمصر ٩٦٣

[15] المتنبي – الديوان / العكبري ٤/ ١٧١ البابي الحلبي / القاهرة

[16] الزولي – سقط الزند ١/ ٢٣٥

حجّبَ ذا البحـرَ بحـارٌ دونـه ... يذمـها النـاسُ ويحمدونــهُ
يا ماء هـل حسـدتنا معينـةُ ... أم اشـتهيت أن تـرى قرينـةُ
أم جئتـه مخندقـاً حصونـه ... إن الجيـاد والقنـا يكفينـه
يـاربّ لُـجٌّ جُعلـت سـفينه ... وعازب الروض توفـت عُونَـه

وأبو العلاء المعري له جولات مع قويق وحلب ، وقد كانت أمه حلبية مـن بـني سبيكة، يقول في إحدى قصائده : (١٦)

يرومك والجـوزاء دون مرامـه ... عدو يعيبُ البـدرَ عنـد تمامـه
كأنك حوض المسك طأطأ نفسه ... إلى وِرده حتى ارتوى من سحامه
يكاد نسيم الريح من نحو أرضـه ... يخبّرنـا عـن وجـده وغرامـه
ونكّب إلا عـن قويـقٍ كأنـه ... يظن سـواه زائـداً في أوامـه
تذكّرْنَ من ماء العواصم شَـرْبة ... وزُرقُ العوالي دون زُرقِ جمامـه

وهو يرى أن قويق بحر وحلب جنة عدن ; (١٧)

حلـبٌ للـوليّ جنـة عـدنٍ ... وهـي للغـادرين نـارُ سـعيرِ
والعظيم العظيم يكبر في عيـ ... ـنيه منها قدر الصغير الصغـير
فقويقٌ في أعـين القـوم بحـر ... وحصـاةٌ منـه نظـيرُ ثبـيرِ

بل إن المعري يذكر نهر قويق في نطاق ذكره النيل والفرات ودجلة ، فيقول : (١٨)

فكـانـت مصـر ذات النيـل عصراً ... تنافس فيك دجلـة والسـوادا
وان مـن الصّـبراة إلى مجـرّ الفـرات إلى قويـق مُسـترادا
مياهٌ لو طرحـتَ بهـا لُجينـا ... ومشـبهها لُمـيّزت انتقـادا

على أن شاعر حلب المحب وابنها البار هو أبو بكر الصنوبري الذي تشكل حلب وطبيعتها ونهرها وذكرياتها القسم الأكبر من ديوانه، وهو من وجوه بلاط سيف الدولة ،

---

(١٨) الولي – سقط الزند ٢/ ٧٧١
(١٩) الصنوبري – الديوان ٤٥٤
(٢٠) الصنوبري الديوان ٤٢٤
(٢١) الصنوبري الديوان ٤٣٣

كما أنه شاعر الطبيعة الأول في الشعر العربي ، وقراءة قصائده تنقلنا إلى جو الرياض الغناء والحدائق الجميلة ويمزج فيها الصنوبري بين سحر الطبيعة وسحر المرأة : [١٩]

والسرو تحسبه العيــــون غوانيــا ... قد شمرت عن ســـوقها أثوابهـــا
وكأن إحداهن من نفخ الصَّبـــــا ... خود تلاعـــب موهنــاً أترابهـــا

أما قويق فهو الشغل الشاغل لأبي بكر الصنوبري : [٢٠]

قويق من الصفراء ركّب جســمه ... رُبــاه بهــذا شــهّدٌ وحدائقــه
إذا جدّ جدٌّ الصيف غادر جسـمه ... ضئيلاً ، ولكن الشـــتاء يوافقــه

وللشاعر في النهر مداعبات وطرائف شتى : [٢١]

قويق له عـــهد لدينـــا وميثـــاق ... وتلك العـــهود والمواثيـــق أذواق
ففي الخوف أنا لا غريق نرى لـــه ... فنحن على أمنٍ وذا الأمـــن أرزاقُ
يُــهاب قويـــق أن يمـــلّ فإنمـــا ... يقيم زماناً ثم يمضـــــي فنشـــتاق
وقالوا أليس الصيفِ يبلي لباســـه ... فقلت: الفتى في الصيف يقنعه الطـاق
فلو دام في الحب الوصال ولم يكـن ... فراقٌ ولا هجرٌ لما اشتاق مشـتاقُ
قويق رسيل الغيث يأتي وينقضـــي ... ويأتي انسياقاً تـــارة ثم ينســـاق

وحينما تتدفق مياه قويق فإن لها شأناً آخر عند الصنوبري : [٢٢]

عيّـــــد في عيدنــــا قويــــق ... وحلّقــت وجهـــه الســـحابُ
تذهـــب أمواجــــه كخيـــــل ... شــقرٍ لهــا وســطه ذهـــــاب
فبــادرِ الشـــربَ قبـــل فـــوت ... قـــد بـــرد المـــاء والشـــراب

ويُفتن الصنوبري بالطبيعة الجميلة على جانبي قويق فيصفها بقوله : [٢٣]

رياض قويق لا تـــزال مروّضـــةْ ... يجاور فيها أحمرُ اللـــون أبيضـــه
إذا ماطفا النيلوفر الغـضُّ فوقـــه ... مفتحـــةً أجفانـــه أو مغمضـــــةْ
حسبت نجوماً مذهبات تتــــابعت ... فرادى ومثنى في سماء مفضّضـــــةْ

---

[٢٢] الصنوبري الديوان ٤٥٥

[٢٣] الصنوبري الديوان ٢٥٦

[٢٤] الصنوبري الديوان ٤٥١

ولعل أطرف ما قاله الصنوبري في قويق هذه الأبيات :[24]

قويق إذا شم ريح الشتاء   أظهر تيهاً وكبراً عجيبا
وناسب دجلة والنيل والفرات بهاء وحسناً وطيبا
وإن أقبل الصيف أبصرته   ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا

ولابن الوردي صورة في فستق حلب وهو في كف حسناء ، منها قوله:[25]

وفستق زاد حسناً   أتاك في كف ريم
زمرد في عقيق   في عاجة في أدم

وإذا عدنا إلى قويق رأينا أن الصنوبري لم يكن وحده المعجب المفتون بهذا النهر، فالشعراء في حلب على مر العصور كانوا يتغنون به وبالطبيعة الجميلة من حوله . يقول محمد بن الخضري :[26]

ما بردى عندي ولا دجلة   ولا مجاري النيل من مصر
أحسن مرأىً من قويق إذا   أقبل في المدّ وفي الجزر
يا لهفتا منه على جرعة   تبلّ مني غلة الصدر

ويداعب الشاعر الحسن بن حبيب من شعراء القرن الثامن الهجري (١٤م) نهر قويق حينما تغزر مياهه:[27]

لماَّ طمى نهر قويق ولم   يأت بسيب بل بسيل غزيرْ
قالت له الأشجار من حوله   مهلاً فقد زدت علينا كثيرْ

ونحن نعلم أن قلة مياه هذا النهر ألجأت الظاهر الأيوبي إلى إجراء قناة إلى حلب ، ثم قام أرغون المملوكي بتحويل نهر الساجور ليرفد قويق . وقيلت في ذلك قصائد عديدة . ومن ذلك قول ابن سنينير من شعراء الظاهر غازي :[28]

روى ثرى حلب فعادت روضة   أنفاً وكانت قبلُ تشكو الظما
لاغرو أن أجرى القناة جداولاً   فلطالما بقناته أجرى الدما

---

(٢٥) ابن الوردي الديوان

(٢٦) ابن شداد — الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة — ١ / ١٤٣ دمشق ١٩٥٣

(٢٧) الطباخ ــ إعلام النبلاء ٢ / ٣٦٢

(٢٨) الطباخ ــ إعلام النبلاء ٢ / ١٧٤

وقال القاضي شرف الدين الحسيني المتوفى مطلع القرن الثامن الهجري (١٤م):

لما أتى نَهَرُ الساجور قلت لـــــه: ماذا التأخر من حين إلى حينِ؟!..

فقـــال أخّـــرني ربي ليجعلـــــني من بعض معروف سيف الدين أرغونِ

ويشير الشيخ علي الدباغ خطيب الأموي إلى هذه الحادثة التي نفذها رجل مـــن آل نعسان فيقول: (٢٩)

لما أتى حلبَ الساجورُ قلت لـــه: كيف اهتديت وماساقتك أعـوانُ

فقال : كانوا نياما عن مســاعدتي حتى تيقظ ظُرفاً وهـــو نعســانُ

ومن حق الشعراء أن يكثروا الكلام في قويق دعابة ومديحاً ، فالشـــاعر القيســـراني يقول فيه :(٣٠)

رأيـــت نهــــر قويــــــق فســــــاءني مـــــــارأيت

فلو ظمئــــتُ وأســقيت مـــــ ـــــاءه مـــا رويـــت

ولـــو بكيـــت عليـــــه بقـــدره مـــا اشـــتفيت

وقبل أن نغادر حدائق المدينة ونهرها وطبيعتها يحسن أن نتوقف لدى الشاعر الفـــذّ كُشاجم وهو من شعراء سيف الدولة لنستمع إليه يصف حلب ونهرها : (٣١)

أرتــك يــد الغيــث آثارهـــا وأعلنــت الأرض أســــرارها

وكـــانت أكنّــت لكانونهـــا خبايـا وأعطتـــة آذارهـــا

فمـــا تقـــع العـــين إلا علـــى ريـــاض تصنّـــف نوّارهـــا

ومـــا أمتعــتْ جارَهـــا بلـــدةٌ كما أمتعـــتْ حلـــبٌ جارهـا

هي الخلد يجمـــع مـــا تشـــتهي فزرهـــا فطـــوبى لمـــن زارهـــا

إذا ما اســتمدّ قويـــق السمـــاء بهـــا فأمدتـــه أمطارهـــا

وأقبـــل ينظـــم أجيادهـــا بفيـــضُ الميــــاه وأغوارهـــا

ودار بأكنافـــــــهـا دورة ينّســـي الأوائـــل تذكارهـــا

---

(٣١) الطباخ – أعلام النبلاء – ٣ / ٤٤٨

ووصف الشعراء جو المدينة في فصوله المختلفة وأمطارها وثلوجها وبروقها . قــال أحدهم في فصل الخريف : (٣٢)

خذ في التدثر في الخريــف فإنــه　　مســتوبل ونســيمه خطّــاف
يجري مع الأجسام في غسق الدجى　　بلطافة، ومن اللطيــف يُخــاف

ويصف الشاعر ابن مماتي من العصر الأيوبي ثلج حلب قائلاً : ٣٣

لمــا رأيــت الثلـــج قـــد　　غطـى الوهـــاد والقُنَـــنْ
ســألت يــا أهــل حلـــبْ　　هــل تمطــر الســـما لـــبنْ

ويقول أيضاً : (٣٤)

نـــثر الثلـــج علينـــا　　ياسمينـــا وفَراشـــا
ورأى أن يرســـل الأســـهم بالـــبرد ، فَراشـــا
فغـــدا الكافـــور فـــي عنـــبرة الأرض فِراشـــا

وفي العصر الأيوبي نفسه يصف راجح الحلي وميض البرق فوق جبل جوشـــن في حلب: (٣٥)

وافترّ ثغر الـــبرق حـــتى خلتـــه　　ينضو على أعلام جوشنَ مرهفـــا

ولقلعة حلب مكانة بارزة لدى الشعراء،ونكتفي بما قاله الشاعر الخالدي أمام سيف الدولة:(٣٦)

وخرقاء ، قد تاهت على من يرومــها　　بمرقبها العـــالي وجانبـــها الصعـــب
يزرّ عليها الجـــوّ جيـــب غمامـــة　　ويلبسها عقـــداً بأنجمـــه الشـــهب
إذا ما سرى برقٌ بدت من خلالـــه　　كما لاحت العذراء من خَلَل السحب
فكم من جنود قد أمـــاتت بغُصـــة　　وذي سطوات قد أبانت على عقـــب

---

(٣٢) الغزي – نهر الذهب – ١/ ٤

(٣٣) ياقوت الحموي – معجم الأدباء ٦ / ١٢٢

(٣٤) ياقوت الحموي – معجم الأدباء ٦ / ١٢٢

(٣٥) روب في أخبار بني.أيوب ٣/ ١٨٦ وزارة الثقافة / مصر ١٩٧٢

(٣٦) الطباخ – إعلام النبلاء –٢ / ٣٠٦

ومن جميل ما قيل في القلعة قصيدة للشاعر عبد الله يوركي حلاق قال فيها :

شـــاخ الزمان وقلعة الشهباء ظلـــت في صباهـــا
ربضت على التل الأشم فروعت أقـــوى عداهـــا
ســئل الخلود . بمن تباهي قال بالشـــهبا وتاهـــا

ويحسن بنا قبل أن ندع ماقيل من وصف في حلب أن نتوقف عند بعض اللقطـــات الطريفة من العصرالعثماني . وقد تراجع الأدب وخبا وهج الإبداع، ولكــــن الشـــعلة لم تنطفئ . يقول الشاعر شهاب الدين الصوا من شعراء القرن العاشر الهجري (١٦ م) [٣٧]

لقد سبقت شهباؤنا كـــل ســـابق   إلى الحسن وامتازت على الزهر بـالورد
وفيها لنا باب الجنـــان وحورهـــا   بفردوسها يرتعن في فلـــك الســـعد

وتضايق الشاعر بدر الدين السيوفي ، وهو من وجوه الشافعية في القرن العاشـر الهجري ، من مؤذن قبيح الصوت يدعى" قاسم " فقال فيه : [٣٨]

إذا ما صـــاح قاســـم في المنـــار   بصوت منكـــر شـــبهِ الحمـــار
فكـــم ســـبّابة في وســـط أذن   وكـــم ســـبّابة في وســـط دار

وفي القرن الحادي عشـــر الهجري (١٧م) يصف يوسف الأنصاري نهـــر قويـــق فيقول: [٣٩]

يـــا لنـــهر لاعبـــت أمواجـــه   نسمات الريح في اليـــوم الأغـــرّ
فاكتست من أخضر الديباج مـــا   كلّلته الشمس من باهي الـــدرر

وفي القرن نفسه يصف محمد العُرْضي مقاهي المدينة وحاناتها فيقول : [٤٠]

حانات شهبائنا كالمسك قـــهوتها   بنيّـــة ولهـــا بالشـــرع تحليـــل
وبالقُصيبات إن شببتَ لا عجـــب   فذلك الحان بالأفراح موصـــول

وفي القرن الثاني عشر يصف علي الميقاتي مدينة حلب بقوله : [٤١]

حلب الشـــهبا وهـــاد النظـــر   ومهاد قد تعـــالت عـــن نظـــير

---

[٣٨] الطباخ – إعلام النبلاء ٥/ ٣٧٩

[٣٩] الطباخ – إعلام النبلاء ٦/ ١٨١

[٤٠] الطباخ – إعلام النبلاء ٦/ ١٦٥

[٤١] الطباخ – إعلام النبلاء ٧/ ١٨

[٤٢] الطباخ – إعلام النبلاء ٧/ ١٨

ومن طريف شعر الميقاتي قوله: [42]

من قال بالمرد فإني أمرؤ ... إلى النسا ميلي ذواتِ الجمال
ما في سواد القلب إلا النسا ... يا حسرتي ما في السويدا رجال

ومن شعراء هذا القرن عمر اللبقي القاضي ، ومن شعره : [43]

شهبا العواصم لاتخفى محاسنها ... فالله يكلؤها من كل ذي عوج
يمّمْ حمى حلب تلقَ السرور على ... جبين أبنائها النيّر البهج
فعُجْ ولِجْ وتأمل بلدة شملت ... باب الجنان وباب النصر والفرج

ومن طرائف الوصف في القرن الماضي ما قاله يوسف الداده في " حبّة حلب وهي البثرة الجلدية المعروفة : [44]

مذ حلّ في حلب قامت تقبّله ... يا حسن ما غادرت في الخدّ من أثر
في موضع اللثم منه نكتةٌ ظهرت ... كما بدا أسدٌ في دارة القمر

وفي القرن الحالي وصف عبد الفتاح الطرابيشي بناء ساعة باب الفرج بقوله : [45]

قد شيد بالشهبا منارة ساعة ... تزهو بإتقان وحسن براعةِ
في دولة الملك الحميد المرتجى ... الثاني الذي ساس الورى بدرايةِ

ومن طريف وصف حلب ما قالته الشاعرة مريانا فتح الله مراش المتوفاة ١٩١٩: [46]

بزغت شموس السعد في الشهباء ... فجلت لياليها عن الظلماء
تتمايل الغادات مائسة بها ... كتمايل النشوان بالصّهباء
من كل غانية زهت بجمالها ... ودلالها كالروضة الغنّاء

حلب المجاهدة والصابرة:

بقيت حلب مطمعاً للغزاة منذ فجر التاريخ وحتى العصور الحديثة، وإلى جانب الغزو الخارجي تعرضت حلب للزلازل المدمرة والأوبئة الفتاكة ومظالم كثير من الولاة والحكام . ولكنها كانت دوماً تنفض عن كاهلها غبار المحن. وترفع رأسها عالياً بوجهها

(42) الطباخ – إعلام النبلاء ٧/ ٧٨

(44) الطباخ – إعلام النبلاء ٧/ ٤٤١

(45) الطباخ – إعلام النبلاء ٧/ ٥٣٢

(46) الطباخ – إعلام النبلاء ٧/ ٥٦٧

السمح المشرق وجو المحبة والألفة والتعاون بين أبنائها، خرجت من بين أمـــواج الغـــزو والمصاعبَ نقية صافية عربية القلب والهوى والفكر واللسان.

وحينما نذكر حلب المجاهدة المناضلة ضد الغزو فإن أول ما يتبادر إلى أذهاننا حلب سيف الدولة وتصديها الشجاع لمحاولات الروم البيزنطيين المتتالية وبخاصة خـــلال القـــرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وقد ضعفت الخلافة العباســـية وتقســـمت إلى دويـــلات وإمارات وطوائف.وعلى الرغم من الدور الهام الذي لعبه سيف الدولة في صد الـــهجمات البيزنطية المعتدية فإن شعر المتنبي أبرز هذا الدور بصورة رائعة قصرّ عنها من جاء بعده من الشعراء في مناسبات كانت أكبر بكثير من معارك سيف الدولة . مناسبات مثل حطـــين وملازكرد وتحرير بيت المقدس ، ومعركة المنصورة ، وتحرير أنطاكية وغير ذلـــك . لقـــد أفاد المتنبي من بلاط سيف الدولة ، ولكن شعر المتنبي صنع الكثير من أمجاد سيف الدولـــة وخلّد ذكره في التاريخ .

قال المتنبي في إحدى معارك سيف الدولة: (٤٧)

أعلى الممالك ما يبنى على الأســـل ... والطعن عند محبيـــهن كـــالقبل
على الفرات أعاصير ، وفي حلـــب ... توحش لملقّـــى النصـــر مقتَبَـــل
تتلو أسنته الكتبَ الـــتي نفـــذت ... ويجعل الخيل أبدالاً من الرســـلِ

ويهنئه بعد عودته منتصراً من إحدى غزواته:(٤٨)

وعـــدتَ إلى حلـــب ظـــافراً ... كعَـــود الحلـــيّ إلى العـــاطلِ
دعا فســـمعت وكـــم ســـاكت ... على البعـــد عنـــدك كالقـــائل
فلبيتَـــه بـــــك في جحفـــلٍ ... لـــه ضـــامنٍ وبـــه كـــافلِ

وفي المعنى نفسه ينشد شعراء كثيرون في بلاط سيف الدولة،ومن ذلك قول النامي(٤٩)

بجد سيفك سيفَ الدولة انحطمت ... قواعد الشرك والأرواح تنحطـــم
من آل حمدان حيث الملكُ مقتبَـــل- ... والمال مقتسَمٌ والحمـــد مغتنـــم

---

(٤٧) المتنبي – الديوان / شرح العكبري ص ٣/ ٣٤

(٤٨) المتنبي – الديوان / شرح العكبري ص ٣/ ٣٢

(٤٩) الثعالبي – يتيمة الدهر ١/ ٢٢٥

قوم إذا حكموا يوماً لأنفسهم | جار السماح عليهم في الذي حكموا

ومع بدايات الحروب الصليبية العدوانية دخلت حلب في مرحلة من التحدي والكفاح لمدة قرنين من الزمن، فلقد كانت في ملتقى الطرق إلى الإمارات الصليبية التي أقيمت في الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس. وقامت حلب بدور بالغ الأهمية في صد الهجمات الصليبية وتقليم أظافرها، ثم الانتقال إلى دور الهجوم والتحرير عندما أصبحت حلب قاعدة للجهاد وعاصمة للدولة الزنكية أيام عماد الدين ونور الدين، ثم أصبحت جزءاً من دولة صلاح الدين الموحدة التي امتدت من منابع النيل جنوباً إلى جبال طوروس شمالاً، وقد التقت فيها العزيمة الصادقة والإرادة الحازمة والصدق في الجهاد ضد العدو المغتصب و بعدها غدت حلب قاعدة هامة خلال دولة المماليك التي استكملت عملية تحرير الأرض من بقايا الغزاة الأوربيين الصليبيين. وكانت حلب في كل ذلك رأس الحربة في المعركة مؤكدة أن الحق المغتصب لا يسترد إلا بالقوة وأن الضعفاء لا مكان لهم فوق هذه الكرة الأرضية، والحق إذا لم تكن هناك قوة تحميه وترعاه فإنه يتلاشى تحت ضربات المعتدين.

استطاع عماد الدين الزنكي أن يشكل حزاماً قوياً ضد الوجود الصليبي، وتمكن من تحرير الرها عام ١١٤٤ من الاحتلال الأوربي الصليبي. وقيلت في ذلك قصائد كثيرة، منها ما قاله الشاعر القيسراني: (٥٠)

حذار منا وأنى ينفع الحذر | وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك | من خيله النصر لا بل جنده القدر

حتى إذا ما عماد الدين أرهصهم | في مأزق من سناه يبرق البصر

فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة | فالقوم إن نفروا ألوى بهم وزر

حتى تعود ثغور الشام ضاحكة | كأنما حلّ في أكنافها عمرُ

رُدّت إلى حلبَ الشبهاءِ بهجتها | بعد الرها ومشى في عرسها الظفر

لقد كانت حلب هي العاصمة التي انطلق منها جيش تحرير الرها، وكان أبناؤها الجند ومهندسي الحصار وفنيي آلات الحرب. وكان الحمام الزاجل ينقل الأخبار أولاً بأول من أرض المعركة إلى حلب. وقيمة هذه المعركة كبيرة جداً لأنها كانت بداية

---

(٥٠) الطباخ – إعلام النبلاء – ١/ ٤٢٢

الانعطاف السياسي والعسكري والنفسيّ من واقع الاستسلام والهزيمة إلى إرادة الهجوم واسترجاع الحقوق المغتصبة . ولقد عامل عماد الدين الرها بإنسانية تشهد بها كتب التاريخ الأوربية ،خلافاً للمعاملة الهمجية التي لقيها المسلمون من الأوربين .[٥١] وتابع نور الدين سيرة أبيه في الجهاد فحرر كثيراً من المناطق انطلاقاً من عاصمته حلب .

وقد خاطبه الشاعر ابن منير بعد معركة حارم قائلاً : [٥٢]

ما فوق عزمك في العلا مزداد ... فعلام يُقلق عزمكَ الإجهاد

وسواعد ضَربتْ بهن وبالقنا ... من دون ملة أحمد الأسدادُ

يُركزن في حلب ومن أفنائها ... تجني فواكه أمنها بغداد

وعلى الرغم من أن نور الدين لم يحرر مدينة كبيرة كما فعل أبوه إلا أن عمله كان تمهيداً حيوياً لصلاح الدين والأيوبيين . فقد انتصر على الفرنجة في عدة معارك وحرر حارم وأعزاز ومرعش ودلوك وعدداً من القلاع الهامة، واحتفلت حلب بمقتل ملك أنطاكية الفرنجي وحمل رأسه ليطاف به في شوارعها ابتهاجاً بالنصر .

واعتبر الشعراء انتصارات نور الدين المنطلقة من حلب إيذاناً ، بالمعركة الكبرى لتحرير بيت القدس . قال القيسراني : [٥٣]

يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة ... من الظُّبى عن ثغور زانها الشنب

مازلت تلحق عاصيها بطائعها ... حتى أقمت وأنطاكية حلبُ

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب ... يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقَب

وقال الشاعر نفسه في مناسبة أخرى وقد ضم نور الدين دمشق إلى مملكته في حلب: [٥٤]

ليهنِ دمشقاً أن كرسيَّ ملكها ... حُبي منْك صدراً ضاق عن همه الصدر

وأمست عَزازٌ كاسمها بك عزة ... تشق على النسرين لو أنها الوكر

فسرْ واملأ الدنيا ضياءً وبهجةً ... فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر

كأني بهذا العزم لا فلّ حدّه ... وأقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر

[٥١] ج. ب : سيغال – الرها – ترجمة يوسف جبرا – دار الرها / حلب ١٩٨٨

[٥٢] الطباخ – إعلام النبلاء ٢/ ٢٧

وقد أصبح البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جاري الدماء له طهر

وهنأه ابن منير بظفره بصاحب أنطاكية وعودته ظافراً إلى حلب : [55]

رفعت لنور الدين نار عزيمة ... رجعت لها عن طبعها ظلماته
بحرب : عمرية غضباته ... لله ، معتصمية غزواته
نَشَرت على حلب عقودُ بنودهم ... حللَ الربيع تناسقت زهراته
أين الألى ملأوا الطروس زخارفاً ... عن نزف بحبر هذه قطراته

وابن منير نفسه هو الذي يربط بين انتصارات نور الدين وبين معارك أبيه عماد الدين فيرى أن الابن المجاهد استمرار للأب المجاهد: [56]

أيا خير الملوك أباً وجداً ... وأنفعهم حياً لغليل صادِ
وهل حلب سوى نَفَس شَعاع ... تقسمها التمادي والتعادي
نفى ابن عماد دين الله عنها ... الشكاة فأصبحت ذات العماد
تبختر في كِسا عدلٍ وبذل ... مدبّجة التهائم والنجاد

وتابع الأيوبيون بقيادة صلاح الدين مسيرة الجراد وعمقوها بحيث لم يعد الأمر مقتصراً على إمارة صغيرة بل شمل أكثر أقطار الوطن العربي وبحيث تم إحكام الطوق حول الإمارات الصليبية وتضييق الخناق عليها، حتى إذا جاءت معركة حطين الحاسمة تمكنت قوة المسلمين المبرمجة والمدروسة والمتفوّقة من دحر قوة أوربا الصليبية قرب طبرية وتحرير بيت المقدس عام ١١٨٧ م ، وقد سبق ذلك إقامة الدولة الكبيرة القوية التي كانت حلب جناحها الشمالي اليقظ.

لقد تغنى الشعراء بانتصارات صلاح الدين ورحّبوا بمجيئه إلى حلب وجعلها جزءاً من دولته الموحدة، معتبرين أن دخوله حلب مبشر بدخوله بيت المقدس .

قال أبو الحسن بن الساعاتي : [57]

فانهض إلى حلب في كل سابقة ... سروجها قلل تغني عن القلل
ما فتحها غير إقليد الممالك،والدا ... عي إليه جميع الخلق والملل

---

[55] الطباخ أعلام النبلاء ٢٣٥/٢
[56] الطباخ أعلام النبلاء ٨٠/٢
[57] الطباخ أعلام النبلاء ١١٤/٢

وخاطبه القاضي الدمشقي محي الدين بن الزكي قائلاً :[58]

وفتحك القلعة الشهباء في صفـــر ... مبشر بفتوح القدس في رجـــب

أما شاعره ابن سناء الملك فقال : [59]

أرض الجزيرة لم تظفــــر ممالكــها ... بمالـــك فطـــن أوســـائر دَرِب

ممـــالكٌ لم يدبّرهـــــا مدبرهــــا ... إلا برأي خصّي أو بعقل صـــبي

حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت ... من الفساد كما صحّت من الوصب

وقد زأت صدّه عن ربعها حلـــبٌ ... ووصله لبـــلاد الغـــير بـــالحَلَبِ

غارت عليه ومدت كفّ مفتقـــر ... منها إليه وأبدت وجه مكتئـــب

وفي المعنى نفسه قال أبو الفضل بن حميد الحلبي : [60]

يا بن أيوب لا برحت مدى الدهـر ... رفيــع المكـــان والســــلطان

حلب الشامِ نحو مــــرآك ولهـــى ... ولَهَ الصـــبّ رِيــعَ بـــالهجران

وقال عيســى بن ســعدان الحلبي يحث صلاح الدين على فتح حلـــب وضمــها لدولته : [61]

دونـــك والشـــهباء أمٌّ للقــــرى ... ونارها الأشهب والطود الأشـــمْ

إيه صلاحَ الدين شـــد أزرهـــا ... واعزم عليها فالزمان قـــد عَـــزَمْ

ودونـــك المنعـــةَ مـــن قبابهــــا ... وبابها المغلـــق في وجـــه الأمـــمْ

وهنأه شعراء آخرون بعد دخوله حلب ، ومنهم يوسف البزاعي : [62]

شرفت بسامي مجـــدك الشـــهباء ... وتجللتـــها بهجــــة وضيـــاء

ألقت إليك قلادها وبهـــا علـــى ... كـــل الملـــوك ترفّـــع وإبـــاء

---

(58) الطباخ – إعلام النبلاء – ٢/١١٦

(59) الطباخ – إعلام النبلاء – ٢/١١٤

(60) الطباخ – إعلام النبلاء – ٢/١١٥

(61) الطباخ – إعلام النبلاء – ٢/١١٦

(62) الطباخ – أعلام النبلاء – ٢/ ١١٦

(63) الطباخ – أعلام النبلاء – ٢/ ١١٦

(64) الطباخ – أعلام النبلاء – ٢/ ١١٦

كذلك أنشد سعيد بن محمد الحريري مهنئاً : [٦٣]

وصبحت شهباء العواصم مصلتاً قواضب عزم لا يُفَلّ شهيرها
ورَدّ إليها روحُ عدلك رُوحَها وكان رميماً لا يرجّى نشورها

ويفخر أبو طيّ النجار الحلبي بمدينته ويهنئ صلاح الدين بدخولها : [٦٤]

حلبٌ شامة الشآم وقد زيدت جلالاً بيوسف وجمالا
هي أسُّ الفخار من قال أعلاها تعالى فخامة وتغالى
من حواها مملّكاً ملك الأرض اقتساراً سهولها والجبالا
فافترعها مهنّأً بمحل سمك الأنجم الوضاء وطلا

وحلب المجاهدة المحروسة لا تنسى فضل الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي وأياديه على المدينة في مجال البناء والعمران والمدارس ومحاربة العدو ، وحينما توفي رثاه الشاعر راجح الحلّي موضحاً حزن الشهباء على ملكها المخلص : [٦٥]

لي الله كم أرمي بطرفي ضلالة إلى أفق مجد قد تهاوت كواكبه
فمالي أرى الشهباء قد حال صبحها عليّ دجى لا تستنير غياهبه
أحقاً حمى الغازي الغياث بن يوسف أبيح وعادت خائبات مواكبه
مضى من أقام الناسُ في ظل عدله وآمن من خطب تدب عقاربه

وفي العصور الحديثة عندما تحدث شعراؤنا عن الغزو الأجنبي وجدناهم يربطون الماضي بالحاضر فالتاريخ صفحات تتشابه كثير من صورها . وهذا بدوي الجبل يرثي الزعيم الوطني إبراهيم هنانو ربطاً بينه وبين سيف الدولة : [٦٦]

نماك وسيفَ الدولة الدار والهوى وغنا كما أندى ملاحمه الشعر
وأقسم بالبيت المحرّم ما أحتمت بأمنع من كفيكما البيض والسمر
فإن تفخر الشهباء فالكون منصت وحق بسيفي دولتيها لها الفخر

---

[٦٥] الطباخ – أعلام النبلاء – ٢/ ١٧٩

[٦٦] بدوي الجبل – الديوان – ٢٦٦ دار العودة / بيروت ١٩٧٨

وحينما يقف سليمان العيسى في مهرجان الكواكبي في القـاهرة عـام ١٩٥٩ لا ينسى بني حمدان في حلب [٦٧]

وفي رحاب بني حمـدان وشوشـة تفجر الأرض بالسر الذي كُتمـا
في الشام في الشاطئ الوردي في حلب في كل زند بعطر التربة التحمـا
وخضّبت جنبات الشام وشوشـة لم تنطفئ بعد لا رعداً ولا حُممـا

ويفخر سليمان العيسى بالوقفة الشجاعة للمطران كبوجـي في وجـه الغطرسـة الصهيونية ويرى فيها رمزاً للتحرر العربي المرتقب : [٦٨]

يا بن الصخور البيض من حلـب يا فارسي يـا فـارس العـرب
الفـارس العـربي عاصفـة خضراء في وهـران في حلـب
في القـدس لم تطفـأ منابتـها في أرضنـا الثكلـى و لم تغـب
في باب سجنك نلتقـي مطـراً عطشان من لحم ومـن عصـب
اكتـب بنـار القيـد قصتنـا في نار قيـدك مولـد العـرب

هذه حلب المجاهدة ، أما حلب الصابرة ، فقد ذاقت أهوال الزلازل غـير مـرة، واجتاحها الطاعون ففتك بأبنائها ، وتفنن في ظلمها وإلحاق الأذى بها كثير مـن ولاتها وقضاتها وحكامها... وهي صابرة صبر الكبرياء لا صبر الهوان... مدركة أنها هي الباقيـة وهي المستمرة المتجددة .

يصف ابن خطيب الناصرية ما فعله لؤلؤ القندشي أحد ولاة حلب في القرن الثـامن الهجري (١٤م) فيقول : [٦٩]

" فبادر وصادر ، وتنمر وتجبر، وقام وقعد ، وبرق ورعد ، ونهى وأمـر ، وهمـز وهمر، وأذل الرجال واستخرج الأموال ، وأخذ ونقل وسجن واعتقل ، وعزل وصـرف وتزاعج وانحرف ، وأهان الأكابر وروّع الحرم والأصاغر " . وأخيراً عزل وسجن ، فقـال فيه ابن الوردي [٧٠]

ألؤلؤ قد ظلمت النـاس لكـن بقدر طلوعك اتفـق النـزول
كبرت فكنت في تـاج ، فلمـا صغرت سُحقت ، سنة كل لولـو

---

[٦٧] سليمان العيسى الأعمال الكاملة ٢/ ٥٨ دار الشورى بيروت ١٩٨٠
[٦٨] سليمان العيسى الأعمال الكاملة ٣/ ٢٠١ دار الشورى / بيروت ١٩٨٠
[٦٩] الطباخ – اعلام النبلاء – ٢/ ٣١٢
[٧٠] الطباخ – اعلام النبلاء – ٢/ ٣١٢

ويصف ابن الوردي كيف عم الفساد شؤون الولاية في ذلك القرن فيقول : [71]

لقد قالت لنا حلب مقالاً ... وقد عزم المشد على الرواح

إذا عم الفساد جميع وقفي ... فكيف أكون قابلة الصلاح

ويفضح إبن الوردي كيف أن أحد القضاة قدم رشوة إلى الوالي لكي يعينه في منصب القضاء [72]

فلانٌ لا تحزن إذا ... نُكبت واعرف ما السبب

فما تولى حاكم ... بفضّةٍ إلا ذهب

وابن الوردي الذي نصب نفسه مراقباً يرصد عصره يحتج على تنصيب أحد سلاطين المماليك وهو في الثامنة من عمره ويدعى الأشرف كجك ، فيقول : [73]

سلطاننا اليوم طفل والأكابر في ... خُلفٍ وبينهم الشيطان قد نزغا

وكيف يطمع من مسّته مظلمة ... أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغا

ويشرح أحد شعراء المعرة كيف كان سلاطين المماليك يصادرون الأموال ويعبثون بحقوق الناس فيقول : [74]

طرحوا علينا الملك طرح مصادر ... ثم استردوه بلا أثمان

وإذا يد السلطان طالت واعتدت ... فيد الإله على يد السلطان

وحينما ضرب الطاعون مدينة حلب عام ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م اشتكى الشعراء ، وقال في ذلك ابن الوردي [75]

اسودت الشهباء في ... عينيّ من وهمٍ وغشٌ

كادت بنو نعش به ... أن يلحقوا ببنات نعش

إن الوبا قد غلبا ... وقد بدا في حلبا

قالوا : له على الورى ... كاف ورا قلت وبا

---

[71] الطباخ - اعلام النبلاء - ٢/ ٣٢٣

[72] الطباخ - اعلام النبلاء - ٢/ ٣٢٣

[73] الطباخ - اعلام النبلاء - ٢/ ٣٢٥

[74] الطباخ - اعلام النبلاء- ٢/ ٣٣٥

[75] الطباخ - اعلام النبلاء - ٢ / ٣٤٦

وقال فيه بدر الدين بن حبيب [٧٦]

إن هذا الطاعون يفتك في العالم فتك امــرئ ظلــوم حقــود
ويطوف البلاد شرقاً وغربـاً ويسوق العباد نحو اللحــود

وقبل هذا الطاعون بخمس سنوات نكبت حلب بأحد الزلازل الكثيرة في تاريخــها ، ومما قاله فيه ابن الوردي: [٧٧]

نعــوذ بــالرحمن مــن مثلــها زلزلــة أســـهرت الأعينـــا
قد واثبت بالهجم من لا عصـــى وعــاقبت بــالرجم مــن لازنى
حكــم عزيــز قــاهر قــــادر في كل حــال لم يــزل محســنا

وقال في قصيدة أخرى : [٧٨]

صارت لقلـــع القــلاع زلزلــة ما خشــيت راميــاً ولا صــائد
إذا درى الحصن من رمــاه بهــا خــرّ لــه في أساســه ســاجد
إن هربوا أُدركـــوا وإن وقفــوا خشوا تلاقي الطريــف والتــالد
فــالأمر لله ، رب مجتــــهد مــا خــاب إلاّ لأنــه جــاهد

يقول أحدهم مقتبساً بعض ما ورد في القرآن الكريم[٧٩]

زلزلــت الأرض بنــا زلزالهــا وقال كل من عليــها مــا لهــا
فقلت إذ فــروا إلى صحرائــها: قد أخرجت أرضكـــم أثقالهــا

وقال آخر يصف ما حدث في حي العقبة : [٨٠]

زلزلة قــــد وقعــت في العقبــة ترضى من اللحم بعظــم الرقبــة

وفي زلزال سنة ١٢٣٧ هــ ١٨٢١ م يصف الشيخ تقي الدين المطلبي الأهوال الـتي أصابت مدينة حلب [٨١]

زلازل ما سمعنـــا مثلــها أبــداً ولا زمان مضى في مثلها شـــهدا
ولا كتاب ولا خــير بهــا وردا ولا سماء ولا جيل لهـــا وعــدا

---

[٧٦] الطباخ – اعلام النبلاء – ٢ / ٣٤٧

[٧٧] الطباخ – علام النبلاء – ٢/ ٣٣٠

[٧٨] الطباح – اعلام النبلاء – ٢/ ٣٣٢

[٧٩] الطباخ – اعلام النبلاء – ٢/ ٣٣٣

[٨٠] الطباخ – اعلام النبلاء – ٢/ ٣٣٢

[٨١] الطباخ – اعلام النبلاء – ٢/ ٣٢٢

يا لله يا سادتي نوحوا علـــى حلـــب والندب للفضل والإحسان والأدب
وابكوا أهالي الهدى والجود والحسـب يا ليتهم سلموا من وقعة الوصــب
وانظر إلى القلعة الشهبا وقد عــثرت في أهلها بعدما مالت وقد دثــرت
وفي الخنادق أحجـــار لهـــا نــثرت وكم نفوس عليها حرقة زفــرت

ويحتج عبد الله بن السفاح من شعراء القرن الثامن الهجري (١٤م) على تعاظم نفوذ اليهود في مدينة حلب فيها جر إلى القاهرة ، ويشكو ذلك قائلاً : [٨٢]

أأرضى حمى الشهباء داراً وقد علت عليها لأبنــــاء اليــهود ســناجق
فإن نكست أعلامهم أنــا راجــع إليها ، وإلا فـــهي مــني طــالق

وحينما غزت جيوش هولاكو حلب وهدمتها واستباحتها عام ٦٥٨ هـــ-١٢٦٠م تألم لها الشعراء وبكاها كمال الدين بن العديم بقصيدة طويلة منها[٨٣]

وعن حلبٍ ما شئت قل من عجائب أُحلَّ بها يا صاح إن كنــت تعلــم
غــداة أتاهـــا للمنيــة بغتـــــةً من الغل جيش كالسحاب عرمــرم
فيا حلبـــاً أنى ربوعــك أقفــرت وأعيت جوابـــاً فـــهي لا تتكلــم
أنوح على أهليك في كل منـــزل وأبكي الدجى شوقاً واسأل عنــهم

وبعد أقل من قرن ونصف القرن يستبيحها تيمورلنك وجيشه المغولي عام ١٤٠٠م، فيبكيها أحد الشعراء قائلاً : [٨٤]

ويلاه ويلاه ياشهبا عليــــك وقــد كسوتني ثوب حزن غير منســـلب
من بعد ذاك العلا والعز قد حكمت بالذل فيك يد الأغيـــار والنــوب
وحين جاء قضاء الله مــــا دفعــت عنك الجيوشُ ولا الشجعان بـــالقُضُب
وأصبح المغل حكامـــاً عليـــك ولم يرعوا لجارك ذي القربى ولا الجنـب

الشوق إلى حلب والتغني بها ومديحها:

رافق الحنين حياة الإنسان منذ بداياتها، فهو دائم التنقل والرحيل والفراق ، والألفــة شعور يولد مع الإنسان ويرافقه ، ولقد كان طبيعياً أن نرى أكثر الشعر الــــذي قيـــل في حلب شعر شوق وحنين إليها وتغنٍ بها وتذكر لمرابعها وأهلها.

---

[٨٢] الطباخ – إعلام النبلاء – ٥/ ٤١

[٨٣] الطباخ – إعلام النبلاء – ٢/ ٢٥٤

[٨٤] الطباخ – إعلام النبلاء – ٥/ ١٣٨

ونعود للبحتري ... هذا الشاعر الذي ولد في منبج ... ورحل إلى بغداد حيث دار الخلافة ، ولكنه ظلّ دائم الشوق إلى مرابع محبوبته " علوة" الحلبية ، ولقد تردد اسمها وذكرياتها في عشرات القصائد في ديوانه .

يقول البحتري مشتاقاً لحلب ولمحبوته " علوة" . [٨٥]

قل للسحاب إذا حدته الشمأل ... وسري بليلٍ ركب المتحملِ
عرّج على حلب فحيّ محلة ... مأنوسة فيها لعلوة منزل
أحنو عليك وفي فؤادي لوعة ... وأصدّ عنك ووجه ودّي مقبل
وإذا هممت بوصل غيرك ردّني ... ولَهٌ إليك وشافع لك أول

ويقول في قصيدة أخرى: [٨٦]

أأتخذ العراق هوىً وداراً ... ومن أهواه في أرض الشآم
لعلوة إنها شجن لنفسي ... وبلبال لقلبي المستهام
لقد غادرت في جسدي سقاماً ... لما في مقلتيك من السقام

ويتذكر أيام لقائه بعلوة في حلب فيزداد شوقاً: [٨٧]

ربّ غداة للقصف في حلب ... يجني ضحى وردَها وسوسنَها
لله أزماننا بعلوة ما ... أطيب أيامها وأحسنها

وترتبط ذكرياته بنهر قويق ولقاءاته مع علوة: [٨٨]

يا علو علّ الزمان يُعقبنا ... أيام وَصل نظلّ نشكرها
إن قويقاً له عليّ يدُ ... بالأمس بيضاء لست أكفرها
وليلةُ الشك وهو ثالثنا ... كانت هنات والله يغفرها
أيام لهوي في جانبي حلب ... لم يبقَ منها إلا تذكرها

ولا يتسع المقام لإيراد كل ما قاله البحتري في علوة وحلب، وهذه إحدى ذكرياته معها في باب قنسرين: [٨٩]

---

[٨٥] البحتري – الديوان – ٣/ ١٥٩٩

[٨٦] البحتري – الديوان – ٣/ ١٩٣٢

[٨٧] البحتري – الديوان – ٤/ ٢٣٢٥

[٨٨] البحتري – الديوان – ١٠٧٤/٢.

[٨٩] البحتري – الديوان – ٥٦١/١.

لعلــوة في هــذا الفــؤاد محلــة تجانفت عن سُعدى بها وســعاد
على "باب قنسرين" والليل لاطـخ جوانبــه مــن ظلمــة بمــداد
فبتنا وباتت تمزج الــراح بيننــا بأبيض رقراق الرضــاب بــراد
و لم نفترق حتى ثنى الديك هاتفــا وقام المنادي بــالصلاة ينــادي

ولقد دأب كثير من الشعراء على مخاطبة حلب بدار علوة من أثر شعر البحتري على مدى القرون، فهذا عيسى بن سعدان الحلبي يشتاق إلى حلب فيقول:(٩٠)

يا دار علوة ما جيدي بمنعطــف إلى ســواك ولا قلــبي بمنجــذب
ما مر برقك مجتازاً على بصــري إلا وذكرني الدارين مــن حلــب
ما كان أطيب أيــامي بقربهــم حتى رمتني عوادي الدهر من كثب

أما أبو فراس الحمداني فهو منبجيّ المولد حلبي النشأة والشباب. وفي ديوانــه مــن الشوق إلى حلب ما لا يتسع المجال لذكره كله. قال يحن إلى حلب:(٩١)

سقى ثرى حلب مادمت سـاكنها يا بدرُ ، غيثان: منهلٌ ومنبجــسُ
أسير عنها وقلبي في المقــام بهــا كأنَ مُهري لثقل السير محتبَــس
كأنما الأرض والبلدان موحشــة وربعها دونهن العــامر الأنــس
مثل الحصاة التي يُرمى بها أبــداً إلى السماء فــترقى ثم تنعكــس

وهو لا يرى له مسكناً غير حلب ولا مياهاً غير قويق:(٩٢)

لقد طفت في الآفاق شرقاً ومغربـاً وقلبت طــرفي فيــهما متقلبــا
فلم أر كالشهباء في الأرض مـنزلاً ولا كقويق في المشارب مشــرباً

وحينما كان في الأسر يتذكر منبج مسقط رأسه وحلب مرتع صباه فيقول:(٩٣)

لأيكــــمُ أذكــــر وفي أيكــــمُ أفكــــر
وكــم لي علــى بلــدة بكــــاء ومســـتعبرَ
ففــي حلــب ســلوتي وعــــزي والمفخــــر
وفي منبــج مَــنْ رضــاهُ أفخــرُ مــا أذخــر
ومــا هــذه أدمعــي ولاذا الــذي أضمــر

(٩١) أبو فراس الحمداني – الديوان – ص ٢٨٦ مكتبة الحياة – بيروت
(٩٢) الغزي – نهر الذهب ص٨٠/١ وينسب الطباخ هذين البيتين إلى محمد بن حرب الخطيب ٤٤٧/٣ إعلام النبلاء
(٩٣) الغزي – نهر الذهب ص ١٩٦

ولكــــن أداري الدمــــــوع وأســــتر مــــا اســـــترُ

وإذا قلبنا ديوان المتنبي شاعر العرب العظيم رأينا حلب تسكن في شرايين قصـائده ، كيف لا وفيها عرف المجد والشهرة وقال أجمل القصائد.

قال حينما سمع بوفاة أخت سيف الدولة:[٩٤]

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلـــب

ولعل أجمل ما قاله المتنبي في الحنين إلى حلب قصيدته التي أرسلها إلى سيف الدولـــة رداً على هدية وصلته منه وهو في العراق:[٩٥]

ما لنا كلنا جــــوٍ يــا رســـول أنـــا أهــوى وقلبــك المبتــول
كلما عاد مــــن بعثــت إليــها غار مني وخــــان فيمــا يقــول
زودينا من حسن وجــــهك مــادام فحسنِ الوجــــوه حــالٌ تحــولُ
وصلينا نصلك في هـــذه الدنـــــ يــا فــإن المقــام فيــها قليـــلُ
نحن أدرى وقـد ســألنا بنجــد أطويـــل طريقنــا أم يطـــــول
كلما رحبت بنا الـــروض قلنــا حلب قصدنــا وأنــت السبيل
فيك مرعـــى جيادنــا والمطايــا وإليــها وجيفنــا والذميــــــل
والمســمّون بالأمــير كثــــير والأمــير الــذي بهــا المــأمول
ليـس إلاك يــا علــيّ همـــام سـيفه دون عرضــه مســلول
لو تحرفت عن طريق الأعـــادي وربط السدر خيلــهم والنخيـــل
أنت طول الحياة للــــروم غــاز فمتى الوعد أن يكــون القفــول
وسوى الروم خلف ظـهرك روم فعلـى أي جــانبيك تميــــل
قعد الناس كلهم عن مســاعيك وقامت بهـــا القنــا والنصــول
ما الذي عنـــده تــدار المنايــا كالذي عنــده تــدار الشــمول

ولدى شيخ الشعراء العرب وأكثرهم اشتهاراً في العالم أبي العلاء المعري وقفـــات إعجاب بحلب وشوق إليها وافتخار بها يصل حد التقديس، لنستمع إليه يتحـــدث عـــن حلب: [٩٦]

---

[٩٤] المتنبي – الديوان / شرح العكبري ١/ ٨٨

[٩٥] المتنبي – الديوان / شرح العكبري ٣/ ١٤٨

[٩٦] المعري – سقط الزند – ٢/ ٦٩٠

لولا تحية بعض الأربع الدرس ما هاب حدٌّ لساني حادث الحُبَسِ
يا شاكي النوب انهض طالباً نهوض مضنى لحسم الداء ملتمس
واخلع حذاءك إن حاذيتها ورَعاً كفعل موسى كليم الله في القدس
من معشر لا يخاف الجار بأسهمُ غشُّوا صروف الكيالي بُردَ مبتئس
وصاحبوها بأعراضٍ جواهرها كجوهر البدر لا يدنو من الدنس

وحينما كان في بغداد ألحَّ عليه الشوق إلى ربوع صباه وتذكر حلب ومغانيها:[97]

طربن لضوء البارق المتعالي ببغداد وهناً ما لهن ومالي
تمنتْ قويقاً والصراة حيالها ترابٌ لها من أينق وجمال
وكم همَّ نِضْوٌ أن يطير مع الصَّبا إلى الشام لولا حبسه بعقال
أإخواننا بين الفرات وجلق يدَ الله لا خبرتكم بمحال
أنبئكم أني على العهد سالم ووجهي لما يُبْتَذَلْ بسؤالِ

أما أهل حلب فهم لدى المعري في القمة : [98]

دعا حلباً أخت الغريَين مصرعٌ بسيف قويق للمكارم والحزم
منا جيدٌ لباسون كل مُفاضةٍ كأن غديراً فاض منها على الجسم
فوارس حرب يصبح للسكُ مازجاً به الركضُ نقعاً في أنوفهم الشمّ

ولعل الأمر الأهم في تراث أبي العلاء المعري بالنسبة لحلب هو ذكرها غير مرة في "رسالة الغفران" هذا الأثر الأدبي العالمي الجليل . ففي هذا الكتاب الخالد يجعل المعري طهاة الجنة من أهل حلب ، وكان المطبخ الحلبي موضع إعجاب على الأزمان.

يقول المعري في كتابه :[99]

" فإذا حصلت النحوض فوق الأوفاض [100] ، قال زاد الله أمره من النفاذ: أحضروا من في الجنة من الطهاة الساكنين بحلب على ممر الأزمان، فتحضر جماعة كثيرة، فيأمرهم باتخاذ الأطعمة . وتلك لذة يهبها الله عز سلطان بدليل قوله: " وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون فيها فاكهة كثيرة ومنها تأكلون " (الزخرف ٧١-٧٣).

---

[97] المعري – سقط الزند ٣/ ١١٦٢

[98] المعري – سقط الزند – ٣/ ٩٤٩

[99] المعري – رسالة الغفران – ٢٧١ – تحقيق بنت الشاطئ القاهرة ١٩٦٣.

[100] النحوض والأوفاض : اللحوم

وفي الكتاب نفسه يعرض المعري لحكاية المرآة الحلبية " حمدونة" التي صنعها خياله وأدخلها جنة رسالة الغفران ، وهذا جزء من الحكاية : [١٠١]

" ... ويقيل على كل واحدة منهما يترشف رضاها... فتستغرب إحداهما ضحكاً ، فيقول : مم تضحكين ؟. فتقول : فرحاً بتفضل الله الذي وهب نعيماً وكان بالمغفرة زعيماً ، أتدري من أنا يا علي بن منصور ، فيقول : أنت من حور الجنان اللواتي خلقكن الله جزاء للمتقين ، وقال فيكن " كأنهن الياقوت والمرجان" (الرحمن ٥٩) . فتقول : أنا كذلك بإنعام الله العظيم ، على أني كنت في الدار العاجلة أعرف ب " حمدونة" وأسكن في باب العراق بحلب وأبي صاحب رحى، وتزوجني رجل يبيع السَقَط فطلقني وكنت من أقبح نساء حلب ، فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا الغرارة ، وتوفرت على العبادة ، وأكلت من مغزلي ومردني ، فصيرّني ذلك إلى ما ترى".

وفي موضع آخر يجري حواراً بين ابن القارح وإبليس :[١٠٢]

" فيطّلع فيرى إبليس – لعنة الله – وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية ، فيقول : الحمد لله الذي مكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه ، لقد أهلكت من بني آدم طوائف لا يعلمها إلا الله ، فيقول : مَن الرجل ؟ . فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب، كانت صناعتي الأدب ، أتقرب به إلى الملوك . فيقول : بئس الصناعة ، إنها تهب غُفّة من العيش لا يتسع بها العيال ، وإنها لمزلة بالقدم ، وكم أهلكت مثلك ، فهنيئاً لك إذ نجوت".

وحينما يدور حديثنا عن الشوق إلى حلب فإن الصنوبري يطالعنا بأنا شيده الخالدة في هذا المجال : [١٠٣]

إني طربت إلى زيتون بطياس ... بالصالحية ذات الورد والآس

يا موطناً كان من خير المواطن لي ... لما خلوت به مابين جلاّسي

ومن عيون شعر الصنوبري مطولته في مدينة (حلب) ومنها : (١٢٨)

احبسا العيس احبساها ... وسلا النفس اسألاها

اسألا أين ظباء الدار ... أم أين مهاها

حلبٌ بدر دجى أنجمها ... الزهر قراها

---

[١٠١] المعري – رسالة الغفران ٢٨٦

[١٠٢] المعري – رسالة الغفران – ٣٠٩

[١٠٣] الصنوبر – الديوان

حبــذا جامعـــــها الجـــامع | للنفـــــــس تقاهـــــــا
حلـــب أكـــرم مـــأوى | وكـــريم مـــن أواهـــا
فـافخري يـا حلـبَ المـدن | يـــزدُ جـــاهك جاهـــا
إنــه إن تكــن المــدنُ رخـــا | خـــاً كنـــت شـــاها
أي حســـن مـــا حوتـــه | حلــــب أو ماحواهـــا
ســـروها الـــداني كمـــا | تدنـــو فتـــاة مـــن فتاهـــا

ويتذكر عيسى بن سعدان مدينته الحبيبة وهو بعيد عنها: (١٠٤)

ناجوك من أقصى الحجاز وليتهم | ناجوك ما بين الأحـــصّ ودابـــق
أمفارقي حلب وطيب نســـيمها | يـــهنيكم أن الرقـــاد مفـــارقي
والله ما خفقَ النسيمُ بـــأرضكم | إلا طربت من النســـيم الخـــافق
وإذا الجنوب تخطـــرت أنفاســـها | من سفح جوشن كنت أول ناشـق

ويقول أبو الفتيان ابن حيّوس: (١٠٥)

يا صاحبي إذا أعياكما ســـقمي | فلقياني نسيم الريح مـــن حلـــب
من البلاد التي كان الصبا ســكناً | فيها وكان الهوى العذري من أربي

ومن الأندلس البعيدة يتذكر أبو الحسن الغرناطي مدينة حلب التي زارها... رحـــل إليها من أقاصي الدنيا وليس معه جواز سفر ولا تأشيرة دخول أو خروج ... لم تعترضـــه حدود ولم يستوقفه حاجز ...إنما مضى يجتاز المسافات وآلافَ الأميال في ذهابه وعودتـــه وهو في أرض واحدة وسلطان واحد، قال يتذكر حلب ويشتاق إليها: (١٠٦)

حادي العيس كم تنيخ المطايـــا | سق، فروحي من بعدهم في سيلق
حلـــبٌ إنهـــا مقـــر غرامـــي | ومرامـــي وقبلـــة الأشـــواق
لا خلا جوشن وبطياس والسعـــ | ـدي من كـــل وابـــل غيـــداق
كم بها مرتـــع لطـــرف وقلـــب | فيه سقّى المنى بكـــأس دهـــاق
وتغنّـــي طيورهـــا لارتيـــاح | وتثـــني غصونهـــا للعنـــاق
وعلوّ الشهباء حيث اســـتدارت | أنجم الأفـــق حولهـــا كالنطـــاق

---

(١٠٤) الصنوبري — الديوان

(١٠٥) الطباخ — إعلام النبلاء ١/ ١٢٠

(١٠٦) الطباخ — إعلام النبلاء ٢/ ٣٠٦

وقال الشيخ سعد الدين بن الشيخ محي الدين بن عربي يتغنى بحلب ومزاياها:[١٠٧]

حلب تفـوق بمائـها وهوائـها ... وبنائها والزُهـر مـن أبنائـها

نور الغزالة دون نـور رحابـها ... والشهب تقصر عن مدى شـهبائها

طلعت نجوم النصر من أبراجـها ... فبروجها تحكي بـروج سمائـها

والسـور باطنـه ففيـه رحمـة ... وعذاب ظاهره علـى أعدائـها

بلد يظل بـه الغريـب كأنـه ... في أهله فـاسمع جميـل ثنائـها

ويتشوق منصور بن مسلم من شعراء القرن السادس الهجـري(١٢م) إلى حلـب فيرسل إليها لواعج أشواقه:[١٠٨]

أيا سائق الأظعان من سفح جوشن ... سلمت ونلتَ الخصْبَ حيـث تـرودُ

ابن لي عنها تشف ما بي مـن الجـوى ... فلـم يشـفـ مـا بي عـالجٌ وزرودُ

أما ابن الوردي ، وهو من شعراء حلب البارزين فهو يحن إلى ذكرياته فيقول :[١٣٤]

أيا أرض الشمال فدتك نفسـي ... وأصغر أن أقـول فـداك مـالي

وقالوا : مل إلى جهـة سـواها ... فقلت : القلب من جهة الشـمال

وهو القائل : [١٠٩]

عليك بصهوة الصـهباء تكفـي ... بجوشـنها محاربـة الزمـان

فللغرفات في الفـردوس طيـبٌ ... يفوح شذاه من بـاب الجنـان

ولابن اليتي الآمدي وقفات حنين يشتاق فيها عودته إلى حلب : [١١٠]

سقى حلباً ومن فيـها سـحاب ... كدمعي حين يـهمي بانسـجام

فإن بهـا وإن شـطّت مغـاني ... أحبـاءٍ علـى قلـبي كـرام

ويقول في المعنى نفسه[١١١]

سقى الله وادي بانقوسا من الحيـا ... سحائب تروي تربـه وتصيـب

وحيّ بهم قومـاً كرامـاً أعـزّة ... علـيّ وذكراهـم إليّ حبيـب

---

[١٠٧] المقري – نفخ الطيب ٢/ ٣٢٦

[١٠٨] المقري – نفخ الطيب ٣/ ٤٤٥

[١٠٩] الغزي – نهر الذهب ١/ ٤٦

[١١٠] العسقلاني – خزانة الأدب ٣١٣ القاهرة ١٣٩٤

[١١١] الهيب أحمد فوزي – الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب ٣٤٤ مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٦

ويحن الملك الناصر الأيوبي حفيد صلاح الدين إلى حلب وقد سافر عنها : [112]

أيا راكباً يطوي الفــلاة بشــملة عذا فرة وجناء من نسل شَـدْقَم [113]
إذا جلباً وافيتــها حــيّ أهلــها وقل لهم :مشـــتاقكم لم يــهوّمِ

وابن العديم تزداد حرقته لهيباً وهو بعد عن حلب : [114]

حتى الشمال التي تسري على حلب ضنّتْ عليّ فلم تخطرُ و لم تَسِــرِ

والشاعر أحمد بن عبد العزيز يعاهد أهل حلب على المحبة والوفاء رغم النوى [115]

فيا جيرة الشهباء إن طال نأينــا وحالت حزون بيننا وســهوب
صفوت لكم حباً على القرب والنوى فسيّانَ منكم مشــهدٌ ومغيــبُ

ويتمنى شميم الحلي أن يحط الرحال في حلب يوماً: [116]

لئن سمحت أيدي الليالي برحلــة إلى حلبٍ حلّ الحيا عندها الحِبــا
شكرتُ لما أدلتْ يداً غربةُ النــوى زماني بها شكرَ الحجازي على الحِبا

وحينما كان الشاعر الحلبي ابن سنان الخفاجي في ديار بكر تذكر مربــع طفولتــه وشبابه في حلب فأنشد مشتاقاً [117]

خليلي من عوفِ بن عذرةَ إنــني لكــل غــرامٍ فيكمــا لجديــر
أشيمُ ركــابي في بــلاد غريبــة من العيش لم يسرح بهــن بعــير
عِدُوهَا قويقاً واطلبــوا لحنينــها نحائف جسمي أن تهــبّ دَبــور
سقى الهضبة الأدماء من ركن جوشــن ســحابٌ يســيرُ نــوره وينــير
فما ذكرته النفــس إلا تبــادرت مدامع لا يخفــى بهــن ضمــير

وقال أبو العبّاس الصغريّ يشتاق إلى حلب وهو في دمشق: [118]

---

(112) الطباخ – إعلام النبلاء – ٤/ ٤٩٦

(113) الطباخ – إعلام النبلاء – ٤٩٧/٤

(114) الهيب أحمد فوزي – الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب – ١٢٠ مكتبة العلا – الكويت١٩٨٧

(115) الطباخ – إعلام النبلاء – ٤٩٧/٤

(116) الهيب أحمد فوزي – الحركة الشعرية زمن الأيوبيين ١٠١

(117) الطباخ – إعلام النبلاء – ٥٥٧/٣

(118) الطباخ – إعلام النبلاء ٥٥٧/٣

من مبلغ حلبَ السلامَ مضاعفـــاً　　　من مغرم في ذاك أعظم حاجــــةْ
أضحى مقيماً في دمشق يرى بهـــا　　　عذَب الشراب من الأسى كأجاجه

كذلك يفعل الشاعر أبو نصر الخضري الحلبي وهو بعيد عن مدينته : (١١٩)

يا حلبـــاً حييـــتَ مـــن مصـــر　　　وجـــاد مغنـــاك حيـــا القطـــر
أصبحت في جلّق حــــرّانَ مـــن　　　وجـــد إلى مربعِـــك النضـــــر
ما بين بطياس وحيـــلان والمـــــ　　　يـــدان والجوســـق والجســــــر
تـــالله لا زلـــت لهـــا ذاكـــــراً　　　ما عشت في سرّي وفي جـــهري
وكـــلُّ يـــوم مـــرّ في غيرهـــــا　　　فغـــير محســـوب مـــن العمـــر

وفي المعنى نفسه يقول أبو عبد الله الصفدي وهو في دمشق : (١٢٠)

يا برق طالع من ثنيـــة جوشـــن　　　حلباً وحيِّ كريمه مـــــن أهلـــها
واسأله هل حمل النســـيم تحيـــة　　　منها فإن هبوبـــه مـــن رَســـلها

أما محمد بن حرب الخطيب فيتشوق إلى حلب وهو في البيرة(١٢١)

يقـــر بعيـــني أن أروح بجوشـــن　　　ومـــاء قويـــق تحتـــه متســـــربا

ومن العراق حيث سافر موفق الدين الكاتب وذكـــر أيامـــه في حلـــب ، أنشـــد يقول(١٢٢)

سلامٌ على الحي للذي دون جوشن　　　سلام يرثّ الدهرُ وهـــو جديـــد
فلي أبداً شـــــوق إليـــه مـــبرحٍ　　　ولي كـــل يـــوم أنّـــةٌ ونشـــيد
وكيـــف أداوي بـــالعراق محبـــةً　　　شـــآمية إن الـــدواء بعيـــد

ومن أقاصي المغرب والأندلس تأتي تحيات الإعجاب والشوق إلى حلب المحروســـة فهذا الوزير أبو القاسم المغربي يتذكر أيامه في الشهباء (١٢٣)

مل بي إلى حلب أعللْ نـــاظري　　　فيها غداة تحـــث بي الأشـــواق

---

(١١٩) ابن الشحنة – الدر المنتخب –١٥٢

(١٢٠) ابن الشحنة – الدر المنتخب – ١٥٤

(١٢٢) الطباخ – أعلام النبلاء – ٤٤٦/٣

(١٢٣) الطباخ – أعلام النبلاء – ٤٤٧/٣

بلد أرقــت بــه ميــاه شـببيتي حيث النجيــعُ إذا أردتَ مــراقُ

ويقول أيضاً : [١٢٤]

حــنّ قلـبي إلى معــالم بــابلاّ حنــين المولّــــهِ المشــغوف

مطلبِ اللهو والهوى وكناس الخـــ ـــرّد العــين والظبــاء الهيــف

حيث شطّا قويق مسرح طـــرفي وســواقيه مؤنســي وأليفـــي

ولابن خروف الأندلسي رأي في حلب : [١٢٥]

بهـــاءُ الديـــن والدينـــا ونـــور المجــــد والحســــب

حلبــتُ الدهــــرَ أشـــطره وفي حلــبٍ صفــــا حلـــبي

ومن مدينتي المرية وغرناطة في الأندلس يرتحل الشاعران العالمان محمد بــن جــابر المري و أبو جعفر الغرناطي إلى المشرق ويحلان في حلب وذلك خــلال القــرن الثــامن الهجري (١٤م) . وقد تغنى ابن جابر بفتاة حلبية سلبته لبه فقال :[١٢٦]

تبسمت فتباكى الدرّ من وجـــل وأقبلت فتولى الغصن ذا عجـــب

تفترّ عن حبب يبدو على ذهـــب يهديك من شنب ضرباً من الضَرَبِ

فقلت : من هذه الحسناء فاتنـــةً قالوا : كذلك شأن الغيـــد في حلـب

ويقول ابن مشرق الماردبني في حلب وأهلها:[١٢٧]

حيّ حمى الشــهباء حقــاً إنهـــا مدينـــة يُرتـــــع في نعيمـــــها

نسيمها ألطف شيء في الـــورى وأهلها ألطـــف مـــن نســـيمها

كذلك يُعجب الشيخ شمس الدين العفيف بحلب وسكانها فيقول :[١٢٨]

إذا سقى حلبٌ من مزن غاديــــة أرضاً فخُصَّتْ بأوفى قطرة حلــب

أرض متى قلتَ:من سكان أربُعِـها أجابك الأشرفان : الجود والحسبُ

قوم إذا زرتهم أصفَـــوك ودّهـــمُ كأنمـــا لـــك أمٌّ منــــهم وأبُ

---

[١٢٤] الطباخ – إعلام النبلاء – ٤٤٧/٣

[١٢٥] الطباخ – إعلام النبلاء – ٤٤٥/٣

[١٢٦] الطباخ – إعلام النبلاء – ٤٤٧/٣

[١٢٧] الطباخ – إعلام النبلاء – ٣٠٨/٤

[١٢٨] الطباخ – إعلام النبلاء – ٣/ ٣٠٨

ويعدد الشاعر أبو سعيد بن الغزي مواطن ذكرياته في حلب مطوّفاً بمناطقها المختلفة فيقول[129]

أيا ساكني الشهباء عهدي كعهدكم قديمٌ: ولاءٌ لم يشَبْ بملال
إذا حلبٌ يممتَ ساحة أرضها فحيِّ قياماً بالمقام عوالي
وعوج بباب الأربعين مبلغاً سلامي أحباباً بها وموالي
إذا ما ذكرتُ الفيض فاضت مدامعي تبل عليها وبلها للتتالي
ولم ألهُ عن باب الجنان تسلياً لسلسال ماء كالحياء زُلال
سقى للمشهد الأعلى فأعلام جوشنٍ بواكر داني الهيدبين سجالِ
يذكرني الفردوسُ طيبَ نعيمه فيا حسنه لو لم يُشب بزوالِ
وما حلبٌ إلا مقرّ مكارم ومعدن أفضال وكنز معالي
تقصّر عن شهبائنا الشهبُ رفعة فقد كملت وصفيْ علا وجلال

وتبلغ درجة الشوق لدى شهاب الدين البُردي حدّ التقديس لمدينة حلب [128]

أنخ في ذرى الشهباء وأنزل بأرضها وقبّل ثرى تلك المعاهد والربى

ويسعى ابن أبي العشائر الفقيه الشافعي الحلبي وراء رزقه مسافراً في بلاد الله الواسعة فيذكر حلب ويحنّ إلى ذكرياته فيها ويشرح أسباب سفره عنها: [131]

ما حيلتي إن حلبت الدهر أشطره والزبدةُ المرديان : الهمُّ والنصب
وكيف أحرز جاهاً أو أنال غنى والحرفة الخاملان : الفضل والأدب
لقد تجشمت أياماً تغالبني حتى رحلت وقلبي فيك يا حلب

وفي أواخر العصر المملوكي ، يكتب عبد الباسط بن الشحنة ، وهو ابن القاضي المشهور صاحب كتاب الدر المنتخب ، يشتاق إلى حلب وهو في القاهرة: [132]

إلى حلب وأطول شوقي وحسرتي هي الورد في نومي وقومي وسوحتي

---

(129) الطباخ – إعلام النبلاء – ٣/ ٤٤٩

(128) الطباخ – إعلام النبلاء – ٣/ ٤٥٣

(131) الطباخ – إعلام النبلاء – ٣/ ٤٤٩

(132) الطباخ – إعلام النبلاء ٤/ ٥٠٦

(133) الطباخ – إعلام النبلاء ٥/ ٩٧

ففي مائها الشافي شفاء تولعـــي   ولطف هواها زاد وجـــدي ولوعـــتي

وفي الفترة نفسها يقول ابن الخراط : [١٣٤]

لا تلمني على هوى حلب الشهبا   فشـوقي لربعـــها الفيّـــاح

وفي العهد العثماني نلاحظ كيف أن لغة الشعر غلب عليها التقليد مع شـيء مـن ضعف الأسلوب ونضوب الإبداع . يقول محمد القاسميّ [١٣٥]

يا جيرتنـــا في حلـب الشـهباء   من يوم فراقكم سروري نـــائي

قدمتّ لبعدكم غرامـــاً وأســى   لكن غلطـــاً أُعــدُّ في الأحيـاء

وقال نجم الدين الحلفاوي من رجال القرن الحادي عشر الهجري (١٧م) [١٣٦]

لقد بتّ في الشهباء ما بين معشـر   تهاب الليالي أن تروع لهم جـــارا

ومن جميل شعر هذا القرن ما قاله موسى الرامحمداني يتغنى بحلب [١٣٧]

حيّا الحيـــا حلـبَ العواصـم والقـــلاعِ الأعصميـه

وســـقى معالمـــها المنعـــة المحصنـــة الأبيـــة

بلـــد تكنّفـــها الحدائـــق والريـــاض الأريضيـــة

وتقمصت أبناؤهـــا حلـــلاً مـــن الزلفـــى العليـــه

فاقت على الدنيـــا فوافـــق اسمـــها حلـــب العديّـــة

بلد هي المَلِـــكُ المطـــاع وكـــل مملكـــة رعيـــه

ومن شعراء القرن الماضي أديب حلب المعروف رزق الله حسون الذي يفخر بمدينته ونشأته فيها قائلاً : [١٣٨]

لا خاملاً لا دنّيا منشئي حلـــب   فسل وهاك بفضلي يشهد القلـــم

وفـــي هـــذا المعـــنى يقـــول عـــادل الغضبـــان: [١٣٩]

---

[١٣٤] الطباخ – إعلام النبلاء ٥ / ٣٣٨

[١٣٥] الطباخ – إعلام النبلاء ٥/ ٣٦٦

[١٣٦] الطباخ – إعلام النبلاء – ٦/ ٢٥٦

[١٣٧] الطباخ – إعلام النبلاء ٦/ ٢٦٣

[١٣٨] الطباخ – إعلام النبلاء ٦/ ٣٣٤

[١٣٩] الطباخ – إعلام النبلاء ٧/ ٣٦٤

رجعت إلى الشهباء مفخر أوطاني وعدت أبث الشوق أهلي وخلاّني
وأكحل عيني من تراب صعيدها فإن بلادي ملء قلبي وأجفاني
وأنظر في وقت الأصيل ليوثها وقد أخذت تسعى إلى جنب غزلان
بني وطني أرض النبوغ بلادكم ومنتجع للعبقرية روحاني
سماؤك يا شهباء لم تخل قطّ من بدور نبوغ أو كواكب عِرفان
إذا بكت الشهبا لخطب أصابها بكينا بدمع كالغمائم هتان

ويقول في مكان آخر :[140]

نثرت على جنباتك الشهب فدعيت بالشهباء يا حلب
أنت العروس أتم جلوتها هذا الإزار الأبيض العجب
إن تفتخر بمجيدها أمم فبمثل مجدك يفخر العرب

ويقول أديب حلب اللامع قسطاكي حمصي :[141]

فلا أنت يا حلب العلا وطن لأسرته الصميمة
حلب حماك الله من عين ابن فاجرة أثيمة
أهلوك خير الناس أخلاقا وأصدقهم عزيمة
يفديك يا حلبُ الكرامُ بكل ذي قدر وقيمة
حييتِ يا حلبَ الذمامِ وكلّ مفخرة جسيمة
وحباك رب الناس بالأ لطاف والنعم العميمه

ولعل من أجمل القصائد التي قيلت في حلب قصيدة الأخطل الصغير بشاره الخوري التي ألقاها في حفل تكريم أقيم على شرفه خلال زيارته لمدينة حلب عام ١٩٣٥ ومنها هذه الأبيات :[142]

نفيتّ عنك العلى والظّرف والأدبا وإن خلقت لها - إن لم تزر حلبا
خذ الطريق الذي يرضى الفؤاد به ولا تخف فقلبياً ما تت الرقبا

---

[140] مجلة الحديث - السنة الثانية / العدد السابع ٤٩٧

[141] الأخطل الصغير الديوان

[142] قسطاكي حمصي - مختارات ص٧٢ - ١٩٣٩ هدية مجلة الكلمة

واسكب على راحتيها روح عاشقها ... ومصّ من شفيتها الشعر والغنبا
أفدي الشفاه التي شاع الرحيق بها ... وهمّ بالكأس ساقيها وماسكبا
شهباءُ لو كانت الأحلام كأس طلا ... في راحة الفجر كنت الزهر والحببا
أو كان لليل أن يختار حليته ... وقد طلعت عليه لا زدرى الشهبا
لو ألّف المجد سفراً عن مفاخرة ... لراح يكتب في عنوانه " حلبا"
لو أنصف العرب الأحرار نهضتهم ... لشيّدوا لك في ساحاتها النُصُبا
لكن خُلقْتِ لأمر ليس يدركه ... من يعشقُ الذلّ أو من يعبد الرتبا
تعرى البطولة إلا من عقيدتها ... والجبن أكثر ما تلقاه متقبا
ملاعب الصيد من حمدان مانسلوا ... إلاّ الأهلّة والأشبال والقضبا
ربّ القوافي على الإطلاق شاعرهم ... الخلد والمجد في آفاقه اصطحبا
تيهاً عروسة سوريّا فقد حملت ... لك القوافي على راياتها الغلبا

وكان الشاعر شبلي الملاط قد زار حلب عام ١٩٣٤ . وفي حفل تكريم له ألقى قصيدة نختار منها قوله [١٤٣]

وددت لو ان في الشهباء داري ... إذا أزمعت عن وطني ارتحالا
وإن حار الزمان عليّ فيه ... فلست أرى سوى حلب مآلا
ألم تحفل بنا حلبٌ كضيف ... ألم تكرم لنا حلب مقالا
سأخبر أن في الشهباء أُسْداً ... سأذكر أن في حلب رجالا

الشاعر قيصر المعلوف قد شارك في المهرجان الألفي للمتنبي الذي أقيم يوم الجمعة ٢٧/ ٩/ ١٩٣٧ . وألقى قصيدة قال فيها : [١٤٤]

أي هذه الشهباء ... والحسنُ في ذلك الشَهَبِ
حبذا في ثراك ما ... فيه من عنصر الشُهُبْ

---

[١٤٣] قسطاكي حمصي – الديوان – متصير المعلوف

[١٤٤] عبد الله يوركي حلاق – حلبيّات ص ٤١

[١٤٥] عبد الله يوركي حلاق – حلبيّات ص ٤٠

[١٤٦] محمد عبد الغني حسن – الديوان

ذلــــك العنصـــر الــــذي ظـــــل حـــــراً ولم يُشَــــبْ
عنصـــر قـــد أصــاب منـــــه ابــن حمـــدان مـــا أحـــــبْ
وبـــه أحمـــــــد ارتقـــــى [145] ذروة الشـــــعر في العــــــرب
يـــا لهــــــا مــــن زيـــــارة قضيمــت وهـــــي لي أرب
تم ســـعدي بمـــــن رأيــــت بهـــا اليــوم عـــن كثـــب
إن مـــــن قـــــال فيـــــهم أعــذب المــدح مــا كــذبْ
ليـــــس بدعـــــاً وإنهــــم صفــــوة الشــرق والنخــــب

وفي عام ١٩٤٣ زار الشـــــاعر المصري محمد عبد الغني حسن مدينـــة حلـــب، كان مما قاله فيها: [146]

أين المنـــابر في الشـــهباء قائمـــة وأين في أمسها التـــاريخ والأدب
وأين ملك بني حمـــدان مزدهـــراً يسيل منه على أعطافها الذهـــب
ما سميت حلب الشهباء عن ثقـــة إلا لأنكـــم في جوهـــا شـــهب
هي العروبة قربى بيننـــا وكفـــى أنا إلى العرب الأحرار ننتســـب

وللشاعرة هند هارون انطباع حول زيارتها لحلب الشهباء، قالت فيه: [147]

رأيت في حلب الشـــهباء بارقـــة من الشموع لقلب عاش مغتربـــا
لمست فيها وفـــاء لا مثيـــل لـــه وصحبه خيرهم في الأرض ما نضبا
لو كان لي خيرة في مسكني ويـــد لقلت: هيا نقضّ العمر في حلبـــا

وزار حلب رئيس منتدى عكاظ حنا الطباع عام ١٩٧٣ فقال فيها: [148]

شهباء كم طاب لي في ليلك السمر وكم رعت مهجتي النجمات والقمر
ألست مثلي ترى الشهباء فاتنـــة في كل بسمة ثغر يطلع الســـحر

وحينما احتفلنا بمرور خمسة وسبعين عاماً على افتتاح ثانوية المأمون وكان ذلـــك عام ١٩٦٨ شارك الشاعر سليمان العيسى في المناسبة وتغنى بحلب قائلاً [149]

ردّي إلي وحسبي ذاك قهقـــهتي مع الرفاق وإيماني للـــذي صُلِبـــا

---

[148] عبد الله يوركي حلاق — حلبيات ص ٤٣

[149] سليمان العيسى — المحمولة الكاملة ٥٤٦/٢

خمس وسبعون لي في صرحـــــها غنى وحفنه نور من دمي شـــــربا
تباركت صخرة بيضـــاء يابســـة تعطي العباقر سماها الهوى حلبـــا

ونعوّد إلى ابن حلب البار عبد الله يوركي حلاق الذي يحن إلى مدينته وهو في كندا فيقول:[150]

إني حننت إلى الشهباء يا كنـــدا متى أراها فمني الصبر قـــد نفـــذا
أتيت من بلد كالمســـك تربتـــه يا ربّ يا ربّ بارك ذلك البلـــدا
عروبتي لم تزل تزهـــو بنضرتهـــا وحرُّنا ينجز الميعـــاد إن وعـــدا

وللشاعر المعاصر محمد كمال وقفة رائعة يبث فيها حلب حبه وإعجابه.

ليس مني بل منك أنت العطـــاء أنت سر الإبـــداع يـــا شـــهباء
علـــم الله يـــا صبيـــة مـــالي عن حمى أهلك الكـــرام غنـــاء
لا تزالـــين في وشـــاح المعـــالي تتبـــارى في وصفـــك الشـــعراء

وتحدث الشاعر قدري مايو من شعراء العصر الحديث عن مدينة حلب فقال :

قالوا دمشق لقد أبدت محاســـنها فأين حسنك يا شهباء يا حلـــب
أغرمت فيك فكفي عن مســـاءلتي خد المحب إذا فاض الهوى تـــرب
لو ألف الدهر سفراً عن مفـــاخره لجاء عنوانه " عنوانـــه حلـــب"

وأختم حديثي بقصيدة لي عن حلب الشهباء التي هي حبي ومرتع طفولتي وصبـــاي وشبابي، وبيتي الجميل وهوائي العليل ومستقبل أبنائي .

---

[150] عبد الله يوركي حلاق – المحمولة الكاملة ص٤٤

[151] محمد كمال – مخطوط

قبلة حنان على ثغر الشهباء

شعر : محمد قجة

أهواك يا حلب الشهباء فاقتربي وعانقيني لأرقى فيك للشهب
جذلانُ ، أغزل من عينيك أغنية وأسحب المرود الأسنى على هدبي
من مقلتيك صباباتي ألملمها ومن لماك رحيق الطلّ والعنب
شممت عطرك فواحاً يغازلني فغاب روعي، وعبق العطر لم يغب
دعي عبيرك في صدري وفي رئتي ألمُّه في الحنايا عاصف اللهب
ما مرّ طيفك في حلمي فدغدغه إلا تشهيت في زنديك منقلبي
كم ذا أكابد في عينيك من وصب وتستطيبين من همي ومن وصبي
يا درة في ضلوع الصخر طالعة يعنولك الصخر في عجب وفي عجب
مد الزمان يديه فامنحيه هوى في غَمزة الطرف أو في رفة الهدب
هبّ التراث إلى لقياك مزدهياً فاستقبليه بوجه باسم طَرب
توقد القلب في نبض وفي دأب ورسّخ الخطو في عزم وفي دأبِ
أكف أحبابك الأغيار حانيةً تذود عنكَ طيوف الغيم والتعب

* * *

شهباء يا مولد التاريخ منتشياً بما منحت هوى في سائر الحقب
هذا أوانك ، إن نخبتة عشقت تراب أرضك منشوراً على الرحب
تمضي براعمنا والطل يحضنها حتى تفتح من أوراقها القشب
هي الحياة سلافات معتقة بالأمنيات إذا تبنو وإن تُصب
قد يهرم القلب في غراء صبوته وقد تشيب الرؤى والقلب لم يشب
مدى ذراعيك يا شهباء والتقطي زهر النجوم ورشيها على الكثب
يظل صرحك مزهواً بهامته وذكرك السمح منقوش على الشهب
تطاولين الثريا قلعة شمخت وطاولتها الليالي وهي لم تغب
ومن مآذنك الشماء منطلق يوحد الله في فجر وفي غرب
طوقت جيد الدنا مجداً ومكرمة حتى غدوت منار الدهر للعرب
بنضي بنوك شبولاً خطوهم أَمَمٌ وسيرهم قصدهم في الجد واللعب
نمضي جميعاً أبداً، قلباً، هوى طرقاً وتستضيء بنا أمثولة الحقب

هنا تمادى بنو حمدان في عجـــب وطوقتهم عيون الدهر في عَجَـــب
وسيف دولتهم ليث الحمى شـــرفاً يذود كيد الأعادي غير مضطـــرب
رأي ســـديد لفـــذّ قـــائدٍ جلـــل يظل يملأ سمع الكـــون والكتـــب
وقال : يا حلب الشهباء لا تهــــني فأنت واحة أهل الفكـــــر والأدب
فأشرق الفكر في كفيــــه مفتخـــراً بأنه في بـــــلاط الســـادة النجـــب
قوافل الفكر : فارابي ، خوارزمـــي والأصفهاني والرقـــي ذو الرتـــب
كشاحم ، خالويه ، وإبـــن جـــنيٍّ والخالديان ، والنـــامي وكـــلٌّ أبي
وفوقهم صقرهم طـــراً وســـيدهم أبو المحسّد في الشعر البليـــغ نـــبي
القـــاهر المتنـــبي أمســـه وغـــداً ومالئ الكون من إعجازه العـــربي
هذا عظيمك يا شهباء ما عرفـــت له العصور رؤى في البعد والقـــرب
ألقى على الدهر في زهو قصيدتـــه فعمت الكون مثل البرق في الســـحب
شهباء نحن بنوك الغـــر، مـــهجتنا عشق ، ومقلتنا ترنـــو إلى حلـــب
إن فاخر القوم في أرض وفي نســـب إذاً لفاخرت أني اليعـــربي الحلـــبي

---

(١٥٢) قدري مايو – مخطوط

(١٥٣) محمد قجة – مجموعة شعرية

سياسة سيف الدولة الحمداني الإدارية والمالية

د . نجدة خماش*

قبل البدء بالحديث عن الإدارة وسياسة سيف الدولة المالية لا بد من الإشـــارة إلى المناطق التي كانت تضمها إمارة سيف الدولة والأسباب التي دعـــت الإخشـــيديين إلى التخلي عن القسم الشمالي من الشام والنسيج البشري فيها ، لأنها تساعدنا علـــى فـــهم بعض الأمور التي تتعلق بالأوضاع الاقتصادية والسياسية المالية .

ومن المعروف أنه بعد سيطرة سيف الدولة على حلب واعتراف الإخشيد وابنه مـــن بعده بضم حمص وأنطاكية ، أصبحت حلب مركزاً لإمارة ضمت جند قنسرين وحمـــص ومناطق الثغور الجزرية والشامية وديار مضر وديار بكر، ولكننا لا نعرف بالضبط مـــتى تمّ له السيطرة نـــهائياً على هذه الديار ، فمن المؤكد أن سيف الدولة حين توجه إلى الشـــام غازياً لم يكن له شيء في الجزيرة ، وربما كان له إذ ذاك حكم نصيبين ، ولعـــلّ نـــاصر الدولة عهد إليه بحكمها حين وقع في مشاكله مع معز الدولة"اليويهي بعد سنة ٣٣٤هـــ، وهذا الارتباط بالجزيرة والشعور العائلي ، وحق ناصر الدولة الشرعي النظري هو الـــذي يفسر علاقات التبعية النظرية التي قامت بين الأخوين الحمدانيين ، على أننـــا نلاحـــظ أن سيف الدولة لم يكن كأخيه مضطراً للدفاع عن إمارته ضد هجمات الطامعين من الأمـــراء المسلمين ولا للدفاع عن استقلاله ضد سيادة أمراء بغداد التي كانت ترهـــق المَوصـــل ، وكان هادئ البال من ناحية الإخشيديين الذين كانوا على الرغم من كونهم حكاماً لولايـــة مصر الخصيبة الغنية ، وعلى الرغم من أن جيشهم كان من أقـــوى الجيـــوش – كـــانوا يفضّلون مفاوضة سيفِ الدولة ، فقد فاوض الإخشيدُ سيف الدولة في ربيع الأول ســـنة ٣٣٤ هـــ / ٩٤٥ على أن يترك له حمص وحلب وأنطاكية،وقد تأيد هذا الصلح بـــزواج سيف الدولة من ابنة أخي الإخشيد وبعضهم يجعلها ابنته ، وقد أثار هذا الصلح غضـــب الحاشية الإخشيدية ، ولكنه علل ذلك بأنه يكلف في الحرب كثيراً وبأنه حتى لو انتصـــرَ على سيف الدولة وأسَرَه فهو سيعامله معاملة الأمراء وسيجهزه جهازاً جميلاً مع الهدايـــا. وهو محمول إلى أخيه ، لأنه يعرف هذه الأسرة العريقة منذ زمن طويل في بغداد وقـــدر أن

---

* جامعة دمشق – كلية الآداب – قسم التاريخ

هذا سيكلفه على الأقل ٢٠٠ ألف دينار وهذا سيشير من دون شك حسد جنده ، قد يكون هذا التعليل منسجماً مع ما يعرف عن الإخشيد من الحِرص والبُخل ،ولكن لا شك أن ثمة أسباباً أعمق من هذا تعلل الموقف تعليلاً أوفى ولا سيما أن الإخشيد وقف الموقف نفسه من ابن واثق (أمير الأمراء في خلافة المتقى لله ، قتله ناصر الدولة) واتخذ أنوجور وكافور من بعد الإخشيد النهج نفسه ، ففي سنة ٣٣٦ هـ اتفق سيف الدولة مع الإخشيديين على أن يكون له ما اعترف له به محمد بن طغج،وكان الخليفة قد أرسل إليه منذ سنة ٣٣٥ هـ الاعتراف الشرعي بحكمه .

ولعلنا نفهم الأمر إن نحن قلّبناه على الوجه الاقتصادي ، فعلى الرغم من أن طريقاً من الطرق العالمية الهامة للتجارة كان يمر من حلب إلى الاسكندرون قادماً من الخليج العربي ، فإن الاضطراب المستمر في العراق ، ولاسيما منطقة البصرة (ثورة الذنج، البريديون) أضاع على هذا الطريق قيمته ، وجعل البضائع تفضل الطريق القديم المار بعدن والبحر الأحمر ، فالقُصير فالنيل ، فالاهتمام بمصر من حيث النتيجة أثمنُ من العناثة بشمالي الشام.

ومن الناحية الحربية نجد أن السيطرة على شمالي الشام لا تُهمُّ صاحب مصر هجومياً أو دفاعياً إلا إذا شاء السيطرة على الجزيرة أو مهاجَمةَ البيزنطيين ، ولكن الإخشيد لم يكن بذي مطامح بعد أن سيطر على أواسط الشام وجنوبيها ، ولا بذي رغبة في الجهاد ضّد البيزنطيين ، فسورية الشمالية ردءٌ وحصن يحول دون أي غزو بيزنطي لسورية الوسطى، أو ضد أي مغامر يأتي من الشرق، ولكن ليس من الضروري أن تكون تحت الإدارة المباشرة للإخشيديين ، فإذا حكمها سيف الدولة دافع عنها وعن أرض مصَر وراءها من دون أن يكلف صاحب مصر شيئاً .

ويجب ألاّ ننسى في الوقت نفسه أن حلب كانت منذ عهد قريب مهددة بالخطر البيزنطي، كما كانت مصر مهددة بدورها بالخطر الفاطمي النامي في ولاية إفريقية ، ولهذه الأسباب كانت سورية الشمالية بالنسبة للإخشيد عبئاً لا ربحاً وكان من مصلحته أن يُلقي بهذا العبء على غيره ، ويمكننا أن نأخذ فكرة عن العبء المادي الذي أُلقي على عاتق سيف الدولة في الدفاع عن منطقة الثغور بالعودة إلى كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقُدامة بن جعفر ، حيث نجده يعطينا صورة عن الجبايات العائدة للدولة العباسية سنة٢٠٤هـ ، فنجد في لائحته ، أن ارتفاع الثغور المعروفة بالشامية (طرسوس ، أذَنَة ،

المصيصة ، عين زَرْبة ، الكنيسة ، الهارونية) كان ١٠٠ ألف دينار ، وينفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها وهي المراقب ، والحرس والركاضة والموكلين بالدروب ، وما يحتاج إلى شحنها من الجند وراتب مغازيها والصوائف والشوالي في السنة على التقريب ٢٠٠ ألف دينار . وقد تصل أحياناً إلى ٣٠٠ ألف دينار ، أي أن الدولة كانت تنفق من خزينتها أو من بيت المال في بغداد ما بين مائة ألف ومائتي ألف دينار على الثغور الشامية، وما بين ٩٠ ألف إلى مائة وخمسين ألف دينار على الثغور الجزرية (مَرْعَش ، الحدَث ، كيسوم ، حصن منصور ، ثغر شميشاط ثم ملطية ، أما الثغور المسماة البكريه فقد كان ارتفاعها مليون وثلاثمائة ألف درهم أي حوالي ١٣٠ ألف دينار ، وكانت الدولة تنفق ما يقارب ١٧٠ ألف دينار على هذا الثغر ، ومعنى هذا أن الخزينة المركزية كانت تتكبد نفقات كثيرة لحماية منطقة الثغور في عهد المأمون الذي كان عهدُه عهدَ ازدهار وقوة، ولكن من حسن حظ سيف الدولة أن أخاه ناصر الدولة كان ينظر إلى إمارة حلب على أنها امتداد للإمارة الحمدانية في المَوصل ، لأن ناصر الدولة في الصلحين اللذين عقدهما مع معز الدولة ٣٣٥ هـ و ٣٣٧ هـ أُعتبُر مسؤولاً عن الموصل والجزيرة والشام، ووفقاً لصلح ٣٣٧ هـ كان على ناصر الدولة أن يدفع كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم أي ٨٠٠ ألف دينار. وأن يُخطب له في بلاده ولعماد الدولة وركن الدولة . ولكن ناصر الدولة لم يكن يحاسب أخاه على ما بيده من أموال ، لأن سيفَ الدولة كفى المسلمين أمرَ الروم واعتنق حربهم . ومن ثم فإن العبء المالي الأكبر كان يقع على عاتق ناصر الدولة الذي كان مضطراً لدفع الأموال المترتبة عليه وإلا سارت جيوش معز الدولة إلى الموصل ، كما حدث ٣٣٥ هـ ٣٣٧ هـ ، ٣٤٧ هـ ، ٣٥٤ هـ .

ضمت هذه الإمارة التي تولى حكْمَها سيفُ الدولة ألواناً من الناس ، فمن المعروف أن النسيج البشري يقوم على قاعدة عريضة واسعة خليطة من العرب السابقين كتغلب وبكر والجماعات الآرامية (السريانية) والكردية والأرمنية . بالإضافة إلى العناصر العربية التي دخلت الشام والجزيرة مع الفتوح وبعدها ، وقد أثار الزحام على التوطن في المناطق الأخصَب وتفضيلُ اجتماع الأقارب بعضهم إلى جانب بعض كثيراً من الحزازات بين هذه القبائل الجديدة مما جدد بينها الانقسام الجغرافي البشري القديم ، وجعلها تعطي الزحام الاستيطاني شكلَ العصبية القبلية فيما صار يعرف لدى النسابين باسم قيس ويمن ، وما صار ينقسم إليه الأصل العربي كلهُ ما بين شماليين وجنوبيين ، ونسل عدنان وقحطان ،

وعلى الرغم من أن توطن هذه القبائل كان متداخلاً بعضهُ مع بعض ، إلا أنها صارت بصورة عامة واضحة التجمع ففي الجنوب صارت المنازل بقبائل كلب اليمانية وإلى أنها كانت تشتو في مشاتي الموصل مع بعض الأكراد.مع منازل العرب اليمانيين السابقين للإسلام هناك وتلك التي استقرت مع الفتوح ، بينما تكاثرت في شمالي الشام والجزيرة قبائل من أصل قيسي وكان من أشهرها كلاب ، وإن كان هذا لا يمنع وجود جماعات يمانية في الشمال وأخرى قيسيه في الجنوب وقد أشار ابن حوقل إلى هذه الجماعات اليمنية وإلى أنه كان منها بيوت فاخرة ، ولهم من التناية يسار (الملك الزراعي) كبني فهد وبني عمران من وجوه الأزد وأشراف اليمن . ويذكر ابنُ حوقل نفسه تدفق مجموعات قيسية جديدة على شمالي الشام والجزيرة في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، منهم بنو قُشير وعُقيل ونُمير وبنو كلاب ، ويحدد ابن العديم في البغية قدوم هذه القبائل ما بين العقد الثاني والثالث من القرن الرابع الهجري ، وكان من نتيجة وصول هذه الموجة الجديدة من القبائل العربية البدوية أن تأثرت الحياة السياسية والاقتصادية ، فاضطرب الأمن وانتشرت الفوضى ونشأت حالة من عدم الاستقرار السياسي في المنطقة ، كما أن احتياحهم للمناطق الزراعية أدى إلى انحسارها ، وعودة الكثير من الأراضي إلى مراعي واسعة وإلى ازدياد عدد البدو ، بينما كانت القبائل العربية في الجزيرة قد أضحت في معظمها باديةً حاضرة ، ويروي ابن حوقل فيقول ، وبالجزيرة بَرارٍ وقفار وسباخٌ بعيدة الأقطار ، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر أهلُ خيل وغنم وإِبل قليلة ، فدخل عليهم في هذا الوقت (القرن الرابع الهجري) من بطون قيس عيلان الكثير من بني قشير وعقيل ونُمير وبني كلاب ، فأزاحوهم عن بعض ديارهم بل جلّها، وملكوا غير بلد وإقليم كما أناخت بنو عقيل ونمير في حَرَّان يعقوهما (بساحتها) فلم يبقَ فيها باقية ولا في رساتيقها ثاغية ولا راغية (مثل يعنى أنه لم يبق في رساتيقها شاة أو ناقة) .

نجح سيف الدولة بعد تأسيسه لإمارته أن يضبط هذه القبائل ضبطاً شديداً ، كما حاول أن يتألفهم من ناحية أخرى حتى يستطيع الاعتماد عليهم في حروبه مع الروم ، ولا سيما قبيلة كلاب التي كانت قبيلة كبيرة قوية مقيمة في المنطقة المحيطية بحلب ، يذكر الثعالبي أن سيف الدولة كان قد اصطنع بني كلاب وأدناهم وأمِن سِرهم ، فعلت كلمتهُم إلى أن بدرت منهم هفوة احفظته ، فأسرى إ ليها وأوقع بهم وملك حُرمهم وأموالهم ثم صفح عنهم ، وجمع الحُرَم ووكل بهن الخدم وأفضل عليهن وأحسن إليهن ،

وقد انتبه أبو فراس إلى تصرفات سيف الدولة الكريمة تجاه العرب الثائرين ، ولا سيما ما صدر من إحسان وتكريم للنساء فأنشد يقول:

ومازلتَ قد كنت تأتي الجميلَ وتحمي الحريم وترعى النَّسب
وتغضب حتى إذا ما ملكتَ أطعمت الرِّضا وعصيتَ الغَضَب
فكنت حماهن إذا لا حمى وكنت أباهُنَّ إذ ليس أب

كما أحسن المتنبي تصوير تلك الحال حين قال:

قعدن كما أخذن مكرمات عليهن القلائدُ والملابُ
يُثبنك بالذي أوليت شكراً وأين من الذي تولى الثوابُ
وليس مصيرهن إليك شيئاً ولا في صونهن إليك عابُ
ولا في فقدهن بني كلاب إذا أبصرن غُرَّتك اغتراب
وكيف يتم بأسك في أناسٍ تصيبهُمُ فيؤلمك المصابُ

ومن حلب التي اتخذها سيف الدولة مركزاً لإمارته ، ومن قصره الذي بناه ظاهر حلب وإلى غربها في المكان الذي كان الحكام العباسيون قد اختاروه مقرّاً لهم من قبل ، كان سيف الدولة يدير إمارته ، إلا أنه ظل يهتم بالجزيرة كملجأ له ، وكان يعدّ ميافارقين في الغالب إمارته الأولى لما كانت تتمتع به من أسوار وأبراج وخندق يرجع لعهده ، كما كانت تضم معظم الأسرة الحمدانية ، وفيها دوماً قسم من أسرته ، أمُّه ، أخته وزوجة له وبعض أولاده ، وكان يكثر من التردد عليها لأسباب سياسية وعائلية معاً ، زارها سنة٣٣٨ هـ / ٩٤٩ أول زيارة بعد توطيد إمارته ، وزارها في السنة التالية ، مرَّ بها على الرَّقة في جيش بلغ سبعة آلاف ورافقه فيها المتنبي ، وكانت هذه الزيارة تحمل من دون شكل المعنى السياسي لأن قدومه في هذا العدد من الرجال ، إنما كان لإبراز قوته وكرمه معاً في الجزيرة ، ولقد سماه الناس إذ ذاك أبا الخصيب ، كما أن إقامة سيف الدولة في ميافارقين كثرت بعد مرضه وغزو الروم لحلب ٣٥١ هـ.

اعتمد سيف الدولة في إدارة ولايته على أقربائه من الأمراء الحمدانيين الذين كانوا يتولون المناصب العليا في هذه الإمارة منهم حكام أقاليم وقت السلم ، وقواد جيوش وقت الحرب ، ومن أشهر هؤلاء الذين كان لهم دور في إمارة حلب . أبو فراس الحمداني الذي

ولّاه سيف الدولة منبج وما حولها من القلاع، والذي خاض الكثير من المعارك ضد الروم. ثم أُسر وظل أسيراً مدة خمس سنوات ، أنشأ خلالها أجمل شعره المعروف بالروميـــات ، إلى جانب أبي فراس ، كان هناك ابنُ عمه أبو العشائر الذي كان حاكماً لأنطاكية ، وأبـو وائل تغلب الذي كان والياً على حمص ، ومحمد بن ناصر الدولة الذي كـــان يســتخلفه أحياناً في حلب والذي خاض أكثر من معركة ضد الروم ، وأبو زهير مهلهل بن نصر بـن حمدان الذي يقول عنه ابن خالويه إنه كان أفرس العرب وأشعرها .

لم يعتمد سيف الدولة على الأمراء الحمدانيين فقط في تسيير أمور دولته وإنما اعتمـد كذلك على المماليك الأتراك الذين أكثر سيف الدولة من اقتنائهم كي يقوموا بخدمتـه في القصر ويشكلوا حرساً خاصاً له ، يذكر ابنُ خالويه أنه " وافى رسول ملك الروم يطلـب الهدنة فأمر سيف الدولة بالركوب بالسلاح فركب من داره ألف غـلام مملـوك بـألف جوشن مذهب على ألف فرس عتيق بألف تجفاف " وكان سيف الدولة يستعين بالنـابغين منهم في حروبه الكثيرة خصوصاً ضد البيزنطيين ، ويشير ابن ظافر الأزدي أنه كان لسيف الدولة خمسمائة غلام أقران لهم بأس وشدة إذا حمل بهم في أي جيش خرقه ، ولا شـك أن شلومبر جر في حديثه عن جنود سيف الدولة الفدائيين إنما كان يعني هؤلاء الذين ذكرهـم ابن ظافر ، فقد كان هؤلاء يقفزون في سبيل الوصول إلى الأعداء مـن قمـة إلى قمـة ويقفزون بكل سهولة ويسر بين هاويتين سحيقتين ثم ينزلون على العدو فيوقعون به شـرَّ الوقائع ويملؤون قلوب الجنود البيزنطيين رُعباً .

اعتمد سيف الدولة كذلك على بعض غلمانه الذين كان قد رباهم ودربهم علـى قيادة الحملات العسكرية لما امتازوا به من ذكاء في قيادة الحروب ورسم الخطط ومطـاردة الأعداء والإيقاع بهم ، وكان أشهرهم وأقربهم إلى قلب سيف الدولة غلامه " نجا" الـذي انتصر في العديد من المعارك ، إلا أنه لم يقابل إكرام سيف الدولة بالإحسان ، بل اسـتغل مرضه لمصادرة أهل حَرَّان سنة ٣٥٢ هـ فقوي بهذه الأموال وتوجه بعدها إلى ميَّافـارقين وبلاد أرمينية حيث سيطر على كثير من قلاعها وكاتب معز الدولة بـن بويـه ، يعـده المعاضده والمساعدة على مواليه بني حمدان ، فلما أصطلح معز الدولة وناصر الدولة سـار سيف الدولة إلى نجا ليقاتله على عصيانه وخروجه عن طاعته ، فلما أحس بالخطر علـى حياته وشعر أنه سيهزم لا محالة ، سارع إلى تقديم الولاء والطاعة إلى أميره الذي مـلبث أن عفا عنه ، غير أن بقية غلمانه مالبثوا أن انقضوا على المملوك الثائر فقتلوه في دار الأمـير في

ميا فارقين ، ولم يكن قرغويه الذي اعتمد عليه سيف الدولة في أواخر حياته . وجعله نائباً عنه في حلب أثناء غيابه عنها بأفضل من نجا، فقد قتل أبا فراس بعد وفاة سيف الدولة بقليل في موقعه حربية ، ولم يكتف قرغويه بذلك بل أخرج سعد الدولة بن سيف الدولة من حلب وحاول أن يستقل بها ، ولم يكن ما فعله هذين المملوكين غريباً فتاريخ المماليك في عاصمة الخلافة مليئة بغدرهم وتآمرهم ، ولكن يبدو أن اقتناء هؤلاء المماليك كان ضرورة تمليها طبيعة العصر .

أما السياسة المالية : فلا تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافيه عن سياسة الحمدانيين المالية ، والمصدر الرئيسي الذي يعتمد عليه كل الباحثين هو كتاب " صورة الأرض " لابن حوقل الذي يذكر الضرائب المفروضة في منطقة الجزيرة والشام ، ويلاحظ أن الباحثين المعاصرين من غربيين وعرب ينتقدون الحمدانيين وسيف الدولة انتقاداً شديداً، في حين أن سياستهم المالية لم تكن تختلف عن السياسة المالية التي اتبعها غيرهم . كالأخشيديين مثلاً ، فالإخشيد كان معروفاً بمصادرته لأموال عماله ومصادرة الأغنياء ، وإذا أفلت أحد من المصادرة حياً فقد كان يصادر ورثته .

ومن الروايات التي تذكر في هذا المجال ، أن الإخشيد كان في أحد الأيام خارجاً للصيد بظاهر دمشق ، فرأى حماماً ، فأرسل عليه الجارح فأخذه فإذا مع الحمام كتاب من الراشدي إلى بعض الدمشقيين يقول فيه : قد حصل عندك تمام ثمانين ألف دينار ، وانصرف الإخشيد إلى داره وأحضر الرجل وطالبه بالمال وأخذه منه ، كما أن كافوراً الإخشيدي كان قد عقد فلسطين والأردن لنوابه بخمسمائة ألف دينار ، وكذلك جند دمشق ، وكثيراً ما كان يطالب عُماله بالمال على سبيل الفرض وقبل أن يحين موعد الدفع، وكان يدع عماله مقابل ذلك يجبون مايشاؤون من المال إرضاء لهم ، وهذا يعني العسف بالرعية ، ولكن إذا كان ابن حوقل يذكر الضرائب التي فرضها بنو حمدان بالتفصيل فهو لا يذكر إلا مبالغ الضمان التي عقدها كافور الإخشيدي لنوابه مع الترحم عليه ولعن الحمدانيين.

وأعتقد أنّ صغر إمارة حلب بالقياس إلى المناطق التي كان يسيطر عليها الإخشيديون، وكثرة مغازي سيف الدولة مع ذلك النشاط الأدبي في بلاطه ، وشيوع مقولة أبي الحسين القاضي " من هلك فلسيف الدولة ما ترك " ، والمعلومات التي يقدمها ابن حوقل...... هذه الأمور كلها جعلت المؤرخين يستنتجون أنه كان بلا شك جائراً على

رعيته ويفرض عليها الضرائب الثقيلة لكي يستطيع أن يؤمن نفقات الحملات ونفقات بلاطه . ولذلك نجد آدم ميتز في كتابه القيّم " **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**" وهو مرجع يعتمد عليه كثير من الباحثين - يجعل بني حمدان أسوأ جميع حكام القرن الرابع الهجري ، وأنهم جاروا على الرعية جوراً عظيماً " وهو ما يفعله أهل البادية الذين لا يعلمون ولا يحسنون لشيء تعهداً ، والترك والفرس الذين حكموا في هذا القرن هم جميعاً كالآباء لرعيتهم إذا قورنوا بالحمدانيين - ومما نشأ عن طبيعتهم البدوية أنهم كانوا لا يبالون بالشجر ففي سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م أغلقت مدينه حلب أبوابها في وجه عسكر سيف الدولة ، فاقتلعوا كل الأشجار الجميلة المحيطة بالمدينة ، وكانت هذه الأشجار كما يقول الصنوبري المعاصر لذلك العهد أكثر ما إزدان به الإقليم ...... وقد اكتسح الحمدانيون أشجار الفاكهة والبساتين وجعلوا مكانها الغلات والحبوب مثل القطن والأرز والسمسم ، وجلا كثير من أهل هذه البلاد ، وكان ممن جلا بنو حُبيب وهم بنو عم بني حمدان فقد خرجوا بذراريهم ومواشيهم في اثني عشر ألف فارس إلى بلد الروم حيث أنزلوا على كرائم الضياع ."

أما برنارد لويس في بحثه عن مصر والشام فيقول : " انتزع سيف الدولة الحكم على حلب وحمص في سنة ٣٣٣ هـ من الإخشيديين ، وأسس حكومة جديدة في شمالي الشام شق دويها أجواء الفضاء حتى توفي سنة ٣٥٦ هـ ، اشتهر سيف الدولة في الأدب العربي وأقاصيصه كملك وظهير للشعراء والمتأدبين ، أما شهرته من النوع الثاني فصحيحه إلا أنها مرهونة بسعي هؤلاء أكثر من سعيه هو ، حيث بوّؤوه محل الوالي في الحكم والغازي في ميادين الجهاد ، والحقيقة إن دور الحمدانيين يمثل صورة لغصب أموال الناس ، وسلبها ظلماً مقرونة بعدم الكفاية في الحكم وإضعاف المملكة ، واستثمارها عن طريق ابتزاز الأموال الكثيرة وإتلافها في استعراضات الجيش والمغامرات دون جدوى في النهاية ، ويتفق الدكتور سهيل زكار في رأيه مع بعض ماذكره برنادلويس وميتز ، فيقول : لقد خاض سيف الدولة بإمكاناته القليلة حروباً طويلة ضد الامبراطورية البيزنطية ، ولم تكن هذه الحروب حروباً هادفة بل كانت مجرد غارات بدون هدف واضح سواء أكان دفاعياً أو هجومياً ولقد نجم عن سياسته العسكرية وتكونية لبلاطه نتائج خطيرة ، فلقد احتاج بلاطه واحتاجت حملاته إلى نفقات كبيرة للغاية ، وقام سيف الدولة بجمع هذه النفقات من المصادرات والضرائب الثقيلة . ويقول كذلك " لقد اضطرت سياسة سيف الدولة

المالية بقايا قبيلة تغلب وكان عددها يقدر بعشرة آلاف فارس ، وكانوا يدعون بني حبيب، إضطرهم إلى ترك الجزيرة والهجرة إلى داخل الأراضي البيزنطية والتخلي عن الإسلام ، وتبني النصرانية والحرب مع بيزنطه ضدّ المسلمين " .

أما الأستاذ كرد علي في كتابه خطط الشام فيقول ، ومن كثرة مظالم سيف الدولة أن بني حبيب وهم أبناء عم بني حمدان كانوا ينزلون نصيبين ، فأكب عليهم بنو حمدان بصنوف الجور حتى خرجوا بذراريهم إلى بلاد الروم وتنصروا ". كما يأخذ على سيف الدولة كرمه وصلاته للشعراء والأدباء بقوله :" إن ماصدر عن سيف الدولة غاية في الكرم ولكنه لا يجوز في الشرع والعقل أن تجبى هذه الأموال من الفقراء والأغنياء لتصرف في مصالح الأمة ، ثم يأخذها شاعر واحد ؟

هذه نماذج لآراء بعض المؤرخين وأحكامهم ، نجدها مكررة في معظم الكتب والمؤلفات ، ولكننا لو ناقشنا هذه الأحكام التي توصلوا إليها لخرجنا بصورة أقرب إلى الواقع والحقيقة ، لآدم متيز يعتمد في ذكره لاقتلاع عسكر سيف الدولة كل الأشجار الجميلة المحيطة بالمدينة على مرجع أجنبي

" Wilsten feld : Die Stathather von Aegypten" ولو أنه عاد إلى ابن الأثير في كتابه " الكامل في التاريخ " ، وإلى ابن العديم في " زبدة الحلب " لما خَرج بهذه النتيجة التي ينسبها إلى الطبيعة البدوية المخربة لدى الحمدانيين ، فابن الأثير في أحداث سنة ٣٣٣ هـ لا يذكر سوى التقاء الجيشين وأن أحد العسكرين لم يظفر بالآخر ، وأن سيف الدولة تراجع إلى الجزيرة ثم عاد إلى حلب بعد رجوع الإخشيد إلى دمشق . أما ابن العديم فيذكر أن سيف الدولة توجه إلى الجزيرة فدخل الرقة ، ودخل الإخشيد حلب وأفسد أصحابه في جميع النواحي ، وقطعت الأشجار التي كانت بظاهر حلب وكانت عظيمة جداً ، ونزل عسكر الأخشيد على الناس بحلب وبالغوا في أذى الناس ، ثم ترددت الرسل بين الطرفين فتخلى الإخشيد عن حلب وحمص وأنطاكية لسيف الدولة .

أما فيما يتعلق باكتساح الحمدانيين لأشجار الفاكهة والبساتين وأنهم جعلوا مكانها الغلات والحبوب مثل القطن والأرز والسمسم ، فإن ميتز اعتمد فيما ذكره على ابن حوقل ، ولكنه لم يكمل نص ابن حوقل الذي يقول : " وجعل مكان الفواكه الغلات من الحبوب والسمسم والقطن والأرز فصار ارتفاعها أضعاف ما كانت عليه وزادت ريوعها، وإذا كان الحمدانيون قد اكتسحوا الأشجار في المنطقة المحيطة بنصيبين فإنهم وفقاً لنص

آخر يرد في كتاب صورة الأرض لابن حوقل، قد اهتموا بزراعة الأشجار فهو في حديثه عن الموصل يذكر أنه لم يكن بالموصل كثير شجر ولا بساتين إلا التافه القليل اليسير " فلما تملك بنو حمدان ورجالهم غرسوا فيها الأشجار وكثرت الكروم وغَزُرت الفواكة ، وغرستَ النخيل والخضر " . هذان النصان واردان في كتاب صورة الأرض لابن حوقل ، ولكن متيز لم يعتمد إلا على النص الأول فأورده غير كامل وأهمل النص الثاني ليبرهن على الطبيعة البدوية المخربة ، ولو قرأ النصوص جميعاً لوجد أن ما فعله الحمدانيون يشير إلى عقلية إقتصادية متفتحة ، فقد وجدوا التربة في الموصل ملائمة لزراعة أشجار الفاكهة والنخيل والكروم فاهتموا بزراعتها ، ووجدوا أن الأرض المحيطة بنصيبين أكثر ملائمة لزراعة القطن والسمسم والأرز فزرعوا هذه المزروعات التي أعطت ريعاً أكبر بكثير كما يؤكد ابن حوقل نفسه ، والصولي في أوراقه ، يشير إلى أن الراضي طمع في الموصل ذات النواحي الزرعية العامرة ، وأكثرها ضياع آل حمدان ففكر بإعطاء هذه الضياع ليحكم وأصحابه ، ليخلص له مال ضياعه فيوسع على الناس ، ويعطي من حَرَم ويجعل في بيت المال شيئاً يرجع الناس إليه ، فكان رد الصولي على الراضي ، إن هذه الناحية إنما ازدهرت بعناية بني حمدان لها ونزولهم فيها ، كما أنه يجب أن نشير إلى أن ناصر الدولة أثناء إشغاله منصبه كأمير للأمراء في بغداد نظر في العيار فرآه ناقصاً ، فأمر بإصلاح الدنانير ، فضرب دنانير سماها الإبريزية ، عيارها خير من غيرها ، فكان الدينار بعشرة دراهم فبيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً ، هذه الأمثلة تشير إلى وعي اقتصادي ، ولا تتفق مع الاتهامات الموجهة إليهم من كونهم بدواً مخربين .

فإذا أتينا إلى قضية بني حبيب وجلائهم عن أراضيهم نتيجة لجور وغشم وظلم الحمدانيين ولا سيما سيف الدولة ، فإن المؤرخين جميعاًيعتمدون على النص الوارد لدى ابن حوقل ، ودراسة النص بإمعان تثير - بلا شك - لدى الباحث الكثير من التساؤلات.

يذكر ابن حوقل أن نصيبين كانت معروفة بكثرة الثمار ورخص الأسعار تتضمن بمائة ألف دينار إلى سنة ٣٣٠ هـ ، فأكب عليها بنو حمدان بضروب الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم حتى حمل ذلك بني حُبيب إلى أن خرجوا بزراريهم وعبيدهم ومواشيهم ومما يمكن نقله ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من الغضب لعقارهم في نحو عشرة آلاف فارس على فرس عتيق ، وسلاح شاك ، من درع وجوشن مذهب ، ومغفر مدبج ، وسيف يقل شبهه ورمح خطي وآلة وعدة،فتنصروا

بأجمعهم، وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم النظر في إنزالهم على كرائم الضياع،ونفائس الجبى والمتاع وخيرهم القرى والمنازل ورفدهم بالنواحي الحسنة والمواشي... الخ ، ثم يتابع ابن حوقل فيذكر أن بني حُبيب " كاتبوا من خلفوه وراسلوا من عرفوه ولا طغوه بذكر ما بلغوه ونالوه ... فأطمعوهم بما نالوه وعرّفوهم ما وصلوا إليه وما جاؤوا فيه ... وأن ملكهم أيدهم وقوّاهم وأنعم عليهم وآواهم فلحق . بهم كثير من المتخلفين عنهم ، وانتمى إليهم من لم يك منهم وشنوا الغارات على بلد الإسلام " .

هذا النص ينفرد به ابن حوقل ، فليس ثمة من مصدر آخر يشير إلى ارتحال بني حبيب إلى بلاد الروم نتيجة لجور وغشم وظلم بني حمدان ، وإن كان ذكر بني حبيب يرد في ديوان أبي فراس الحمداني شرح ابن خالويه في صدر الحديث عن جد سيف الدولة " حمدان بن حمدون الذي لقب بمكايد المحل ، لأنه عمر الموصل وديار ربيعة بالميرة ثلاثة أعوام تواترت بالمحل ، ووفد عليه فيمن وفد بنو حبيب ، وكانوا أعداءه وأعداء قبيلته فساواهم بأقرب عشيرة .

فبنو حبيب وفق هذه الرواية أعداء حمدان بن حمدون وأعداء قبيلته كما أن ابن حوقل في نصه لا يشير إلى أنهم أبناء عم الحمدانيين ، ومن ثم نتساءل ، لما ذا اختار بنو حبيب الجلاء عن نصيبين سنة ٣٣٠ هـ ، ولم يكن سيف الدولة آنذاك قد أسس إمارة حلب، ومن ثم لا يحق لنا القول كما قال بعض الباحثين أن سياسته المالية " الجائرة كانت سبباً في ارتحال بني حبيب ، لقد كان آنذاك يتولى حكم نصيبين لأخيه حين جاء الأمر بالتوجه إلى بغداد ونجدة الخليفة المتقى لله الذي كان قد انفذ إلى ناصر الدولة يستمده على البريديين فأرسل أخاه سيف الدولة نجدة له في جيش كثيف ، فلقي المتقى وابن رائق أمير الأمراء بتكريت وقد انهزما . فخدم سيف الدولة المتقى لله خدمة عظيمة وسار معه إلى الموصل ، ويلاحظ أن الأخوين انشغلا بقواتهما طوال سنة ٣٣٠ وسنة ٣٣١ هـ بقضايا الخليفة والبريديين وحربهم ، فلماذا لم يحاول بنو حبيب أن يظهروا مقاومة ويستعيدوا أراضيهم حين كانت الساحة خالية لهم ، وهم يتألفون من عشر آلاف فارس بكامل عدتهم وعتادهم ، وقد كان المتغلبون أحياناً يسيطرون على مناطق بأقل من هذا العدد بكثير .

لماذا اختار بنو حبيب وهم يؤلفون قوة كبيرة قادرة على المقاومة ، هذه السنة ، لترك أراضيهم واللجوء إلى أراضي الروم وقوات الحمدانيين العربية مشغولة بالدفاع عن

الخليفة ضد البريديين أولاً ثم ضد توزون وخجنجح ثانية ، ألا يدفعنا هـذا إلى التساؤل فيما إذا كان البيزنطيون ، قد أطمعوهم بكرائم الضياع ونفائس الحبى والمتاع لكي يتوجهوا إلى أرض الروم ، فيصبحون عوناً لهم ، لا سيما وأنهم كانوا أعداء للحمدانيين وكان سيف الدولة قد أوقع بالروم حينما كان والياً على ديار بكر (٣٢٦ - ٣٢٩هـ) هزائم كثيرة ، فرأوا الفرصة سانحة لاستدراج بني حبيب ، لاسيما وأن ابن حوقل يذكر أنهم أوثقوا ملك الروم من أنفسهم ، بعد أن أحسن لهم النظر في إنزالهم على كرائم الضياع ، وأنهم راسلوا من عَرَفوه ولاطنوه بذكر ما بلغوه...... فلحق بهم كثير من المتخلفين عنهم ، وانتمى إليهم من لم يك منهم فشنوا الغارات على بلد الإسلام فاستولوا على حصن زياد ومنصور " وكان سيف الدولة قد توجه سنة ٣٢٦ هـ إلى حصن زياد في أرض أرمينية بين حصني زياد وسلاّم، وأسر كما يذكر ابن ظافر الأزدي سبعين بطريقاً، وأخذ سرير الدمستق وكرسيه كما أن سيف الدولة خرج سنة ٣٢٨ هـ غازياً من نصيبين ، فوصل إلى قاليقلا كما توغل في أرض الروم وهدم لهم حصوناً كثيرة ، وإذا علمنا أن البيزنطيين كانوا يشجعون السكان في منطقة الثغور على الدخول في المسيحية . لا تستبعد أن يكونوا قد أطمعوا بني حبيب ، لاسيما وأن نفوسهم كما يبدو كانت ضعيفة وتعلقهم بالإسلام كان واهياً - يرد في أحداث سنة ٣٢٢ هـ عند ابن الأثير أن الدمستق سار في خمسين ألفاً من الروم . فنازل ملطية ، وكانت الثغور الجزرية ، قد ضعفت عن دفع الروم عنهم فحاصر الدمستق ملطية مدة طويلة هلك خلالها كثير من أهلها من الجوع ، وضرب خيمتين على إحداها صليب وقال : من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليُرد عليه أهله وماله ، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه وماله ، ونبلغه مأمنه ، فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم ، وسيَّر مع الباقين بطريقاً يبلغهم مأمنهم ، ثم ملك الروم سميساط وخرَّبوا الأعمال وأكثروا القتل ، وفعلوا الأفاعيل الشنيعة ، وصار أكثر البلاد في أيديهم ، إذا كان هذا وضع الثغور قبل أن يبدأ الحمدانيون ، وعلى رأسهم سيف الدولة بالوقوف في وجههم أليس من المعقول أن يحاولوا اجتذاب هذا العدد الكبير من الفرسان إلى جانبهم وهم أعداء للحمدانيين ، ثم إن ابن حوقل في ص ١٩١ يذكر أن بني حبيب خرجوا بذراديهم وعبيدهم ... الخ لأن أراضيهم اغتصبت منهم ، بينما يذكر في ص ١٩٣ أن الحمدانيين استصفوا أرض من كان دخل إلى بلاد الروم ، أي أن

أراضيهم أُخذت بعد نزوحهم وليس قبل ذلك ، وأن الحسن بن عبد الله (ناصر الدولة) سلمها إلى من بقي من أهلها الذين آثروا فطرة الإسلام ومحبة المنشأ على مقاسمة النصف من غلالها ، ثم قد يتساءل الباحث هل كان بنو حُبيب هؤلاء ، بين عم الحمدانيين لأن ابن حوقل في النص الأول لا يذكر ذلك ويدافع عنهم ويتهم الحمدانيين ، في حين أنه في صدر حديثه عن بَرْقَعيد يقول : ويسكنها بنو حبيب ، قوم من تغلب ، وفيها مغوثة لبني السبيل ، وفي أهلها بعض شر لأنهم من سينخ بني حمدان ، وفي العودة إلى معجم القبائل لعمر رضا كحالة ، وجدت أن هناك فروعاً من قبائل قيس عيلان كان يطلق عليهم اسم " بنو حبيب" . إن الباحث عند قراءته لما أورده ابن حوقل في كتابه صورة الأرض . يجد أنه شديد التحامل على الحمدانيين وأنه يناقض نفسه في كثير من الأحيان ، ولذلك فإن على الباحث أن يدرس النصوص الواردة في صورة الأرض دراسة نقدية قبل أن يصدر أحكاماً مبنية عليها .

أما فيما يتعلق باتهام سيف الدولة بأن حروبه كانت غير هادفة لا هجومياً ولا دفاعياً ، وأنه أتلف أموال الدولة في استعراضات الجيش والمغامرات من دون جدوى، فإن على الباحث المنصف أن يشير إلى أن سيف الدولة تسلم مهمة الدفاع عن الثغور في أصعب الظروف بالنسبة للمسلمين وأفضلها بالنسبة للبيزنطيين ، فقد كانت الخلافة العباسية مجزأة إلى دويلات متعددة متناحرة ، وحينما سيطر البويهيون على مقاليد السلطة في بغداد لم يهتموا بأمر الدفاع عن الثغور ، بل نازعوا الحمدانيين في الموصل لدفع الأموال، أما في بيزنطة فقد تحوَّل الموقف في القرن العاشر الميلادي الرابع الهجري من الدفاع إلى الهجوم ، عندما استولت على السلطة أسرة من أقوى الأسر في التاريخ البيزنطي وهي الأسرة المقدونية التي نفخت في الدولة روحاً جديدة بفضل ما وفرته لها من استقرار داخلي وقيادة حكيمة .

يضاف إلى هذا أن نظام الثغور اكتمل عند البيزنطيين في القرن العاشر الميلادي في عهد الأسرة المقدونية ، وحَلَّ مكان الجيش المأجور جيش جديد من الجند الفلاّحين ، وكان على سيف الدولة أن يواجه البيزنطيين بأعداد من المقاتله محدودة ، بينما كانت جيوش البيزنطيين يربو عددها في الوقعة الواحدة أحياناً على مائة ألف محارب من أجناس مختلفة من روس وبلغار وروم وصقلب وأرمن وخزر، وقاد هذه الجيوش قواد من أشهر وأعظم قادة الامبراطورية البيزنطية أمثال قسطنطين ليكابينوس ، الذي تحداه سيف

الدولة في غزواته قبل أن يدخل حلب ، ويرداس فوكاس Barads phocas وأخوه نقفور فوكاس الذي كان قبل توليه القيادة في المشرق ، قائداً عاماً للقوات البيزنطية البرية والبحرية في الجبهة الغربية .

وحينما نجح نقفور في الاستيلاء على جزيرة كريت سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م عينه الأمبراطور رومانوس الثاني ، قائداً أعلى للجبهة الشرقية ليقف في وجه سيف الدولة الذي كان قد حقق انتصارات عديدة على البيزنطنين ، وتصدى لمحاولاتهم المتكررة للاستيلاء على الشام التي كانوا يطمعون فيها ويذكرون من تاريخها أنهم حكموها طويلاً ، فكان سيف الدولة بعمله سداً وحاجزاً دون إنبعاثهم إلى هذه البلاد ، فخدم بذلك الإسلام والعرب ، وقد كان سيف الدولة كما يقول ابن ظافر الازي ردءاً للمسلمين بما رزقه الله من الهيبة عند العدو إلى أن مَرض وضَعُف ، ولما توفي اشتد استيلاء العدو على سائر البلاد والثغور ، فيذكر ابن الأثير ، أن الروم دخلوا الشام سنة ٣٥٨ هـ ، و لم يمنعهم أحد ، فسار ملك الروم إلى طرابلس وأحرق بلدها وقصد حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها ، فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان الساحل فأتي عليها نهباً وتخريباً ، وأقام في الشام شهرين يقصد أي موضع يشاء ويخرِّب ما يشاء ولا يمنعه أحد.

أما إذا أتينا إلى القضية الثالثة التي ينتقد عليها سيف الدولة - ونعني بذلك تبذيره وإنفاقه أموال الدولة على الشعراء والأدباء - فإننا إذا درسنا النصوص المتعلقة بذلك في يتيمة الدهر للثعالبي ، وفي كتب الأدب والشعر ، رأينا أن صلات سيف الدولة لم تكن كبيرة ، إذا ما قيست بصلات الملوك والأمراء الآخرين في عصره ، وإن إجتماع الشعراء والأدباء حوله يعود إلى شخصية سيف الدولة التي استطاعت أن تستقطب هذا العدد الكبير في صعيد واحد وإلى كون سيف الدولة أديباً بفطرته ، ذا ملكة مميزة ونقادة تفرِّق بين الغث والسمين وتميز بين الرديء والجيد من الشعر .

يذكر ابن كثير في ترجمته للمتنبي أنه حينما مدح المتنبي ابن العميد في الكوفة وصله بثلاثين ألف دينار ، ثم سار إلى فارس فامتدح عضد الدولة البويهي ، فأطلق له أموالاً جزيلة تقارب مائتي ألف دينار وقيل بل حصل منه ثلاثين ألف دينار ، ثم دس إليه من يسأله أيما أحسن عطايا عضد الدولة بن بويه أو عطايا سيف الدولة بن حمدان فقال : هذه أجزل وفيها تكلف ، وتلك أقل ولكن عن طيب نفس من معطيها لأنها عن طبيعة وهذه عن تكلف ، فذكر ذلك لعضد الدولة فاغتاظ ودس عليه طائفه من الأعراب ، فوقفوا له

في أثناء الطريق وهو راجع إلى بغداد ، ويقال إنه كان قد هجا مقدَّمهم ابن فاتك الأسدي، فلهذا أوعز إليهم عضد الدولة أن يتعرضوا له فيقتلوه ، ويأخذوا ما معه من الأموال فقتل المتنبي مع ولده في يوم الأربعاء لخمس يقين من رمضان سنة ٣٥٤ هـ / ثم إن كرم سيف الدولة لم يكن وقفاً على الشعراء والأدباء ورجال دولته ، وإنما شمل الأفراد العاديين كذلك ، وليس أدل على ذلك من أنه عندما أُسر أبو فراس الحمداني ، أقام في الأسر خمس سنين يكاتب سيف الدولة أن يفتديه بقوم كانوا عنده من عظماء الروم ، فيأبى سيف الدولة ذلك مع وجده عليه ومكانه من قلبه ويقول : لا أفدي ابن عمومنا خصوصاً ، وأدَع باقي المسلمين . ولا يكون الفداء إلا عاماً للكافة ، فلما كانت سنة ٣٥٥ هـ سار سيف الدولة ، للفداء ، بالبطارقة الذين في أسره ففداهم ، ولما لم يبق معه من أسرى الروم أحد ، اشترى الباقين ورهن عليهم بدنته الجوهر المعدومة المثل ، ويعلق التنوخي على هذا الفداء الأخير الذي جرى قبل سنة من وفاة سيف الدولة بقوله : إنه لزمه في الفداء خمسمائة ألف دينار في شراء الأسرى ، والأموال التي وصلهم ورَمَّ بها أحوالهم ، وأخرج جميع ذلك من ماله صبراً واحتساباً وطلباً للثواب والذكر من غير أن يعاونه أحد من الملوك فيه ولا غيرهم ، وكان ذلك خاتم أعماله الحسنة وفعاله الشريفة التي تجاوز الوصف وتفوق العد .

إن الأمثلة السابقة التي ذكرتها كلها تدل على أن الباحث لا يجوز له أن يعطي أحكاماً أو أن يتوصل إلى استنتاجات مبنية على نص واحد وأن عليه أن يدرس النصوص كلها دراسة نقدية لكي يستطيع أن يقدِّم صورة أقرب إلى الواقع والحقيقة ورَحِم الله ابن خلدون الذي يقول :

فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه ، وإذا خامرها تشيع لرأي أونحله قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد في قبول الكذب ونقله.

المراجع

ابن العديم	بغية الطلب		دمشق
ابن العديم	زبدة الحلب		دمشق
المقدسي	أحسن التقاسيم		١٩٠٦
ابن شداد	الأعلاق الخطيرة	دمشق	١٩٥٣
ابن كثير	البداية والنهاية		١٩٦٦
بروكلمان	تاريخ الشعوب الإسلامية	بيروت	١٩٦٥
آدم متز	الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري		١٩٤٧
ابن الشحنة	الدر المنتخب		١٩٠٩
ابن حوقل	صورة الأرض		بيروت
أحمد أمين	ظهر الإسلام	القاهرة	١٩٦٤

كيف قرئت الكتابات واللغات القديمة

الدكتور عماد الدين حاتم*

يتناول المقال كتاب العالم النمساوي Ernst Doblhofer الصادر باللغة الألمانية سنة١٩٥٧ بعنوان Zeichen umd wunder والذي درس أساليب العلماء ومناهجهم في قراءة ثمان من أهم كتابات العالم القديم ولغاته . يبدأ المقال بتعريف المرحلة التي تمت فيها الكشوفات التاريخية " الاستعمار " في صورته الخالية من الأقنعة والذي فتح مجالات واسعة أمام علماء الاستشراق و"التراكم المعرفي - الذي أدى إلى ظهور مناهج علمية جديدة أدت بمجموعها إلى الثورة العلمية في جميع المجالات ومنها الكتابات القديمة.

والكتابة نقلة للإنسان من الهمجية إلى الحضارة ، بدأت باستعمال الأشياء كالكيبو وصولجانات الرسل والكامبوم والبيركا، وانتقل الإنسان إلى الكتابة البيكتوغرافية التي يمكن لكلٍّ أن يقرأها بلغته ثم كانت الكتابة الأيدوغرافية فالمقطعية وفيها يعبر الصوت عن رمز معين، أما الساميون فعمدوا في فترة لاحقة إلى فصل الصوت الاستهلالي للكلمة- الرمز وصاروا يكتبونها تعبيراً عن هذا الصوت فقط. وبكلمة أخرى صار الرمز تعبيراً عن حرف واحد، منفصل وبذلك بدأت الأبجدية . أما المواد المستخدمة في الكتابة فكانت الحجر والجلود والخشب والمعادن والعظام... والورق . أما قراءات العلماء فلعب الدور الحاسم فيها ثقافتهم الواسعة ونشاطهم ودأبهم وتكريس حياتهم بطولها لأجل المعرفة ، تؤكد ذلك حياة شامبليون ، كامبغير ، هنري رولينسون، جورج سميث ، أريتشيبالد هنري سايس ، باوير ، فيرولو ، دورم وآخرين.وساعدتهم على القراءة بعض الرموز الكتابية كالفواصل والمحدّدات ، خرطوشات كتابة أسماء الملوك ، تكرار كتابة أسماء الآلة، الحدس بوجود السوابق واللواحق كما ساعدتهم إخباريات الأقدمين وأخيراً ، الثنائيات. مثل ثنائية حجر رشيد وقرة تيي.

في استعراض قراءة الكتابة المصرية جرت الإشارة إلى تاريخ هذه الكتابة العريقة ومواقف القراء منها عبر عشرات القرون حتى دخل الفرنسيون مصر وعثر على حجر رشيد الذي نجح العالم الإنجليزي يونغ في قراءة عدد كبير من مفرداته، ثم عكف شامبليون عليه فأكد أن نصه الهيروغليفي مكتوب بحروف أبجدية.

---

* أستاذ آل البيت.

وتعرف في نصّه الديموطيقي على اسم كليوباترة وحاول رسمه بالهيروغليفية ، ثم تأكدت نظريته بعد إطلاعه على مسلّة نقش عليها ذلك الاسم الملكي . بعد ذلك صار شامبلون يتدرّب على قراءة أسماء الملوك المحاطة بالإطارات ويحدّد حروف ومحدّدات الهيروغليفية إلى أن انتهى إلى وضع الأبجدية . أما الفارسية القديمة فعرض المقال لتاريخ نقوشها المسمارية التي كان الرحالة نيبور قد رسم بعضها واستطاع غروتينفيند أن يُميز فيه اسم ملك وعلى أثر ذلك أخذ مجموعتين من نقوش مقابر الملوك وافترض وجود بعض الأسماء فوقها وأعانه على ذلك نص ليهرودوت يقدم جرداً لأسماء الملوك فكان ذلك مقدمة للمرحلة الثانية من قراءة الفارسية القديمة والتي فتحت بعد العثور على نقش بيهستون الشهير . أما بالنسبة للكتابة البابلية الآشورية فعرض المقال فيها لجهود ليفنستييرني لقراءة القسم البابلي من المدونة التي حملت الشهرة إلى غروتينفيند، ثم توقف العلماء عند المظهر المقطعي لهذه الكتابة الجديدة وتطور القراءة حتى تم العثور في نينوى على دفتر المعلم في صورة لوح طيني خطت فوقه المعاني اللفظية السومرية للايديوغرامات في مقابل معانيها اللفظية في البابلية الآشورية. جرى التعرض بعد ذلك لإكتشاف جورج سميث لألواح جلجامش والتوصل إلى ارتباط البابلية الآشورية بالسُّومرية ثم للتشابه المذهل بين الكتابة المصرية القديمة والاسفينية البابلية الآشورية وأسباب انتشار هذه حتى صارت الكتابة الدبلوماسية في العالم القديم. بعد العثور على النصوص المختلفة للكتابة الحثية في سوريا وتركيا بدئ بقراءة خاتم تاركوموا وتم العثور على الفاصل بين المفردات ومحدّد المدينة ونهاية الاسم وقرأ يينسين كلمة كركميش ثم توقفت القراءات حتى تمكن كركميش بيدرجيخ من قراءة عبارة " والآن كلوا خبزكم وماءكم اشربوا" . ومرت الكتابة بعد ذلك بصعوبات وعثرات كثيرة بذل ميريدجي وفورّير جهودهما في التغلب عليها إلى أن عثرا أخيراً على ثنائية قرة تيبي المكتوبة بالفينيقية والحسّية فرسخت القراءة الحثية بصفة نهائية، وأثار النص المنشور تأملات هامة تتعلق بالإسهام الفينيقي في الحضارة اليونانية القديمة. وكانت الفينيقية ، في صورتيها المسمارية والهيروغليفية ، أسرع الكتابات استجابة للقارئين ، اكتشفت نصوصها في رأس الشمرة باللاذقية حيث عثر على مكتبة المعبد ومدرسة الكتبة وفؤوس معدنية مرقوشة بالمسمارية . وسرعان ما افترض باوير تدوين هذه النصوص بحروف أبجدية فحاول العثور على الكلمات الوحيدة الحرف في هذه الكتابة السامية وعلى اللواحق واللواصق التي ترد في بدايات المفردات ونهاياتها وهكذا حدد بعض

هذه الحروف التي أوصلته إلى اسم ملك ثم بعل وأخيراً قرأ " فأس الكاهن الأعظم" المدونة على الفأس نفسها. وفي فترة أقصر من ذلك قرأ ادوارد دورم أبجدية جبيل التي حدد رموزها بـ ٧٠ رمزاً كانت تشكلات مختلفة للأبجدية الفينيقية، حسب وقوع الحرف في بداية الكلمة أو وسطها أو نهايتها ، وتوصل بذلك إلى قراءة النص الذي طرقة عامل بسيط.

وصاحب المقال يشارك مؤلف الكتاب أسفه لأنه ما توقف إلا عند مجموعة محدودة من الكتابات القديمة ثم يتوقف أمام مجموعة من التساؤلات من بينها ما يتعلق بالكتاب الرونية التي أثبتت وحدة الأصل بين الشعبين التركي والمجري ويتساءل عن السبب الحقيقي وراء عدم التوصل إلى قراءة الايتروسكية ، ويرى أن المؤلف قد قسا في وصفه لأهل سوريا ومصر وللجزيرة العربية، كما أنه أغفل أوصاف ابن فضلان وابن بطوطة (شاهدَي العيان) لدفن الملوك الصقالبة والترك بينما هو يقدم أوصاف هيرودوت ، والأهم أن المؤلف يتجاوز معرفة القارئين للغة العربية مفتاحاً لقراء الكتابات القديمة في الأراضي العربية ويصرّ ، شأن العلماء الأوروبين عموماً ، على قراءة اللغة المصرية وانعزالها عن محيطها العربي وفي الوقت نفسه يسجل إعجابه الكبير بمنهج المؤلف وأسلوبه في عرض كتابه ويهيب بالمؤرخين العرب أن يهتموا بتدوين تاريخ بلادهم القديم.

كيف قرئت الكتابات واللغات القديمة

قراءة في كتاب إرنست دوبلهوفر:" رموز ومعجزات"

إذا كان القرنان الخامس عشر والسادس عشر يدخلان التاريخ الإنساني على أنهما عصرا الكشوفات الجغرافية " في المكان" فإن القرنين التاسع عشر والعشرين يدخلانه عصراً للكشوفات التاريخية " في الزمان" . فخلال هذين القرنين الأخيرين أزيح الستار عن أحقاب وكتابات وحضارات كانت مجهولة في الماضي أو كان ينظر إلى نقوشها كمجموعة من الأحاجي التي يعد مجرد التفكير في حلها ضرباً من التعامل مع المستحيل ، ولذلك كان حل تلك الرموز وقراءة نصوصها ميلاداً جديداً للتاريخ البشري .

وإذا كانت هذه الكشوفات والقراءات بالغة الأهمية بالنسبة للتاريخ البشري في عمومه فإنها تكتسب أهمية مضاعفة بالنسبة لتاريخنا العربي ولتلك الحضارات التي تضرب بجذورها

عميقاً في تراب بلادنا؟ فأهم الكتابات الدارسة وجدت في ما بين النهرين ووادي النيل وأوغاريت وجبيل وقبرص وجميعها تصلنا بخطوط كثيرة بأول المناهل التي استقت منها شخصيتنا التاريخية المعاصرة الكثير من مقوّماتها.

ومن المعلوم أن الباحثين العرب قد احتجبوا ، لأسباب كثيرة، عن هذه الكشوفات والقراءات و لم يشاركوا في حل رموز تلك الرقم والمنقوشات والمدّونات التي خطّها الأجداد ، كما أنهم احتجبوا أيضاً عن التأريخ لهذه الإنجازات العلمية الكبرى والتعريف بها والكتابة عنها، فلم يصدر حتى الآن- في حدود علمنا - الكتاب الذي يتناول بالدراسة تلك الموضوعات الهامة، وهو ما يعد نقصاً كبيراً في المكتبة العربية بوجه عام.

وفي منتصف القرن الحالي تصدى لهذا الموضوع عالم نمساوي كبير هو البروفيسور إرنست دوبلهوفر الذي يمدّنا كتاب"Who is who?"ببعض المعلومات المتعلقة به.فقد ولد في الثاني من أيلول عام ١٩١٩ في ايثيردينغ بالنمسا ودرس في جامعتي فيينا وغراتس وتخصص في الدراسات اليونانية واللاتينية وعلم اللغات المقارن وفي اللغة الإنجليزية والتأريخ وحصل على الدكتوراه عام ١٩٤٨ ثم اشتغل بتعليم اللغة اللاتينية في غراتس فمدرساً للغة الألمانية في ليفيربول ، وشارك بين ١٩٤٩ - ١٩٥١ في بعثة الحفريات جنوبي الأناضول . رقي إلى درجة أستاذ اللغتين اليونانية واللاتينية في جامعة غراتس وحاضر في "منهجية تعليم اللغات الكلاسيكية " وفي " اللاتينية الوسطى" و "الأدب المسيحي في عصوره الأولى" . كما نشر عدداً من المؤلفات من بينها" دبلوماسيون بيزنطيون " ، و" أوفيديوس أوربانوس" " قيصر وخصومه" وسواها وترجم بعض مؤلفات أرنولدتوينبي . أما أشهر كتبه فهو " رموز ومعجزات Zeichen und Wunder " الذي نشرته دار Neff (فيينا - برلين - شتوتغارت) عام ١٩٥٧ وحقق منذ ظهوره شهرة واسعة ، وكان حتى سنة ١٩٧٢ قد ترجم إلى الإنكليزية والفرنسية والروسية والبرتغالية والهنغارية واليابانية والهولندية والإيطالية ، كما نشرت طبعة منه في كتاب الجيب DTV 161 ونال مؤلفه الجائزة الأدبية عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٨ ، وقد أصدرت الدار العربية للكتاب (ليبيا - تونس) ذلك الكتاب عام ١٩٨٣ بعنوان " رموز ومعجزات منقولاً عن ترجمته الروسية الصادرة عام ١٩٦٣ بعنوان 3Haku u Yygeza ".

بعد مقدمة عن تاريخ الكتابة الإنسانية وطبيعتها كنشاط بشري يتناول المؤلف بدراسته قراءة ثماني كتابات هي : ١ - المصرية القديمة ، ٢- الفارسية المسمارية القديمة،

البابلية المسمارية، ٤- الحثية والمسمارية منها والهيروغليفية ، ٥- الفينيقية القديمة _ أبجدية رأس الشمرة وأبجدية جبيل ، ٦- الكتابة المقطعية القبرصية ، ٧- كتابة ب الكريتية - الميسنية ، -٨ الكتابة الرونية التركية القديمة ، ويختم كتابه بفصل عن مستقبل القراءات .

وقد نهج المؤلف في كتابه المنهج التاريخي ، ولا نقصد بذلك فقط أنه تتبع مصير كل رقيم مكتوب منذ أن تم العثور عليه وإلى أن قرئ بل وحاول أيضاً أن يلاحق مسيرة التفكير لدى كل عالم ، فواكب خطواته ودخل مختبره العلمي وجعلنا نتلمس الصعوبات المتلوّنة التي كانت تعترض سبيل قراءة الكتابة الغامضة ونعايش الجهود المضنية و " الليالي الساهدة، والتي انتهت ببعض العلماء إلى اليأس واعتزال العمل بينما انتهت بآخرين إلى تحقيق النصر العلمي الكبير .

ولهذا فإننا نحيي الجهد الكبير الذي بذله أرنست دوبلهوفر في كتابه ونقدر بكل إكبار ما اتسم به مؤلفه من دقة المحاكمات وجاذبية العرض ، وسنحاول فيما يلي أن نعرض لبعض التساؤلات التي يثيرها هذا الكتاب ومنها : لماذا تأخرت قراءة الكتابات الدارسة حتى عصرنا الحديث مع أن نقوشها معروفة منذ عشرات القرون؟ ما ملامح الفترة الزمنية التي أحاطت بفك الرموز وما المبادئ والمناهج التي اعتمدت في القراءة ؟ . وبعد أن نستعرض أهم القراءات بالنسبة لأرضنا العربية نحاول أن نستخلص أهم النتائج التي تمخّضت عنها هذه الاكتشافات العلمية بالنسبة لتاريخنا الحديث على الأقل .

أشرنا إلى أن القرنين الـ ١٥ , الـ ١٦ كانا عصر الكشوفات الجغرافية في المكان بينما كان القرنان الـ ١٩ والـ ٢٠ عصر الكشوفات التاريخية في الزمان . وتجدر الإشارة إلى أن هاتين المرحلتين من الكشوفات ترتبطان بمرحلة سابقة ومهمة في التاريخ الأوربي هي مرحلة النهضة التي كان من سماتها يقظة الوعي والتفكير والمغامرات العقلية الجريئة والبحث عن المناهج الجديدة و الاستزادة من المعارف والعلوم والتوصل إلى التراكم المعرفي الذي تمخض بعد آماد طويلة عن الثورة الصناعية التي كانت في وجهها الإيجابي تتويجاً للفكر الإنساني إذ طبقت العلم على الصناعة ، لكنها لم تلبث أن اتخذت وجهها السلبي أيضاً إذ كانت واحداً من الأسباب التي مهدت للاستعمار بمعناه العسكري.ببوارجه و مدافعه وعنصريته وبما جره من مآس على قسم كبير من الكوكب الأرضي.

وكيفما كانت نظرتنا إلى هذه المرحلة التي كشف صفحات مشرقة في تاريخنا القديم فإننا لا نستطيع أن نجرّدها من ارتباطها بظاهرتين تفضي كل منهما إلى الأخرى

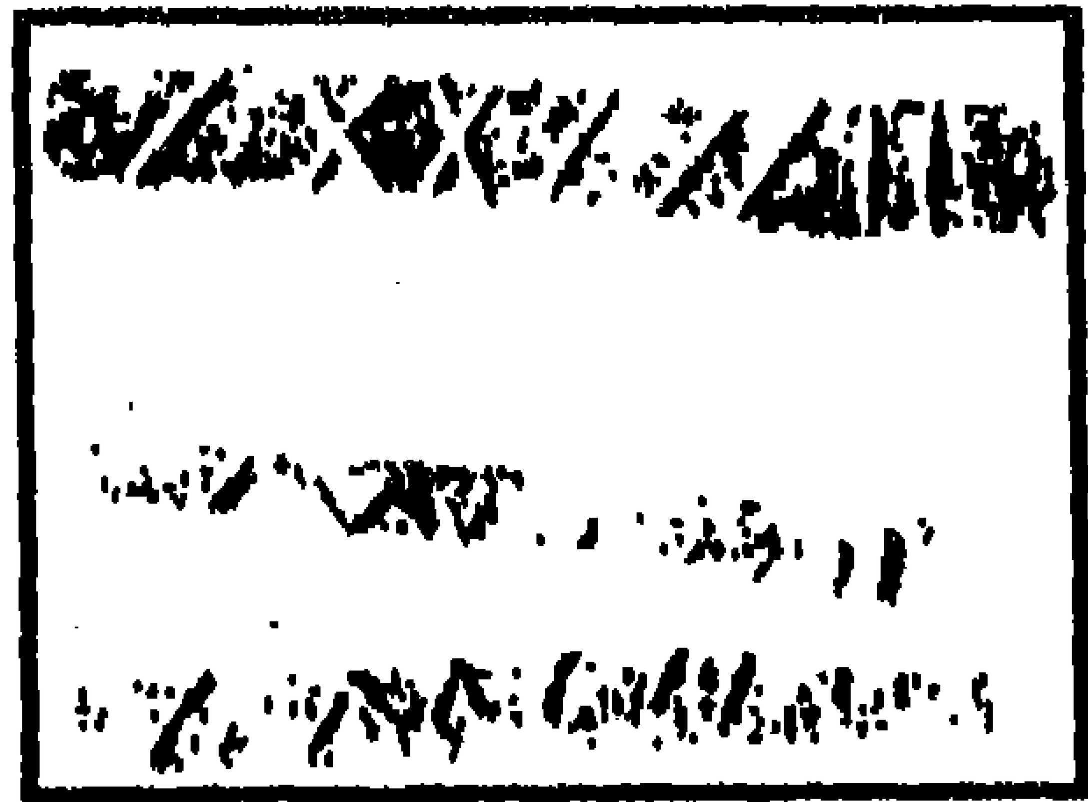
وتكملها: بالاستعمار في صورته المباشرة ، المجردة من الأقنعة ، وبالتراكم المعرفي العلمي الذي أفاد منه القارئون حتى توصلوا إلى كشوفهم التي تثير الإعجاب . ولدوبلهوفر في كتابه عبارة في وصف شركة الهند الغربية التي أسهمت بدور ملموس حتى في الكشوف فهي " منظّمة قوية لا تقصر حاجتها على قطّاعي الرؤوس السفلة والمغامرين الذين كانت تشرف بنفسها على تربيتهم بل وعلى رجال الفكر أيضاً " (الطبعة العربية ص ١٩١). ويبدو لنا أن هذا الوصف ينطبق على مجموع تركيبة الاستعمار الذي ضمت جيوشه نمطين من الرجال : القتلة والعلماء ، ولكل منهما ميدانه ومهمته. وقد اعتدنا منذ دخول الجيوش العثمانية إلى أراضينا وحتى آخر الغزوات الاستعمارية إنه ما إن تنتهي مهمة قطاعي الرؤوس المذكورين حتى تبدأ فترة استباحة الأراضي المنكوبة فتجمع الأيادي الماهرة والكنوز والنفائس والمخطوطات والتحف الفنية والأثرية والتماثيل والأعمدة والمنقوشات ... وتوجه في موكب عجيب يبدأ في أرضنا لينتهي في عواصم المحتلين . وكثيراً ما كانت العلاقات بين المحتلين – والتي تتقلب بين التناهش والتآزر – تنعكس على مصير التحف الأثرية . فمن الأمور ذات الدلالة أن مكتشفي حجر رشيد ، – مفتاح قراءة الهيروغليفية – كانوا جنوداً في الحملة الفرنسية على مصر يحفرون خنادقهم القتالية . أما وصوله إلى المتحف البريطاني بعيد اكتشافه فيعكس الصراع الانجليزي – الفرنسي على مصر ، وإصرار الإنكليز على سلب المهزومين الفرنسيين أسلابهم وقد عدّوا ذلك الحجر ، حسب تقريرهم " مفخرة أسلاب السلاح البريطاني الذي لم يؤخذ عن طريق نهب السكان العزل من السلاح ، بل عنوة في حرب شريفة" (ص٧١) . أما حجر حماة- مفتاح قراءة الحثية – فله قصة مختلفة تكشف التعاون الاستعماري . فلقد لفت ذلك الحجر أنظار رحالة ألماني قديم كتب عنه ثم أنظار القنصل الأمريكي وأخيراً أنظار صبحي باشا حاكم سورية. والكلمة لمؤلف الكتاب " فلما سمع بقصة الحجر رأى أن يتجه إليه بنفسه فدعا القنصل البريطاني في دمشق كوربي غرين والمبشر الإيرلندي ويليام رايت ليرافقاه في زيارته فوجدوا ذلك الحجر وعثروا على أربعة أحجار أخرى... وكان الكاهن ويليام رايت والحاكم يعرفان سلفاً أن الحجر لن يقدم لهما طوعاً . ولكن ما معنى أن يكون صبحي باشا حاكماً ؟ وما جدوى وجود العسكر لديه إذن ؟ وأخيراً أحيطت ساحة العمل بعدد من الحرس " الجيدي التسليح ونزعت الأحجار." (ص ٢٣٨ – ٢٣٩) ثم نقلت إلى استامبول ونقلت نسخها إلى المتحف البريطاني .

وتتصل كشوفات ما بين النهرين مباشرة بالغزو الاستعماري الإنجليزي . أما رولينسون الذي ساهم في قراءة الفارسية القديمة وكان له إسهامه في عدد من المذابح الاستعمارية في أفغانستان وسواها .والتنقيبات عن أوغاريت وجبيل جرت في فترة تسمى بالانتداب الفرنسي وقد زحف القارئون المبشرون على جزيرة الصيام " بعد أن أوصلت الإبادة الجماعية سكان هذه الجزيرة إلى ما يقل عن مئتي شخص " (ص٤٩٢) وهو ما يعوّق حل رموز كتابتهم حتى الآن .

وقد لا يكون ثمة جديد في كل ما ذكرناه فالآلية الاستعمارية أخضعت لذاتها كل النشاطات ومن ذلك النشاط الاستشراقي الذي لقي تطوراً واسعاً في ظل الاستعمار . وقد أغنانا كتاب"الاستشراق" لأدوارد سعيد و " لفق تسد " لرنا قباني عن البحث في هذا الإرتباط الوثيق بين الاستعمار والاستشراق ، وبيَّنا الآفاق الواسعة التي كان النشاط الاستعماري يفتحها أمام المستشرفين ، كما أكد ذلك كتاب دوبلهوفر أيضاً وزاد عليه بتصويره الارتباط بين الدراسات اللاهوتية وهذا النشاط ، خاصة وأن دراسة اللاهوت كانت بطبيعتها تدفع إلى دراسة اللغات الشرقية. ومهما يكن من أمر فإن أي استعراض لتاريخ الاستعمار لا بد وأن يمر بلوحات أولئك " الجنود المجهولين" الذي ساروا في ركابه واجتمع بينهم الرحالة والعالم الكبير والمبشر والمغامر ووحدت بين هؤلاء جميعاً مظاهر البراءة والورع الديني والاهتمامات العلمية بينما كانت ثمار أعمالهم تظهر في هيئات مجلدات من المذكرات والخرائط والجرود والإخباريات والمنشورات السياسية والعسكرية التي كانت ذات فائدة كبرى بالنسبة لواضعي الخطط العسكرية.

أما التراكم المعرفي الذي أشرنا إليه فنقصد به ذلك التحشّد الكمي الكبير لمختلف أنواع المعرفة- واللغويات من بينها - والذي أدى إلى تحول نوعي في مختلف ميادين العلم وإلى ظهور مناهج جديدة في الدراسة أدت في مجموعها إلى ما نسميه بالثورة العلمية التي نشهد آثارها اليوم. وبفضل ذلك التراكم تمكن العلماء من استنباط وتطبيق منهج علمي جديد هو المنهج المقارن الذي ترك أثره في مختلف العلوم ، فظهر جدول مندلييف للعناصر وأفاد داروين من تطبيقات ذلك المنهج في كتابه أصل الأنواع وجرى تطبيقه بشكل ناجح في الدراسات الإنسانية فظهر "التشريح المقارن " و" علم الأديان المقارن " و" الأدب المقارن" كما طبق في ميدان تاريخ الكتابة وما اتخذته من صور وتراكيب لدى مختلف الشعوب عبر التاريخ فحقق أكبر نجاح في قراءة الرموز .

ومن المتفق عليه أن الكتابة نقلة للإنسان من الهمجية إلى مرحلة الحضارة مكنته من نقل تجاربه إلى الأجيال التالة التي أفادت من هذه التجربة ورفدتها بإسهامها لتورثها إلى من يأتي بعدها. ولدينا في الوقت الحاضر ما يقارب الأربعمئة نمط من أنماط الكتابة ، والذي يهمنا في موضوع اليوم هو معرفة المراحل التي مرت بها الكتابة وساعدت على فهم عملية تفكيك الرموز المكتوبة فيما بعد . أما المرحلة الأولى مما يمكن أن نسميه التدوين فتمت باستعمال الأشياء كالكيبو [1] وصولجانات الرسل والشرائط ذات العقد والفامبوم والمسابح وما سوى ذلك.



الشكل رقم (١)

١- البيركا:

٢- ٣- الكيبو : ويمثل الجزء الرئيسي منه حبلاً ثخيناً أو غصن شجرة تثبت إليه مختلف العقد والربطات ليرمز كل منها بشكله أو لونه إلى معنى أو شيء أو عدد أو تاريخ معين . وكانت البيضاء تعني السلم والحمراء للحرب والصفراء للذهب والخضراء للذرة،وكان لقبائل الآنكا أشكال مختلفة لمناسبات الحرب والقضاء والضرائب والاحتفالات،وهناك عدد من العقد والخيوط المربوطة في كل واحد منها وفيها الحمراء والزرقاء والخضراء والبيضاء، إذ كان الهنود الحمر يتحصلون على عدد كبير من المعاني بواسطة التبديل المستمر للعقد وألوانها .



الشكل رقم (٢)

[1] الكيبو والخيوط والشرائط ذات العقد " – خيط متين عزّز بخيوط أخرى ذات عقد . والمعنى الدلالي " للكتابة " فيه يرتبط بألوان الخيوط وعدد العقد مثلما يرتبط بتوضع الخيوط ونمط تشابكها مع الخيط الرئيسي.

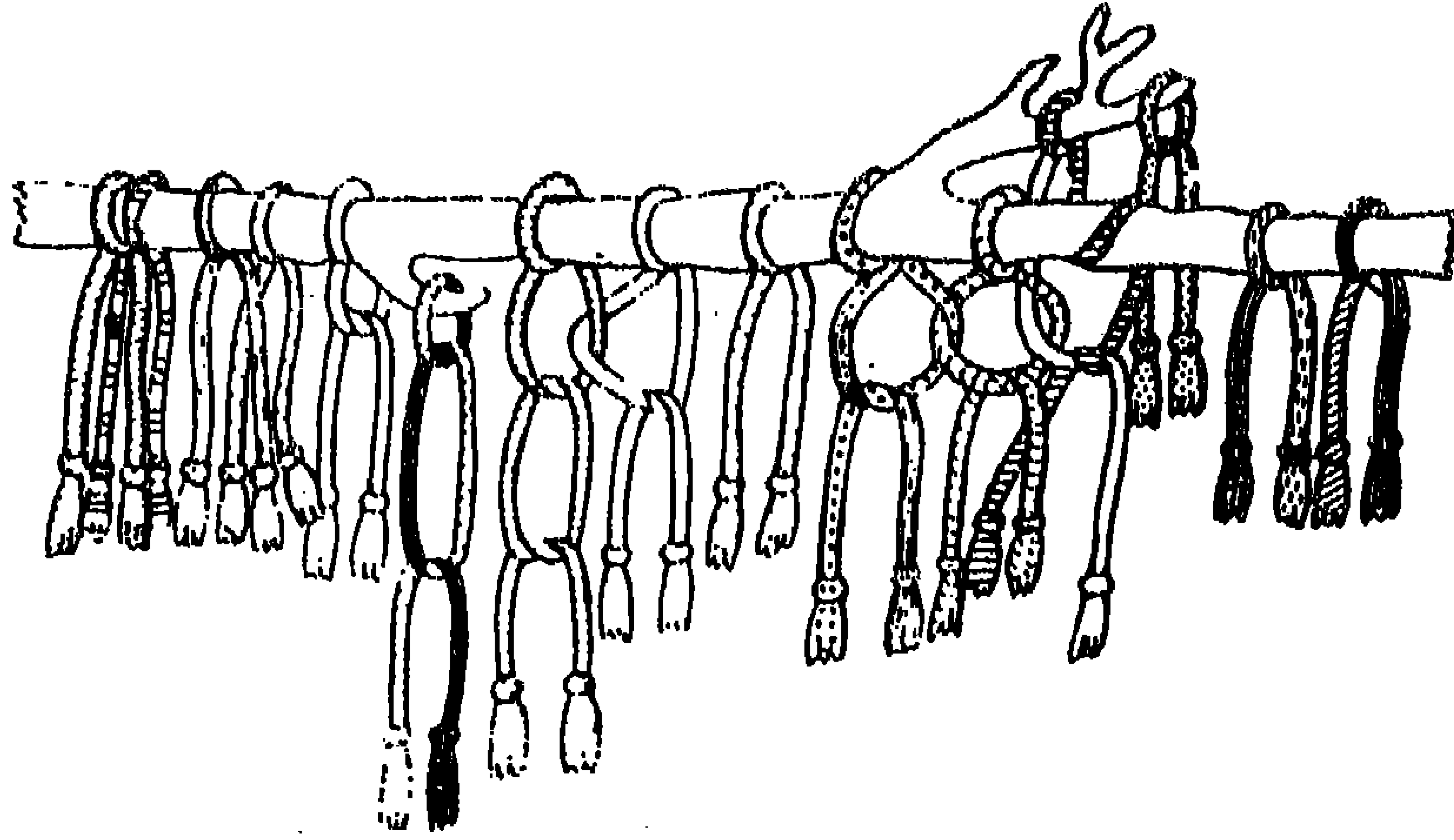
صولجانات الرسل : عصي تحز فوقها إشارات وخطوط مختلفة تذكر حامليها بالمهام التي يعهد بها إليهم.وطبيعتها .

الفامبوم أو حزام الفامبوم: أربعة أو خمسة حبال دقيقة رتبت إلى جانب بعضها وعشقت بها أصداف متعددة الألوان مثقوبة في وسطها، يحمل كل لون منها معنى خاصاً (الأسود للخطر الأحمر للحرب ، الأبيض للسلم)، ويجري تبادلها بين القبائل .

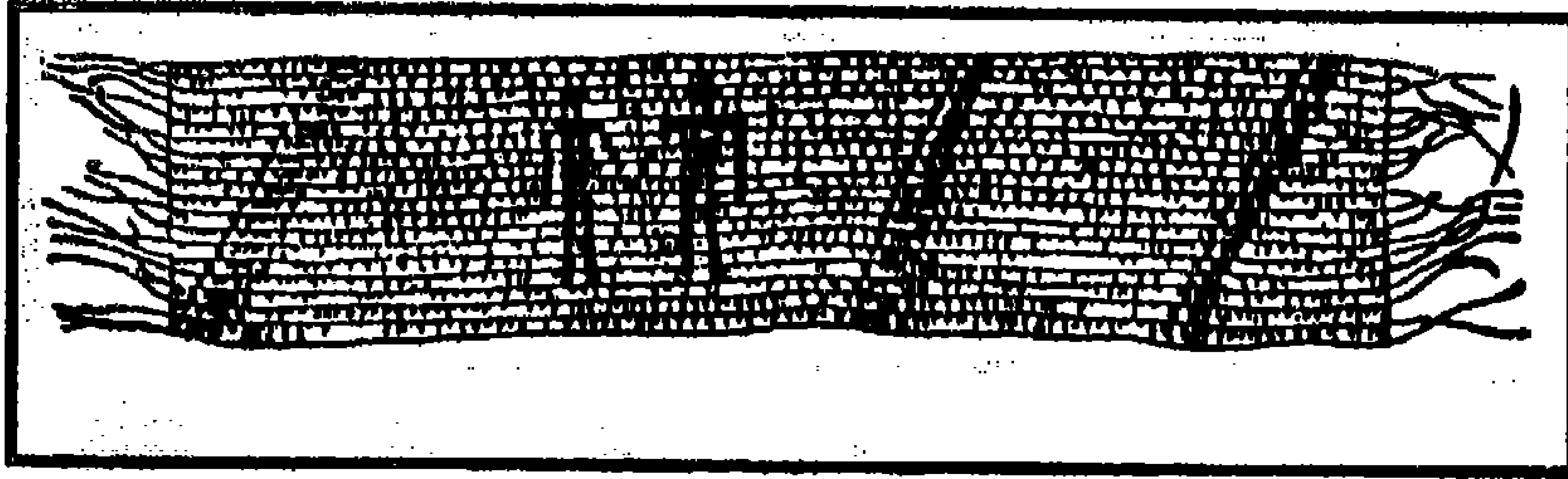
المسابح : وتتعلق بخاصة بفرض الصلاة وأعداد التسابيح وما إلى ذلك .

البيركا : لوحة خشبية تحز فوقها خطوط ثم تشطر شطرين يحتفظ كل من الجانبين المتعاملين بأحدهما .

الشكل ٢-٣ الكيبو : ويمثل الجزء الرئيسي منه حبلاً ثخيناً أو غصن شجرة تثبت إليه



٤-فامبوم بين : قدمته إحدى القبائل الهندية إلى ويليام بين، مؤسس بنسلفانيا سنة ١٦٨٢ والفامبوم أبيض اللون يظهر في وسطه شخصان أسودا اللون يمثل الأيسر منهما هندياً يقدّم يده لأوروبي (يعتمر قبعة) ويمثل الفامبوم الاتحاد الودي بين بين والقبيلة.

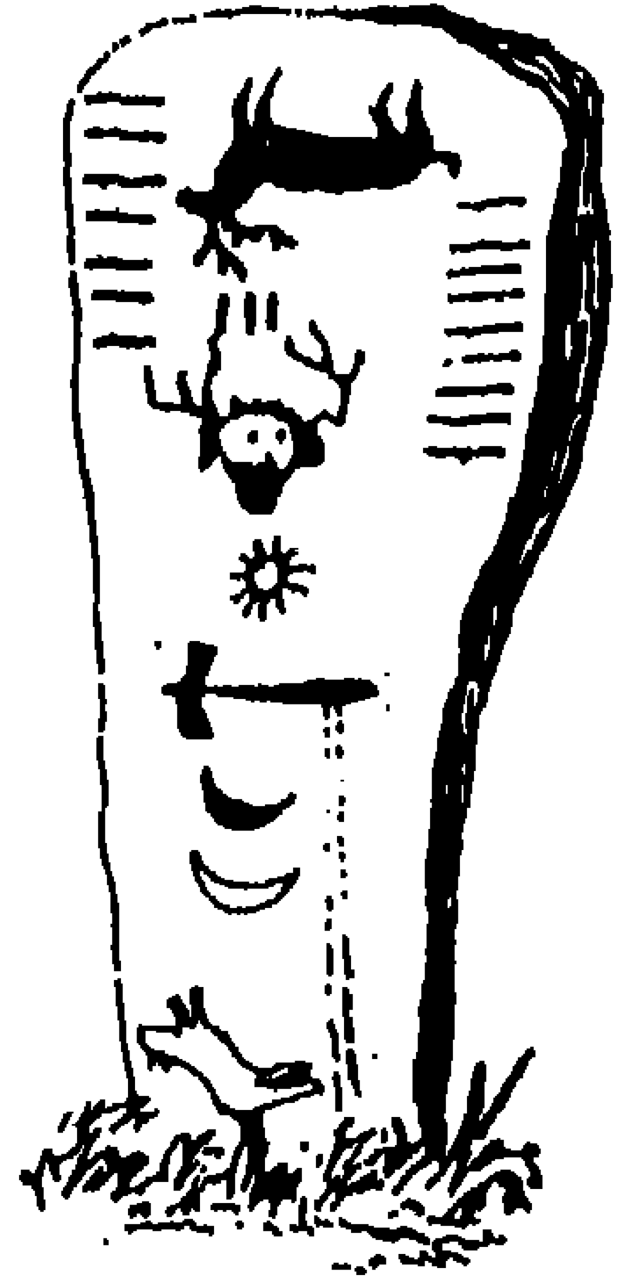


الشكل رقم (٤)

ومن أطرف هذا النوع من الإخباريات " رسالة " يذكر هيرودوت أن الصقالبة وجهوها إلى داريوس،وكانت مؤلفة من عصفور وفأر وضفدع وخمسة سهام فكان معناها:"إذا كنتم أيها الفرس،لن تطيروا في السماء كالعصافير،ولن تختبئوا في الأرض كالفئران،ولن تقفزوا في البحيرات كالضفادع فلا عودة لكم إلى بلادكم لأنكم ستسقطون صرعى هذه السهام" (ص٢٥-٢٦).

هذه المرحلة التي يمكن تسميتها بمرحلة التراسل بالأشياء تليها مرحلة نسميها " الكتابة التصويرية " وهي تختلط بالكتابة الأولى وتقدّم عليها خطوة واحدة نحو التجريد .

إذ بدئ فيها باستخدام صورة ترمز مباشرة إلى الشيء المصوَّر. فالدائرة المرسومة وحولها الأشعة هي الشمس والخط المتموّج يعني الماء والشكل ذو الرأس والذراعين هو الإنسان وهكذا . ومن أطرف أشكال الكتابة البيكتوغرافية ما نجده لدى بعض قبائل الهنود الحمر:



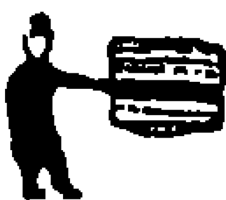
الشكل رقم (٥)

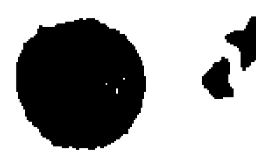
٥- مدونةبيكتوغرافية وضعت شاهداً على قبر قائد من الهنود الحمر . وتقول المدونة إن القائد واسمه "الوعل" قد خاض سبع حملات عسكرية وتسع معارك ، ولكنه قتل بضربة فأس في معركة دامت ليلتين.

وهذه الكتابة لا ترتبط بالطبع بأصوات اللغة المدونة ويمكن لكل طرف أن يقرأها بلغته ومع ذلك فإنها لم تقتصر على "استعمال" القبيلة الواحدة بل كتبت بها بعض المراسلات الدولية ، ومن ذلك عريضة تقدمت بها سبع قبائل إلى الكونغرس للسماح لتلك القبائل بالصيد في البحيرات الأربع .

الشكل ٦- الحيوانات السبعة المرسومة ترمز إلى القبائل الهندية السبع ويتقدمها البجع (إلى اليمين). الخطوط التي تربط قلوب الحيوانات تعبر عن الرأي المجمع عليه بين القبائل ووحدة تقديم الطلب الجماعي . أما الخط المنطلق من عين البجع نحو البحيرات الأربع بعد مروره فوق الحيوانات فهو الرغبة المشتركة لدى







١٩٠٠: ١ ثلاثون من الداكوتا قتلوا على أيدي هنود قبيلة الغراب .





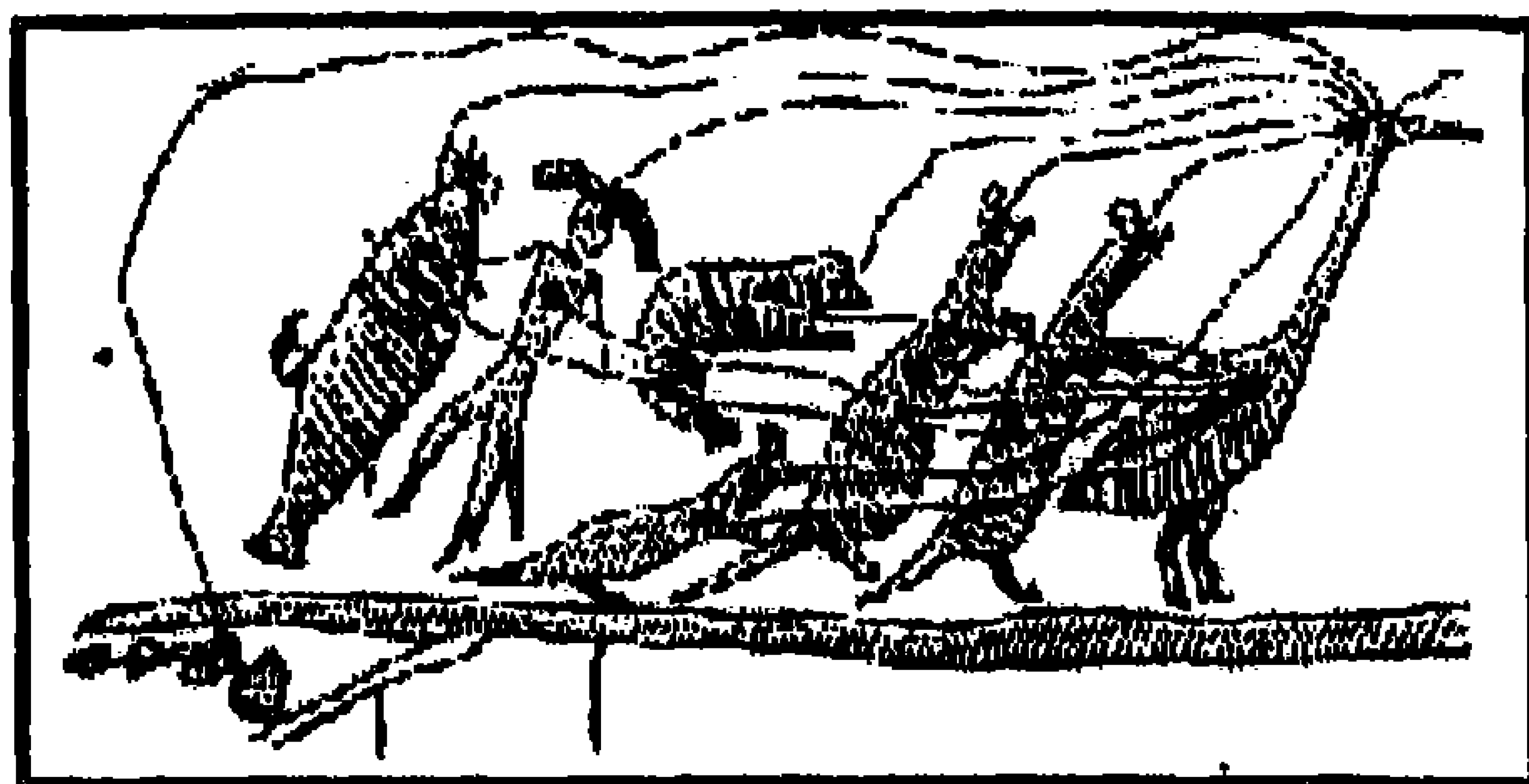
الشكل رقم (٦)

صورة منفصلة من "جرد فصول الشتاء "العائد لقبيلة "الكلب لمنفرد"

الجميع بالتمتع بحق الصيد في تلك البحيرات . الخط المنطلق إلى الأعلى والأمام من عين البجع – يعني أنه يرفع نظره بثقة إلى الكونغرس بانتظار الرد الإيجابي.

وتعد الكتابة الايديوغرافية مرحلة تالية بالنسبة للبيكتوغرافية (التصويرية) وإن اتفقت معها في انعدام ارتباط أصواتها بأصوات اللغة المدونة ، لكنها تتقدم عليها في التجريد . فالدائرة المشعة لم تعد تعبيراً مباشراً عن الشمس بل قد تعني الحرارة ، الدفء

وصورة شيخ يعتمد على عكاز صارت تعني الشيخوخة ، وإناء يرشح منه الماء صـــــارت تعني البارد... وهكذا .



الشكل رقم (٧)
الطلب الذي وجهته القبائل الهندية السبع إلى كونغرس الولايات المتحدة الأمريكية.

اعتمدت البيكتوغرافية والايديوغرافية - إذا عددناهما كتابتين لا واحدة- على الرمز المصوَّر وعبّرتا عن الحياة في مفاهيمها المباشرة الأولى وابتعدتا عن تدوين المفاهيم المجـــرّدة . (ومن أطرف ما يعرضه الباحثون هذه الصورة الرمز للخصومة الزوجية من خلال هـــــذه الايديوغراما:
وسادة تفصل بين زوجين أدار كل منهما ظهره للآخر).

لكن أطرف ما يستوقفنا في تاريخ هذه المرحلة الكتابية التحولُ الشديد الذي يطـــرأ على الصورة عند تحولها من الرسم المباشر إلى شكل جديد بفعل الاسفينات المضغوطة.

يد
طائر　نجم　سمكة

الشكل رقم (٨)
تطور الكتابة السّومرية من الرموز التصويرية القديمة نحو المسمارية .

أما المرحلة الأهم للانتقال إلى الكتابة الجادة فبدأت عندما صارت الكلمة (أي المكـــافئ اللفظي للصورة المرسومة (ترتبط ارتباطاً لا ينفصم مع الرمز المرسوم ، وهذا ما نســـميه اشتراطاً بالصّوّتنة أو صوتنة الرمز ، بحيث صار الرمز المرسوم تعبيراً عن جميع المفردات التي تلفظ لفظاً واحداً . كأن يرسم خال على الخد فيعني الخال ويعني الخال أخ الوالـــدة - وأن ترسم الأفعى لتعني (حية) و(ذات حياة) وترسم العجلة لتعني (العجلـــة - الـــدولاب) وتعني السرعة. وكان ذلك منطلقاً إلى كتابة جديدة تسمى المقطعية وقد ارتبط كل رمـــز فيها بلفظ يمكن أن يستخدم حتى في التعبير عن مقطع من كلمة ثنائية أو ثلاثية أو رباعيـــة المقاطع. كأن نعبر عن كلمة محتاج برسم يمثل (مح) البيضة وآخر يمثل تاجاً: مح + تـــاج = محتاج.

والكتابة بالكلمة - اللفظية كانت أساس الانتقال إلى مرحلة تالية من الكتابة فـــإذا كانت اللغة تتضمن عدداً كبيراً من الكلمات الوحيدة المقطع ، أو إذا كـــانت كلماتُـــها المتعددة المقاطع بسيطة المبنى سَهُل الانتقال إلى الكتابة المقطعية (مثل كتابة كاتـــا كانـــا اليابانية التي قامت على أساس الكلمات - الرموز الصينية ونجد هذا النمط في الحبشية أيضاً وفي الكتابة الكريتية - القبرصية .

أما أجدادنا الساميون فانتقلوا من الكلمة - الرمز إلى نوع كتابي آخر أكثر تطـــوراً وذالك بأن فصلوا الصوت الاستهلالي للكلمة الرمز عن الكلمة نفسها وصاروا يكتبونهـــا كلها تعبيراً عن هذا الصوت الاستهلالي فقط.فمـــن رمـــز ⊏ . بيـــت جـــاء حرف(ب)ومن رمز ⊂⊃ (دَي- يَدْ) المصرية جاء حرف (د) وبهذا ظهر ما نسميه الاكروقونيا (التي نستخدمها في الاتصال الهاتفي أحياناً - كأن أنطق حلـــب بـــالأحرف الاستهلالية حامد ، ليلى، بشار) وقد بدأت الكتابة الأبجدية في الساحل السوري ومصر ثم انتقلت إلى مختلف شعوب العالم .

أما المواد التي كتب عليها الإنسان فكانت الحجر والجلـــود (الـــرق) والخشـــب والصفائح المعدنية والعظام وقشور الأشجار .. والـــورق وكتبـــوا بـــالريش والقصـــب وبالإزميل والمطرقة أيضاً. ونوعية المواد المستعملة تفسر أسباب اختفاء بعض الكتابـــات . لكن ما يجب الإشارة إليه هو أن الكتابات القديمة - الأيديوغرافية والمقطعية ، والأبجديـــة أيضاً لم توجد صافية صفاء تاماً في يوم من الأيام . وقد تعلم القارئون شيئاً فشـــيئاً إنهـــم يتعاملون مع نصوص تجمع ضروباً من الكتابة في وقت واحد. وكانت كل كتابة تســـاعد

على قراءة كتابة أخرى وبخاصة في منطقة ما بين النهرين حيث كان يُبقى على الايدوغراما – الرمز في صيغة تشكيلة واحدة ويقرأ في مختلف اللغات بألفاظ مختلفة . كما أن القرن التاسع عشر ضاعف من وتيرة التراكم المعرفي ومن خبرات القارئين ، وهو ما سرّع في إنجاز عمليات القراءة نفسها، فبينما بقيت بعض الكتابات أسيرة التساؤلات عشرات القرون (كالمصرية) لم تستغرق قراءة الحثية إلا أقل من مئة سنة بينما قرئت الأبجدية الفينيقية (المسمارية والهيروغليفية) في أقل من ستة أشهر .

على أن ما دونه دوبلهوفر في كتابه ما كان له أن يتحقق لولا توفر العنصر البشري الذي استحق هذه المعجزات عن جدارة. ومهما كانت نظرتنا إلى العهود الاستعمارية التي أشرنا إليها فلا يمكننا إلا أن ننظر بكثير من الإكبار إلى الاستعدادات الكبرى التي تميّز بها العلماء قبل أن يواجهوا الرقم الكتابية القديمة وإلى ما قدمته لهم السلطات من تسهيلات حتى حققوا مآثرهم . ولعل معجزهم الأولى جميعاً هي الخلفيةالمعرفية الواسعة التي دخلوا بها عالم اللغات. كان كل منهم يعرف أعداداً من اللغات وعندما كانت قناعة أحدهم توصله إلى ضرورة معرفة المزيد كان لا يتردد في تعلم مجموعة جديدة من اللغات بدءاً من حروفها الأولى. يضاف إلى هذا أنهم كانوا مدفوعين بصدق إلى كشف أستار المجهول متشوقين إلى الترحل والاكتشاف واختراق حجب الزمان والمكان..

فلنستعرض مصائر مجموعة– ولوقليلة– من هؤلاء العلماء لنؤكد ماتزودوا به من علوم وما كان يضطرم في قلوبهم من حب المعرفة.

فرانسوا شامبليون (١٧٩٠–١٨٣٢). حياته الشخصية برهان على تكريس الذات من أجل الغاية العلمية التي سعى إليها . ولد في بلدة بجنوب فرانسا بوجه شرقي " وحتى قرنية عين الصغير كانت ميالة إلى الاصفرار على نحو ما هو الحال لدى ابن الشرق الأصيل". نشأ بين الكتب، وبدأ يكتب وهو في الخامسة من عمره . تعلم اليونانية واللاتينية صغيراً واستظهر هوميروس وفرجيلوس وكان في الحادية عشر من عمره عندما تعلم العبرية القديمة ، وكان أخوه الأكبر ومرشده جان جوزيف يحضر له دورية Caurier de l'Egypt إلى أنه التقى بمحررها العالم الرياضي فورييه الذي أطلع الغلام على ما بحوزته من الآثار المصرية فاشتعل في أعماقه ، وإلى الأبد ، حب مصر ، وكان في الثانية عشرة من عمره عندما قبض عليه " متلبساً بجريمته وقد اتخذ مكانه في غرفة أخيه ونشر حوله ركاماً عالياً من جذاذات كان قد اقتطفها من كتب جان جوزيف ، وهي تلك الأماكن التي

تتحدث عن مصر القديمة في كتب هيرودوت وسترابون وديودوروس وبلينوس وبلوتــارك وسرعان ما تغلب الأخ على الحزن سببه ذلك التصرّف الوحشي إزاء كتبه الأثيرة فــأثنى على شقيقه الأصغر لاهتمامه بالبحث المنهجي" (ص٨٦-٨٧) .وما هو إلا القليل حـــتى شرع الصغير بتعلم العربية والسريانية والخلوية ثم تعرف في غرونوبل على راهب بدأ يعلمه القبطية ، وكان حتى ذلك الحين قد عشق مصر وبدأ بكتابة أول أعماله العلمية بعنـــوان " مصر في عهد الفراعنه" وفي سنة ١٨٠٧ قرأ تقريـــره ذاك أمـــام الأكاديميـــة العلميـــة في غرونوبل . فلنستمع إلى ما جرى آنذاك :" وكانت إمارات الشك فالارتيــــاب فحـــب الاستطلاع على وجوه العلماء المستمعين عندما مَثَل ذلك الفتى ذو الستةَ عشَـــــرَ ربيعــاً أمامهم ليقدم تقريره حول باكورة أعماله العلمية ، لكنه عندمـــا أنهـــى تقريـــره هـــب رينولدون، رئيس الأكاديمية ، واقفاً من مكانه ، وبلهجة مفخّمة رحّب بدخوله ســـرب العلماء المشرف قائلاً " إن الأكاديمية تقبلكم بكل فخر عضواً من أعضائها رغم حداثـــة سنكم ، وتكون بهذا قد نظرتْ بعين التقدير إلى ما قمتم به لكنها تضع في اعتبارها ، وهو ما يعد الشيء الأهم ، ما سوف تقومون به ! إن الأكاديمية لتشعر بالغبطة وهي تفكـــر في أنكم ستحققون الآمال المعقودة وأنكم ، إذا ما حملت أعمالكم إليكـــم الأمجـــاد في ذات يوم، ستذكرون ذلك التشجيع الأول الذي لقيتموه منها بـــالذات "(ص٨٨) . ثم ســـافر شامبليون إلى باريس حيث تعرف إلى سيلفستردي ساسي وهناك واصل دراسة العربيـــــة والسنسكريتية والسريانية والخلدية وبصفة خاصة القبطية . ومن كلماته هناك : " لقد بدل اللفظ العربي صوتي بالكلية ... ابن صوّا تلقاني بالأمس على أنـــني عـــربي وراح يغمـــرني بسلاماته التي كنت أرد عليها بمثلها فراح ينشر علي تحياته التي لا نهاية لها ...)

في قراءة الأسفينية الفارسية نلتقي بأسماء عديدة من بينها اسم كامبغير من مواليـــد ليمغو في وستفاليا . درس اللاتينية ثم ذهب إلى هولندة ولونبورغ ولوبيك طلباً للعلم واتجه بعد ذلك إلى دارنزيغ فكراكوف ففرصوفيا ثم انصرف إلى دراســـة العلـــوم الطبيعيـــة في كينغيبرغ . سافر بعد ذلك إلى السويد فوجهه ملكها كارل الحادي عشر في ســـفارة إلى إيران عبر روسيا. انطلقت البعثة سنة ١٦٨٣ وبعد فترة وجيزة كان كامبغير يســـجل أول وأطرف وصف لعبدة النار وهم يصلون لها بالقرب من باكو . في سنة ١٦٨٤ وصلـــت البعثة إلى اصفهان حيث تعلم الفارسية ثم دخل في خدمة شركة الهند الغربية فأوفدتـــه إلى شيراز فمر ببيرسيبول ، واستغرقت عودته بعد ذلك إلى امستردام عشرة أعوام عبر خلالهـــا

بلاد العرب فالهند فسيام ... فاليابان ! أما ناسخ اسفينات بيهستون وأول من حاول قراءتها فهو هنري رولينسون من ايلنغ ، هيأت له مزاياه الجسدية قبولاً في شركة الهند الغربية وهو في السادسة عشرة ، وبعد سنة كان في الهند يدرس العربية والفارسية والهندوستاني وقـــد صار مترجماً في بومباي وحفظ مقطوعات مطولة من قصائد كبار شعراء الفرس ، أسندت إليه بعض المهام التجسسية فنهض بها بكفاءة نادرة جعلت المسؤولين يوجهونه بعد ذلـــك إلى إيران مستشاراً لأخ الشاه، وفي سنة ١٨٣٩ يصبح العميـــل السياســـي لبريطانيـــا في قندهار بأفغانستان ويشارك سنة ١٨٤٢ في حروب قندهار وغزنة ويؤثر عنه انه قطع مـــرة ٧٥٠ ميلاً (١٢٠٠ك.م) في غضون ١٥٠ ساعة ليحذر الانكليز في طهران مـــن قـــدوم العميل الروسي إلى هراة ،أما مساعده العلمي في لندن البروفيسور أيدوين نوريس فتعلـــم الأرمنية وعدداً من اللغات القريبة منها بالإضافة إلى عدد من اللغات الأوروبية قبل أن يبلغ العشرين ، وعندما التحق بشركة الهند المذكورة تعلم اللغات الهنديـــة والأفريقيـــةولغات البولونيز ثم عكف على دراسة الفارسية القديمة (تلقّى منقوشة بالمسمارية مرسلة من طرف رولينسون فلفت نظر المرسِل إلى سقوط سطر منها) ، أما اللغات الافريقية فلم يكن مطلعاً فقط على عدد منها بل وكان يتكلمها بطلاقة.

جورج سميث – أحد أشهر قارئي بابلية ما بين النهرين. ولـــد في أســـرة فقـــيرة بضواحي لندن وتعلم الطرق على النحاس وهو ما هيأ له وظيفة ناقش لوحـــات الكتابـــة المسمارية التي كانت تتوارد من بلاد العرب ثم أصبح فنان ترميم في المتحف البريطـاني . لم يطل به الوقت حتى تعلم قراءة الرقم الآشورية وساهم في حل رمـــوز الكتابـــة المقطعيـــة القبرصية ، وكان أول من التفت سنة ١٨٧٢ إلى طرافة النصوص الـــتي تتـــوارد لتذكـــر بأحداث غريبة كان قد قرأ عنها في الكتاب المقدس حول الطوفان. ثم تبين أنها أســـطورة جلجاميش المكتوبة قبل التوراة وكانت ترد من تل نمرود بالعراق.ســـافر جورج سميـــث إلـــى هناك ثلاث مرات وفي الأخيرة توفي بمنـــزل القنصل البريطـــاني في حلـــب ســـنة ١٨٧٦ عن ستة وثلاثين عاماً من العمر .

أرتشيبالو هنري سايس (الوالِي لا الإنكليزي حسبما كان يؤكـــد) بـــدأ يقـــرأ هوميروس وفرجيل وهو في العاشرة من عمره.

وفي الثامنة عشرة كان قد تعلم العبرية القديمة والقبطية والفارسية والسنســـكريت وصار أستاذاً في جامعة أوكسفورد . وكانت حياته سبيلاً إلى توسيع معارفه. فهو مـــرة

يقف والماء يغمره حتى وسطه في نفق بالقرب من القدس ليستنسخ إشارات السري الكنعانية، وبعد عام واحد نجده يتسلق هضاب الجزيرة العربية ليستنسخ الكتابات المحزوزة فوق صخورها ... وهو في سنوات تالية يجوب جزر المحيط الهادي ليدرس حضارة البولونيز، كما اجتذبته حضارات جاوه وجزر بورتينو بنفس المستوى الذي اجتذبته به ديانات غينيا البدائية ، كما أن البوذية اليابانية ودخول المسيحية إلى الصين على أيدي النساطرة كانت مما يشغل اهتماماته. كان آخر سؤال طرحه قبيل وفاته عن عمر يناهز الثامنة والثمانين هو - متى يقوم فيرولو باصدارنصوص جديدة من رأس الشمرة.

هانس باوير الذي كان مقيماً في زحلة يستقبل نصوص رأس الشمرة المسمارية.ولد سنة ١٨٧٨ ، درس الفلسفة واللاهوت والعلوم الطبيعية واللغات ثم أخذ في دراسة اللغات الشرقية في برلين وفي سنة ١٩١٢ نال لقب أستاذ . كان يتمتع بقدرة متطورة على تكوين التراكيب الذهنية وتلمس العمليات الحياتية التي تجري داخل اللغة وهو ما يرتبط بميله نحو الرياضيات . كان واسع الإطلاع على علوم الفلك والحيوان والطب وعد خبيراً في فلسفة العصور الوسطى. تعلم جميع اللغات السامية الرئيسية (وهو ما لا يفلح فيه اليوم إلا عدد قليل من العلماء) كما كان يقرأ بجميع اللغات الأوربية تقريباً ، كما ودرس الصينية ولغات الملايو والكورية وهو ما منحه امتيازات خاصة في ميدان الدراسات المقارنة وذاك كله يفسر قراءته لكتابة رأس الشمرة في فترة لا تكاد تصدّق.

ويلهيلم بترتومسون (١٨٤٢-١٩٢٧) قارئ الكتابات الرونية القديمة على نهر اليينيسي بسيبيريا. بدأ بدراسة اللاهوت ثم انصرف إلى دراسة اللغات فبدأ بالفيلولوجيا السكاندينافية فالفلندية ثم سافر إلى لا يبزيغ وبرلين وبراغ فدرس السلافية ثم العربية فالبولونية والمجرية فالغجرية وانصرف بعد ذلك إلى دراسة الصينية واليابانية والتاميلية فاللغات التركية . وفي سنة ١٨٨٧ كان أستاذ قسم اللغات المقارن في جامعة كوبنهاغن.

تلك هي نوعية بعض الشخصيات التي ساهمت في قراءة الرموز القديمة ونوعية الخلفية المعرفية التي أهّلت أصحابها لدخول عالم القراءات الصعب المليء بالعثرات . ومع كل ذلك كانت الرموز المطروحة للقارئ تتحدى التراكمات المعرفية وما يتسم به العلماء من ثقافة متلونة واسعة ومن حماسة صادقة إلى العمل . وقد فرضت كل كتابة تحدياتها الخاصة فكان من الضروري استنباط منهج خاص بكل قراءة. " والمراحل التمهيدية" لكل قراءة للرقم كانت تعتمد أحياناً عشرات السنين وكان قطع كل مرحلة فيها بعد انتصاراً

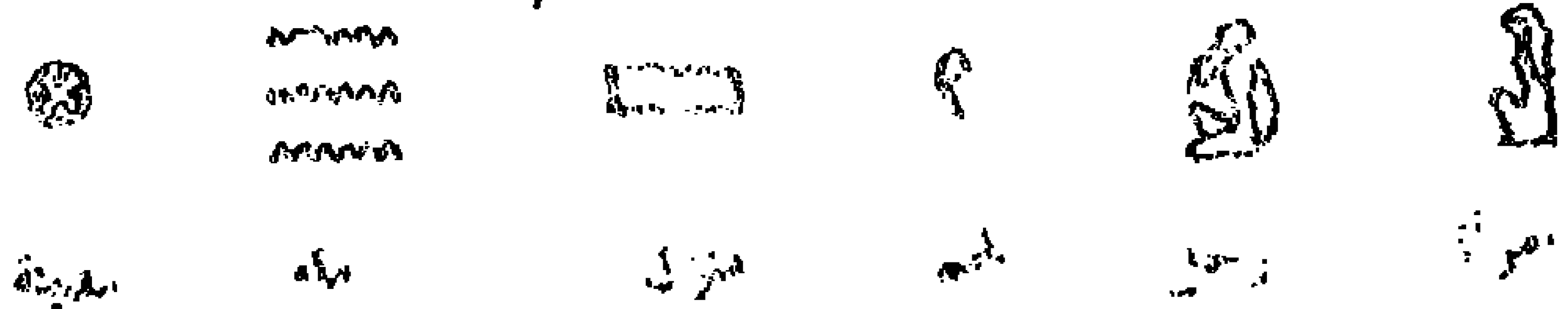
علمياً في حد ذاته . كان لا بد من البرهنة على أن النقش المطروح للقراءة ليس مجرد نقش جمالي فني بل كتابة تحوي نصاً إخبارياً ذا مضمون . ثم يتم الانتقال بعد ذلك للتعرف على اتجاه الكتابة ـ أتجري بطريق عمودي أم أفقي من اليمين إلى اليسار أم على العكس ، مـا نمط الكتابة ، ما الأسرة اللغوية المحتملة التي ينتمي إليها النص المخطوط ، فتحديد الأسرة يؤدي إلى التفاؤل بالحصول على السواكن فقط (إذا كانت اللغة من الساميات) أو الحروف الصائتة والساكنة (كما في الهند أوروبيات) وكانت هذه القضايا ومـا شابهها تستغرق مناقشات طويلة بين العلماء وقد تؤدي إلى عقد المؤتمر العلمي العام .

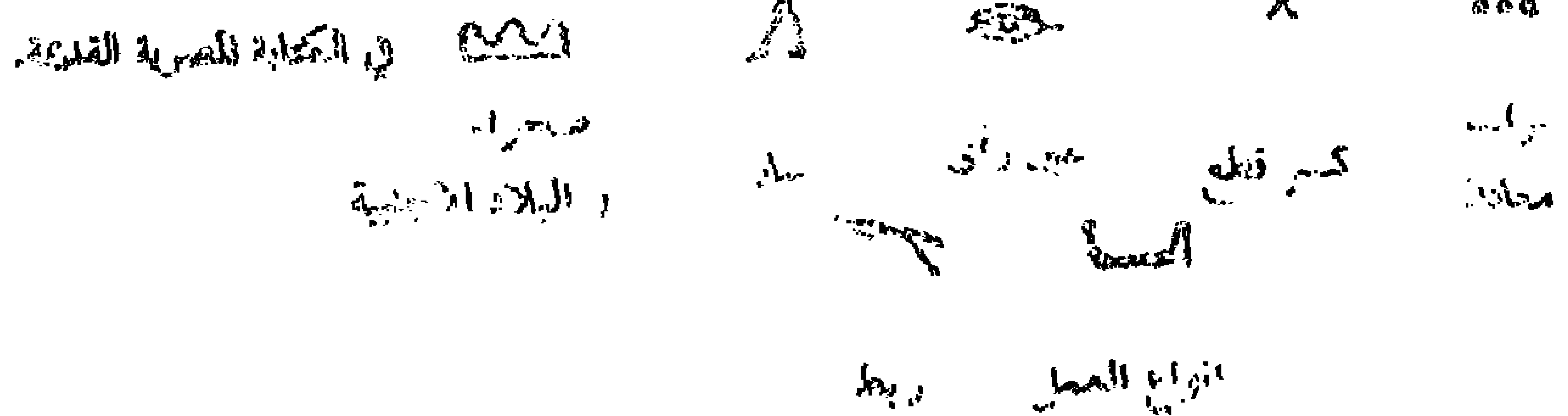
بعد الاطمئنان إلى الافتراض وإثباته تبدأ مرحلة تمهيدية ثانية وأهم ما فيها تحديد الفواصل بين المفردات إذا وجدت . ففي كثير من النصوص نجد الفواصل مرسومة بخط عمودي وفي نصوص أخرى تظهر في صورة إسفين وحيد مائل أو نجدها على هيئة | كما في الكتابة الحثية:



الشكل رقم (٩) مدونة هيروغليفية من كركميش لا حظ الفواصل بين المفردات |

يصار بعد ذلك إلى تحديد نقطة أساسية وهي : ـ هل تتضمن الكتابة مـا أسماه شامبليون ذات يوم بالمحددات Determinatives? . وقد كانت هذه الرموز التوضيحية الـتي توضع إلى جانب المفردات معيناً على فهم الكتابة.





الشكل رقم (١٠) بعض المحددات في الكتابة المصرية القديمة.

الكلمات الوحيدة الحرف لـِ ، بـِ ، كـ الخ ... واتخذ ذلك أهمية خارقة بالنسبة لقراءة مسمارية أوغاريت .

وقد يجري البحث عن السوابق واللواحق بالنسبة للمفردات وعن أحرف العطف أوكثيراً ما يجري البحث عن مفردات ذات خصوصية معينة فأسماء الملوك في المصرية القديمة كانت تحاط بإطارات ، كما يلاحظ تكرار الألقاب الملكية في مطالع الرسائل والمعاهدات والمراسيم الملكية ، وقد يتكرر اسم بعض الآلهة ، فقد تكررت كلمة ثلاثية الأحرف سبع مرات في نقش من رأس الشمرة .

وكان القارئ باوير قد خمّن قراءة حرفي ب و ل فافترض وجود اسم الآله بعل في الكلمة المتكررة وبذلك نجح في اكتشاف حرف العين.

كما أخذ العلماء بعين الاعتبار إخباريات الأقدمين التي ساعدت على تصوير الجو العام للنصوص . ونقوش حجر حماة أثارت فرضية وجود شعب هناك ورد اسمه في التوراة تحت اسم الحثيين وهم الذين اشترى منهم ابراهيم أرضاً ليدفن زوجته . كما كانت إخباريات هيرودوت ذات أثر خارق العادة في قراءة الفارسية القديمة أما المعلومات المتعلقة بتاريخ الصين وبالعلاقات البيزنطية- التركية فلعبت دورها في قراءة التركية الرونية القديمة التي بدت - بادئ الأمر - مستعصية على الحل .

الشكل رقم (١١) مقتطف من ثنائية قرة تيبي

أما ما كان دوماً ضالة القارئين و"فيصل"لقراءات،وحلم العلماء فهو مـــا نســميه بـــ(الثنائية) أو النص المكتوب بلغتين (أو بأكثر). فالثنائية قدمت للقارئين عوناً لا يقـدر بثمن إذ حسمت مشكلة قراءة الهيروغليفية المصرية وساعدت على التثبت مـن صـواب القراءة السابقة ومطابقتها الواقع كما حدث بالنسبة لقراءة الحثية الـتي بقيـت موضـع الشكوك والهواجس إلى أن عثر في الأناضول على نهر تنجان في منطقة أصلان ضاش على ثنائية تجمع بين الكتابتين الحثية والفينيقية سميت بـــ(ثنائية قرة تيبي) .

يطول بنا الحديث إذا ما أردنا تناول الكتابات الثماني التي جعلها المؤلف موضـوع دراسته واستقراء الخطوات التي سارت عليها كل من القراءات وما ساهم به كـل مـن القارئين ... ولهذا نتوقف عند أهم هذه القراءات - بالنسبة لنا - وتلمس المنهج الذي سار عليه القارئون حتى استنطقوا تلك الرقم - الأحاجي ، ونتوقف بالذات عند أهم الخطوات التي أزالت حجر العثرة الأساسي فانهار صرح الكتابة من بعده أو شارف على الانهيار .

١ - الكتابة المصرية : كان هيرودوت أول من تحدث إلى الغــرب بكتابـة المصريين وحروفهم المقدسة ، إلا أنه - على عكس عادته - كان ضنيناً في وصفه لها ، ولم يزد بلورتارك وكليمنت الاسكندراني (صاحب تعبير الهيروغليفات- أي الرموز المقدسـة المنقوشة) بأكثر تفصيلاً من هيرودوت. وفي سنة ٣٩٠ وضع غور أبولون اليوناني كتابـاً عن الهيروغليفات كان من أشد ما ضلل العلماء بتفاسيره العجيبة للرموز، فالصقر يعـني (الأم) لأن جنس الصقور لا يضم- في رأيه - غير الإناث ، والإوزة تعين (الإبــن) لأن الإوز شديد الحنو على أبنائه وهكذا ...

بعد ألف سنة من ذلك وجّه الكاهن أفاناسي كيرخير عام ١٦٢٨ مـن إحـدى المقاطعات الألمانية إلى روما ، وفي إحدى مكتباتها الكنسية عثر على مجلد مزيّـن برسـوم جميلة جداً هي الحروف الهيروغليفية على عدد من المسلات المصرية، وحاول قراءتها ، وقد نشر قاموساً في القبطية وكتاباً في قواعدها وكان أول من نبه إلى أن معرفة القبطية عنصـر أساسي لمعرفة المصرية القديمة . وبقيت الهيروغليفات منبعاً يستمد منه العلمــاء مختلـف ضروب المعرفة السحرية و الغيبية والفلكية بل والإرشادات الزراعية ومقاطع من الكتـاب المقدس ومن أدب ما قبل الطوفان، وفي سنة ١٧٦١- ١٧٦٢ توقف كارسـتن نيبـور ، أحد مؤسسي دراسة الاسفينية ، في القاهرة ونسخ كثيراً من الهيروغليفات وكان من أوائل من أشاروا إلى محدودية أعدادها مؤكداً أن كل كلمة في المصرية تختص برمزها الخاص .

أما حجر رشيد الذي تم العثور عليه في ٢ آب من آخر سنوات القرن الثامن عشر فكان قطعة من البازلت الأسود رقشت بكتابات ثلاث أعلاها الهيروغليفية فالديموطيقية فاليونانية، وتتضمن مرسوماً صدر في الـ ٢٧ من أيار سنة ١٩٦ ق.م يقر فيه سدنة منفيس بمضاعفة فروض الولاء التي تقدَّم في المعابد المصرية للملك وأحفاده ، وذلك اعترافاً بالأعمال الخيرة التي قدمها الملك بطليموس الخامس ايبيفان.

وكان الفرنسيون قد نقلوا الحجر إلى المعهد المصري الذي اسسه نابليون في القاهرة وبدأ العلماء الفرنسيون بإعداد صور نقوشه وإرسالها إلى فرنسا قبل أن يستولي عليها الإنجليز . واطلع المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي على نقوش الحجر فحدد في الشطر الديموطيقي مجموعة أسماء وردت في الشطر اليوناني ومنها بطليموس والاسكندرية وايبيفان ، واعترف بعجزه عن القراءة ، فسلم نسخة الحجر إلى عالم الآثار السويدي دافيد أوكيربلاد الذي استطاع أن يستخرج كل الأسماء الواردة في النص الديموطيقي ، كما اكتشف كلمة معبد بالقبطية وكلمة (وينين) اليونان ، لكنه أحس بخيبة أمل كبيرة عندما قابله سلفستر دي ساسي برفض مطلق لنتائجه وكان سبب ذلك إحساسه بالغيرة من نجاح العالم السويدي . وهكذا توقف الاهتمام بالحجر حتى عام ١٨١٤ إذ دخل ضمن اهتمامات العالم الإنجليزي الشهير توماس يونغ(١٧٧٣-١٨٢٩) ، عالم الطبيعيات الذي كشف المظاهر الأساسية للرؤية وحدّد قانون التداخل الضوئي وأسس علم البصريات الحديث ، وكان ممن لا يتوقفون بشيء حتى نهايته (راودته مرة فكرة الرقص على الحبال فظل يتدرب عليها حتى أتقنها وصار يرقص على حبل مشدود) . وقد أكمل يونغ طريق أو كيربلاد فقسم النص الديموطيقي ، بل والهيروغليفي أيضاً إلى كلمات منفصلة رأى أنها تطابق المفردات اليونانية ، ونشر ذلك باسم مستعار كي لا يسيء إلى سمعته العلمية . وعلى الرغم من عدم توفر المعرفة الفيلولوجية لدى يونغ فإنه يذهلنا بما توصل إليه من نتائج : فقد بين التطابق بين الرموز الهيروغليفية والديموطيقية ، وهو ما يعني أن الثانية اختصار للأولى - وحدد معاني بعض الرموز الهيروغليفية وإن لم يطرح مكافآتها اللفظية ، وقال بأن القطعة المتبقية من النص الهيروغليفي لابد وأن تتضمن اسماً من الأسماء الواردة في النص اليوناني وينبغي أن يكون محاطاً بإطار .

وفي سنة ١٨١٨ وضع يونغ فهرساً لـ ٢١٤ كلمة مكتوبة بالهيروغليفية وكان تحليله للربع منها صحيحاً ، كما أوشك أن يقرأ اسمي بطليموس وبيرنيكا بالشكل

الصحيح لولا أنه كان مصراً على البحث عن الحروف الصوتيـــة في هذيـــن الاسمـــين . والصوتيات لم تكن تكتب في المصرية كما هو معروف . وعلى الرغم من أن يونـــغ قـــد توقف عند عتبة القراءة فإنه لم يتجاوزها لأن الكتابة كانت بالنسبة لـــه " فرحـــة بضـــع ساعات من الفراغ " وكان يود أن يكتشف كنـــز المعارف الطبيعيّـــة الـــتي اعتقـــد أن فيثاغورث قد أخذ عنها، فلما وجدها تتحدث في غير ذلك غاضت رغبته نحوها.

في هذه الفترة كان شامبليون قد جاء إلى باريس وتعرف على سيلفستر دي ساسي ودرس العربية والقبطية وتعرف – وهو في السابعة عشرة من عمره – على حجر رشـــيد (سنة ١٨٠٨) ثم استدعي إلى غرونوبل لتدريس التاريخ وهناك تقدم إلى الأكاديمية بنظريتـــه في الكتابة المصرية ، ومؤداها أن المصريين كانوا يكتبون بالهيروغليفية والديموطيقيـــة وأن هناك كتابة ثالثة بينهما هي الهيراطيقية (كتابة الكهنة) ذلك أن مادة الكتابة (الانتقال من الحجر إلى البردي) أوجد تحريفاً شديداً في أشكالها.

وفي سنة ١٨١٣ انتبه شامبليون إلى أنه حيث يوجد ضمير هو أو ـــــه الغيبـــة في النص اليوناني كان يوجد رمز وما يماثله في الديموطيقية وهو مـــا

الهيروغليفات الديموطيقية

□ p ⌓ t ⟨o (wi) l (rw) m (mi)
i (jj) s (s)

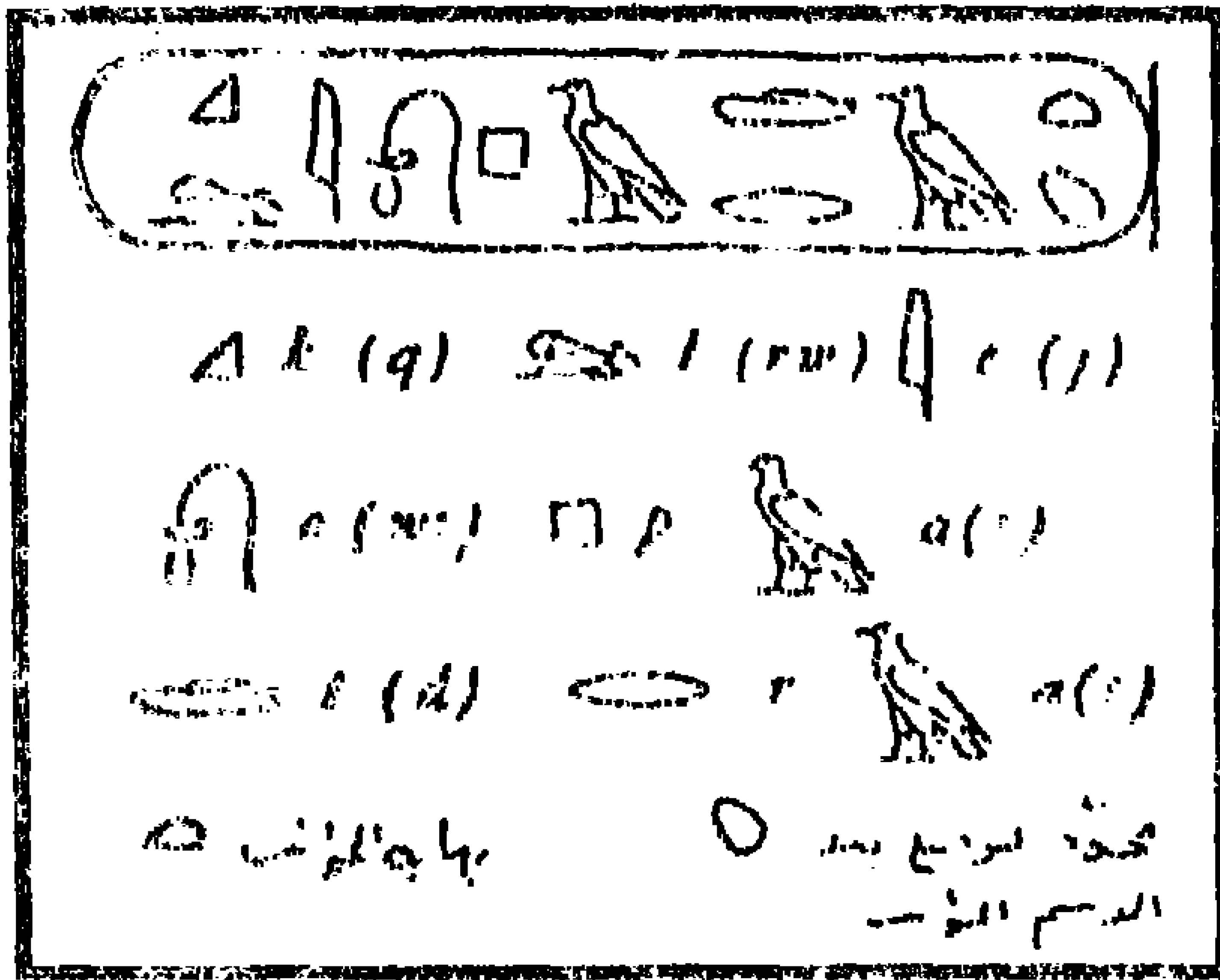
الشكل رقم (١٢)
تحليل اسم بطليموس وفق قراءة شامبليون. لاحظ أيضاً تبدل شكل الحرف بسبب الانتقـــال مـــن الكتابة على الحجر إلى الكتابة على البردي .

يسمى ضمير الشخص الثالث.واستغرقته بعد ذلك قراءة يونغ لاسم بطليموس ، وفي ســـنة ١٨٢١–وشامبليون لا يزال في غرونوبل – قام بخطوة جديدة وهامة وهي إحصاء عـــــدد رموز النص الهيروغليفي وجميع المفردات اليونانية المنقوشة علـــى الحجـــر فتبـــين لـــه أن الكلمات اليونانية الـــ ٤٨٦ تقابل ١٤١٩ هيروغليفاً وهذا يعني أن الهيروغليفات لا يمكـــن أن تكون رموزاً ولا إيديوغرامات ولا مقاطع بل هي حروف . فـــهو إذن أمـــام كتابـــة أبجدية. وتوقف شامبليون من جديد أمام اسم بطليموس المحاط في الهيروغليفية.

وكان شامبليون فيما سبق قد تعرف في إحدى البرديات علـــى اســـم كليوبـــاترة مكتوباً بالديموطيقية فراح يتخيل لنفسه كيفية كتابة هذا الاسم بالهيروغليفية والهيراطيقيـــة،

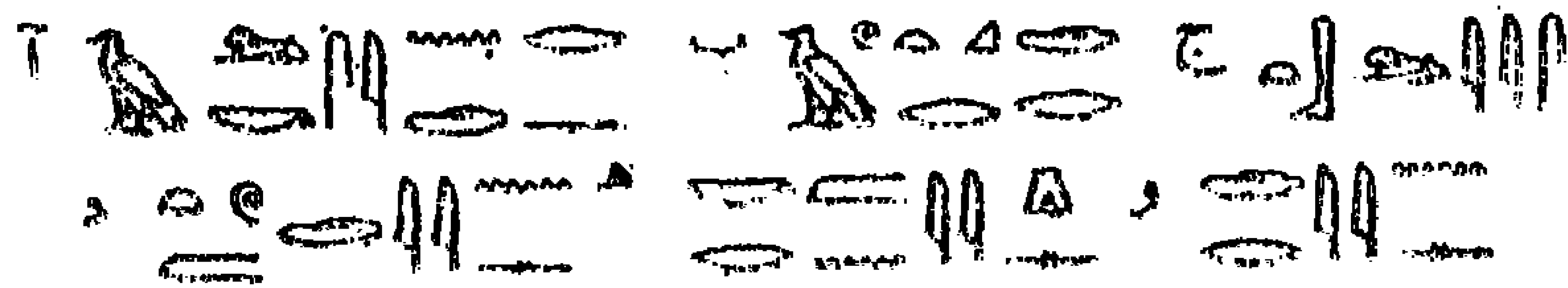
وكان في حاجة إلى التثبت من صحة ما توصل إليه برؤية الاسم مكتوباً بالهيروغليفية. وفي تلك الفترة كان ويليام جونس بينكس ، جامع التحف الانجليزي ، وصديق بايرون ، قد أرسل من مصر إلى لندن مسلة منقوشة بالهيروغليفية ، وبعد حين تبين له أن قاعدة المسلة منقوشة بكتابة يونانية وفيها اسم كليوباترة.

وعندما أرسلت صورة النقش الهيروغليفي للمسلة إلى باريس واطلع شامبليون على نسختها الليتوغرافية أصيب بالدهشة ممزوجة بالفرح فقد وجد أمامه الاسم الذي كان قد تدرب على كتابته كثيراً فثبتت نظريته.



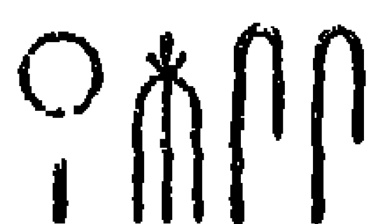
الشكل رقم (١٣)
المتضمن لاسم كليوباترة وتحليل هيروغليفاته

ومن ثم أخذ يتدرب على كتابة الأسماء الملكية التي وجدها في إطاراتها فنجح في قراءة أسماء الكساندر ، تيبيريوس ، دوميسيان ، هيرمانيك وتراجان مكتوبة في أطروحته آنذاك أن تكون الأسماء الأجنبية من العهود المتأخرة هي وحدها التي كتبت بالرموز اللفظية .



الشكل رقم (١٤) اسم الكسندر
(آ)لقب "الحاكم المطلق"(ب)تيبيريوس(ج)"دوميسيان(د)"هيرمانيك"(هـ)و"تراجان"ومكتوبة بالهيروغليفية(أوتوكراتور)

وأخذ شامبليون بعد ذلك يجمع الإطارات الملكية إلى أن تلقى طرداً أرسله إليه المهندس المعماري غويو الذي جاب مصر السفلى والنوبة ونسخ بدقة النقوش والرسوم النافرة التي تزين المعابد المصرية. وكم كانت فرحة العالم الشاب إذ عثر على الاسم النقيش رع مس . فالدائرة هي الآله رع (الشمس)، راعية النهار . ثم يصله اسم آخر ينتهي أيضاً بحرف الـ | س وينتهي برسم الطائر المقدس الذي يمثل الآله توت. وبذلك نقرأ اسم توت م س . وبهذا كله يتأكد لشامبليون صواب محاكماته ، فينطلق إلى أخيه ويبسط الأوراق أمامه صارخاً Je tiens L'affaire لقد نجحت !.. ويهوي بعد ذلك خائر القوى لمدة خمسة أيام استطاع بعدها أن يضع النظام الهيروغليفي للرموز ، فبين أن هناك ثلاثة أنماط منها : الكلمات الرموز (أي الايديوغرامات) والرموز اللفظية (أي الحروف) والرموز التوضيحية أي المحدّدات :



الشكل ١٥- الكتابة الهيروغليفية لاسم رمسيس

الشكل ١٦- الكتابة الهيروغليفية لاسم توتموس



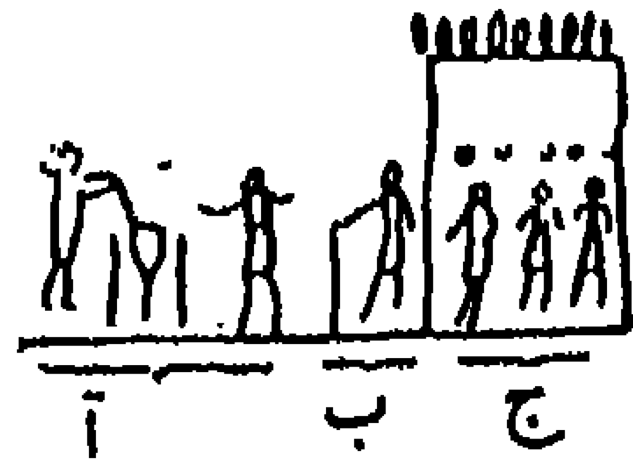
وبحل هذه الرموز ، ثم بتضافر جهود العلماء في كثير من بلدان العالم حلت رموز الكتابة المصرية القديمة وكشف الستار عن المدونات الكثيرة الفنية لدى الشعب المصري العريق.

سار	اكل	طار	ضرب
بكى	خطا	جذف	حارب

الشكل رقم (١٧)
هيروغليفات مصرية تعني أشياء ملموسة

عصفور	قرن	زرافة	عين	محارب
زاوية	جبل	الشمس	زهرة	جعل ودبور
خبز	محراث	قوس	صندل	ناي

الشكل رقم (١٨)



بنى (آ) كبير الموظفين (ب) قاعـة (ج) (الملك مينيس—حوالي ٣٥٠٠ ق.م).

الشكل رقم (١٩)
كتابة هيروغليفية مصرية.

بارد الشيخوخة عثر على الجنوب حمل حكم

الشكل ٢٠- هيروغليفيات مصرية كانت تعبر عن المفاهيم

الكتابة الفارسية القديمة : أول الأسماء التي وردت إلينا من دولة فارس القديمة هـو اسم داريوس الأول (٥٢٢- ٤٨٦ ق.م) الذي وسع حدود دولته من مصر القديمة وحتى نهر الإيند مضافاً إلى جزء كبير من الشريط الساحلي من جنوب شرق أوروبا، وقد تركت هذه الدولة آثاراً جبارة تثير الاحترام وهي في خرابها، ومن بينها آثار مدينة باركا كـارت (مدينة الفرس) التي يسميها الأوروبيون بيرسيبوليس وهي التي أحرقها الاسكندر سنة ٣٣١ ق.م وعلى بعد خمسة كيلو مترات منها تقع آثار تختي جمشيد(عـرش جمشـيد،وبقربها تشيخيل منار و أو الأربعين مئذنة- وهـي في حقيقتـها واجـهات قصـور داريـوس وكسيركس، وعلى أنقاض مدينة بيرسيبوليس أقيمت مدينة اصطخر التي فتحها العـرب ، وغير بعيد عن ذلك المكان تقوم صخرة نقشي رستم، وفي مكان شاهق الارتفاع نحتت في

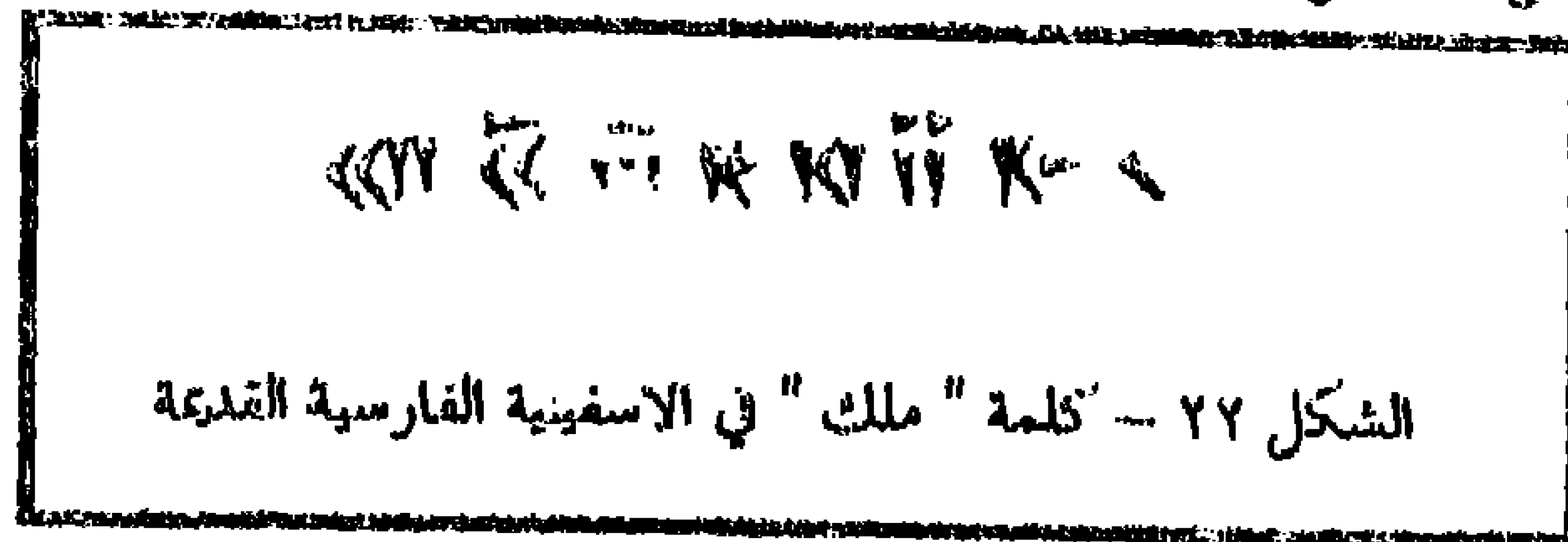
الصخرة قبور الاخمينيين الأربعة (داريوس الأول،كسيركس، أرتاكسيركس وداريوس الثاني) وعلى بعد خمسين كيلومتراً من بيرسيبوليس يقوم ضريح قوراش الثاني وتسميه الرواية الشعبية قبر أم سليمان.وكانت هذه الأوابد الأثرية تثير ذهول الرحالة المتفرجين وكان بيتر ودي لا فالي أول من عرض في أوربا نقشاً من كتابتها المسمارية سنة ١٦٢٦م .

ثم تقدم جان شاردان الفرنسي بوصف لنقشي رستم وأكد فيه على أننا أمام كتابات لا نقوش تزيينية ثم تقدم كامبغير بمدونة إسفينية كاملة وكان أول من سمى الكتابة بالإسفينية . ودخل الميدان من بعده الفرنسي دوبيرون.وكان لاهوتياً سافر إلى الهند فاتصل بآخر عبدة النار فيها، وبعد سبع سنوات (١٧٦١) عاد إلى بلاده يحمل كتاب الافستا في لغته الأصلية مع ترجمة إلى الفارسية الحديثة مرفوقاً بـ١٨٠ مخطوطاً آخر . وفي العام نفسه جهزت الدانمرك بعثة إلى بلاد الشرق شارط فيها كارستن نيبور الذي كان يتقن العربية. وقد قطعت البعثة مصر فسوريا ففلسطين فشبه جزيرة العرب فاليمن وهناك تعرضت لمحن كثيرة فلم يخرج منها حياً غير نيبور وطبيب الرحلة الذي لم يلبث أن توفي في بومباي . وبعد عام واحد كان نيبور يتأمل خرائب بيرسيبوليس وتختي جمشيد ويسجل رسومه ومخططاته الكثيرة . وفي مجموع النصوص المسمارية التي أرسلها إلى الدانمراك التفت العالم الألماني يتخسين ومن بعده العالم الدانمراكي مونتير في مقالته " دراسة في نقوش بيرسيبوليس"إلى أن النقوش تعود لكبار ملوك الفرس القدماء ، كما أشار إلى الاسفين المائل الذي نسميه الآن الفاصل بين الكلمات ⟨ كما التفت مونتير إلى كلمة من سبعة رموز تتردد كثيراً في المدونات فظنّها اسم علم ثم قرر أنها كلمة " ملك " ، وقد ثبتت صحة افتراضه فيما بعد . وعلى الرغم من أن مونتير لم يتبين معنى الكلمة الواردة بعد هذه الرموز فإن رؤيته كانت منطلقاً لقراءة غروتينفيد فيما بعد . كان غروتينفيد في السابعة والعشرين من عمره عندما أخذ منقوشتين متقاربتين في الشكل والصياغة تحتوي كل منهما مجموعة من الرموز:

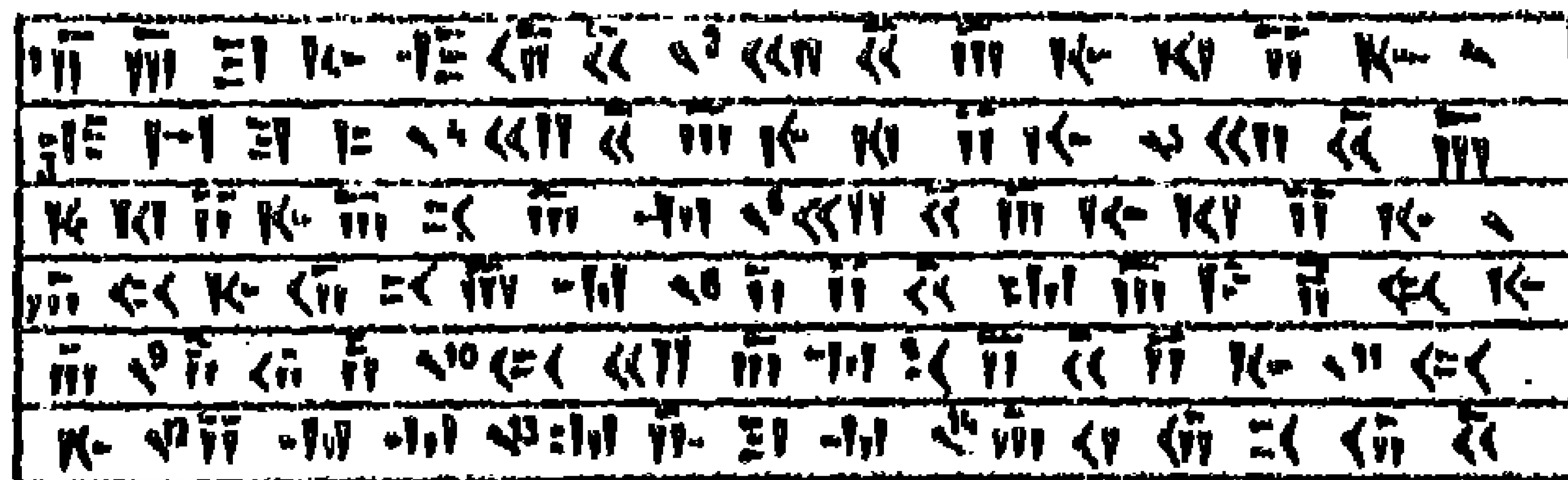
الشكل ٢١- رموز اسفينية نشرها بيتر وديلافالي.

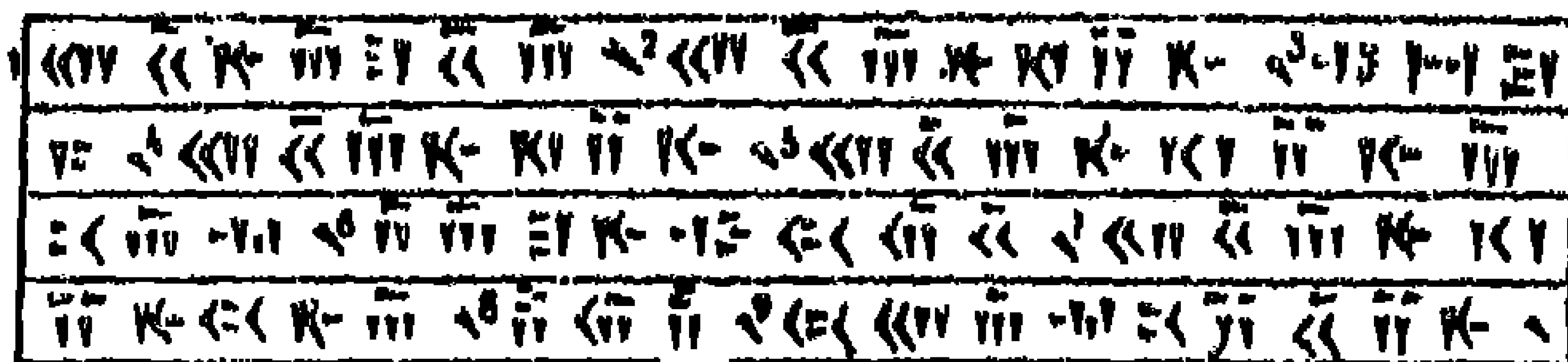
إذ دققنا النظر في المجموعتين وجدنا أن مجموعة الرموز السبعة السابقة (الشكل٢٢) ترد هنا في المجموعة العليا أمام الأرقام ٢،٤، ٦ وفي السفلي أمام الأرقام ٢،٤،٧، ووجدنا

أنها تعود إلى الظهور مرة أخرى في المجموعة ٥، وقد أضيفت إليها بضعة رموز أخرى فهذه الإضافة لابد وأن تكون نهاية كلمة الملوك... المأمولة.


الشكل ٢٢ – كلمة " ملك " في الاسفينية الفارسية القديمة

أيضاً ، الكلمة الأولى، رقم ١ من المدونة العليا ترد في المدونة العليا ترد في المدونة السفلى تحت رقم ٦ وقد أضيف إليها رمز وما دامت الكلمة ٩ قد جاءت قبل اللقب فلا شك أنها تحمل الاسم الملكي.

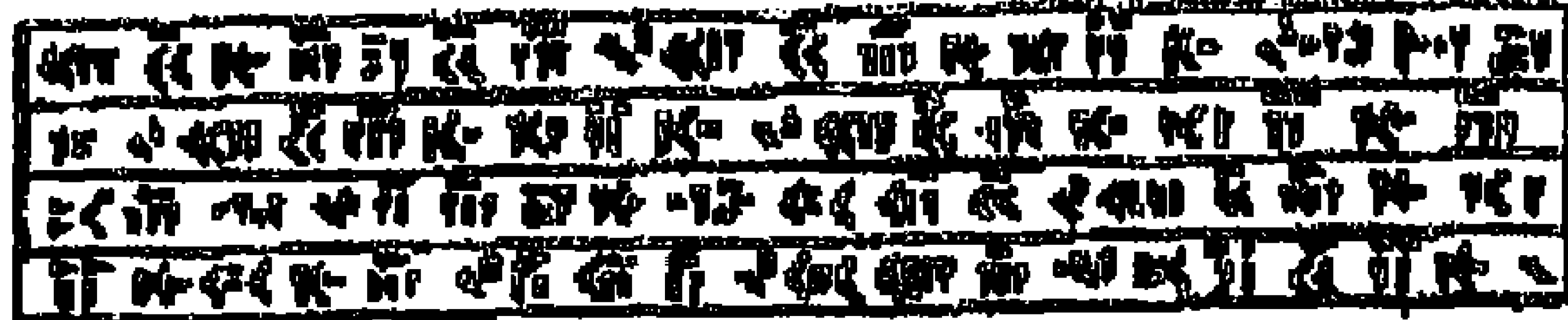


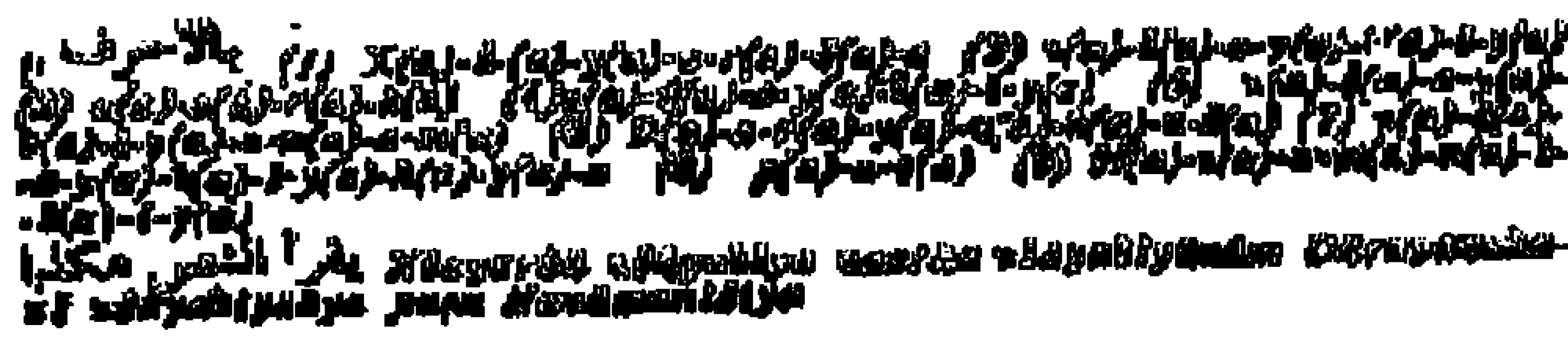

الشكل ٢٣ – نقوش بالفارسية القديمة لداريوس الأول وكسيركس.

لكنها عندما وردت في السفلى وقد عززت برمز جديد (وجاءت بعد لقب ملك الملوك) فالرمز الجديد هو رمز الإضافة لكلمة ستترد بعدها وهي ابن (رقم٨) وبذلك صارت المدونة السفلى تعني:"ع١ الملك٢ العظيم٣؟ ملك ٤ الملوك ٥ س ٦ الملك ٧ ابن٨ الأخيميني ٩ ؟" وصرنا هنا أمام من يكون ابن من ؟ أي من " س" ومن " ع" وهي تثبت فرضية ملك الملوك ؟ من أين له أن يتحقق من صحة فرضيته ويأتي باسمي س و ع . لقد أمسك بكتاب هيرودوت حيث يحاول أرتابان عم كسيركس أن يثني عزم ابن أخيه عن الخروج لحرب اليونانيين فيرد عليه ذلك بقوله: " أرتابان ، أنت شقيق والدي ، وهذا ما يقيك شر العقوبة التي تستحقها على كلامك المهين . ومع هذا سألحق بك العار كحقير وجبان بمنعك من مرافقتي إلى هيلادا . وستمكث هنا مع النساء ، بينما أقوم أنا بدونك بما اعتزمته. ما كنت ابن داريوس ، حفيد غستيبستاسب، وابن حفيد أرساميس وابن ابن حفيد أريامنا وسليل تيسبيس ، كسير وقمبيز ، تيسبيس وأخمينيد إذا لم أنتقم من الاثينيين "(ص١٦١).

من هذه القطعة يتوصل غروتينفيند إلى أن ع في المدونة الثانية ـ ابن ملك غـــير أن مجموعة الرموز في المدونة الأولى والتي يحتمل أن تعني ابن ـ رقم٩ـ لم ترد بعد كلمة ملـك ! وهذا يعني أن س كان ملكاً لكن لم يكن ابن ملك بخلاف ع ، والاسمان يتخذان طـولاً واحداً تقريباً إلا أنهما يبدآن برمزين مختلفين.

وهكذا، وبناء على معطيات التاريخ يكون ع هو كسيركس وس ـ داريـوس الأول الذي لم يكـــن أبوه غيستاســـب ملكاً . أما النـص فيقرأ ويـــترجم هكذا





الشكل رقم (٢٤)

" كسيركس ، الملك العظيم . ملك الملوك . داريوس الملك . ابن . الاخيميني " .

وزاد العالم الداغركي راسك فأضاف تحديد آـ ن ام ، نهاية حالة الإضافة للجمع في لقب ملك الملوك . ولما كان كتاب هيرودوت قد تضمن نصـــاً عـــن داريوس يأمر فيه بأن يُركز على شاطئي البوسفور عمودان من المرمر الأبيض تنقش علـــى أحدهما بالآشورية وعلى الآخر بالهيلينية أسماء جميع الشعوب التي رافقته في حملتـــه علـــى اليونان فقد توقف البروفيسور النروجي كريستيان لاسين أمام هذه الأخبارية وافـترض أن المدونة يجب أن تكون مدونة في نصوص بيرسيبوليس فراح يعيد النظر في النســـخ الـــتي أرسلها نيبور من هناك حتى عثر على مدونة تضم ٢٤ اسم علم كـــانت عونـــه علـــى استخلاص ٢٣ رمزاً من الابجدية الفارسية فقرأ ١٩ اسم علم من الأسماء المنقوشـــة كمـــا تمكن من كتابة الصوتي a الذي لا يلفظ في الفارسية القديمة مستقلاً بل هو (كالفتحـــة في العربية) مرتبط بالسواكن.

أما المرحلة الثانية في قراءة الفارسية القديمة فكانت بعد العثور على نقش بيهســـتون الشهير. ففي حوالي القرن السابع ق.م قسمت الامبراطورية الفارسية إلى شرقية وغربيـــة .واستلم قوراش الجزء الغربي وتمكن حفيده قوراش الثاني (ابن قمبيز) من الاستيلاء علـــى ليديا وبابل وأوغل في سيره حتى استولى على مصر فاغتنم الكاهن غاوماتا فرصـــة غيابـــه

الطويل فنصّب نفسه ملكاً على إيران وبابل فسارع قمبيز بالعودة ولقي حتفه في سوريا سنة ٥٢١ ق.م وكان سبعة من أمراء الفرس قد وقفوا ضد غاوماتا وعلى راسهم داريوس الأكبر فقضى على غاوماتا وعلى غيره من الطامعين في العرش ودوّن انتصاره على " الملوك الدجالين" في مدونة بيهستون التي كتبت بالفارسية القديمة وبالعيلامية والبابلية . وقد استطاع رولينسون أن يسجل المدونة وقد ظهر فيها داريوس وهو يبسط يده اليمنى نحو أهورامزدا - قرص الشمس المجنح ويعتمد بيسراه على قوسه ويدوس بقدمه غاوماتا بينما ظهر الملوك الدجالون وقد قيدت أيديهم وطوقت أعناقهم بحبل . وتمكن رولينسون منذ البداية أن يفرز مجموعة من الرموز الدالة على الأسماء : بارثا ، أرشاما ، أريارامنا ، كشيشبيس . سواها . فكأن الملك المجيد قد استبق بثاقب نظره المصاعب التي ستعترض قارئي رموز كتابته فراح يعدد الأسماء التي يحتاج إليها القارئون في مطلع المدونة الخالدة.

يقول دارايافاوش الملك . أنا دارايافاوش. الملك المجيد . ملك الملوك. ملك فارس . ملك البلدان . وابن فيشتاسبا . حفيد أرشاما . الأخيميني . يقول داريافاوش الملك. أبي فيشتاسبا . أب فيشتاسبا - أرشاما . وأب أرشاما - أريارامنا . وأب أريارامناتشيشبيش . وأب تشبيشبيش - أخيمين . لهذا نلقب بالاخيمينيين . معروفين وُلدنا منذ عهد الآباء . منذ عهد الآباء كان جنسنا جنس الملوك " (ص١٨٠ - ١٨١) .

وشيئاً بعد شيء تجمعت وبصورة تدريجية اللوحة الواضحة للكتابة الفارسية المسمارية القديمة التي كانت منطلقاً للأبجدية الفارسية نفسها.

الكتابة البابلية الآشورية: صار معلوماً اليوم أن الأبجدية الفارسية هي صورة متأخرة لكتابة أقدم منها بكثير وهي البابلية - الآشورية (والتي تعرف عموماً بالأكادية) وقد اتخذت هذه الكتابة صورتين : الغربية ، وهي التي ستكون مدار حديثنا والشرقية وهي التي انبسطت في الجنوب الغربي من إيران وعاصمتها سوس ، وهي الكتابة العيلامية التي أخذ الفرس أبجديتهم عنها. وقد صارت إعلانات الدولة الفارسية تكتب باللغات الثلاث بعد استيلاء كير الثاني على بابل سنة ٥٣٩ ق.م.

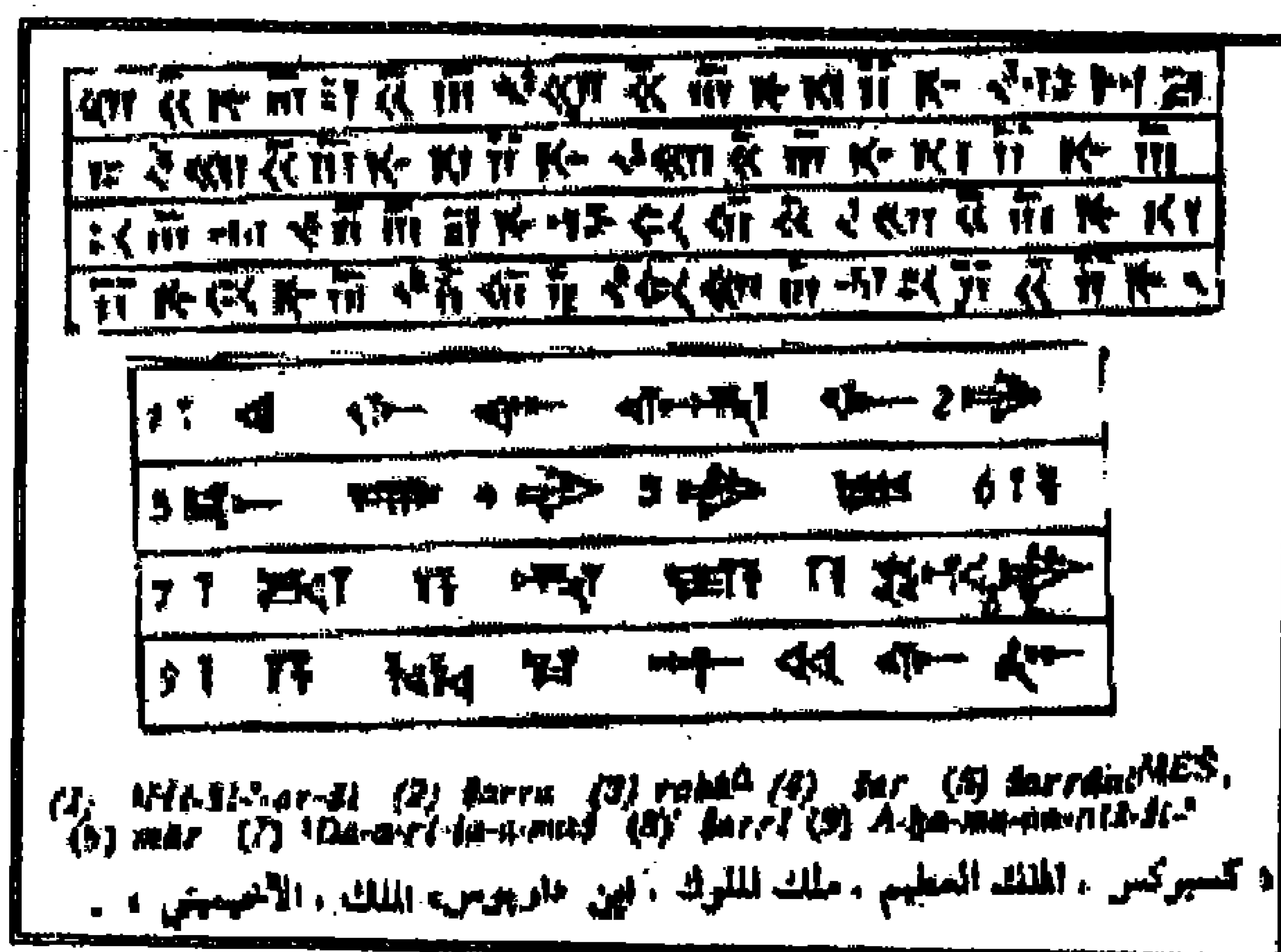
وعندما سجلت نقوش بيهستون بدأ العلماء محاولتهم لقراءة اللغتين الثانية والثالثة بعد الفارسية وانتبهوا إلى الطابع المقطعي للعيلامية إذ اكتشفوا فيها ١١١ رمزاً مستقلاً ، هذا ما يبعدها بطبيعتها عن الأبجدية .

أما الكتابة الثالثة – التي ما كانت تحوي حتى فاصلاً بين الكلمات فحدَّد غروتيينفيند مُحَدِّداً اسم العلم المذكر ويرد قبل الاسم في صورة اسفين عمودي وفي سنة ١٨٤٣ توجه الدانمركي ويستيرهارد إلى إيران لاستنساخ النقوش عن ضريح داريوس فاستوقفت نظره أسماء البلدان المنقوشة على تلك الصخرة، وكان العالم الإنجليزي نوريّس قد أصدر الصيغة العيلامية من منقوشة بيهستون فاكتشف فيها ٩٠ اسم علم . ومن مقاطع هذه الأسماء سجل نوريس القسم الأعظم من رموز المقطيعة العيلامية التي لم تجر قراءتها بصفة نهائية حتى الآن ، وفي ١٨٣٩ وبعد مصرع الرحالة كلاوديوس ريتش نشرت أرملته مذكراته وما نسخه من منقوشات فانكب المستشرق الفرنسي يوليوس مول على قراءتها ليخرج بنتيجة مفاجئة وهي أن ريتش قد اكتشف نينوى . فأنفذت الحكومة الفرنسية بول بوتا إلى الموصل نائباً للقنصل وكلفته بجمع المواد الأثرية، فكان هو الذي اكتشف في خورسوباد قصر الملك سرجون الثاني الآشوري . وفي الوقت نفسه سافر الانجليزي هنري أوستين ليّرد ليكشف في نمرود عن قصر آخر من قصور الآشوريين ، ومن هذين القصرين بدأت اللوحات والنصوص تتوافد إلى أوروبا .

وفي ذلك الحين كان رولينسون قد أعلن يأسه من التوصل إلى أي قراءة لنصوص هذه الكتابة الجديدة وبخاصة بعد أن تبينت ضخامة الرموز فيها والتي تجاوزت الـ ٥٠٠ رمز.

في سنة ١٨٤٦ عكف السويدي ليفنستيرني على القسم البابلي من المدونة التي حملت الشهرة إلى غروتينفيند وهي :

نلاحظ أن كلمة " ملك " الفارسية (الأرقام ٢،٤، ٥،٧) في الأعلى يقابلها رسم واحد في البابلية (رقم ٢،٤،٥،٨)أما ابن (رقم٨ في الأعلى) فيقابله(رقم ٦) في الأسفل. وهذا حدد ليفنستيرني



الشكل رقم (٢٥)

رمز" ملك " وابن " وافترض أن تكون الكتابة الآشورية ايديوغرافية في مجموعها. لكـــن أهي أيديوغرافية حقاً ؟ وعلى الرغم من أن الباحث قد عكف على دراسة العبرية القديمـة والسريانية علهما تسعفانه بشيء في قراءة البابلية فإن ذلك لم يوصله إلى النتيجة المرجوة.

تصدى للموضوع آنذاك عالم ودكتور في اللاهوت هو إدوارد هنكس الإيرلنـــدي الذي أعلن أن الكتابة البابلية لا تعرف رموزاً تعبر عن ألفاظ ساكنة بسيطة بل تتضمـــــن مقاطع من نوع ab,ad أو bi di أو kan mur وقد يكتب هذان في صيغـة mu-ur و ka-an ثم بيّن أن الرمز الواحد يمكن أن يستخدم كـ ايديوغراما وكرمز لفظي وكمحدِّد ، وأبسـط الأمثلة على ذلك :



١ ـ آ) ايديوغراما isu « شجرة (مادة) » .
ب) محدِّد يوضع أمام مسميات الأشجار والمواد الخشبية
ج) رمز مقطعي iz (و is وما أشبه ذلك)
٢ ـ آ) ايديوغراما matu « بلاد » و šadu « جبل » .
ب) محدِّد يوضع أمام أسماء البلدان والجبال .
ج) رمز مقطعي kur, mat, sat, mat, gin وغير ذلك .

الشكل رقم (٢٦)
رمزان كان يمكن استخدامهما كايديوغرامات وكمحدّدات وكرموز مقطعية.

ثم جاء رولينسون ليقرر أن الرمز المقطعي الواحد يمكن أن يعبر عن عدد المقـــاطع وهو مازاد من اضطراب الأمور ، وتبينت فوضى القراءات عندما حاول العلماء تركيــب اسم نبو خذ ونصر من المقاطع التي بين أيديهم (عهد بالمهمة لكل واحد علـــى حـــدة) فكانت النتيجة مخيبة للآمال ، وبقيت الأمور بهذه الصورة إلى أن تقدمت نينوى باللوحـــة التي كان يحلم بها جميع الباحثين وهي دفتر المعلم في صورة لوح طيني خطت فوقه المعـــاني اللفظية السومرية القديمة للأيديوغرامات في مقابل المعاني اللفظية البابلية الآشورية فظـــهر مثلاً أن آن ـ آك السومرية = نا- بي - يوم (أله) وان شاردو = قودورّو (حجر الحدود ، علامة) وان شيش = نَصَر و(حمى) ومنه صيغة الطلب انصر ، احمِ ، وعلى هذا فـإن آن - آك - شاردو - شيش = نابو - قودورّي - اصر أي ربّ احم علامة حدودي !

عرض بعد ذلك على مجموعة من كبار العلماء ترجمة نص موحد نقش فوق ثـلاث اسطوانات طينية مشوية تعود بتاريخها إلى عهد الملك الآشوري القديم تاغلات بالاســـار الأول . وكانت النتائج مشجعة إلى حدود مذهلة.

في تلك الفترة ظهر " جورج سميث " الذي أصبح فنان ترميم في المتحف البريطاني والذي لم يلبث أن أخذ يقرأ اللوحات ويلتهم مضامينها بسرعة غريبة وإذ بأنظاره تقع على ألواح وصلت من نمرود تقع فيقرأ على صفحاتها أحداث ملحمة عظيمة هي ملحمة جلجامش وصراعه مع أنكيدو ثم مصادقته له وانتصارهما معاً على خومبابو الشرير ليظهر بعد ذلك الجد أوتـ- نابيشتيم الذي نجا من الطوفان... ليقذف جورج بنفسه على أثر ذلك في طوفان الرحلات التي كانت حافلة بالنقوش النفيسة ورسخت هيبة الكتابة البابلية - الآشورية بما تمخضت عنه من موضوعات .

بينت الدراسات أن الكتابة البابلية - الآشورية مأخوذة عن كتابة أقدم منها هي السومرية. وبفضل الصيغ الأقدم من المسمارية الأكادية تمكنا من معرفة وفهم الصيغ السومرية المكتابة وعرفنا الطريق الممتدة من الصورة إلى المقطع ، ثم إلى الحرف فيما بعد ...

وفي مرحلة تالية اعتمدت الكتابة على الرموز المباشرة كما في اللوحة التالية :

رجل
الشهر القادم
قرن
نما
نجم
سماء
اله
شمس
نهار
ضوء

سار
وقف
يد
عين ، رأى
وجه
امرأة

خلة
سمكة
ثور
قلب

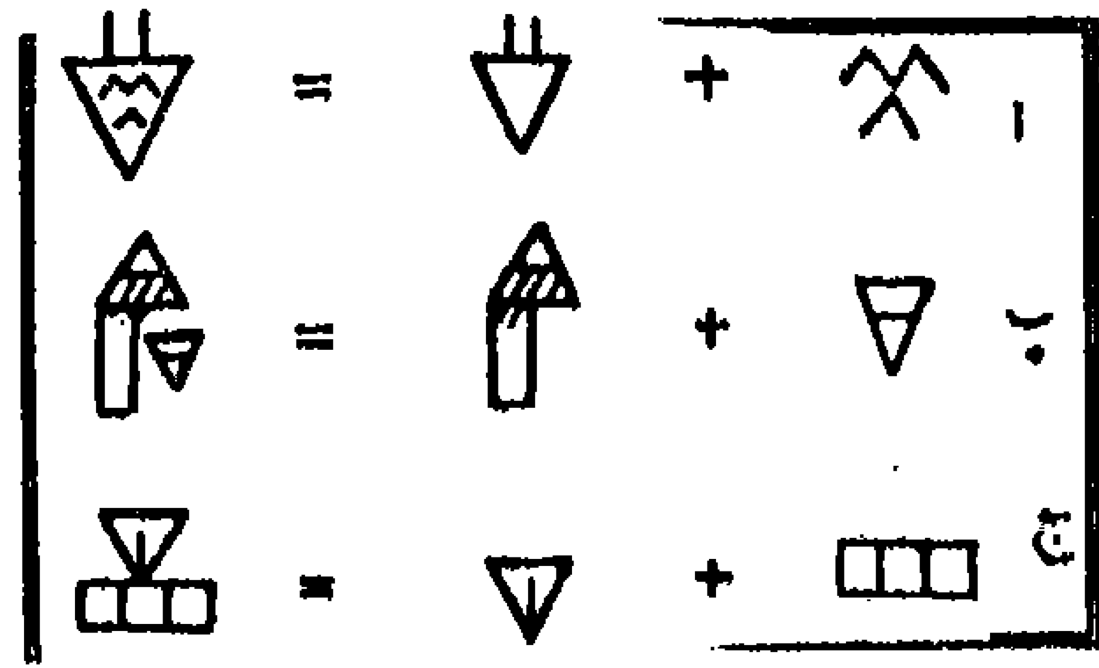
بقر
جيش
سهم قسم
وكثير
اداة قاطعة
ولد
نبت

الشكل رقم (٧٦) أقدم الأشكال الايديوغرافية الرموز المسمارية.

ثم صاروا يضيفون رسماً إلى آخر للتعبير عن مفاهيم أكثر تجريداً :

ومن الطريف (وهو ما يدل على وحدة الأرومة) التشابه المذهل بين الاسفينية والكتابة المصرية القديمة . فالمسمارية أيضاً تتضمن الأيديوغرامات والرموز المقطعية والمحددات . كما استعار الأكاديون بعض الرموز السومرية وضمنوها لفظهم السامي محتفظين لها بلفظها السابق القديم فالأيديوغراما [رمز] تعني الأب وهي بالسومرية اد

وبالأكادية abu والأيدوغراما [رمز مسماري] تعني الاسم وهي بالسومرية mu وبالأكادية sumu فصارت الأولى تعني الأب وتلفظ أبو وأد وتؤدي معنى هذين المقطعين كما تؤدي الثانية معنى الاسم ومقطعي مو وسومو .



الشكل رقم (٢٨) رموز تصوير مركبة.

وعلى الرغم مما يبدو من صعوبة في الكتابة البابلية الآشورية كان القارئ يحدس دوماً بماهية المعنى المقطعي المطلوب في كل حالة ، وهو دوماً يصل إلى هدفه إذ كان على معرفة باللغة في النص المعطى . أليس مطلوباً في قراءة العربية بالصورة السليمة أن يفهم القارئ النص ليتمكن من ضبطه بالحركات المطلوبة ؟ وقد أضاف كتبة البابلية الأشورية إلى كتابتهم عدداً من المحددات (الشكل ٢٩). ومهما يكن فإن صعوبات هذه الكتابة لم تحل دون انتشارها في أرجاء العالم القديم فكتبت بها شعوب مختلفة ، وكتب لها حتى المصريون وهو ما تشهد عليه مراسلات تل العمارنة ، وهذا ما يمنحنا الحق في أن نسمي الكتابة واللغة البابليتين باللغة والكتابة الدبلوماسيتين في عصرهما .

dA-nu dEn-lil dÉ-a

ثلاثة اسما آلهة ومحدداتها

1. IḪa-am-mu-ra-bi
2. IŠu up-pi lu-li-u-ma
3. fPu-du-ḫé-pa

اسمان مذكران واسم مؤنث ومحدداتها .

1. mât Aš-šur = اشور = 2. mât Mi iṣ-ri = مصر =
3. âlu Ni nu-a = نينوى = 4. âlu Kar-ga-miš = كركميش =

اسما اقليمين واسما مدينتين ومحدداتها

الشكل رقم (٢٩) مفردات تضبطها محددات

وقد انتقلت هذه الكتابة إلى الحرفية في أوغاريت الكنعانية أما في موطنها بابل فقد زحمتها الكتابة الآرامية الحرفية.

الكتابة الحثية :

اتسمت هذه الكتابة بغموض لم يعرف له نظير في تاريخ الكتابات فإذا كانت الهيروغليفات المصرية قد عرفت منذ آلاف السنين فإن الأوروبيين لم يسمعوا بالحثية إلا في عهد متأخر. وكان من الرواد في هذا المجال مغامر من نوع خاص اسمه بوركهاردت. ولد عام ١٧٨٤، درس العلوم الطبيعية واللغة العربية في لايبزيغ ولندن . ثم أرسلته الجمعية

الافريقية الملكية إلى أفريقيا، وفي مالطة زودته شركة الهند الغربية برسائلها فاتجه إلى حلب وأمضى فيها ثلاثة أشهر متنكراً في زي تاجر ثم إلى دمشق حيث درس تاريخ العرب ثم توجه إلى لبنان وحوران وشرق الأردن ، وأوفده محمد على باشا في رحلة إلى النوبة لكنه فرّ من نوبيي النيل إلى سواكين على البحر الأحمر وفي سنة ١٨١٠ زار مكة والمدينة وجدة وفي سنة ١٨١٦ كان يدرس سيناء . وفي زيارة لمدينة حماة لفت أحد الأحجار نظره ، وقد رفع هذا الحجر بعد ستين عاماً إلى استامبول بعد أن تطور علم اللغويات تطوراً كبيراً وقرئ عدد من الكتابات المهمة .

في سنة ١٨٧٦ بدأ المتحف البريطاني حفرياته في جرابلس (برئاسة جورج سميث) فتعرفوا عند منعطف لنهر الفرات على بقايا مدينة كركميش (شاهد العظمة الحثية في سوريا) ، وفيها عثروا على منحوتات ، وتماثيل جديدة . وتلت ذلك كشوفات هامة في بوغازكوي (١٥٠ ك.م عن أنقرة) وفي يازيليك القريبة منها ثم في مرعش ، ثم نشر الرحالة الفرنسي شارل تيكسييه ثلاثة مجلدات بالنقوش الحثية استوقفت سايس من بينها لوحة عثر عليها في بازيليك أرفقت شخوصها بنقوش كتابية موجزة بدأ كل منها برسم وفيه تعرف سايس على مفهوم "إله" ، وكان قبل ذلك قد تعرف في الرمز على نهاية الاسمs .وفي سنة ١٨٨٠ وخلال عكوفه على دراسة الهيروغليفيات الحثية تذكر أنه قرأ في إحدى المجلات العلمية وصفاً قدمه العالم موردتمان لاسطوانة فضية تحمل الخاتم التالي (الشكل ٣٠) .



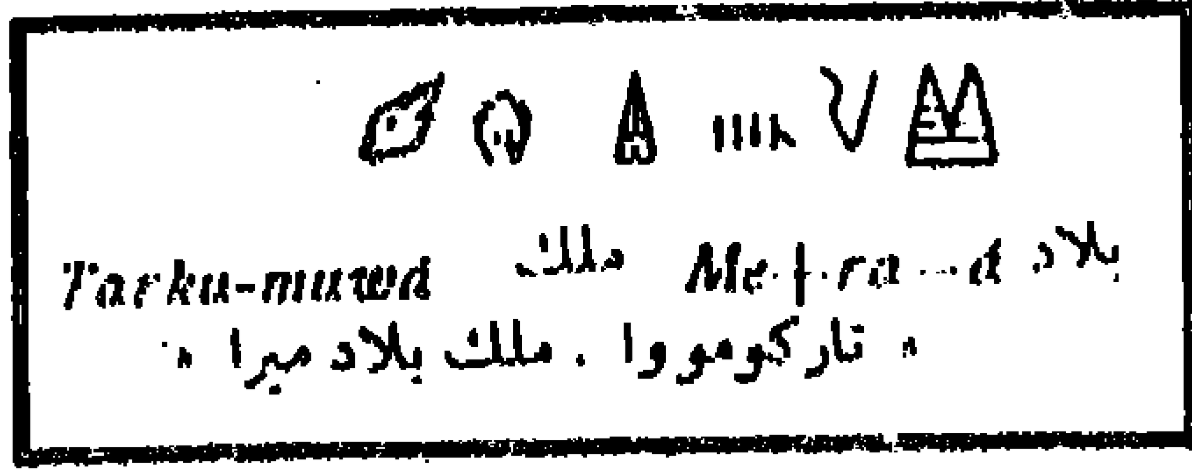
الشكل رقم (٣٠)

1 2 3 4 5 6 7 8 9

الشكل رقم (٣١)

فالمجموعات ١ ، ٦ ، ٧ هي - كما نعلم - ايديوغرامات.وعلى هذا يكون ملك بلاد N N فكيف نقرأ الاسمين ؟ موردتمان قرأه على الأساس التالي : تاركوديمي ملك طرسون). ومن خلال الوصف الذي قدمه هيرودوت للمحاربين الكيليكيين الذين خدموا في جيش كسيركس وبخاصة الخوذة والحذاء المعقوف إلى الأعلى والألبسة الصوفية يقرأ سايس النص

المسماري بالشكل التالي tar – rik-tim-me - sar - mat Er - me- e أي تارمكتيمي حاكم بلاد ايرمي . أما اليوم فيقرأ الاسم بهذه الصورة :



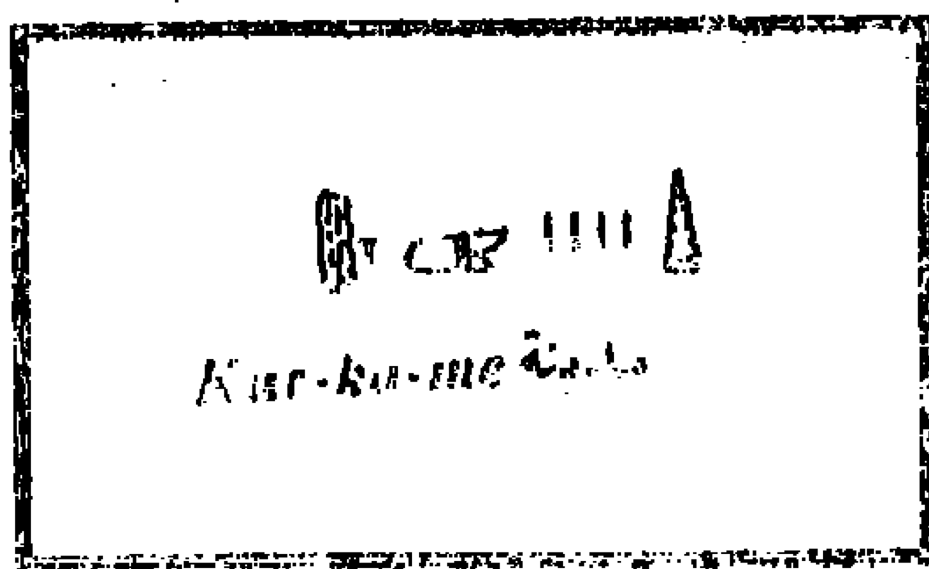
الشكل رقم (٣٢)

في ذلك الوقت تم العثور على خاتم من نينوى ووعاء بازلتي مغطى بالرسوم وكتابة في أحد مساجد حلب ونص يغطي أحد الأسود الحجرية التي تزين بوّابة مرعش، وقد ساعدت هذه الآثار في مجموعها على عقد مقارنات قام بها سايس فقرر أن هي نهاية الاسم وان محدِّد "مدينة" كما تعرف على اسم زاندميس (سانتاش) – الاله الكيليكي.وتوقف بايزير أمام الفاصل بين الكلمات وأن || قد تشير إلى أيديوغراما.

وتوصل العالم الفرنسي مينان إلى القول بأن الهيروغليف الحثي الشبيه بالهيروغليف المصري هو ضمير أنا وليس " أنا أقول " كما افترض سايس .

بعد فترة غير طويلة تدافع الانكليز والألمان والنمساويون والفرنسيون والأمريكان إلى بلادنا بحثاً عن الرموز الحثية وأصدر شميدت سنة ١٩٠٠ حوالي مئة نص من بينها ٤٢ نصاً طويلاً من سوريا .

ثم دخل الميدان العالم ايبنسين المشهور في عالم الدراسات الآشورية وكان قد أصدر اسطورة جلجاميش في الأدب العالمي في مجلدين وأكد فيها أن كل القصص التاريخية التي وردت لدى الموسويين في الصيغة التوراتية وما جاء في الإنجيل عن المسيح ويوحنا المعمدان وبولس والقسم الأعظم من قصص اليونان والرومان وما يتعلق ببوذا من تقاليد بالإضافة إلى الساغات الشمالية وقصص الهنود إنما يعود في مجموعه إلى اسطورة جلجاميش . وكان أول ما ساهم به اينيسين هو القراءة الصحيحة لكلمة كركميش وكان الاسم قد تكرر كثيراً في الآثار المكتشفة بين أنقاض المدينة،كما لاحظ أن صورة الشمس المجنحة مضافة إلى الرمز الهيروغليفي تحيط عادة باسم الملك.



الشكل رقم (٣٣)

كركميش بالهيروغليفات الحثية

توقفت الدراسات الحثية فترة طويلة بعد ذلك بسبب الأخطاء المنهجية التي وقع فيها كبار العلماء،

حتى اكتشفت تل العمارنة وعثر فيها على أرشيف كبير من اللوحات المسمارية الطينية المكتوبة بالمسمارية وبينها رسالتان وجهها " حكام حثي" وبطاقة تهنئة بمناسبة جلوس أخناتون على العرش ومعلومات حول التدابير العسكرية للحثيين في شمال سوريا . كما كانت هناك رسالتان كتبتا بالمسمارية بلغة حثية استطاع العلماء قراءتها واستعصى عليهم فهمها فتوقف التقدم من جديد . ثم تمكن الأوروبيون من استحصال أذون بالحفريات في بوغازكوي وفي كركميش . وقد حالف الفوز البعثة الألمانية في بوغازكوي برئاسة فينكلير الذي كان أشد المتشيعين للبابليين ويرى في حضارتهم مصدر الحضارة العالمية . وسرعان ما وقعوا على الأرشيف الحكومي للحثيين في عاصمتهم حاتوشاش ، واستطاع فينكلير قراءة الكثير من النصوص وهو واقف في مكانه إذ كتبت باللغة المسمارية كما تم العثور على لوحة بديعة كانت رسالةً من رمسيس إلى حاتوشليو ... فالمعاهدة المشهورة التي نقشت بالخط الهيروغليفي على جدار معبد الكرنك تجد تصديقاً لها لدى الطرف الآخر ! وقد كتب ذلك كله بلغة بابلية ممتازة وأسافين رائعة المظهر ... أما ما عثر عليه بالهيروغليفيات الحثية فبقي في معظمه منيعاً على القراءة.

وعندما انطلقت الرصاصات في سراييفو إيذاناً ببدء الحرب العالمية الأولى كانت نتائج البحوث الميدانية النشيطة قد استقرت في متاحف استامبول وبرلين.

في هذه الفترة دخل ميدان القراءة الحثية عالم تشيكي هو بيدر جيخ غروزني المولود في عام ١٨٧٩ والمتبحّر في الدراسات اللغوية وقد وجه دراساته لدراسة الجانب الاقتصادي من حضارات العالم القديم ، وسافر إلى استامبول للاستزادة من الاطلاع على ما بمتاحفها من نصوص ،وقد استوقفته جملة طريفة في أحد النصوص تذكر برسمي بطليموس وكليلوباترة،ورسم داريوس وكسيركس وكانت تكتب وتقرأ هكذا an- e-iz-

za-at-te-ni wa-a-tar-ma e-ku-ut-te-ni

nu فــ ايدوغراما سومرية - بابلية تعني الخبز وبعد مقارنات طويلة بين الأفعال الهند أوروبية وكلمة واتر وسواها توصل غروزني إلى ترجمة الكلمة بعبارة " والآن كلوا خبزكم وماءَ كم اشربوا !" وكان ذلك برهاناً على العنصر الهند أوروبي في اللغة الحثية التي لا يزال بعضهم يلح على " هنداورويبتها" مع أن تركيب النص القضائي التالي : إذا كسر إنسان يد إنسان حر أو رجله يعطيه عشرين شاقلاً من الفضة" لا يتضمن إلاّ فعلي كَسَرَ وأعطى من أصل هند أوروبي.

عادت القراءات الحثية إلى الركود من جديد وأدرك العلماء أن الكتابات السرية والشفرات المستخدمة في الحرب العالمية الأولى وتحليلها يمكن أن تعود بفائدة على عمليات قراءة الرموز الحثية . كما تمكن العالم الإيطالي بيير ميريدجي عن طريق مقابلة نصين من نصوص كركميش أن يصل إلى كلمتي ابن وحفيد.

تقدم العالم السويسري فورّير بعد ذلك بآخر محاولة وضعت الأسس لقراءة الحثية فلفت النظر إلى أن الايديوغرامات التي توضع بطريقة واحدة تقرأ لدى كل شعب بلغته مثل مصطلحات £$ و & ولهذا يمكن فهم النص المطروح للقراءة عن طريق فهم ما يمكن أن نسميه بالمتوازيات : ١- بين الصورة والنص المرفق ،٢- بين الشيء والتعبير عنه في النص ، ٣- بين الرمز ومعناه . أما أهم المتوازيات بالنسبة للشرق القديم فهو مطالع المدونات الملكية (التي تبدأ عادة بالألقاب) وصيغ الدعوة : من يفعل كذا ، فيلحق به كذا ...وافتتاحيات الرسائل: مثلما يقول آ يقول ب : أحوالي بخير ، أحوال منزلي بخير، أرجو أن تكون أحوالك بخير ، وأحوال منزلك بخير. من هذه الملاحظات يمكن-برأي فورير-استنباط الرموز الخاصة بنهايات الحالات الإعرابية وبالضمائر الشخصية واللواصق. ومن خلال النهاية التي يختم بها حمورابي قوانينه مهدداً من يسيء إلى هذا القانون : سواء أكان ملكاً أم مالكاً أم حاكماً أم صاحب أي اسم حبيت Lu Šarrum , lu belum sa Samam habiat وقد وقعت عينا فوريه على نص حثي يشابه ذلك التركيب فكان:

الشكل رقم (٣٤)

العالم الألماني بوسيرت قدم اسهامه في القراءة بالاعتماد على بردية طيبة كانت محفوظة بالمتحف البريطاني وتعرف فيها على دعوة إلى الالة شانتاش والآلهة كوبابا . ومن خلال قراءة كركميش وغورغوم (مرعش) وحماه استطاع أن يقرأ اسم واربالاواس . وقد اتسم بوسيرت هذا بنشاط كبير جعل الدكتور رشيد غالب وزير الثقافة التركي يعينه أستاذاً في جامعة استامبول وكان الوزير يريد تحديث الجامعة على النمط الأوروبي آنذاك .

الشكل رقم (٣٥)اسم "أورباالاواس" مكتوباً بالحثية لهيروغليفية

ظلت الأبحاث متواصلة من أجل الحصول على نصوص جديدة . وفي سنة ١٩٣٤ اكتشف المنقبون في القصر الملكي في بوغازكوي ٣٠٠ خاتم ، كان منها مشبة مزدوجة اللغة (كخاتم تاركووما) وتواصلت صلوات المنقبين والعلماء من أجل الحصول على ثنائية ما ، لكن ذلك لم يتحقق حتى سنة ١٩٤٥ حيث عثر بوسيرت في إحدى رحلاته التي تمت بتكليف من جامعة استامبول على ثنائية اكتشفت في الجبل الأسود " قرة تيبي" وكتبت بالحثية والفينيقية وأثبتت صحة الكشوفات الكبرى في ميدان فك الرموز وكانت الخاتم الرسمي الذي ختم به العلم وثيقته المؤكدة بأن الأعمال التي تم إنجازها حتى ذلك الحين لم تكن ضرباً من العبث.

أما أطرف ما تركته تلك الثنائية من أثر فهو تأكيدها لوجود دولة سامية تحدث عنها أرشيف تل العمارنة باسم شعب من كنعان وسماهم هوميروس آل دانو وصاحب الثنائية ينسب نفسه إلى mpš موبسوس (وهو اسم حمله اثنان من عرّافي الحرب الطروادية. أما داناوس ، الجد الأول لسلالة آرغوس الشرقية فهو ابن بيلوس (أي بعل) ... وهذا ما يمكن أن يكون أساساً لتأملات كثيرة .

كتابة رأس الشمرة : تمتاز كتابة رأس الشمرة بأنها الكتابة التي استجابت بسرعة كبيرة للقارئين وقدمت لهم وللإنسانية كنوزاً غزيرة من النصوص التي لا تقدر بثمن فحق عليها القول المأثور : "أقلهن مهوراً أكثرهن بركة ..." وقصة رأس الشمرة معروفة بالنسبة لكل سوري ، ففي شهر آذار من سنة ١٩٢٨ وقع أحد الفلاحين في رأس الشمرة على جبانة مجوفة لم يلبث خبرها أن وصل إلى السلطات الاستعمارية في بيروت ، فوجه إليها البروفيسور فيرولو ومن بعده الباحث الأثري موريس ديونان الذي اقترح على الأكاديمية الفرنسية للنقوش إرسال بعثة إلى مينة البيضا. فبوشر بالحفريات سنة ١٩٢٩ بإشراف ك. شيفر ،ج، شيني وتبين أن الحديث يدور حول مدينة أوغاريت التي ورد اسمها في رسائل تل العمارنة . وبينت المكتشفات على الفور تفاعل الحضارات في هذه المنطقة بداية من مصر وحتى اليونان حتى سموها"بوتقة انصهار الحضارات" . غير أن لؤلؤ الكشوفات وخاصة بالنسبة للمهتمين بالثقافة كانت مكتبة المعبد ومدرسة الكتبة وتبين أن اللوحات في هذا الجزء من الحفريات هشة جداً إذ تعرضت لتأثير حريق مدمر فكانت ترفع بحذر شديد . وقد عثر بينها على جداول مفردات كانت معروفة من النصوص البابلية المسمارية. إلا أن ما صعق العلماء هو طبيعة الكتابة التي وجدوها أمامهم والتي لا تنتسب

إلى أي نمط كتابي عرفوه حتى الآن ، وكان مما قدم لهم المساعدة مستودع للأسلحة عثروا فيه على خمس فؤوس حربية مرقوشة بتلك الكتابة المسمارية الغامضة.

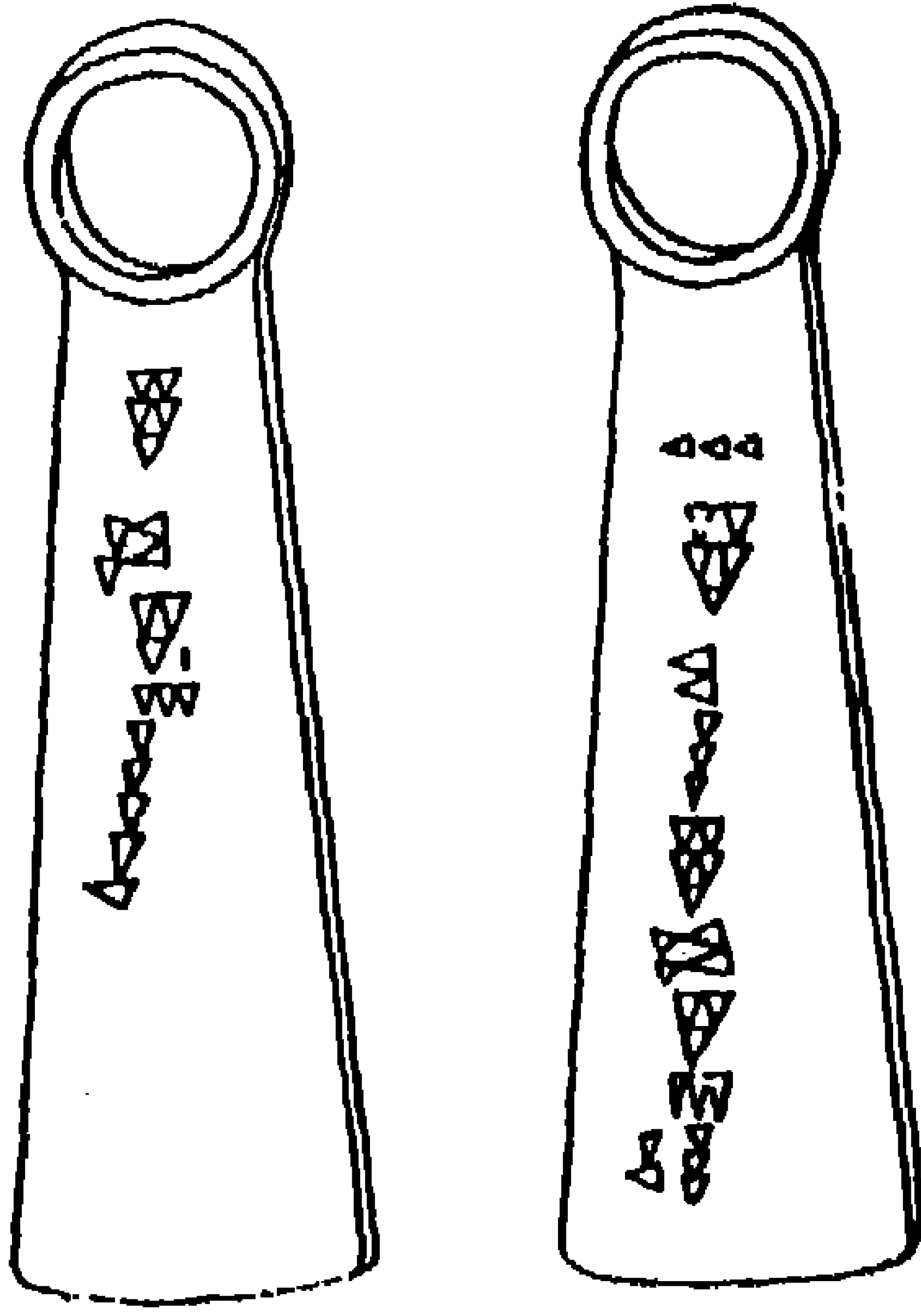
كانت هذه المواد ترسل إلى عالية ويقوم البروفيسور فيرولو ، مدير أعمال التنقيب التابعة للمفوضية العليا في سوريا ولبنان، بإصدار النصوص وإعدادها للنشر بينما انصرف العالم الألماني هانس باوير إلى دراستها . وقد اقتنع عند أول نظرة ألقاها على هذه الكتابات أنها تخبئ وراءها لغة سامية، واستطاع حتى السابع والعشرين من نيسان ١٩٣٠ - وخلال بضعة أيام فقط - ودون "ثنائيات ، أو محدّدات أو ايديوغرامات ودون معرفة الأسماء الأعلام ، التي سرعان ما تنهد لمساعدة العلماء أن يفك رموز تلك الكتابة التي استلمها في نفس الشهر .

كان منطلق الباحث وجود فواصل بين المفردات (خط عمودي يفصل بينها) وعثر بين هذه الفواصل على رمز مسماري وحيد الصورة يتردد بصورة متكررة فأثار ذلك في مخيلته صورة المفردات الوحيدة الحرف (الحروف) من مثل و، بـ ، كـ ، لِ وهي خاصية صميمية في الساميات التي تعتمد في كتابتها على السواكن . كما لا حظ أن الفواصل تكشف ، على غير إرادة منها ، عن اللواصق واللواحق التي تـرد في بدايات المفرادت وخواتمها . وفقاً للوحة التالية (الشكل - ٣٦) .

سوابق	لواصق	كلمات وحيدة الحرف
I	II	III
ألف		
j	h	l
m	k	m
n	m	m
t	n	(b)
(b)	t	(k)
(h)	(w)	(w)
(h)	(i)	
(k)		
(i)		
(w)		

الشكل ٣٦

أخذ باوير يبحث عن رمز يمكن أن يوجد في الأعمدة الثلاثة فـرأي أن ك،م،و،"و". ولما كان ك قليل الورود فقد ركز الباحث نظره على م و" و" ، وبما أنه لم يكـــن يمـيّز أحدهما عن الآخر فكان لابد من اختبار الحرفين بوضع كل منهما بجانب أحرف أخـــرى مفترضة . أخذ باوير آنذاك الفأسين (الشكل - ٣٨) وتخيل وجود حرف لـــ كحـــرف استهلالي فوقهما .(يذكرنا ذلك بالعبارة الشائعة الاستعمال حتى اليـــوم: هـــذا الشـــيء لصاحبه فلان) . افترض أن الحرف الذي هو أمامه "م" فأخذ يضيف إليه الـــلام أمـــلاً في الوصول إلى كلمة ملك.وقدمت الكلمة إحدى اللوحات فاطمأن باوير إلى توفر حـــروف م ، ل ، وك لديه .



الشكل رقم (٣٧)
فأسان طرقت عليها كتابة أوغاريتية.

بدأ بالبحث عن الكلمة الثانية التي كـــانت تهمه وهي بـــ ن . فأخذ من اللوحة الأولى الحرف المفترض لـــ ن وراح يبحث عن اللوحة المناسـبة ، فوجد واحدة تتضمن جدولاً بأسماء يتردد بينـــــها رمز معين ثاني حرفيه ن ويرد قبل غيره من الرمـــوز ويتكرر ١٥ مرة . فأضاف الباحث إليه حـرف ب وهكذا حصل على م، ب،ن،ول فـــراح يبحـــث بشراهة عن اسم بعل ليصل إلى حرف ع . وقـــد وجد لوحة صغيرة جداً تكرر فيها اســـم ثلاثة الأحرف سبع مرات فقرر أن بعل وطابق بين مـــا لديه من حروف وبين حرفي الاسم الأول والثـــلث فتوصل إلى حرف ع . وانطلاقاً من هذه المحاكمات استطاع باوير ان يحـــدد في دراســـته الأولى ١٧ رمزاً.

أما الفأسان اللتان قدمتا المساعدة للباحث فتظهر على يسراهما ستة رموز هي :

وعلى اليمين الرموز نفسها وقد أضيفت إليها أربعـــة أخرى فصارت :

ر ب ك ه ن م

توقع الباحث أن تعني الكتابة اســـم صاحب الفأس ، لكنه توقع أيضـــاً

ح ر ش ن ر ب ك ه ن م

وجود كلمة فأس (انطلاقاً من منهج فوريّر) لكنه أخطأ إذ قرأ هـــ ، س ن (من العبريـــة

هارس بمعنى الفأس) ثم تبين أن لا علاقة للأوغاريتية بالعبرية وان الفأس تعني حرشن ، وهكذا فالعبارة الأولى هي رب كهنم (الكاهن الأكبر) والثانية هي حرشن رب كهنم - فأس الكاهن الأكبر.

وفي سنة ١٩٣٠ نشر باوير بحثه الذي تضمن قراءة للهمزة والـ ت ر و ن وقراءة لاسم الآلهة عشتارته وأرقام ثلاثة وأربعة. وسرعان ما هرع العالم الفرنسي الكبير ادوارد دورم ، أستاذ المدرسة التوراتية الأثرية في القدس لتصويب بعض أخطاء باوير وأطلع عليها باوير وهي في هيئة بروفات، وتوصل العالمان معاً إلى وضع أبجدية الـ ٥ من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ وقد تضمنت ٢٥ حرفاً أبجدياً وقام فيرولوبعد ذلك بإكمالها.

وقد قدم البروفيسور فيرولو إسهاماً كبيراً في دراسة العربية والفارسة وتاريخ الشرق القديم وآثاره . عمل في متحفي لندن واستامبول ونظم البعثات الأثرية التي انطلقت إلى آسيا الصغرى وإيران وبمبادرة منه وضع الأساس لعدد من المتاحف العربية ومنها متاحف بغداد ودمشق وحلب. وقد جاءته اللقى الأثرية ذات الطابع السردي المطول لتؤكد أمام العالم كل ما كان قد تم من قراءات . بيّنت تلك المكتشفات تاريخ المدينة الزاهرة ، علاقتها بمصر ، صراعها مع شعوب البحر ، تجارتها ، حياتها ، أما النصوص الأدبية والمدرسية والدبلوماسية والاقتصادية والحقوقية التي قدمتها أو غاريت فتذهل الخيال بأصالتها وغناها وخصوبتها ، وبخاصة تلك النصوص الميثيولوجية الدينية التي وضعت الأساس لأولى المغامرات الفكرية في التاريخ . أنها مكنتنا من " الوصول إلى استنتاجات جديدة حول أصل الأسبوع ويوم السبت . وأظهرت تطابقات مذهلة بين آلهة رأس الشمرة وبين البانتيون الهوميري ...) فبداية التوراة والصحوة الفكرية الأوربُية تنطلق من هذه الأرض الكنعانية كما أن أطفال العالم يتعلمون حتى هذه الدقيقة استظهار الأبجدية بالترتيب الذي اختاره لها كاتب من أوغاريت منذ أربعة وثلاثين قرناً ... فقط! وأهل الساحل الكنعاني - حسب قول العالم الكبير جبرائيل سعاده لم يكونوا فقط أهل ملاحة وتجارة بل وقبل كل شيء أهل فكر وعلم.

أبجدية جبيل : بين الكشوفات التي قامت بها الحفريات الفرنسية في جبيل تم العثور على مسلتين حجريتين وبعض الفؤوس وعدد من شظايا الألواح الحجرية وكلها مغطاة برموز كتابية لم يُشهد لها مثيل قبل ذلك فأسموها كتابة جبيل شبه الهيروغليفية . وفي سنة ١٩٤٥ أصدر ديونان ، عالم الآثار الكبير هذه النقوش في كتاب أسماه " Biblia

Grammata" وما هو إلا عام واحد حتى قدم أدوارد دورم قراءته الجاهزة لهذه الكتابـــة في مجلة " سوريا " العدد ٢٥ ، ١٩٤٦ -١٩٤٨) .

في قراءة أبجدية جبيـــل انطلق إدوارد دورم من فرضيـة ذات أساس فريد وهي أن اللغة التي أمامه لغة سامية كنعانيـة ، فتاريخ جبيل يؤكد انعـدام أي تأثير غير سامي على المنطقـة . وقد أحصى عدد الرموز الـتي وجدهـا أمامـه فكـان ٧٠ فافترض وجود كتابة مقطعيـة من مثـل ab,bu,bi,ba,ub,ib ثم تبين فيما بعد الرموز لم تكـن

الشكل رقم (٣٨) لوحة برونزية مغطاة بنقوش من جبيل إلى الأعلى وجه اللوحة، إلى الأسفل ، الوجه المقابل

مقاطع بل تشكلات للحرف الواحد فهي b١ b٢ b٣ حسب موقع الحـرف في الكلمـة (على نحو ما نجد في العربية ع عــ ـعـ ـع ، هـ ـهـ ـه ، الخ ...) .

بدأ دروم قراءته بالوجه الآخر من اللوحة البرونزية المطروقة التي أمامنا وبـالذات من الخطوط السبعة التي ترد في خاتمتها فقرر أنها الرقم سبعة وعدّه تاريخاً وافترض الرمـوز الأربع السابقة لها كلمة بِسَنَة . نحصـل علـى ب س ن ت . وصار يبحث عن ن ح س (النحاس) ليجد حرف ح فوجدها فبحث عـن مذبح فوجدها فساعدته على معرفة حرف م في ت م ز - تموز ... وكـانت الرمـوز في الوجه الخلفي للوحة هي :

سبعة ة ن ش ب لـد ز م ت ب م م ي ن د ش ب

الساد س يوم

"سادس يوم بتموز بسنة سبعة"وقرا دورم النص، الذي طرقه عامل بسيط ليخلد ما قام بـه من عمل:"لليل طرقت نحاس توبيت . بسنان الحديد نقشتها، هذه الأشياء، أمـا مفتـاح المعبد فطرقته لأكارين ونقشت فوقه سِمَةً وكتبت اسماً ثم وضعته، ذلك[المفتاح] عندمـا نقشت تاج ... المذبح" هذا العمل على شرف الأسرة ، عملته لليل أنجزت ذلك في عـهد

الحاكم أيبوش في اليوم السادس من تموز في العام السابع ." وكان ما أيد القراءة هو عفويتها وعدم الافتعال فيها.

وقبل أن نغلق كتاب ارنست دوبلهوفر حول الكتابات نجد أنفسنا مدفوعين إلى مجاراة المؤلف أسفه لأنه لم يتمكن من التوقف في كتابه عند مجموعة غير قليلة من الكتابات في أمريكا قبل الكولومبوية وفي أفريقيا الشمالية وجزيرة العرب وفي الشرق الأقصى بالإضافة إلى كتابة عثر عليها في موهونجي دارو على صزر كمخت هثر هليخت في جزيرة الصيام (الشكل ٣٩) على بعد ٤٠٠٠ ك.م من موهندي دارو ؟كما تستوقفنا بعض التساؤلات الطريفه التي تتعلق بقراءة الكتابات الأخرى.



الشكل رقم (٣٩) لوحة مقارنة بين الرموز الكتابية لحوض الهند وبين رموز

جزيرة الصيام . الأعمدة VII V,III كتلة حوض الهندو

VIII.VI

IV, II – رموز جزيرة الصيام .

فبعد قراءة الكتابة الرونية التركية القديمة على حوض الينيسي في سيبيريا جرت حادثة طريفة في تاريخ الكتابة كانت صاعقة بالنسبة لعالم العلم . فالمستشرق الألماني بابينغر عثر على مخطوطة وصف فيها مؤلفها هانس دير نشفام رحلة شارط فيها وكانت إلى بلاط السلطان سليم الأول في استامبول ، وقد سجل في المخطوطة عدداً من النقوش الكتابية الرومانية واليونانية التي شاهدها في استامبول . إلا أن ما استوقف أنظار المستشرق بابينغر نقش نسخة دير نشفام عن جدار الاسطبل الذي كان تابعاً لخان

السفراء في استامبول ، وهو مبنى كان سلطان الترك يؤوي بداخله سفراء الدول الأوروبية ويتحفظ عليهم فيه كأسرى. وقد استعان المستشرق بالباحث المجري شيبشتيان ففكّت رموز ذلك النقش وألقت ضوءاً ساطعاً على حدث تاريخي معروف في المخطوطات المجرية القديمة ويرتبط بمصير سفارة كان الملك المجري لا ديسلاف قد وجهها بين ١٤٣٠- ١٥١٦ إلى بلاط السلطان سليم الأول . ولدى قراءتها تبين أن هذه المقطوعة المكتوبة بالرونات التركية القديمة ليست سوى صرخة استغاثة صعّدها أعضاء السفارة الذين كانوا في حقيقة أمرهم أسرى في خان السفراء .

ولدى قراءة عدد آخر من النصوص المكتوبة بالرونات تبين للسيكيل المجريين الذين يتفاخرون بانحدارهم من الهون أن رونات الهون تعود بأصلها إلى الرونات التركية مما يدل على وحدة الأصل بين الترك والمجريين ، وكان ذلك حسب قول المؤلف " صدمة قوية للمشاعر الوطنية الهونية - المجرية الشديدة الاحتدام لدى سكان ترانسيلفانيا الأماجيد .

كما يتبادر إلى الذهن سؤال آخر : ما الذي حال دون قراءة الكتابة الايتروسكية في إيطاليا حتى الآن على الرغم من أن أبجديتها صارت معروفة ؟ أهو الخوف من أن تتطابق لغتها مع إحدى لغات الشرق وتتأكد نظرية هيرودوت بأن الايتروسكيين نزحوا إلى إيطاليا من آسيا الصغرى أو من ليبيا وفق نظرية أخرى.

وعلى الرغم من غنى كتاب دوبلهوفر بالمعلومات ومن جاذبية عرضه وطرافة أسلوبه فهناك عدد من الملاحظات التي لا بد وأن يتوقف أمامها القارئ وبخاصة بعد أن يلمس الوصف الشيق الذي يقدمه المؤلف لأهل تركيا وفارس . فلهجته تتبدل بمجرد حديثه عن أرض العرب التي يتصف أهلها (في مصر وسوريا) بالتعصب كما توصف جزيرة العرب بالأرض غير المضيافة والموصدة الأبواب ، أما اليمن فتتميز بعدوانية سكانها المحليين . لهذا لا يخرج إلا رحالة قلائل من " جحيم شبه الجزيرة العربية" . وفي الصفحة الأخيرة من الكتاب يستعرض المؤلف بحيادية وتقريرية أقطاراً لم يتعرض لكتاباتها في بحثه ومن بينها " الجزيرة العربية التي ترَوت رمالها المتلظية بدماء الباحثين البواسل " ولا تعليق لنا على هذا كله فلقاءات العرب بهؤلاء الرحالة البواسل لا تنفصل عن لقاءاتهم بالحملات العسكرية الغربية في التاريخ الحديث والتي بدأت بمذابح نابليون في القاهرة وانتهت بمذبحة قانا. كما أنّ الباحث يقدم جروداً مفصلة بكل من ساهم من بين الأوروبيين ولو بسطر واحد في قراءة الرموز بينما لم يتحدث عن أي واحد من الباحثين العرب ولو بكلمة

واحدة . ونذكر من بين هؤلاء ابن وحشية المتوفى في العقد الأخير من القرن الثالث الهجري (أوائل العاشر الميلادي) وهو كلداني أو نبطي الأصل من أهل قُسّين قرب الكوفة. ويروي صاحب " الأعلام " إن كتاب ابن وحشية " شوق المستهام " الذي جمع فيه أصول الأقلام التي تداولتها الأمم الماضية من الفضلاء ، والحكماء السالفين والفلاسفة العارفين قد نشر في لندن بتحقيق وتقديم يوسف همر سنة ١٨٠٦ .

كما تجاوز المؤلف الرحالة العرب الذين عبروا بالآثار القديمة وما ذكر ياقوت والاصطخري وابن حوقل (وكتبهم جميعاً مترجمة) إلا في موضع صغير ليقول إن مشاهدهم لحجر بيهستون ... لا تقدم شيئاً ". أما المعلومات المتعلقة بدفن الملوك - وما يتبعها من قتل لأعداد من التابعين والخدم والخيل ودفنهم مع المتوفى - والتي قدمت فائدة ملموسة في كشف الكتابة الرونية التركية القديمة في سيبيريا - فالمؤلف يعود فيها إلى هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد واستمدها من مصادر سماعية تتعلق بشعب غامض يسميه الصقالبة ، وهي تسمية غير واضحة لدى هيرودوت ، بينما وردت هذه المعلومات بتفصيل شديد وبمشاهدة عينية مباشرة لدى اثنين من الرحالة العرب، وهما ابن فضلان (القرن العاشر ميلادي) وابن بطوطة (الرابع عشر الميلادي) وقد شهد الأول هذه الطقوس لدى الصقالبة " الروس " والآخر في خان بالقار بكين نفسها- وكتاباهما مترجمان إلى اللغات الأوروبية .

وهناك نقطة لا يتوقف المؤلف أمامها طويلاً وهي معرفة القارئين باللغة العربية كطريق إلى فك رموز الكتابات القديمة في أراضينا العربية. إنه يلح على معرفتهم بالعبرية القديمة،بالقبطية بل وبالسريانية ولا يذكر العربية إلا عرضاً.وقد أثبتت قراءة شامبليون للمصرية وقراءات البابلية والحثية وقراءة باوير للأوغاريتية ودورم لا بجدية جبيل أن معرفة العربية كانت القاسم المشترك بين جميع هؤلاء القارئين.ويتهيأ لنا أن المستشرقين قد أدركوا هذه الحقيقة منذ بدايات النشاط الاستعماري عندما فتحوا قمم التاريخ القديم وسارعوا إلى إقفاله بمجرد أن أدركوا ما يحتوي عليه من قوة وحاولوا ترويض المارد أو توجيهه الوجهة التي يريدون وبخاصة من ذلك وضع الفاصل الحديدي الذي يلغي أي رابطة بين العربية وهذه اللغات القديمة(التي هي إيّاها)وبين المصرية بشكل خاص والعربية،ومن المعروف أن أهم ما تسعى إليه الصهيونية هو وضع أكبر فجوة بين مصر والعرب.

فعلى الرغم من أن اكتشاف المصرية القديمة قد ترافق مع بدايات التنافس على الثروات العربية (والأثرية من بينها) فقد اتفق المستعمرون جميعاً على ضرب الحصار على المصرية وإعلانها لغة فريدة متفردة نبتت وأورقت وأزهرت ثم قضت وبادت ضمن حدود وادي النيل . ويشير الدكتور علي فهمي خشيم في المجلد الأول من كتابه " آلهة مصر العربية " الصادر عن داري " الجماهيرية " و" الآفاق الجديدة " بالدار البيضاء عام ١٩٩٠، إلى أن المعجم الرائد الذي كتبه الباحث المصري أحمد كمال شاهد على هذا الحصار . فقد تعلم أحمد كمال في مدرسة الألسن وعمل في مصلحة الآثار حتى أصبح أميناً للمتحف المصري ودرّس المصرية القديمة ونال عضوية المجالس اللغوية ، وقد أعلن في بداية هذا القرن الأصل الواحد للمصرية والعربية. وبدأ كتابة معجمه الذي استغرق عشرين سنة من البحث وأخرجه في ٢٢ جزءاً يتضمن كل منها أحد الحروف الهيروغليفية أما حرف الـ س فتضمن المجلد الخاص به ١٠٧٢ صفحة من القطع الكبير حافلة بالمعلومات والمقارنات والملاحظات ، ودفع بالمعجم إلى وزارة المعارف لطبعه فأحيل جزء منه (المتضمن حرف القاف) إلى مدير المطبوعات ، وكان إنجليزياً ، فأحاله إلى كبير الأمناء بمصلحة الآثار ، وكان إنجليزياً وأُشرك في الموضوع عالم فرنسي كان يشتغل في مصلحة الآثار فكان ذلك كل سبباً في القضاء على المعجم وطيه في زوايا النسيان .

ومثلما طمس كتاب أحمد كمال طمست أي فكرة للعودة بالمصرية إلى أصولها المنطقية وعكف العلماء على دراستها كنبت عجيب لا علاقة له بما يجاوره . والعالم الغربي الذي يقطع مسافة من لندن إلى كلكوتا ليبحث عن الأصل السنسكريتي لكلمة هندأوروبية. يستنكر قطع هذه المسافة القصيرة بين مصر وشقيقتها العربية في الشام أو ليبيا أو اليمن لتحقيق الهدف نفسه. وقد ساعد لذلك كله، أو أسس له، الهيمنة الطاغية للدراسات الأوروبية على الدراسات المصرية حتى أن المجلة المصرية التي تصدر عن هيئة الآثار المصرية في القاهرة تنشر بحوثها باللغات الأوروبية وبأقلام دارسين عرب حتى يومنا هذا . وهكذا صارت الرموز التي تكتب في العادة من اليمين إلى اليسار أو من الأعلى إلى الأسفل تكتب من اليسار إلى اليمين وهو ما عكس صورها وأُبدلت ضاؤها وظاؤها دالاً وزاياً . وبما أن المصرية تعتمد في كتابتها - شأن جميع اللغات العربية - على الصوامت ، فقد حرك الأوروبيون هذه الصوامت بصوتيات على هواهم . أما الأسماء العريقة العربية فأسقطت عليها طرق غربية في اللفظ وصيغت صيغة يونانية فـ رع - مس (ابن الراعي)، وإزر (أصر ، شدة) وعزّة ومنف (من نفر- المكان الجميل) وحر(طائر الحر)

أصبحوا بمشيئة العلماء الأوربيين ومن جرّهم من هواة الجرس " الخواجاتي " من العلماء العرب – رمسيس ، أوزيريس ، ايزيس ، منفيس ، وحورس ؟! حتى لو سمعها أصحابها من أجدادنا المصريين القدماء لسألونا مستنكرين ما المقصود بهذه الأسماء . ومع توالي السنين ترسخ في أدبياتنا وعقولنا ما يشبه المسلمة وهي أن المصرية لغة غريبة عنا ، ذاتية في ذاتها ، ننظر إلى نقوشها بإعجاب ودهشة وإنكار دون أن نشعر بأنها جزء منا . أما بالنسبة للعلماء العرب المصريين فمنهم من اندفع وراء الأساتذة الغربيين ، ومنهم من لزم الصمت ومنهم من دغدغت مشاعره ما تتميّز به المصرية من أصالة وتفرد كان في مجموعه أساساً للنظرية الفرعونية التي غرست في التراب المصري كما غرست الفينيقية على الساحل اللبناني .

والغريب أن هاتين المنطقتين هما الأكثر عروبة في الأراضي العربية. فمصر تقع من الجسد العربي في الصميم ولعلها الأرض الوحيدة التي تحيط بها أرض العرب من جميع جهاتها ، فكانت معرفة العربية الجزء الصميم للنفاذ إلى قراءة كتابتها القديمة. أما جبيل فانطلق قارئ كتابتها القديمة من مسلّمة لم يعرّضها لأي نقاش وهي أن هذه المنطقة عربية سامية لم تخضع للتأثيرات الغربية ، وهكذا استطاع أن يقرأ حروفها العربية في بضعة أيام .

ويتشعب بنا الحديث إذا أردنا الاستمرار في كل ما تبعثه هذه الموضوعات من تأملات وشجون. وقبل أن نضع القلم نود أن نثني قبل كل شيء على الجهود الجبارة الكبرى التي بذلها علماء اللغات والقارئون حتى فكوا رموز تاريخنا القديم فقدموا للإنسانية ولنا أسفاراً مهمة لا تستقيم قراءة التاريخ البشري بدونها . على أن من واجبنا أن نطرح التساؤل التالي : متى نبدأ إسهامنا في كتابة التاريخ الإنساني ؟ لقد أدىّ هؤلاء القارئون واجبهم فمتى نؤدي نحن واجبنا ؟ وأطرح هذا السؤال بالصيغة التي وضعها عالم جليل هو المرحوم الأستاذ جبرا ئيل سعادة في خاتمة مقاله: كيف ندون تاريخ سورية ؟ المنشور في " أبحاث تاريخية وأثرية . ترجمة سليمان حرفوش ، دار طلاس ١٩٨٧ ص ٧٤ " إذ قال " [ألم يحن الوقت بعد كي نهتم نحن بأنفسنا ، بتاريخنا؟... إن العمل الذي نتخيله يجب أن يأخذ مدى وحجم مشروع وطني . فمن يكون المسؤول عنه ؟ وما هي الجهة الرسمية التي يقع مثل هذا المشروع على مسؤوليتها ، من وجهة النظر المبدئية ؟ وزارة الثقافة أم المجمع العلمي العربي؟ أم هي كليات التاريخ في جامعاتنا أو تراها المديرية العامة للمتاحف والآثار؟... أم أن العمل لن يرتبط إلا بالمبادهة الفردية الخاصة حين تعز إثارة اهتمام تلك الهيئات...؟"

الأيديولوجية الصليبية: نظرة جديدة

الدكتور شاكر مصطفى

قبل ألف سنة وبالضبط ١٠٠٠ للميلاد كان المار في أزقة أوروبا وقراها المعتمة الموحلة وغاباتها التي لا تنتهي يشدهه الهدوء غير العادي فيها كأنما السكان قد حالوا نوعاً من الملائكة. فالكنائس تقرع الأجراس. وأبهاؤها تنغل بالمصلين الراكعين. والتائبون سيول إلى الأديرة. ومسوح الكهنة السوداء تطوف كالأشباح من بيت إلى بيت. أهم من هذا أن الأحقاد ماتت في الناس فالأعداء في عناق. والخصوم يركض بعضهم إلى بعض يرجون السماح والعفو والدائنون يغضون الطرف عن المدينين .... حتى المجرمون اختفوا في المسوح! موجة من الرعب والخشوع كانت تشل الجموع! ... ما الحكاية؟

راج في الناس، وعَبَر كالريح من كل الأزقة والدروب حتى القرى النائية أن القيامة ستقوم سنة ألف! وما أدراك ما الناس أمام يوم القيامة؟ همدت الأطماع وتصاعد النشيج والبكاء وربط بعضهم نفسه بالسلاسل إلى جدران الكنائس وتنازل الكثير من الإقطاعيين عن امتيازاتهم ليشاركوا الشعب في الفقر والتخلي عن الدنيا ليعبروا إلى الجنة. غسلت موجة التطهير الجدران وما وراء الجدران. أوربا كلها أضحت كنيسة راكعة للسماء. حمى التقى أخذت الجموع كالسيول الآتية وتدفق الرعب من الدروب ...

ومرت الأيام بطيئة بائسة وانتهت سنة ألف وجاوزتها ولم تقم القيامة. ولكن الناس ظلوا، على السنين التالية، ينتظرونها فلعلهم غلطوا في الحساب! تماويل الرعب ما غادرت بيتاً ولا كوخاً ولا قلعة إقطاعية. انقلاب كالزلزلة المدمرة هدم اطمئنان الناس وأمنهم الروحي...

يخيل إلي أنا هاهنا يجب أن نفتش عن الحجر الأول أو الفكرة النواة في تكوين أيديولوجية الهجوم الأوربي على العالم الإسلامي وبخاصة في المشرق وفيما يسمى بالحروب الصليبية الأيديولوجيات لا يبنيها بالطبع شعار واحد يطلق، ولا حجر واحد مهما بلغت قوته. الإيديولوجيات المكتسحة كتلك التي أثارت هذه الحروب عدة قرون بين أوربا والإسلام هي نتيجة تجمع وتفاعل عدد من الأفكار ــ القوى بعضها مع بعض. وقد تكون هذه الأفكار متناقضة وغير منطقية بالنسبة لنا أبداً. ولكنها تتجمع، وفي عصرها،

أرأيت الحجر الذي ترميه بكتلة ثلج صغيرة يتدحرج ليصبح كرة ثلجية خطيرة ؟ فكيف تكونت إذن تلك الإيديولوجية ؟

قبل البَدء أرجو أن تكونوا معاً بخاصة في خمسة أمور :

الأول : أننا نتكلم عن عصر للدين فيه الكلمة العليا . والصليبيات هي بنت عصرها الديني . لو تقدمت إيديولوجيتها عن العصر أو تأخرت عنه لتغير التاريخ .

الثاني : هو أن التاريخ يتغير باستمرار مع تطور الزمن ولاشيء فيه ثابت أبداً وعصر الصليبيات الأول عصر انقلابي بامتياز . التناقضات والتغيرات فيه عديدة قلابة .

الثالث : هو التوازي الذي نلاحظه بين الإيديولوجيتين الصليبية والصهيونية في كثير من الجوانب . تماثل عجيب بين الحركتين قد أشير إليه ولكني أرجو أن يبقى في الأذهان ولو لم أشر !

الرابع : أن الحملة الصليبية الأولى هي وحدها الحرب الصليبية الحقيقية وعنها نتكلم وما تلاها من حروب تدعى بهذا الاسم فهي حروب أخرى لها دوافع مختلفة .

وأخيراً :

فمن البديهي أن الموجة المكتسحة سنة ١٠٠٠ لم تخلق لا هي ولا نتائجها التي نجمت عنها أو انضمت إليها في تلك السنة تحديداً . كان كل ما كون الإيديولوجية الصليبية فيما بعد موجوداً من قبل ولكن سنة ألف كانت السنة الانقلابية التي قفزت بعدد من العناصر إلى المقدمة ورسمت الخط المستقبلي للجماهير الأوربية الجاهلة . كان القرن الحادي عشر الذي تلا تلك السنة هو قرن تكوين هذه الإيديولوجية بتقاها وفجورها . في وحشيتها وتناقضات مبادئها وفي قلب التفسيرات الدينية كما في استغلال الأساطير والغيبيات فيها .

إيديولوجية الحملة الأولى ضد المشرق الإسلامي اشتركت في تكوينها أربعة أركان :

الفكرة الأولى :

والمركزية المحركة هي نقل الباباوات فكرة الجهاد الإسلامية إلى المسيحية أي إدخال المعنى الديني الإلهي على القتال . هذه النقلة التي تمت بتحوير التعاليم المسيحية الأساسية وبالقفز فوق التناقضات، أو الدوران حولها وبإخضاع العقيدة للأهواء السياسية ما كانت لتتم بشكل مفاجئ أخذت قرناً من التحولات والانقلاب والتطوير . بدأت بفكرة التطهر وغفران الذنوب ثم مرت بسلسلة من المراحل لتصبح في النهاية صيحة حرب : هكذا أراد الله !

توقع القيامة أوصل الرعب الديني إلى أقصاه ودفع بطلب التطهر والغفران إلى أقصاه أيضاً . وكان الغفران للمذنب ــ وهو سلاح ــ بيد البابا والكهنوت . وله مراسيمه التي تزداد صعوبة مع ضخامة الذنب وتبدأ بالاعتراف ثم الرضا والمصالحة مع الرب وهي تتم بالقيام بأعمال من التوبة كان من أشقها القيام بالحج . ولم يكن الحج إلى القدس شائعاً ولكن للاماكن المقدسة : إلى القديس بطرس في روما أو القديس ميخائيل في مونية (جبل) جورجانو بإيطاليا . أو القديس جون في كومبوستيلا بأسبانيا وقليلاً ما كان إلى بيت المقدس وبيت لحم لأنه يقتضي سبع سنوات ! لكنه صار منذ القرن العاشر يروج ويزداد تبعاً لاستقرار الأوضاع حول البحر المتوسط مع البلاد الإسلامية وقيام التبادل التجاري معها . وكان يطلب بخاصة من كبار المذنبين مثل فولك فيرا الرهيب وروبرت الشيطان كونت نورماندى . ولكن الكثيرين صاروا يقومون به . ولعب دير كلوني الفرنسي دوره في تحريك الحج إلى القدس وإلى القبر المقدس .

وحين اهتز الأمن في الشرق الإسلامي بدخول السلاجقة الترك إليه في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وجرت الاعتداءات على الحجاج المسيحيين (كما على المسلمين) كان الباباوات يفكرون منذ فترة بما يسمى بالحرب العادلة التي كان قد تحدث عنها وقبلها القديس أوغسطين (المتوفى ٤٥٠) منذ زمن طويل . واصطنعها الباباوات بخاصة في تبرير تحريضهم على حرب المسلمين في إسبانيا دفاعاً عن الجماعة المسيحية . وكان هناك تناقض بين تعاليم السيد المسيح في السلم وبين ما سموه بمقاومة الشر بالقوة في الدنيا وقد حل لهم القديس أوغسطين هذا التناقض باشتراط العدل وسلامة النية ودفع العدوان والضرر أي أنها دفاعية . ولكن باباوات أواخر القرن الحادي عشر توسعوا في

معنى العدل ومعنى دفع العدوان وحولوها إلى الفكرة الهجومية . البابا الاسكندر الثاني منح١٠٦٣ الغفران لفرسان فرنسا الذين ذهبوا لقتال المسلمين في إسبانيا . وهذا يعني أن قتال المسلمين أضحى من الأمور التي تؤهل للغفران كالحج . وجاء البابا غريغوري السابع بعده (بين ١٠٧٣ ـ ١٠٨٥) فصاغ فكرة (الحرب المقدسة) وأحدث النقلة النوعية والجوهرية في عملية الحرب بتسميته المقاتلين للمسلمين (بجيش المسيح)،واعتبارهم مدافعين عن العقيدة بل دعا لمساعدة الروم البيزنطيين ضد السلاجقة المسلمين رغم أرثوذكسيتهم !

قبل ذلك بفترة قليلة كان سقوط الكارولنجيين قد أورث أوروبا ألواناً من الفوضى والعنف والقتال الإقطاعي وأكثر الفوضى والجرائم كان يقوم بها الفرسان الذين تكاثروا ولا إقطاع لهم وعجزت الكنيسة عن الإمساك بسيوفهم . وعلى الرغم من أنها أصدرت مراسيم (سلام الرب) التي تقضي بتحريم القتال في أيام محددة ثم تشددت وتشددت في تلك المراسيم تحت طائلة الحرمان من الغفران ، إلا أن العنف كان كالشيطان يفلت من أصابعها بل شاعت الهرطقة في بعض المواضع فانتهى البابا ليو التاسع ١٠٥٣ إلى قرار جرئ غريب هو تجريد حملة عسكرية ضد النورمان من جنوب ايطاليا. قادها بنفسه ! على أنه فشل وأسر . ولكن خطوته كانت تعني أن البابوية اتجهت لتقود عملياً الخطوات نحو فكرة (الحرب المقدسة) . وأن سوابق الحروب الصليبية بدأت تظهر ولوكانت محلية وضد الهرطقة وأن " السلم المسيحي " قد تحول بمباركة وأعمال الباباوات إلى حروب دينية وقتال مسلح !

وجاء البابا أوريان الثاني فلم يجد أي حرج في الدعوة إلى حرب المسلمين في المشرق لتخليص موقع التطهر والحج من أيديهم . وأعطى الفرسان والمتطوعين للقتال منحة الغفران لأنها حرب مقدسة. وانتزع بذلك حق إعلان الحرب من السلطات الدنيوية وأمسكها بيديه ! صار الحج التطهيري من الذنوب هجوماً حربياً وصار الفارس المجرم في أوروبا رجل الله المحارب في المشرق . كان يرمي بذلك ليس إلى ايجاد منفذ لسيوف الفرسان المتقاتلين حوله ولكن إلى إثبات مكانه القدسي تجاه ملوك أوروبا وتجاه مسيحيي المشرق على السواء . وهكذا صار الخلاص من الذنوب مربوطاً بالخلاص من سيطرة المسلمين على القبر المقدس .

لم يكن ذلك وحده هو التحول التناقضي الذي جرى على الفكر المسيحي فقد رافقه تغيرات وتناقضات أخرى في الرموز وفي المفاهيم كانت الروافد للإيديولوجية الصليبية

الصليب :

وهو رمز فداء ومحبة حمله من سموا بالصليبيين رمز حرب . مسيرة الصليب أمام الجموع كانت كاللواء الحربي في الطريق إلى القدس ، كما في معارك الدفاع عن الممالك اللاتينية التي قامت في المشرق . وكان رمز الاحتلال للمدن والأسوار خاطوه على الأكتاف على أنه ميزة مقدسة وعلى الملابس وأعطوه معنى مختلفاً ومهمة جديدة مناقضة له (كالهيكل لدى الصهيونية) وربطوه بماض لم يكن قد محي بعد من أذهان الشهداء الأوائل . وأهم من هذا أنهم فسروا قول السيد المسيح : (إن أراد أحد إن يأتي ورائي فلينكر نفسه وليحمل صليبه ويتبعني) على أنها دعوة لحمل الصليب للحرب هو أراد ترك الدنيا والإخلاص للعبادة وسيادة السلام فأضافوا إليها من عندهم كلمة فليتبعني إلى القدس! التي أضحت مكان التطهر من الآثام بالحج إليها . وموقع التجسد الإلهي المبارك فالحرب من أجلها مقدسة باعتبارها مملكة المسيح .

قلبوا المعنى الإنجيلي كله . ونقلوا الآية من المفهوم الروحي إلى المعنى الدنيوي الحربي كانت تعني الترهب الله . فأوجدوا منها الراهب المحارب المشغول بحرب مقدسة !

وتطور بشكل انقلابي أيضاً مفهوم الاستشهاد صار حربياً . ودخول الجنة صار عن طريق القتال للمسلمين الكفار . شهداء المسيحية الأوائل كانوا يستسلمون للموت في الملاعب وعلى الدروب تشبها بفداء السيد له المجد . أما بوهيمند النورماندي الذي دخل إنطاكية فخطب في الحجاج المقاتلين بقول : سعداء أولئك الذين يموتون في هذا السبيل لأنهم يتوجون بتاج الشهادة . (وهذا مفهوم إسلامي كامل) . ايثيان كونست بالوا في كتاب إلى زوجته مؤرخ في ٢٩ آذار ١٠٩٩ يعلن أن أفراح الجنة قد حازها القتلى . زعماء الصليبيات أكدوا المفهوم نفسه في كتابهم الذي وجهوه من معسكر إنطاكية (نيسان ــ تموز ١٠٩٨) . روبرت الراهب تحدث عن مدى إجلال القتلى الشهداء .

تنكر يد الزعيم الصليبي يصف فرسانه بأنهم شهداء الله.منشدو الملاحم توريان /فيفيان/ رولاند قبلهم يتحدثون عن الجنان الخالدة التي تنتظر الشهداء !

وظهرت في الوقت نفسه فكرة المحارب المختار (كفكرة الشعب المختار) فالصليبيون هم الشعب المختار إنهم يحاربون لمملكتين واحدة في الأرض وأخرى في السماء . مزجوا ما بين فكرتين متناقضتين:

سيادة المسيح والمسيحية والاستيلاء على الأرض في المشرق . واحدة روحية خالصة والأخرى دنيوية . الصليبي كان يعتبر نفسه مختاراً من قبل الله. روبرت الراهب يعلن أن الصليبيات لم تكن عملاً إنسانياً ولكنها عمل إلهي . روديك فيتال يقول : حملة القدس ودوافعها إلهية . ولقد اعتبر المؤرخون الصليبيون الأوائل أنها عمل فوق الأعمال . مهمة إلهية وحاروا كيف يدعونها . ما سماها أحد في عهدها ولا بعده بأربعمائة وخمسمائة سنة بالصليبيات وإذا سماها العرب بحرب الفرنجة (ونقلوا الاسم عن محاربي الأندلس الذين كانوا يتصدون للفرنج) فإن الذين كتبوا عنها من أهل الغرب أعطوها أسماء أخرى . كلمة المحارب الحامل للصليب كانت نادرة . سموها : الحملة إلى القدس . الحج إلى بيت المقدس محاربو الله جند المسيح المتعاونون مع الله رجال سيدنا الله رجال اله البابا أوربان الثاني الذي أعلنها سماها جيش المسيح . لم يكن لكلمة صليبي وصليبيات من مقابل في لاتينية القرن الحادي عشر ولا بعده . فلم يكونوا يعرفون كيف يصفونها . كانت في عرفهم وفي عقيدة أصحابها حرباً جديدة ذات طابع خاص مخالف لكل الحروب الأخرى التي سبقت فقد ازدوجت فيها المتناقضات : الحج الاستغفاري والمغامرة الحربية معاً . ونقلوا التقديس من الحج إلى الحرب والبطولة بالعكس من الفروسية إلى الحجاج فالحملة كانت بأمر من الله وهي صنعه الأعلى والمقاتلون إنما اختارهم الرب بنفسه لهذه المهمة المقدسة والتاريخ يعكس مايريده الرب .

الركن الثاني :

في الايديولوجية الصليبية هذ صورة الإسلام المشوهة لدى أهل الغرب، صحيح أنه كان في جنوب أوروبا جماعات من التجار ومن رجال الكهنوت ومن الحكام والجنود يعرفون شيئاً ضئيلاً متفاوتاً عن الإسلام وحضارته وصحيح أن من تعلموا (وبعضهم من الباباوات) لدى المسلمين عرفوا بالسمعة العلمية والفلسفية للإسلام . وعرفوا معلومات

جد محدودة عنه . ولكن جماهير الشعوب الأوروبية كانت من الجهل في ليل بهيم وبخاصة فيما بين السويد إلى ألمانيا وفرنسا وانكلترا . كان الإسلام لديها هو الغول المجهولة . فالمسلمون بدو همهم النهب وهم مجرد كفار وثنيين . وكان الرسول الأعظم لديهم ساحراً هدم الكنيسة في الشرق والغرب بالسحر والخداع وإباحة الجنس . ووصلت الملاحم الشعبية أعلى ذرى التشويه والخيال بجعل الرسول الصنم الرئيس للمسلمين . وتصنع تماثيله من مواد غنية وذات أحجام هائلة . ويرافقه أعداد متفاوتة بين المريدين قد تصل إلى ٧٠٠ في المحمديات (الجوامع) ويشتط الوهم بالحكايات وتسمع فيها عن تحريم لحم الخنزير عجباً من السخف . وعن تمثال للرسول الضخم المعلق في الهواء في أصفهان وعن عبادته عجباً آخر ! وعن اخبار تدجيله مالا تقبله حتى العقول الصبيانية واستخدمت في ذلك ألوان الأساطير .... حتى الإله أبولو !

هذه الصورة التي عششت في الخيال الشعبي وفرضت كان من شأنها أن تهون من قوة ومن قيمة هذا المسلم الوثني . وتجعله في نظر الحاج المقاتل الغربي مجرد " نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر " ! ولا يمكن أن يقف لإرادة المسيح ولاجيشه المقدس .

الركن الثالث :

في بناء الايديولوجية الصليبية هو الجهل المطبق الذي كانت أوروبا غارقة فيه إلى ما فوق الأذقان . إذا استثنينا بعض رجال الدين الذين كانوا يقرؤون بعض اللاتينية في الكتاب المقدس فسواد الناس كان على الأمية المطلقة . ومن شأن الأميين الميل مع كل ريح لاسيما إذا كان مرشدهم رجل دين . ويحمل أوامر مجهولة من المقام البابوي ، ممثل السيد المسيح على الأرض . كان يستوي من الأمة الملوك والأمراء والفرسان مع أقنان الأرض وخوارنة الكنائس . منذ ستمائة سنة فقط كانت مكتبة كلية الطب في باريس أصغر مكتبة في الدنيا . كانت تتكون من كتاب واحد فقط هو كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي (توفي ٩٢٥) وكان مربوطاً بسلسلة حديدية لئلا يسرق في حين كانت مكتبة المستنصر الأموي في الأندلس بجواره وقبله تحوي ٤٠٠ ألف مجلد ! كان عالم الفكر الأوروبي مغلقاً عليه بالأقفال والمزاليج . المريض يعالج بالصلاة أو بالزيت المقدس أو يكشط جلد رأسه على هيئة الصليب . المجمع المقدس حرم في القرن ١٣ قراءة كتب الفيزياء . معلم الكنيسة الكبير اكتناسيوس يصف بالجنون أولئك الذين يؤمنون بأن

الأشجار من الطرف الثاني من الأرض تتدلى وأن الناس يمشون وأقدامهم إلى أعلـــى .....
كان العلم محرماً بنصوص من القديسين باعتباره يصرف عن العبادة .

وكان الجهل يزدوج بقبول الأساطير والغيبيات وتفسير الكوارث بأنها غضب إلهـي كما يزدوج بالأطماع الراقصة للخيال في المشرق . الدين لدى سواد الناس مزيـــج مـــن الخرافات ومن عبادة الطبيعة وبعض المسيحية . المجتمع الأوربي كان ريفياً متقطع الصـلات في كتلته العظمى وعلى استعداد ساذج للقيام بأي عمل يجعله أكثر تديناً وإرضاء للســيد المسيح . تكفي شائعة يقول بها كاهن القرية ليدب الجزع فيها . فثورة بركـــان فـــيزوف نذير بالقيامة . وهجوم الجراد غضب إلهي لارادله . وكذلك السماء التي تمطـــر نجومـــاً والأنوار الشمالية الباهرة والشهب التي تخر من السماء والأطفال الذين يولدون بأربع أيـــد وأربع أرجل . وبعضهم يتكلم عقب ولادته ويروي ما يروي . والسيف الـــذي يظـــهر معلقاً في الهواء والمعارك التي تجري بين الفرسان في السماء وهذه المعجـــزات والخـــوارق كانت حديث صغار الناس اليومي . وشهودها بالذات هم من الفقراء وصغار الكهنـــة . حتى صورة القدس المتلألئة بالأنوار الإلهية ليل نهار كانت من أفعال الإيمان !

أغريب على هذا النمط من العقلية الساذجة أن تؤمن بما يلقى إليها من توجـــهات الكهنوت أو أهواء البابوات ؟ حتى الكوارث الطبيعية استغلت في السبيل نفســـه فقـــد كانت كثير من مناطق أوروبا تصاب بالمجاعات الرهيبة وتدهور المحاصيل ــ ويعلل ذلـــك بكثرة الذنوب وضرورة طلب الغفران وقد جاءت على أوروبا قبيل الصليبيـــات بفـــترة قصيرة خمس سنوات متوالية عرفت فيها شح المحاصيل و لم ينج اقليم فيها من المجاعة وفقـــد الخبز . ومات الكثيرون جوعاً . وأكلت الحيوانات والزواحف القذرة ولحـــوم البشـــر وكان على الجياع طلب الغفران من الكنيسة إرضاء . ثم كان الهرب مـــع الحملـــة إلى القدس هو سبيل الحصول على خلاصين : الخلاص في الدنيا والخلاص في الدين .

الركن الرابع :

في الايديولوجية الصليبية كان التوراة أو العهد القديم ! بلى كان لابد للبابـــاوات وآباء الكنيسة من سند شرعي يحرفون به مبادئ السيد المسيح و لم يكن ذلك صعباً أبـــداً فالكتاب المقدس قسمان العهد الجديد وفيه الأناجيل المسيحية والعهد القديم وفيه تـــاريخ اليهود المملوء بأخبار الملوك والآلام والحروب وسير الأنبياء والأناشـــيد فـــاغترف آبـــاء

الكنيسة من العهد القديم ماشاؤوا وما احتاجوا وصار العهد القديم بمبرراته من أركان الأيديولوجية الصليبية لاسيما وأن المؤرخين الأوائل لهذه الحروب كانوا جميعاً تقريباً من رجال الكهنوت . فاعتمدوا في تبرير الحرب وتقديسها وجعلها أمراً إلهياً على النصوص التوراتية . فتجديد أبطال العبرانيين ظهر في الصليبيين المحاربين . وهؤلاء هم الشعب المختار وهم العبرانيون الجدد وهم أبناء اسرائيل الحقيقيون وإليهم تعود الوعود التي كانت أعطيت للعبرانيين في امتلاك الأرض الموعودة التي هي مملكة المسيح . المؤرخ جيبرت دو نوجت خاصة يحاول أن يجد النصوص التوراتية للأحداث التي يرويها ويقارن طواف الصليبيين حول القدس قبل فتحها بطواف العبرانيين حول أريحا قبل انهيار أسوارها . والمعجزات التي وجدوها في العهد القديم نقلوا مثلها للتاريخ الصليبي . ويقول جيبوت إن أعمال أديمار دي مونتيل وريمون دوسان جيل في حملة المسيح كانت أعظم من أعمال العبرانيين . وهما يقارنان بموسى وهارون ومسيرة الصليبيين إلى فلسطين هي كمسيرة العبرانيين إليها لأنها الأرض الموعودة من الرب وموت أديمار قبل الوصول إليها بسنة يماثل موت موسى دون الوصول إلى أرض كنعان . والمؤرخون للحملة يجعلون خط سيرها نسخة أخرى من التاريخ العبري كأنه تقليد له . أو تاريخ مواز من التقى والنصر الذي يعطيه الله لمن يشاء . وثم أعداد لا تحصى من الشواهد على اعتماد هؤلاء المؤرخين للعهد القديم ولكنه كان يفرض عليهم مشكلة صعبة الحل .

وكان المؤرخ الفانديري الإيطالي أول من أشار إليها منذ حوالي قرنين : فهذا التماثل الذي اعتمدوه كسند شرعي ألغى لدى المحاربين الصليبيين الفارق الزمني بين العصرين القديم والصليبي . والواقع أن العهد القديم لم يكن عند صليبيي القرنين ١١ و١٢ قديماً وليس بماض انتهى . إنهم كانوا يعيشون ويقومون بالمغامرات ذاتها التي كانت فيه . فكرة الزمن غير موجودة لديهم وذلك بديهي بالنسبة للعقلية الطفلة السائدة فيهم هم ينقلون الماضي إلى الحاضر بسهولة عجيبة وإلغاء الزمن من ملامح العقل البدائي : إنه لا يعترف به ويُلغيه ليجد السند الشرعي لتصرفه وسلوكه . التقاط الأحداث من التاريخ ونقلها إلى العصر والتشابه المقارن معها كأنها ما تزال حية قائمة كان عملاً دينياً رائعاً في نظر رجال الدين سواء في دعاياتهم أو في كتاباتهم عن الصليبيات. إنهم يكملون بذلك إرادة الله وتنبؤات الأنبياء !

على هذه الأركان الأربعة وروافدها قامت الإيديولوجية الصليبية الأولى . وكانت بنت زمنها . ولو ظهرت قبله أو بعده لما نجحت . وكانت نتائج هذه الحملة بالنسبة لنا على الأقل سلبية وأخطر بكثير من نتائجها في أوروبا . هنا دمرت وأوقفت العالم الإسلامي على قدم وساق . أما في أوروبا فقد خلصتها من الفائض البشري الذي كان يهز الأمن والسلام فيها بالقتال والجرائم . دفعت هذا الفائض إلى إسبانيا أولاً وصقلية ثم إلى المشرق تماماً كما فعلت أوروبا بالمكروهين من اليهود في القرن العشرين حين دفعتهم إلى بلادنا . بأيديولوجية أسطورية متناقضة كالصليبيين . فيما أعطت أوروبا الوحدة والسلام لفترة محددة .

وفتحت الصليبيات لأوروبا الطريق لأنظمة جديدة من الحياة والمجتمع والمؤسسات لم تكن تعرفها كما فتحت لها في الوقت نفسه آفاقاً جديدة أمام جموع الفرسان والتجار ورجال الدين .

وبدون أن نستثني جنوب أوروبا الذي كانت المصالح الاقتصادية تقوده مع الصليبيات لا الإيديولوجية البابوية فإنه ما من حركة من التاريخ حملت اسماً مناقضاً لحقيقتها مثل هذه الحروب الصليبية وما من حرب عبثية قامت على أرجل من أساطير وأوهام دينية مثل هذه الحروب سوى ما نشهد اليوم من الحركة الصهيونية . وقد اعتمدت الحركتان في إيديولوجيتهما على سوء تفسير الكتاب المقدس . فهل نستطيع أن نقول إنا كنا في قرن الصليبيات وفي هذا القرن ضحية سوء تفسير هذا الكتاب ؟

الدكتور : شاكر مصطفى

الظاهر بيبرس

هاني المبارك *

في عام ١٩٦٣ صدر كتاب من سلسلة أعلام العرب يحمل اسم الظاهر بيبرس ويحمل هذا الكتاب رقم ١٤ من أعداد هذه السلسلة الثقافية. وقدسألني يومئذ طالب في جامعة عربية – كنت أدرس فيها مادة التاريخ العربي والإسلامي – قال: كيف جعل مؤلف هذا الكتاب، الظاهر بيبرس، علماً من أعلام العرب؟ واسمه يدل على أنه غير عربي.

اسمحوا لي أن يكون الجواب على هذا التساؤل مدخلاً لحديثي عن بيبرس. أرجو في البداية أن ننظر بمنظار الفترة التاريخية التي عاش فيها الظاهر بيبرس. وأن نتساءل بتجرد وموضوعية وواقعية من هو العربي؟ هل هو الذي ولد من أبوين عربيين فقط؟ وهل هو أيضاً من قضى خمس سنوات في بلد عربي فحمل جنسية ذلك البلد؟ أم هو الإنسان الذي حمل قلباً ينبض بحب العرب، وبالغيرة على شعوبهم وأرضهم ومصالحهم، ويتفطر قلبه وتدمع عيناه دماً إذا سمع باحتلال العدو لبيت المقدس، ويبذل الدم والروح للذود عن أرض العرب ومقدساتهم، من هذا المنطلق ومن خلال هذا المنظار يكون بيبرس أكثر عروبة من كثير من الذين يحملون أسماء عربية ويزعمون أن الدم العربي يجري في عروقهم.

لقد أحسن المؤلف في اختياره شخصية الظاهر بيبرس كعلم من أعلام العرب. فالمرء كما قال رسول الله (ص) بأصغريه قلبه ولسانه.

النقطة الثانية التي لابد من التعرض إليها في بداية الحديث عن الظاهر بيبرس كونه بدأ حياته عبداً رقيقاً عندما وصل إلى البلاد العربية. وهذا أمر يشاركه فيه معظم المماليك فهم في أصولهم عبيد أرقاء كانوا يُشرون ويباعون في أسواق النخاسة، ومن أوائل من جلب المماليك إلى مصر هو ابن أحدهم – أحمد بن طولون – وتابعه على ذلك الفاطميون والأيوبيّون وكان معظم هؤلاء المماليك من الصقالبة والشراكسة والترك والمغول والروم والصرب.

وكان التجار يأتون بهم صغاراً ويُربَّون تربية إسلامية ويتعلمون العربية ويصبحون كأبناء البلاد طباعاً وعادات. كان حكام مصر يضعون المماليك في ثكنات برعاية

---

* باحث في التاريخ

مسؤولين عنهم، ويعين لهم فقهاء ومدرسون يعلمونهم مايحتاجون إليه في حياتهم، كما يجري تدريبهم على الفروسية وطرق المبارزة والقتال، وخلال هذه المرحلة من حياة المماليك تظهر مواهبهم، وحين يعجب السلطان بأحدهم يُخرجه من زمرة الرقيق ، فيصبح حراً ويمنحه إقطاعاً ومرتباً ليعيش منه وربما منحه لقب أمير.

يقول أحد المؤرخين لتاريخ المماليك في مصر[1] : لايمكن لنا أن ننظر إلى المماليك على أنهم دخلاء أو جانب ... فقد وفد معظمهم إلى مصر صغاراً وتعلموا فيها،... وتحدثوا بلغة أهلها، واعتنقوا دين السواد الأعظم من أبنائها وهو الإسلام . يحنّون إليها إذا غابوا عنها، ويجاهدون في سبيلها إذا تعرضت لخطر، لا وطنَ لهم غيرُها، فهم وإن كونوا لأنفسهم طبقة خاصة لها ميزاتها إلا أنهم يشكلون شريحة من شرائح المجتمع في مصر. ومن الظلم أو مجافاة الحقيقة أن نعتبرهم أجانب أو غرباء في مصر.

والنقطة الثالثة التي لابد من الإشارة إليها عند الحديث عن المماليك أو عن أحد سلاطينهم هي الظاهرة التي نلحظها في تاريخ المماليك وهي ميلهم إلى التمرد والعنف والقتل وحبك المؤامرات، والغدر وتصل أحياناً إلى التعذيب والتمثيل ورفع رؤوس أعدائهم على الرماح ...

التعليل الذي أراه لهذه الصفات المشتركة لدى معظم المماليك هو أنهم لم يعيشوا حياة أسروية طبيعية، فلم يعرفوا حنان الأمهات ولا عطف الآباء ولا حب الأخوة والأخوات بل بِيعَ أكثرهم في سن الطفولة وعاشوا منذ نعومة أظفارهم حياة الرق والعبودية وهم يتنقلون من يد سيد إلى يد آخر، وكل ما نما عندهم من مشاعر هو رباط الزمالة فيما بينهم، لذلك نراهم يرعون حق هذه الزمالة أكثر من أي شيء آخر، إضافة إلى تقديرهم لقوة الواحد منهم، تلك القوة التي يفاخرون بها، ويرونها الوسيلة التي ترفعهم من المنزلة التي هم فيها إلى مرتبة السلطة حيث التقدير والاحترام بعد الذل والعبودية. إذن المملوك من هؤلاء يرى في قوة شخصيته وحبه للمغامرة واستخدام الدهاء والغدر والذكاء تعويضاً لما كان يشعر به من ذيول أيام الرق.

---

(١) وهو د. محمد عبد العزيز مرزوق في كتابه الناصر محمد بن قلاوون ص ٧٩ من سلسلة أعلام العرب رقم ٢٨.

للأسباب التي ذكرناها فيما سبق من الرق الذي فرضته الظروف علـــى المـــاليك وللحياة غير الطبيعية التي عاشوها في طفولتهم وماتبعها من مراحل حيـــاتهم، وللظـــروف التاريخية التي اتصف بها عصر الظاهر بيبرس من حروب وعدوان علــــى بــلاد العـــرب والمسلمين ... هذه العوامل الخاصة بالمماليك والعامة بالنسبة للعصر وميزاته تركت آثـــاراً عميقة في شخصية بيبرس ظهرت في أعماله وتصرفاته من شدة حذر، وعـــدم ثقـــة بمـــن حوله، ورغبة بالانطلاق نحو تحطيم الأغلال التي كان يشعر بها، وربما يمكننا أن نضيـــــف قوة إيمانه مما جعله يكرس حياته للدفاع عن البلاد العربية التي غدت وطناً له عاش فيـــــها منذ طفولته وما عرف وطناً غيرها، وللدفاع عن المقدسات التي آمن بها عقيدة، ومواقع لهـا في نفسه الكثير من الحب والتقديس وقد رأى عدواناً يهددها فانبرى يُثبت رجولته وحريته وبطولاته من خلال الدفاع عنها والاستماتة في سبيلها.

عصر بيبرس وما سبقه ولحق به من أيام وأحداث يفسر لنا الكثير من العوامل التي أظهرت ميزات شخصيات لمعت خلالها من أمثال عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وصلاح الدين الايوبي والأشرف خليل بن قلاوون، والناصر محمد بن قلاوون...

إنه عصر الجهاد والتصدي للغزاة الفرنجة الصليبيين والمغول، ورغم الانتصارات الـــتي أحرزها الزنكيون والأيوبيون على الصليبيين، فإن الخطر مازال جاثماً على الصدر العـــربي في كثير من المدن والمواقع على الساحل الشامي، بل وظهر خطر جديد هو خطـــر الزحـــف المغولي مما جعل بلاد الشام ومصر في حالة خطر وحرج بعد أن أصبح حكام مصر والشـــام بين فكي تمساح خطير. ويقول ابن الأثير بأن المسلمين لم يمروا بمثل هذه المحنة منذ أن بعث نبيُّهم عليه الصلاة والسلام [٢] . وكان من أخطر مظاهر هذه المحنة زوال رمز وحدة العـــرب والمسلمين بالقضاء على الخلافة العباسية في بغداد ومقتل الخليفة على يد المغول وزعيمـــهم هولاكو عام ٦٥٦هـــ / ١٢٥٨م.

كان من حسن حظ عهد بيبرس أنه ورث طريق التجارة الرئيسي بـــين الشـــرق والغرب مروراً بمصر والبحر الأحمر، فتدفقت ثروة طائلة على حكام مصر من المـــماليك مكنتهم من العيش برخاء منقطع النظير وحققوا أحلامهم في حياة القوة والبذخ والـــترف،

(٢) نقل قول ابن الأثير مؤلف كتاب الظاهر بيبرس، من سلسلة أعلام العرب رقم ١٤ ص ١١.

في الوقت الذي تعطلت فيه طرق الخليج العربي والعراق وإيران بسبب غارات المغول وتوسعهم وما خلفوه من دمار وخراب.

هذه هي أبرزُ صفات العصر الذي حكم فيه الظاهر بيبرس، وأبرزُ ميزاته.

نشأة بيبرس :

عرفنا فيما سبق ذكره كيف وجدت طبقة المماليك، وكان بيبرس واحداً منهم، ومن الطبيعي ألا نعرف الكثير عن حياة بيبرس خلال طفولته وهو عبد رقيق ولاشك بأن الخيال يلعب دوراً كبيراً في مثل هذه الأحوال عند كتابة حلقات مفقودة من حياة عظيم ملأت سمعته بلاداً واسعة حتى نشأت من سيرته قصص شعبية اختلطت فيها الحقيقة مع الأسطورة واختلط الخيال مع الواقع حتى غدا الظاهر بيبرس بطلاً أسطورياً.

من الأمور التي أجمع عليها مؤرخو سيرة بيبرس أنه تركي الأصل أسره التتار وهو طفل من جنوب روسيا ـ بلاد القفجاق ـ وذلك عام ١٢٤٢م، وتنقل على أيدي النخاسين حتى وصل إلى مدينة حماة حيث اشتراه أحد أمراء المماليك ـ علاء الدين البندقدار ـ وانتقل معه إلى مصر.

ثم حدثت خطوة كان لها تأثير كبير في مستقبل بيبرس، وهي مصادرة الملك الصالح نجم الدين أيوب للأمير علاء الدين فانتقلت بذلك ملكية بيبرس إلى سيد البلاد الصالح فأعتقه وغدا من أهم رجاله وكانت فرصة أمام الفتى بيبرس ليثبت لسيده حاكم البلاد وصاحب اليد البيضاء عليه، أنه الرجل الذي يعتمد عليه في الملمات.

في هذه الفترة تعرضت مصر لخطر حملة صليبية قادها ملك فرنسة لويس التاسع

- وهي الحملة التي عرفت بالحملة السابعة ويزيد من خطر الموقف وفاة الملك الصالح.
- في أواخر عام ١٢٤٩م – وكان ابنه تورانشاه بعيداً عن مصر – لأنه كان يحكم حصن كيفا في العراق – وتسلمت زمام الأمور زوجة أبيه شجر الدر، واقتحم الصليبيون مدينة المنصورة وكادوا يحققون النصر لولا حماسة الشعب واندفاع المماليك البحرية وفي مقدمتهم بيبرس الذي أظهر بطولة نادرة، وانتهت المعركة بهزيمة منكرة حلّت بالفرنجة، فقتل منهم الكثير، وأسر ملكهم وقادتهم، وارتفع اسم المماليك وازدادت شهرتهم ومكانتهم لبلائهم البطولي وفي مقدمتهم بيبرس.أما السلطان الجديد تورانشاه فقد رأى في زعماء المماليك

منافساً ومشاركاً له في السلطة، مما آثار الريبة في نفوس الطرفين، وزاد في التباعد والكراهية بينهما سوء أخلاق تورانشاه وانغماسه في لهوه وملذاته وموقفُه من زوجة أبيه شجر الدر التيّ شجعت أمراء المماليك على التخلص منه، وفي أول فرصة سنحت قام بيبرس بقتله بمشاركة زملائه عام ١٢٥٠م. وكان الأمير المملوكي عز الدين أيبك قدْ تزوج من شجر الدر وأصبح سيد البلاد وخشي على عرشه من رفاقه زعماء المماليك وبدأ بالتخلص منهم ودبر مؤامرة انتهت بقتل أحد كبارهم ــ فارس الدين أقطاي – وأدرك الآخرون ما ينّتظرهم وفي مقدمتهم بيبرس ففروا إلى بلاد الشام قبل أن يصبحوا ضحايا لمؤامرة جديدة يحيكها أيبك.

بيبرس في الشام:

دخل بيبرس في خدمة صاحب حلب – الناصر يوسف الأيوبي – الذي كان قد حاول انتزاع مصر من يد أيبك لكنه هزم عند العباسية عام ١٢٥٠م لهذا رحب بخصوم أيبك وفي مقدمتهم بيبرس. لكن تطور الأحداث في مصر غيَّر من موقف بيبرس ورفاقه فقد تمَّ قتل خصمهم عز الدين أيبك في مؤامرة دبرتها زوجه شجر الدر لرغبته بزواج من ابنة حاكم الموصل ــ بدر الدين لؤلؤ – لكن مماليك أيبك انتقموا له بقتلهم شجر الدر واختاروا ابنه علياً – وهو في الخامسة عشرة من عمره – سلطاناً وتولى النيابة عنده أحد زعمائهم سيف الدين قطز. أما بيبرس فقد ساءت علاقته مع صاحب حلب – الناصر يوسف الأيوبي – بعد صلح الأخير مع إيبك في أيامه الأخيرة، فأنتقل بيبرس وأصحابه إلى الكرك وأغروا صاحبها – المغيث عمر – بغزو مصر لكنهم هزموا أمام قوات قطز.

لكن الظروف تبدلت مما اقتضى الأمر وجوبَ تقارب وتفاهم بين قطز وبيبرس، وذلك بوجود خطر يهددهم جميعاً وهو خطر زحف المغول من العراق بعد سقوط بغداد وخلافتها العباسية على أيديهم عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م واتجهت جموعهم كالوحوش الكاسرة وكموجات النار المحرقة نحو بلاد الشام ومصر. فلم يكن أمام قطز إلا أن يعلن نفسه سلطاناً – بدلاً من الفتى الصغير علي بن أيبك – وأن يعيد إلى صفوفه تلك المجموعة من المماليك الذين فروا إلى الشام وعلى رأسهم بيبرس.

نلاحظ في هذه الفترة العصيبة والخطيرة من تاريخ منطقة بلاد الشام ومصر أمام الخطر الجاثم على صدرها والمتمثل بالمواقع الصليبية، والخطر الزاحف عليها من الشرق والمتمثل بالزحف المغولي أقول نلاحظ موقفاً مشرفاً للظاهر بيبرس وكان يومئذ في دمشق حيث رأى ضعفَ إيمان بعض الأمراء – من أمثال الأمير زين الدين الحافظي – وانهيار أعصابهم وخوفَهم على مكتسباتهم وثرواتهم وكراسي حكمهم، فقاموا يمالئون المغول وينادون بالاستسلام لهم وكأنهم لم يروا ما أصاب بغداد وخليفتها بعد الاستسلام. لقد وقف بيبرس موقفاً كله شرف وبطولة حين شتم أمثال هذا الأمير المتخاذل وقال: " أنتم سبب هلاك المسلمين ".

دعا بيبرس أمام ذلك الخطر المحدق بالعرب والمسلمين إلى وحدة الصف، وتناسي الأحقاد، وعدم الاستسلام، واتجه إلى غزة، وأرسل إلى سلطان مصر قطز يطلب منه نسيان كل خلاف وطيّ الصفحة الماضية. ووضَعَ نفسه تحت تصرف قطز ليكون ومن معه جزءاً من قوة المسلمين أمام الخطر الزاحف والمهدد للجميع.

هذا ما فعله زعيم من زعماء المماليك في القرن الثالث عشر أمام خطر المغول لتكون الأمة صفاً واحداً متناسياً خلافاته مع سادة مصر أمام العدو الغاشم.

إنه موقف مشرف ردّ عليه قطز بموقف مشرف مقابل حين أعطاه وصحبه الأمان فتعاقدت الأيدي وتوحدت الكلمة والصفوف فكانت النتيجة الحتمية لهذا الإخلاص والصدق في القول والفعل نصراً أحرزه المخلصون في عين جالوت.

كم تتشابه أحداث التاريخ حتى ظن بعضهم أن التاريخ يعيد نفسه، فبينما لا يعود التاريخ ولاتعود أحداثه ولا رجاله، وإنما تمر عبر عصوره وأيامه صور متشابهة فمنهم من يستفيد من دروسه وعبره، ومنهم من يبقى سادراً في غيه ولهوه ونومه غير مقدر خطورة الأحداث...

بيبرس وعين جالوت:

وصل المغول بزحفهم المدمِّر إلى غزة والخليل بعد أن مرت جحافلهم بمعظم مدن بلاد الشام وأعملوا فيها النهب والفتك والسبي...

ويرسل السلطان قطز طليعة من قواته وعلى رأسها ركن الدين بيبرس للتصدي للغزاة المغول قبل أن تطأ أقدامهم أرض مصر، بينما بقي قطز يستنفر الناس للجهاد...

وهنا تبرز مواهب بيبرس ...

كان المغول في بلاد الشام يعيثون فساداً بقيادة كتبغا وقد وصلت مقدمتهم إلى غزة بقيادة بيدرا الذي طلب النجدة من سيده - كتبغا - وكان حينئذ في بعلبك.

استشار قطز قادة جيشه من زعماء المماليك عندما تلقى رسالة من هولاكو امتلأت بالتهديد وبالهلاك إن لم يعلن الاستسلام. فكان الرأي المقاومة والصمود والقتال أمام طوفان يمثل الدمار والموت والعذاب. وهذا ماقرره قطز وأيده في رايه بيبرس.

هاجم بيبرس بالطليعة التي يقودها، مقدمة جيش المغول واضطرهم إلى التراجع من منطقة غزة بعد أن أنزل بهم هزيمة منكرة حطمت معنوياتهم ورفعت من معنويات العرب المسلمين، وتحطمت أسطورة الغول المغولي المخيف الذي لا يُقهر.

أثارت الهزيمة غضب كتبغا، فاستنفر قواته المغولية في بلاد الشام وزحف على رأسها إلى أرض فلسطين باتجاه مصر.

وكان قطز قد استنفر الأهالي والمماليك وتجمع لديه جيش كبير، وخرج على رأسه من مصر إلى فلسطين، وتجمعت قوات قطز مع قوات بيبرس ووضعت خطة عسكرية فيها الدهاء لجرّ العدو إلى مكان المعركة، وأخفى قطز معظم قواته عن أعين المغول وسط أحراش وبساتين وظهر على مسرح القتال بيبرس بقواته القليلة مما أغرى كتبغا بالهجوم عليها لسحقها، وخرجت فجأة قوات قطز وانقضت على المغول كما أنقض بيبرس عليها بقواته واعملوا فيها قتلاً فأسقط في يد المغول وفقدوا صوابهم وغدت قواتهم بين قتيل وأسير وفار ناج بنفسه وحلّت بهم هزيمة منكرة في معركة حاسمة في تاريخ العرب وفي تاريخ الحضارة التي نجت من هلاك محقق ودمار أكيد وذلك على أرض فلسطين عند قرية عين جالوت (في شهر أيلول عام ١٢٦٠م/٦٥٨هـ) وكان للقائدين الكبيرين قطز وبيبرس دور كبير في انتصار العرب والمسلمين في معركة عين جالوت بما وضعاه من خطة عسكرية ومما أظهراه اثناء القتال من حماسة واستماتة وفروسية جعلت أفراد قواتهما تقلدهما في طلب النصر مع الفخر والشرف أو طلب الشهادة.

لقد غدت معركة عين جالوت إحدى معارك العرب والإسلام فخراً لأبناء هذه الأمة وفخراً للزعيمين المملوكين السلطان قطز والأمير بيبرس.

زادت معركة عين جالوت من حدة التنافس بين قطز وبيبرس والصراع بينهما، وكأن الدور العسكري الكبير الذي قام به بيبرس زاده اعتداداً بنفسه، وثقة بإمكاناته كما

زاده شهرة وشعبية فصار يتطلع إلى مركز يليق به، فاشتد خلافه مع رفيقه قطز وبخاصة بعد أن نكل قطز بوعده له بتوليته نيابة حلب ـ ولو فعل لكسب فارساً نادر المثال ـ لكنه بفعله أوغر صدر بيبرس وملأه حقداً وكراهية، وجعله يضمر له السوء فدبر مؤامرة مع بعض رفاقه من قادة المماليك البحرية، وحين وصل موكب قطز في طريق عودته ومازال يعيش نشوة انتصاره في عين جالوت، إلى موقع الصالحية، قريباً من القاهرة، وبعد انتهائه من حفلة صيد هناك تم تنفيذ المؤامرة وانقضت عليه سيوف بيبرس وصحبه في شهر تشرين أول ١٢٦٠م فقضى نحبه تاركاً الأبواب مُفتَّحة أمام بيبرس ليلج عبرها إلى عرش السلطنة.

بيبرس السلطان:

طريقة بيبرس في وصوله إلى عرش السلطنة هي غالباً طريقة زعماء المماليك في تحقيق طموحاتهم، فهم لايعتمدون أسلوب الوراثة أو الانتخاب، بل يلجأون إلى القوة وهي وحدها سبيلهم إلى السلطة والحكم، وإذا وجدنا أحدهم يصل بالوراثة أو الاختيار فهو أمر موقت تبقيه القوة أو تزيحه القوة. وتستخدم مع القوة أساليب الغدر والتآمر والخداع والاغتيال، يُستخدم في ذلك المقربون من الضحية من حرس ونساء وخدم ومماليك.

في ٢٣ تشرين أول ١٢٦٠م دخل بيبرس قلعة الجبل مركز الحكم في القاهرة من أكبر أبوابها ليتخذ لقب الملك الظاهر، وقد رأى فيه مؤرخو دولة المماليك المؤسس الحقيقي لهذه الدولة وقد بقي جالساً على عرشها سبعة عشر عاماً وهي من أطول فترات حكم سلاطين المماليك مما يزيدنا معرفة بمزايا بيبرس وبقدراته ومواهبه التي ساعدته على ذلك.

اتبع بيبرس سياسة خارجية تقوم على أمرين رئيسين هما :

١ - التوسع لتشمل دولته إضافة إلى مصر والشام الحجاز وأماكنه المقدسة، مما يعطي دولته مكانة إسلامية رفيعة، وتصبح مهوى أفئدة المسلمين في العالم، ولتشمل أيضاً أطراف الجزيرة العربية وبخاصة اليمن لتكون لدولته السيطرة الكاملة على الملاحة في البحر الأحمر وهو من أهم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب يومئذ. أي قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

كما حاول بيبرس التوسع جنوباً في وادي النيل، وهي سياسة كل حاكم قوي عرفته مصر عبر تاريخها ليصل إلى منابع النيل إن أمكنه ذلك.

٢ - الأمر الثاني في سياسة بيبرس الخارجية، متابعته سياسة الجهاد لتحرير بلاد الشام من الفرنجة الصليبيين ومن المغول.

ومن أجل ذلك ولتحقيق الهدفين السابقين عمل بيبرس على إحياء الخلافة العباسية في القاهرة - بعد أن كانت قد انتهت في بغداد على يد هولاكو - لتكون هذه الخلافة رمزاً لوحدة المسلمين ويستظل هو بظلها كحاكم فعلي.

ومن أجل ترسيخ سياسته هذه عمل على توطيد الأمن والاستقرار في أنحاء دولته، وقام بإصلاحات تستهدف زيادة قوة الدولة وزيادة تأييد الشعب له.

إحياء الخلافة العباسية أو سياسته الإسلامية:

كانت أهداف بيبرس في إحياء الخلافة العباسية عديدة وأهمها:

١ - جمع كلمة المسلمين وتوحيدهم تحت مظلة الخلافة صورياً وتحت حكم بيبرس حقيقة وعملياً.

٢ - إنهاء وضع غير شرعي للمماليك في الحكم، فضلاً عن وضعهم برأي الجماهير كأرقاء ...

٣ - دعم لموقف العرب، والمسلمين أمام الخطر الكبير المتمثل بالغزاة الفرنجة الصليبيين، والمغول الزاحفين كطوفان جارف.

أحيا بيبرس الخلافة العباسية ممثلة بشخص أحمد بن الخليفة الظاهر محمد العباسي، ورافق هذا الحدث الكبير احتفالات عظيمة، ولقبه بلقب المستنصر بالله، وأمر بالدعاء له، وبنقش اسمه على النقود مع اسم الظاهر بيبرس وذلك عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م. ونال بيبرس تقليداً رسمياً من الخليفة، الذي أقامه، بحكم مصر والشام ودياربكر والحجاز واليمن والجزيرة الفراتية وما يتجدد من فتوحات...

ويذكر بعضهم بأن بيبرس ندم على ما أقدم عليه خشية على سلطته ونفوذه ولهذا عمد إلى التخلص من الخليفة المستنصر الذي أقامه بإرساله إلى العراق، لاسترداد بغداد من المغول، وهو يعلم أن النتيجة لمثل ذلك هو مقتل الخليفة وهذا ماحدث فعلاً. لكن الأمر الذي ينفي هذا الزعم هو أن بيبرس واثق من صحة الخطوة التي خطاها ومن نجاحها في

تحقيق أهدافه المرجوة منها لذلك أعاد الكرة أقام خليفة آخر في القاهرة هو الأمير العباسي أبو العباس أحمد الذي حمل لقب الحاكم بأمر الله (٦٦١هـ / ١٢٦٢م).

إن الخلافة التي أقامها بيبرس لم تكن تعطي صاحبها أية صلاحية أو نفوذ وهي كما وصفها المقريزي: ليس فيها أمر ولانهي وحسب الخليفة أن يقال له أمير المؤمنين. هكذا أرادها بيبرس، أن تكون رمزاً لوحدة المسلمين وسلاحاً تستخدم ضد الأعداء أما الحكم الفعلي فهو بيده.

يرتبط بموضوع الخلافة موقف بيبرس الإسلامي، فقد كان يظهر أمام رعيته بمظهر الحاكم الغيور على الإسلام فلم يكتف بإحياء الخلافة والتصدي لأعداء الإسلام وبلاد المسلمين، بل اهتم بعمارة الحرم النبوي في المدين المنورة، وعمارة قبة الصخرة في القدس ومقام إبراهيم في الخليل. وحين زار الحجاز وزع الهدايا والأموال على أبناء مكة والمدينة.

وعاب بيبرس على حاكم تونس المستنصر الحفصي لأنه لم يخرج لقتال الفرنجة الصليبيين عندما غزوا بلاده وقال له: مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين (٣).

اهتم بيبرس ببناء الجوامع ومنها الجامع الظاهري في القاهرة وأوقف له أوقافاً كثيرة (٤).

وعمل على إصلاح جامع الأزهر، وأعاد له نشاطه وصالة الجمعة فيه كانت متوقفة منذ عهد صلاح الدين.

بيبرس الفارس

حقق بيبرس هوايته ورغبته وأرضى إيمانه في قتاله للأعداء الغزاة، وحقق شعبية واسعة بذلك.

كان بيبرس يتنقل من جبهة يقاتل فيها الفرنجة الصليبيين، إلى جبهة يقاتل فيها المغول ولا يهدأ ولا يستقر له قرار، وصدق فيه قول القائل:

---

(٣) المقريزي في كتابه السلوك ج١ ص٦٠١ ــ كتاب الظاهر بيبرس ص١١٥/

(٤) المقريزي في كتابه المواعظ ج٢ ص٢٢٩ ــ كتاب الظاهر ص ١٥٠ /

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب كان بيبرس قائداً عسكرياً فذاً لايترك لعدوه فرصة للراحة أو التفكير فهو يترك حصناً استعصى عليه ليضرب حصناً آخر، يتابع أعماله العسكرية بسرعة تامة، وكان يتقن سياسة المحالفات، فقد استغل خلافاً وقع بين امبراطور بيزنطة - ميخائيل الثامن باليولوغ - وبين أمراء الصليبيين في إنطاكية، فأرسل رسولاً إلى القسطنطينية زار فيها الجامع ليطلع على تجديده من قبل إمبراطور بيزنطة بعد أن خربه الصليبيون في الحملة الرابعة، و لم ينس بيبرس أن يرسل الهدايا إلى الإمبراطور وإلى الجامع.

ووقف موقفاً مماثلاً مع ملك صقليه بهدف قطع مساعداته للفرنجة الصليبيين وبخاصة في إنطاكية وهي المدينة التي عزم بيبرس على تحريرها.

بعد فتح بيبرس لقلعة شقيف اتجه شمالاً فأغار على مواقع الأعداء على طول الساحل موهماًالعدو بأنه يريد فتحها، بينما كان هدفه الحقيقي مدينة إنطاكية وفاجأها وحاصرها ثم اقتحمها واستسلمت حاميتها عام ١٢٦٨م وكان سقوطها ضربة قاصمة للوجود الفرنجي الصليبي في بلاد الشام يماثل الضربة الأولى في تحرير الرها على يد عماد الدين زنكي والضربة الثانية في حطين وتحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي.

كان بيبرس فارساً بطلاً فضلاً عن كونه قائداً وسلطاناً فقد كان يشجع جنوده على الصبر والاستماتة ويتقدمهم ضارباً لهم المثل والقدوة فهو يشاركهم الأعمال العسكرية فقد شارك جنده في هدم أسوار قيسارية وجرحت يده أثناء ذلك وشارك في حفر الخندق ورمي السهام ومبارزة فرسان العدو، وشارك في أعمال جر المجانيق أثناء حصار صفد وتحريرها.

وكان يستخدم الحيلة بدهاء وذكاء لينال من عدوه من ذلك مافعله لفتح قلعة شقيف حين وقعت رسالة مرسلة من بعض الفرنجة الصليبيين إلى زفاقهم في تلك القلعة يحثونهم فيها على الصمود فعمد إلى من يتقن الفرنجية وأرسل رسالتين الأولى مرسلة من أهل عكا إلى قلعة شقيف يحذرونه فيها من بعض أعوانه، والأخرى مرسلة إلى هؤلاء

الأعوان يحذرونهم من قائد القلعة مما أوقع الريبة والخلاف بين الطرفين، وأدى ذلـــك إلى ضعف معنوياتهم وانتهى الأمر باستسلام القلعة عام ١٢٦٨ (٥) .

وكان يعتمد في تحركاته على السرية التامة ليفاجئ العدو في هجماته، وأخفى مـرة أمر سفره إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج مظهراً أنه في جولة إلى الكرك ويرافقـــها رحلـة صيد، وعندما فضح أحد أمراء المماليك سر رحلته إلى الحج أمر بقطع لسانه.

صورة أخيرة من صور بيبرس ومن مواقفه المشرفة:

بيبرس حاكم في جزء كبير ومهم من الوطن العربي، أدرك شدة الخطر الذي أحـدق به من الفرنجة الصليبيين الذين وطدوا أقدامهم في عدد كبير من المـــدن الســاحلية ومـن الحصون والقلاع وخطر آخر زاحف من الشرق يتمثل بجحافل المغول.

مات هولاكو عام ١٢٦٥م وخلفه ابنه أبغا وكان شديد الحقد علـــى المســلمين، وقامت بينه وبين الفرنجة الصليبيين مراسلات للتعاون ضد بيبرس وحاول أبغا الزحف على بلاد الشام أكثر من مرة لكن النصر كان حليف بيبرس في كل مرة، كما كـــان بيـبرس يضرب في الوقت نفسه قوات الفرنجة في عكا وغيرها من المواقع الصليبية ليمنع التقـــارب والتعاون المغولي - الصليبي. حتى اضطر الصليبيون في عكا إلى عقد صلح مع بيبرس لمــدة عشر سنين مما أدخل اليأس من النصر إلى قلب أبغا ودفع به إلى التخلـــي عـن محاولاتـه العدوانية نحو بلاد الشام.

نستطيع أن نجمل سياسة بيبرس الخارجية وبخاصة تجاه أعداء دولته وفي مقدمتـــهم الفرنجة الصليبيين، والمغول، ومملكة أرمينيا الصغرى ــ في كيليكيـــا ــ نجمـل موقفـه بكلمات قليلة وهي أن موقف بيبرس كان يتصف بالقوة وعدم التســـاهل بحـق البـلاد وسلامة أبنائها، وقد دلل على غيرة شديدة على أنحاء دولته وكان يتصدى لكل محاولـــة عدوان عليها وقد نجح بحماية دولته وتمزيق جموع أعدائها ومنعهم من محاولات التحـــالف وتوحيد الصفوف.

---

(٥) كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل ص١٦٤ ــ كتاب الظاهر ص ٧٠ /

أما سياسة الداخلية فكانت تقوم على رعاية أحوال رعيته وكان يخشى من حدوث ظلم من قبل أمراء المماليك وأتباعهم أو اغتصاب لحقوق الرعية، فعمد إلى إبعاد مساكنهم عن الأهالي، فأنشأ لهم دوراً خارج القاهرة، وكان يقوم بجولات تفتيشية، ويؤدب من تثبت إدانته بالإساءة للناس.

زاد بيبرس من الاهتمام بالفقراء وبخاصة خلال شهر رمضان حيث كانت مطابخه تقدم الطعام في كل يوم لخمسة آلاف منهم، كما كان يوزع كميات كبيرة من الخبز واللحم على الفقراء.

اهتم بيبرس كحاكم محب للإصلاح بأحوال دولته وعمل على القيام بإصلاحات واسعة منها في المجال الاقتصادي والأمني.

ومن إصلاحاته اهتمامه بالبريد ومحطاته البرية، وأبراج الحمام الزاجل، حتى وصل إلى درجة عالية من الدقة والسرعة. وكانت الرسالة المهمة ترسل بنسختين مع حمامتين ضماناً لوصول واحدة منهما على الأقل.

ولاية العهد ووفاة بيبرس:

الحكم عند المماليك ينتقل حسب أعرافهم إلى الزعيم الأقوى منهم بعد وفاة السلطان أو مقتله.

لكن بيبرس تأثر - ككل حاكم - بعاطفة الأبوة وأراد أن يجعل ابنه السعيد - خاقان بركة خان-ولياً للعهد، مخالفاً بذلك التقاليد المملوكية، ومن أجل ذلك جمع الفقهاء والقضاة والأمراء وقرأ عليهم التفويض بالعهد لابنه (٦). لكن ما كان مخالفاً لاعراف المماليك وتقاليدهم لايمكن أن يستقر فكثرت المؤمرات بعد وفاة بيبرس إلى أن استقر الحكم لأحد كبار زعماء المماليك، قلاوون.

توفي بيبرس في دمشق في ٣٠ حزيران ١٢٧٧م/٢٨ محرم ٦٧٦ هـ بعد أن تجاوز الخمسين من عمره وقد دام حكمه سبع عشرة سنة وشهرين واثني عشر يوماً.

---

(٦) المقريزي في كتابه السلوك ج١ ص٤٦٨/

مراجع البحث

١- الكامل في التاريخ ابن الأثير

٢ - بدائع الزهور في وقائع الدهور ابن إياس

٣ - الظاهر بيبرس في القصص الشعبي عبد الحميد يونس

٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة أبو المحاسن

٥ - الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره محمد جمال الدين سرور

٦ - كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد مفضل بن أبي الفضائل.

٧ - السلوك لمعرفة دول الملوك المقريزي

٨ - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المقريزي

٩ - الظاهر بيبرس - من أعلام العرب - د. سعيد عبد الفتاح عاشور

١٠ - الناصر محمد بن قلاوون - من أعلام العرب-د. محمد عبد العزيز مرزوق.

الطبيب الرحالة ابن بطلان

الدكتور فيصل دبسي*

شخصية ابن بطلان:

هو المختار بن الحسن بن عبدون الحكيم أبو الحسن الطبيب البغدادي المعروف بابن بطلان ، طبيب منطقي نصراني من أهل بغداد . أخذ العلوم عن علماء زمانه من نصارى الكرخ في بغداد، فقد اشتغل على أبي الفرج عبد الله بن الطيب وتتلمذ له، وأتقن عليه قراءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها ، ولازم أيضاً أبا الحسن ثابت بن ابراهيم بن زهرون الحراني الطبيب واشتغل عليه ، وانتفع به في علوم الطب وممارسته . درس الفلسفة والطب وكان له إلمام بعلوم الفلك ، وهذا ظاهر في كتاباته عن الأوبئة التي انتشرت في زمانه . ويبدو أن إتقان العلوم الطبية كان يستوجب تعلم الفلسفة والفلك في تلك العصور. كما أنه كان جيداً في اللغة والأدب .

كان ابن بطلان مشوه الخلقة مغرورا ومتعجرفا ، وكان يرتزق من ممارسة الطب ، إنما لم يكن همه فيه جمع المال ، فقد هاجر من بغداد ولم يعد إليها وكان هدفه من رحلته هو الشهرة والمجد . وأنه لما دخل حلب تقرب من أميرها ثمال بن صالح المرداسي ، الذي قربه وأكرمه كثيراً، وولاه أمور النصارى في عبادتهم إلا أنه كان مكروها منهم . وكان ابن شرارة وهو طبيب نصراني حلبي — يقول: لم يكن اعتقاده مرضياً . وينقل عن راهب انطاكي أن الموضع الذي فيه قبر ابن بطلان ، من الكنيسة التي استوطنها وجعلها معبداً لنفسه ، إذا ما أوقد فيه سراج انطفأ . وللحلبيين النصارى هجو قالوه عندما تولى أمرهم في كنائسهم وتقرير صلواتهم وعباداتهم على أصولهم.

سافر إلى مصر وأقام فيها سنوات وكان هدفه الالتقاء بعلي بن رضوان الفيلسوف والطبيب المشهور في ذلك الوقت ومناظرته وإفحامه . فقد كان ينتقده ويسفه آراءه . كان ابن رضوان قبيحاً أسود اللون ، وكان ابن بطلان يعيره بذلك ويلقبه بتمساح الجن ، حتى إنه كان يقول فيه :

---

* أستاذ في كلية الطب — باحث في معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب

فلما تبدى للقوابل وجهه نكصن على أعقابهن من الندمْ

وقلن وأخفين الكلام تستراً ألا ليتنا كنا تركناه في الرحمْ

كان ابن بطلان أعذب ألفاظاً وأكثر ظرفاً وأنير في الأدب وما يتعلق به، وقد كان ينظم الشعر ، بينما كان ابن رضوان أقدر في الطب وعلوم المنطق والفلسفة وما يتعلق بها.

إن من يدرس أفكاره يلاحظ أنه كان مؤمناً ، وكان يعتقد أن المرء كلما تعمق في الفلسفة والمنطق ازداد إيمانه . وكان يحترم آراء الأقدمين من اليونانيين في الفلسفة والطب ويقدسها ، ويجد لهم الأعذار والتبرير إن وجد تناقض في أقوالهم ، حتى إنه يعيب على ابن رضوان مخالفته لهم وذكر تناقضاتهم .

كان ابن بطلان ضليعاً في فلسفة اليونانيين وفي طبهم ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب تقويم الصحة في قوى الأغذية ودفع مضارها ، وكتاب دعوة الأطباء وهي مقامة ظريفة على نمط كليلة ودمنة ، وكتاب اشتراء الرقيق . وله مقالة في سبب نقل الأطباء تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج واللقوة ، ومخالفتهم في ذلك لمؤلفات القدماء صنفها سنة ٤٥٥هـ في إنطاكية. وله مقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة .

ولابن بطلان أشعار ونوادر ظريفة ضمن منها أشياء في رسالته التي سماها " دعوة الأطباء وفي غيرها من كتبه .

قضى عمره عازباً ولذلك يقول :

ولا أحد إن مت يبكي لميتتي سوى مجلسي في الطب والكتب باكياً

ترهب في السنوات الأخيرة من عمره إذ لم يستطع التلاؤم ومن حوله في المواطن التي أقام فيها ، فعزف عن الدنيا ومتاعها وانشغل بالتأليف وبناء بيمارستان إنطاكية وأطلق على نفسه اسم وأنيس . وقد توفي في عام ٤٥٨ هـ ـ ١٠٦٥ / ١٠٦٦ م. ودفن في الكنيسة التي التي كان يتعبد فيها في إنطاكية .

الوضع السياسي في المنطقة التي عاش فيها ابن بطلان منذ ٤٣٩ هـ (١٠٤٧/ ١٠٤٨ م) ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ / ١٠٦٦ م) .

غادر ابن بطلان بغداد عام ٤٣٩هـ (١٠٤٧ / ١٠٤٨) م وكانت العراق تحت حكم السلطان أبو كاليجار المزريان البويهي في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله .

وكانت سلطة السلاجقة في ذلك الوقت آخذة بالامتداد تحت قيادة طغرلبك ، وقد تأخر دخولهم بغداد حتى عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ / ١٠٤٩) م ولاتفاق تم بين طغرلبك وأبو كاليجار بوساطة الخليفة العباسي القائم بأمر الله حيث دخلها السلاجقة بعد وفلة أبي كاليجار .

وكانت حلب آنئذ تحت حكم ثمال بن صالح المرداسي أبي علوان ، ويدعى معز الدولة ، وهو رئيس بني كلاب ، وكان في الرحبة . وبعد وفاة حاكم حلب من قبل الفاطميين انوشتكين الدزبري جاء إليها ثمال وملكها تسليماً من أهلها وذلك في عام٤٣٤هـ . وبعد حروب مع الفاطميين ، انتصر فيها، تنازل عنها لصاحب مصر المستنصر بالله الفاطمي في عام ٤٤٩ هـ . إلا أن المستنصر رده عليها عام ٤٥٣ هـ . وقد توفي فيها عام ٤٥٤ هـ ودفن في القلعة. وكان ثمال بطلاً شجاعاً وكريماً أغنى أهل حلب بماله وعمهم بنواله ، وكان الفضلاء يقصدونه ويأخذون جوائزه . وقد حارب البيزنطينين كثيراً وانتصر عليهم .

أكرم ثمال ابنَ بطلان في حلب وقربه . وقد بنى في حلب بيمارستانا جدده فيما بعد نور الدين الزنكي وسمي باسمه .

غادر حلب بعد ذلك إلى إنطاكية واللاذقية وكانتا تحت حكم البيزنطيين في عهد الإمبراطورة زورى ZOE . وسافر بعدها إلى مصر عن طريق الشام وكانتا تحت حكم الفاطميين، حيث دخل مصر سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ /)١٠٥٠ م ، وأقام في مدينة الفسطاط التي تسمى الآن " أمبابة " وهي جزء من القاهرة الكبيرة ، وذلك في عهد دولة المستنصر بالله الخليفة الفاطمي الثامن الذي ملك ٥٨ سنة على دولة مترامية الأطراف ، حيث قابل علي ابن رضوان الحكيم والطبيب المشهور في ذلك الوقت ونـاظره . وابن رضوان هذا أشتهر في صناعة الطب وارتقى بعلمه فاتصل بالحاكم بأمر الله الفاطمي ، فجعله رئيساً للاطباء . كان من كبار فلاسفة الإسلام وكانت مناظراته حادة مع ابن بطلان فكان لايؤلف أحدهما كتابا إلا عمل عليه الآخر وشنعه . وقد بقي في مصر ثلاث سنوات ، غادرهابعد ذلك إلى القسطنطينية حيث أقام فيها مدة سنة في عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٩م) وذلك في دير الملك قسطنطين بظاهر القسطنطينية في عهد الإمبراطور كومنين الذي تسلم الحكم بثورة عسكرية عام ١٠٥٧ م خلعت الإمبراطور ميخائيل السادس الذي نصب بدوره عام ١٠٥٦ م وهو الابن المتبنى للإمبراطورة تيودورا أخت الإمبراطورة زوى التي توفيت عام ١٠٥٠م .

غادر ابن بطلان القسطنطينية إلى انطاكية ، وكانت في أيدي الروم ، وكان يتردد إلى حلب . وقد توفي ودفن في إنطاكية عام ٤٥٨ هـ (١٠٦٥/ ١٠٦٦م).

كان الصراع في ذلك الوقت شديداً بين سلطة الفاطميين والسلجوقيين في بغداد.

إذ قائد الجيوش في العراق ارسلان بن عبد الله البساسيري (وهو تركي الأصل من فارس) الذي تسلم بعد وفاة أبي كاليجار، استولى على السلطة وأعلن ولاءه للمستنصر الفاطمي ورفع في بغداد الرايات البيض المصرية، فاستنجد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بطغرلبك السلجوقي الذي دخل بغداد فهرب البساسيري إلى الموصل وجعلها شيعية فاطمية بالتعاون مع أميرها . امتدت بعد ذلك سلطة طغرلبك السلجوقي إلى الموصل وديار بكر وسنجار وأذربيجان وأرمينية. عاد البساسيري عام ٤٤٩هـ (١٠٥٧/١٠٥٨م) إلى دخول الموصل وبغداد وحمل الخليفة القائم بأمر الله على التنازل عن حقوقه للمستنصر الفاطمي وخطب باسمه معلناً ولاء بغداد للفاطميين وأخذ التبعية للمستنصر من العلماء قسرا. فخرج الخليفة القائم بأمر الله من بغداد إلى (حديثة عانة) حيث إضافة صاحبها.وعاد طغرلبك السلجوقي إلى بغداد عام ٤٥١هـ (١٠٥٩-١٠٦٠م) فهرب البساسيري فتبعه طغرلبك وقتله وأنهى بذلك سيطرة الفاطميين على بغداد التي دامت سنة كاملة.

ظهرت في ذلك الوقت الدعوة الإسماعيلية والدرزية. كما كان ابن سينا والبيروني موجودين في جرجان .

كانت الفتن المذهبية في العراق على أشدها بين بعض الفرق والمذاهب الإسلامية ، كما حدث فيها نهب وسلب مارسه جنود السلاجقة والأعراب وجند البساسيري .

الأوبئة والكوارث في زمن ابن بطلان:

انتشرت الأوبئة في ذلك الوقت في القسطنطينية ومصر والشام والحجاز والعراق وفيما وراء النهر ومات فيها خلق كثير .

يقول ابن أبي أصيبعة ،ونقلت من خط ابن بطلان فيما ذكره من ذلك : ومن مشاهير الأوباء في زماننا الذي عند طلوع الكوكب الأثاري في برج الجوزاء سنة ست وأربعين وأربعمائة، فإن في تلك السنة دفن في كنيسة لوقا بعد أن امتلأت جميع المدافن التي في القسطنطينية أربعة عشر ألف في الخريف. فلما توسط الصيف في سنة سبع وأربعين لم يوف النيل، فمات في الفسطاط والشام أكثر أهلها، وجميع الغرباء إلا من شاء الله. وانتقل

الوباء إلى العراق فأتى على أكثر أهله، واستولى عليه الخراب باقتتال العساكر المعتادية (السلاجقة والفاطميين)، واتصل ذلك بها إلى سنة أربع وخمسين وأربعمائة. وعرض للناس في أكثر البلاد فروح سوداوية وأورام الطحال (الطاعون)، وتغير ترتيبُ نوائب الحميات، واضطراب نظام البحارين، فاختلف علم القضاء في تقدمة المعرفة".

وقال ابن بطلان بعد ذلك : "ولأن هذا الكوكب الاثاري طلع في برج الجوزاء، وهو طالع مصر، وقع الوباء في الفسطاط بنقصان النيل في وقت ظهوره في سنة خمس وأربعين وأربعمائة . وصح إنذار بطليموس القائل :"الويل لأهل مصر إذا طلع أحد ذوات الذوائب (المذنب)، أنجهم (أي أصبح كالحا) في برج الجوزاء". ولما نزل زحل برج السرطان تكامل خراب العراق والموصل والجزيرة، واختلت دياربكر وربيعة ومضر وفارس وكرمان وبلاد المغرب واليمن والفسطاط والشام، واضطربت أحوال ملوك الأرض، وكثرت الحروب والغلاء والوباء، وصح حكم بطليموس في قوله :"إن زحل والمريخ متى اقترنا في برج السرطان زلزل العالم ".

ونقل ابن أبي أصيبعة أيضاً من خط ابن بطلان، فيما ذكره من الأوباء العظيمة العارضة للعلم بفقد العلماء في زمانه فقال :" ما عرض في مدة بضع عشرة سنة بوفاة الأجل المرتضى والشيخ أبي الحسن البصري، والفقيه أبي الحسن القدوري، وأقضى القضاة الماوردي، وابن الطيب الطبري، على جماعتهم رضوان الله. ومن أصحاب علوم القدماء أبو علي بن الهيثم وأبو الفرج عبد الله بن الطيب، ومن متقدمي علوم الأدب والكتابة: علي ابن عيسى الربعي، وأبو الفتح النيسابوري، ومهيار الشاعر،وأبو العلاء بن نزيك علي بن موصلايا، والرئيس أبو الحسن الصابئ، وأبو العلاء المعري. فأنطفأت سُرُج العلم وبقيت العقول بعدهم في الظلمة.

حدثت زلازل في العراق امتدت من الموصل إلى همذان. وحدث غلاء شديد رافقته مجاعة أكل الناس فيها الميتة والحيوان. وحدث حريق في بغداد شمل الكرخ وبين السورين واحترقت المكتبة التي أنشأها الوزير سابور بن اردشير سنة ٣٨٣ وكان فيها عشرة آلاف مجلد من أصناف العلوم ومائة مصحف بخط ابن مقلة.

رحلة ابن بطلان

بدأ ابن بطلان رحلته من بغداد عام ٤٣٩هـ في بداية شهر رمضان بالقارب في نهر عيسى (الفرات) حتى وصل مدينة الأنبار ثم مدينة الرحبة بعد تسع عشرة رحلة.

ويصف الرحبة بأنها في وسط منطقة تتوضع حولها حلب والأنبار وتكريت والموصل وسنجار والجزيرة، وهي تبعد عن قصر الرصافة مسيرة أربعة أيام. وقد لفت نظرة غنى مدينة الرحبة بالفواكه ففيها من الأنواع ما لا يحصى، فمن العنب فقط تسعة عشر نوعاً.

ثم وصل إلى الرصافة من الرحبة ومنها اتجه إلى حلب، وقد قطع المسافة بين الرصافة وحلب في أربع مراحل أو رحلات كانوا يرتاحون خلالها. ولما أقبل على حلب لفتت نظره بتميزها فيصفها بأنها بلد مسور بالحجر الأبيض، ويحوي السور ستة أبواب، يمر هذا السور قريباً من القلعة التي في أعلاها مسجد وكنيستان، وفي احدى هاتين الكنيستين مذبح كان إبراهيم عليه السلام يقدم قرابينه عليه. وفي أسفل القلعة مغارة كان يخبئ إبراهيم فيها غنمه، فإذا حلب، قدّم منه للناس، فكانت الناس تسأل بعضها " هل حلب إبراهيم". لذلك سميت المدينة حلب، إن هذه الأسطورة المتداولة بين الناس والتي نقلها ابن بطلان ليس بالضرورة أن تكون صحيحة، إنما تلفت النظر إلى اهتمامه بالمدينة والتساؤل عن سبب تسميتها. ثم يذكر ابن بطلان أنه يوجد في المدينة حول القلعة جامع وست بيع وبيمارستان صغير.

ويذكر ابن بطلان أن الناس في حلب تشرب ماء الصهاريج، وهي ماء المطر المجموع من الأسطحة. ويجري نهر قويق قريباً من بابها (ويقصد به باب إنطاكية فهو أقرب أبواب حلب من نهر قويق)، ويصف هذا النهر بأنه يزيد في الشتاء وينضب في الصيف. ثم يذكر أنه في وسط المدينة (داخل الأسوار) تقع دار علوة صاحبة البحتري. أما المنتجات الزراعية في حلب فهي قليلة من فواكه وبقول ونبيذ عنب، لذلك تستورد من البلاد القريبة الواقعة تحت سيطرة الروم، ويقصد بها لواء الإسكندرون.

إن وصف مدينة حلب هذا قد ورد في رسالة كتبها الطبيب ابن بطلان إلى الرئيس هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي في عام ٤٤٠ هـ في دولة بني مرداس في حلب.

ثم ينتقل ابن بطلان بعد ذلك إلى الحديث عن الجانب الفكري في المدينة فيذكر أن فيها من الشعراء جماعة منهم شاعر يعرف بأبي الفتح بن أبي حصينة، من أشعاره.

ولما التقينا للوداع ودمعُها ودمعي يُفيضان الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤا رطبا ففاضت مدامعي عقيقا فصار الكل في نحرها عقدا

وفيها كاتب نصراني له قطعة شعرية في الخمر يظنه ابن بطلان صاعد بن شمامة :

جافت صوارم أيدي المازجين لها فألبست جسمها درعا من الحبب

كما أن فيها شاعراً يافعاً اسمه أبو محمد بن سنان الخفاجي قد ناهز العشرين وعــلا في الشعر طبقة المحنكين، من قوله:

إذا هجوتكم لم أخش صولتكــم وان مدحت فكيف الريُّ باللهب ؟
فحين لم ألقَ لا خوفاً ولاطمعـــاً رغبت في الهجو اشفاقاً من الكـذب

كما يذكر أن في حلب شاعراً، اسمه أبو العباس يكنى بأبي المشكور، مليح الشـــعر سريع الجواب حلو الشمائل له في المجون بضاعة قوية وفي الخلاعة يد باسطة، وله أبيـــات إلى والده :

يــا أبــا العبــاس والفضـــل أبـــا العبـــــاس تكــــنى
أنـــت مـــع أمـي بـــلا شـــك تحـــاكي الكـــر كدنـــــا
أنبتـــت في كـــــل مجـــرى شـــعره في الـــرأس قرنـــــا

فأجابه أبوه :

أنـــت أولى بـــأبي المذمـــو م بـــين النـــاس تكــــنى
ليـــت لي بنـــت ولا أنـــت ولـــو بنـــت يحنـــا

وبنت يوحنا هذه مغنية إنطاكية في بلاد الروم مشهورة بالعهر والدعارة.

ويتحدث ابن بطلان عن الوضع الاقتصادي الجيد لحلب فيضرب مثلاً على نشـاط الحركة التجارية فيها بأنه في قيسارية الحرير (البز) عشرين دكانا لوكلاء (دلالين) يبيعـون فيها متاعاً قدره عشرون ألف دينار وهذا الوضع مستمر منذ عشرين سنة وحـــي ذلـك الوقت. وأنه ليس في حلب موضع خراب أصلا فكلها معمرة.

تقرب ابن بطلان في حلب من حاكمها ثمال بن صالح المرداسي الذي أحسن إليه وأكرمه إكراما كثيراً. وقد سأله ابن بطلان رد أمر النصارى في عبادتهم إليه فولاه ذلك، وأخذ في إقامة القوانين الدينية على أحوالهم وشروطهم فكرهوه. وكان بحلب رجل كاتب طبيب نصراني يعرف بالحكيم أبي الخير ابن شرارة، فكان إذا اجتمع به وناظره في أمر الطب يتطاول عليه ابن بطلان بما عنده من علوم المنطق والفلسفة فيحرجه، مما دفع ابن شرارة من الغيظ على الوقيعة فيه فحمل عليه نصارى حلب فكرهوه فلم يمكن لابن بطلان الإقامة بينهم فغادر المدينة.

من القصص التي حدثت مع ابن بطلان في حلب أن قاضيها كسرى قد أصيب بمرض في ركبتيه منعه من المشي، فجاء أبو غانم ابن بنت القاضي كسرى بابن بطلان الطبيب، فنظر إلى موضع الألم وقال: ادخلوه إلى حمام حارة واتركوه فيها حتى يغشاه الكرب ويضيق نفسه ولاتمكنوه من الخروج، فإذا غلبكم على رأيكم و لم يعد يحتمل وقام خارجاً بنفسه فخذوا ماء باردا واضربوا به فخذه إلى ركبتيه فإنه يبرأ. فأدخلوه إلى حمام الكنيسة عند باب الجامع، وهي حمام النطاعين وقد دثرت الآن، وفعلوا به ما قال، فأراد أن يخرج، فقالوا له : هاهنا جماعة عوراقم مكشوفة، فأصبر إلى أن نزيلهم من طريقك، ومنعوه من الخروج إلى أن زاد كربه و لم يطق الصبر، فنهض قائماً فرموه بماء بارد كما أمرهم، فاستمر ماشيا على عادته الأولى. فسئل ابن بطلان عن ذلك فقال : رايت هذا شيخاً مسناً ولايحمل مزاجه أن يسقى أدوية ويعمل له ضمادات فربما يؤذيه، فلم أر دواء ألطف من هذا.

إذا ذكر ابن بطلان ذكرت البيمارستانات. والبيمارستان كلمة فارسية تعني دار المرضى، ثم اختصرت بالاستعمال فصارت مرستان. وكانت في أول عهدها وخلال فترة طويلة من الزمن مستشفيات عامة مجانية تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية وعينية وعقلية، ويقدم فيها الدواء للمقيمين فيها والمراجعين لها، يدعمها دخل تغطية الأوقاف المخصصة لها. وكان البيمارستان منقسماً إلى قسمين منفصلين عن بعض، قسم للذكور وآخر للإناث، وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة وعدة وخدم وفراشين من رجال ونساء وقوام ومشرفين. وفي كل قسم من هذين القسمين عدة قاعات لمختلف الأمراض، فقاعة للأمراض الباطنة، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة (طب العين)، وقاعة للتجبير، وقاعة للأمراض العقلية. وكان الماء في البيمارستان جارياً، وفيها حمام، وصيدلية. كما كان للبيمارستان ناظر يشرف على إدارته، وهي من الوظائف الهامة. كما

كان له رئيس للاطباء (ساعور). وكان المحتسب يراقب عمل الأطباء ويمتحنهم قبل أن يأذن لهم بالممارسة. وللبيمارستان طريقتان للعلاج : علاج خارجي : أي أن المريض يعرض على الأطباء ثم يأخذ دواءه وينصرف ليتعاطاه في منزله. وعلاج داخلي : حيث يقيم المريض فيه حتى يشفى. وكان يتم في البيمارستان تعليم الطب وتدريب الأطباء، ويحوي بعضها مكتبة زاخرة بالكتب الطبية، مما يشبه معهداً أو كلية للطب في الوقت الحاضر.

بنى ابن بطلان بيمارستاناً في حلب واختار له البقعة التي هو فيها الآن سائر بقاعها بلحم علّقه في أماكن حلب بأسرها فلم يجد اصلح من هذا المكان فإن اللحم فيه لم يتغير. وهذه الطريقة في اختيار مكان البيمارستان رويت عن الرازي الذي عاش قبله بما لايزيد على قرن من الزمن عندما بنى البيمارستان العضدي لعضد الدولة في بغداد.

جدد عمارة هذا البيمارستان نور الدين الزنكي في حوالي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي فاشتهر باسمه، وهو من أشهر الأبنية الإسلامية في حلب، ويقع إلى الجنوب الشرقي من جامع البهرمية في محلة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمية. يتألف البيمارستان من عدة غرف على طابقين وإيوان وباحة ينزلل إليها بدرجات. وقد تم تحسينه خلال فترات متعاقبة آخرها في القرن الخامس عشر الميلادي. كان منيرا شرحاً مفروشاً بالرخام، وبه بركتا ماء يأتي إليهما الماء الحلو من قناة حيلان، لكنه الآن خرب وقد صارت حجراته تلالا، كما استولى بعض الناس على قطعة عظيمة من جهته الجنوبية وادخلوها في العمارة المعروفة بالباكية، كما ضاعت أوقافه. وقد سمي هذا البيمارستان بالنوري أو العتيق.

غادر ابن بطلان حلب إلى أنطاكية التي تبعد يوما وليلة، أمضى الليل خلالها في بلدة على الطريق تدعى عم (الشغور) وكانت تدعى بكاس سابقاً. ويصفها بأنها بلدة للروم فيها عين جارية يصاد منها السمك ويدور عليها رحا، وفيها الكثير من الخنازير والنساء العواهر والزنا والخمور، كما أن فيها أربع كنائس وجامعا يؤذن فيه سرا.

وأن المسافة بين حلب وإنطاكية ليس فيها خراب فهي أما أراض لزراعة الحنطة أوالشعير أو أشجار الزيتون. وقراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهها متفجرة. ثم يصف إنطاكية بأنها بلدة كبيرة ذات سور فيه ثلاثمائة وستون برجا يتناوب على حراستها أربعة آلاف حارس يرسلهم الملك من القسطنطينية فيضمنون حراسة البلد سنة ويستبدلون في السنة التالية. وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل، والسور يصعد في الجبل إلى

قمته ويستتم دائرة، وفي راس الجبل داخل السور قلعة تبدو لبعدها من البلد صغيرة. والجبل يحجب عن المدينة الشمس فلا تطلع عليها إلا في الساعة الثانية، وللسور المحيط دون الجبل خمسة أبواب، وفي وسطها قلعة القسياني وكانت دار الملك قسيان الذي أحيا بطرس رئيس الحواريين ولده. والقلعة عبارة عن هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على أساطين، ودائر الهيكل أروقة يجلس فيها قضاة الحكومة ومعلمو النحو واللغة. وعلى أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان الساعات الذي يعمل ليلاً ونهاراً بشكل دائم اثنتي عشرة ساعة وهو من عجائب الدنيا كما يقول ابن بطلان.

تتوضع المدينة على سفح جبل بشكل طبقات متدرجة، في الطبقة الخامسة منها حمامات وبساتين ومقاصير حسنة تخر فيها المياه. وفي المدينة عدد كبير من الكنائس وهي معمولة بالذهب والزجاج الملون والبلاط المجزع. وفي البلد بيمارستان يعالج البطريك المرضى فيه بنفسه. وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله في مدينة من اللذاذة والطيبة فإن وقودها من الآس وماؤها سيح. وفي ظاهر البلد نهر يعرف بالمقلوب (العاصي) يتجه من الجنوب إلى الشمال. ثم يصف دير سمعان بأنه يقع قريباً من مدينة إنطاكية، وهو بمساحته يعادل نصف دار الخليفة يضيف فيه المسافرين العابرين وأن دخله في السنة أربعمائة ألف دينار. ومن دير سمعان يصعد إلى جبل اللكام وفي الجبل من الدور والصوامع والبساتين والمياه المتفجرة والأنهار الجارية والزهاد والسياح وضرب النواقيس في الأسحار وألحان الصلوات ما يتصور معه الإنسان أنه في الجنة. وفي إنطاكية شيخ يدعى بأبي نصر بن العطار وهو قاضي القضاة فيها، واسع العلم حسن الحديث والإفهام.

غادر ابن بطلان إنطاكية إلى اللاذقية، ويصفها بأنها مدينة يونانية الطابع وتقع تحت سيطرة الروم. لها ميناء وملعب ميدان للخيل مدور وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم كنيسة وكان في أول الإسلام مسجداً، والمدينة تركب البحر، وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه وأذان في أوقات الصلوات الخمس، وعادة الروم إذا سمعوا الأذان أن يضربوا الناقوس. وقاضي المسلمين فيها من قبل الروم. ومن عجائب هذا البلد أن المحتسب يجمع العاهرات والغرباء الماجنين من الروم في حلقة فينادي على كل واحدة منهن ويعطيها خاتماً هو خاتم المطران حجة بيدها من تعقب الوالي لها. يتوزعون بعدها في الفنادق (الخانات) وكن من تضبط منهن بدون خاتم المطران وهي تمارس الدعارة ألزمها الوالي جناية. وفي المدينة أيضاً الكثير من الحبساء والزهاد في الصوامع والجبال.

وتابع سفره إلى مصر حيث دخل الفسطاط عام ٤٤١ هـ وأقام فيها ثلاث سنين، حيث اجتمع بالطبيب والفيلسوف المصري علي بن رضوان ونـاظره، ثم سافر إلى القسطنطينية حيث أقام بها سنة، ثم خرج منها إلى حلب وأقام بها مدة وبأنطاكية، وكان يتردد من إحداهما إلى الأخرى إلى أن ترهب بأنطاكية. وقد عمر فيها بيمارستانا، ومات ودفن فيها عام ٤٥٨ هـ(١٠٦٦م) .

خلاصة

اشتهر ابن بطلان بالطب، وإن كان ضليعاً في الفلسفة والشعر وعالماً في الفلك. وقد أخذ علومه عن اليونانيين وكان يبجلهم ويعيب على ابن رضوان مخالفته لهم. ولم يذكر علوم الرازي الذي سبقه وكذلك ابن سينا الذي عاصره. بينما نجد أن ابن النفيس الذي عاش في القرن الثالث عشر كان في عصر لا يجرؤ فيه أحد على مخالفة آراء ابن سينا.

بنى بيمارستانا في حلب يعتبر من الأبنية الإسلامية الهامة فيها، وآخر في أنطاكية وهو عمل كبير في ذلك العصر، إذ أن البيمارستان كلية طب. ألف العديد من الكتب الطبية وغيرها فقد كان أستاذا كبيراً في عصره.

يلاحظ أنه بعد انتهاء اقاماته التي بدأت بحلب ثم مصر والقسطنطينية، قد عاد بعدها إلى حلب وأنطاكية حيث قضى بقية عمره هناك ولم يعد إلى بغداد.

المراجع

١ – القفطي علي الوزير المتوفي سنة ٦٤٦ هـ– كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء.

٢ – ابن أبي أصيبعة المتوفى عام ٦٦٨هـ – عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

٣ – الترمانيني عبد السلام ١٩٩١م – أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، الجزء الثاني – المجلد الثاني.

٤ – الطباخ محمد راغب ١٩٢٣م – إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. الجزء الأول والجزء الرابع .

من أدب الرحلات عند العرب

الدكتور محمد علي الزركان *

قال تعالى:

" أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها ... " صدق الله العظيم

لقد ولد الإنسان راحلاً، وإن أعجزته الرحلة في الواقع المحسوس تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، ونجد ذلك مبثوثاً في الأساطير الأولى، كما نجده ماثلاً في الحروب والفتوحات القديمة، وما سطره الملوك الأول.

ومن المعروف أن ملوك مصر سجلوا رحلاتهم في آسيا على جدران معابدهم كما كان للفينيقيين رحلات بحرية كبيرة خاضوا فيها عباب المحيط الأطلسي وحطوا رحالهم في الجزر البريطانية، وأقاموا مستعمرات لهم على طول البحر الأبيض المتوسط في الجنوب منه وفي شبه جزيرة أيبريا، وخلفهم الإغريق يقيمون مستعمرات لهم في البحر الأسود وفي البحر الأبيض المتوسط، وقد عنوا عناية واسعة بوصف البلدان والأقاليم التي زاروها وقدموا لنا كثيراً من المعارف الجغرافية. وهم أول من قال بكروية الأرض، وبأن وراء البحار والمحيطات عوالم مسكونة تقطنها شعوب مختلفة.

وأكبر رحالة عرفه الإغريق (هيرودوت) الذي زار مصر وقبرص وفينيقيا وأشور وفارس، وتوغل في الشمال إلى الفوسفور، وأودع مشاهداته في هذه الزيارات أو الرحلات تاريخه الكبير.

ثم تصبح روما عاصمة العالم القديم، ويتوغل أبناؤها في إمبراطوريتها الواسعة فتصل سفنهم إلى جزر الكناري في المحيط الأطلسي، كما تصل إلى الهند والشرق الأقصى، ويطوفون بدولتهم في إفريقية وآسية، ويجمعون من هنا وهناك أخبار البلاد المفتوحة في أوربة وغيرها، حتى ليمكن القول إن مؤرخيهم جمعوا لنا كل ماكان معروفاً عن سطح الأرض في زمانهم. وفي مقدمة هؤلاء (يوليوس قيصر) الذي دون في كتابه (التعليقات) حروبه في بلاد الغال، ووراءه كثير من مؤرخي الرومان يقصون الأسفار والرحلات ويصفون البلدان النائية. ونلتقي في القرن الثاني الميلادي بـ (بلطميوس) الإسكندري وهو

* محاضر في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة حلب.

إغريقي الأصل، وقد ترك كتابين في الجغرافيا والفلك، ونراه يدون وصفاً مفصلاً للبلدان والأماكن في عصره، ذاكراً أطوالها وعروضها، مبيناً بالرسم مواقعها.

ثم جاء دور العرب، وفتحوا البلاد من الهند والصين إلى بحر الظلمات (الأطلسي)وجبال البرانس، ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان، ,اصبح كل ذلك عالماً واحداً مشتركا في الدين والثقافة. ووصف مؤرخوهم مدن هذه البلاد وبلدانها كما وصفوا سكانها. وكان ذلك إرهاصاً لما قام به علماؤهم وأدباؤهم من رحلات في المستقبل اشترك فيها التجار وغيرهم.

وكان من أهم الأسباب في تدوين هذه الرحلات حاجة الدول إلى معرفة الطرق الكبرى التي تصل أقاليمها، ومن ثم ألفت كتب كثيرة في وصف المسالك والممالك.

وهذه الحاجة السياسية اقترنت بها حاجة دينية، إذا كان الحج إلى مكة فريضة على كل مسلم، وكان المسلمون يتجشمون راضين بكل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة، وزيارة قبر الرسول في المدينة. وعلى طول الطريق في الشرق والغرب تقيم الدولة وأهل الخير الحبوس والأوقاف والربط معونة للحجاج، ويصف كثير من هؤلاء الحجاج طريقهم إلى الأماكن المقدسة في كتب أو في رحلات مختلفة.

وبجانب ذلك كان التجار يضربون في أراض جديدة عن طريق القوافل وعن طريق البحر وسفنه، وقد وصلوا في مغامراتهم إلى الصين والهند وشواطئ إفريقية الشرقية والغربية جنوبي خط الاستواء، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام في أندونوسيا وغيرها من الجزر المحيطة بها. وماقصة السندباد البحري" الخيالية إلا صورة لمغامراتهم في البحار الجنوبية.

وكانت السفارات لاتفتر بين الدول العربية الإسلامية والدول المجاورة شرقية أم غربية، وكانوا يسجلون ذلك في رسائلهم، وقد يرحلون حباً للاستطلاع كما رحل سلاّم الترجمان بأمر الخليفة الواثق ٢٢٧ هـ للبحث عن سد الصين الكبير الذي يقال إن الاسكندر بناه بين العالم القديم وديار ياجوج وماجوج.

ولهذه الأسباب مجتمعة كثرت الرحلات عند العرب وتنوعت بتنوع أسبابها وحوافزها السياسية والدينية والاقتصادية. ونشأت عند كثيرين منهم محبة المجازفة فيما وراء المعروف، حتى ليظن أن منهم من وصل إلى أمريكة قبل أن يكتشفها (كولومبس)، وأن في قصة الفتية المغررين من شباب لشبونة التي رواها الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق) مايشير إلى ذلك... وليس من المصادفة أن يكون رائد (فاسكودي كاما) ودليله في بحر الهند بحار عربي هو ابن ماجد العماني.

وتفتح الحروب الصليبية صفحة جديدة في تاريخ أوربة، ويأخذ أهلها في تسجيل أسفارهم ورحلاتهم، ومايلبث (ماركوبولو) أن يكتب رحلته المشهورة التي وصف فيها وصفاً بديعاً مشاهداته من بلده ايطاليا إلى صحراء جوبي وسهول الصين.

وسأستعرض معكم في هذه العجالة بإيجاز أشهر كتب الرحلات عند العرب وقد قسمتها إلى أقسام: منها الجغرافية، ومنها البحرية، ومنها البرية في الأمم والبلدان وقد يكون غريباً أن تكون للجغرافية رحلات بعينها، ولكن هذا ماحدث فعلاً، فإن القوم لم يعمدوا إلى الكتابة في الجغرافية بطريق النقل والرواية عن الآخرين أو السابقين، بل كانوا يطوفون بأنفسهم في العالم الإسلامي وغيره ويسجلون مشاهداتهم ومايقع تحت أبصارهم، فأصبحت كتاباتهم الجغرافية موثقة، وهي في كثير من صورها رحلات بالمعنى الدقيق تصور أحوال الناس والعمران بالعين الباصرة اللاقطة...

وفي ثبت الرحلات العربية تبرز رحلات بحرية رويت عن التجار والملاحين وهواة البحار، وهي تبدأ عند العرب بمغامرات تاجر يسمى (سليمان) قذف بنفسه في لجج المحيطين الهندي والهادي، ثم تتسع فتشمل مغامرات أخرى في البحرين الأحمر والأسود وفي بحر الظلمات، وتتضمن هذه المغامرات كثيراً من المعلومات عن البحار وحيوانها وأسماكها وأصدافها، والأقوام الذين يسكنون على شواطئها. ويصاغ ذلك كله باسلوب قصصي بديع، يؤكد الواقع احياناً، ويسبح في الخيال أحياناً أخرى.

أما الرحلات في الأمم والبلدان عن طريق البر وفي القوافل فهي كثيرة كثرة مفرطة، وهي أيضا متنوعة، فمنها مايقف عند بعض البلدان العربية كمصر والشام ومنها ما يتجاوز حدود العالم العربي إلى عالم ناء بعيد، كعالم البلغار أو الهند والصين، أو عالم السودان وأفريقية الوسطى. وفي كل هذه العوالم يكتب الرحالة بمخيلة القصاص الذي يسند الواقع بالخيال والحقيقية بالأسطورة.

ووقفنا أخيراً عند رحلة ابن حبير في العالم الإسلامي، فقد عرض علينا هذا العالم عرضاً قصصياً شائقاً، واقتبسنا منه بعض صوره الحية.

وأخيراً تحدثنا بإيجاز عن رحلة ابن بطوطة، وعنينا ببعض قصصه عن الأقطار النائية مثل بلاد البلغار والمغول ... وقد يشفع حكاياته الحقيقية بحكايات خرافية ، وهو في كل ذلك يتقن الصنعة القصصية.

ولا نبالغ أخيراً إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي لسبب بسيط، وهو أنها خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب، ونقصد تهمة قصوره في فن

القصة. ومن غير شك أن من يتهمونه هذه التهمة لم يقرؤوا ماقدمته كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكله لحوم البشر، وضاع الصين، وسكان نهر الفولكا، وعبدة النار، والإنسان البدائي والراقي، مما يصور الحقيقة حيناً، ويرتفع بنا إلى عالم الخيال حيناً آخر.

كتب الجغرافية:

لقد اهتم العرب بوصف البلاد التي فتحوها، فتحدثوا عنها في كتاباتهم التاريخية الأولى... وما أن نصل إلى عصر المأمون حتى يبدأ تأسيس علم الجغرافية العربية فتوضع خريطة للعالم على أساس خريطة بطلميوس، ثم يأخذ العرب في التأليف الجغرافي، فيصفون دولتهم الكبيرة التي امتدت من الهند وحدود الصين إلى إسبانيا وجبال البرنة،÷ ومن القوقاز وآسيا الصغرى إلى السودان ومجاهل إفريقية كما يصفون الامبراطوريات والشعوب المجاورة لهم، وأمدهم ملاحوهم بمعارف كثيرة عن أمم المحيط الهندي وجزائره.

واتبع جغرافيوهم طريقة ممتعة في وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم، إذ عنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها وما بديارها من آثار وعجائب، وقصوا ما عندها من أساطير وخرافات، وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافية كتباً أدبية تعتمد على المشاهدة وحكاية مارآه الجغرافي تحت سمعه وبصره وهي من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون كتب رحلات منها إلى أن تكون كتب جغرافية بالمعنى الذي نفهمه اليوم.

وكانت الدولة تحتاج من جهة الخراج والإدارة إلى معرفة المسالك في البر لتنظيم البريد والاتصال بالبلاد المختلفة، فعني الجغرافيون بهذا الجانب، وزاد في عنايتهم به حاجة الحجاج إلى معرفة محطات القوافل في طريقهم إلى مكة والمدينة ومن هنا سموا كثيراً من كتبهم باسم (المسالك والممالك)، ومن هنا أيضاً كانت كتبهم للناس كافة، فهي كتب تقدم إلى الناس العاديين لا إلى رجال الدولة والطبقة المتعلمة الممتازة فحسب، ولذلك يغلب عليها الطابع القصصي، فنجد لذة في قراءتها، إذ نتنقل بين أخبار جغرافية وتاريخية وقصصية ومشاهدات يرويها الجغرافيون عن أنفسهم أو عن الرحالين وما أبصروا في المماليك القريبة والبعيدة. وسنقف وقفات قصيرة عند طائفة من هذه الكتب الطريفة.

المسالك والممالك لابن حوقل:

ابن حوقل من جغرافيي القرن الرابع الهجري، نشأ في بغداد، وقرأ ماسبقه وعاصره من كتب جغرافية، وشغف بهذا العلم، فصمم على أن يضع فيه كتاباً لا يأخذه من أفواه

الناس ولا مما قرأه، وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته في العالم الإسلامي فطاف بهذا العالم ثلاثين عاماً ثم وضع كتابه... قال يصف الأندلس :

" الأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، وطولها دون الشهر، في عرض نيف وعشرين مرحلة، ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر، والرخص والسعة وفي الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر، إلى أسباب التملك الفاشية في أكثرهم، ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته، يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم، لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم، ويسار مليكهم وقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء يحذره وحال يخافه، إذلا خوف عليه ولا رقبة لأحد من جزيرته، مع عظيم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله... ومن أعاجيب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنداد".

وواضح أنه يشير إلى غناها وخصب أراضيها وعظيم جبايتها، كما يشير إلى ضعفها الحربي، وأن من السهل أن يفتحها الفاطميون، فتتحول هذه الديار إلى ملكهم ويقول في وصف عاصمتهم قرطبة:" وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس بجميع المغرب عندي لها شبيه في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق... وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ... ولها بابان مشرعان في السور نفسه إلى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن إعالي البلد، متصلة بأسافله من ربضه، مشتبكة أبنيتها محيطة بها مستديرة عليها من شرقها وغربها... ومسجد جامعها جليل والحبس منه قريب ... ودرت بها في غير يوم في قدر ساعة ... وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع فليس لجيوشهم حلاوة في العين ولاعلم بآيين الفروسية وقوانينها، ولا بالشجاعة وطرقها، وأكثر ظفر جيوشهم في القتال بالكيد. ومما يدل على ذلك أني لم أر قط بها أحداً أجرى على فرس فاره أو بوذون هجين ورجلاه في الركب ، ولايستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحدهم، وكل ذلك لخوفهم من السقوط... !! " .

ومما يقوله في (باليرم) عاصمة صقيلية: "أكثر مياه أهل البلد من الآبار، وهي ثقيلة غير مروية، وإنما صرفهم إلى شربها رغبة عن شرب الماء الجاري العذب قلة مروءاتهم وكثرة أكلهم البصل، وفساد حواسهم لكثرة تغذيتهم بالنيء منه، وما فيهم من لا يأكله في كل يوم... وفيها أزيد من ثلاث مئة معلم يؤدبون الصبيان. وهم (أي أهل بالرم)

يرون أنهم أفضلهم وأجلهم، وأنهم أهل الله وهم شهودهم وأمناؤهم، هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم ... وإنما لجؤوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد وتكسولاً عن الحرب ! ... "

وبهذه الطريقة أطلعنا ابن حوقل على حياة البلدان التي وصفها بجانب ماتحدث عنه من المسالك، فكتابه ليس كتاب سرد جغرافي، وإنما رحلة كبيرة في العالم الإسلامي، رحلة جغرافية بديعة.

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد، من بيت المقدس، وإليه ينسب ، وهو في رأي بعض الباحثين أعظم الجغرافيين عند العرب في جميع عصورهم، عاش كذلك في القرن الرابع الهجري وجذبته الكتابة في الجغرافية، فضرب في العالم الإسلامي وتنقل في ربوعه، ثم أخذ يدون هذا الكتاب (أحسن التقاسيم) مصوراً أحواله الجغرافية والعمرانية، مهتماً اهتماماً شديداً بالحديث عن اختلاف أهل البلدان الإسلامية في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم وميلهم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم وإليهم ... ومعادن السعة والخصب ومواضع الضيق والجدب والمشاهد والمراصد والخصائص والرسوم (الصفات والطبائع)... يقول: ماتم لي جمع الكتاب إلا بعد جولاتي في البلدان، ودخول أقاليم الإسلام ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي على الأدباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد ... "

وهذا الكلام الذي نقلناه عن مقدمة كتابه يدل أبلغ الدلالة على مدى جهده في الدراسة ... والكتاب بذلك يعد طرفة حقيقية، ففيه مادة غنية عن سكان كل بلدة وما يمتازون في طعامهم وثيابهم وعبادتهم ونسكهم. وهو يتحول إلى مايشبه شريطاً سينمائياً يعرض علينا سكان العالم الإسلامي بكل خصائصهم وصفاتهم، ولخصها في أوائل كتابه فقال:

" أطرف الأقاليم العراق وهو أخف على القلب وأحد للذهن، وبه تكون النفس أطيب والخاطر أدق. وأجلها وأوسعها فواكه وأكثرها علماء وأجلة المشرق (خراسان) وأكثرها صوفاً وقزاً الديلم (جرجان وطبرستان). وأجودها ألباناً وأعسالاً وألذها اخباراً

وأمكنها زعفراناً الجبال (أعالي فارس). وأكثرها ثماراً وأرخصها أسعاراً ولحوماً وأثقلها قوماً الرحاب. وأسفلها قوماً وأشرهم اصلاً وفصلاً خوزستان. وأحلاها تموراً وأوطأها قوماً كرمان. وأكثرها أرزازاً ومسكاً وكافوراً السند. وأكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقاً فارس. وأشدها حراً وقحطاً ونخيلاً جزيرة العرب. وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً مشارف الشام. وأكثرها عباداً وقراء وأموالاً ومتجراً وخصائص وحبوباً مصر وأجفاها وأثقلها ... وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً المغرب [1] ... "

وظل على هذا النحو يعدد أوصاف كل بلدة، ثم أخذ في ذكر أقاليم العالم الإسلامي وبدأ بجزيرة العرب، فتكلم عن مسالكها وبلدانها بلداً بلداً ... ويفيض في الحديث عن المسجد الحرام وخطط مكة والمشاعر المختلفة من مثل منى والمزدلفة والطرق المفضية إليها ...

نزهة المشتاق في اختراق الأفاق للإدريسي:

الإدريسي أبو عبد الله محمد أكبر جغرافيين بلاد المغرب والأندلس. وهو من بني حمود الذين ملكوا بعض بلدان الأندلس وإفريقية في القرن الرابع الهجري. ولد في سبتة بالمغرب ٤٩٣هـ، وتعلم في قرطبة، ثم رحل في البلاد: في الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسية الصغرى، وانتهى به المطاف إلى صقلية، وكان قد استولى عليها النورمان، وأزالوا منها حكم المسلمين، إلا أنهم عاملوهم بالحسنى، واشتهر بذلك أميرهم (روجر الثاني) الذي كان يعجب بالعرب وما أتقنوا من علوم ومعارف. واتصل الإدريسي بهذا الأمير فأعجب كل منهما بصاحبه. وقد عرف فيه (روجر) قدرته البارعة على رسم الخرائط، ومهارته في علم الجغرافية، فطلب إليه أن يؤلف فيها كتاباً له. فلم يهجم على التأليف مباشرة، بل أنفذ طائفة من الرحالة إلى بلدان مختلفة متفرقة لياتوه بالمعلومات التي أضافها إلى ماشاهده بنفسه في البلدان، واتخذ من كل ذلك مادة لتأليف كتابه الذي سماه (نزهة المشتاق ...) كما يسمى كذلك بـ (كتاب روجر) لأنه ألف من أجله. وقد نقل إلى اللاتينية موجز له في القرن السادس عشر.

وقد زود الإدريس كتابه بإحدى وسبعين مصوراً ... وهو يتبع الطريقة العربية طريقة العرض القائم على المشاهدة، وتفصيل أحوال الأمم والسكان، وبيان ما بكل بلدة من عجائب الآثار والبنيان. ولا يقف بكتابه عند وصف العالم الإسلامي بل يضم إليه

---

[1] وهو يتكلم عن نسائها ولينهن.

وصفاً للعالم المسيحي في أوربة، مفيداً من الرحالة الذين وضعهم (روجر) تحت إمرتـه ... ومن أطرف ما جاء فيه حديثه عن المدن الأندلسية التي زارها من مثل طليطلـة، وفيها يقول:

" مدينة طليطلة، عظيمة القطر، كثيرة البشر، لها أسوار حسنة، وهي أزلية من بناء العمالقة، وقليلاً مارئي مثلها إتقاناً وشماخة بنيان، وهي على ضفة النهر الكبير المسمى (تاجه) ولها قنطرة من عجيب البنيان وهي قوس واحدة، والماء يدخل تحت ذلك القوس بعنف وشدة جري، ومع آخر القنطرة ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة والماء يجري على ظهرها فيدخل المدينة. ومدينة طليطلة كانت في أيام الروم دار مملكتهم، وموضع قصدهم، ووجد أهل الإسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة، فمنها أنه وجد بها سبعون تاجاً من الذهب مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة. ووجد بها ألف سيف بجوهر ملكي، ووجدها من الدر والياقوت أكيال وأوساق، ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة مالا تحيط به تحصيل، ووجد بها مائدة سليمان بن داود، وكانت فيما يذكر من زمردة، وهذه المائدة اليوم في مدينة رومة !!

ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها، وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائرة وجنات يانعة، وفواكه عديمة المثال، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل ... "

وانتهى الإدريس من تأليف هذا الكتاب سنة ٥٤٨هـ، وتوفي (روجر) وخلفه (غليوم الأول) وألف له كتاباً في الجغرافية سماه (روض الأنس ونزهة النفس) أو كتاب (المسالك والممالك). وقد توفي الإدريس سنة ٥٦٢هـ .

آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني:

عاش القزويني في القرن السابع الهجري، وتوفي سنة ٦٨٢هـ. واسمه زكريا بن محمد، ويدل لقبه على أنه من إقليم بحر قزوين شمالي بلاد فارس. وله كتابان أحدهما هذا الكتاب (آثار البلاد) في الجغرافية، والثاني (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) في الفلك والتاريخ الطبيعي. وكتابه هذا من أطرف الكتب عند العرب، وهو فيه لا يهتم بالمسالك والممالك، بل يهتم بأحوال البلاد والسكان مضيفاً كل ما يستطيع من طرفة نادرة وعجيبة خارقة. قال يصف عجائب الصين:

" الهيكل المدور، وله سبعة أبواب، في داخلة قبة عظيمة البنيان عالية السَّمك، وفي أعلى القبة شبه جوهرة كرأس عجل، يضيء منها جميع أقطار الهيكل. وإن جمعاً من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فما تمكنوا من ذلك، فمن دنا منها قدر عشرة أذرع خرميتاً، وإن حاول أخذها بشيء من الآلات الطوال، فإذا انتهى إليها انعكست، وكذلك إن رمى إليها شيئاً، وإن تعرض أحد لهدم الهيكل مات، وفي هذا الهيكل بئر واسعة الرأس من أكب عليها وقع في قعرها، وعلى رأس ذلك شبه طوق مكتوب عليه: هذه البئر مخزن الكتب التي هي تاريخ الدنيا وعلوم السماء والأرض وما كان فيها وما يكون، وفيها خزائن الأرض لكن لا يصل إليها إلا من وازن علمه علمنا ... وإذا رأى الناظر إلى ذلك الهيكل والقبة والبئر وحسن بنيتها مال إليها وتأسف على فساد شيء منها ... ولأهل الصين يد باسطة في الصناعات الدقيقة، ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم، وأي شيء رأوه أخذوا عليه عيباً ويقولون : أهل الدنيا ماعدانا عمي إلا أهل كابل فإنهم عور، وبالغوا في تدقيق صنعة النقوش حتى أنهم يصورون الإنسان الضاحك والباكي ويفصلون بين ضحك السرور والخجالة والشماتة ... ومن خواص بلاد الصين أنه قلما يُرى بها ذو عاهة كالأعمى والزمن ونحوهما، وأن الهرة لاتلد بها ويروي القزويني أن للنساء جزيرة خاصة بهن في بحر الصين فيقول:

" في بحر الصين جزيرة فيها نساء لارجال معهن أصلاً، وإنهن يلقحن من الريح ويلدن النساء مثلهن، وقيل إنهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن يأكلن منها، فيلقحن ويلدن نساء، حكى بعض التجار أن الريح ألقته إلى هذه الجزيرة، قال: فرأيت نساء لارجال معهن، ورأيت الذهب في هذه الجزيرة مثل التراب، ورأيت من الذهب قضباناً كالخيزران، فهممن بقتلى فحمتني امرأة منهن، وحملتني على لوح وسيبثني في البحر، فألقتني الريح إلى بلاد الصين ...

ومن عجيب ماذكره القزويني عن حلب: "أنه ظهر بها سنة ٦٢٤هـ تنين بغلظ منارة وطول مفرط ينساب على الأرض يبلع كل حيوان يجده، ويخرج من فمه ناراً تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات، واجتاز على بيوت أحرقها، والناس يهربون منه يميناً ويساراً، حتى انساب قدر اثني عشر فرسخاً، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت وتدلت إليه، فاحتملته، وكان قد لف ذنبه بكلب، فرفع الكلب وهو يعوي في الهواء، والسحاب يمشي به، والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين.

وطبيعي أن تكون هذه القصة ملفقة، فهي أدنى إلى الخرافة والخيـال ... وبمثلـها كانت تروج هذه الكتب في الناس إذ يجدون فيها مسلاة لهم.

رحلات بحرية:

كانت الرحلة في البحر حينئذ تعد متعة حقيقية، لما تحمل للملاحين والمسافرين من مفاجآت في رؤية شعوب غريبة وبلاد عجيبة ... وكان الخوف يلعب بخيـال الراحلين فيصور لهم كثيراً من الأوهام حقائق، ويجسم لهم بعض الحقائق الصغيرة أشـياء مفزعة وخطيرة، وفي كتاب القزويني صور كثيرة من ذلك كحديثهم عن طائر العنقـاء والـرخ والحيوان البحري المسمى بالوال.

واهتمت كتبهم الجغرافية بالحديث عن البحار التي عرفوها والجزائر والبلدان النائية التي رادوها، وعني منذ أول الأمر جماعة من الملاحين والرحالين بحكاية ماشاهدوه في بعض أسفارهم، وما اطلعوا عليه من عجائب وغرائب، ودخلت مادة ذلك في عـالم القصص على نحو ما نجد في قصص (السندباد البحري) المشهورة في كتاب (ألف ليلـة وليلـة)، سنعرض هنا لأهم رحلاتهم التي دونوها في كتبهم:

رحلة التاجر سليمان:

كان سليمان من تجار العراق الذين ينقلون عروض الهند والصين إلى بلاد العـرب، وكان طريقه إلى ذلك المحيط الهندي، فالمحيط الهادي. وعني بوصف هـذه الطـرق ومـا شاهده فيها من جزائر وغيرها، فكتب هذه الرحلة التي تعد من أقدم الرحلات البحريـة فإنه ألفها سنة ٢٣٧هـ، ووصلتنا عن طريق عراقي آخر من أهل القرن الرابع الهجـري يدعى أبا زيد السيرافي ... ويبدأ سليمان رحلته بوصف بحر (لاروى) وهو جزء من المحيـط الهندي يقع جنوبي فارس، فيصف هذا البحر ويذكر أن به سمكة اصطادوها فكان طولهـا عشرين ذراعاً، وهي سمكة (الوال)، ويقص أن به سمكة يحكي وجهها وجه الإنسان وتطير فوق الماء، وسمكة أخرى كبيرة تبتلع صغار السمك وتسقط في جوفها وكأنما تسـقط في بئر عميقة ... ويذكر سليمان أنه ربما رؤى بهذا البحر سحاب أبيض يتدلى منه لسـان طويل رقيق حتى يمس ماء البحر، فيغلي وتدور به زوبعـة لا تـأتي علـى مركـب إلا ابتلعته!!... ويتكلم بعد ذلك عن بلاد الهند والصين وملوكهما ويسوق طائفة من الأخبـار الطريفة تارة عن الملوك وتارة عن أحوال الناس وطبائعهم ومعاملاتهم وإدارة حكومـاتهم

ودياناتهم وما يعبدون من الأوثان والأصنام. ويقف طويلاً ليوازن بين أهل الهند والصين فيقول : " أهل الصين أهل ملاه، وأهل الهند يعيبون الملاهي ولا يتخذونها ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخل لأنه من الشراب، وليس ذلك ديناً ولكنه أنفة، ويقولون أي ملك شرب الشراب فليس بملك، وذلك أن حولهم ملوكاً يقاتلونهم فيقولون : كيف يدبر أمر ملكه وهو سكران؟!

ويتزوج الرجل من الصين والهند ماشاء من النساء، وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهادوا بينهم ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان. وجزاء السَّرق في جميع بلاد الصين والهند في القليل منه والكثير القتل. وحيطان أهل الصين الخشب، وبناء أهل الهند حجارة وجص وأهل الصين أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللباس والدواب، وهم في هيئتهم وفي مواكبهم يشبهون العرب. وقد ذكر شراب (الجاي) المعروف فقال " إن عند أهل الصين حشيشاً يشربونه بالماء الحار ويقال له (الساخ) وهو أكثر ورقاً وفيه مرارة، ويغلى ويذر عليه منه ... "

عجائب الهند بره وبحره وجزائره لبزرك بن شهريار الناخداه:

مؤلف هذا الكتاب كما يدل عليه لقبه (الناخداه) كان ربّاناً يحترف الملاحة، وتدل حكاياته التي يرويها في الكتاب أنه كان يعيش في القرن الرابع الهجري وهي حكايات يرويها عن بعض الملاحين الذين جابوا المحيطين الهندي والهادي وفيه ما يدل على أن الكتاب زيدت فيه أقاصيص عن عصور متأخرة عن عصر المؤلف وكأنما أعجب القصاص والرواة بالكتاب فزادوا فيه على نحو ما كانوا يزيدون في كتب القصص مثل (ألف ليلة وليلة)، وبذلك أصبح هذا الكتاب قصة ملاحي العرب فوق متن المحيطين المذكورين على توالي العصور وما شاهدوه فيهما من عجائب الملاحة وغرائب العواصف وما أبصروه من حيوانات وأسماك بحرية وطيور ونسور مائية. ونحن لانكاد نمضي فيه حتى نقرأ هذا الخبر:

" في سنة ثلاثمئة وقعت سمكة ببعض سواحل عمان وجزر الماء عنها، فصيدت وسحبت إلى البلد ... وحضر الناس للنظر إليها، وكان الفارس يدخل من فكها ويخرج من الجانب الآخر وهو راكب لعظمها، فإنها ذُرعت فكان طولها زيادة على مئتي ذراع. وارتفاعها نحو خمسين ذراعاً، وبيع من دهن عينيها على مثاقيل ببضع عشرة آلاف درهم... وهذا السمك كثير ببحر الزنج، ويقال له الوال وهو مولع بكسر المراكب..."[1] وهناك أخبار كثيرة عن العواصف والرياح والوحوش البحرية.

رحلة الفتية المغررين:

رأينا الكتاب السابق يزخر بأخبار الملاحين والربابنة الذين جابوا المحيطين الهندي والهادي، أما المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) فإن العرب لم يلجوا فيه لأنه كان بعيداً عنهم، ومع ذلك فإنه يُظن أن عرب الأندلس اقتحموا هذا المحيط، وإن كانوا لم يتغلغلوا فيه، بل إنه يوجد بين الباحثين من يظن أنهم وصلوا إلى أمريكا.

وأمامنا من رحلاتهم في هذا المحيط رحلة رواها الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق) سماها رحلة الفتية المغررين، كما سبقت الإشارة إليها إذ قال :

" إنه لا يزال معروفاً إلى عصره في أشبونة (لشبونة) رحلة فتية غرروا بأنفسهم، فركبوا البحر المظلم، وظلوا فيه أشهراً، ثم عادوا، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري، وكان لا يزال باسمهم إلى وقته درب في مدينتهم سمي بأسمهم. وهم ثمانية رجال كانوا أبناء عمومة أعدوا مركباً كبيراً وزودوه بالماءوالمتاع،ثم دخلوا البحر مع هبوب الرياح الشرقية وأجروا فيه مركبهم نحو أحد عشر يوماً، و لم يلبثوا أن انتبهوا إلى بحر مجهول غليظ الموج كدر الروائح كثير الربوش (الأعشاب) والضباب، فأيقنوا بالتلف، وسارعوا إلى تغيير وجهتهم فداروا إلى الجنوب وظلوا كذلك أثني عشر يوماً، حتى وقعوا إلى جزيرة كثيرة الغنم فرسوا عليها ونزلوا بها فوجدوا بعض أشجار التين، ومياهها جارية فاطمأنوا إلى المكان، وأخذوا شاة فذبحوها وأعدوها لطعامهم، لكنهم لم يستطيعوا أكلها لمرارة لحمها، فعادوا إلى سفينتهم وأقلعوا إلى الجنوب، وساروا أثني عشر يوماً فتراءت لهم جزيرة فيها عمارة وحرث فنزلوا بها و لم يلبثوا أن رأوا رجالاً يحيطون بهم أجبروهم على التسليم، وحملوهم معهم إلى مدينة رأوا بها رجالاًشقراً، شعورهم سبطة، وهم طوال القدود، لنسائهم جمال عجيب... واعتقلوهم في دار، ظلوا فيها ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم بلسانهم العربي، فسألهم عن حالهم وغايتهم ومن أين جاؤوا؟ فأخبروه بقصتهم فطمأنهم ووعدهم خيراً وقال لهم : إنه ترجمان الملك. وفي اليوم التالي أخذوا إلى حضرة هذا الملك، وسئلوا عن وجهتم فقالوا : إنهم خرجوا في البحر لرؤية عجائبه وخوارقه، وليقفوا على نهايته. فضحك الملك حين سمع منهم ذلك وقال لترجمانه : أخبرهم أن أبي أمر طائفة من عبيده أن يسيروا في البحر، ويحاولوا أن يعرفوا شيئاً عما في داخله، وأنهم ساروا فيه شهراً، ثم عادوا بخفي حنين. وقال الملك لترجمانه : سكّن جأشهم وعدهم خيراً، ثم أخذ بهم إلى معقلهم فظلوا فيه إلى أن نشطت الريح الغربية، فأخرجوهم

في زورق بعد أن عصبوا أعينهم وخرجوا بهم في البحر نحو ثلاثة أيام، وأخيراً ألقوا بهم إلى شاطئ أرض لم يكونوا يعرفونها وتركوهم مكتفين يبكون مصيرهم.

وبينما هم في ضنك وسوء حال إذ سمعوا ضوضاء وجلبة أناس فصاحوا بأجمعهم، وسمعهم القوم، فأقبلوا عليهم فوجدوهم على هذه الحال السيئة فحلوا عنهم وثاقهم، وسألوهم عن شأنهم فأخبروهم قصتهم وكانوا من البربر فأعلموهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين ... وبعد أهوال ومخاطر وصلوا إلى بلدهم فأطلق عليهم الناس اسم (الفتية المغررين).

عرائس البحر:

تشترك الأمم القديمة في أساطير بحرية تجعل البحار غاصة بأحياء صورتهم بين الإنسان والحيوانات المائية، وألهت بعض الأمم هذه الصور الخيالية، ولما تحول الانسان من حياته الوثنية إلى حياته الدينية رافقته أساطيره القديمة.

وفي كتابي القزويني (آثار البلاد)و(عجائب المخلوقات) كثير من الأساطير التي تروي عن عرائس البحر، فينقل لنا في كتابه آثار البلاد عن بعض الملاحين عن أبيه قوله:

" أسريت في مركب لي كبير ونحن طالبون جزيرة قنصور ... وأدخلنا التيار بين جزائر، فأسندنا المركب إلى واحدة منهن على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن، فأنسنا بهن، ولما قربنا منهن هاربن في الجزيرة ... "

وتمضي الحكاية فتزعم أن هذا الملاح ومن معه من التجار بادلوا أهل الجزيرة عروضهم من الحديد والنحاس والكحل والخزر والثياب بما عندهم من الأرز والغنم والدجاج والعسل والسمن، ثم طلبوا بضائع يشترونها منهن، فقلن ليس عندنا إلا الرقيق فاشتروا طائفة كبيرة، ولكن لم يكادوا يمضون في البحر حتى تطاير هذا الرقيق تطاير الجراد، والمركب تجري في موج كالجبال، وكانت لاتزال بين القوم جارية في قاع السفينة فأمسك بها الملاح وأقعدها وأقامت معه ثماني عشرة سنة مقيدة واستولدها ستة أولاد، كان منهم راوي القصة!! ويزعم أنه مات أبوه ففكوا عن أمهم قيودها ... فخرجت كأنها الفرس السابق، وانطلقنا خلفها فلم ندركها!! ثم طرحت نفسها في البحر وغاصت!!

الرحلات المبكرة في الأمم والبلدان:

لعل أول رحلة في تاريخ العرب الإسلامي هي رحلة فتوحاتهم الكبرى، فقد خرجوا من جزيرتهم وطافوا بأركان العالم الوسيط في أسية وإفريقية، وجابوا البحر ودخلوا الأندلس واقتحموا جبال البرنة وتصايحوا بأصواتهم ولغتهم وصلاتهم وآذانهم على الأبواب الجنوبية الغربية لفرنسا، ونزلوا صقلية وحولوها إلى سلطانهم.

و لم يدون العرب أخبار الرحالة الأوائل، وما أن نصل إلى القرن الثالث الهجري ونقرأ كتبهم الجغرافية والتاريخية حتى نجدهم قد عرفوا معرفة دقيقة أخبار الأمم من حولهم، مما يدل على كثرة الراحلين والسائحين. ومن أقدم من يذكرونهم في هذا الباب (سلام الترجمان) الذي يقال إن الخليفة الواثق بالله أرسله في بعثة إلى بلاد الصين ليشاهد السد الذي بناه الإسكندر في ديار ياجوج وماجوج، وعادت البعثة تقص على الناس أخبار الصين وعجائبها.

ومن هؤلاء الرحالة (ابن وهب القرشي) الذي يقال إنه استطاع لقاء ملك الصين وعرض عليه الملك صوراً للأنبياء، ومن بينها صورة النبي محمد!!

وإذا كان العرب قد نشروا الإسلام عن طريق السيف في فارس والهند وشمالي إفريقية، فإن التجار من ورائهم نشروه في أقاليم لم يصل إليها الفاتحون في آسيا كالصين وجزر الهند الشرقية وفي إفريقية كالسودان، وعلى طول شاطئها الشرقي. كثيراً ما كانت هذه الأقاليم الجديدة تطلب بعثات دينية من بغداد لتعلم الناس فروض الدين، وماشرعه لمصلحتهم في دنياهم وآخرتهم.

ومن أقدم هذه البعثات بعثة طلبها ملك البلغار من الخليفة المقتدر بالله وكان كثير من البلغار قد دخلوا الإسلام، وكانوا يقيمون حينئذ في حوض نهر الفولكا أو كما يسميه العرب نهر أتلا. وأرسل الخليفة سنة ٣٠٩هـ بعثة جعل رياستها لابن فضلان الذي قام بمهمته خير قيام، ثم عاد بعد مدة إلى بغداد، فوضع كتاباً في وصف رحلته إلى القوم، وألم إلماماً دقيقاً بأحوالهم وعاداتهم، وبكل ما بديارهم من مظاهر الحضارة والعمران، وإنه لم يصف شعب البلغار وحده، بل وصف الخزر والروس ... ومما جاء في وصف الروس قوله:

" و لم أر أتم أبداناً، منهم كأنهم النخل، شقر حمر، لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين (نوع من الثياب) ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على شقيه، ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد فأس وسكين وسيف ... وكل امرأة منهم على ثديها حق

مشدود من حديد أو من نحاس أو من فضة أو من ذهب على قدر حال زوجها"وعرض لكثير من أحوالهم التي تدل على تأخرهم، ووقف طويلاً عند وصف حرقهم موتاهم واحتفالاً لحرق رؤسائهم، وما يصنعون في ذلك من رسوم غريبة.

ومن هؤلاء الرحالة(أبو حامد الأندلسي) في شرق أوربة، فهو أحد الرحالين الأندلسيين، عاش أكثر حياته في القرن السادس الهجري (٤٧٤ ــ ٥٦٤)هــ وشغف بالرحلة فطاف بإفريقية الشمالية وصقلية وزار مصر والشام والعراق، وتحول إلى ناحية البحر الأسود وبحر الخزر وتوغل في بلاد البلغار على ضفاف نهر الفولكا وبلاد الصقالية وإقليم باشغرد بين البلغار والقسطنطينية، وسجل مشاهداته في هذه الأقاليم والبلدان بكتابة (تحفة الاصحاب ونخبة الأعجاب) وله كتاب آخر يسمى (المعرب في عجائب المغترب) وقد روى كثيراً من الأخبار عن الأقاليم الممتدة في البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالي وهو يسميها (ويسوا) و (يورا) ... وقال أبو حامد : إن طول النهار يبلغ عندهم عشرين ساعة في الصيف، وليلهم يبقى أربع ساعات، وفي الشتاء ينعكس ذلك، والبرد عندهم شديد جداً، والحر في الصيف كذلك شديد، أشد مما يكون في كل الدنيا، ونحن نسوق طائفة من الأخبار التي رواها عن تلك الأصقاع فيقول :

" ... والطريق إليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها، طول كل لوح باع وعرضه شبر، مقدم ذلك اللوح ومؤخرة مرتفعان عن الأرض، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيوراً من جلود قوية يشدونها على أرجلهم، ويقرن الرجل بين اللوحين اللذين يكونان في رجليه بشندال طويل مثل عنان الفرس يمسكه في يده الشمال، وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل، وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة، ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً أن يمشي هناك البتة، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لايتلبد. وأي حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف، كالثعلب والأرنب فإنها تمشي عليه بخفة وبسرعة..."

(ومن هؤلاء الرحالة أسامة بن منقذ) الذي كان أديباً وشاعراً، عاش في القرن السادس الهجري، وعمر طويلاً وهو من قلعة شيزر قرب حماة. وكتابه (الاعتبار) هو السجل الذي اختاره لتسجيل مذكراته، وقد قصر الباب الأول فيه على حروبه وأسفاره إلى دمشق ومصر ومشاهداته الصليبين في دياره أثناء الحرب وفي السلم. ومن أطرف ما في

الكتاب حديثه عن طبائع الفرنجة وأخلاقهم، وهو يصور ذلك في قالب قصصي بوضح لنا فيه تأخرهم، وأنه لم يكن عندهم شيء من الفكر أو الفلسفة يقتبسها العرب عنهم، وسخر من طرقهم في القضاء، وما يعتمدون عليه في محاكماتهم من المبارزة، ولاحظ على رجالهم نقص الغيرة على نسائهم، .. إذ يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته فيلقاه رجل آخر فيأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف بناحية وينتظر فراغها، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى ...

وأسامة بن منقذ يعطينا صورة واضحة عن حياة الصليبيين حين استقروا في بلاد الشام وكونوا فيها مستعمراتهم التي أزيلوا عنها فيما بعد ... وقد قص طرائف عن بطولات النساء من العرب في كفاح القوم، وكيف كن يؤثرن الموت على الوقوع أسيرات في أيدي الصليبيين.

رحلات أخرى:

واشتهر الأندلسيون بكثرة ماكتبوا عن رحلاتهم إلى المشرق بقصد الحج وغيره، وسنتحدث بعد قليل عن رحلتي ابن جبير وابن بطوطة. ووراء هاتين الرحلتين رحلات مختلفة مايزال أكثرها منسياً مثل رحلة (العبدري) في القرن السابع الهجري و (ابن رُشيد السبتي) المتوفي سنة ٧١١هـ و (البلوي) في القرن الثامن الهجري، وقد عنوا في رحلاتهم بأخبار الأدباء والعلماء في كل قطر شاهدوه. ويمكن أن ندخل في هذا الباب ماكتبه ابن خلدون باسم (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً) فقد ولد بتونس ورحل إلى غرناطة في الأندلس، واتصل وداخل ملوك المغرب ومصر وفيها ألقى عصا تسياره، حيث ولي القضاء وقد رافق السلطان الناصر في تصديه ليتمورلنك وجيوشه بالشام، وهو يعطينا في تعريفه بنفسه وبرحلته كثيراً من المعلومات عن عصره وعن البلدان التي زارها في الأندلس وعلى طول الشاطئ الأفريقي إلى الشام، كما يعطينا كثيراً من المعلومات السياسية والتاريخية ... ومازالت الرحلات مستمرة بعد ابن خلدون.

رحلة ابن جبير :

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي،ولد في بلنسية سنة ٥٤٠، وعني أبوه بتربيته، فدرس العلوم الدينية واللغوية، وأخذ نفسه في قرض الشعر ... غادر غرناطة ٥٧٨ هـ على سفينة لبعض أهل جنوة قاصداً الاسكندرية ونزل بها، ثم طاف

بلاد مصر وتوجه أخيراً من عيذاب إلى جدة قاصداً الحج، ولما انتهي حجه غادر إلى بلاد العراق والشام التي كانت تعج بقلاع الصليبيين، ثم عاد إلى بلاده عن طريق عكا فوصل إليها سنة ٥٨١هـ.

ورحلة ابن جبير هذه تقص ماشاهده في طريقه إلى الحج وعودته وهي مكتوبة بشكل مذكرات يومية، ويظهر أنه كتبها في أوراق منفصلة ثم جمعت بعد وفاته من قبل بعض تلاميذه.

ثم رحل ابن جبير إلى المشرق بعد هذه الرحلة مرتين، فإنه سمع بفتح بيت المقدس وتحريره من أيدي الصليبيين، فحدثته نفسه، أن يزور هذه الأماكن وعلم الإسلام والعرب يرفرف عليها، فكانت في ٥٨٥هـ وعاد منها ٥٨٧هـ، أما رحلته الثالثة فكانت سنة ٦١٤هـ، وأقام بمكة مدة ثم تحول عنها إلى الإسكندرية وبها توفي، وأقيم على ضريحه مسجد (سيدي جابر) وبعد أن طاف ببلاد العراق واحدة واحدة، تحول إلى بلاد الشام فنزل حلب وقد أعجب بمبانيهاوحصونها ومما قاله فيها :

" بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير ... لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع، تنـزهت حصانة أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، وموضوعة على نسبة اعتدال واستواء ... ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع أن الماء بها نابع، وقد صنع عليه جبان، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر، والطعام يصبر فيها الدهر كله، وليس في شروط الحصانة أهم ولا آكد من هاتين الخلتين ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان ... ويعترض دونهما خندق ... وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة، فيها العلالي المنيفة، والقصاب (الدور) المشرفة ... وأما البلد فموضعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب، وسكانها في ظلال وارفة، وكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً، وتستوقف المستوفز تعجباً. وأما قيسارتيها فحديقة بستان نظافة وجمالاً، مطيفة بالجامع المكرم ... وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع، مفتح كله أبواباً مغرية الحسن إلى الصحن، عددها ينيف على الخمسين باباً، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، وفي صحنه بئران معينان ... ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى ... امتد بطول

الجدار عريش كرم مثمر عنباً ... وللبلدة سوى هذه المدارس نحو أربع مدارس أو خمس، ولها مارستان " .

ثم يترك حلب إلى حماة وحمص ودمشق، ويستهل حديثه عنها بهذا المديح الرائع : "جنة المشرق، ومطلع حسنه المرفق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقرأناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منتصفها أجمل تزيين... ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الأرقم بكل سبيل، ورياض يحي النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم : هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، وقد سئمت أرضها كثيرة الماء، حتى اشتاقت إلى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب، قد احدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ... وامتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها : إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها " ثم يصف جامعها العجيب ويتحدث عن أبوابه وحيطانه وما عليها من نقوش وتصاوير كما يتحدث عن مقاصيره وعمده وقبابه ومحاريبه وشمسياته ومابه من بديع البناء وغرائب الحلي، ثم يتحدث عن مشاهد دمشق وأبوابها وأسواقها ومارستانها مشيداً بكل ذلك كما يشيد بما فيها من رُبط وخوانق للمتصوفة ..

رحلة ابن بطوطة:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد اللواتي الطنجي، ويشتهر باسم ابن بطوطة ولد في طنجة سنة ٧٠٣هـ لأسرة عنيت بالعلوم الشرعية، وعُرفت بالبسطة في العيش والسعة، واهتم أبوه بتربيته، فدرس الفقه والأدب، وأصبح حرياً بأن يكون قاضياً مثل كثير من أهله، ولكن داعي الحج إلى البيت الحرام دعاه فلباه، وخرج من بلده وهو في الثانية والعشرين من عمره سنة ٧٢٥هـ

وأخذ طريقه إلى مصر مع قافلة من قوافل الحجاج، وعرفوا فيه علمه وفقهه، فجعلوه قاضياً عليهم. ولم يترك ابن بطوطة بلداً نزل بها إلا وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها وقضاتها. وبذلك كانت رحلته معرضاً كبيراً لحياة الأمم والأقاليم التي نزل بها من الوجهتين السياسية والاجتماعية.

ولن نستطيع أن نعرض رحلته في الأقطار كلها فقد طالت حتى استوعبت مجلدين كبيرين، مما جعله أعظم رحالة عرفه العرب في تاريخهم الوسيط. وعاد من رحلته إلى فاس في شعبان سنة ٧٥٠هـ فحظي برعاية السلطان أبي عنان المريني. فيكون قد قضى ربع قرن في رحلة طاف بها بلاد العرب والترك والفرس والقوقاز والصين ...

ورأى أن يزور الأندلس فرحل إليها رحلته الثانية، ومر في طريقه بمسقط رأسه (طنجة)، وطاف ببلدان الأندلس، وزار غرناطة ثم عاد إلى فاس، ومنها قام برحلته الثالثة سنة (٧٥٣ـ٧٥٤)هـ فزار بلاد السودان الغربي، وتوغل في مجاهل أفريقية المتوسطة، ثم رجع إلى فاس حيث أمضى بقية حياته.

يذكر ابن بطوطة أنه رغب في زيارة مدينة بلغار في حوض نهر الفولكا الأوسط، وعرف السلطان محمد أوزبك رغبته، فارسل معه من هداه الطريق، وقد حاول أن يدخل ويسوا ويورا شمالي البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالي ويسميه (أرض الظلمة)، ثم أضرب عن ذلك لعظم المؤنة فيه، ومن طريف ماقاله عنه مما سمعه من الناس :

" السفر إلى هذه الأرض المظلمة إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار، فإن تلك المفازة فيها الجليد، ولا يدخلها إلا الاقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مئة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبه، فإنه لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر. والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة، وتربط العربة إلى عنقه، ويقرن معه ثلاثة من الكلاب، ويكون هو المقدم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات، فإذا وقف وقفت، وهذا الكلب لا يضربه صاحبه، ولا ينهره، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بني آدم، وإلا غضب الكلب وفر، وترك صاحبه للتلف، فلا يستطيع السفر لصعوبة الجليد والسير فيه، لأنه لا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيه، والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها فيه ..."

فنرى أن ابن بطوطة قد وصف الزحافات التي يستعملها (الإسكيمو) في القارة القطبية حتى زماننا هذا !

وقال يصف أهل الصين : "أهل الصين يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما يفعل الهنود ... والحرير عندهم كثير جداً، وهو لباس الفقراء والمساكين، ولولا التجار لما كانت له قيمة، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير. وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً ... وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم، وإنما بيعتهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف

مطبوعة بطابع السلطان ... وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً لها، وذلك مشهور من حالهم،قد وصفه الناس في تصانيفهم، فأطنبوا فيه ... وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه لا من الروم ولا من سواهم، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً. ومن عجيب ماشاهدت لهم من ذلك أني مادخلت قط مدينة من مدنهم، ثم عدت إليها، إلا رأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد، موضوعة في الأسواق ... وتنتهي حالهم في ذلك أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره بعثوا صورته إلى البلاد وبحث عنه" لقد وصف لنا ابن بطوطة العملة الورقية التي كان يستعملها أهل الصين قبل غيرهم من الأمم الأخرى! كما وصف لنا وضع صورة المسافر الغريب على أوراق خاصة تلصق على الجدران كيما يعرف هذا الغريب عندما يجتاز الحدود ذهاباً وإياباً، بمثابة الهوية أو جواز السفر !!

وهكذا عاد ابن بطوطة إلى طنجة مسقط رأسه بعد طواف ثلاثين عاماً في القارات الثلاث إفريقية وآسية وأوربة. وقد توفي سنة ٧٧٨هـ في طنجة ودفن بها، وأقيم مسجد حول ضريحه.

وقد زرت ذلك المسجد وصليت فيه عندما قمت برحلة إلى المغرب وزرت مدينة طنجة في عام ١٩٧٢م.

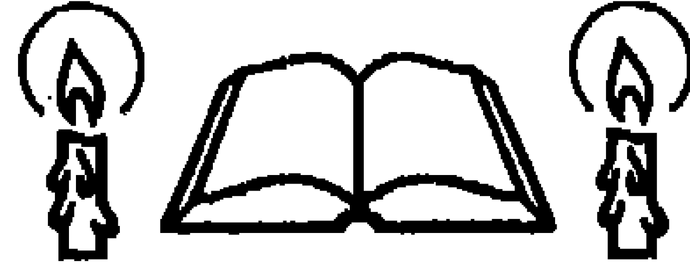
ووراء رحلتي ابن جبير وابن بطوطة رحلات مختلفة ما يزال أكثرها مخطوطاً مثل رحلة (العبدري) في القرن السابع الهجري، ورحلة (ابن رُشيد السبتي) المتوفى سنة ٧١١ هـ ، ورحلة (البلوي) في القرن الثامن الهجري، وقد عنوا في رحلاتهم بأخبار الادباء والعلماء في كل قطر شاهدوه ... ومازالت كتابة الرحلات مستمرة يكتبها المشارقة والمغاربة حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث اتجه الرحالة إلى أوربة يصفون مشاهداتهم.

ومن أشهر ماكتب في ذلك رحلة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسة وقد سماها (تخليص الإبريز في تلخيص باريز). وما كتبه أحمد فارس الشدياق عن رحلاته في مالطة وقد سماها (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) وفي أوربة التي سماها (كشف المخبا عن فنون أوربا) الذي قال فيه واصفاً مدينة مرسيليا: " ... وفي هذه المدين محال عظيمة للقهوة مغشاة حيطانها وسقوفها بالمرايا والنقوش والتماثيل ... وفي بعضها ترى قياناً حساناً يغنين وهن كاشفات الصدور. وعند ملهاها عدة ديار تسكنها المومسات يدعين الغادي والرائح ... وهي (مرسليا) وسخة الحارات والأطراف لكنها بهية الحوانيت والديار، مبلطة الطرق. وليس في ديارها مراحيض، وإنما يجمعون أقذارهم في وعاء إلى أن يأتي رجل معه عجلة

وعليها برميل كبير، فينا ولونه الوعاء فيفرغه في البرميل، وما يجمعه فيه فإنه يبيعه لتدميل الارض ...

ولا أعرف مدينة أخرى بهذه الصفة. ومنهم من يقذف بالأقدار أمام البيوت ليلاً، فلهذا يشم الماشي في أكثر طرقها رائحة كريهة!! ...“

وفي الختام أرجو أن أكون بهذه العجالة قد استطعت أن أقدم لكم فكرة واضحة عن أدب الرحلات والرحالين العرب.



أهم المصادر والمراجع

١ ــ المسالك والممالك / لابن حوقل

٢ ــ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم / للمقدسي

٣ ــ نزهة المشتاق في اختراق الأفاق / للإدريسي

٤ ــ آثار البلاد وأخبار العباد / للقزويني

٥ ــ رحلة التاجر سليمان / لأبي زيد السيرافي

٦ ــ عجائب الهند وبحره وجزائره / لُبزرك بن شهريار الناخداه

٧ ــ مروج الذهب في أخبار من ذهب / للمسعودي

٨ ــ تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب / لأبي حامد الأندلسي

٩ ــ كتاب الاعتبار / لأسامة بن منقذ

١٠ ــ الإفادة والاعتبار / عبد الطيف البغدادي

١١ ــ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة / للبيروني

١٢ ــ الإشارات إلى معرفة الزيارات / للهروي

١٣ ــ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً عبد الرحمن بن خلدون

١٤ ــ رحلة ابن جبير الأندلسي / ابن جبير

١٥ ــ رحلة ابن بطوطة الطنجي / ابن بطوطة

١٦ ــ رحلة سلام الترجمان / لابن سلام

١٧ ــ رحلة ابن وهب القرشي / لابن وهب

١٨ ــ رحلة ابن فضلان / ابن فضلان

١٩ ــ تخليص الإبريز في تلخيص باريز / لرفاعة الطهطاوي

٢٠ ــ الواسطة في أخبار مالطة / لاحمد فارس الشدياق

٢١ ــ كشف المخبأ عن فنون أوربا / لأحمد فارس الشدياق

الحياة العسكرية في مملكة حلب
(في عصر الملك الظاهر غازي ملك حلب الأيوبي)

بقلم الدكتور: شوقي شعث *

لا يخفى على أحد أن العصر الأيوبي كان عصر جهاد ضد الإفرنج الصليبيين الذين كانوا يحتلون قسماً من بلاد الشام، وقد ورث الأيوبيون راية الجهاد عن أسلافهم وسادتهم الزنكيين حيث كانت الصحوة الجهادية قد بدأت في عهد عماد الدين زنكي، وتابعها ولده نور الدين محمود، والحق أنهم وضعوا الأساس المتين لتحرير البلاد والعباد من الكابوس، الذي كان مسيطراً على العالم العربي الإسلامي في الشام ومصر، والاستيطاني وتكوين الممالك والإمارات وبالتالي اقتطاع جزء من آسيا الغربية أي بلاد الشام عن البلاد العربية والإسلامية الأخرى.

لقد انعكست هذه الروح الجهادية على سائر مناحي الحياة في الدولة الأيوبية فقد غدا كل شيء مكرس لخدمه معركة الجهاد والتحرير فلولا ذلك لما كان هناك مبرر لوجود صلاح الدين وبالتالي للأيوبين وعلى هذا الأساس اخذ الشرعية أي الاعتراف من الخليفة العباسي ببغداد، وعليه فلابد عند الحديث عن الحياة العسكرية في هذه الفترة من الحديث عن الاستعدادات العسكرية (الجيش والحصون ...الخ) وعن وسائل الإستعدادات الأخرى كالاستعداد الفكري والدعوي الذي يستند عليه العمل العسكري والذي ظهر في إنشاء المدارس والمساجد التي أصبحت بمثابة مراكز دعوة للجهاد في سبيل الله ضد الإفرنج الصليبيين والأعداء الآخرين.

* أمين متحف حلب الوطني

فإذا أردنا الحديث عن الحياة العسكرية في عصر الظاهر غازي لابد أن نضع في الاعتبار أن عصره كان جزءً من العصر الأيوبي العام، خاصة في حياة صلاح الدين والده، ويخضع لإستراتيجيته فما ينطبق على العصر الأيوبي بوجه الإجمال ينطبق على عصر الظاهر غازي بحلب.

أخذ الأيوبيون حلب نحو عام ٥٧٩هـ، بعد أن حاصرها السلطان صلاح الدين ولكن قلعتها استعصت عليه من عماد الدين زنكي الثاني[1] ، وبعد مفاوضات بينه وبين عماد الدين، قبل الأخير بمغادرة القلعة وأخذ عوضاً عنها سنجار بلده وأعطي بعض الأيام لينقل أشغاله وأقمشته وخزائنه[2] وبعدها صعد السلطان صلاح الدين إلى القلعة وأولم له حسام الدين طحان وليمة، وكان قد تخلف لأخذ مالعماد الدين من قماش وغيره، وبهذه المناسبة هنأ الشعراء صلاح الدين بملك حلب وقلعتها ومن بين أولئك الشعراء كان القاضي محي الدين بن الزكي والقاضي السعيد بن سناء الملك[3] .

و لى صلاح الدين قضاء حلب إلى محي الدين الزكي المار ذكره، الذي استناب عنه فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي،ولى القلعة سيف الدين يازكوج وجعل الملك فيها لولده الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف ثم رحل عنها في نفس السنة إلى دمشق[4].

---

(1) هو عماد الدين بن مودود بن زنكي بن عم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ويعرف أحياناً باسم عماد الدين الثاني "، سلّم حلب إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي مقابل سنجار، وقد قال عوام حلب أشعاراً عامية كثيرة يستعظمون فيها فعلته (انظر ابن العديم في الزبدة جـ٣ ص ٦٧ ـ ٦٨).

(2) ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٢، ص ١٤١، المطبعة الأميرية ١٩٥٧، نشره الدكتور جمال الدين الشيّال.

(3) ابن واصل : المصدر نفسه ص١٤٤

(4) ابن واصل : المصدر نفسه ص١٤٧

عندما وصل صلاح الدين دمشق وجد ابنه الظاهر بدمشق فسيره إلى حلب وجعل في خدمته حسام الدين بشارة شحنةً، وشجاع الدين عيسى بن بلاشوا والياً. وتذكر بعض المراجع التاريخية أن السلطان صلاح الدين عاد فأخذها من ولده وأعطاها لأخيه الملك العادل ثم أخذها منه فيما بعد ليردها ثانيه إلى ولده الظاهر بنصيحه علم الدين سليمان بن جندر[٥] ، وعندما أعطى السلطان صلاح إلى ولده الظاهر حلب فرض له في السنة ثمانية وأربعين ألف دينار بيضاً أي في كل شهر أربعة آلاف دينار، وجعل له كل يوم قباء وكمه، ويكون عليق دوابه من الأهراء، وخبزه من الأهراء. واستمر الظاهر في هذه الوظيفة إلى سنه ست وثمانين وخمسمائة، ثم بعد ذلك أطلق يده وفوّضه بإعطاء الاقطاعات،وقال له البلد ملكك فتصرف كيفما تشاء بها [٦].

وعندما مات السلطان صلاح الدين الكبير.كانت مملكة حلب تضم حلب والبيره وكفر طاب وإعزاز وحارم وشيزر وبارين وتل باشر فاستمال الملك الظاهر أهلها وأنعم عليهم وتقرب منهم بالإحسان عملا بوصيه والده في الأفعال الحسنة وشارك رعيته سرورهم وقلد أعناقهم بأطواق الأنعام وجالس الكبير والصغير واستمال الجليل والحقير على حد قول ابن العديم[٧] .

شملت الحياة العسكرية في عهد الملك الظاهر الأمور التالية:

١ ـــ تحصين القلاع والحصون والأسوار

٢ ـــ إعداد الجيش

٣ ـــ الاهتمام بالصناعات الحربية

وسنتحدث عن كل من هذه الأمور بإيجاز شديد

---

(٥) ابن واصل : المصدر نفسه ص١٧٨

(٦) ابن العديم : الزبده جـ٣ منشورات المعهد الأفرنسي للدراسات العربية بدمشق تحقيق سامي الدهان دمشق ١٩٦٨، ص٨٩.

(٧) ابن العديم : المصدر نفسه جـ٣ ص١٢٥

١ ـ التحصينات المعمارية العسكرية

١ ـــ الأبواب والأسوار:

تأتي مدينة حلب في الدرجة الثانية بعد القاهرة من حيث كثرة الأبنية الإسلامية وخاصة الأبنية العسكرية على حد قول أسعد طلس [٨] (يختلف الآن الوضع)، ويعود تاريخ بناء الأبواب في مدينة حلب إلى العصر الأيوبي التي ظلت قائمة أبان الفترات اللاحقة، و لم يقم خلفاؤهم في السلطة بمدينة حلب ببناء أبواب جديده وإنما أجروا بعض التجديدات الطفيفه على الأبراج والأسوار[٩] فللظاهر غازي يعود الفضل أولاً وأخيراً في تجديد أسوار المدينة وتحصين القلعة الكبيرة، ونجد فيما بعد، في عام ٦٤٢هـ ، أن حفيده الملك الناصر صلاح الدين يوسف الثاني (١٢٣٦/٦٣٤ ـــ ٦٥٩هـ /١٢٦٠ بتجديد سور المدينة وبناء الأبراج على السور، المتد من باب الجنان في الجهة الشمالية من السور وحتى باب قنسرين في الجهة الجنوبية واشتمل هذا السور على ١٢٨ برجا، حيث قويت بدنته بها، وبالتالي قويت المدينة[١٠]، ويبدو أن ذلك كان استعداد لمواجهة الغزو المغولي الذي بدأ من الشرق بقيادة هولاكو الذي اغتصب بغداد عام ١٢٥٧/٦٥٦م، و لم يتأخر غزو هولاكو لمدينة حلب فجاء عام ٦٥٨هـ / ١٢٥٩ وخرب سور المدينة وأبراجها وبقيت فترة طويلة خربه إلى أن جددها نائب حلب كمشبغا الحموي عام ٧٩٢هـ / ١٣٩٠ وذلك بمساعدة أهالي حلب الذين تبرعوا بأموالهم لاعمارة كما شارك بعضهم العمال في بنائه [١١] .

---

(٨) طلس أسعد : الآثار الإسلامية والتاريخية بحلب، ص٥ ، ١٩٥٦ مطبوعات مديرية الآثار العامة.

(٩) يظهر هذا من فحص بقايا الأبواب والأسوار في حلب كما يظهر من مباني القلعة خاصة الابراج والأسوار .

(١٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة جـ١ ق١ ص١٩ ابن الشحنه الدر المنتخب في تاريخ حلب ص٣٦.

(11) Suvaget J., Alep, texte, pp. 166 - 167

من الأعمال المعمارية العسكرية التي قام بها الملك الظاهر غازي ٥٨٢هـ/١١٨٦م ـ ٦١٣هـ ١٢١٦م

أ ـ باب المقام : انشأه الملك الظاهر وأتمة ولده الملك العزيز محمد [١٢]

ب ـ باب القناة (الحديد) : سمي باب القناة نسبة إلى القناة التي عملها الظاهر غازي [١٣].

ج ـ باب النصر : كان يسمى باب اليهود وحين تولى الملك الظاهر غازي غير اسمه وسماه باب النصر [١٤] .

د ـ باب الفرج (الفراديس) بناء الملك الظاهر غازي وجدده الملك الناصر يوسف[١٥] .

٢ ـ قلعة حلب :

عندما فتح المسلمون قلعة حلب عام ١٣هـ قاموا بترميم ماتخرب فيها [١٦]، واهتم سيف الدولة الحمداني بعمارتها وتحصين أسوارها [١٧] . وأصبحت في عهد بني مرادس مسكناً للأمراء، وفي عهد نور الدين أقام ميداناً وساحة خضراء سمي الميدان الأخضر[١٨].

---

[١٢] الغزي كامل : نهر الذهب في تاريخ حلب جـ٢ ص٨ (الطبعة الأولى)، طلس المصدر السابق ص٣٣.

[١٣] الغزي كامل : المصدر نفسه ونفس الصفحة (ط١) ، طلس : المصدر السابق ص٣٤. يبدو أن هذا الباب متهدم وأعاد عمارته السلطان قانصوه الغوري عام ٩١٥هـ/١٥٠٠م.

[١٤] الغزي كامل : نفس المصدر جـ٢ ص ص٨ ـ ٩، الطباخ راغب : إعلام النبلاء ٢/٢١٦ (الطبعة الاولى)، طلس المصدر السابق ص٢٧.

[١٥] الغزي كامل : المصدر نفسه ٢/٩ (الطبعة الأولى) ، طلس : المصدر السابق ص٣٢.

[١٦] ابن شداد : المصدر السابق جـ١ ق١ ص ٢٣ ـ ٢٤ ، ابن الشحنة : المصدر السابق ص ٤٨ ـ ٤٩ ، داوود جورج فريد طريف ص٧٧ رسالة ماجستير غير مطبوعة قدمت إلى كلية الآداب بالجامعة الاردنية ١٩٧٧.

[١٧] ابن شداد : المصدر السابق ونفس الصفحة، داوود المصدر السابق ص٧٧.

[١٨] ابن الشحنة : المصدر السابق ص٥٠ ، الغزي : المصدر السابق جـ٢ ص٢٥.

وفي العهد الأيوبي، خاصة في عهد الملك الظاهر أضاف إضافـــات عديـــدة علـــى سورها وأبراجها وأدخل تحسينات كثيرة منها: عيون للمياه ومخازن للغلال وفتح بابـــاً في سورها سماه باب الجبل الشرقي عام ٦١١هـــ/ ١٢١٤م (١٩) .

وزاد في خندق القلعة واجرى الماء فيه وأوجد على جانبيه من جهة المدينة مغاور(٢٠) جعلها سكناً للأسرى وتحوى كل مغاره على خمسين بيتا (٢١).

يصف ابن جبير سور القلعة في هذا العصر بقوله " وسورها الأعلى كلـــه أبـــراج منظمة فيها العلالي المنيعة، والقصاب المشرفة، وقد تفتحت كلها طيقاناً وكل برج منـــها مسكون وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الرفيعة" (٢٢).

ويذكر ابن الشحنة في الدر المنتخب أن الملك الظاهر غياث الدين غـــازي عمّـــق الخندق عام ٦١٠هـــ وأجرى فيه الماء وبذلك أمّن الملك الظاهر القلعة وحفظها (٢٣) .

كما يذكر مؤرخون آخرون أن الملك الظاهر قام بتسفيح تل القلعـــة بالحجـــارة الهرقلية وقد بلغ ميل الرصيف نحو ٤٥ درجة وبلغت أبعاد الحجارة فيه نحـــو ١١٠ X ٤٠ سم في بعض الأحيان، وخوفاً من انزلاق الحجارة دعمت بأعمدة أسطوانية وضعت علـــى نحو عرضاني (٢٤) ولاتزال بقايا التسفيح ماثلة إلى يومنا هذا، وقيل ان سبب خرابها، هو لجؤ السلطات في العهود الملاحقة إلى قلْعِها وبناء المشفى الوطني وثكنه هنانو (٢٥) .

---

(١٩) ابن الشحنة : نفس المصدر ص٤٩، داوود : المصدر نفسه ص٧٧.

(٢٠) ابن داوود : المصدر السابق ص٧٧.

(٢١) داوود : المصدر السابق ص٧٧.

(٢٢) ابن جبير أبو الحسن محمد : الرحلة دار صادر بيروت ١٩٥٩ ص

(٢٣) ابن الشحنة : المصدر السابق ص٥١.

(٢٤) ابن الشحنة : المصدر نفسه ص٥٠.

(٢٥) شعث شوقي : دليل قلعة حلب، مطبوعات وزارة الثقافة (المديرية العامة للآثار والمتاحف)، ١٩٨٦ ، الغـــزي : المصدر السابق ٢٦/٢ ، طلس: المصدر السابق ص٣١٧ ويضيف إن رباط ابراهيم باشا ومشفى ابراهيم باشا بنيـــا من حجارة القلعة وأسوار المدينة، ص٣١٤.

يعتقد أن القسم الأسفل من الحصن (المدخل الرئيس) يعود إلى زمن الملك الظاهر غازي (٥٨٩ - ٦٠٣هـ / ١١٨٦ - ١٢١٦م) أما قسمه العلوي فيعود إلى العصر المملوكي في عهد السلطان الناصر فرج ٨٠٧ / ٨٠٩هـ - ١٤٠٦م، ومن أهم العناصر الدفاعية التي زود بها هذا الحصن البرج الرئيس: السقاطات وفتحات السهام والمدخل المنكسر (الباشوره) والشراريف، فعليه من الأمام ست سقاطات: ثلاثة على كل من البرجين المؤلفين للبرج الرئيس منها: اثنتان مزدوجتان تتألف كل منها من ست فتحات محمولة على سبعة كوابل وبين سقاطتي الزاوية سقاطة ذات ثلاثة فتحات محمولة على أربعة كوابل، (خوابير أظفار)، وعلى الواجهة الجنوبية للبرج الرئيس سقاطة وعلى الواجهة الشمالية سقاطة أخرى من نفس الطراز، ويلاحظ كذلك على واجهه قاعة العرش من الأعلى سقاطة صغيرة لها فتحات وثلاثة كوابل وربما عملت هذه السقاطة خصيصاً لحماية النافذة الرئيسة في واجهه القلعة وهناك سقاطتان نصف دائريتان حملت كل منهما على كابلين [٢٦] .

إن فتحات السهام كثيرة، منها ما هو في القاعات السفلية من الأبراج ومنها ماهو في القاعات العلوية وتدل كثرة هذه الفتحات هنا على أهمية هذا البرج الدفاعية بالنسبة للقلعة فإذا تمكن العدو من اقتحامه تمكن من السيطرة على القلعة، كيف لا وفيها قاعة العرش التي يجلس فيها الملك أو الأمير أو الوالي أو النائب وأركانهم ومن الطبيعي أن يتركز القسم الأعظم من الجند المدافعين عن القلعة.

أما الشراريف التي تتوضّع فوق قاعة العرش فهي تستر الجند المتركزين فوق سطح قاعة العرش ويلاحظ أن هناك سواتر فتحات سهام وهناك أيضاً فتحات كثيرة بين السواتر يمكن أن تفيد في رمي السهام والأشراف.

---

(٢٦) الكابل وجمعها كوابيل وهي الظفر البارز الذي يحمل السقاطة أو غيرها من العناصر المعمارية (فريد شافعي العمارة العربية في مصر الاسلامية ،عصر الولاة ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٠ ص١٤٦ تقل ٩٢).

وتتميز القلعة أيضاً بمدخل ملتو (منكسر): يقع مدخله إلى يمين الداخل إلى القلعة من البرج الرئيس ويعرف هذا المدخل بالباشورة أو المدخل الملتوي وهذا النوع من المداخل نجده في العمارة الإسلامية بكثرة لانه يساعد على امتصاص قوة المهاجمين، وبالطبع فإن مثل هذا المدخل، كما هو الحال في قلعة حلب ، يكون مزوداً بوسائل الدفاع الأخرى مثل السقاطات وفتحات السهام[٢٧] .

وكما هو الحال في أسوار حلب وأبراجها وقلعتها، كان الحال في القلاع الأخرى التابعة لمملكة حلب مثل قلعتي النجم وحارم وكلاهما يتمتع بموقع حربي متميز، فقلعة النجم تحرس الحدود الشرقية لمملكة حلب وهي تقع عند مخاضة على نهر الفرات تعتبر طريق إجبارية لقوافل ولكل جيش قادم من الشمال والشمال الشرقي، ويبدو أنه كان عند قلعة النجم جسر كان يعرف بجسر منبج فقد حصن الملك الظاهر هذه القلعة وشحنة بالعتاد ووضع جندا أشداء فيها لحراستها رغم أنه في فترة من الفترات أمر بتخريبها حتى لا تقع في يد منافسية وهذه عادة أيوبية نجدها في كل بلاد الشام فعندما كان يشعر السلطان أو الملك بأن مدينة أو قلعة لا بد وأن تسقط في يد أعدائه كان يعمد إلى تخريبها حتى لا يستفيد العدو من تحصيناتها فقد حدث ذلك في عسقلان والقدس وغيرها [٢٨] .

أما قلعة حارم فتعتبر حارسة الحدود الغربية للمملكة وهي تقع في مواجهه الأفرنج الصليبيين أخذها صلاح الدين بعد أخذه حلب عام٥٧٩ هـ، وكان بها مملوك اسمه سرخك فراسله صلاح الدين أن يسلمه القلعة ويعوضه عنها ماشاء إلا أنه طلب طلبات كثيرة، وأراد مراسله الإفرنج لحمايته من صلاح الدين إلا أن أصحابه لم يمكنوه من ذلك فقبضوا عليه وأرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون الأمان فأجاهم وتسلم القلعة ورتب بعض

---

[٢٧] الباشورة تصميم خاص بمداخل البيوت والقلاع يقضي برفع جدار يواجه الداخل مباشرة ويفرض عله الانعطاف يميناً أو شمالاً والهدف منه القلاع إعاقة تقدم المهاجمين، تظهر الباشورة في العمارة الاسلامية الأتابكية والأيوبية في الشام ومصر (انظر الدكتور غالب عبد الرحيم في موسوعة العمارة الإسلامية ١٩٨٨).

[٢٨] حسان نظير : جيش مصر في أيام صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، ١٩٥٩، ص٣٧.

خواصه ثم صارت بعد صلاح الدين لولده الملك الظاهر غازي فاهتم بشأنها وحصن قلعتها واسمه مكتوب على بابها في كتابه تعود إلى عام ١١٩٩ وكانت القلعة قبل الظاهر مثلثه الشكل فغيرها من جهه القبلة مدوره وبنى أبراجها مربعه، وفي عام ٦٥٧ استولى هولاكو على شمال سورية وأخذ حارم وقتل جميع من فيها حتى البهائم خنقاً وأخرها عن آخرها. يذكر فإن رشيم في كتابه رحلة الشام بان قلعة حارم عربية البناء من طراز الهندسة العسكرية السائدة في عهد الملوك الأيوبيين ويدل على ذلك انتظام شكل باحتها ورصف منحدراتها بالحجارة على نحو مايشاهده في قلاع نصف دائرة جعلاها تشبه قلعة بصرى التي بنيت في العهد الأيوبي كما أن شكلها العام يشبه قلعة المضيق ووضع المدخل وطرازه يشبه مافي مدخل قلعة حلب [٢٩] .

لقد امتدت التحصينات إلى المدارس والجوامع فإذا أمعنا النظر في بنائها نجده متيناً وهو خال من الزخارف والحليات توفيراً للنفقات التي يجب أن توفر لاغراض أخرى أكثر أهمية.

٢ ـ أعداد الجيش :

وكان السلطان صلاح الدين كلما غزا غزوه يحتاج إلى عسكر يرسل في طلبها من الملوك والأمراء وكان عسكر حلب أهم تلك العساكر وأكثرها عدداً، ففي غزوته بلاد الكرك أرسل يطلب عسكر حلب وعندما تأخر لانشغاله بأرض إنطاكية وبلاد أخرى قلق عليه وأرسل من يطمئنه [٣٠]

لقد كان جيش أوفرقه مملكة حلب من أهم عناصر الجيش السوري في عهد صلاح الدين كما أنحنا، وكان جيش صلاح الدين مؤلفاً من جيشين، جيش مصري وجيش

---

[٢٩] زكريا وصفي : جولة أثرية في بعض البلاد الشامية ص٨٢،

The Middle East Guicle 1966 p. 408

[٣٠] ابن العديم : الزبدة، جـ٣، ص٩١.

سوري، وكان الجيش مؤلفاً من عناصر دائمة وهي العناصر التي تأخذ راتباً من الدولة ويقع على عاتقها المهمات القتالية بشكل أساسي، ومن عناصر متطوعة كانت تلتحق بالجيش وقت الحرب ويطلق عليهم اسم الأحداث وكان لهم رئيس يطلق عليه مقدم الأحداث أو رئيس الأحداث وكانت الدولة تدفع أعطيات لعائلات هؤلاء المتطوعة إما عينا أو نقداً وكان لهؤلاء نفوذ كبير في حلب والمدن الأخرى (٣١) .

كانت أسلحة الجيش لاتختلف عن أسلحة الجيوش الإسلامية المعاصرة وتضم الرماح والسيوف والتروس والسهام والفؤوس، وكان الجند يلبسون الخوذ والدروع، إضافة إلى ذلك كان الجند يستعملون النفط ويلبسون لباسا خاصاً، وكانت تستعمل أيضاً المنجنيقات والمقاليع، وكانت هناك الدبابات التي تقوم بنقب الأسوار والأبراج. وعلى وجه العموم يمكن القول أن الحياة العسكرية في حلب وغيرها من الممالك الأيوبية تطورت كبيراً في الميدان العسكري لتواكب العصر الذي كانت تعيش فيه (٣٢) .

أما فيما يتعلق بلباس الجيش فكان يختلف باختلاف الفرق والأسلحة فكان جنود السلطان يليسون على رؤوسهم الطواقي الصفراء دون عمامة كما كانوا يلبسون على أبدالهم أقبية بيضاء ضيقة الأكمام وهي مصنوعة من القطن البعلبكي وفي بعض الأحيان تكون حمراء أو زرقاء ويشدون على أوساطهم أخرقه من القطن، أما فرقة الأجانب فنظرا لأنها كانت تأخذ رواتب عالية فكان لباسها أجمل وأفخم من غيرها (٣٣).

---

(٣١) شعث شوقي : الجيش العربي في عصر حطين ووسائل الإسناد الأحزي، مجلة تاريخ العرب والعالم. بحث قدم إلى الندوة العالمية بمناسبة مرور بمانمئة عام على موقعة حطين التي عقدت بدمشق عام ١٩٨٧.

(٣٢) دخلت أيضاً حرب النفط المحرق وكان هناك أشخاص مختصون يلبسون لباساً خاصاً عموماً تختلف أسلحة الجيش في العصر الأيوبي عن أسلحة الجيش الجيش في الجيوش المعاصرة الاسلامية خاصة الجيش السلجوقي، كما أنها استفادت من الأسلحة الأفرنجية، شعث: المصدر السابق.

(٣٣) يذكر رفيق التميمي في كتابه الحروب الصليبية ص١٥٠ والمطبوع عام ١٩٤٥ بالقدس مايلي" كان لباس الجنود يختلف باختلاف الفرق والاسلحة وأنشئت فرقة خاصة بالأجانب وجعلت رواتبهم أعلى من رواتب الجنود العادية وكان لباسهم أبهى وأفخم"، شعث : المصدر السابق.

وكانت تتبع الجيش فرق من الفرسان وكان سلاحهم الدروع والسيوف والرماح في حين كان الرجالة (المشاه) يتسلحون بالدروع والحراب والأقواس والسهام. ويذكر أبو الفداء ٢/حوادث عام ٥٩٧هـ أن الملك الظاهر عندما تصالح مع الملك العادل صاحب مصر وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه اشترط على الملك الظاهر أن يكون في خدمته أي خدمة الملك العادل خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب [٣٤] .

٣ ـ الصناعات الحربية :

من الطبيعي، والعصر عصر جهاد، أن يهتم الأيوبيون بالصناعات الحربية لتسليح جيشهم بالأسلحة المتطورة ضماناً للنصر فقد كانت الأسلحة تصنع في مشاغل قاره في مراكز المدن الكبيرة والعواصم ومنها حلب ولكل مدينه بالطبع أسلوبها في العمل تطبع أسلحتها بخصائص فريدة حتى أصبحت السيوف مثلاً تنسب إلى أماكن صناعتها وقد عمد الأيوبيون إلى الاهتمام بهذه الصناعة والأشراف عليها كالأشراف على مركز إنتاج الفولاذ وسكب السيوف. كما كانت هناك ورشات ميدانية ملحقة بقطعات الجيش لصيانة الأسلحة أو تركيب الآلات والعدد التي تحتاج إلى تحضير في ساحة المعركة [٣٥].

ولأهمية هذه الصناعة الحربية في العصر الأيوبي ظهرت مؤلفات كثيرة حولها منها في الفروسية وفن الرماية والإدارة والتكتيك العسكري نذكر منها التذكره الهروية في الحيل الحربية" لعلي بن أبي بكر الهروي وهو كتاب جامع للمسائل المتعلقة بإدارة شؤون الدولة وتعيين القادة والسياسة العسكرية والتعبئة والتجسس والأعداء الخ".

---

[٣٤] أبو الفدا الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل: المختصر في أخبار النشر جـ٢ حوادث عام ٥٩٧هـ.

[٣٥] أزاد على : الصناعات الحربية في العهد الأيوبي ودورها في تحقيق النصر بحث ورم إلى الندوة العالمية حول حطبين عام ١٩٨٧ كما المحنا سابقاً ونشر في مجلة تاريخ العرب والعالم.

كما شجعت الدولة المجال التطبيقي الميداني فاهتمت بالحرفيين والفنيين المتخصصين في مجال صناعة وتركيب السلاح والقذائف والذخيرة خصصت مكافآت لمن يقوم باختراع أو استنباط في هذه المجالات .

ومن المصادر الهامة عن صناعة السلاح كتاب" تبصره أرباب الألباب وكيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينه على لقاء الأعداء" لصاحبه مرضي بن علي بن مرض الطرسوسي ولا حاجة للحديث عن كتاب الطرسوسي فهو كتاب جامع ومشهور[٣٦].

ختاماً يمكن القول إن عهد الملك الظاهر غازي ملك حلب كان عهداً مزدهراً من الناحية العسكرية فهو بحق عهد جهاد، كما هو الحال في السلطنة الأيوبية بكاملها في مصر وبلاد الشام، فقد كان الخطر الأفرنجي الصليبي محرك اهتمام الملوك الأيوبيين واستمرار ذلك الاهتمام، علي الرغم من أن انشغال الأيوبيين بعد موت سلطانهم الكبير صلاح الدين قد قل وتراجع بسبب انشغالهم بعضهم ببعض إلا أن اهتمام بالأمور العسكرية ظل قائماً ومرتبطاً بوجود الأعداء.

وأخيراً بقي أن نقول إن الحياة العسكرية في العهد الأيوبي برمته كانت تتصدر هموم الملوك والأمراء والمواطنين فقد كان كل شيء للمعركة وللتحرير، فكانت تحصن القلاع والحصون والمدن لخدمة المعركة، وتقام المدارس وتلقى فيها الدروس لخدمة المعركة، وتقام الصلاة في المساجد والجوامع تقرباً إلى الله الذي يمنح النصر في المعركة وكانت الخانقاوات، بما تأوي من فقراء ورجال دين تخدم المعركة، هذا الإيمان العميق بالنصر المرتبط بالإيمان بالله وبكتابه جعل الأيوبيون، وهم القادة السياسيون آنئذ، يرفعون راية

---

[٣٦] آزاد علي : المرجع نفسه ، حيث يقول " فاهم مصدر علمي عن صناعة الأسلحة في العهد الأيوبي كتبه مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي بعنوان (تبصرة أرباب الألباب وكيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء)".

الجهاد من أجل تحرير البلاد الإسلامية من الأعداء وكان لتحرير القدس الشريف الأولوية، لقد مارسوا كل الوسائل في سبيل الوصول إلى الهدف، على الرغم من أن جيشهم لم يكن يفوق الجيوش المعادية عدة وعدداً، إلا أن الإيمان بالله وبالقضية التي يحاربون من أجلها جعلهم يحرزون النّصر، هذا إلى جانب الخطط الحربية الناجمة والاستراتيجية والتكتيك الممارس على الأرض، لقد كان الجهاد في سبيل الله واجب مقدس لابد أن ينهض به كل مسلم ومسلمه أو يساعد عليه ولانشك لحظة أن الأماني بالتحرير موجودة اليوم لدى الجميع في العالمين العربي و الإسلامي، فمتى يمن الله علينا يتحقق تلك الأماني وحدة وتضامنا وتحريراً لأراضينا المغتصبة. سيظل هذا الأمل حياً في النفس يرثه الأبناء عن الآباء إلى أن يمن الله بالنصر فليس ذلك على الله بعزيز.

بيمارستانات الفترة المملوكية

المهندس عمر عبد العزيز الحلاج *

في البدء أود أن أشكر معهد التراث العربي وجمعية العاديات على إتاحة الفرصة لي اليوم للمشاركة في هذا الحوار وأود في هذا السياق أن أهدي مداخلتي هذه إلى ذكرى إنسان كان له فضل كبير في الحصول على مراجع هذا البحث و كان بحق أقدر من درس هذا الموضوع ألا وهو المرحوم الدكتور طه اسحق الكيالي .

إن البحث في تاريخ البيمارستان كمؤسسة مدنية هامة في العصور الوسيطة سيقودنا إلى الخوض في مجموعة من المطبات التي وقع فيها معظم من أرخ لهذا الموضوع وانتقي في الأول نقطتين وجب التحذير و التنويه عنهما:

النقطة الأولى :هي أن البيمارستان هو مؤسسة تطورت عبر تاريخها والخطأ الشائع هو إسقاط بعض صفات ووظائف المراحل المتقدمة من تطور هذا النوع من المباني على المراحل المتأخرة وبالعكس. فمثلاً يبتدئ الكثيرون خطابهم عن البيمارستان بالكلام عن الخيام الطبية التي كانت ترافق الرسول في غزواته ، كأصل لفكرة البيمارستان. فهنا يسقط المؤرخون التاريخاوية الدينية على عملية التأريخ. ومن المعروف أن البيمارستان كما تطور في الفترة المملوكية له مرجعيات ووظائف تختلف كل الاختلاف عن خيمة رفيدة.

وكذلك الأمر بالنسبة للبناء الذي أقامه الوليد بن عبد الملك لحجر المجذومين إذ يسميه المؤرخون بيمارستاناً ولا نملك أي دليل نص من الفترة الأموية تشير إلى أن هذا البناء سمي بيمارستان،أو كانت له وظائف البيمارستان.

النقطة الثانية: هي أن تاريخ البيمارستان كمؤسسة مربوط بتاريخ الخطاب الطبي فكان أغلب من كتب عن البيمارستانات ، مؤرخاً للطب العربي، يسقط الخطاب الطبي على جدران الأبنية. وبذلك اختزلوا في تاريخهم دور البيمارستان إلى مكان للمعالجة الطبية فحسب،ونسوا أو تناسوا أدواره الاجتماعية الأخرى.

---

* ماجستير عمارة

ولفهم دور البيمارستان في المدينة الإسلامية من العصور الوسيطة يجب أن نرفع عن البيمارستان الهالة الطبية التي أحاطت به، ودراسة هذه المؤسسة ضمن الدور السياسي والاجتماعي و الاقتصادي الذي لعبته في المدينة بمعنى آخر يجب أن نجرد الخطاب الطبي من صفة العلمية وندرسه كظاهرة تاريخية زمنية .

إن الغالبية العظمى من المعلومات التي بحوزتنا عن مباني ومؤسسات الشفاء العائدة إلى العصور الإسلامية الأولى هي معلومات غير دقيقة فليس هناك أدلة آثرية (أركيولوجية) قائمة نستدل منها أية معلومات معمارية، أما الأدلة النصية فلقد كتب أغلبها بعد القرن الرابع الهجري وهي مشبعة بتصورات المؤرخين اللاحقين، وهذه الكتابات إن دلت على شيء فهي وصف للمؤسسات الطبية في العصور اللاحقة ، ولا علاقة وثيقة لها بالمؤسسات القديمة.

لذلك وتجنباً للإسقاطات المغلوطة سأكتفي بالكلام عن البيمارستان كما تطور في الفترة المملوكية مع ذكر بعض السوابق من الفترة الزنكية والأيوبية التي نملك أدلة آثرية ونصية كافيه عنها.

وينبغي مع ذلك أن نكون حذرين في فهم محدودية الأدلة التاريخية . فالمباني التي لا تزال قائمة قد أضيف لها الكثير عبر العصور، كما أن عدداً من البيمارستانات بني فوق خطط مبان قديمة وبالتالي ورثت عن تلك المباني بنيتها المعمارية التي قد لا تكون بنية خاصة بالبيمارستان .

وفيما يخص الأدلة النصية فيمكن تصنيفها إلى نوعين من الخطاب: خطاب رسمي يحكي وجهة نظر مشيد البيمارستان أو الطبيب الممارس فيه، وخطاب شعبي يرفض سلطة الخطاب السابق ويسخر منه في كثير من الأحيان الخطاب الأول يشيد بدور مؤسسة البيمارستان ويؤكد على دورها الطبي (وطبعاً نقرأ بين السطور دورها الأخلاقي و الديني) أما الخطاب الثاني فيشكك بدور الطبيب و البيمارستان. يتجلى فيه الطبيب كشخصية جاهلة مقارنة بالمريض، ويقف المارستاني مغفلاً أمام المجنون.

إن قراءة أحد هذين الخطابين دون الآخر ستؤدي بنا إلى إهمال نصف المرجعيات التاريخية، فلا الخطاب الرسمي وحده يملك مشروعية تعريف الثنائيات المزدوجة للطبيب/

المريض، العاقل/ المجنون، ولا الخطاب الشعبي محق في تجاهل الدور الإيجابي الذي لعبته مؤسسة البيمارستان.

سأستهل إذاً الكلام عن البيمارستان من خلال الأدلة التاريخية بمحاولة لشرح تطور البيمارستان شكلياً ووظيفياً من القرن السادس الهجري وحتى القرن التاسع، وهي الفترة الذهبية لنشاط هذه المؤسسة.

إثنان من السوابق التاريخية الهامة للبيمارستان المملوكي هما البيمارستانان النوريان في حلب ودمشق. بني البيمارستان النوري في دمشق عام ٥٦٥ هـ أثناء عملية إعمار دمشق إثر زلزال عظيم ، أما البيمارستان في حلب فهو مجهول تاريخ الإنشاء ولو أنه يعتقد أن نور الدين محمود الزنكي قد أمر ببنائه قبل سميه الدمشقي ببضع سنوات وهناك رواية أستبعدها بعض الشيء هي أن البيمارستان بني في القرن الخامس الهجري في حلب وأعاد نور الدين ترميمه.

يتميز البيمارستان النوري في حلب ببعض الخواص التي نقرؤها من مسقطه حيث أن أغلب البناء قد تهدم وهو بحالة مذرية من الخراب:

- باب الدخول الرئيسي للبيمارستان يفضي مباشرة إلى صحن كبير من دون المرور بأية ردهة تمهيدية.
- حول الصحن عدد من الغرف وثلاثة أواوين وفيه بركتا ماء.
- جميع فراغات المبنى الرئيسية منها والصغيرة تخضع إلى نسب هندسية شهيرة. أي أن نسبة ضلعها الصغير إلى ضلعها الطويل تحقق إحدى النسب التالية: $1/\sqrt{2}$، $3/4$ (مثلث فيثاغورث)، 0.618 (النسبة الذهبية) أو ١/١ (مربعة).
- غير أن هناك استثناء لهذه القاعدة وهي الحجرات الشمالية الغربية الصغيرة لا تخضع لنسب هندسية شهيرة . وإنما ينظمها معيار هندسي (موديل) يتكرر بإنتظام . وأغلب الظن أنها أضيفت لاحقاً لأنها أشبه بحجرات البيمارستان المملوكية وسآتي على ذكر ذلك لاحقاً .
- لا يوجد ناظم هندسي للمبنى بأكمله أي أن المعمار خطط الباحة وألصق بها الغرف والأواوين ولكل منها نسبةُ المختلفة ولا ترتبط بالأبعاد المطلقة للبناء.

- أما الظاهرة الأخيرة فيما يخص هذا المبنى فهي كون فراغات المبنى غير منفصلة وظيفياً، أي أن القاعات الكبيرة المخصصة للعلاج تكون مختلفة مع الغرف الأصغر الخاصة بالخدمة.

وبشكل عام فإن مسقط هذا البناء هو أشبه ببناء مدرسة دينية،وليس بالبعيد أن نلحظ هنا أن هذه الفترة شهدت بداية تشييد المدارس بشكل مكثف في المدن الاسلامية . إن التشابه الوظيفي بين البيمارستان والمدرسة في هذه الفترة يدل على أن المؤسستين لم تكونا قد نضجتا معمارياً بعد، أي كان هناك نموذج أولي واحد لكل المباني الرسمية.

وحتى وظيفياً فإن البيمارستان كان يفيد مهمة تعليمية وربما كانت وظيفته التعليمية أهم من تلك الطبية. ومن هنا وجه التشابه المعماري.

أما بيمارستان دمشق فهو شبيه جداً ببيمارستان حلب، غير أنه بحالة إنشائية أفضل.ويفتح فناؤه أيضاً على ثلاثة أواوين مع فارق واحد هو أن المدخل الخارجي يؤدي إلى ردهة صغيرة قبل الوصول إلى الصحن.

إن هذا النموذج الأولي من البيمارستان سيستمر حتى الفترة المملوكية وسنجد ذات المبدأ في بناء البيمارستانات القليلة من الفترة الأيوبية كالبيمارستان القيمري في دمشق . وللأسف نجهل تماماً كيف كان بناء البيمارستان الناصري في القاهرة.

عند وفاة ابن النفيس عام ٦٨٧هـ وقف ماله وداره وأملاكه على البيمارستان المنصوري بالقاهرة.وهو البيمارستان الذي تولى رئاسة أطبائه في الفترة القصيرة منذ بناء البيمارستان عام ٦٨٣ هـ إلى قريب وفاته.وهذا البيمارستان هو أول وأكبر بيمارستانات الفترة المملوكية بناه المنصور قلاوون في موقع جمع البيمارستان وبعده مدرسة وقبة ليكون أضخم تجمع معماري في عهده.

يشكل البيمارستان الجزء الأكبر من المجمع وله مدخلان: مدخل يؤدي من الجهة الشمالية مباشرة إلى الشارع الخلفي ومدخل يؤدي من الجهة القبلية وعبر الردهة الفاصلة بين المدرسة والقبة إلى الشارع الرئيسي المعروف بشارع القصرين.

بني البيمارستان في مكان قصر فاطمي آل في الفترة المملوكية إلى بعض ذرية قطب الدين بن الملك العادل الأيوبي، وهناك خلاف بين المؤرخين حول ما إذا كان البيمارستان

قد بني على خطة المبنى القديم أو إذا كان قد أعيد بناؤه من جديد، والحق إن دراسة استمرارية المبادئ الهندسية الناظمة للمبنى من أوله لآخره والتي سآتي على ذكرها سترجح أن بناء المارستان كان جديداً وربما كان موقع صحن البيت القديم مكاناً للصحن الجديد لا أكثر ، يتميز البناء بالمواصفات التالية:

- يستمر التكوين القديم للبيمارستان بشكله الأساسي أي بوجود صحن داخلي يحيط به أواوين أربعة ونلحظ هنا أن عدد الأواوين قد صار أربعة لأن المداخل أزيحت إلى طرف الصحن . وهذا شبيه جداً بالمدارس المملوكية التي صارت تؤكد على وجود ايوان لكل من المذاهب السنية الأربعة . بينما كانت المدارس السابقة تخص مذهباً واحداً على الأغلب . وإذاً يستمر البيمارستان بمواكبة التطور المعماري العام للبناء المؤسساتي.
- يؤدي الايوانان الشرقي والغربي إلى ردهات خلفية لايواء المرضى أي أن هناك تخصصية في الوظائف لم تكن موجودة في البيمارستانات السابقة يضاف إلى ذلك أن كل مجموعة من الوظائف تتجمع مع بعضها البعض في أحد أطراف البناء . فهناك تخصص وظيفي وفصل بين الوظائف.
- هناك أربع فسقيات أو شاذروانات واحدة لكل إيوان، أي أن هناك اعتماداً زائداً على العنصر المائي.
- حاولت أن آجد نسباً هندسية ناظمة للبناء ولكن دون جدوى . هناك بعض الفراغات الصغيرة التي قد تكون قريبة من بعض النسب الشهيرة دون أن تكون دقيقة. ولكن الأمر الملفت للنظر هو أن البناء بأكمله محكوم بمعيار هندسي (موديل) وهو مربع مقداره ٤ أذرع بـ ٤ أذرع يتكرر بشكل متجانس على كامل الموقع. وهي ظاهرة جديدة في العمارة الإسلامية. إذ أن النظام المعماري الحاكم للإنشاء هنا هو نظام إحداثيات متجانس لا يأبه للنسب (التي كانت أشبه بالأرقام السحرية في ذلك الزمن) إنه نظام عقلاني محض يفرض سلطته على فراغ المجنون والمرض.

وتكفي نظرة سريعة على المخطط لنعرف ما هي المساحة المخصصة لكل جناح من أجنحة المبنى وقد ذكر المقريزي أن مساحة البيمارستان ١٠٦٠٠ ذراع و لم أحتج إلى أكثر من بضعة دقائق للتحقق من أن هذا الرقم صحيح بدقة ٩٩ % .

- أما الظاهرة الأخيرة المثيرة للإهتمام فهي كون المدخل الشمالي للبيمارستان يؤدي إلى ردهة تطل على الصحن بنافذة ولكنها لا تؤدي إليه مباشرة بل يجب المرور منها إلى ردهة أصغر تؤدي إلى الصحن. أي أن الزائر قد يحرم من الدخول إلى داخل البناء دون أن يحرم من الرؤية إلى داخله.

وإذا تابعنا النظر في البيمارستانات من الفترة المملوكية وصلنا إلى حلب مجدداً لندرس أحد أهم الأمثلة عن هذه المؤسسة والذي مازال قائماً اليوم وهو البيمارستان الأرغوني . بناه أرغون الكاملي عام ٧٥٥ هـ أيام حفيد السلطان قلاوون وأثناء الخلاف مع أخيه على عرش الدولة المملوكية.

تتكرر في هذا البيمارستان الكثير من الظواهر التي لحظت في البيمارستان المنصوري في القاهرة مع فروق طفيفة.

- تلتغي الأواوين الأربعة المحيطة بالصحن والمميزة للفترة السابقة ويبقى ايوانان ، بينما يحيط بطرفي الصحن الآخرين رواقان ووراؤهما غرف المرضى مباشرة.
- تكبر ردهة الدخول وتنفصل عن المبنى لتصبح جناحاً خاصاً للأطباء وتنتهي بنفس الطريقة إلى نافذة مفتوحة إلى الصحن دون أن تؤدي إليه مباشرة.
- يستمر الفصل في الوظائف وإنما بشكل أوضح، فجناح الخدمة يقع في طرف البناء وله مدخل مستقل بينما تنفرد خلوات المرضى الخطرين والمجانين بشكل مستقل في عمق البناء.
- يخضع البناء لذات النظام الهندسي وهو معيار مربع ٤ أذرع x ٤ أذرع مع فارق واحد هو أن الذراع المستخدمة هي الذراع المعمارية (٨١ سم) وليس الذراع السوقية المستخدمة في القاهرة (٦٩سم). وإذا طبقنا النظام على المقطع أيضاً وجدنا أن ارتفاعات المبنى أيضاً خاضعة لهذا الموديول الدقيق .
- تزداد دقة الموديول أو النظام المعياري إلى مربعات أبعادها ١ ذراعx١ ذراع في حجرات المرضى والمجانين.

- نظراً لدقة الموديول في الحجرات الخلفية استطعت أن أتبين أن هناك نظاماً مستمراً مطبق عليها كلها رغم الاختلاف بالشكل والأبعاد فهي جميعها تحقق نسبة الفراغ الوسطي إلى مساحة كل مجموعة هي تمام الربع. ولدى مقارنتها مع البيمارستان المنصوري في القاهرة والإضافات الحاصلة في البيمارستان النوري وجدت أن النسبة تتكرر طيلة الفترة المملوكية.

كما وجدت أن هناك نظاماً معيارياً يحكم عرض الممرات ، فالممرات الفرعية عرضها ذراع والممرات الرئيسية ذراع ونصف، مما يدلنا على وجود نوع من العرف وربما نسميه كود(نظام) لبناء أجنحة المرضى في الأبنية المملوكية.

إن التطور الشكلي لبناء البيمارستان من شكله المبدئي الشبيه بالمدرسة إلى مؤسسة لها أعراف ومعايير بناء خاصة يستوجب الدقة حين دراسة الدور الاجتماعي لهذا النوع من المباني. فمن الواضح أن هناك استمرارية لبعض من العناصر وتغييراً وتطوراً لبعضها الآخر، ولكن لا توجد مصادر نصية توضح كيف ولماذا تم التغيير, فهل أرسل أرغون الكاملي إلى مصر طالباً كيفية بناء البيمارستان؟ أو هل كانت هناك سياسة واضحة لبناء البيمارستانات تشمل المعايير الهندسية لهذه الأبنية؟ للأسف فإن الأدلة النصية لا تخبرنا عن هذه الأسئلة.

ولكن هناك كم هائل من تفاصيل أخرى عن إنشاء البيمارستانات المملوكية فنحن نعرف أن بناء البيمارستان كان مصب اهتمام السلطان أو نائبه وكذلك نعرف أن قائد الجيش كان المسؤول الأول عن البناء.فكثير من أبنية البيمارستان المنتشرة على طول العالم الإسلامي أشرف على بنائها أمثال علم الدين سنجر،سيف الدين سنجر، أرغون وغيرهم. وهم قواد عسكريون هامون في الجيش المملوكي. ونعلم أن بناء البيمارستان المنصوري اقتضى جيشاً من العمال منعوا من العمل لأي كان غير السلطان ، وسّخر أهل القاهرة لنقل أحجار البناء حتى تظلموا وتذمروا ، واعتبر بعضهم أن عمل قلاوون هذا نوع من الجبروت.

لقد نفذ بيمارستان القاهرة في غضون فترة زمنية قياسية تقرب من عام واحد. إذاً كل هذه الأدلة تسترعي الانتباه إلى أن البيمارستان كان عملاً سياسياً قبل أن يكون عملاً طبياً .

وفي أغلب الوقفيات التي بحوذتنا اليوم نجد أن باني البيمارستان هو الحاكم أو نـائب الحاكم وأن تولي أعمال البيمارستان كان تحت تصرف الباني بشكل مباشر وله أن يضـع نائباً عنه إذا شاء، ثم يجعل له الأمر لذريته فإذا انقطعت فلقاض من قضاة المذاهب الأربعـة، أي أن تولي إدارة هذه المؤسسة كان أقرب ما يمكن إلى المراقبة المباشرة لصاحب الأمـر. وكان غالباً ما يزور البيمارستان أسبوعياً . وغالباً ما تنتهي وقفيات البيمارستان بتحذيـر ندر أن يوجد في غيرها من الوقفيات بأن من يبدل في رغبة الواقف فهو آثم أو ملعون.

وتخبرنا روايات أخرى أن أعوان السلطان حين كانوا يرقون في مناصبهم (يُخلـع عليهم) فإنهم كانوا يسلمون نيابة السلطان في إدارة أمور البيمارستان وكانت مواكبـهم إلى استلام مراكزهم الجديدة محفوفة بالاستعراضات والاحتفال.

أما من الناحية الاقتصادية فلقد كانت أوقاف البيمارستان جمة، لتغطـي نفقاتهـا الكبيرة . وربما لا يضاهي البيمارستان في كثرة أوقافه سوى المسجد الجامع في مدينـة . وحيث أن المماليك لم يقوموا كما قام العثمانيون ببناء مساجد جامعـة واكتفـوا ببنـاء المدارس ، فإن البيمارستان غالباً ما كان أكبر صرح يتركه المماليك في المدينة. ولا غرابـة إذاً حين نقرأ في أدبيات الرحالـة فنجدهـم يذكـرون المدينـة ومسـجدها الجـامع وبيمارستاناتـها قبل ذكر مدارسها .

وبالإضافة إلى كونها أكبر مشاريع إعمارية في تلك الفترة فإنها أيضاً كانت تشـكل مشاريع ذات نفع عام. فتجر لها المياه العذبة التي يستفيد منها أهل الحي.

إذاً يشكل الدور السياسي والاقتصادي جانبين وظيفيين مهمين بالإضافة إلى الـدور الطبي. ولكنهما غالباً ما كانا يبقيان خارج التاريخ التقليدي للمؤسسة الطبية.

أما بالنسبة للوظيفة الطبية فيجب فحصـها بدقـة. فالبنيـة الإداريـة لأغلـب البيمارستانات لم تتغير منذ نشأة هذه المؤسسة بشكل جذري .

هناك ثلاثة أنواع من الاختصاصيين، وهم الأطباء والكحالون والفصادون ولكـل منهم شيخ يتولى بالإضافة إلى الكشف عن المرضى التعليم في البيمارستان ، وحيـث أن ممارسة الطب لم تكن حكراً على موقع البيمارستان ، فإن ما يميز البيمارستان هو كونـه مؤسسة للتعليم لا تختلف من حيث المبدأ عن مستشفى الجامعة كما نعرفه اليوم.

وهناك الصيادلة . وهم أيضاً لم يمارسوا عملهم حكراً في البيمارستان مما يزيد على التأكيد على أن دور البيمارستان لم يكن كافياً لسد حاجات المجتمع الطبية بقدر ما كان مقراً للنخبة الطبية ، خاصة وأن العمل في البيمارستان ، كان يتطلب إجازة بعد تقديم رسالة في أحد مواضيع الطب.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن العدد الأعظمي للأسرة في جميع بيمارستانات حلب لم يكن يجاوز المائة في مدينة قرب تعداد سكانها من ثمانين ألف نسمة، وكانت تنتابها الأمراض السارية والطاعون بشكل دوري ، لعلمنا أن الغاية النهائية لبناء البيمارستان لم تكن سد الحاجات الطبية في المجتمع المملوكي.

وهنا نبدأ في البحث عن أسباب طبية أخرى لبناء البيمارستان ، وهنا نلجأ إلى الأدبيات الشعبية . ففي بابات خيال الظل المملوكية وفي القصص الشعبية وكتابات الأخبار والنوادر يظهر البيمارستان كمأوى للمجانين حصراً ، لها تمثيل خاص (ديكور مسرحي). وتظهر شخصية المارستاني . وهي شخصية لا نجد لها في الخطاب الرسمي أو في كتب الوقفيات أية ذكر. مع أن الوقفيات تذكر كل من يتقاضى دخلاً كبر شأنه أم صغر.

في حلب وجدت ذكراً لحسين بن محمد البيمارستاني وآخر محمد البيمارستاني وهما من القرن العاشر والتاسع، لانعرف عن محمد سوى أنه أضاف قاعة للبيمارستان النوري (أي أنه كان مسؤولاً عنه بشكل مباشر). أما حسين بن محمد فهو نقيب للأشراف (سياسي) لا علاقة له بأمور الطب.

هذه الوظيفة الغامضة (غير المأجورة) هي إذاً وظيفة فخرية سلطوية كما تصورها المخيلة الشعبية يحتكم إليها كركوز وعيواظ مثلاً حين يريدان إيقاع بعضهما البعض في المتاعب.

وبالإضافة إلى شخصية المارستاني فإن الخيال الشعبي يمثل المارستان بشكل معقد جداً . ففي النصوص الإخبارية بدءاً من القرن الخامس الهجري (كتاب عقلاء المجانين مثلاً) نجد أن البيمارستان يصبح مرادفاً لدار المرضى ودار المجانين . وهو مكان سهل الدخول إليه يقع في شارع بين أحياء المدينة. وغالباً ما يدخله الناس لإمضاء الوقت و التندر.

ولقد رأينا في الوصف المعماري سهولة الدخول المباشر إلى صحن البناء، وحتى حين وجدت ردهة المدخل بقيت نافذها مفتوحة على الصحن.

ولكن بقدر ما تكون حرية الحركة من وإلى المبنى متوفرة للعقلاء بقدر ما يستوجب الأمر ربط المجانين وتقييدهم بالسلاسل . وكذلك المرضى من غير المجانين لهم نظام خاص يقضي بتعريف متى يحق للإنسان الدخول كمريض، فإذا دخل فله قانون صارم وتعريف قانوني لمتى يستوجب الخروج ، أي أن المريض يفقد حريته في الحركة متى دخل البيمارستان.

إذاً إن بناء البيمارستان هو بناء مفتوح ومغلق بآن واحد ، وعبر البوابات المفتوحة المغلقة يجري التبادل الخطابي بين من هم في الخارج ومن هم في الداخل . وتجري حوارات شيقة . ولكن بقدر ما يقنعنا الخطاب الرسمي بأن المؤسسة هي التي تحتكر التعاريف الرسمية للمرض والصحة والعقل والجنون بقدر ما يقف الخطاب الشعبي مشككاً بهذه المقدرة.

فيقوم الخطاب الشعبي بجعل المجنون يسأل العاقل سؤالاً يعجز عنه، ويتم التبادل اللحظي بين العاقل والمجنون ولكن لا يستمر طويلاً ، فقيود البيمارستان سترد المجنون إلى الداخل بينما تؤدي بوابته بالعاقل إلى الحياة العامة للشارع . فيسترد كل منهما مكانه الطبيعي.

ويقوم المجنون في الخطاب الشعبي باستعمال وصفات صوفية لها شكل الوصفات الطبية و لكنها ترفض الطب الإنساني وتبحث عن طب النفس وتقواها، أي تسلم أمرها للغيب بعيداً عن الخطاب الطبي الرسمي والشعبي يقع البناء البيمارستاني في الوسط فهو قريب في المدينة بعيد عن عقليتها . وهو مفتوح للجميع ولكنه مقيد ومسلسل ، وهو دار للمرضى ودار للشفاء، وهو مكان لإيواء المجانين والعطف عليهم ولكنه أيضاً إطار لمراقبة خطاهم وتهميشه.

إنه بناء متشعب الأدوار والوظائف . وآمل أني بدأت بطرح بعض الجوانب التي بقيت غامضة عن دور هذه المؤسسة، بعيداً عن التستر وراء حجة أن الطب الإسلامي كان أرحم وأفضل بكثير من مثيله الأوربي في تلك الفترة . فهذا حتماً صحيح ولكنه لا ينفعنا في فهم معمق للتاريخ ولا لفهم حركة تطوره . ما أقصد بذلك أنني من خلال بحثي وجدت مثلاً أن جميع من كتب عن البيمارستان الأرغوني في حلب نقل عن سابقه دون

أن يضيف أو ينقص منه شيئاً . فتأتي قراءتنا اليوم مماثلة لقراءة أجدادنا قبل ستمائة عـــام، نجتر التاريخ اجتراراً . وينطبق الحال على مشافينا ومصحاتنا العقلية، التي مازالت تمـــارس نفس النظام العائد للفترة المملوكية. وسيصعب علينا أن نطور مشاف ومصحات متقدمـــة طالما مازلنا نؤكد على اسطورة الطبيب والخطاب الطبي في المؤسسة الطبية وننسى كـــل باقي الأدوار للأفراد والخطابات المختلفة التي تدخل بشكل مباشر أو غير مباشر في تـــأمين الرعاية الصحية للمجتمع.

المهندس

عمر عبد العزيز الحلاج

المراجع

١ - ابن العجمي ، سبط، **كنوز الذهب في تاريخ حلب**، تحقيق ش. شعث وف.البكور.حلب : دار القلم العربي، ١٩٩٦ .

٢ - ابن النفيس ، علاء الدين علي، **رسالة الأعضاء (مع دراسة حول ابن النفيس ومنهجه وابداعاته)** ، تحقيق ، ي. زيدان القاهرة الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩١ .

٣ - ، **شرح فصول أبقراط** ، تحقيق ي . زيدان وم. عبد القادر ، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية .

٤ - الأسود ، نزار ، **كركوز بلاد الشام** ، دمشق : مطبعة الجمهورية ،١٩٩٤ .

٥ - الحداد ، محمد حمزة إسماعيل، **السلطان المنصور قلاوون : تاريخ - أحوال مصر في عهده - منشآته المعمارية** ، القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٩٣ .

٦ - سعد ، فاروق، **خيال الظل العربي** ، بيروت : شركة المطبوعات , ١٩٩٣.

٧ - السمان ، محمد حيان ، **خطاب الجنون في الثقافة العربية**، لندن رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٩٣ .

٨ - العرضي ،أبو الوفا بن عمر،**معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب** ، تحقيق ع.س. أبو سليم ، عمان : مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية١٩٩٢ .

٩ -عيسى بك، أحمد، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام** ، دمشق : جمعية التمدن الإسلامي بدمشق،١٩٣٩.

١٠- الغزي، كامل ، **نهر الذهب في تاريخ حلب** ، تحقيق ش. شعث و م. فاخوري حلب: دار القلم العربي ،١٩٩٢.

١١- الطباخ، محمد راغب ، **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، تحقيق م. كمال، حلب : دار القلم العربي، ١٩٨٩ .

١٢- النيسابوري ،أبو القاسم الحسن بن محمد، **عقلاء المجانين** ، تحقيق م . س . زغلول، بيروت : دار الكتب العلمية.

حالة الأدب في عصر السّلطان قايتباي

محمود فاخوري *

يمتد العصر المملوكي في بلاد الشام ومصر بين سنتي ٦٤٨ - ٩٢٢ هـ (١٢٥٠ - ١٥١٧ م). وقد حكم خلال ذلك فئتان من المماليك، أولاهما : المماليك البحرية الذين انتهى حكمهم سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨١ م) والثانية فئة المماليك البرجية ، (أو الجراكسة) الذين دالت دولتهم في أيام السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٢٢ هـ. مع انتصار الأتراك العثمانيين بقيادة السلطان سليم في معركة مرج دابق.

وقد اشتهر في العصر المملوكي عدد وافر من الشعراء والأدباء والكتّاب ومن ثراء هذا العصر أن يكون البوصيري من أعلام القرن الهجري السابع فيه. وأن يعرف القرن الثامن جملة من أولئك الأعلام، وفي مقدمتهم. ابن نباتة ، وصلاح الدين الصفدي، وابن الوردي وصفي الدين الحلي ... كما عرف القرن التاسع – الذي عاش فيه السلطان قايتباي (البرجيّ) – عدداً وافراً من أرباب الأدب والشعر، أذكر منهم ، ابن حجّة الحموي، وشمس الدين النّواجي ، وابن سودون، وابن الهائم والشهاب الحجازي ، وإبراهيم الباعوني ، وابن مَليك الحموي، وعائشة الباعونية، وابراهيم البقاعي.

ومنهم أيضاً : عماد الدين النسيمي ، الذي حطّ رحاله في مدينة حلب، قادماً من أذربيجان ، وهو شاعر متصوف فيلسوف ، ذو شطحات صوفية. له ثلاثة دواوين شعرية: بالعربية، والفارسية ، والأذربية التركية . ولم يصل إلينا ديوانه المنظوم باللغة العربية.

وهنا ما يجعلنا نذهب إلى أن الشعر قد حظي بالازدهار والذيوع والعناية، سواء في ذلك أغراضه التقليدية الشائعة– من مدح ورثاء وغزل ووصف وحكمة وما إلى ذلك – والأغراض الأخرى المتميّزة التي استجدت في العصر المملوكي عامة ، وعصر السلطان قايتباي خاصة.

أ- ولن أقف هنا طويلاً عند الأغراض الشعرية التقليدية ، التي شاعت وعرفت في العصور السابقة بل سأمرّ بها سريعاً. ويأتي المديح في مقدمة تلك الأغراض، وقصائده تكاد

---

* مدرس في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة حلب

تخلو من المعاني الجديدة والأفكار المبتكرة، وهو في جملته يقوم على التزلّف أو التكسب، والمعاني المكرورة ، ويخلو في معظمه من الصدق والوفاء ، لأن الغرض منه المنفعة والمصلحة الذاتية ، قبل شعور الإعجاب والتقدير والإكبار ، ويكاد يصدق هذا على جملة عصور الشعر العربي، وإن كان لا يخلو أحياناً من التجديد والإبداع في بعض المعاني، ومن وجود شعراء عرفوا بعزّة نفوسهم، وأنفة طباعهم، كـإبراهيم الباعوني ، القائل:

ألم تر أني قد خُلقت كما ترى ... بأخلاق أحرار السورى أتخلّقُ

وإني صبّار ،شكور،وحامد ... وإني إذا أملقتُ لا أتملّقُ

أما الرثاء فإنه لا يكاد يختلف من عصر إلى عصر ، ولا من شاعر إلى آخر ، سواء أكان مقُولاً في الأقرباء، أم في الأصدقاء ، أم في أولي الأمر ومن إليهم .. إلا ما نجده أحياناً من موضوعات جانبية خاصة كرثاء الشاعر لنفسه قبل موته، كما فعل إبراهيم البقاعي في قوله:

نعم ، إنني عمّا قريب لميّتٌ ... ومن ذا الذي يبقى على الحدَثان؟

فإن يَرْثني من كنتُ أجمع شمله ... بتشتيت شملي ، فالوفاءُ رثاني

وإلاّ نَعاني كلُّ خلقٍ ترفّعتْ ... به هِمَمي عن شائنٍ ، وبكاني

ويعدّ الغزل أيضاً من الأغراض التي شاعت كثيراً ، على ألسن الشعراء في مختلف العصور سواءأكان بضمير المؤنث، أم بضمير المذكر . وليس العصر المملوكي بدعاً في ذلك. وقد غلب على شعر الغزل في هذا العصر كثير من التقليد ، ولا سيما في القرن التاسع للهجرة، الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي (في عصر قايتباي) وهي المرحلة التي نركّز عليها في هذا الحديث .. كان الغزل في هذه المرحلة صناعياً لا صدق فيه ولا حرارة ، من حيث المشاعر والعواطف، وإن كان يبدو رقيق الألفاظ، حلو المعاني أحياناً ، كقول ابن حجر العسقلاني :

وكنت أكتم حبي في الهوى زمناً ... حتى تكلم دمعُ العين فانكشفا

سألت قلبيَ عن صبري ، فأخبرني ... بأنه حين سرتم عنّيَ انصرفا

وقلتُ للطرف:أين النوم يعدهـــمُ فقال:نومي وبحرُ الدمعِ قد نُزفـــا

وهذا الغزل عندهم يأتي عادةً على شكل مقطوعـــات ، أو في مطـــالع المدائـــح، وبـــعضُه قـــد يبدو شبيهاً بالغزل العذري ، يُعنى بالأحوال النفسية أكثر من الجسدية ، كقول ابن مَليك الحموي :

ذكر الغضا ، فحنَتْ عليــه أضلعي وبكـــى العقيق فساقطتْه أدمعـــي
مَن لي بقلبي يـــوم كاظمةٍ، وقـــد ودّعتُهـــم ؟ لوخلّفوا قلـــبي معـــي
رحلـــوا فكان القلْبُ أوّل راحـــلٍ والصـــبرُ آخـــر ظاعنٍ ومـــــودِّع

وأما الوصف فهو واسع الجوانب ، يتغلغل في مختلف الموضوعات ، ويتناول مختلـف ما يستحق الوصفَ من أشياء حسية ومعنوية في الحياة، والطبيعة ، وأحوال النـــاس ومـــا يحيط بهم في مناكب الأرض ، أو يُظلّهم في أجواز الفضاء. من ذلك قول عائشة الباعونيـــة تصف دمشق وغوطتها الغنّاء :

نزّه الطرفَ في دمشـــق ،ففيهـــا كـــلّ ما تشـــتهي ، ومـــا تختـــارُ
هي في الأرض جنّة ، فتـــأمـــل كيـــف تجري مـــن تحتها الأنهـــار
وتناغيك بينهـــا صـــادحـــاتٌ صمتـــتْ عنـــد نطقها الأوتـــار

وكثيراً ما تنبثّ الحكمة في مطاوي القصائد ، على اختلاف موضوعاتها ، وهي إمـا نابعة من تجارب الشاعر في الحياة, أو مقبوسة من محفوظه الشعري والأدبي ، كقول ابـــن الهائم المنصوري :

خاطب أخاك بما تصفو مودّتـــه وارفُـــق به ، لا يُنافي حُبَّـــه بغضٌ !
فالله قـــال لأعلى الخَلْق مرتبـــةً «لو كنت فظـــاً غليظَ القلب لانفضّـــوا»

ومثل ذلك الموشحات التي خرجت عن نطاق الغزل ووصف الطبيعة – وهو ما عهدناه غالباً في الموشحات الأندلسية – إلى موضوعات أخرى : كالرثاء ، والمباسطات الإخوانية، وأذكار الصوفية وما تضمّه من معان وأفكار،...

وكانت الموشحات تنظم باللغة الفصحى، ما عدا الخَرْجة، وهي آخر كلمة في الموشح – فتكون باللهجة العامّية . لكنّ العامّية سرت إلى الموشحات نفسها وصار الوشاحون يغلّبون العامية على الفصحى ، فتحول الموشح إلى مايسمى بالزجل .

وأصل الزجل في اللغة: الجلبةُ والتطريب ، ورفْع الصوت. وسمّي فنّ الزجل بهذا الاسم لأنه لايُلتذّ به . ولا تُفهم مقاطع أوزانه والتزامُ قوافيه حتى يُغنّى به ويصوَّت ، فعندئذ يزول الإبهامُ واللّبْس.

فالزجل إذن هو الموشحات التي قيلت باللهجة العامية، أو غلبت عليها العامية ، ويعتمد على الغناء والحركة، والمعرفة بأهواء المستمعين ليؤثر فيهم وينال إعجابهم ، ولذلك استُحسن أن يكون الزجّال خفيف الروح، مجيداً للملاءمة بين كلامه وحركاته وتلوين صوته.وأوزان الزجل كثيرة جداً ، حتى قيل فيها : إن صاحب ألف وزن ليس بزجّال، وبعض هذه الأوزان ، كالموشحات، تقليديّ . وبعضها محوَّر. وآخر يخرج عن الأوزان المعروفة تماماً ، فلا يقيّده وزن ، إلا الوزن الغنائي الموسيقي. وربما صعب التفريق أحياناً بين الموشح والزجل، حين يَخلِط كل منهما بين العامِة والفصحى، ويخرج على الأوزان التقليدية.

وقد استُعمل الزجل في الأغراض الشعرية المعروفة: من غزل ،ووصف، ومدح، وهجاء، إضافةً إلى التصوف، والنقد الاجتماعي والسياسي ، وتناول حوادث وجوانب تهمّ أفراد الشعب، في مختلف جوانب الحياة .

ومن أشهر الزجالين في العهد المملوكي الأول : ابن دانيال ، وإبراهيم المعمار(في مصر) وابنُ مقاتل الحمويّ (في الشام) . وفي العهد المملوكي الثاني: ناصر الغيطي . وله زجليّة في رثاء فْيلٍ مات غرقاً في الخليج الناصري ، وكان تيمورلنك قد أهداه إلى السلطان الناصر فرج بن بَرقوق.

ب – على أن هناك موضوعات أخرى متميزة في العصر المملوكي عامة، والقرن التاسع للهجرة خاصةً، وفي مقدمتها (التصوّف) وما يتصل منه بسبب . والتصوف غرض

شعري عباسيُّ النشأة، واشتهر به الحلاّج ، ثم ابن الفارض، وابن عربي، ومـن إليـهم ، واستمر هذا الغرض في العصر المملوكي ، وقد تعددت المعاني والأفكار التي تمسّك بها أرباب الشعر الصوفي ، من زهـد و إعراض عن زخرف الدنيا ، وعشق للذات الإلهية ، وتقـرّب إلى الله عن طريق الرياضات النفسية، وصفاء الروح ، فضلاً عن التغـني بأسمـاء الأمـاكن المقدّسة، و الإكثار من الوجد، والغزل الصوفي أو الرمزي في مدائحهم النبوية التي تفيـض بحبّ النبي(ص) والتعبير عن الأشواق الصادقة والعميقة نحوه . وربما خالط هـذا الشـعرَ بعضُ الأوهام والشطحات التي تصدر عن بعض مدّعي التصوف ، حتى اشتبه أمرهم علـى الناس.

فمن الغزل الصوفي الذي يعشو إلى ضوء الذات الإلهية قولُ عائشة الباعونية:

حبيبي أنـت ، من قلـبي قريـبُ   وعن سـرّي جمالُـك لايغيـبُ
تنادمني ، وتسـقيني مُـدامـي،   وتُحضرنـي لديك ، فـلا أغيـب
فلاخوف ، وأنـت أمـانُ قلـبي   ولا سـقمٌ وأنـت لـيَ الطبيـب

ولابن مَليك الحموي قصيدة صوفية نبوية ، استمد معانيه فيها من نظريّة الحقيقيـة المحمدية التي قال بها ابن عربي ، ومنها قوله:

فأنت الذي لولاه مـا كـان آدم   ولا كان نوح قد نجـا في السـفينة
له المعجزات الباهرات ، وكم لنـا   بها ظهرتْ مـن آيـةٍ بعـد آيـةِ
وفي ليلة الإسرا من الله قد دنـا   وخاطبـه في الحضـرة القدُسـيّةِ
فدونك ياذا البِرّ مني مـدائحاً   لعل يكون البرءُ فيهـا لِعلـّتي

ومما يتصل بالتصوف والنبويات قصائد طويلة في المديح النبوي، استمرّت في هـذه المرحلة التي نتحدث عنها، وأُطلق عليها اسم" البديعيات "لأن لها سمات خاصة تنفرد بهـا، إنها مطولات منظومة على البحر البسيط، وعلى رويّ الميم، أودعها ناظموها مالديهم من ثقافة بديعية، وبراعة شعرية، بحيث يضمّن الشاعر كل بيت من بديعيته نوعاً بديعياً واحـداً أو أكثر، تسمية ومثالاً، أو يكتفي بالمثال ضمن البيت الشـعري كالجنـاس، والطبـاق،

والمقابلة، والسجع، والاقتباس... وكان صفي الدين الحلي ، وهو من العصر المملوكي الأول، هو السابق إلى رفع لواء البديعيات ، في أول بديعيّة نظمها في ١٤٥ بيتاً، وتشتمل على (١٥٠) محسناً بديعياً . ومطلعها :

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم   واقرَ السلام على عرب بذي مسلم

وتعاقب بعده شعراء البديعيات نظماً وشرحاً لها بأنفسهم ، ومنهم في القرن الهجري الثامن: عز الدين الموصلي.وتلاهُ بعد ذلك:ابن حجة الحموي ،وابن الخياط الحموي ، وابن القباقيبي الحلبي ، وجلال الدين السيوطي ، وعائشة الباعونية التي نظمت بديعيتين اثنتين ، مطلع أولاهما:

في" حُسن مطلع" أقمار بذي سلم   أصبحتُ في زمرة العشّاق كالعلم

ومطلع الثانية:

عن " مبتدأ "خبر الجرعاءِ من إضمِ   حدّثْ ، ولا تنس ذِكر البان والعلم

وموضوع أخير من تلك الموضوعات المتميزة في العصر المملوكي عامة ، وعصر السلطان قايتبْاي خاصةً ، ذلكم هو الهزل والدعابة والفكاهة، وما يتبع ذلك من مجون وإحماض . بدأ ذلك بأبي الحسين الجزار ، والسراج الورّاق في القرن السابع الهجري ، وحمل لواءه بعدها في القرن التاسع للهجرة شاعر مشهور هو ابن سودون الذي سمى ديوانه " نزهة النفوس ومضحك العَبُوس"، وملأه بالقصائد والموشحات التي تحمل طابع الدعابة والرمزية الساخرة ، واستمرأ الانغماس في الخلاعة والفكاهة، برغم ما كان يعانيه من ضيق العيش وضنْك الحياة ، وجاء شعره في ذلك يحمل طابع النقد الاجتماعي الساخر ، وقد تقبّلته النفوس لأنه كان يتكلم بلسان عصره، صادقاً في تعبيره ، معبراً عن حياته وحياة مجتمعه ، الفكرية والأدبية ، فطار اسمه، وتنافس الظرفاء في الحصول على شعره الذي يذهب كله مذهب الضحك والفكاهة والدعابة ، معتمداً على المفارقات الطريفة ، وعلى جعل البديهيات أموراً عجيبة تثير الغرابة وتعبث بالمنطق ،حتى لنكاد نتّهم الشاعر بالهذيان والتخليط وننعتـه بالبلاهة والسذاجة ، ونحن نستمع إلى شعره مؤكّداً لنا

تلك البديهيات وكأنها شيء مشكوك فيه . ومن هنا كان مبعثُ الفكاهة والتسلية والضحك . ومن ذلك قوله في قصيدته المقصورة :

إذا ما الفتى في الناس بالعقل قد سما ... تيقّن أن الأرض:من فوقها السّما

وأن السما:من تحتها الأرض لم تزل ... وبينهما أشيا متى ظهرت تُرى

ولكنّ أولادي أنا لهمُ أبٌ ... وأمُّهمُ لي زوجةٌ،يا أولي النّهى

* * *

وفي الشام أقوام ، إذا ما رأيتَهمْ ... ترى ظهرَ كلٍ منهمُ وهو من ورا

بها البدرُ حالَ الغيمِ يَخفى ضياءه ... بها الشمسُ حالَ الصحوِ،يبدولها ضيا

* * *

ذلكم هو شأن الشعر في أغراضه وموضوعاته، والملاحظ أن أكثر شعراء العصر المملوكي كانوا إما من الأدباء الذين يأخذون من كل علمٍ بطرف ، بالمفهوم الواسع لمصطلح الأدب، وإما من أصحاب الحرف الذين جمعوا بينها وبين الشعر والأدب. كأبي الحسين الجزار ، ونصير الدين الحمّامي .وقلّ أن نرى من تفرّغ للأدب والشعر خالصَيْن:كصفي الدين الحلي، وابن نباته ، وابن سودون ، وابن مَليك ...وحتى هؤلاء أسهموا – إلى جانب الشعر– في حركة تأليف الكتب الأدبية والثقافية.

ومن ثمّ غلب على أشعار كثير منهم أساليبُ العلماء ، وجاءت هذه الأشعار متفاوتةً في قيمتها الفنية بين شاعر وآخر ،بل عند الشاعر الواحد نفسه، وكان من أسباب رواج الشعر في هذا العصر:ذلك التنافس القوي بين شعراء القطرين ، مصر والشام، حتى قيل إنه لا يبتدع شاعر مصري شاردةً، أو ينظمُ فريدةً ، إلا تناولها شعراء الشام في لهفة وشوق ، فتكون عندهم في موضع النقد حيناً ، أو المعارضة حيناً، أو السرقة حيناً آخر.

وكثرت المقطوعات القصيرة حول نكتة بلاغية ،أو أحجية أدبية ،وتسرّبت إلى الشعر ألفاظ فارسية أو تركية ، وقل الابتكار في الصور والأخيلة، وزاد التكرار والاتكاء على الشعر الموروث، معنىً وتضميناً ، وإن كانت الجودة ملحوظة لدى بعض الشعراء أحياناً ، أو في بعض القصائد . ولكن الضعف والترخّص كانا يسودان رويداً رويداً في أواخر المرحلة الثانية من العصر المملوكي ، لأسباب كثيرة ، منها انحدار الشعر

عن مكانته السياسية، وابتعاد العنصر العربي عن الحكم ، وجهل المماليك بالشعر العربي، وإعراضهم عن مكافأة الشعراء ، الذين أصابهم اليأس من جرّاء ذلك كله ،، فانصرفوا إلى التعبير عن مكنونات نفوسهم في ما طرقوه من أبواب شعرية أخرى غير المديح، جادّين مرةً ، وعابثين مرةً أخرى ، مبتكرين حيناً ، ومقلّدين مقتبسين حيناً آخر.

ومن أمثلة اتكائهم على القدماء ، قولُ ابن حجر يمدح الخليفة المستعين بمصر:

فرع نما من هاشم في روضةٍ زاكي المنابت،طيّبُ الأغراس
كم نعمةٍ لله كانت عنده وكأنها في غربةٍ وتناسي

فالبيت الأول مأخوذ من قول أبي تمام:

فرع نما من هاشم في تربةٍ كان الكفيَّ لها من الأغراس

والثاني مأخوذ أيضاً من قول أبي تمام ذاكراً إحراق القائد التركي" الأفشين":

كم نعمةٍ لله كانت عنده فكأنها في غربةٍ و إسار

وقد مرّ بنا بعضٌ من الشعر الجيد، ولا سيما في الغزل والتصوف ، ونضيف إليه ، على سبيل المثال ، قول ابن حجّة الحمويّ يتشوق إلى مسقط رأسه :

فياجيرة العاصي، إذا ذُقتُ ماءكم أهيمُ كأني قد ثملتُ من الشكْر
ولولا بقايا طعمه في مذاقتي لما ظهرتْ هذي الحَلاوةُ من شعري
فياساكني مغنى حماةَ،نعِمتُم صباحاً ،ولو ألغيتُمُ في الهوى ذكرى
فكم مرَّ لي فيها حلاوةُ ليلةٍ تمرّ بلا نفعٍ وتُحسب من عمري

أما النثر في هذه المرحلة التاريخية التي نتحدث عنها فقد تنوع ما بين نثر يتصف بالسهولة والوضوح، وهو النثر التأليفي، ولا سيما كتب الأدب والثقافة العامة والمحاضرات، كخزانة الأدب لابن حجة، والمستطرف للأبشيْهي ، والدّرر الكامنة لابن حَجر العسقلاني، وحلْبة الكميت للنّواجي .. ومابين نثرٍ فني أدبي يعنى بجمال العبارة ، ويتأنق في الأسلوب ، كما في مقدّمات الكتب ، وتقاريظها ، والرسائل الديوانية والإخوانية ، والمقامات الأدبية وما هو في حكمها، ومن نماذج النثر الفني ما كتبه النّواجي المتوفى سنة ٨٥٩ هـ في مقدمة كتابه " حلْبة الكميت " .

"وبعد ، فقد سألني مَن أمرُه مطاع، ومخالفتُه لا تُستطاع ، أن أجمعَ له من مقاطيع الشُرب نُبذةً رفيعةَ البَزّ رقيقةَ الحاشية ، وأقتطفَ له من حدائق الآداب زهرةً قطوفهُا دانية،

ليتزّه طرْفه في " جنات من نخيلٍ وأعناب " ، ويمتّع ذوقَه "بفاكهةٍ كثيرةٍ وشراب"...فجمعتُ له في هذه الأوراق مّارقٌ وراق ، وأبرزتُ في وصف الكميت شعرَ مّن تفحّـــل وأمســـى وهو إلى الغايات سبّاق ... "

ولا ننكر أن العجمة بدأت تسري إلى أساليب الكتاب في أواخر العصر المملوكي، فبدا الضعف على هذه الأساليب ظاهراً ، وتسرّبت إليها الألفاظ الأعجمية ، من تركيـــةٍ وفارسية ، واضطربت التراكيب على أسَلات الأقلام والألسنة، فبدا عليها العِوَج والهلهلة، وحسبنا شاهداً على ذلك ما نقرؤه في صفحات الضوء اللامع للسخاوي ، والكواكـــب السائرة للغزي ، وبدائع الزهور لابن إياس ، على الرغم من القيمة العلمية لهذه الكتب .

محمود فاخوري

المراجع

١ - الأدب في العصر المملوكي : محمد زغلول سلام.

٢ - الأعلام: خير الدين الزركلي

٣ - بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابن إياس الحنفي .

٤ - الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع: شمس الدين السخاوي .

٥ - نحو فهمٍ جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخة . نعيم الحمصي .

القساطل والسبلان في حلب

جبرائيل غزال*

القسطل لغة: أنبوب من الخزف ينساب منه الماء كما جاء في محيط المحيط للأستاذ البستاني وورد في موسوعة حلب المقارنة للأستاذ خير الدين الأسدي:" القسطل، ويلفظون السين صاداً ، الموقع الذي تُغرف منه المياه ثم توسعوا فاطلقوها على الأبنوب الذي تتوزع به المياه في أمكنةٍ من البلد وجمعوه على القساطل" [1].

أما ما ذهب إليه الأستاذ الأسدي من أن التسمية لاتينية الأصل فهو استنتاج بعيد لأن كلمة Castellum تعني القصر أو البناء المُحصن أما ما رآه جان سوفاجه في كتابه عن حلب من أن كلمة قسطل يونانية الأصل لتطابُقها؟ واسم نبع في إنطاكية القديمة، فالتطابقُ لا يعني الأصالة؟ والثابت إن الكلمة سريانية الأصل وتعني نبع الماء.

وكلمةُ سبيلٌ تُفيد معنى الطريق وما وضَحَ منها وتُذكّر وتُونث ويَستعملونها مجازاً في الطريق المعنوي: في سبيل البر والإحسان. وسبيلُ الله طريْقُ الهدى وسبَّل جعل في سبيلَ الله[2] ويقول الأستاذ الأسدي[3] وتُطلقَ كلمة سبيل على توزيع الماء أو غيره مجاناً والكلمة مُولدة بمعنى البناء الذي انشأه أهل الخير وزودوه بماء القناية أو المطر ليشربَ منه الناس وتُسقى الدواب مجاناً والكلمة سريانية الأصل شبيلو أي الطريق.

وتستعمل كلمتا القسطل والسبيل لمسمى واحد وهو مكان توزيع الماء مجاناً بغض النظر عن مصدر ذلك الماء وليس هناك معالَم خاصة تميزُ القسطلَ عن السبيل وغالباً ما تذكرُ الكتابات المنقوشة على المبنى كلمة سبيل دون كلمة قسطل فنَقرأ في جدران المبنى: تم إنشاءُ هذا السبيل المبارك مع الإشارة إلى اسم المُنشيء وتاريخ البناء واسم السلطان الذي أُنشيء البناء في عهده ، ولم يكن لأبنية القساطل والسبلان طرازٌ معماري خاص

---

* باحث، ونائب رئيس جمعية العاديات بحلب سابقاً

(1) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: الشيخ محمد راغب الطباخ.

(2) الدر المنتخب في تاريخ حلب : ابن الشحنة.

(3) موسوعة حلب المقارنة : خير الدين الأسدي.

والملاحظ أن أنبوباً يقع دوماً وسط الجدار الداخلي للقسطل يكون بمتناول الإنسان بحيث يتمكن أن يَنْهل منه ثم يَنصبُ الماء في جرن حجري مستطيل تُسقى منه الحيوانات.

والماءُ عنصرُ الحياة مُنذ أن وُجدت الحَياة على الأرضْ قال تعالى: " وجعلنا من الماءُ كلَ شيء حي"[٤] وقد غدت للماء مكانة قدسية لدى الشعوب القديمة فكان إله الماء كبير الآلهة فهناك إله للمياه العذبة أبسو وإله للمياه المالحة تيامة وآلهة للبحار ، وعَبَد اليونان الإله بوزيدون والرومان الآله نبتون والاوغاريتيون الاله اليم مازالت هذه الكلمة تعني باللغة العربية البحر، وكان قدماء المصريين يقدسون النيل ويقدمون له فتاة كاضحية يدعونها عروس النيل ثم استبدلوها بدمية يُلبسوها ملابس الفتاة ويلقوها في النيل في عيد شمّ النسيم. كما عبد السوريون الاله بعل إله المطر ومازال الفلاح يقول حتى اليوم أرض سقي وأرض بعل، أي أرض تُسقى بالمطر.

لقد أجمعت المذاهب الإسلامية على حقين مُعترف بهما على الماء هما حق الشفّة وحق الشرب ويعني حق الشفة أن لكل مسلم أو غير مسلم أن يشرب من كل نبع أو بئر أو قناة أو مجرى ماء وأن يَسقي دوابهَ وهذا حق مطلق في رأي أبي حنيفة في المجمعات المائية كالأنهار والبحيرات وهي الأموال الشائعة، وكذلك في المياه المملوكة كالآبار والبرك التي يُمكن للإنسان أن يستخدمها لارتوائه وسقاية دوابه في حال الضرورة شاء صاحبُها أم أبى بينما يقيد مالك هذا الحق .

أما حق الشرب فهو حق استعمال الماء لسقاية الأراضي من المياه الشائعة أما المياه المملوكة فهناك حقوق تُنظم استعمالها وكانت قناة حلب تُعتبر من المياه المملوكة لا يجوز لمن ليس له حق فيها أن ينهل منها .

ومن يطلع على جغرافية سورية ومناخها الصحرواي الجاف يُلاحظ أن دفعات المطر مُوزعة حصراً على أشهر الشتاء والدفعات الأخيرة في شهر نيسان إذا أمطرت، لذا يقول المثل السائر كل مطرة في نيسان تُحيي قلب الإنسان .

فتبقى سورية غالباً تسعة أشهر تقريباً دون أن تهطل نقطة ماء والجفاف مستمر والناس عطاش لذا شاد المحسنون القساطل والسبلان في المدن وعلى طرق السفر لاطفاء ظمأ الإنسان وسقاية الحيوان مجاناً وأي عمل أجل من الخير؟

---

[٤] إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : الشيخ محمد راغب الطباخ.

وكان أهالي حلب يشربون من الآبار الجوفية المياه المائلة للملوحة والتي تقل في فصل الصيف، كما يشربون من الصهاريج المياه الحلوة التي تُجمع من الأمطار، كما كانت أغلب دور حلب القديمة مؤلفة من طابق أو طابقين الأول للإقامة وقضاء الحاجيات واستقبال الضيوف والثاني للنوم، وكانت الدار تحتوي على بئر وصهريج علماً بان النسوة كُنَّ يغسلن أسطحة المنازل في بداية فصل الشتاء ويُسلِطن مياه الأمطار على الصهاريج .

وكان للصهاريج عناية خاصة حيث توضع في قاع الصهريج قطعة حديدية وبعض قطعٍ من الفحم الخشبي لمنع انتشار الديدان في ماء الصهريج وكان على كل من يريد سحب الماء من الصهريج أن يغسل يديه جيداً قبل أن يمسك بالحبل خشية أن تكون ملوثة حفظاً على نظافة الماء وسلامتها.

أما القساطل والسبلان فكانت تتغذى بماء القناة التي تنساب بانحدار طبيعي من ينابيع حيلان وهي عبارة عن ثلاث بُرك مختلفة المساحة تُعرف إحداها ببركة الشيخ والثانية ببركة العبد والثالثة ببركة هيلانة وهي أكبرها وأغزرها وقيل إن هذه القناة هي عين ابراهيم الخليل عليه السلام وذكر الشيخ كامل الغزي رحمه الله في كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب(٥) إن لكل بركة من هذه البرك مفيضاً في أعلاها يجري فيه الماء قدر غلوة ثم يختلط بماء القناة الوافدة من مقسم نهر القويق وباجتماع هذه المياه في القناة يعظم ماؤها وتجري في بناء محكم حتى تدخل حلب وقال صاحب جريدة العجائب (٦) : لحلب قناة مباركة تخترق شوارعها ودورها وحماماتها وسبلانها وماؤها عذب فرات وقال ابن الخطيب(٧) : فماء حلب أطيب وأخف من ماء الشام وطيب ماء حلب أمر مجمع عليه وقد جاء في كتاب ابن الشحنة(٨) إن الشيخ العلامة شمس الدين السلامي أكد له أنه يرجح ماء حلب على ماء الفرات وأنه جرب ذلك فوجد ماء حلب أصح من ماء الفرات وقد سبقه إلى محبة ماء حلب وتفضيله على ماء الفرات جماعة من المتقدمين كالشاعر أبي فراس الحمداني الذي قال :

---

(٥) نهر الذهب في تاريخ حلب : الشيخ كامل الغزي .

(٦) إعلام النبلاء بتاريخ حلب : الشيخ محمد راغب الطباخ .

(٧) الدر المنتخب في تاريخ حلب : ابن الشحنة

(٨) موسوعة حلب المقارنة : خير الدين الاسدي .

الشـــام لا بلـــدُ الجـــزيرة بلدتي وقويق لا مـــاء الفرات قناتي

وتسمية " القناة" كما هي عند الحلبيين موجودة منذ العهد الهلنستي ويقـــال بـــأن الملكة هيلانة والدة قسطنطين الكبير قد أوصلت في القرن الرابع ماء القناة إلى الكاتدرائيـــة الكبرى وهي اليوم المدرسة الحلوية .

كما اهتم حُكام حلب في العهد العربي بالقناة اهتماماً كبيراً فقد أمر سليمان بـــن عبد الملك بترميم الأقنية وتوسيع الشبكة وأوصل ماءها إلى الجامع الأموي الكبير. وبـــذل الملك الظاهر جهوداً سخية لإصلاح القناة فاتى في عام خمس وستمائة للـــهجرة بصنّـــاع أخصائيين من دمشق عملوا خلال ثمانية وخمسين يوماً أصلحوا خلالها الأقنيـــة وضبطـــوا مخارجها فكثر الماء فيها وأمر بإنشاء القساطل في المناطق المحرومة وعلى مفارق الطـــرق. وفي القرن الرابع عشر ميلادي سعي الأمير سيف الدين الأرغوني بحلب لجلب ماء ينـــابيع الساجور وسوقها إلى نهر القويق بمجرى طوله أربعون كيلو متراً وأقام قبل ينابيع حيـــلان بناء مُوزعاً على نهر القويق يصب في القناية ثلث كمية الماء الوارد في ينابيع الســـاجور ثم تبرع نعسان آغا أحد أثرياء أعيان حلب عام ١٦٤٤م بترميم القناة ووقف عليها مـــوارد عديدة من خانات ودكاكين وأفران لصيانة المجرى وإيصال الماء غير أن القائمين على هـــذا الوقف أهملوا واجبهم وأنهار قسم كبير من المجرى. وفي عام ١٨٦٣م حـــدث شُـحٌ في الأمطار الشتوية ويباسٌ في الأراضي والمزروعات فحاول أهالي حلب إصلاح هذا المجـــرى فتنادوا وجمعوا مالاً قدره ٢١١٥٠٠ قرش فضي لبناء شبكة جديدة عهدوا بالعمل لمتعـــهد توسموافية الكفاءة والنجاح غير أنه لما خرج الحكام والأعيان والأهالي إلى منطقة حيـــلان لاستقبال مياه الساجور بالطبول والزمور أعلموا أن منسوب الشبكة ليس بارتفاع كـــاف لتأمين انسياب ماء الساجور في نهر القويق فرجعوا لمدينتهم بحزن عظيم. ولم تجر بعد هـــذا المشروع الفاشل أية تجربة لإصلاح الشبكة وبقيت ينابيع حيلان وحدَها تُغذي القناة الـــتي كانت تدخل المدينة من أسوارها القديمة في الزاوية الشرقية الشمالية حيث يوجـــد بنـــاء بالزلتي معروف بالحجر الأسود يُحول ثلث المنسوب إلى شبكة ممتدة إلى المناطق الجديـــدة خارج الأسوار والثلثين الآخرين إلى الأنظمة والعدانات داخل المدينة في أكـــواز فخاريـــة مشوية متداخلة وملتحمة بمادة لاصقة تُسمى اللقومة توصل الماء إلى الجوامـــع والمـــدارس والدور والقساطل كلٌ حسب الكمية المخصصة له في الحجة الشرعية .

وكان لكل قسطل أو سبيل توقيت ينساب فيه الماء غالباً من الفجر إلى العشاء حيث ياوي الناس إلى بيوتهم وينقطع المارة. وحظيت بعض القساطل والسبلان بالجريان المتواصل كقسطل المرعشي وسبيل شبارق والجدير بالذكر أن القنواتية بحكم مهنتهم يحافظون على جسم القناة ونظافة مائها وضبط سيولتها وأوقات انسيابها يستوفون أتعابهم مباشرة من المستفيدين فثلث التكاليف تُفرض على الدائرة الوقفية والثلث الثاني على الحمامات والثالث على أصحاب الدور، وكانوا يقبضون تعويضاً شهرياً قدره /٥/ فرنكات يومياً من كل حمام و ١٥٠ فرنكاً في الشهر من كل جامع كبير و/٥٠/ فرنكا من الجامع الصغير و /٣٠/ فرنكاً من كل قسطل وسبيل أو دار.وكان للقنواتية رابطة ربما تكون أول نقابة في العالم العربي يُنتخب مجلسُ ادارتها بالتصويت ويرأسه شيخ القنواتية.

هذا، وقد اتسع عدد القساطل والسبلان اتساعاً كبيراً. ويقول الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله في كتاب إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء[٩] إن أول قسطل بُني في ذلك العهد كان القسطل الذي بباب الأربعين تحت الرباط بناه شهاب الدين طغريل الأتابك في راس خندق الروم كان نور الدين الزنكي قد أكمل عمل الأسلاف فأمر بتوسيع شبكة القناة لإيصال مائها للرحبة الكبيرة داخل باب .قنسرين وإلى قسطل الخشابين ثم إلى قسطل جامع الشعبية قرب باب إنطاكية وفي عهد الملك الظاهر غازي تضاعف عدد القساطل والسبلان إلى أن تعدى الستين .

وسُميت القساطل والسبلان إما باسم مُنشئها كقسطل الملك غازي أو سبيل ازدمير أو قسطل بيبرس أو سبيل إبشير باشا أو باسم المحلة التي بُنيت فيها كقسطل الرمضانية وسبيل زقاق الطبالين أو قسطل القصيلة أو سبيل التدريبة أو اتخذت إسمها من شكل أو وضع هيكل بنائها ولون أحجارها كقسطل أبو درجتين أو سبيل عين البقرة أو القسطل الأخضر والسبيل الأسود .

وحرص كل من بنى مجمعاً دينياً أو مدنياً على إشادة قسطل أو سبيل ملحق بالمبنى ليتيح للناس الارتواء مجاناً، وهو ما نلاحظه في أيامنا هذه عند مدخل أكثر الجوامع ومنها جامع الحرمي الذي يطلق عليه اسم الحرامي لان بردبك تاجر المماليك السلطاني أوصل إليه ماء القناية دون استحقاق شرعي. وكذلك جامع شرف وجامع ابشير باشا وجامع

---

(٩) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : الشيخ محمد راغب الطباخ .

العثمانية وغيره إضافة إلى مداخل الخانات كخان الصابون وخان الوزير وخان الجمرك وغير ذلك كثير. فالقساطل والسبلان في الواقع شواهد على الطراز المعماري الإسلامي الحلبي الأصل في العهود التي توالت على هذه المدينة بدءاً من العهد الأموي وحتى الأيوبي والمملوكي والعثماني.

وقد تحلّت تلك المباني بميزات خاصة عائدة لكل عهد شُيدت خلاله، كما حظيت بعض القساطل والسبلان بأعمال تزيينية جمالية ذات سمات محلية أبدع في صنعها المعمار الحلبي مع المحافظة على التقاليد الدينية وبما ينسجم مع نفسية أهل المنطقة. كما تُعتبر الكتابات المنقوشة على أقواس وجدران السبلان عبارة عن سجل حي لتاريخ المدينة حيث كان يُسجل عليها اسمُ المنشيء وكافل المدينة واسم السلطان المالك وتاريخ البناء واسم المعمار كما هو وارد في كتابة قسطل الجاويش مثلاً وهو كما يلي:

" انشأ هذه السبيل المبارك العبد الفقير إليه تعالى حمزة الجعفري في أيام مولانا السلطان الظاهر أبي سعيد برقوق أمير المؤمنين ٧٩٣ ". وما ورد في كتابه قسطل الغرايين: أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك الطونبغا الناصري غفر الله له وعفا عنه وذلك في أيام دولة يولانا السلطان الملك الناصر محمد عَزَّ نَصره في شهر ربيع الأول ٧١٧هـ. ومن الجدير بالذكر أنه كان للقساطل والسبلان أيضاً دور اجتماعي هام حيث يتواجد سكان الحي من جميع الملل حول هذا المورد المائي فيتعارفون ويتآلفون وتتنامى بينهم روابط المحبة والأخوة. وفي أوائل هذا القرن تحققت في حلب نهضة عمرانية بفضل همةِ واليها المعمار رائف باشا الذي نفذ أكثر من خمسين مشروعاً من فتح طرق جديدة و تعريض بعض الطرق وإقامة جسور وإنشاء أبنية بإرشادات المهندس شارتيه العامل بمعيته ومنها إنشاء ساعة باب الفرج وحديقة السبيل الواقعة في مدخل المدينة الجنوبي. وقد ذكر الشيخ المرحوم كامل الغزي في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب[١٠] أما منتزه السبيل فقد بدأت البلدية بتعميره في باحة السقاية القديمة المعروفة باسم سبيل الدرويش سنة ١٣١٤ للهجرة وكان القسم الأعظم في عرضه جارياً في تصرف المحامي جرجي خياط فتبرع بما هو متّصرف به من هذه الفرصة وبنت البلدية عليها سياجاً عظيماً وعمَّرت على ظهر السبيل في رأس دكّته غرفتين جميلتين وملأت باحته بالغراس المتنوع من أشجار وأزهار وعملت

---

[١٠] إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : الشيخ محمد راغب الطباخ .

في وسطه حوضاً صناعياً على هيئة حوت طبيعي يجري إليه الماء من بئر قريب ويُرفع منه الماء بواسطة دولاب أميركاني يدور بالهواء وبلغ محيط الحوض ٣١٠ أذرع وعمقُه ذراعاً ونصف. ومن آثار الوالي المعمار المنتزه المعروف بالمنشية وهي حديقة جميلة في محلة العزيزية غرست في تربتها أشجارٌ وأزهار شملت حوضاً صناعياً يمثل مضيق الدردنيل أقيم في الجهة الشمالية منه مُرتفع صغير ينبع منه الماء بطريقة صناعية كأن الماء يتفجر من عين طبيعية يغذيها بئر نُصبت عليه مضخة تعمل بدولاب الهواء. وقد سعى المحامي جرجي خياط إلى جمعِ المال لتغطية تكاليف الحديقة والقسطل وتبرع من ماله الخاص بثلاثمئة ليرة عثمانية ذهبية صرفت في تزيين الحديقة ثم تبرع سكان محلة العزيزية بنفقة بناء المخفر .

وما زُلت أذكر القسطل المبني فوق بئر قد وضع عليه مضخة تعمل بفعل دولاب الهواء وقد غطت سطح القسطل قبة حجرية كلسية من قطعة واحدة آية في فن النحت و لم يبق من معالم القسطل إلا القبة المطروحة على الأرض. أما الحديقة الفناء فقد اصبح نصفها مخزناً لبيع النباتات ونصفها الآخر مِرآباً لسيارات الشرطة .

وفي أوائل هذا القرن توسعت المدينة وكثر سكانها وشح ماء القناة وتلوث فاضطرت البلدية لإيجاد مورد آخر للماء ففي عام ١٩١٦ جلبت بلدية حلب ماء عين التل بأنابيب معدنية إلى حوض كبير في حي النيال ومنه أوصلت الماء إلى المناطق المجاورة ووضعت أعمدة جديدة في رأس كل منها حنفية عند مفارق الطرق والساحات ليتسنى للناس نَهْلَ الماء مجاناً .

وأذكر أنني كنت أشاهد صفوفاً من الناس حاملين التنكات أو السطول ينتظر كل واحد دوره لتعبئة وعائه وكثيراً ما كانوا يتضاربون بالسطول في سبيل أفضلية الدور .

وخلال هذه الأزمة إنْتَهَن بعض أصحاب الدواب بيع ماء عين التل حيث كانوا يضعون في جانبي ظهر الدابة تنكتين مملوءتين بماء عين التل يمرون بها في أحياء السكن الميسورة يبيعون كل تنكة ماء ببرغود صغير، ونظراً لتلاعب الباعة الذين أخذوا يملؤون تنكاتهم من مياه أبار حلب وضعت البلدية مراقبين عند نبعِ عين التل للتأكد من تعبئة الماء من النبع ثم يختمون فتحة التنكة بالخاتم الرسمي ويتقاضون قرشاً فضياً واحداً عن كل تنكة. كما عمد بعض سائقي السيارات العاملين على طريق حلب ــ اسكندرونة إلى المتاجرة

بماء نبع العاتق فكانوا يتوقفون في قرية بيلان لملء تنكاتهم من النبع ويبيعون كل تنكة بعشرة قروش فضية .

وقد راجت هذه التجارة وتهافت الناس على شراء ماء عين التل وماء العاتق وانصرفوا عن شرب مياه الآبار اعتقاداً منهم أن مياهها تسبب الاصابة بحبة السنة أو حبة حلب إلى أن تبين في النتيجة أن الإصابة ناتجة عن لدغة ذُبابة سامة .

وتبين فيما بعد أن ينابيع عين التل وعين البيضاء وعين الميدان غير كافية لسد الحاجة فتشكلت في عام ١٩٢٦ شركة غايتها جلب الماء العذب من الينابيع المجاورة لمنطقة حلب كعين المبارك وعين الجحش وغيرها والاستعانة بالمياه الجوفية المستخرجة من الآبار الارتوازية. وقد أوصلت الشركة الماء العذب إلى بعض الدور ولكن كمية الماء كانت غير كافية فقررت الحكومة إجراء دراسات جدية لجلب ماء نهر الفرات ومن أقرب مكان وقد أختيرت قصبة مسكنة على بعد ٩٠كم من حلب وبدأت الأعمال في عام ١٩٥١ وانتهت المرحلة الأولى عام ١٩٥٦ بتأمين ٩٠ ألف متر مكعب يومياً، ثم نفذت مؤسسة المياه الحكومية المرحلة الثانية بجر كمية إضافية قدرها ٩٠ ألف متر مكعب وقد واصلت مشكورة أعمالها الحميدة إلى أن أمنت للمدينة جميع احتياجاتها من الماء مع أن عدد سكان حلب تعدى المليونين وتوسعت المدينة أضعاف ما كانت عليه في الجهات الأربع وخاصة على مرتفعات الجهة الغربية والشمالية.

وتتبع القساطل والسيلان أنظمة قانونية مختلفة فإما أن تكون تابعة بطبيعتها لوضع البناء المتصلة به وأما أن يجعل منها منشئوها وحدةً عقارية مستقلة يوصي لها بميزات خاصة تتمتع بها. وكان المنشيء في بعض الأحيان لا يكتفي بتحمل تكاليف بناء القسطل والسبيل بل يرصدُ له أيضاً مداخيل عقارات عدة بغية المحافظة على جسم البناء وتأمين سيلان الماء ودفع رواتب العاملين ورواتب القراء عند الاقتضاء كما نراه في السبيل الذي أنشأه أحمد بن خليل الخباز التونسي المعروف بالجرماني سنة ١١٨٦ للهجرة لقد اشترط أن يُصرف كل يوم ٣٠ اقجة (والأقجة عملة فضية صغيرة) لعشرة قُراء كل بواحد منهم يقرأ جزءاً في هذا السبيل و٣ أقجات تعطى للمراقب على القراء على أن يقرأ هوايفاً ومن جمعية سورة الكهف و ٣ أقجات لرجل يقرأ في السبيل " دلائل الخيرات" في يوم الجمعة و١٢ أقجة لخادم السبيل و٣٠ أقجة لشعال القناديل و ٣٠ أقجة قيمة زيت و ٣ أقجات

لتصليح الطاسات والزناجير والسطل و ٨ أقجات للمتولي. وهكذا اتسمت القساطل والسبلان بمسحة قُدسية وبروح فياضة من التقوى كما تشير هذه الكتابة من بعض السبلَ:

"انشأ هذه السبيل المبارك المقر الاشرف العالي المولوي المالكي المخدومي الكافلي السيفي يلبغا الصالحي كافل المملكة الحلبية المحروسة أعز الله أنصاره من ماله الخاص إبتغاء لوجه الله تعالى بُغية يقيه العطش الأكبر يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم من ربيع الأول ٧٤٦ ". هكذا أشاد الأجداد الكرام تلك المباني بروح التقوى لوجه الله تعالى وخدمة للانسان من أية ملة كان فالناس كلهم عباد الله ولا غرو إذا ما اشتهر أهالي حلب بالتقوى والإنسانية ونُبل الأخلاق فقد شهد لهم بذلك القريبُ والبعيدُ فقال ابن خطيب الناصرية [11] : إن حلب من الأرض المقدسة وأن أهل حلب من خيار أهل الأرض. وقال شوفاليه دارفيو قنصل فرنسا بحلب في القرن الثامن عشر لقد امتاز أهالي حلب على جميع البلاد العثمانية بتقواهم وحسن معاملتهم ومجاملتهم ولطفهم وهذه الأخلاق سجية فيهم لا كلفة فيها[12] .

ويا حبذا لو حافظنا على تلك المباني الأثرية لتبقى شواهد على تقوى سكان حلب وإنسانيتهم وحفاظاً على الآثار المعمارية الجميلة من الفن الإسلامي الحلبي الأصيل والتي هي أيضاً سجلٌ ثابت لتاريخ المدينة، وإذا كان لا بد من هدم بعض السبلان فإن من الأفضل نقلها إلى أقرب مكان تُنصب فيه وتحاط بحديقة صغيرة من الزهور لتبقى دوماً شواهد على تراث هذه المدينة الحضاري وعلى نبل أخلاق أهلها وتعايشهم الأخوي مما ميَّز حلب عن غيرها من المدن واكسبها صفة المدينة العامرة بتعاضد أهلها وترابطهم الاجتماعي البديع .

---

[11] إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : الشيخ محمد راغب الطباخ

[12] الدر المنتخب في تاريخ حلب : ابن الشحنة .

لهجة حلب

د . عبد الرحمن دركزللي *

ينظر كثيراً من اللغويين العرب ، إلى كلّ من يتصدى لـــدرْس اللـــهجات المحلّيـــة (العاميّات) ، نِظرةَ الاستهجان والمقْت ، وحجتهم في ذلك أنها لا تنفع ولا تُجدي ، بـــل تقود إلى التفريق بين العرب والمباعدةِ بين أبناء الأمة الواحدة ، فهي إذاً دراساتٌ تحقّق مـــا يتطلّع إليه المستعمرون.

ويرى فريق آخر أن دراسة العاميات لا تخلو من خير ، فهي أولاً تُرضـــي شـــغفَ الناس وتُشبع نزوعَهم إلى معرفة أصول الألفاظ التي بها يتخاطبون وإلى قواعد اللغة التي بهـــا يتعاملون ، وهي ثانياً وسيلة ناجعة تعين على كشف قوانين الفُصحى ومعرفـــة أســـرارها نظراً للصلة الوثيقة بينهما .

أمّا نحن فنرى – مع اعتزازنا بالفصحى وتشبّثنا بها – أنّ دراسة العاميـــات شـــيءٌ والدعوةَ إلى تعليمها شيءٌ آخر ، ولا نجد حَرَجاً في دراستها والاطلاع على أســـرارها . ولا بد – ههنا – من الإشارة إلى أن اللغويين في الغرب فرغـــوا مـــن دراســـة لغـــاتهم ، وأشبعوها بحثاً ، ولم يكتفوا بذلك حتى عمدوا إلى دراسة اللغات الميّتـــة كالهيروغليفيـــة والأكادية والإبلويّة وسواها بل درسوا لغتنا الفصحى وسائرَ اللغات الساميّة ، ثم راحـــوا يدرسون لهجاتنا المحلّية أيضاً يحدوهم إلى ذلك رغبةٌ عارمة هدفُها دراسة قوانين اللغـــات البشرية لاستخلاص الحقائق المشتركة بينها والانتفاع بها .

وقبل الخوض في لهجة حلب لا أرى بأساً في الحديث عن اللغة Language واللهجـــة dialect والفرق بينهما لقناعتي أن كثيراً من الناس لا يعرفون ما الفرق بينهما . وباختصـــار شديد أقول إنّ كلّ لغة تتعرّض – مع مرور الأيام واتساع المكان – للانشعاب والانقسام ، فتنشأ عنها لهجاتٌ تحمل في أوّل الأمر كثيراً من خصائصها ، ومع تتابع الســـنين تـــزداد الفروق بين هذه اللهجات نفسِها حتى يغدو التفاهمُ بـــين أصحـــاب هـــذه اللـــهجات مستحيلاً، وعندئذ تصبح لغاتٍ ، ثم لا تلبث كلُّ لغة أن تتفرّع بدورها وهلمّ جـــرّا . ولا بد لي من التنويه أيضاً إلى أن بعض اللغويين يرى أن اللهجة فرع من أصل صدرت عنـــه وانحرفت حتى غدت مشوّهة بالنسبة إليه لذلك يُعرض عنها ولا ينظر إليها بعين الاحـــترام

* رئيس قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة حلب

والتوقير وهذا سائد عندنا على حين يرى اللغويون الغربيون أنّ اللهجة لا تقل أهميّة عن الأصل . بل يعتقدون أنّ سُنة اللغة التطوّر .ولكلٍّ من الفريقين أسبابٌ تحمله على اتخاذ موقف خاصّ .

ومن الأمور التي أرغب في الإشارة إليها أيضاً أن دارسة لهجةٍ ما أمرٌ في غاية الصعوبة ولا يمكن أن يُتناول في وقت محدود لذلك أرجو من السامعين الأكارم ألاّ يطالبوني بالإحاطة وحسبي أنْ أقفهم على أبرز الظواهر في هذه اللهجة (لهجة حلب) .

وبوُسعي إجمالُ هذه الظواهر في الأمور التالية : (القلب المكاني) . (الإبدال) (النحت) (الاقتراض) . (التشقيق) (البِلى والاهتراء) (التقليص). (المدّ والمَطْل) .

القلب المكاني :

عرفت لهجةُ حلبَ ظاهرةَ القلب المكاني metathesis ، وتتلخّص هذه الظاهرة بقولنا إنها نوع من الاختلال في ترتيب أحرف الكلمة غايتُه التسهيل في النُطق والتيسيرُ في اللفظ، وإليكم بعضَ الأمثلة عليه :

[لبق] ، أصلها لَقَب ، وأهل حلب يقولون : " لبْقُه كذا " ، " اسمه يوسف وبلبّقوه الحمار " .

[سدّاجة]، أصلها : سَجّادة ، وهم يقولون : " اشترى سدّاجة عجمية " .

[مَعْلقة] ، أصلها : مِلْعقة ، لأنها آلة اللّعْق أي اللحس . وهم يقولون : " كل يوم عند الصبح بياخدله معلقتين زيت كردي " .

[انجعز] ، أصلها : انزعج ، وهم يقولون : " لا تنجعز / إش جعزك / ليش مجعوز" .

[جوز] ، أصلها : زَوْج ، وهم يقولون : " جوزا تجوّز عليها وطقّا بضرّة " .

[ينعل]، أصلها يَلْعَن ، وهم يقولون : " ينعل شرفه / ينعل أمّه على أبوه" .

[سكيبة] والأصل فيها : سبيكة . وسبائك الذهب معروفة ، وهم يقولون . " جوزا أخدلها سنارتين وسكيبة ".

[رعبون] والأصل فيها : عُربون ، ومن أقوالهم : " دفعناله قرشين رعبون" وقد اشتقوا منها فِعلاً هو : رعْبَن .

[جتربيل] والأصل فيها : زَنْجَبيل [١] ،"ومن أمثالهم:"إش عرّف الحمير بأكل الجتربيل ؟ "

[اندرخ] يقولون : " عطينا الدّوا من هون قام اندرخ" وواضح أنه مشتقّ من الخَدَر أوالتخدير.

[لبيد] والأصل فيها : بليد ، والعامة تقول : " مرته لبيده " أي غبيّة .

[هكل] والأصل فيها : هلك ، وهم يقولون : " عجز هكل ما كانوا يعطو ياها".

[أهبل] والأصل فيها : أبله ، وهم يقولون : " لك يا أهبل " و" اهبل " و" مهبول".

[كحت] والأصل فيها : كدح ، وأهالي حلب يقولون :" عم بكحت طول النهار ليطالع لقمته ".

[تفقفق] . يقولون :" صرله يومين عبتفقفق بمرته " والأصل فيها : يتأفّف .

[خفس] يقولون : " خفس الكرسي / خفس التخت " والأصل فيها : خسف

[زلغط] والأصل : زغرد . ابدلوا الراء لاماً وقدّموها .

[انغلب] ، يقولون :"انغلب بهل شروة" يريدون : انغبن ، والغَبْن معروف في البيع.

[جتزير] ، يقولون : " ربّطوه بالجتزير " والأصل : الزِنجير [٢] أي السلسلة .

[نقْزه] يقولون : " حماته نقزة" يريدون أنها نَزِقة أو عصبيّة المزاج.

[التّومين] يقولون : " را يجيب التومين " يريدون التموين على أن القلب في هذه الكلمة محدود الانتشار ، شأنه شأن : كربيت ومنكسه .

الإبدال :

وهو ضرب من الانحراف الصوتي ، يتلخّص في تعديل الأصوات قليلاً من أجل التسهيل في النطق وبسبب المجاورة للغات أجنبية . ويُلاحظ على الإبدال في لهجة حلب أنه يتّجه من الهمس إلى الجهر ، أي من الرقة إلى الغِلظة عموماً وإليكم أشهر الإبدالات التي تعرّض لها كل حرف :

---

[١] عُشب ذو عروق له عُقد حِرِّيفة . والكلمة هندية الأصل ، دخلت إلى الفارسية ثم إلى العربية ، وقد وردت في القرآن الكريم : " ويُسقَوْن فيها كأساً كان مزاجُها زنجبيلاً " . [الإنسان ١٧]

[٢] والكلمة فارسية الأصل.

الهمزة :

* أ ←— ع، نحو: (تلكأ ←— تلكع) ، (تجرّأ ←— تجرّع) ، (أنين عنين) (جأر ←— جعر) (إذا كان ←— عز كان).

البـاء

* ب ←— م ، نحو ، جعبة ← جعمة) يقولون :"شي ما وطالع من جعمي"و(تبختر –تمختر) (بسكويت – مسكويت) ،(بسكليت – مسكليت).

التـاء:

* ت ←—ط ، نحو : (تراب – طراب) ، (تعش – طعش : كما في الأعداد المركبة) (آنمقت– انقمط) (نصت – صنط)

* ت ←— د ، نحو : (حتفة – حدفه) ، (انتقر – اندقر)

الثـاء :

ث ←— ص ، نحو : (تلويث – تلويص) ، (تشبث – تشبّص) ، (لبث – ربص) (عثمان – عصمان)

ث ←— د ، نحو : (مثقب – مدقب) ، (برغوث– برغود) ، (ثقافة – دقافة) ,

ث ←— ط ، نحو : (ثريا – طريا) ، (أبو خبيث – أبو خبيط).

ث ←— ش ، نحو : (ثُلّة – شلّة) ، (غوّث – غوّش) (بحث – بحبش).

ث←— ت ، وهو إبدال حدث تحت تأثير الآرامية ، وأمثلته كثيرة : (أَثَر – أتر) (مَثَل– مَتَل) (ثُفْل – تُفْل) (ثُؤلول – تالول) (عُثّ– عتّ)(ثلج – تلج) (ثوم – توم) (ثور – تور) (ثوب – توب) (ثأر – تار) (مُثلّم– متلّم) (ثِقْل– تقل) (وراثة – ورآته)(بَعَثَ– بعت) (قِثّاء – قتّاء)(ثَخين – تخين) (تثاءب – أتّاوب) (كثير – كتير) (ثَنَى – تنى) (ثَريد – تريت) (لُثْغة– لَغْته).(مُعَثّر– معتّر) .(أنثى – انتايه) (عثمان– عتمان) (تخثير – تختير) .

على أن أكثر الثاءات اليوم أصبحت سينات ، والأمثلة كثيرة لا تحتاج إلى سرد .

الـدال :

د ←— ت : (كدح – كحت) (نَكّد – نَكّت : نَكّتله عيشته).

الـــذال :

ذ ـــــــ◄ د : وهو إبدال طاغ ، نحو : (ذَنَب – دنب)،(ذَكر– دكر) ،(ذبـــح– دبح) (عذّب– عدب) (بذر – بدر) (ذَبَلَ – دبل) (ذاق – داق) (ذقَن– دقْن) (أخـــذ – أخد) (أذن– إدن) (ذَريره–دريرة) (مئذنة – مادنة) (كذْب – كدب) (نذل – نـــدل) (نذر – ندر) (حَذِق– حدق) (يلذع – يلدع) (سميذ – سميد) (العذراء– العدرا) . علـى أن اللهجة اليوم عدلت عن الدال إلى الزاي (كِذْب– كزب) (ذكَرَ – زكر ربّه) (جَـذْر – جزر) (قذارة – قزارة)

ذ ـــــــ◄ض : وهو إبدال نادر ، من أمثلته : (ذراع – ضراع).

ذ ـــــــ◄ ت : وهو إبدال نادر ، من أمثلته : (نبيذ – نبيت) .

الســين :

س ـــــ◄ ش : (سُنْبل – شُنْبل) ،(كُردوس [1] – كردوش) .

س ـــــ◄ط : وهو خاص بالأعجميات ، نحو (آجنسه – أجنطة) (فانســي – فنطي) (بلاس– بلاط) (أوفنس– أونطه – عونطة)

س ـــــ◄ص : وهو كثير ، (حسرة – حصرة : ياحصرتي على بنتي) ، (جَـوَس – جرص) (أشوس– أشوص) (مسمار – بصمار) (سُرْم – صرم) (بسيطة – بصيطة) .

الشــين :

ش ـــــ◄س : (شُجاع – سُجاع) ،(شجر – سجر) ، (سروال – شـــروال) ، (شارد – سارد)

الصـاد :

ص ـــــ◄ظ : (صغير – ظغير) ، (سرطان – ظلعطان) ،(باص – باظ) (قصـــد قظد)

الضـاد :

ض ـــــ◄ د : (غضَاره – غدارة) ،(ضيّق – ديّق) ، (ركض– ركد).

ض ـــــ◄ ظ : (ضابط – ظابط) (مضبوط – مظبوط) (فَضْلة– فَظلة) (ضـــم– ظمّ) .

---

[1] الكردُوس : العظم المغطّى باللحم .

ض ← ص: (ضايع – صايع) ،(قبضه– قبصة) ، (اضّحع – الجعص) .

الظـــاء :

ظَ ← ض: نحو (ظرف – ضرف) (تنظيف – تنضيف) (أظافـــير – أضافـــير) (عظم َ– عضم) (حَظي – حضي) (النَظر – النضر) (ظُهر– ضهر) (ظَهْر– ضهر) (يقظـة – أقضه)

ظ ← ط : وهو قليل ، نحو : (يتلمّظ – يتلمّط) (ناظور – ناطور) .

ظ ← ز : وهو قليل ، نحو : (ظريفة – زريفة) .

العـــين :

ع ← غ : نحو ، (عميق – غميق) (عبق– غبق).

الغـــين :

غ ← خ : نحو (غسيل – خسيل) ، (غنّة – خنّة) .

القـــاف :

ق ← ء : وهو كثير جداً : (قَلب – ألِب) ، (قمر – أمر) (نقد – نأد)

ق ← غ : وهو نادر ، نحو : (قدر – غضر)

ق ← كَ : وهو بدوي ، نحو : (قوّاد – كَوّاد) . (بقّارة – بكَارة).

الـــلام :

ل ← ر : نحو (يا ليت – يا ريت)، (خلَطْ – خرط) يكثر مـــع الأعجميـــات (بلكي– بركي) ، (بلكون –بركون) ، (بنطلون – بنطرون) ، (دلفين – ضرفيل).

ل ← ن : نحو (إسماعيل – إسماعين) ،(برتقال – برتقان) ،(مليح– منيح) .

الميـــم :

م ← ب : نحو (مسمار – بصمار) (مشـــيمة – بشـيمة) (مقدونـس - بقدونس).

* * * *

النحـــت :

تشتمل اللهجة الحلبية على كثير من المنحوتات . والنحتُ دمجٌ لكلمتين أو أكـــثر بعد حذف حروف منهما لتكوين كلمة واحدة ولا ريب أن النحت ناجم عـــن التـــأثر بالفارسية والتركيةِ . وقد جمعت لكم طائفة من المنحوتات ، منها :

[إشبك] ، أصلها : أيّ + شيء + بك ؟ . والحلبي يقول : " اشـــبك شـــايف حالك؟".

[إشلونك] ، أصلها : أيّ + شيء + لونك ؟.

[إشلي] ، أصلها : أيّ + شيء + لي ؟ . وهم يقولون " إشلي هل ضيقولـــو ". " إشلي هل ميت لأغسلو" .

[اشقد]، يقولون " شقد صار عمرك البركة ؟ " . و" اشقد معك ؟ " . وأصلـها أيّ + شيء+ قد(ر) ؟ . وأهل دمشق يقولون : قدّيش .

[إشّو]،وهي كثيرة الدوران في كلامهم ،يقول الحلبيون "إشّو الخـــبر ؟"و" إشّـــو الإسم بالخير؟". والمؤنث منها : إشّي ، كقولهم : "إشّي الحكاية ؟ " . وأصلها : أي شيء هو / هي ؟ ، وفي لهجة دمشق يقولون : شُو ، وفي إدلب يقولو : أ شو

[هلّق] يقول الحلبي : " هلق وصلت " وأصلها هل + وقت . وفي لهجات أخـــرى يُقال : هلّقيت . وهلّقنه . و ألحز وهسّع والأصل : هل لحظة وهل ساعة .

[لسّع] يقولون :"صار عمره تلاتين سنة ولسّع ما تجوّز " وأصلها : لـــ + الســـاعة وقد يدخلون عليها الضمائر ، نحو : لسّعته عزّابي . وأهل مصر يحذفون العين ، فيقولـون : لسّا (ومن هذا أغنية أم كلثوم : لسّا فاكر ؟).

[بدّي] والأصل : بودّي وعند السرعة تسقط الياء ، فيقال : "إش بدقلّك ؟" .

[فَسْط] يقول الحلبيّ " بدّي أبزق فسط وجو " يريد : في وسْط ، ومـــن أقوالهـــم الدارجة" إشلي فسطل المّه" ، " وإشلك فسطو" وهذه ذات دلالتين ، فإمّا أن تكون بمعنى التعجّب ، وإما بمعنى لاتتدخل في شأنه .

[منلّك] يقول الحلبيون " منلّك هل خاتم ، منلّك هسّاعة" . والأصل : مـــن أيـــن لكَ/ لكِ.

[مشان] يقول أهالي حلب " مشاني ترْكو هل مرّه" ومعناها : من أجلـــي ، ومـــن أقوالهم أيضاً : " هي موكويسه مشانك " " باع بيته مشان يلعب قمار " . وأهل مصـــر يقولون : عشان.

[منين] أصلها : من أين ، إذا قلت لأحدهم اشتر هذا البيت قـــال لـــك : "منـــين ياحصرتي"

[بلاش] معناها : مجّاناً ، وأصلها : بـــ + لا + شيء، ومن أمثالهم " البـــلاش لا ش" . ومن أقوالهم : " ما في شي بلاّش ، كله بدو حطّي" .

[بعدين] أصلها بعد + أن . ومن أقوالهم " بشوفكم بعدين " " خطبـوا البنـت وبعدين قلبو عنّا" ومن الحلبيين من يقول : بعدون .

[معلش] أصلها : ما + عليه + شيء ، يقول الحلبّي : " معلش في ألله "

[حلّك] يقول الحلبي " ما حلّه يستحي على وجو ويدفع اللي عليه " وأصلـها : حان له و" ما حلّك تشرفنا " . أي : أمَا حان لك أن تشرّفنا ؟ ! .

[كنّي / كنّيا] من أقوالهم " ما عدنا نشوفا كني / كنّيا تجوزت " والأصل : كـأني به / بها.

(عَمِنّي) يقول الحلبي " عمني ما عطيناهن البنت صاروا يحكـو" ، ويقـول الولـد لأبيه:" يوب سقطت في الفحص " ، فيردّ عليه الأب " عمنيّك حمار " . والأصل في هـذا أ + مِن + أن .

(عمبكتب / عَمْبشرب / عَمبساوي التخت) أصلها : عمّال + ...

* وللحلبيين منحوتات كثيرة ، مثل : دره مصري ، قصمص ، عبنوّل ، عَبّنا (بنـاء على)، كرماله (كرمى له) كمان (كما + أن) ، سطع (سطا على) ، رسمال .

الاقتـراض:

تأثرت لهجة حلب ، على غرار سائر لغات المعمورة ، بالشعوب المجاورة والغازيـة والمُقيمة والطارئة نظراً لموقعها التجاري الهام ولكثرة احتكاكها بالشعوب الغريبة ، وأبـرز اللغات التي أثرت فيها الآرامية والفارسية والتركية والفرنسية .

الآراميـة:

أخذت حلب عن اللغة الآرامية بعض المفردات مثل :

ʿarso	عرش	maṣṭabto	مصطبة	candilo	قنديل	ḥüḥo	خوخ
šfito	سفينة	ṭablo	طبل	zrīzo	عاقل/زكي	ḥemṣo	حمص
šoqīto	ساقية	arbüno	عربون	ḥotmo	خاتم	frīko	فريكة
šlaḥ	شَلَحَ	notüro	ناطور	ḥesfo	خزف	tibno	تبن
šṭaf	شطف	ḥobīto	خابية	zobüno	زبون	füglo	فجل
šqal	شقل	semsoro	سمسار	ekarbo	عقرب	faṭīḥo	بطيخ
		sargo	سرج	tamsīḥ	تمساح	sfarglo	سفرجل
		kaškül	كشكول	saḫlto	سخلة	rümono	رمان

qaṣobo	قصاب	küzbarto	كزبرة	habīṣo	خبيصة
qaṣro	قصر	karoto	كراث	ḥardlo	خردل
qorüro	قارورة	qṭuto	قثاء	tümo	ثوم
qürbono	قربان	lefto	لفت	rīhono	ريحان
ʿobto	غابة			(dorakinon وهي يونانية) durqīno	درّاق
šawṭo	سَوْط	debšo	دبس	gübno	جُبن - أكل
šüqo	سوق	kaworo	كوارة النخل	ṣafṣofo	صفصاف
siogo	سياج	šetlo	شتلة	ḥzīro	خنزير
sahro	شهر/ القمر	nonʿo	نعناع	ḥardono	حردون
naḥnaḥto	نحنحة/ حنجرة	ʿafṣo	عَفْص	faḥlo	فَحْل
nʿoüro	ناعورة	dolīto	دالية	kebšo	كبش
nagoro	نجّار	ʿelīto	عليّه/ غرفة	zawraqo	زورق
margo	مرج			(tanagra في اليونانية) tangīro	طنجرة
šaṭüro	شاطر	ṭhino	طحين	qübʿo	قبعة
ṣalmo	صنم	sakīno	ساطور	zgūgīto	زجاج

الفارسية:

أسبيداج   sefidab " الرصاص الأبيض " ، تكتب الفارسية : سفيد آب.

إبريق   مركبة من آب : ماء + ريز : سأكب / صابّ

بابوج   مركبة من با : رجل + بوش : غطاء ، وهي في التركية أيضاً : pabuç

بول   طابع pul وهي تعني " المال "

تازة   طازج taze

تخت   سرير taht

خُرّضه   صغير hord

شوبك   جوب : خشب + ـــه : علامة النسبة .

سنبوسك   مركبة من se : ثلاثة + بوسه buse " قُبله " [لا مبتون 209].

جاكوجه   cakoč " مطرقة " .

شروال	šalvar	تكتب بالفارسية شلوار
طربوش		مركبة من سَرْ : رأس + بوش : غطاء .
غليون		وهي في الفارسية qalian
باذنجان		وهي في الفارسية badenjan
بازار	baxar	
ليوان	eivan	
بارود	barut	
بخت	baht	" حظ "
خاكي	haki	" ترابي "
خانم	hanom	" سيّدة " .
درويش	darviš	" فقير".
دشمان	došman	" عدوّ " .
بشكير		مركبة من بيش piš : أمام + كير : آخذ
بهلوان	pahlavan	" بطل / رياضي " .
جنكل	cangal	" جنكال "
زنبيل	zambil	" زنبيل " .
كفكير		معرّب كف kaff + كير : آخذ
جمجاية		مركب من كف + جه : علامة تصغير
دِستور	dastur	: إذْن / سماح
بصطار		بوست :جلد + آر : زينة
بسْماشكه		بشت: ظهر + مازَه : عظم
دسته	daste	مجموعة / رزمة
لقن [1]		فارسية lagan وفي التركية : legen
لشّه		جثة في الفارسية laš تكتب لاشه
كنار	kenar	جانب / شاطئ
جُفْت		بندقية من الفارسية Joft وتعني فيها: زَوْج.
بيجاما		

[1] وتكتب : لكن (راجع لامبتون 204)

التركية:

[جرك]	Çürük	"فاسد / تالف / عفِن"	[ألجين]	yalçin	"شحاطة"
[دجانة]	damacana	"قارورة ضخمة"	[يدَك]	yedek	"احتياط"
[قلبالق]	kalablik	"جمهور / حشد"	[آجق]	açik	"مكشوف / عار"
[أرهمانية]	kahraman	"بطل"	[قشلة]	kişla	"ثُكنة"
[قجق]	kaçak	"تهريب"	[دمغة]	damğa	"طبعة"
[كدسترو]	kadastro	"مَسْح الأراضي"	[أنكري]	lenger	"طبق ضخم عميق"
[سوكره]	sigorta	"ضمان"	[بسطرما]	pastirma	
[صوبة]	soba	"موقد/ فرن"	[كرستا]	keresta	"لوازم الأحذية"
[صوج]	suç	"خطأ / جُرْم"	[كرويت]	kerevet	"ديوانة من الخشب"
[شيرة]	sira	"عُصارة العنب"	[تكيّة]	tekka	"مركز للدراويش"
[شيشه]	şişe	"قنينه"	[أوغرلي]	uğurlu	"ميمون/مبار"
[ضبان]	taban	"نعل / قاعدة"	[أنجق]	ancak	"على كل حال/فقط / لكن"
[جوال]	çuval	"كيس"	[تبيسّة]	tepsi	"صينيّة صغيرة"
[يغمرلق]	yağmurluk	"معطف المطر"	[تيل]	tel	"سلك"
[يلنجي]	yalançi	"المحشو الكاذب"	[ختيار]	ihtiyar	"عجوز"
[ضيان]	dayanikli	"احتمال / ديمومة"	[جول]	çöl	"صحراء"
[طلطميس]	tertemiz	"فارغ / نظيف تماماً"	[زنكين]	zengin	"غني"
[قُنداق]	kundak	"قِماط"	[ضُشمان]	duşman	"عدو"
[قندرة]	kundura	"حذاء"	[عرموط]	armut	"أجاص"
[قيمق]	kaymak	"قشدة/ زبدة"	[أرمغان]	armagan	"هديّة"
[قاط]	kat	"طبقة / دور"	[جاكوجة]	çekiç	"مطرقة"

[قاظان]	kazan	"مِرْجل"
[قظمة]	kazma	"فأس"
[قبضاي]	kabadayi	"زعيم / مُتسلّط"
[قيافه]	kiyafet	"مظهر/ ثوب"
[مكوللك]	kulak	"أذن"
[كزدرة]	gazdirmak	"سَيْر/ مشي "
[كنبايه]	kanepe	"ديوانة"
[كرباج]	kirbac	"سَوْط"
[مراق]	merak	"هواية"
[ياقة]	yaka	"قبّة"
[يغما]	yağma	"غنيمة"
[ضندرما]	dondurma	"بوظة"
[ضغري]	doğru	"مستقيم / شريف"
[جنق]	çanak	"وعاء فخّاري"
[جنطة]	çanta	"حقيبة / كيس"
[جارة]	çare	"علاج / دواء"
[جادر]	çadir	"خيْمة"
[ناظيك]	nazik	"حساس / مهذّب"
[كَمَر]	kemer	"حزام من جلد "
[جاتين]	çetin	"صَعْب"
[جطل]	çatal	" مشعب"
دقماق	dökmek	

[باجاية]	Peçe	"قناع أســـود /حجاب"
[خولية]	havlu	" منشفة"
[راجيته]	reçete	"وَصْفة طبيّة"
[بردسون]	pardesü	" معطف"
[كرابيج]	kerpiç	"قرميد"
[مقارشة]	karišmak	"تدخّل"
[مداكَشه]	degiş	"تبديل"
[بشقا]	başka	"شيء آخـــر/ مختلف"
[اشكار]	şikar	"صيلة / فريسة"
[بقلاوة]	baklava	"حلوى"
[بلطجي]	baltalamak	"ابتزازي / مُبتزّ"
[بردابة]	perde	"ستارة"
[بوظما]	bozmak	"تلف /فساد / تخريب"
[بقجة]	bohça	"رزمة"
[جبقون]	çapkin	"وغْد / نَذْل"
[جَلْغَمْ]	çalkamac	"كدّر/ شوّش/ عكّر"
[جنكنا]	çingene	"غَجَر/ قرباط"
[جبقجي]	çubuk	"قَصَب"
[دشك]	döşek	"بساط / أريكة"
[دشّر]	düşurmak	" ترَكْ / رَمْي"
[دِكَمة]	değmek	"قمبن / قيّم"

[سمبتيك] Sempatic [تحريف عن sympathetic)

[سحّارة] صندوق السفر sahara

[سرسري] Serseri فاسد / منحط vagabond

[سبَت] Sepet " طبق/ سَفَط "

[سربست] Serbest " حُرّ / مستقلّ"

[أباجور] Pançur (وقيل افرنسية: مانع النور)؟!

وعن الإيطالية :

[بندوق] نسبة إلى البندقية وأهلها من التجار أوردها تاج العروس [الذي لا يُعرف أبوه]

[طاوله] Tavolo

[جمنتو] Cemento

[كبّود] Cappoto

[مالاريا] من mala فاسد + aria هواء

[موضة] Moda

وعن العبرية :

[بشط] " عار/ خزي"

[جاروخ] "حذاء"

[قميّل] "فرن"

[قن] " خُمّ / عش"

تمقلس سخر

حَنشل

وعن الفرنسية:

شنص Chance

كلسون Caleçon

كورصه Corset

مازورة measure

مانطو manteau

هوبرلور Haut parleur

موبيليا meuble

أجنطه agence

دركسيون direction

وفضلاً عن الظواهر التي سلفت هنالك ظواهر أخرى.

١- منها أنّ عاميتنا اعتمدت على الأصوات الطبيعية مثل:شقرّق ، قاق ، تكتكــة ، بخبخة، جقجقة ، بقبقة .

٢- وهناك ظاهرة الإمالة نآيم ، بآرك ، آكل ، شآرب ، فآتح بيتوللنـــاس ، شـــآيل حالو وجآي، حكآية . وقد وظفوها لغرض التميز أحياناً: بارد للثقيل الدم / بآرد للطعام .

فاتح للألوان / فاتح للباب. عشا للطعام / عشا للوقت . كتـاب / كتـاب، حسـاب للرياضيات حساب للظن . لباس /لبس

٣- ظاهرة تغليب الياء على الواو في جمع المذكر: يقولون إجو الفـهمانين (لغـة أكلوني البراغيث) . محشي بدلاً من محشو . مقلي بدلاً من مقلو , عبيغـزي،بـدلاً مـن يغزو... هذا هو الغالب. ولكنهم يخالفون أحياناً : مشو بدلاً من مشي / أكوس من بـدلاً من أكيس / شَرْوه بدلاً من شريه.

٤- عدلوا عن وزن فعّل الدال على التكثير إلى وزن فَعلل ، فهم يقولون : جَرْجَـر بدلاً من جرّر.لا حظ : قصقص ، شقشق ، فكْفَك ، مصمص .

٥- يثلّثون الثنائيات : شفة ، شفّة / دَمُه ، دمّه / يد ، إيد / لِثة ، لثّة .

٦- لهم اشتقاقات عجيبة من أصوات الحيوانات : الديك عبقاقي ، القطة عبتنوّي

من أسماء الحيوانات : البيضة مصوّصة / نمّلت إجره / واحد مزنبط

من بعض الحروف : عبتمنّن عليه (هذا منّي)

من بعض الكلمات : (بربك) (طبطب) (بسبس) .

٧- خالفوا الفصحى في التصغير فعّوضوا من الياء بالواو : قطقوطـه : فرفوطـة، كبكوبة ، شرشوبة ، بصبوصة ، قتوره ، دقّونة ، جدّولة ، تبوّلة .

٨ - طوّروا بعض الأوزان : **تفعلن** : تمسكن ، تملعن ، تشيطن ، تدلعن ، توسخن ، تكبسن ، تلعبن ، تسودن ، تولدن ، تنسون ، ترمين .

فعلان : طرشان ، عميان ، شقيان ، فنيان ، هفتان ، زعـلان ، بـردان ، دفيان ، جردان، حرمان ، سهيان ، عشقان ، بليان ، يبسان .

٩- مطلوا بعض الحروف ، نحو : (عمـود - عـامود) ، عـروس - عـاروس) ، (خروف-خاروف) (إبط-أباط) (شدق- شداق) (كم- كام) .

وقصروا بعضها : تعال - تعا ، رايح -راي ، هجر - هج ، ضجر - ضاج .

١٠ - شوّهوا الألفاظ عمداً للتشاؤم : أبو خبيط ، يبدح جرّة ، بنعل رفّه ، يحـرق طينه.

١١- قلّصوا من عدد الأدوات . ففي النداء اقتصروا علـى (يـا) وحدهـا. وفي الموصول اقتصروا على (إلْ)

١٢ - حولوا الواو والياء إلى مدود مناسبة (صَوت - صـوت)(لَـون-لـون) (خَوف - خوف) (بَيت - بيت) (سَيف- سيف)(جَيب - جيب)

المراجع

- ألتونجي ، محمد " معجم المعرّبات الفارسية في اللغة العربية " دمشق ١٩٨٨
- أنيس ، إبراهيم " في اللهجات العربية " القاهرة.
- برصوم ، أفرام الأول " الألفاظ السريانية في المعاجم العربية " حلب ١٩٨٤
- حصاد " لغة حلب السريانية : المطبعة المارونية – حلب – سلسلة استفد (عدد٥)
- الدسوقي ، محمد علي " تهذيب الألفاظ العامية " القاهرة ١٩١٣
- رضا ، محمد " قاموس ردّ العامي إلى الفصيح"
- عبد الحق ، فاضل . مقالة " ألفاظ دخيلة في العربية " مجلة اللسان العربي الجزء الأول ، المجلد التاسع .
- LAMBTON . A.K.S. Parsian Vocabulary . Cambridge University Press 1977
- Langensheidt's Universal Dictionary .English – Turkish . Turkish – English.

من التراث الموسيقي في حلب

صميم الشريف

بداية ... أشكر جمعية العاديات على الدعوة التي أرادت من ورائها القاء بعض الضوء ـ وهو للأسف ضئيل ـ على أعلام الموسيقا الحلبيين الذين أغنوا الموسيقا العربية بما أتاح لهم زمنهم الصعب ... وأشكر السادة الحضور على العناء الذي تكبدوه آملا في أن يجدوا في حديثي مايزيح عنهم هذا العناء.

أيها السيدات والسادة ...

لم أكن في يوم من الأيام من هواة المنابر، و لم ألبِ على الرغم من الدعوات الكثيرة التي تلقيتها على مدى أربعين عاماً دعوة واحدة، ولكن جمعيتكم ـ جمعية العاديات ـ استطاعت إغرائي وها أنذا بينكم .. بين أهلي وعشيرتي من عشاق الموسيقا ومحبي الاطلاع على ماقام به الموسيقيون الحلبيون، أحاول تعتري بعض الاضاءات عن أولئك الذين حملوا مشعل الموسيقا في حلب ـ وما اكثرهم ـ وساروا به قدماً في أرجاء الوطن العربي ليكونوا المنارة التي اهتدت بفنهم الأجيال التي عاصرتهم والتي جاءت بعدهم.

من الصعب أن أتحدث في هذه الأمسية عن جميع الموسيقين الأعلام الذين أنجبتهم مدينتكم العريقة لأن الحديث منهم لايتطلب ساعة وبعض الساعة وإنما أياماً. وقد رأيت الاهتمام بأولئك الموسيقيين الذين نجد بصماتهم واضحة وتأثيراتهم ملموسة في موسيقانا المعاصرة بعيداً عن النعرة الإقليمية التي لم تعرفها سورية في تاريخها الطويل على الصعد كافة ، واعترافاً بفضلهم وعلمهم على الأقطار العربية وغير العربيَة من التي زاروا وأقاموا وعلموا، لأن الدافع القومي عندهم كان الأساس في اندفاعهم شرقاً نحو بغداد والمحمرة، وغرباً حتى شواطئ الأطلس في المغرب .

اهتمامات الموسيقيين الحلبيين تباينت من عَلَم إلى آخر، فالشيخ علي الدرويش الذي كان بحق موسوعة موسيقية متنقلة أمضى أكثر من ثلاثين عاماً بعيداً عن وطنه، وأفنى حياته في الدراسة والتدريس والبحث العلمي، وأبلى بلاء طيباً في تأسيس الفرق الموسيقية في حلب وفي البلاد التي دعته للعمل في معاهدها أو تلك التي زارها وعكف فيها على تحقيق التراث الموسيقي الأندلسي، وغيرها من وضع لها مناهج لتدريس الآلات الموسيقية

والنظريات الموسيقية، وعمل بدأب وصبر على دعم وتقدم الموسيقا العربية وبخاصة التراثية منها في الأقطار العربية وتركيا. وقد صرفه الاهتمام بالبحث العلمي والعناية بالمواهب الشابة التي كان منها السنباطي بالتراث عن الإبداع في التأليف الموسيقي والغنائي. والتراث الذي تركه، والذي سجل بعضه لأذاعتي حلب ودمشق قبل وفاته، وسجل بعضه الآخر لحساب شركتي جرامافون وبيضافون عام ١٩٢٨ في القاهرة، وعددا ضئيلاً آخر لحساب شركة بيضافون في بيروت عام ١٩٣٠ ، مع تخت شرقي مكون من نخبة من أشهر عازفي حلب، يأتي في مقدمتهم "توفيق فتح الله الصباغ " على الكمان، "ونوري الملاح "على العود، "ونوبار" على القانون، وهو بالذات على الناي .

ومن أعماله التي تحتفظ بها إذاعة دمشق وجلها من النوبات الأندلسية التي حققها بنفسه.

إن إحياء تراث الشيخ علي الدرويش المحفوظ لدى ورثته وبخاصة الأبحاث والمخطوطات التي أسفرت عنها دراسته لمكتبة البارون " ديولينجه" في سيدي بوسعيد" في تونس مهمة صعبة، واعتقد أن جمعية العاديات إذا ما استنفرت حلب الشهباء أثارت هذا الموضوع لدى المسؤولين في الوزارات والدوائر المعنية وتابعته وشاركت في تمويله، فإنها نستطيع إذا ما نجحت في مساعيها أن تغني المكتبة الموسيقية بميراثه العلمي الذي لا نعرف منه سوى النذر اليسير.

وإذا كان البحث العلمي هو السمة البارزة عند الشيخ علي الدرويش، فإن الإبداع الموسيقي الغنائي التراثي عند الشيخ عمر البطش قد غلب الناحية العلمية عنده، إذ أغنى المكتبة الموسيقية بثلاثين ومئة موشحة. تم تدوين ثمانين منها حتى الآن، ومازالت الخمسون الباقية تنتظر تدوينها من صدور حفظتها، ولو كان الشيخ عمر البطش ملماً بالتدوين الموسيقي لأراح الدارسين والمتتبعين لتراثه من الحفظة، لأن هؤلاء ومهما كانت قدراتهم عالية في عملية الحفظ، فإن تراكم السنين على ما يحفظون لابد أن يلحقه بعض التحريف الأمر الذي سيسيء حتى لميراث الشيخ البطش .

وإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلاً ... إلى التاريخ الذي سبق ولادة الشيخ المعلم علي الدرويش بعقد من الزمن، لوجدنا الموسيقي الحلبي "انطوان يوسف الشوا " والد " سامي وفاضل الشوا " قد واجه عنتاً مشابها للذي لقبه " أبو خليل القباني" في دمشق، وإذا كانت اهتمامات القباني قد انصبت على التأليف والتمثيل والتلحين للمسرح، فإن انطوان الشوا

انصرف إلى تطوير التخت الشرقي وقام بخطوة جريئة تجلت في استخدامه لآلة الكمان الغربية في التخت الشرقي أسوة بما فعله الأتراك، وتطويعها عن طريق تغيير جذري في ضبط أوتارها الأربعة المتعارف عليه في الموسيقى الغربية لتلائم كآلة موسيقية أغراض وإمكانات آلات التخت الشرقي فجعل الأوتار المطلقة في الكمان الغربية "صول،ره،لا،مي" من الأعلى إلى الأسفل ـ "صول،ره،لا،ره" متبعاً في ذلك الأسلوب التركي في ضبط أوتارها الذي كان شائعاً في موسيقانا آنذاك، وعلى الرغم من نجاح الشوا في ذلك، فإن الإقبال على هذه الآلة ظل محدوداً ، واضطر من أجل تحقيق طموحه إلى التروح مع ولديه "سامي وفاضل" الشوا، إلى مصر، أملاً في النصر الذي يحلم به لهذه الآلة التي سبق لابنه "سامي" أن انتزع الإعجاب في العزف عليها في حلب ودمشق والقدس، كما حقق فيما بعد في سني العشرينيات حلم أبيه عندما عزف عليها في مراكش وحاز على الإعجاب ودخلت بفضله إلى الفرق المغربة، الغربية، ويذكر كتاب "أضواء على الموسيقا المغربية" لمؤلفة الأستاذ والموسيقي المعروف "صالح الشرقي" فإن الكمان لم تكن معروفة قبل سامي الشوا الذي نزل ضيفاً على المرحوم "التقيه لبريهي" أحد رواد الطرب الأندلسي.

كما أن الموسيقار الراحل محمد القصبجي اختاره ليكون عازفاً للكمان في تخت أم كلثوم إلى جانب "العقاد الكبير" على القانون و "محمود رحمي" على الإيقاع.

والقصبجي بالذات على العود، وكان هذا التخت أول فرقة موسيقية تستخدمها أم كلثوم بعد استغنائها عن فرقة الرويدة التي كانت تصاحبنا في غنائها .

قبل أن نوغل قدما في الحديث عن بعض الموسيقيين الحلبيين يجدر بنا أن تلقي نظرة سريعة علة واقع العلم الموسيقي في سورية في مستهل هذا القرن، وأصدق واقع عنها، هو ما تحدث عنه الموسيقار الحلبي الكبير توفيق فتح الله الصباغ في كتابه الضخم "الدليل الموسيقي العام" الذي طبع في عام ١٩٥٠ في مطبعة الإحسان لميتم الروم الكاثوليك في حلب.

يقول المعلم الكبير في مقدمة كتابه المذكور مايلي :

".. كنت في بدء اشتغالي بالفن الموسيقي أتمنى أن يساعدني أحدٌ على السير والتقدم، ولكن للأسف لا يوجد عندنا في ذلك الوقت معلمين يصح أن يطلق عليهم هذا اللقب

وإن وجد من يدرك شيئاً قليلاً كان يضنُ به على الناشئين خوفاً من مزاحمتهم له .. هـذه كانت عقلية موسيقيينا القدماء، ولا تزال إلى الآن موجودة عند بعضهم.

أما الكتب الموسيقية التي يمكن للطالب أن يستعين بها، فلم يكن لها من أثر عندنا في ذلك الحين، وإن ما ظهر منها حتى الآن لايفي بجزء بسيط من حاجتنا، لذلك حولت على إصدار هذا الكتاب الذي هو ثمرة جهود الأربعين سنة التي قضيتها بهذا الفن .."

إذن كتاب "الدليل الموسيقي العام" الذي وضعه الصباغ، هو ثمرة جهوده في أربعين عاماً امضاها في الموسيقا، وهذا يعني أنه بدأ حياته الفنية كعازف كمان في عام ١٩١٠، وإذا عرفنا أن لتوفيق الصباغ كتابين آخرين الأول بعنوان "تعليم الفنون" وصدر عام١٩٣٢، والثاني بعنوان "المجموعة الموسيقية" وهو كتاب للمحترفين وصدر في مستهل عام ١٩٤٠ ويضم جميع مؤلفاته الموسيقية حتى ذلك التاريخ وبعض مؤلفات الموسيقيين العرب المتميزين والأتراك القدماء، ندرك أن جهوده في سبيل تصميم تعليم الموسيقا التي تاق إلى تعلمها قد عشق هذا الفن وهو فتى، وكان نابعاً من رغبته في إتاحة هذا العلم للذين يتوقون إلى تعلمها ولا يجدون. كتاباً واحداً، أو معلما يرشدهم إلى ما يبغون كما ينبغي .

إن معاناة الصباغ وهو فتى يبحث عمن يقوده إلى منابع الفن، هي التي دفعته إلى وضع كتبه الآنفة الذكر، كي لا يصاب هواة الموسيقا من الراغبين بتعلمها بالصدمة التي أصيب بها وهو فتى .. صحيح إنه يتقاضى ثلاث ليرات ذهبية عن الدرس الواحد من طلاب الموسيقا الموسرين، وكنه كان في المقابل لا يتقاضى شيئاً من الطلاب المتوسطي الدخل أو من الذين لا يملكون سوى مواهبهم .

وتوفيق الصباغ تعلم العزف على الكمان على يدي زوج شقيقته "انطوان شبوا" وكان في سباق حقيقي مع ابن شقيقته "سامي" في مجال التفوق ولكن انطوان الشوا نزح مبكرا بأسرته إلى القاهرة، تاركاً إياه ليتدبر أمره بنفسه، وهكذا فعل، وتابع تدريسَ نفسه بنفسه، وإذا كان الناس قد لقبوا سامي الشوا بأمير الكمان، فإنهم توجوا توفيق الصباغ ملكاً على الكمان، وهذا التنافس بين توفيق وسامي على زعامة العزف أهرق كثيراً من وقت العظيمين، وللانصاف فإن قدرات توفيق الصباغ عزفاً وعلماً تفوق كثيرا قدرات سامي الشوا الذي ملأ حنينه الأصقاع البعيدة والقريبة على حد سواء .

وفضل الصباغ على الموسيقا، فضل لا ينكره أحد، وإذا كان انطوان الشـــوا قـــد استطاع ادخال آلة الكمان الغربية على التخت الشرقي وتطويع لدوزان أوتارها المطلقــة لتفي بأغراضَ الموسيقا والغناء التركيين أكثر من الموسيقا والغناء العربيين، فـــإن الصبـــاغ الذي وجد إن دوزان الكمان بالأسلوب التركي يقف عائقاً في استخدامها كما يجـــب في الموسيقا العربية ولا يستقيم معها ومع الطبقة الصوتية التي يغني بها العـــرب، وإنمـــا مـــع الموسيقا والغناء التركيين، عمد إلى تغيير دوزان الاوتار المطلقة التي جاء بها الشـــوا وهـــي (صول،ره،لا،ره) إلى (صول،ره،صول،دو) ــ يكاه، دوكاه، نوا، كردان ــ من الأعلـــى إلى الأسفل، كي يتطابق أداؤها مع الموسيقا والغناء العربيين ، وبعمله هذا احتلت الكمـــان الغربية بدوزانها الجديد مركزها في التخت الشرقي العربي. وطبعاً فإن الصباغ لم يتوصـــل إلى هذا اعتباطاً وإنما بعد دراسة تجريبية لدوزانها الكمـــان الغـــربي والـــتركي وإمكانيـــة تسخيرها لاداء الموسيقا العربية .

غاب توفيق الصباغ عن سورية ومسقط رأسه حلب قرابة تســـع ســـنوات، ففـــي عام١٩١٢ شدَّ رحاله إلى مصر فمكث فيها مدة عامين، وعند اندلاع الحـــرب العالميـــة الأولى عام ١٩١٤، غادر مصر إلى السودان فمكث فيها مدة عامين عمـــل خلالهـــا في التجارة، واتصل بالأوساط الموسيقية، التي رحبت به وباستخدام السلم العربي، ليأخذ هـــذا السلم في احتلال مكانته شيئاً فشيئاً إلى جانب السلم الخماسي المســـتخدم في الســـودان وأفريقيا . .

وفي أواخر عام ١٩١٦ عاد إلى مصر ثانية ليمكث فيها لغاية عام ١٩٢١، ثم قفـــل راجعاً إلى حلب، ومن ثم استوطن دمشق وأسس مع الوطني الراحل فخـــري البـــارودي النادي الموسيقي الشرقي ويذهب أصدقاء الصباغ إلى القول : إنه كفنان كلاسيكي جـــاء يؤمن بالعلم وبالقوالب الفنية التي قام عليها التأليف الموسيقي، لم يستطع التعـــايش مـــع الوسط الفني الذي وجد نفسه بعيداً عن وطنه فشدَّ رحاله عائداً إلى وطنه .

الأديب الراحل الأستاذ سعيد الجزائري الذي كان رئيساً لتحرير مجلة النقاد، أجـــرى حواراً خصباً مع توفيق الصباغ، استرعى انتباهي فيه السؤال الذي توجـــه بـــه ســـعيد الجزائري إلى توفيق الصباغ وهو :

ــ علمت بأنك كنت تبتكر آلة توضع على الكمان فتنطق بالقرار والجواب كرجل وإمرآة يغنيان معاً، فما هي العوائق التي حالت بينك وبين إكمال هذا الاختراع الفريد !

وأجاب الصباغ بمايلي : لقد صرفت عشرين عاماً من عمري وأنا اشتغل في الاختراع وسافرت لأوروبا، وبقيت مدة هناك أحاول اكماله، وبحثت في الوصول إلى سبعين بالمائة من كماله، ولكني توقفت أخيراً عن الاستمرار في تجاربي التي بلغت المئات وكانت كل تجربة تكلفني مشقة وتعباً فكرياً وجسدياً، وليس عندي أوائل تساعدني على العمل لذا توقفت. ولكني لا أزال أعتقد أنه سيكمل، كما اعتقد أن الاختراعات لها أوان محدد، أما اختراعي فهو بعيد عن الفكر البشري وطريقة إخراج الصوتين غريبة جداً لا يكاد يصدقها العقل، والدليل أن الافنج إلى الآن لم ينتجوا شيئاً من هذا القبيل مع كثرة اختراعاتهم، وشدة شغفهم باختراعي عندما عرضته عليهم لما كنت في أوروبا كانت كبيرة جداً وكل شيء بيده تعالى .."

لو أن توفيق الصباغ مازال حيا حتى الآن ورأى الاختراعات الإلكترونية في الآلات الموسيقية، وسمع الأصوات التي تصدر عن تلك الآلات لانتابه السرور لما حققه عصر الإلكترونيات من تقدم في هذا المجال، وخاصة في مجال نطق القرار والجواب في آن واحد، وفي اعتقادي أن الصباغ لم يكن يهدف لأن يجعل ابتكاره ينطق بالصوتين معاً عن طريق الالكترونيات، لأنه كان يهتم بالتعبير الإنساني في مجال العزف، وربما كان يسعى وراء حركة أو آلة ميكانيكية تسهل أداء الصوتين معاً دون عامل دخيل على صوت الكمان، كالكهرباء فيضخم الصوت أو ينطق الصوتين اللذين هدف إليهما معاً، لأنه يريد لأنامل العازف أن تلعب هذا الدور ..

وتوفيق الصباغ دون شك لم يهدف في ابتكاره الذي لا نعرف عنه شيئاً في الوصول إلى صوتين بأسلوب التوافق (الهارموني) لأنه كان ضالعاً في هذا العلم ويعرف أسراره. وربما جاءته الفكرة عن طريق آلة "البيانو" التي تستطع أن تستجيب للعازف في أداء صوتي القرار والجواب معاً، فاحرق من أجل فكرته مااحرق، من جهد ووقت ومال دون أن يصل إلى نتيجة، أو إنه وصل إليها، ولكن الزمن لم يسعفه، فقضى قبل أن يخرج على الناس بابتكاره الذي ذكره، وفي كل الأحوال لا يعرف أحد المصير الذي آلت إليه تركته

وأوراقه، إذ كما هو معروف ماتت زوجته ثم ابنه في حياته، ولا يدري أحد مافعل ورثته بالتركة الفنية التي خلفها وراءه .

كل هذا الذي ذكرناه عن الموسيقار العالم توفيق الصباغ غيض من فيض، وعلى الرغم من الأبحاث النظرية التي وضعها على ضوء تجاربه الموسيقية، فإنه كان يجد متسعاً من الوقت ليكتب في قوالب الموسيقا التراثية المتعارفُ عليها أجمل البشارف والسماعيات واللونفا التي لا يُعرف عددها تماماً، وتعتبر مقطوعاته الموسيقية "عواطف" و"وداع" و"خلود" من أهم أعماله الأوركسترالية التعبيرية وبخاصة "عواطف" التي يحتاج إخراجها إلى أوركسترا كبيرة .. فيها نجد الشرق والغرب يلتقيان في إلفة موسيقية نادرة .

وتوفيق الصباغ سجل قبل وفاته لإذاعة دمشق عدداً كبيراً من ارتجالاته الموسيقية ــ التقاسيم ــ على كمانه من مختلف المقامات، كذلك سجل على كمانه بعضاً من مؤلفاته ومؤلفات المشاهير الموسيقية، وكمثال عن ارتجالاته الموسيقية نستمع إلى هذه الدقائق من تقاسيمه، مع مراعاة تقنيات التسجيل التي كانت سائدة في مستهل الخمسينيات وتقنيات اليوم .

وتوفيق الصباغ اهتم في حياته التأليفية بالتأليف الموسيقي البحت من دون التلحين ــ تلحين الأغاني والتأليف الموسيقي هو أصعب وأدق من التلحين، لأن إيصال الافكار عن طريق الموسيقا المجردة أصعب من إيصالها عن طريق نظم غنائي ملحن .

في شهر تشرين الأول الماضي استلمت رسالة من الأستاذ "إنطوان خوام" وهو من حلب، مؤرخة في الثامن عشرمن أيلولعام ١٩٩٥ وكان من الطبيعي أن أشكر الأستاذ خوام على رسالته، وأن أعتذر له عن تأخري في الرد على رسالته، فلم أجد وسيلة أسرع من الهاتف، فاتصلت به هاتفياً في ظهيرة اليوم الذياستلمت فيه الرسالة ، وجرى بيننا حديث قصير وشيق عن الموسيقار الراحل "جميل عويس"، صحح لي خلاله بعض المعلومات، إذ من المعروف بين المتتبعين لسيرته الذتية بأنه ولد في قرية "بداما"' من أعمال، جسر الشغور، غير أن الاستاذ "خوام" أكدَّ لي، إن جميل عويس الذي يمت إليه بصلة القرابة ولد ونشأ وتعلم العزف على الكمان في حلب، وإنه حلبي أباً عن جد ..

من الثابت، أن جميل عويس اكتسب ثقافته من المدارس الخاصة التي الحقته بها أسرته منذ طفولته، وإنه كان يتقن اللغة الفرنسية واللغة التركية، وإن هاتين اللغتين أتاحتا له كما

أتاحت لزميليه الراحلين توفيق الصباغ وكميل شامبير ــ وهذا الأخير كان يتقن الإيطالية أيضاً ــ الاطلاع المبكر على مايجهله من الموسيقيين الشرقية والغربية ، فإذا اضفنا إلى هذا مهارته الفائقة في العزف على الكمان بالأساليب الثلاثة التركي والعربي والغربي، وبراعته المتناهية في التدوين الموسيقي شأنه في ذلك شأن زميليه الصباغ وشامبير أدركنا بأن المكانة الفنية التي توصل إليها في مصر لم تنطلق من فراغ، بل من أرضية ثقافية موسيقية مكنته من أن يتبوأ المكانة الرفيعة التي وصل إليها .

نحن لا نعرف تماماًماهو النشاط الموسيقيالذي مارسه في حلب قبل نزوحه إلى مصر، اللهم عدا مشاركته في العزف في الحفلات التي كانت تقيمها فرق الاندية الموسيقية ذات الخصوصية. ويبدو أن فكرة النزوح ساورته بعد نزوح الصباغ إليها عام ١٩١٢، وبعد التقائه بسامي الشوا الذي عاد فجأة إلى حلب ليصفي أموراً خاصة تتعلق بأسرته فشجعه وأغراه بالسفر إلى مصر التي تفتقر آنذاك إلى الموسيقيين الدارسين للعمل فيها كعازف كمان على الأقل. فقرر الرحيل بدوره لتجريب حظه فيها، وقبل أشهر من اندلاع الحرب العالمية الأولى كان جميل عويس يلتقي في القاهرة برفاقه الموسيقيين الذين سبقوه إليها .

لم يعتقد جميل عويس بأن هذه الرحلة ستبعده نهائياً عن مسقط رأسه حلب ..

صحيح إن الحنين دفعه للعودة إليها أكثر من مرة، ولكنه كان لا يمكث في كل مرة أكثر من بضعة أشهر قد تمتد أحياناً إلى السنة وبعض السنة ثم لا يلبث حتى يعود إلى القاهرة التي استأثرت بجهوده الفنية طوال أربعة وثلاثين عاماً إلى أن وافته المنية في الواحد والعشرين من شباط عام ١٩٤٨ . فماذا فعل طوال هذه السنوات ؟ ! وماذا أعطى ؟! ولماذا أغفل المصريون دوره الكبير في إغناء الحياة الموسيقية.

من الثابت أن الدكتور محمود الحفني والد الموسيقية ومغنية الأوبرا الدكتورة "رتيبة الحفني" الذي كان يشغل عمادة معهد فؤاد الأول الموسيقي اسند إليه رئاسة قسم الكمان وما يتعلق به بالنسبة للموسيقا الشرقية، وهو نفسه الذي اسند في عام ١٩٢٧ للشيخ علي الدرويش تدريس آلة الناي وفق المنهاج الذي وضعه، بعد أن اعتمدت لجنة مؤلفة من د. محمود الحفني ومحمد القصبجي ومصطفى رضابيك، تدريس كتابه الخاص بتدريس الموسيقا للسنوات الثلاث الأولى. غير أنه قبل افتتاح معهد فؤاد الأول وتسميته أستاذا فيه،

عمل كعازف كمان في مختلف قلب الليل، وفي تعليم العزف على الكمان للهواة من الراغبين بتعلم العزف على الكمان... وفي تلك الفترة من حياته، وكانت الحرب قد أوشكت على نهايتها تعرف سيد درويش وارتبط معه بصداقة متينة، وكان سيد درويش يحتاج إلى من يدون له أعماله الغنائية، فلم يجد أمامه سوى "جميل عويس" ..

ويذكر د. محمود الحفني في كتابه عن "سيد درويش" بأن الموسيقا تدين لجميل عويس في الحفاظ على تراث سيد درويش، لأنه عكف بعد وفاة سيد درويش في عام١٩٢٣ على تدوين تراثه غير المدون من صدور الحفظة، إلى أن أتم عمله وفاءً منه لصديقه الراحل. ونلحظ، وهو ما يفعله المصريون في أبحاثهم في تراث سيد درويش، بان جميل عويس لعب دوراً هاماً في توزيع أعماله في الاوبريت، لأن سيد درويش لم يكن ملماً الالمام الموسيقي بهذا العلم، وجميل عويس هو الوحيد الذي كان يدون ويشير على سيد درويش ما يجب أن يكون عليه العمل الموسيقي الغنائي، وإن مهمة الفرقة وقائدها هي تنفيذ ما هو مدون في أوراق النوطة المكتوبة بخط جميل عويس نفسه، وليس صحيحاً إن سيد درويش هو موزع أعماله. وتتجلى الصداقة الرائعة بين سيد درويش وجميل عويس في الصورة التي أهداها سيد درويش لجميل عويس والتي ذكر لي عنها الأستاذ انطوان خوام إنها من مقتنيات اسرة جميل عويس العزيزة عليها لأنها تحمل توقيعاً غريباً لسيد درويش هو المرحوم سيد درويش، بمعنى أن سيد درويش وقّع الإهداء باسم المرحوم سيد درويش، وربما كان سيد درويش قد وقّع بهذا الإمضاء الغريب تحت تأثير ظرفه المأثور عنه، أو إنه كان يتوقع مصيره الفاجع فوقع باسم المرحوم سيد درويش .. أما عبارة الإهداء الكاملة التي على ظهر الصورة فكانت كما يلي : إلى استاذي ومعلمي " الأستاذ جميل عويس" .

من الثابت أن جميل عويس كان يتمتع ببحبوحة من العيش، ولا يشكو من ضائقة مالية أو ما شابه ذلك، غير أن بعض الدارسين لاعماله الموسيقية يجدون فرقاً شاسعاً بينها وبين بعض الحانه الغنائية الماجنة من مثل "على سرير النوم دلعني" التي لحنها للمطربة سمحة البغدادية" وطقطوقة " فين حزامي يانينة" التي لحنها للمطربة "فريدة فحيش" الأمر الذي دفعهم للظن بأن جميل عويس لحن مالحن بسبب حاجته الماسة للمال .

وبعيداً عن عمله كعازف للكمان ومعلم للعزف عليها، فإن مرحلته الموسيقية الأولى تجسدت في لقائه بسيد درويش وفي تدوينه لتراثه وتوزيعه الموسيقي لبعض أعماله في الأوبريت، وفي تعليم سيد درويش التدوين الموسيقي الذي كان لايفقه فيه شيئاً، ولولا جميل عويس لضاعت مؤلفات سيد درويش، ولما بقي منها سوى النذر اليسير المحفوظ في الاسطوانات وصدور محبي وهواة فن المعلم الكبير .

مرحلة جميل عويس الموسيقية الثانية، كانت في لقائه بمحمد عبد الوهاب، وكان محمد عبد الوهاب كسيد درويش لايجيد التدوين الموسيقي على الرغم من معرفته به شأنه في ذلك شأن رياض السنباطي الذي درس ودرّس في معهد فؤاد الأول، وشأن زكريا أحمد ملك الطرب الأصيل .

كان جميل عويس أستاذ محمد عبد الوهاب والسنباطي في المعهد، وكان محمد عبد الوهاب يتوق لأن يصنع شيئاً على غرار سيد درويش، والأغنيات التي سجلها حتى عام١٩٢٦ كانت من ألحان محمد عثمان في موشحة "ملا الكاسات" وسلامة حجازي في قصيدتي "أتيت فالفيتها ساهرة" و "وبلاه ماحيلتي" وعبده الحامولي في قصيدة "جددي يانفس حظك" ، إلى جانب عدد ضئيل من الأغنيات التي لحنها بنفسه من مثل موشحة "ياحبيبي انت المراد ".

وكما وجد سيد درويش نفسه صديقاً لجميل عويس، وجد محمد عبد الوهاب نفسه مع استاذه " جميل عويس" فأناط به كل أعماله الموسيقية .

وجميل عويس الذي دون أجزاء من أوبرا كيلوباترا التي مات عنها سيد درويش" دون أن يتمها، هو الذي دون الأجزاء الأخرى المتبقية من هذه الأوبرا التي لحنها محمد عبد الوهاب.

وإذا اعتبرنا مراحل محمد عبد الوهاب الفنية تبدأ في عام ١٩٢٨، فإننا نلحظ التوزيع الرائع الذي قام به جميل عويس لأدوار ومونولوغات وقصائد وطقاطيق محمد عبد الوهاب، ولعل أجملها توزيعه الموفق الذي وضعه لصوتين لجوق الرويدة في آهات "الهنك" في دور "أحب اشوفك كل يوم" وفي العبء الذي وزعه باتقان كبير على آلات التخت الشرقي بخبرته وذوقه وعلمه الغزير في مونولوغ "أهون عليك" وفي الادوار والمونولوغات الاخرى التي ظهرت في تلك المرحلة .

وفي المرحلة الثانية ـــ مرحلة مونولوغ " في الليل لما خلي" ـــ كما سماها محمد عبد الوهاب نفسه في عام ١٩٣١ والتي استمرت لغاية عام ١٩٣٥، نجد جميل عويس يفرض على محمد عبد الوهاب استخدام آلات موسيقية غربية لم يعرفها التخت الشرقي قبله .. صحيح أنه استخدم في مونولوغ "أهون عليك " عدداً من الآلات اليقاعية، وفي مونولوغ " مريت على بيت الحبايب" آلة "الاكورديون" لضرورة التعبير عن التانغو وايقاعه، إلا أنه في مرحلة في الليل لما خلي اضاف آلتي "الفيولونسيل" (الكمان الجهير) و"كونترباص" (الكمان الاجهر) على التخت الشرقي لاضفاء جو من الوقار والفخامة على العمل، وهو مانلمسه في مؤلفات جميل عويس الموسيقية التي ظهرت في تلك الفترة، وهذا الامر ماكان ليتم لولا إصرار جميل عويس الذي استعان للمرة الأولى في تاريخ الموسيقا العربية بعازفين لهاتين الآلتين من الفرقة السيمفونية التابعة لدار الاوبرا المصرية، وبعمله هذا دخلت أسرة الكمان برمتها عدا آلة "الفيولا" على التخت الشرقي.

هذا العمل الذي قام به جميل عويس لا يتناقض مع آلات التخت الشرقي من حيث أداء أرباع الأصوات التقريبية لأن آلات أسرة الكمان تستطيع أن تؤدي أرباع الأصوات التقريبية بسهولة ويسر بخلاف الآلات الموسيقية الغربية الأخرى البيانو والأكورديون والماندولين والبانجو والكيتار آلات النفخ النحاسية والخشبية المصنعة على أساس نصف البعد المعدل.

إن استخدام جميل عويس لآلتي الفيولونسيل والكونترباص، دفعت القصبجي المتطلع إلى الإبداع دائماً وأبداً إلى استخدامها في تخت أم كلثوم بالأسلوب نفسه الذي استخدمها جميل عويس هاتين الآلتين .

وشخصية جميل عويس الموسيقية تغلبت على أنانية محمد عبد الوهاب الذي يجب أن يسند كل أمر في أعماله إليه وحده، فقد أصر على ذكر أسماء العازفين الذين يتفردون في العزف وبخاصة في التقاسيم التي رافقت محمد عبد الوهاب في الموالات التي غناها عند تسجيلها على اسطوانات شركة بيضافون، إذ نسمع فيها عند مستهل كل تقسيمة قدمها على كمانه اسم "جميل عويس"، أحياناً صيحات إعجاب بعزفه من رفاقه العازفين، كما في قول بعضهم "ياسلام ياجميل وعويس" أو ماشابه ذلك. ويكفي الاستماع إلى موال "كل اللي حب انتصف" وقصيدة "أعجبت بي بين نادي قومها" لنتحقق من ذلك .

(كل اللي حب انتصف)

ظل جميل عويس قائداً لفرقة محمد عبد الوهاب وموزعاً موسيقياً لأعماله لغاية فيلمه السينمائي الثاني "دموع الحب" وقد ظهر في فيلم الوردة البضاء، وهو يعزف على الكمان ورياض السنباطي على العود مع باقي أفراد التخت في مشهد مع محمد عبد الوهاب وهو يؤدي أغنية " النيل نجاشي" .

إن السباق بين قطبي الغناء أم كلثوم ومحد عبد الوهاب في سني الثلاثينيات جعل محمد عبد الوهاب الذي أذهله توزيع الموسيقي وعازف الناي الشهير عزيز صادق الذي علمه الشيخ الدرويش العزف على الناي، لأغاني فيلم نشيد الأمل الذي ظهر عام ١٩٣٦ يستعيض عن جميل عويس بعزيز صادق في قيادة فرقته وتوزيع أعماله الموسيقية.

ومنذ ذلك التاريخ انفصمت أواصر الصداقة شيئاً فشيئاً بين جميل عويس ومحمد عبد الوهاب ويمكن القول عن هذه المرحلة من حياة جميل عويس الموسيقية إنها حققت مايلي :

١ ــ تعديل التخت الشرقي أو تحويله إلى فرقة موسيقية بعد أن استوعبت عدداً اضافياً من آلات الكمان بالإضافة إلى آلتي "الكمان الجهير" و "الكمان الاجهر" اللتين دخلتا للمرة الأولى على الفرقة الموسيقية عام ١٩٣١ ولا تتنافران مع الآلات الأخرى.

٢ ــ ادخال آلة الأكورديون الغربية لتفي بأغراض موسيقية معينة في التوزيع الموسيقي وفي نطاق محدود .

٣ ــ استخدام التوزيع الموسيقي، ويدخل في نطاق التوافق الموسيقي "الهارموني" البسيط لصوتين في غناء الرديدة وفي عددمن الأعمال التي تحتمل التوافق.

٤ ــ ادخال عدد من الآلات الايقاعية الغربية مثل " المثلث" و "الكاستنييت" و "العصوين" و "الخشافيش" الخاصة بالايقاعات الغربية الراقصة مثل "الرومبا".

إن كل هذه الأمور التي قام بها جميل عويس إبان عمله مع محمد عبد الوهاب ظلت مقرونة بإسمه، ولم يجسر محمد عبد الوهاب على الادعاء بأنه هو الذي قام بكل هذا إلا بعد وفاة جميل عويس عام ١٩٤٨، وهو لم يكتف بذلك إذ اشترط على موزعي موسيقاه بدءً من جميل عويس ومروراً بعزيز صادق وابراهيم حجاج واندريا رايدر وعلى اسماعيل

والأخوين رحباني وانتهاء بأحمد فؤاد حسن، اغفال اسمائهم واسنادَ كـل ماقاموا به إليـه وحده.

أم كلثوم بدورها وبايعاز من محمد القصبجي استعانت في تسجيل اغاني افلامها التي ظهرت بعد نشيد الأمل، وهي أفلام عايده، سلامة، وفاطمة "لجميل عويـس في قيـادة الفرقة الشرقية، ومقدمات الأفلام المذكورة تشير بوضوح إلى ذلك.

توفي جميل عويس كما ذكرنا آنفاً في الواحد والعشرين من شباط عام ١٩٤٨ وقـد حملت بطاقة النعوة عبارة ربما كتبها بنفسه عند إحساسه بدنو أجله، أو إن ورثتـه هـم الذين كتبوا تلك العبارة التي تقول بلسان جميل عويس" أنتم يامن عرفتموني وأحببتمـوني تذكروني وصلوا لأجلي .."

وأنا عرفت جميل عويس وأحببته من خلال موسيقاه والخلمات التي قدمها لموسـيقانا العربية التي كنا نتدرب عليها في سني الأربعينات في معهد أصدقاء الفنون في دمشق وتمتـاز مؤلفاته بالضخامة والجزالة، و هو في كل مؤلفاته لم يخرج عن القوالب الموسيقية المعروفة في التأليف العربي . الافتتاح عنده يمهد للأفكار التي ستصافح المسـتمع والصياغـة الفنيـة متكاملة، والألحان في اتساقها تتصاعد بسمو لاتتزلف ولا تستجدي، وحتى التسليم" الذي يفصل بين خانات السماعي أو البشرف أو اللونغا يمتاز بالعذوبة والرقة، وإذ نحن أخذنـا مقطوعاته ولتكن سماعي مقام "نوا أثر" أو لونغا "قيام عجـم" أو مقطوعـة " افـراح " لوجدنا في كل هذه المقطوعات صياغة رفيعة تجاوزت مااعتاد المؤلفون العرب كتابتـه في هذا الضرب من المؤلفات، ولدهشنا للتناسق البديع في البناء الموسيقي الذي توخـى فيـه توزيع فكرته الموسيقية على خاناتها وتسليمها بلغة معاصرة سبقت الزمن الذي أُلفت فيـه، وهي على الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على ولادتها مازالت تقف شـامخة بلغتها الموسيقية المعاصرة كدليل على مؤلف عرف كيف يكتب في القوالب التراثية تلك الأعمال الجميلة .

أبرز مؤلفاته الموسيقية المسجلة في إذاعة دمشق باسمه هي: سماعي نوا اثر سماعي نـوا أكثر سماعي نهاوند، بشرف كردستان، لونغا عجم، رقصة الغزلان، ومقطوعة "أفـراح" والفاصل الذي أقدمه فيمايلي هو سماعي نوا أثر، وقد استخدم محمد عبد الوهاب خانـات من هذا السماعي كموسيقا مرافقة لبعض مشاهد الوردة البيضاء ودموع الحـب دون أن

يشير في مقدمة الفيلم إلى مؤلفها هو جميل عويس، ولو أن جميل عويس لم يسـجل هـذا العمل للإذاعه السورية وللاذاعة المصرية، لظل هذا العمل منسوباً لمحمد عبد الوهاب .

الشاعر العربي السوري الحمصي الراحل "عبد الرحيم الحصني" الذي استضافني ذات يوم في بيته في حمص عام ١٩٨٠ ـ أي بعد وفاة جميل عويس باثنين وثلاثـين عامـاً ـ عرض عليّ كماناً أثرية من مجموعةالآلات الموسيقيةالتي يحتفظ بها في خزانة بللورية خاصـة وهو يقول لي :

هذه الكمان التي اعتز بها كثيراً، وأفخر باقتنائها هي للموسيقار السـوري الكبـير جميل عويس أما كيف وصلته الكمان، وكيف اقتناها وبكم اشتراها فلا يعرف ذلك أحـدٌ سواه، وهو بالذات رفض أن يرويَ لي كيف تداولتها الايدي حتى وصلت إليه ، وفيما إذا كانت أسرته قد عانت ضيق ذات اليدفاضطرت لبيعهاأم أن ورثة زوجته وابنته هم الذيـن باعوها ...

وبعد، لقد كنت أود أن اتحدث في هذه الأمسية التي ارهقتكم بها دون شك عـن عظيمين حلبيين آخرين لا يقلان شاناً عن الشيخ علي الدرويش والشـيخ عمرالبطـش وتوفيق الصباغ وجميل عويس، هما أحمد الأوبري ، وكميل شامبير، وأملي كبير أن نلتقـي في أمسية مماثلة للحديث عنهما، لأنهما مع زملائهما الذين ذكرت والذين لم أذكر كـانت لهم جميعاً أياد بيضاء على الموسيقا العربية ليس في سورية وحدها، وإنما في أكثر الأقطـار العربية وهم في توجيهم الانطلاق من هذه المدينة العريقة كانوا يهدفون بعفويـة كبـيرة وبجهود فردية إلى بناء موسيقا قومية لا تعترف بالحدود الإقليمية التي قامت عليها تلـك الأقطار ..

أشكركم واعتذر ثانية عن الإسهاب الذي قادني قلمي إليه ...

ندوة عن

المكتبات في حلب

أقيمت يوم الخميس الواقع في ٢٢/٥/١٩٩٧

ندوة عن "المكتبات في مدينة حلب" في معهد التراث العلمي العربي بحلب بالتعاون مع جمعية العاديات. وقد شارك فيها عدد من الباحثين، ونذكر هنا بعض الأبحاث التي ألقيت في تلك الندوة.

خزائن الكتب العامة في المساجد والمدارس
والخزائن الخاصة في حلب
منذ عهد سيف الدولة إلى بداية العهد العثماني

د. صلاح كزارة

الكتاب والمكتبة كلاهما مظهر حضاري في حياة الأمم والشعوب. والمكتبة في أمة من الأمم هي وعاء المعرفة المتاحة لأبناء هذه الأمة، وتاريخ الكتب والمكتبات هو المرآة التي تنعكس عليها صورة الحضارة الإنسانية بأوسع معانيها.

واكبتْ المكتبات الإسلامية المد الحضاري للمسلمين، واختزنت في بطونها تراثهم وما نقلوه إلى لغاتهم من تراث العالم القديم.

١ ـ لقد ارتبطت المكتبات في العالم الإسلامي ـ أول نشأتها ـ بالمساجد، وكانت المساجد هي المدارس الأولى في تاريخ التربية الإسلامية، ففيها كانت حلقات الدرس، وكانت مجالس الإملاء، وفيها وجدت أقدم المكتبات في تاريخ الإسلام. لقد كان في كل مسجد جامع مكتبة أو أكثر، وكان من عادة العلماء وبعض الفضلاء أن يوقفوا كتبهم على المساجد.

يحدثنا ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) في معجم البلدان (١١٤/٥مروالشاهجان) أنه فارق مرو سنة ٦١٦ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة، منها خزانتان في المسجد الجامع، إحداهما يقال لها: العزيزية، وقفها رجل يقال له : عزيزُ الدين الزنجاني وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقارب ... ويقول بعد أن يذكر هذه الخزائن : وكانت سهلة التناول، لايفارق منزلي منها مئتا مجلد وأكثر بغير رهن .. فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره فما جمعته من تلك الخزائن.

ويضيق المجال هنا عن ذكر المكتبات الكثيرة المرتبطة بالمساجد في العالم الإسلامي قديماً وحديثاً، وحسبنا أن نذكر بعضها مما هو باق حتى يومنا كخزانة القرويين في فاس بالمغرب، وخزانة جامع الزيتونة في تونس، وخزانة الجامع الأزهر في القاهرة وغيرها..

فليس عجيباً بعد هذا أن يكون للشهباء أم البلاد المشحونة بالعلماء والمستغلين كما يصفها ابن يعيش الحلبي (انظر وفيات الاعيان ٤٨/٧)ـ خزانة كتب ضخمة في جامعها الكبير.

كانت حلب في عهد أميرها سيف الدولة الحمداني (ت٣٥٦هـ) قد أخذت بحظٍّ وافر من العمران، وازدحمت بالسكان، فعظمت منذ ذلك الحين ـ كما يقول مؤرخها الشيخ راغب الطباخ (دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً من ٣٠٠)ـ الحركة العلمية فيها، وقامت دولة الأدب، وذلك لما كان عليه سيف الدولة من العلم والفضل وإغداقه الأموال الطائلة على العلماء والأدباء، فصارت الشهباء في عهده محط الرحال وموئلاً لعظام الرجال، وأسس فيها مكتبة عظيمة، عنها انبعثت أنوار العلوم، وتفجرت ينابيع الفنون، ومنها انتهل المتعطشون.

يصف مؤرخ الإسلام الحافظ شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ) (في المنتقى من تاريخ الإسلام مخطوطة المكتبة الأحمدية بحلب ١٢١٩، نقلاً عن الدكتور يوسف العش في كتابه: دور الكتب العامة ص١٦٠) هذه الخزانة الضخمة

بحلب في حوادث سنة ٤٦٠هـ ويقول إنها تضم عشرة آلاف مجلد من وقف سيف الدولة وغيره. ويذكر أن أبا الحسن الحلبي ثابت بن أسلم الشيعي.ترجمته في : (انظر بغية الوعاة للسيوطي ١/٤٨٠) كان مكلفاً بحفظ هذه الكتب، فاتهمه الإسماعيليون بإفساد دعوتهم لأنه ألف كتاباً في كشف عوارهم، فارسل إلى صاحب مصر الذي أمر بقتله وصلبه في حدود سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م. أما خزانة الكتب فقد أحرقت.

ويذكر مؤرخ حلب الكبير الصاحب كمال الدين عمر بن العديم (ت٦٦٠هـ) في كتابه الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري (ص٥٥٦ـ ٥٥٧من طبعة الدار القومية للطباعة القاهرة ١٩٦٥ ضمن كتاب: تعريف القدماء بآثار أبي العلاء = ج٤/١٣١ ـ ١٣٢ من طبعة الشيخ راغب الطباخ، ضمن كتابه: إعلام النبلاء، ط٢ دار القلم العربي بحلب ١٩٩٣) أنه:

" كانت بحلب خزانة بالشرقية التي بجامع حلب في موضع خزانة الكتب اليوم (أي في زمن ابن العديم) واتفقت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة، ونُهبت خزانة الكتب. وكان في ذلك في زمن أبي العلاء (المعري ت٤٤٩هـ)، ولم يبق في خزانة الكتب إلا القليل. وجدّد الكتب فيها بعد ذلك الوزير هبةُ الله بن بديع (ت٥٠٧هـ) وزيرُ الملك رضوان، ثم وقف غيره كتباً أخر بها. ويعلق الدكتور ـ محمد أسعد طلس على هذا الخبر فيقول : (انظر المخطوطات وخزائنها في حلب، مجلة معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة، المجلد الأول ـ الجزء الأول لعام (١٩٥٥) ص١٣) :

"يظهر أن هذه المكتبة (مكتبة الجامع) ظلّت تتلاعب بها الأيدي بعد انقراض الدولتين الحمدانية والمرادسية الشيعيّتين،ولكنها ظلّت عامرة على الرغم من ذلك إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وقادته، فسيطروا على المؤسسات العامة، ومن بينها خزائن الكتب في القاهرة ودمشق وحلب ...ويظهر أنه قد ظلّت خزانة جامع حلب موجودة طوال العصور المتأخرة " اهـ.

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والتراجم أسماء ثلاثة من الذين تولوا الإشراف على هذه الخزائن وهم أبو الحسن الحلبي النحوي ثابت بن أسلم (ت٤٦٠هـ)، والشاعر المشهور ابن القيسراني (ت٥٤٨هـ) الذي سكن حلب في دولة تاج الملك وولي بها خزانة الكتب (الصفدي، الوافي بالوفيات، مخطوطة المكتبة الأحمدية بحلب ١٢١٦، نقلاً عن العش: دور الكتب العامة ص١٦٤)، والثالث هو القاضي أبو الحسن أحمد بن ابي الفضل (والد المؤرخ ابن العديم ت٦١٣هـ) الذي كان يخطب بالقلعة بحلب على أيام نور الدين محمود بن زنكي، ثم ولي خزانة الكتب في أيام ولده الملك الصالح اسماعيل (انظر : إعلام النبلاء للشيخ الطباخ٤/٤٤٣).

وروى ابن خلكان (ت٦٨١هـ) في ترجمة تاج الدين محمد الخراساني المسعودي (وفيات الأعيان ٤/٣٩٠) عن أبي البركات الهاشمي الحلبي قال :" لما دخل السلطان صلاح الدين إلى حلب في سنة تسع وسبعين وخمسمئة، نزل المسعودي المذكور إلى جامع حلب، وقعد في خزانة كتبها الوقف، واختار منها جملة أخذها، لم يمنعه منها مانع، ولقد رأيته وهو يحشوها في عِدْل".

كانت المساجد بما فيها من حلقات الدرس ومجالس الإملاء وخزائن الكتب هي التي تتولى مهمة التعليم خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة. ومنذ القرن الخامس الهجري ظهرت في البلاد الإسلامية بفعل عوامل شتى لامجال لذكرها هنا، مؤسسات علمية واضحة المعالم هي المدارس، أخذت تشارك المساجد في مهمة التعليم وتطويره، إلى جانب مهام أخرى (انظر : يوسف العش، دور الكتب العامة ص١٧٩ ـــ ١٩٠)، كما أنشئت بعض المدارس الخاصة للعناية بمذهب فقهي كمدارس الشافعية والأحناف والحنبلية وغيرها.

يذكر المؤرخون أن أول مدرسة بنيت في حلب هي المدرسة الزجّاجية التي تمّ بناؤها عام ٥١٧هـ. ومنذ ذلك الحين توالى بناء المدارس حتى كثرت كثرة مفرطة جعلت بعض المورخين يفردون الأبواب والفصول الطوال للحديث عنها في مصنفاتهم، كالذي فعله المؤرخ الحلبي عز الدين بن سدّاد (ت ٦٨٤هـ)، فقد أفرد الباب الثاني عشر من الجزء الأول من القسم الأول (ص٢٣٩ ـــ ٢٨٧) من كتابه : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء

الشام والجزيرة للمدارس التي في ظاهر حلب وباطنها، كالمدرسة الزجاجية والصاحبية النقزية النورية والظاهرية والرواحية والشعبية والشرفية والبدرية والحلوية والشاذبختية والجادلية والسيّفية والكمالية العديمية والأتابكية وغيرها.

ويذكر مؤرخ الشهباء الشيخ كامل الغزي (١٣٥١هـ/١٩٣٣) في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب (١/١٣٤) " أن مدينة حلب لم تزل تُبنَى فيها المدارس حتى بلغت نحو (٣٠٠) ثلاثمئة مدرسة عدا المساجد ودور الحديث وغيرها من الأماكن التي كانت تتفجر من خلالها ينابيع العلوم من منطوق ومفهوم، كما يتحدث المؤلفون عن الكتب والمكتبات التي وقفت على هذه المدارس كما يشيرون إلى ولع الحلبيين باقتناء الكتب ويذكرون أسباب عنايتهم بها. (انظر مثلاً : نهر الذهب ١/١٤٠وما بعدها) ولا يسعنا في هذه الندوة الحديث عن هذه المدارس وتلك المكتبات منذ القرن السادس الهجري حتى اليوم، وحسبنا أن نقف عند بعض هذه المدارس منذ نهاية الدولة السلجوقية مروراً بالزنكيين والأيوبيين والمماليك إلى مجيء العثمانيين عام ٩٢٢هـ. تاركين الحديث عنها منذ زمن العثمانيين إلى اليوم للأخ الاستاذ محمود فاخوري.

١ ــ المدرسة الزجَّاجية

كانت أول مدرسة في حلب، أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أُرتُق صاحبُ حلب سنة ٥١٧هـ. ويذكر المؤرخون أنه لما أراد باءها لم يمكنه الحلبيون من ذلك إذْ كان الغالب عليهم حينئذ التشيّع، فكان كلما بني فيها شيء بالنهار خرَّبوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك، فأحضر الشريف زهرة بن علي الإسحاقي الحسيني والتمس منه أن يباشر بناءها بنفسه ليكفّ العامة عن هدم مايُبنى فيها، فباشر الشريف البناء ملازماً له حتى فُرغ منها. وكان هذا الشريف من أكابر الأشراف وذوي الرأي والأصالة والوجاهة، مُقَدَّماً في بلده، يرجع الناس إلى أمره ونهيه. (الأعلاق الخطيرة ١/١/٢٤١). وتولى مشيخة هذه المدرسة والتدريسَ فيها كثير من العلماء الذين وقفوا كتبهم عليها، ويبدو أن هذه المدرسة استمرت في الحياة زمناً طويلاً، إذ تذكر مصادر القرن العاشر الهجري أن السيدة فاطمة بنتَ قريمزان المتوفاة سنة ٩٦٦هـ تولّت مشيخة هذه المدرسة بعد أن انتهت إليها رئاسة أهل زمانها بحلب. (انظر: محمد كرد علي: آثار الشهباء والفيحاء ص٥). وتشير

بعض المصادر أن محلها كان في الجلوم. (سلمان قطاية، مخطوطات الطب والصيدلة ص٥٥).

٢ ـ المدرسة الشرفية :

تقع وراء الجامع الكبير في سوق قاضي الحاجات. وهي من أقدم مدارس الشهباء، أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين عبد الرحمن بن عبد الرحيم، المعروف بابن العجمي (ت٦٥٨هـ)، وصرف عليها ما يزيد على أربعمئة ألف درهم، ووقف عليها أوقافاً جليلة، كما وقف عليها الكتب النفيسة من كل فن، من حديث وتفسير وفقه وغير ذلك، فمن كتبها : مسند الإمام الشافعي والأم، وكتبُ الأصحاب لتفسير التعلبي وغيره من التفاسير، والنهاية والحاوي الكبير، والإبانة والذخائر والشامل، وكانت المكتبة تضم أربعين نسخة من كتاب التنبيه للشيرازي، وجميع مؤلفات الإمام الغزالي. وكانت أسماء الكتب مثبتة في دَرْج كبير وهو لفافة تستخدم غالباً لحفظ عناوين الوثائق النفيسة، ضاع عندما دخل التتر حلب سنة ٦٥٨هـ. (الاعلاق الخطيرة ٢٥٨/١/١، ودور الكتب في حلب للطباخ ٣٠٣، وإعلام النبلاء له ٤٢٤/٤، ودور الكتب العامة للعش ٢٧٢).

٣ ـ المدرسة الحلوية وكانت تعرف بالنورية أيضاً :

وتقع قبالة الجامع الكبير من جهة الغرب. أصلها كنيسة بَنَتْها هيلانة أم قسطنطين .

وقد صيرها قاضي حلب أبو الحسن ابن الخشاب مسجداً هي وثلاث كنائس أخر، وذلك لما حاصر الفرنجة حلب في سنة ٥١٨هـ واستباحوها ونبشوا القبور بظاهرها وأحرقوا من فيها! ولّما ملك نور الدين محمود حلب وقف هذا المسجد- كان يعرف بمسجد السرّاجين ـ مدرسةً وجدّد فيه مساكن يأوى إليها الفقهاء سنة ٥٤٣هـ،ووقف عليها كتبه،كما وقف عليها كتبه أيضاً الفقيه أبو بكر بن أحمد الظاهر (ت٥٥٣هـ)، والمحّدث أبو بكر الرعيني (ت٥٦٣هـ). وآثار هذه المدرسة باقية حتى اليوم.(الأعلاق الخطيرة ٢٦٤/١/١، وإعلام النبلاء ٣٦/٤،ودور الكتب العامة للعش ٢٧٠).

٤ ـ عرفت الشهباء إلى جانب خزائن المساجد والمدارس خزائن خاصة للكتب اشتهرت بها بعض الأسر الحلبية مثل مكتبات بني الشحنة والعديم والخشاب وعبد الكريم ومكتبة ابن خطيب الناصرية ومكتبة القفطي، وغيرها.وسنكتفي بالوقوف عند مكتبة

القفطي التي أسسها أواسط القرن السابع الهجري وزير حلب القاضي الأكرم جمال الدين يوسف بن ابراهيم القفطي المصري الحلبي (ت٦٤٦هـ). كان هذا القاضي ــ كما يصفه مترجموه ــ من هواة الكتب وعشاقها المتفانين في حبها الحريصين على اقتنائها، فجمع من الكتب ما لا يوصف، وقُصد بها من الآفاق، وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم يكن له دار ولازوجة، وأوصى بكتبه لمكتبة الملك الناصر بحلب وكانت تساوي خمسين ألف دينار، وله في غرامه بالكتب حكايات عربية.

قال الصفدي في تاريخه (المعروف بالوافي بالوفيات ــ الجزء الرابع من مخطوطات المكتبة الأحمدية بحلب ١٢١٦ تاريخ ، بنقل الطباخ : دور الكتب في حلب ص٣٠٢ ــ ٣٠٣) في ترجمة القاضي الأكرم :" وله حكايات عجيبة في غرامه بالكتب ، منها أنه وقع له نسخة مليحة من كتاب الأنساب لابن السمعاني بخطه، يعوزها مجلد من أصل خمسة، فلم يزل يبحث عنه ويطلبه من مظانه فلم يحصل له. فبعد أيام اجتاز بعضُ من يعرفه بسوف القلانسيين، فوجد أوراقاً منه فأحضرها إليه إليه وذكر القصة، فأحضر الصانع وسأله عنه فقال: اشتريته في جملة أوراق وعملته قوالب للقلانس، فحدث عنده من الهم والغم والوجوم ما لا يمكنهم التعبيرُ عنه، حتى إنه بقي أياماً لا يركب إلى القلعة وقطع جلوسه،وأحضَر من نَدَب على الكتاب كما يُندب على الميت المفقود..وحضر عنده الأعيانُ يسلونه كما يُسَلّى من فُقِد له عزيز. والحكايات الدالة على عشقه الكتب كثيرة".
(انظر في ترجمة القفطي : معجم الأدباء لياقوت ٨٩/١٥ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١١٧/٣، ومقدمة محقق كتابه أنباه الرواة على أنباه النحاة ٩/١ وما بعدها).

المراجع

١ ـــ آثار الشهباء والفيحاء، محمد كرد علي، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٩٢٦/٦م.

٢ ـــ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، لابن شداد، تحقيق يحي زكريا عبارة، وزارة الثقافة، دمشق١٩٩١.

٣ ـــ إعلام النبلاء، للشيخ راغب الطباخ، اعتنى به محمد كمال، الطبعة الثانية بدار القلم العربي بحلب ١٩٩٣.

٤ ـــ ابناه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠

٥ ـــ الانصاف والتحري لابن العديم، ضمن تعريف القدماء بآثار أبي العلاء، الدار القومية للطباعة القاهرة ١٩٦٥، وطبعة أخرى بعناية الشيخ راغب طباخ ضمن كتابه إعلام النبلاء، الجزء الرابع.

٦ ـــ بغية الوعاة، للسيوطي، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٤.

٧ ـــ دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، للدكتور يوسف العش، ترجمه عن الفرنسية نزار أباظة وحمد صباغ، دار الفكر بدمشق ١٩٩١.

٨ ت دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً، للشيخ راغب طباخ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد ١٥ (لعام ١٩٣٧).

٩ ـــ فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٧٣.

١٠ ـــ مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة بحلب، سلمان قطاية، جامعة حلب، معهد التراث العلمي ١٩٧٦.

١١ ـــ المخطوطات وخزائنها في حلب، محمد اسعد طلس، في مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة، المجلد ١ (١٩٥٥).

١٢ ـــ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، باعتناء محمد فريد الدين الرفاعي، دار المأمون القاهرة ١٩٣٦.

١٣ ـــ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.

١٤ ـــ المتنقي من تاريخ الإسلام للذهبي، مخطوطة الأحمدية بحلب ١٢١٩ (عن العش: دور الكتب).

١٥ـــ نهر الذهب في تاريخ حلب، للشيخ كامل الغزي، بعناية محمود فاخوري وشوقي شعث، ط٢ دار القلم العربي بحلب ١٩٩١..

١٦ ـــ الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، مخطوطة الأحمدية بحلب (عن الطباخ : ودور الكتب في حلب).

١٧ ـــ وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨ ـــ ١٩٧٢.

المكتبات في حلب
من العصر العثماني إلى اليوم

محمود فاخوري *

أولع الحلبيون - ولا يزالون - باقتناء الكتب وشرائها ، وتسابقوا إلى حيازتها وتجليدها وعمل خزانات لها ، ولا سيما إذا كانت تلك الكتب نادرة الوجود. وتعود أسباب ذلك إلى انتشار المساجد ذات المدارس ، وشيوع حلقات التعليم فيها ، والحرص على الفائدة العلمية في الأدب والتاريخ والفقه وغير ذلك من العلوم العربية والإسلامية . يضاف إلى ذلك قلّة النسخ المخطوطة من كل كتاب ، وحرص الأغنياء المَيْسورين على أن يكون لدى كل منهم مكتبة تزيّن بيته أو صدر مجلسه في المتجر ، فتكون مدعاةً للمباهاة والوجاهة .

ومن ثم اتسعت الحاجة إلى نسخ الكتب أو استنساخها،يقوم بذلك العلماء والأدباء بأنفسهم، أو يلجؤون إلى النسّاخ الذين يرتزقون من هذه المهنة .ومتى ما فرغ أحدهم من استنساخ مخطوطة دعا عدداً من العلماء والوجهاء إلى قراءتها ، ومع كل منهم نسختُه من ذلك الكتاب ليراجعها على النسخ الأخرى ، ويقرأ أحدهم مخطوطته بصوت عالٍ ، والآخرون يتابعونه في نسخهم المخطوطة ، مصححين ما قد يرد فيها من أخطاء يسيرة ، أو سقوط بعض الجمل والكلمات ، حتى ينتهوا من قراءة الكتاب في مجلس أو عدة مجالس .

ومع مجيء العصر العثماني في أواخر الربع الأول من القرن العاشر للهجرة (٩٢٢هـ) تكون حلب قد عرفت عدداً من المكتبات الإسلامية التي أسس بعضها في العصر المملوكي واستمر حتى العصر العثماني ، وبعضها الآخر عُرف في هذا العصر منذ البدء ، ومعظمها يُنسب إلى المساجد التي أُسست فيها مع المدارس أيضاً . ومن ذلك المكتبة القرناصية والسكاكينيّة ، والشرفيّة ، والإسماعيلية، والإخلاصية ، والمنصورية ، وغيرها .

---

* مدرس في كلية الآداب – جامعة حلب

على أن اشهر هذه المكتبات الإسلامية في العصر العثماني أربع :

أولاها: المكتبة الأحمدية :

في محلة الجلّوم (من القرن ١٧م) وواقِفُها القاضي أحمد أفندي بن طه زاده المتوفى ١١٧٧هـ، ومعها المدرسة الأحمدية التي كانت مستعملة مكتبةً لدائرة الأوقاف الإسلامية . وكان في هذه المكتبة نحو / ٣٠٠٠/ مخطوط . لم يبق منها سوى نصفها تقريباً. وكانت تفتح أبوابها يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع .

ومن مخطوطاتها النادرة : درّ الحبب لابن الحنبلي ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ الذهبي، ومرآة الزمان ، ومعظم كتبها في التفسير والحديث والفقه وأصوله والتصوّف والتاريخ، وتعبير الرؤيا ، واللغة والآداب والمنطق ، والبلاغة والنحو والصرف .

وثانيتها : المكتبة العثمانية (أو الرضائية) :

بناها مع المدرسة العثمانية عثمان باشا بن عبد الرحمن باشا ، وبناؤها كبير على النمط التركي الجميل ، وأكملت سنة ١١٤٣ هـ ويبلغ عدد مخطوطاتها / ١٥٠٠ / في علوم شتى . ومن مخطوطاتها كتاب (عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ) للسّمين الحلبي . وكانت تفتح أبوابها يوم الخميس من كل أسبوع . وامتدت إليها أيدي العابثين أيضاً . كما أفسدت الأمطار بعض كتبها .

وثالثتها : مكتبة الجامع الكبير :

المعروفة بمكتبة محمود أفندي الجزار (١٨٩٦ م / ١٣١٤ هـ) ، الذي وقفها على هذا الجامع ، وتضم نحو / ١٠٠٠/ كتاب ، ما بين مخطوط ومطبوع ، كما أن فيها كتباً فلكية ، وآلات فلكية متنوعة كالربع المجيَّب والمقنطر ، وأنواع الأسطرلابات... وتبعثر بعض كتبها . وجدّدت غير مرّة ، ومعظم كتبها في العلوم العربية والإسلامية والفارسية والتركية .

ورابعتُها : مكتبة التكية الإخلاصية :

تِنسب إلى الشيخ الصوفي إخلاص الخلْوتي نزيل حلب ١٠٤٤هـ والمتوفّى فيها ١٠٧٤هـ. بناها له الوزير الأعظم محمد باشا الأرناؤوط في عمارة متقنة على النمط التركي . وكانت هذه المكتبة حافلة إلا أنها تبعثرت.

وخامستها : المكتبة الصدّيقية :

وهي صغيرة تضم ١٧٦ مخطوطاً في العلوم العربية والإسلامية .

وقد جمعت دائرة الأوقاف الإسلامية شتات هذه المكتبات الخمس في مكتبتها الخاصة بها بفضل الشيخ راغب الطباخ ، وصدر مرسوم تشريعي برقم ١٤٧ وتاريخ ٢٠ حزيران من عام ١٩٤٩ يقضي بنقل جميع المكتبات وخزائن المخطوطات الموقوفة في مدينة حلب إلى دار الكتب الوطنية ، وجعل لكل منها فهرس خاص بمحتوياتها ، وكوّنت لجنة خاصة من أجل ذلك ، وتمّ نقل المكتبة إلى دار الكتب الوطنية ، و ، وبعد أربعة أشهر صدر مرسوم آخر بإعادتها إلى دائرة الأوقاف الإسلامية لتكون تحت إشرافها [1] واستمرت على ذلك حتى تمّ نقلها مؤخراً إلى مكتبة الأسد ، ويبلغ عدد كتبها نحو ستة آلاف مخطوط . أما المطبوعة وعددها نحو / ٣٠٠٠/ فقد بقيت في المكتبة الوقفية.

هذه المكتبات الوقفية التي كانت مودعةً في المساجد تعرضت لأيدي العابثين ونصوص الكتب الذين نهبوها وباعوها بأبخس الأثمان.

وبعضها انتقل إلى أوربا بوسائل مختلفة ، عن طريق المستشرقين وغيرهم ، فقد جاء في مجلة المقتطف (السنة ٤١ ، ص ١٤٩ أن الرحالة (بَرْكهره) زار حلب وكتب إلى اللجنة التي أوفدته لشراء مخطوطاتٍ من حلب : أرسلتُ إليكم صندوقاً كبيراً من المخطوطات .

ويذكر كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي) ص٦٢١ أن المستشرقين (بوكوك Pococke) و(كوليوس Colius) عاشا في حلب في القرن السابع عشر، وهما مؤسسا الاستشراق في أوربا ، ويتبين من مجموعة مخطوطات (كوليهوس) الموجودة في (ليون) بهولندا أن الأهم منها أتى به من حلب .

---

(١) وعين لها من يحفظها ويقدّمها للمطالعين عامةً ، وصارت بذلك مكتبةً عامة .

ويضيف كراتشكوفسكي قائلاً : ثم إن من الملاحظ أن أفضل مخطوطات روسو Rousseau التي تزّين معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم السوفيتية جُلب من حَلب .

ويذكر الغزي في نهر الذهب أنه منذ الصبا حتى الآن رأى تجّار الكتب المخطوطة يترددون إلى حلب ويملؤون الصناديق الكثيرة من مكتباتها ، عدا ما يختطفه السيّاح وسماسرة المستشرقين من أيدي البسطاء بأبخس الأثمان .

إلى جانب المكتبة الوقفية،بقيت هناك مكتبة أخرى قائمة وحدها هي(المكتبة الخسروية) التي تقع اليوم في الثانوية الشرعية التي كانت تدعى(الكلية الخسروية).وهذه المكتبة تضم كتباً مخطوطة وأخرى مطبوعة،ونقلت إليها مكتبة الجامع الكبير في بعض السنوات،كما أهدي لها كتب كثيرة، وجرى إصلاحها ومحاولات ترتيبها غير مرة لتكون مكتبة عامة،ولتكون في مقدمة المكتبات الإسلامية،وتبرع لها بعضهم بكتب نفيسة،وفي مقدمتهم محمد مرعي باشا الملاح حاكم حلب العام (في أيام الغزي)،كما جددت في مطلع القرن العشرين . ولكنها لا تزال على حالها لا يستفاد منها كثيراً .

لقد أدّت هذه المدارس الإسلامية دوراً بارزاً في تيسير القراءة و المطالعة والدرس لطلاب العلم خاصة ، وإن كان جمهور الناس لا يكادون يستفيدون منها شيئاً .



ننتقل الآن إلى المكتبات المسيحية التابعة لطوائفها فنذكر أشهرها في العصر العثماني وما بعده:

أولاها : المكتبة المارونية :

أنشأها مطران حلب حرمانوس فرحات في أوائل القرن الثامن عشر ، وتقع في حارة الصليبة (في قاعة دار المطران القديمة) ، وهي في المرتبة الأولى من مكتبات المسيحيين في حلب ، تضم كتباً مخطوطة ومطبوعة ، ويبلغ عدد مخطوطاتها نحو / ١٥٠٠ / في لغات مختلفة وعلوم شتى ،ولاسيما المخطوطات السريانية . وضمّت إليها مكتبات بعض الرهبان الموارنة ، ومن مخطوطاتها : شرح المقامات للشريشي ، وشرح الألفية لابن

المصنف ، ودمية القصر للباخرزي ، وسانحات دُمى القصر لدرويش الطـالوي .وتكـاد فائدتها تقتصر على أبناء طائفتها .

وثانيتها : المكتبة الملكية للروم الكاثوليك :

تعود مع كنيستها إلى منتصف القرن التاسع عشر . فيها كتب مطبوعة ومخطوطة. وعدد المخطوطات نحو / ٢٠٠ / كتاب

وثالثتها: مكتبة كنيسة الروم الأرثوذكس :

في حارة الصليبة مع الكنيسة . وتضم هذه المكتبة نحو /٥٠٠ / كتاب مـا بـين مطبوع ومخطوط ، في علوم شتى ،والمطبوع أكثره باللغة اليونانية . والباقي باللغة الفرنسية أو العربية . ومن كتبها المطبوعة نسخة إنجيل طبعت في مطبعة هذه الطائفة في حلب سـنة ١٧٠٦ م/ ١١٢٦هـ .

ورابعتها : مكتبة كنيسة الأرمن :

في حارة الصليبة . وهذه المكتبة حافلة بالكتب التاريخية والدينية باللغة الأرمنيـة. منها نسخة إنجيل مخطوطة حُررت في حلب ، فيها صور مرسومة باليد بمداد ذهبي غايـة في الجمال ، وتاريخها سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م . مما يدل على رقي صنعة التصوير في حلـب يومئذ.

وخامستها : المكتبة الروحية:

وهي حديثة النشأة ، وتقع في محلة العزيزية ، ويغلب عليها الصبغة الدينية ، مـع كتب أخرى في علوم شتى من أدب ونحو وتاريخ . وكلها مطبوعة .



أما المكتبات الرسمية العامة فأبرزها اثنتان :

أولاها: مكتبة دار الكتب الوطنية : افتتحت سنة ١٩٣٧ م.

ثانيتها: مكتبة المركز الثقافي العربي : بالعزيزية، قرب المنشية القديمة، وهي حديثة النشأة، وجاء إنشاؤها لتكون رديفاً لدار الكتب الوطنية من حيث الدور الثقافي،في المطالعة والمحاضرات وما إلى ذلك

وهناك المكتبات الرسمية في مؤسسات الدولة المختلفة ، أذكر منها :

١- **مكتبة المتحف الوطني بحلب**: وهي مكتبة ضخمة ، يغلب عليها الكتب المتعلقة بالآثار والتاريخ . وتضم كتباً باللغة الفرنسية أيضاً .

٢- **مكتبات جامعة حلب**:

١-**المكتبة المركزية** : حديثة النشأة ، على ضخامتها ، وتُغذى بالكتب المتنوعة من مختلف العلوم والفنون.

٢-**مكتبة كلية الآداب** : أنشئت عام ١٩٦٦ حين أسست كلية الآداب وخلال السنوات المتعاقبة أضيف إليها كتب كثيرة شراءً (مكتبة العتقي والكيالي والصقّال... الخ) أو هبة وهدية (مكتبة الدهان ، ومكتبة الصابوني).

٣-**مكتبة معهد التراث العلمي العربي:**

٤-**مكتبات الكليات الأخرى في جامعة حلب** ، وهي أقرب إلى التخصيص بحسب الكلية المَعنيّة (من هندسة،أو زراعة،أو طب ...... الخ) .

٣ - **مكتبات بعض الثانويات القديمة في حلب**:

آ- مكتبة ثانوية المأمون: عامرة ، متنوعة ، باللغتين العربية والفرنسية.

ب - مكتبة إعدادية سيف الدولة : فيها كتب نادرة.

ج - مكتبة كل من دار المعلمين ، ودار المعلمات، (كانتا عامرتين منذ عقدين أو ثلاثة).

د - مكتبة مديرية التربية : مقرها في مبنى مديرية التربية،غايتها تزويد المعلمين وموظفي التربية بالمصادر اللازمة للدراسة والبحث .

هـ - مكتبة نقابة المعلمين (فرع المدينة) : فيها كتب قديمة وجيدة، ولكن لا يستفاد منها كثيراً .

أما المكتبات الخاصة فهي كثيرة جداً ، منها ما أنشأها أشخاص منذ سنوات طويلة، وبقيت في كنف أفراد أسرة صاحبها ، ومنها ما يملكها أفراد قائمون عليها . وبعض مكتبات الأسر انقرضت ولا يُعلم أثرها .

وكانت هذه المكتبات ، القديمة منها ، قليلة العدد نسبياً ، لا تتعدى رفوفاً قليلة ، تكوَّم الكتب فيها - فيما يسمى بالكُتْبيّة - بعضها فوق بعض ، لحفظها من الغبار بشكل أفضل ، أو لضيق المكان ، وتكتب عناوينها على جانب الكتاب بحبر أسود عريض القلم. وقد يتعذّر إخراج الكتاب السفلي بسهولة.

فمن مكتبات الأسر المفقودة، التي كانت تملكها أُسرٌ علميّة من أجلّ بيوتات العلم في حلب : مكتبة بني الشحنة، ومكتبة بين العديم ، ومكتبة بني الخشّاب ، وخزانة بني الأنطاكي .

وأما مكتبات الأفراد فمنها :

١- **مكتبة تكية الشيخ أبي بكر :** أسسها في أوائل القرن ١١هـ الشيخ أحمد القاري ، في مختلف العلوم والفنون . وبقي بعض كتبها إلى أواخر القرن ١٩ م ورأى الطباخ بعض كتبها المتبقية ووصفها .

٢- **مكتبة أحمد الأشرفي :** (١٨١٣ م)

٣- **مكتبة الشيخ محمد الأهدلي اليماني :** (١٨٧٦ م) الذي كان لا يقبل من أحد إنعاماً إلا إذا كان كتاباً

٤- **مكتبة محمد أسعد باشا الجابري :** (-١٩١٥م)

٥- **خزانة مرعي باشا الملاح :** حاكم حلب .

٦- **مكتبة الخور فسقفوس جرجس شلحت** (-١٩٢٨م)

٧- **مكتبة قسطاكي الحمصي** (١٩٤١ م) وأضاف إليها مكتبة خاله جبرائيل الدلال .

٨- **مكتبة الأديب الفاضل أسعد العنتابي** : التي كانت تضم أول تأسيسها /٢٠٠٠/ مجلد ، من مخطوط ومطبوع ، والمطبوع هو الغالب ، وقد آلت إلى ولديه : الصديق الأستاذ سامي ، وأخيه المرحوم فؤاد .

٩- وفي أيامنا هذه كثرت المكتبات الخاصة،أذكر منها.مكتبات:صاحب الضاد عبد الله حلاق،ود. عبد الرحمن الكيالي، وفتح الله الصقال، وناصح الشماع، وسامي الدهان التي تبرّعت بها أسرته لكلية الآداب بجامعة حلب ، وسامي الكيالي، ورمزي الدهان، وخير الدين الأسدي ، ود. صالح الأشتر ، ومكتبة محمد سعيد الزعيم، وغيرهم . وهذه المكتبات تصعب الإحاطة بها ، وقلّ أن ترى باحثاً (من أساتذة الجامعة والأطباء والمهندسين والمحامين ومن إليهم) لا مكتبة لديه .

وهذه المكتبات كلها كان لها أثر في الحركة الأدبية المعاصرة وتغذية العقول بألوان المعارف والثقافات ، ولا شك أن هذا الجو العلمي والثقافي الذي رافق إنشاء المكتبات الخاصة والعامة ، والوقفية وغيرها ، كان له آثاره الملموسة فيما شهدته مدينة حلب من يقظة أدبية ونهضة ثقافية استمرت سنوات طويلة ، وعادت اليوم إلى النهوض والامتداد.

المصادر والمراجع

١– تاريخ الأدب الجغرافي — كراتشكوفسكي
٢– الحركة الفكرية في حلب — عائشة الدباغ
٣– حلبيات — عبد الله يوركي حلاق
٤– الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر — فريد جحا
٥– مجلة العمران — (عدد خاص عن حلب)
٦– محاضرات في الأدب العثماني — محمود فاخوري
٧ ـ نهر الذهب في تاريخ حلب — الشيخ كامل الغزي

المكتبات في حلب

د. سهيل ملاذي *

اهتم الحلبيون منذ القديم باقتناء الكتب والمخطوطات النادرة ، وبذلوا أموالاً كثيرة في شرائها واستنساخها وجمعها في خزائن كتبهم .

ويعزو الشيخ كامل الغزي شدة ولعهم بها ، إلى تعطشهم لورود مناهلها ، والاستزادة من معارفها ، أو حرصهم على تزيين منازلهم بخزائنها الجميلة ، أو لأنهم ينظرون إليها نظرة قدسية، لاعتقادهم بأنها فأل حسن يجلب الغنى .

اعتبرت حلب مركزاً مهماً للمخطوطات ، إلى جانب دمشق وبغداد والقاهرة وتونس وشنقيط وغيرها. وقد دعم هذه المكانة موقعها التاريخي وأهميتها الثقافية والفكرية المتميزة .

وقد عرفت حلب كيف تستفيد من هذا الكنز التراثي . لتعزيز قيمها الفكرية . فخزائن الكتب التي يملكها الخاصة ، متاحة لطالبي العلم والمستزيدين منه.

وثمة مكتبات أخرى أكثر أهمية ، لأنها مفتوحة لطلاب العلم ولعامة الناس ، هي المكتبات التي تحتويها المدارس الدينية . وقد جمعت في المكتبة الوقفية .

والمكتبة الوقفية تقوم الآن في بناء المدرسة الشرفية ، التي أنشئت عام ٦١٥ هـ ، وكانت تضم عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ، مع بدء الحكم العثماني ألفاً ومائة كتاب .

في عام ١٩٤٩ جمعت كتب المدرسة الشرفية مع كتب المدارس الدينية الأخرى في دار الكتب الوطنية ، ثم أعيدت جميعها في العام التالي ١٩٥٠ إلى المدرسة الشرفية تحت اسم المكتبة الوقفية ، وأصبحت تضم إلى جانب مخطوطات دار الكتب الوطنية ، البالغة مئتين وسبعين مخطوطاً ، مخطوطات المدارس الدينية في حلب ، فبلغت (٥٢٤٠) مخطوطاً .

وهذه المكتبات هي:

١- **المكتبة الأحمدية** : التي أنشأها الشيخ أحمد طه زاده الحلبي في القرن الثاني عشر الهجري ، ووقف عليها ما يزيد عن ثلاثة آلاف مجلد. لكن هذا العدد تضاءل كثيراً نتيجة الإهمال ، إلى أن أصبح ألفاً وأربعمائة واثنين وسبعين كتاباً في عام ١٩٤٩.

---

* مدير الثقافة في دمشق .

٢- **المكتبة العثمانية أو الرضائية** : أنشئت عام ١١٤٠ هـ ، وكان عدد كتبها أواخر القرن التاسع عشر ألفي مجلد ، لكن هذا العدد تناقص أوائل القرن العشرين إلى ١٥٥٧ ، ثم إلى ١٥٠٠ ، ثم إلى ١٢٤٢ ، ثم إلى حوالي ١١٠٠ مجلد.

٣- **المكتبة الصديقية**:وقد وقف عليها منشئها الشيخ أحمد الصديق عدداً من المخطوطات، تقلص إلى مئة وستة وسبعين في عام ١٩٤٩ .

٤- **المكتبة الرفاعية الإخلاصية** : تقلص عدد كتبها إلى مئة وتسعة عشر كتاباً عام ١٩٤٩ ، وكانت قد أنشئت في محلة البياضة عام ١٠٤٤ هـ.

٥- **المكتبة الخسروية المولوية** : وقد ذكرت السالنامة (١٣٢١ هـ) أن عدد كتبها هو ١٢٢٨ كتاباً،في حين تنقص فهارس المكتبة الوقفية هذا العدد إلى (٩٢٦)كتاباً عام ١٩٤٩.

وقد أضيفت إلى مخطوطات المكتبة الوقفية مخطوطات نفيسة أخرى كخزانة ضريح الشيخ أبو بكر الوفائي ، المعروفة بخزانة التوبة والزاوية الوفائية ، وفيها يقول الشيخ راغب الطباخ (إعلام النبلاء ٦/ ١٣٠):

"لقد بغت بها أيدي العابثين فمزقتها كل ممزق، شأن المكاتب الكثيرة التي كانت في مدارس الشهباء وجوامعها وتكاياها ، وقد تبقى منها بغية قليلة موضوعة في خزانة صغيرة"

هذه الخزانة تحولت إلى المدرسة الخسروية ثم إلى المكتبة الوقفية .

ومنها خزانة الجامع الأموي الكبير ، وقد ذكر الذهبي في تاريخ الإسلام ، أن فيها عشرة آلاف مجلدة ، وقفها سيف الدولة الحمداني .

لكن هذه الخزانة ، ظلت عرضة للتلاعب والضياع والظروف السياسية المتتالية فلم يغد فيها مطلع القرن العشرين ، سوى خزانة كتب وقفها الوجيه الحلبي محمود الجزار ، وكانت حوالي ألف مجلد مخطوط ومطبوع ، هذا العدد تضاءل عام ١٩٠٢ إلى ٨٠٧ ، ومازال يتناقص ويتوزع عند من يستعيرها ولا يردها، حتى تبعثر أكثرها وضاع ، إلى أن نقلت بقيتها إلى المدرسة الخسروية ، ثم إلى المكتبة الوقفية.

ومنها خزانة جامع الكواكبي ومدرسته ، وقد تبعثرت كتبها إهداء وإعارة إلى أن نقلت بقيتها إلى المدرسة الخسروية ، ثم إلى المكتبة الوقفية.

ومنها خزانة الزاوية المولوية ، في التكية التي أسسها المتصوفة في محلة الجلوم عام ١٠٩٢ هـ، ولم تكن أحسن حالاً من مثيلاتها ، فقد تبعثرت ذخائر مخطوطاتها ، إلى أن نقل ما تبقى منها إلى المكتبة الوقفية .

وفي الجلوم أيضاً كانت خزانة الزاوية الهلالية ، وقد ضمت بقية مخطوطاتها إلى المكتبة الوقفية .

وفي الفرافرة أنشأ منصور السرميني المدرسة المنصورية سنة ١٢٠٣ هـ . وقد أهملت خزانتها ، ولم يبق من كتبها سوى النزر اليسير .

ومن الخزائن التي نقلت بقيتها إلى المكتبة الوقفية ، خزانة عبد القادر الجابري ، وكانت تحتوي حوالي ٦٠٠ مجلد في عام ١٣٤٥ هـ . وخزانة المدرسة القرناصية ، وكانت تحتوي حوالي ٥٠٠ مجلد ، والسكاكينية ، والإسماعيلية ، وعدد كتبها المنقولة (١٥) . والبهائية ، وعدد كتبها (٠٧) (سالنامة: ١٣٢١ هـ : ٢٢٣) .

وقد بلغ عدد الكتب التي احتوتها المكتبة الوقفية زهاء أثني عشر ألف كتاب منها حوالي أربعة آلاف مخطوطة، على رواية الدكتور محمد أسعد طلس (مجلة معهد المخطوطات العربية م١-ج١- ص١٦) .

وهذا العدد يؤكده فؤاد سزكين (تاريخ الأدب العربي - الطبعة العربية. ج١- ص٩٦). أما الدكتور عبد الرحمن الكيالي ، فيفصل عدد المخطوطات عام ١٩٤٩ على الشكل التالي :

الأحمدية (١٤٧٤ - العثمانية (١٦٠٠) - الشرقية (١٥١٢) - الخسروية والمولوية (٨٩٥)- الصديقية (١٧٦) - الرفاعية (١١٩) - فيكون المجموع (٥٧٧٦) ، أضيف إليها (٢٦٩) مصحفاً ، و(١٢٠) جزءاً ، و(٣٠٠٠) مجلد مطبوع (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - مج ٦٤ - ج ٤ : ص٦٧٥). ينقص د. عبد اللطيف الصوفي هذا العدد إلى (٥٥٦٠) مخطوطاً (لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات : ص ٣٤٩).

ويجعل الشيخ أحمد سردار أمين المكتبة عدد هذه المخطوطات (٥٢٦٦) وقد يكون الاختلاف الظاهر في عدد المخطوطات ، عائداً إلى طريقة العد والإحصاء والفهرسة، فقد يعطى مخطوط واحد في أكثر من جزء رقماً واحداً أو يحسب عدد أجزائه ومجلداته - ٣

ومن الملاحظ :

١- أن عدد المخطوطات في هذه المكتبات كان في تناقص مستمر لأسباب عديدة ، منها التقلبات السياسية المستمرة ، وما رافقها من أحداث وحروب ، ومنها الكوارث الطبيعية كالزلازل (مثال الخسروية-زلزال ١٢٧٣ هـ).أو نقل محتويات المكتبة من مكان لآخر (مثال المدرسة الشرفية- ونقلها زمن غزو التتار عام ٦٥٨هـ) ، ومنها إهمال القيمين عليها ، وتهاونهم في إعادة محتوياتها .

٢- معظم محتويات الخزائن مخطوطات نفسية في الطب والفقه والحديث والفرائض والتفسير والوعظ والنمو والصرف والبلاغة واللغة والأدب والتاريخ وعلم الكلام والتصوف والرياضيات والفلك ، وباللغات العربية والتركية والفارسية والكردية. وكانت تأتي وقفاً أو شراء أو إهداء أو تأليفاً من العلماء الذين يجاورون أو يدرسون في المدارس .

٣- أبواب المكتبات مفتوحة لطلاب العلم أياماً محددة في الأسبوع ، ولكل منها نظام خاص . للإعارة الداخلية والخارجية ، للطلاب والمجاورين والعلماء والعموم.

٤- الترميم الفنّي ليس متوفراً ، وكان يتم أحياناً وعند الضرورة بإشراف المتولي والناظر .

المخطوطات في مكتبة الأسد الوطنية

تحتل المخطوطات مكانةً خاصةً بين المجموعات الخاصة التي تضمها مكتبة الأسد وذلك لأهميتها التاريخية الفائقة ، وما تحويه من مضامين فكرية ، ولأهميتها كمصادر لدراسة الثقافة العربية الإسلامية، وكوثائق لدراسة تاريخ العلم والتربية في بلاد الشام.

وقد تمّ نقل المخطوطات المحفوظة في مكتبة الأسد من عدد من المكتبات القديمة في سورية وهي:

١- المكتبة الظاهرية	١١٩٠٤	مجلد
٢- المكتبات الوقفية في حلب	٥٦٦٥	مجلد
٣- المراكز الثقافية (حماة وسلقين)	٧٧٢	مجلد
٤- مديرية الآثار والمتاحف	٢٣٩	مجلد

أما العدد الإجمالي لها فيقرب من ٢٠,٠٠٠ عشرين ألف مجلد

وتعنى مديريتان من مديريات المكتبة بهذه المخطوطات ، وهما مديرية المخطوطات والكتب النادرة ، وهي مسؤولة عن حفظ المخطوطات ، وعن إعداد الفهارس الوضفيّة لها، والمديرية الثانية هي مديرية المطابعة والتجليد والترميم وتتحمل عبء العناية المادية بالمخطوطات ، فقسم الصيانة فيها يقوم بتعقيم المخطوطات وترميمها ، أمّا قسم التصوير فيقوم بإنتاج الوثائق البديلة للمخطوطات بأشكال مختلفة (ميكروفيلم - ميكروفيش - فتوكوبي) كما يشرف القسم على استفادة القراء من المصغرات العلمية في المكتبة بوساطة أجهزة القراءة ، ويقوم بتزويد الباحثين بصور المخطوطات عند الطلب .

وقد رصدت الإمكانات اللازمة لتقوم المكتبة بدورها في حفظ التراث المخطوط في سورية والترف به وقد نقلت هذه المخطوطات إلى مكتبة الأسد لأنّ المكتبات العامة القديمة التي كانت تحتفظ بهذا التراث لم تكن تملك إمكانية متابعة المحافظة عليها ، وذلك من حيث أبنيتها التي لم يراع عند إنشائها أن تؤدي وظيفة مكتبية ، وقد نقلت إلى المكتبة الوطنية العصرية بعد أن هُيّئت لها الشروط الضامنة لاستقبالها كي تلق العناية من صيانة وتعقيم وترميم وحفظ في مستودعات نظامية ، وكذلك لاستكمال وضعها في فهارس علمية تعرف بها وتبذل الاستفادة منها للباحثين والدارسين .

إنّ هذه المخطوطات محفوظة في أربعة مستودعات خاصة روعي عند إنشائها حماية محتوياتها من الحريق والطوارئ الخارجية ، التي يمكن أن تضرّ بها، فهي معزولة عن أشعة الشمس، وقد زودت بأبواب مقاومة لدرجات الحرارة المرتفعة تحسباً للحرائق ، ودرجات الحرارة والرطوبة فيها مثالية فالحرارة لا تتجاوز ٨١ درجة مئوية ، والرطوبة النسبية لا تزيد عن ٥٥ % وقد زودت بأجهزة إنذار الحريق وأجهزة إطفاء خاصة .

استطاع قسم التصوير أن يعد خلال الأعوام السابقة وثائق بديلة لما يزيد عن١٢,٠٠٠ اثني عشر ألف مخطوطاً وقد تمّ اختيارها بعناية فائقة من بين المجموعات التي تحتفظ بها مكتبة الأسد لإتاحة الفرصة أمام القراء والباحثين للاستفادة منها . لأن أنظمة المكتبة لا تسمح باستخدام المخطوط الأصلي أو الاستنساخ منه ، بغية المحافظة عليه ، ويمكن في حالات خاصة الاطلاع على المخطوط لقضايا فنية تتعلق بطبيعته المادية . وذلك حرصاً على خدمة المتخصصين بلغ عدد المخطوطات الحلبية المصورة (٢٥٠٠) مخطوط .

وفي مجال تعقيم وترميم المخطوطات ، فقد امتلك قسم الصيانة في المكتبة خبرات جيدة ، وهناك دورات داخلية لعمال هذا القسم (وعددهم ١٣ مرمماً) جرت بالاعتماد على خبراء استضافتهم المكتبة من الاتحاد السوفياتي (السابق) وتركيا ، وألمانيا ، والهند ، وفرنسا.

وقد بلغ عدد المخطوطات المعقمة حوالي ١٨ ألف مخطوط . أما طاقة القسم في ترميم المخطوطات فتصل إلى حوالي مئة مجلد في العام ، يتم انتقاؤها حسب الأهمية ودرجة الإصابة ، ويشمل الترميم هنا كلّ عناصر الكتاب المخطوط ورقاً وغلافاً . (بلغ عدد المخطوطات الحلبية المرمّمة . ٧ مخطوطاً)

(أغلب المخطوطات الحلبية في حالة جيدة وهي أفضل وضعاً من مخطوطات الظاهرية ومخطوطات حماة).

فهرسة المخطوطات:

إنّ العدد الأكبر من المخطوطات التي نقلت إلى مكتبة الأسد لم يكن سابقاً قد وصف في فهارس مطبوعة وقد تطلب ذلك ضرورة استكمال الفهارس لما يزيد عن ٢١,٠٠٠ مجلداً ، وقد استطاع قسم الدراسات في مديرية المخطوطات عند نهاية عام (١٩٩٢) فهرسة المخطوطات التي لم توصف سابقاً في الفهارس المطبوعة، وإنّ أكثر من أربعة عشر آلف بطاقة تحمل وصفاً كاملاً للكتب والرسائل التي تضعها هذه المجلدات ويتضمن هذا الوصف :

١- رقم الحفظ - تبدأ المخطوطات الحلبية اعتباراً من رقم عام ١٣٠١١

٢- عنوان الكتاب ، أو الرسالة كما سماها مؤلفها في مقدمته ، أو في نهاية كتابه مع الإشارة إلى ما اشتهر به الكتاب أو الرسالة من عناوين أخرى

٣- اسم المؤلف الثلاثي مصحوباً بكنيته ولقبه ، وشهرته ومذهبه وسنة وفاته بالتاريخين الهجري والميلادي .

٤- ذكر بداية الكتاب ونهايته ، وذلك بانتقاء الجملة والعبارات التي تؤكد صحة البيانات المتعلقة بالعنوان ونسبته إلى مؤلفه ، والتي تحدد أيضاً مقاصد المؤلف وأغراضه أو التي تشير إلى تمام الكتاب أو خرومه .

٥- وصف الحالة الراهنة للمخطوطة ، وما أصابها من تآكل ، أو تمزق أوترميـــم ، أو رطوبة أو خروم مع ذكر السماعات والإجازات والمقابلات وقيود التملك وتاريخها إن وجدت ووصف الغلاف وزخارفه.

٦- تحديد نوع الخط وميزاته ، وتقدير تاريخ النسخ إن لم يكن المخطوط مؤرخاً وذكر ألوان الأحبار المستخدمة لكتابة عناوين الأبواب والفصول وغير ذلك .

٧- تحديد عدد الأوراق وذكر مكانها من المجلد إن كان مجموعاً يضمّ رسائل متعــددة ، وذكر عدد الأسطر وقياسها طولاً وعرضاً وما إلى ذلك .

٨- ذكر مصدر المخطوط إن لم يكن من مخطوطات الظاهرية لأن مخطوطات الظاهريـــة حفظت بأرقامها العامة في المكتبة من رقم ١ إلى ١١٩١١٠

ويتوافر الآن في المكتبة فهرس رقمي يضمّ بطاقات الوصف الأساسية من رقـــم ١- ٢٠,٠٠٠ وفهارس بالعنوان والمؤلف والموضوع وضعت تحت تصرف الباحثين .

كما صدرت المجموعة الأولى من الفهارس المطبوعة (٥ أجزاء) تخص القرآن الكـريم وعلومه وسيتم العمل في الموضوعات الأخرى بالطريقة نفسها .

وهناك فهرس إلكتروني قيد الأعداد وقد أدخلت المعلومات المتعلقة بحوالي ٢٤ ألـف بطاقة فيه وسيمكن الباحثين عند اكتماله من البحث فيه عبر شبكة المعلومات الوطنيـــة في سورية ، وإمكانات البحث فيه كبيرة جداً وتتعلّق بالموضوع والعنوان والناسخ وتـــاريخ النسخ والمؤلف وغر ذلك .

مازال يطلق على مخطوطات حلب اسم المخطوطات المحفوظة في مكتبة الأســد ، لا مخطوطات مكتبة الأسد، وهذا يدل على أنها ستبقى أمانة في مكتبة الأســـد إلى أن يتـــم استردادها، وإلى أن تعود إلى موطنها ، فإن مكتبة الأسد تقوم بالفهرسة البطاقيـــة مـــع الإشارة إلى مصدرها . والفهرسة الإلكترونية ، مع ذكر أرقامها السابقة ، وبعد الانتــهاء من ذلك ، سترد في " تاريخ المخطوطات وأهمها " وخصوصاً مخطوطات حلب .

قراءة في كتاب

"الشرق الأوسط عشية الحداثة: حلب في القرن الثامن عشر"

The Middle East on the Eve of Modernity: "Aleppo in the Eighteenth century"

الدكتور: أحمد أديب شعار *

١ ـ مقدمة وتعريف:

في عام ١٩٨٩ صدر عن مطبعة جامعة كولومبيا في ولاية نيويورك الأمريكية، كتاب " الشرق الأوسط عشية الحداثة: حلب في القرن الثامن عشر" للباحث الأمريكي أبراهام ماركس Abraham Marcus الذي يعتقد أنه يهودي من أصل حلبي. يعمل المؤلف مدرساً في جامعة تكساس الأمريكية. ساهم في تمويل الكتاب، كل من معهد الشرق الأوسط في جامعة كولومبيا والهيئة القومية (الأمريكية) للمنح الخاصة بالدراسات الإنسانية.

تهدف قراءتنا إلى تحقيق هدفين أساسيين : أولهما استعراض الكتاب بشكل سريع وذلك بعد توضيح الهدف من الكتاب وكذلك توضيح سبب اختيار المؤلف للفترة التي يغطيها الكتاب، ثم استعراض النتائج التي وصل إليها المؤلف. أما الهدف الثاني فهو تقييم المنهجية العلمية للمؤلف وتقديم خلاصة قراءتنا الأولية للكتاب.

ترجع أهمية الكتاب بالنسبة إلى:

أولاً ـ غنى المعلومات والمراجع الواردة فيه والتي حاول فيها المؤلف رسم مشهد شامل للمجتمع الحلبي في القرن الثامن عشر.

ثانياً ـ كشف الصور الناقصة والمنحازة في هذا المشهد وبالتالي فتح الباب أمام المهتمين بإكمال تلك الصور الناقصة وإصلاح تلك المشوهة.

قبل أن ننتقل إلى المقطع التالي أعتقد أنه يتوجب علينا أن نسأل عن الدافع وراء تمويل تأليف مثل هذا الكتاب عن فترة تاريخية قديمة وعن شعب بعيد عن الشعب الأمريكي حيث أنه وكما أشرنا أعلاه قد قامت هيئتان أمريكيتان بتمويل هذا الكتاب.

---

* أستاذ في جامعة حلب .

أعتقد أن الدافع هو المساعدة على تفهم الصورة الحالية والمستقبلية لواقع الشرق الأوسط. وقد وصف المؤلف صورة الشرق الأوسط الحالية بالقاتمة (غير الواضحة). وبالطبع فإن أي دراسة للماضي والحاضر ستساعد على التنبؤ بالمستقبل. وهذا ما دعا البعض إلى تسمية علم التاريخ بعلم المستقبل. لقد اختار المؤلف تغطية فترة القرن الثمن عشر بسبب أنها غير مغطاة سابقاً ولكونها إلى تسمية علم التاريخ بعلم المستقبل. لغة اختار المؤلف تغطية فترة القرن الثامن عشر لأنها غير الفترة التي سبقت فترة الحداثة في الشرق الأوسط. حيث يعتقد معظم المؤرخين الأوروبيين أن الحداثة قد بدأت في الشرق الأوسط منذ مطلع القرن التاسع عشر أي منذ بداية تسلم محمد علي باشا حكم مصر على شكل حكم شبه ذاتي وما تلى ذلك من محاولات لتحديث واقع مصر.

أعتقد أن تجربتنا مع مثل هذا الكتاب ستتكرر نتيجة ثورة الاتصالات التي جعلت من العالم كله قرية صغيرة خصوصاً في حال نجاح عملية السلام، حيث سينقلب تكتيك إسرائيل إلى حرب ثقافية تستهدف الهوية العربية.

١ ـ استعراض الكتاب:

يتألف الكتاب من مقدمة وتسعة فصول وخاتمة، كما يحوي ملحقاً عن تعداد السكان في مدينة حلب.

.نورد فيما يلي عناوين تلك الأقسام:

مقدمة

١ ــ **المكان** : الموقع والوعي المحلي ــ المدينة والإمبراطورية ــ الموقع ضمن المنطقة والهوية المحلية.

٢ ــ **الشعب** : المجموعات ــ الطبقات ــ التباين الاجتماعي = الهوية الدينية ــ التمايزات والتفاوت الاجتماعي ــ أسباب الوصول إلى المراكز العالية ــ التصنيف الطبقي والحركية الإجتماعية.

٣ ــ **النظام والفوضى**:السلطة، السياسات، القانون=الحكومة والسلطة المحلية ــ السياسات غير الواضحة والمتهاوية ــ القانون والمؤسسات القضائية ــ الممارسات القضائية وفرض القانون.

٤ ــ **الرفاهية الاقتصادية** : المصادر الخارجية للغنى ومورد الرزق = الصلة بمناطق الزراعة (الغذاء) ــ الصلة بمناطق الزراعة (المواد الخام والأمان) ــ نغمات التجارة المحلية الدولية.

٥ ــ **الرفاهية الاقتصادية** : السوق، الأسرة، الأعمال الخيرية = الشعب العامل ــ الصناعة، التجارة، قوانين السوق ــ الاستثمار والفقر ــ الرفاهية العائلية والمادية ــ الفقر والأعمال الخيرية.

٦ ــ **العقلية** : الديانة، التعليم، الثقافة الشعبية ــ الدين والمعتقد ــ الثقافة الشعبية ــ الأمية والتعليم العالي ــ الأفاق الذهنية والتأثيرات الخارجية.

٧ ــ **الجسم** : الصحة، المرض، والموت = المرض، الطاعون، ومعدل الوفيات ــ الظروف الصحية والعناية الطبية العيش مع ظروف الموت.

٨ ــ **المعيشة (الخبرة) المدينية** : الحيز، الخدمات، والروح العامة = استخدام الحيز وإدراكه ــ البناء والتطوير ــ الخدمات العامة والمؤسسات الملية Communal .

٩ ــ **المعيشة المدينية** : حياة الجوار والخصوصية الشخصية = بنية الأحياء ــ المعيشة مع الجوار.

الخُلاصَة:

ــ ملحق عن عدد سكان حلب.

ــ الملحوظات ــ لائحة المصطلحات ــ ثبت المراجع ــ الدليل.

٣ ـ تقييم الكتاب والكاتب:

١.٣ ـ المنهجية العلمية للكاتب:

سلك الكاتب في هذا الكتاب أسلوب البحث الموضوعاتي وليس أسلوب التسلسل التاريخي للأحداث قناعة منه بأن ذلك أفضل لاستنطاق الأحداث والصور التي عاشتها حلب خلال القرن الثامن عشر. يعتبر هذا الأسلوب مقبولاً عندما يكون الهدف هو دراسة التاريخ الاجتماعي العام وليس تقييم تسلسل أحداث حقبة تاريخية معينة. إذا رغبنا بتقييم المنهجية العلمية للمؤلف فيمكننا القول بأنه باحث ذو منهجية علمية أكاديمية راقية حيث نلاحظ أنه:

أ ــ فهم المطلوب منه وحلله بشكل جيد ونعتقد أن ما هو مطلوب منه: رسم صورة شمولية لمدن الشرق الأوسط في القرن الثامن عشر بهدف فهم أفضل لصورة الشرق الأوسط الحالية والتي وصفها المؤلف بالقاتمة، ولايخفى على أي منا أن فهم الماضي والحاضر يساعد على استشراف المستقبل.

ب ــ وضع خطة عمل منهجية لتحقيق هدفه تمثلت في اختيار الأسلوب الموضوعاتي والاعتماد على جميع المراجع التاريخية حول تلك الحقبة وخاصة سجلات المحكمة الشرعية آنذاك والتي كانت تقوم بمهام المحكمة الشرعية بالإضافة إلى الكاتب بالعدل والسجل العقاري ومديرية المساحة ومحاكم المخاصمة المدنية والتجارية. ويمكننا القول "إذا رغبت بالحصول على لائحه شبه كاملة عن حلب في القرن الثامن عشر فعد إلى لائحة مراجع ماركوس". نذكر هنا على سبيل المثال غنى المراجع أنه أيضاً استعان بالمراجع التاريخية التي تتحدث عن تاريخ المدن المجاورة في تلك الحقبة فقد استعان بكتاب البديري الحلاق : يوميات دمشق التاريخية.

ج ــ ترجم خطة بحثه إلى عمل دؤوب تمثل في قراءة المراجع وزيارة الأمكنة التاريخية ومقابلة ذوي الاهتمام بذلك الموضوع.

٢.٣ـ خلاصة قراءتنا الأولية النقدية للكتاب:

أ ــ يمكننا القول إن الكتاب استطاع أن يحقق ما هو المطلوب منه إلى حد كبير، بيد أن هنالك جوانب أخرى كثيرة لم يستطع أن يرسم صورها ضمن المشهد العام وهذا ما أقر به الكاتب في خلاصة كتابه.

ب ــ استطاع أن يفتح أفاقاً مخفية كبيرة يجدر بنا أن نغطيها.

ج ــ لم يستطع الكاتب كعادة معظم الأكاديميين اليهود أن يكون موضوعياً في كثير من الجوانب ذات الصلة من قريب أو بعيد باليهودية ولو أدى ذلك إلى الإساءة إلى الديانات والأمم الأخرى. كان الكاتب ذكياً في محاولاته لدس بعض السم في كتابه الدسم فقد لجأ في بعض الجوانب إلى الأسلوب الشمولي البانورامي في العرض والذي يذكر فيه أحداثاً عديدة قد تكون متناقضة حيث يستطيع القارئ أن يبني قناعات مختلفة عن قناعاتي المتعلقة بعدم موضوعيته في أمور عديدة. وبالطبع فإن هذا لا يخفى على القارئ المتمعن خصوصاً إذا انتبه إلى عوامل وزن كل حادثة وحديث.

أذكر فيما يلي بعض الجوانب التي شعرت فيها بأنه قد جانب الموضوعية:

I ــ مسألة التكوين العرقي لسكان حلب :

حاول المؤلف ضرب الجذور العربية لمعظم السكان العرب في مدينة حلب وبشكل غير مباشر من خلال التأكيد في عدة مواقع على أن سكان حلب هم من الناطقين بالعربية، كما أنه وأثناء سرده للجذور العرقية لسكان مدينة حلب كان يذكر جميع الأعراق (عرب ــ ترك ــ أكراد ــ بلغار ــ رومان ــ صرب ــ البان ــ يونان ــ كروات ... الخ) دون أن يذكر وبشكل واضح أن لهذه الأعراق أوزاناً متباينة جداً حيث كان يجدر به أن يعبر عن ذلك بقوله: يتألف سكان مدينة حلب من العرب أساساً ومجموعات محدودة من الترك والكرد والبلغار...الخ). كما أنه حاول أن يوهم القارئ بأن سكان حلب كانوا يحتقرون العرق العربي مستعيناً على ذلك ببعض الأمثال التي يستخدمها الحلبيون للسخرية من البدو الرحل. وعلى النقيض من ذلك حاول أن يوحي بأن تاريخ اليهود في حلب أكثر رسوخاً من بقية سكان المدينة حينما أشار إلى أن اليهود فخورين بتتبع أخبارهم في مدينة حلب إلى أيام الملك داوود. ونذكر هنا أنه وعندما تحدث عن طبقة الأشراف في حلب (وهي بالتعريف طبقة عربية خالصة)، أفاد بأن معظمهم ذوو أنساب مزورة، كما أكد في معظم كتابه على أن الانتماء الديني كان أقوى من الانتماء العرقي.

II ــ مسألة التآلف والتسامح الديني بحلب :

على الرغم من أن مسالة التسامح الديني في مدينة حلب هي من أكثر الجوانب إشراقاً في تاريخ حلب إلا أن المؤلف حاول أن يخفت تلك الإشراقة من خلال ذكر بعض الأحداث العرضية وتأكيده عليها من خلال استعماله كلمة (اللامسلمين) بشكل كثيف جداً محاولاً إيهام القارئ الأمريكي بأن المسيحيين واليهود كانوا في خندق واحد في مواجهة المسلمين.ولحسن الحظ فإنه يمكن دحض هذه الفكرة بشكل حازم من خلال دراسة إحصائيات سكان مدينة حلب.

سنعتمد في ذلك على إحصائية مدينة حلب التي أوردها ألغزي في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب والتي أعتقد أنها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه الحالة في القرن الثامن عشر، حيث أنه لم يستجد على أحياء حلب بعد القرن الثامن عشر سوى عدة أحياء (الجميلية - الحميدية - السليمانية - النيال - العزيزية). وبإحصاء الأحياء (الحارات) التي عاش بها اليهود في حلب نجد ما يلي:

اســــم الحــي	عدد سكان اليهود	عدد سكانها الكلي	هــل بها مسلمون	هــل بها مسيحيون
العقبة	١٢٠	٩٦٩	نعم	نعم
ساحة بزة	٤١	٢١٩٥	نعم	نعم
سويقة علي	١٢٤	١٠٤٤	نعم	نعم
الدباغة العتيقة	٥٠٩	٧٦٠	نعم	لا
البندرة	١٨٧٥	٢٤٥٥	نعم	لا
مصابن	٧٧٧	١٥١٥	نعم	نعم
بحسيتا	٣٨٦٠	٤٢٢٣	نعم	لا
جب أسد الله	٢٢٨	١٦٦٠	نعم	نعم
الجميلية	٦٣٢	١٧٣٥	نعم	نعم
الصليبية الكبرى (التلل)	٥٠٠	٢١٨٦	نعم	نعم

الجدول (١) : توزع اليهود في أحياء حلب

ومن الجدول أعلاه نستخلص مايلي:

١ ـــ أنه لا يوجد في حلب حي يسكنه اليهود فقط (غيتو) كما هي الحال في أوروبا قبل الثورة الفرنسية.

٢ ـــ إذا رغب اليهودي في السكن مع الآخرين فيجب أن يكون الحي المشترك فيه سكان مسلمون.

III ـــ مسالة الولاء الوطني لمسيحيي حلب:

حاول المؤلف إيهام القارئ بأن مسيحيي حلب، خصوصاً بعد تحويل الكثير منهم نحو الكنيسة الغربية في روما، اصبحوا على درجة عالية من العداوة فيما بينهم، كما تحول ولاء الكثيرين منهم نحو الخارج أي نحو البابا. نستطيع أن ندحض ذلك من خلال دراسة توزع السكان المسيحيين في المدينة حيث نلاحظ من إحصائية الغزي نفسها أن المواطنين المسيحيين بشكل عام كانوا يعيشون في أحياء مشتركة مع السكان الآخرين، حيث ينتشر المسيحيون في إثنان وخمسين حياً من أصل أحياء حلب الـــ ١٠٦ في حين أن نسبة

المسيحيين في حلب آنذاك كانت حوالي ٢٠٪ كما كان هنالك الكثير من الأعمال التجارية المشتركة بين المسلمين والمسيحيين.

IV ـــ مسالة العاهرات في حلب :

حاول المؤلف إيهام القارئ بأن العهر كان متفشياً في حلب من خلال الاعتماد على بعض الحوادث ومن خلال تأكيده عدة مرات أثناء ذكر النقابات المهنية في حلب بأنه لم يكن في حلب نقابة للعاهرات. ويجب على القارئ عدم ربط ذلك بوجود المحل العمومي في حلب في النصف الأول من القرن العشرين وذلك عندما اقتدت الدولة العثمانية بالدول الغربية في أواخر القرن التاسع عشر بجمعة عاهرات البلاد كلهن في المدن الأساسية ضمن ما يسمى المحل العمومي.

V ـــ مسألة الشعور العارم بالمحلية لدى الحلبيين:

أعطى المؤلف وزناً أكبر مما يستحق لمسألة اعتزاز الحلبيين بمدينتهم واصفاً ذلك بأن شعور الحلبيين تجاه حلب يصل إلى اعتبارها وطنهم دون ارتباط ببقية الولايات الشامية. وقد اعتبر أن ذلك يعود إلى ضعف الشعور لديهم بالروابط الأخرى (الإسلام، العروبة، أو حتى الولاء للإمبراطورية العثمانية).

كما ركز على أن الولاء للمدينة لايرتبط بالولاء لولاية حلب كلها. وقد لخص فكرته هذه بقوله بأنه لم يكن يربط بين الحلبيين سوى اعتزازهم بمدينتهم.

٣.٣.المقترحات:

اقترح ترجمة الكتاب بشكل جيد وتام وتكوين حلقات بحث حول هذا الكتاب إما لتكميل الصور الناقصة من المشهد العام أو لإصلاح بعض الصور المشوهة فيه ونعتقد أن ضرورة الإصلاح نابعة من ضرورة المحافظة على الهوية والتي يستهدف الكثيرون النيل منها. كما أقترح سرد أحداث القرن الثامن عشر بالطريقة التسلسلية التقليدية، خصوصاً الأحداث التي اشار إليها المؤلف في كتابه وذلك للمساعدة على تقصي دوافع كل حدث وتبعاته مما يساعد على فهم أفضل للكتاب.

وأخيراً أقترح جمع جميع المصادر والمراجع التي احتوتها لائحة مراجع الكتاب وترجمة ما هو غير عربي منها في المركز الثقافي العربي بحلب على سبيل المثال.



ميخائيل ماينكه (١٩٤١-١٩٩٥)

عالم كبير فقدناه

إعداد: المهندس عبد الله حجار

ولـــد ميخائيل ماينكه في فيينا عاصمة النمســا عام١٩٤١، نال شــهادة الدراسة الثانوية في استبول عام ١٩٥٩ خلال مرافقته لوالده مكسميليان المخرج المسرحي الـــذي كان يعمل في استبول. وقد درس في فيينا وهامبورغ تاريخ الفن والآثار والعلوم الإسلامية وقام خلال ذلك برحلة دراسية إلى تركستان وتركيا ونال أطروحة الدكتوراه عام ١٩٦٨ وكانت بعنوان "البناء السلجوقي المزخرف بالقاشاني في آسيا الصغرى"، وتزوج الدكتورة فيكتوريا بيرج الاختصاصية بتاريخ الفن وله ابنة تدعى كتارينا من مواليد عام ١٩٧٩.

خلال إقامته في مصر كمختص في تاريخ الفن الإسـلامي في المعهد الألماني للآثار في القاهرة (١٩٦٩-١٩٧٧) قام بأبحاث عن فن العمارة المملوكية(١٩٥٠- ١٥١٧) في مصر وسوريا وشرق الأناضول. كما أدار بدءً من عام ١٩٧٣ مشروع ترميم مدينة القـــاهرة الإسلامية القديمة. كما قام خلال الفترة المذكورة برحلات دراسية إلى كل مــن العــراق وإيران والمملكة العربية السعودية وسوريا وتونس وتركيا.وبين عامي ١٩٧٧-١٩٨٠ قـام بتدريس وادراة حلقات بحث في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى في جامعة هامبورغ، وقــد نال درجة الشرف عام ١٩٧٨ حول عمله "فن العمارة المملوكيــة في مصــر وســوريا" وأصبح خبيراً في منظمة اليونسكو وقدم أبحاثاً في مباني وفن العالم الإسلامي .

بين عامي ١٩٧٩ -١٩٨٨ أدار المعهد الالماني للآثار بدمشــق حيث أسس وأنشأ المعهد وأصدر بدءً من عام ١٩٨٣" أخبار دمشق " Damaszener Mitteilungen " ومنذ عام ١٩٨٨ أصدر " أبحاث دمشقية Damaszener Forschungen " . كما نفذ مســح مدينة دمشق القديمة والأبنية من القرون الوسطى في سوريا (١٩٨٠ - ١٩٨٥)، كمــا نقب في مبنى حمام منجك في بصرى وقام بترميمه منذ عام ١٩٨١، وقــام بــالتنقيب في مكان إقامة هارون الرشيد في الرقة على الفرات اعتباراً من عام ١٩٨٢. وخلال إقامتــه بدمشق قام برحلات بحث إلى مصر والأردن والكويت وتركيا واســتمر بــالتدريس في جامعة هامبورغ وعين عضواً في لجنة جائزة آغا خان عام ١٩٨٣ .

وقد عين في ١ / ٩ / ١٩٨٨ مديراً لمتحف الفن الإسلامي في متاحف بروســيا في برلين كما سمي في ١٩٨٩/٢/٢٧ أستاذاً في جامعة هامبورغ. بعد توحيد الدولة الألمانيــة أصبح مدير متاحف الآثار الإسلامية في برلين الموحــدة، وقــد حضــر إلى ســورية في أيلول١٩٩٤ للمشاركة في ندوة اليونسكو والمديرية العامة للآثار والمتــاحف بعنــوان " حلب وطريق الحرير ".

وكان ذلك آخر لقاء مع العالم الذي أعطى الكثير للفــن العــربي الإســلامي إذ اختطفته يد المنون فجأة في برلين في ١٠ /كانون الثــاني / ١٩٩٥ ولم يكمــل الرابعــة والخمسين من العمر رحمه الله .

أهم أبحاثه ومؤلفاته:

إن مؤلفات وأبحاث المرحومماينكه التي صدرت (وعددها ٨٢ بحثاً ومقالة وكتاباً) وقيد الصدور (وعددها ١٣ بحثاً) تملأ ٩ صفحات من الحجم الكبير وسنكتفي بذكــر أهم الكتب والأبحاث التي لها علاقة بمصر وسوريا :

- تطور زخرفة فن العمارة الاسلامية في القرون الوسطى:في Der Islam XLVII (1971, 200 - 235) .
- مدفن قلاوون في القاهرة : أبحاث في تكوين فن زخرفــة العمــارة المملوكيــة MDAI Kairo . XXVII \ 1 (1971 , 47 – 80) .
- الرنوك المملوكية MDAI Kairo XXVIII \ 2 1972 – 1973 , 213 – 287

• جامع الأمير اقسنقر الناصري في القاهرة38 – 9, MDAI Kairo XX1X\1 1973

• معنى الرنوك المملوكية في تاريخ الفن محاضرة في لوبيـــك ١٩٧٢ Wiesbaden 240 – 213 , 1974 .

• مدرسة الأمير مثقال في القاهرة Mainz 1976

• فن العمارة في القرن ١٦ في القاهرة بعد الاحتلال العثماني عام ١٥١٧ (المؤتمـــر الدولي الرابع للفن التركي، اكس اون بروفانس ١٩٧٦ نشر جامعة بروفانس : دراســات تاريخية ١١١ ص ١٤٥ – ١٥٢ .

• طبوغرافية الاسكندرية حسب " أولي جلبي" محاضرة في فرايبورغ ١٩٧٥ نشـرت في مجلة جمعية الاستشراق الألماني الملحق١١١/١فيسبادن ١٩٧٧،ص٥٢٣-٥٣٧".

• الفن الإسلامي في مصر ١٩٧٧ص ٣٠٩ – ٣٣٠ مصر حضارة النيل القديمــة في طريقها إلى المستقبل توبنجن – بازل ١٩٧٧ اصدار H. Schamp

• فن العمارة العثمانية في دمشق في القرن السادس عشر، بودابست ١٩٧٨، المؤتمـر الخامس للفن التركي ص ٥٧٥ – ٥٩٥ .

• القاهرة الاسلامية : الحفاظ المعماري والتطور العمراني للمركز التاريخي (تنظيـــم معهد غوته ١ – ٥ اكتوبر ١٩٧٨) .

• ترميم مدرسة الأمير سابق الدين مثقال الطواشي وإحياء درب قرمز في القاهرة، مايتز ١٩٨٠ .

• إحياء حي الجمالية في القاهرة (تقرير لليونسكو باريس ١٩٨٠).

• مشاكل العناية بالمعالم الأثرية في القاهرة القديمة . المؤتمر العشرون للمستشـــرقين الألمان إرلنفن ١٩٧٧ .

• مسح الصالحية : تقرير لأول موسم عام ١٩٨٠ (الحوليـــات الســـورية الاثريـــة ١٩٨٣ (المجلد ٣٣).

• حفريات منطقة القصور العباسية في الرقة / الرافقـــــة ١٩٨٢ – ١٩٨٣ .في ص ٨٥ – ١٠٥ عام ١٩٨٥, Dam. Mitt. II .

• حمام منجك في بصرى تقرير التنقيب ١٩٨١ – ١٩٨٣. ص١٧٧ –١٩٢ عام ١٩٨٥ Dam. Mitt. II .

• مواد البنــــاء في العمــارة المصريـــة الاســلامية (معــهد الآثــار الألمــاني في القاهرةXVIIIص١٣٥- ١٥٩) .

• الفترة الاسلامية (٦٠٠ - ١٦٠٠م) من دليــل معــرض الآثــار الســورية في الولايات المتحدة From Ebla to Damascus . تحرير هارفي فايس ١٩٨٥ .

• الآثار الإسلامية : دليل معر ض الآثار السورية في المانيا "أرض بعل" المترجم عن الألمانية ص ٢٣٦ - ٢٦٥، ٢٦٧ - ٢٦٩ تحرير ايفاشترومنجر ١٩٨٢ .

• المعهد الألماني للآثار بدمشق : أبحاث أثريـــة ١٩٨٠ - ١٩٨٣ (مــع آخريــن) تلخيص قاسم طوير الحوليات السورية عام ١٩٨٦. المجلد ٣٦

• حمام منجك وفن العمارة الاسلامية في بصرى، بـــيروت في Berytus XXXII (١٩٨٦)ص ١٨١ - ١٩٠ .

• حي الصالحية القديم بدمشق تطور وتغييرات حديثة،الحوليات الســورية ١٩٨٧. المجلد ٣٧

• الألواح الزرق في القرن التاسع (١٥م) في دمشق Dam. Mitteil. III 1988, 203 -214 .

• تجديد القدس أيام سليمان القانوني (دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ١٩٨٨ص ٢٥٧- ٢٨٣).

• مشاريع معهد الآثار الالماني في سورية ١٩٨٠ - ١٩٨٨ . معرض ومحاضرات في معهد غوته بدمشق من ٢/٢٩/ - ١٩٨٨/٣/١٠ .

• الهندسة المعمارية المملوكية (في الحوليات السورية مــترجم ١٩٨٥، ص١٦٣ - ١٦٨) المجلد ٣٦/ ٣٧ .

• مكان إقامة هارون الرشيد بالرقة : قصر هارون الرشيد دمشق ١٩٨٩ .

• المتحف الاسلامي في بصرى نيسان ١٩٩٠ .

• بصرى الاسلامية مع رياض سليمان المقداد ، عمان ١٩٩٠.

• مواد لفن الزخرفة الفاطمية في القاهرة ١٩٩١، ص٢٣٥ -٢٤٠ .

• أوائل فن الزخرفة الجدارية العباسية في بلاد الشام، عمان ١٩٩٢ المؤتمر الــدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام عمان ١٩٩١، ص ٢٢٦ - ٢٣٧ .

• صلخد مثال مدينة دفاعية اسلامية (ترجمة دنتزر) في كتاب:" جبل العرب تلويخ وتراث في متحف السويداء" صدر في باريس ١٩٩١ (١٩٩٢)ص ٩٣ - ١٠٠.

• فن العمارة المملوكي في مصر وسوريا، جزء أول : التكوين والتطور وعمل فن العمارة ١٩٩٢ جزء ثاني : جداول زمنية لأبنية المماليك ١٩٩٢ .

• الشرق لادني المملوكي : أطلس الفن الكبير باريس ١٩٩٣ص ٢٢٢- ٢٢٣.

• تدمر وفن زخرفة العمارة الاسلامية المبكر في الرقة (مع أندريا شميت كولينست) دليل معرض "من الرسل إلى الخلفاء" لينس (النمسا)١٩٩٣، ص٣٥٢ - ٣٥٩ .

• الرقة في الموسوعة الاسلامية الطبعة الجديدة VIII ١٩٩٤،ص ٤١٠ - ٤١٤.

قيد الطبع:

• أوائل نقوش ألواح القاشاني العثمانية (مساهمة إزنك) استنبول ١٩٨٩ .

• الجوامع الكبرى في حوران (ندوة محافظة السويداء ١٩٩٠) .

• قطع الزخرفة العباسية من الرقة (ستنشر في عاديات حلب ١٩٩٨).

• الرقة : المدينة الاسلامية (ستنشر في كتاب عاديات حلب ١٩٩٨).

• الرقة : تقرير X,XI مختصر للتاريخ الأثري في سوريا في عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٤ (مشترك مع آخرين).

• فخار تل أسود (الرقة) مشترك مع آخرين .

قيد الاعداد :

- جامع أولو في منيسا وجامع عيسى بيك في سلجوق : الإحياء السلجوقي والتأثيرات المملوكية.

- إقامة هارون الرشيد بالرقة حلقة مفقودة في فن العمارة العباسي الأول والزخرفة.

- جامع السلطان ناصر حسن في القاهرة : الأصول والتاثيرات .

- من "المشتى إلى سامراء" : فن عمارة الرقة وزخرفتها (ندوة دولية في القاهرة ١٩٩٣).

- دليل متحف الفن الاسلامي في برلين بالتعاون مع فولكمار اندرلاين وآخرين" .

ذكريات:

أذكر لقائي بالمرحومماينكه لأول مرة حين جاء في "السبعينات إلى حلب مع الباحث هانز غاوبه، وكم كنا نحسد دمشق ولا نزال لوجود المراكز والمعاهد الثقافية فيها من أمثال المركز الثقافي الفرنسي والمعهد الفرنسي للدراسات العربية والمعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى ومعهد الآثار الألماني ومعهد غوته وسواها حيث تقدم المحاضرات عالية المستوى وتتوفر المكتبات التي تضمّ المراجع النادرة عن تاريخنا والصادرة بمختلف اللغات. ثم التقينا أكثر من مرة في ندوة حماية دمشق القديمة الأولى والثانية وكان دائماً رحمه الله لولب الحركة لأعمال الحماية وتوجيه الدراسات المطلوبة لها . كما حاضر أكثر من مرة في جمعية العاديات يطلع أعضاءها على القصور العباسية التي كان له فضل اكتشافها في الرقة وخارج أسوار " المرافقة". ولا أنسى تركيزه على أعمال التوثيق التي قام بها العالمان سار وهرتسلفد في رحلتهما عبر الفرات ودجلة عام ١٩٠٧ ووصف وتصوير ما شاهداه، وكيف أن ماينكه مع زملائه الآخرين من أمثال هاينرش وشترومنجر وكونه وروليغ وأورتمان ومخوله ومورتغات وسواهم ... قاموا بتحقيق أمنية هذين العالمين بالقيام بتنقيبات وبحوث لإبراز هذه المعالم ودراستها على الوجه الاكمل في منطقتي الفرات ودجلة .

كما أذكر لقاءه وزوجته الكريمة في الندوة الدولية لآثار محافظة السويداء عام١٩٩٠ حيث أطلعنا على أعمال الترميم في حمام منجك المملوكي والمتحف الإسلامي الصغير الذي تم انشاؤه في بصرى .

وأخيراً أذكر حضوره الندوة الدولية التي دعت إليها اليونسكو والمديرية العامة للآثار "حلب وطريق الحرير" في أيلول ١٩٩٤ وقد ترأس احدى جلسات حلقات العمل. وأغتنمنا الفرصة وأطلعناه، باعتباره مدير متحف الآثار الاسلامية في برلين، على بناء مدرسة سيف الدولة حيث مركز "مشروع إحياء حلب القديمة" الممول بمنحة ألمانية وكويتية وذلك تمهيداً لدراسة موضوع إمكانية ترميم الجدران الخشبية لإحدى قاعات الاستقبال الهامة في البناء والمؤرخة من عام ١٨٠٢م . بمساعدة وتوجيه مرممي" الغرفة الحلبية Aleppo Zimmer " في متحف برغامون في برلين .

وكان ذلك آخر لقاء مع العالم ميخائيل ماينكه الذي أعطى الكثير للفــن العــربي الاسلامي وقد اختطفته يد المنون وهو في أوج عطائه. ويكفيه كتابه الضخم بمجلدين عــن الفن المملوكي وجميع المباني والمعالم التي خلفها المماليك في مصر وسوريا وكــل مكــان، بالاضافة إلى تنقيباته الأثرية في الرقة وترميم حمام منجك في بصرى الناهضة وأعمال مسح "الصالحية" بدمشق ليستحق أن يمنح وسام الاستحقاق السوري الذي يعطى للذين احبــوا وطننا وعملوا على رفع شأنه، نداء أهمس به للسيدة وزيرة الثقافة والمديرية العامة للآثــار والمتاحف والمسؤولين الذين عرفوا المرحوم ماينكه حق المعرفة ، وقد مرت الذكرى الثالثـة لوفاته. رحمه الله وألهم زوجته ومحروسته وأهله الصبر والسلوان ، لقد ترك بأعماله وكتبــه ذكرى حية باقية مع مرور الزمن .

سهل عكار خلال فترة البرونز الوسيط
عرض أولي للمعطيات الأثرية(*)

ميشيل المقدسي (**)
وزارة الثقافة
دمشق-سوريا

يقع سهل عكار عند القسم الجنوبي من الساحل السوري بين مدينتي طرطوس وطرابلس وهو يمثل الواجهة البحرية لفجوة حمص ويأخذ شكل مثلث يبلغ طول ضلعه حوالي ٢٥ كيلوا متراً . وهو عملياً نقطة انطلاق لواحدة من الطرق التجارية الرئيسية التي تصل الساحل الشرقي للبحر المتوسط بمناطق سورية الداخلية (راجع الخارطة المنشورة في الشكل رقم ١) .

مرت الدراسات والتحريات الميدانية التي نفذت في مجمل مواقع هذا السهل بثلاث مراحل أساسية :

المرحلة الأولى : بدأت في منتصف القرن التاسع عشر وظلت مستمرة حتى منتصف العقد الثاني من هذا القرن وتميزت بأعمال المسح والرفع الهندسي المنفذة من قبل عدد من البحاثة والمستشرقين اذكر منهم على سبيل المثال :

- أعمال الدراسة والاسبار في موقع عمريت للفرنسي ارنست رونان (Ernest RENAN) ضمن مسحه العام للمواقع الفينيقية على طول الساحل السوري-اللبناني (١) .
- الجولة العامة للسويسري ماكس فان بيرشم (Max Van BERCHEM) في العقد الأخير من القرن الماضي بحثاً عن الكتابات والنقوش العربية الإسلامية (٢) .

- المسح الأثري الدقيق للمنطقة الساحلية المنفذ من قبل الفرنسي رونية دوسو (René DUSSAUD) في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن في إطار دراسته الشاملة عن الطوبوغرافية التاريخية لسورية في العصور القديمة والوسيطة (٣) .
- محاولة تحقيق أسماء بعض المواقع خلال جولة الأمريكي ويليام ألبريت (Williams ALBRIGHT) في عام ١٩٢٤ (٤) .
- الكشف عن مستودع تماثيل الأرباب (Favissa) غربي معبد عمريت من قبل الفرنسي موريس دونان (Maurice DUNAND) (٥) .

المرحلة الثانية : بدأت في النصف الثاني من هذا القرن وتميزت بتنفيذ عدد من الحفريات والأسبار الأثرية في عدد من المواقع اذكر منها :

- الأسبار والدراسات الطبقية المنفذة من قبل البعثة الأميريكية برئاسة روبيرت بريدوود (Robert BRAIDWOOD) في مواقع تل سيميريان (تل أبو علي) والمنطار وتبة الحمام (٦) .
- الكشف الواسع عن منشآت موقع عمريت واجراء سبر طبقي في التل المجاور للمعبد من قبل البعثة السورية بإشراف الأستاذ نسيب صليبي ومشاركة الفرنسي موريس دونان (٧) .
- القيام بتنقيبات واسعة لعدة مواسم في تلي سيميريان (أبو علي) والكزل من قبل البعثة السورية بإشراف الدكتور عدنان البني والأستاذ نسيب صليبي ومشاركة الفرنسي موريس دونان (٨) .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة : فقد بدأت مع مباشرة التنقيب في تل عرقا (القسم اللبناني من سهل عكار) من قبل البعثة الفرنسية في منتصف السبعينات. هذه المرحلة تتميز بالخصائص التالية :

- القيام بمسوحات جيولوجية وجيومورفولوجية شاملة والكشف عن عدد كبير من مواقع ما قبل التاريخ على ضفاف نهري الأبرش والعروس (٩) .

- تكثيف المسرحيات الأثرية من قبل البعثات السورية [١٠] ، الفرنسية [١١] والسورية - الفرنسية [١٢] والبدء بدراسة تاريخ وطبيعة الاستيطان في المواقع الأساسية .
- الكشف الواسع عن سويات الألف الأول في موقع تل الكزل والبدء في تحريات طبعية لمحاولة فهم طبيعة سويات الألف الثاني [١٣] .
- الكشف الواسع عن سويات الألفي الثاني والثالث في تل عرقا [١٤] .
- اجراء الدراسات الطبقية لطبيعة الانتقال بين سويات الألف الثاني والثالث في تلال البصيصة ، لحة وجاموس [١٥] .

* * *

بعد هذا الاستعراض السريع لمجمل الأعمال الأثرية أود أن اناقش في الفقرة التالية الاستيطان في سهل عكار في فترة البرونز الوسيط فأبدأ باستعراض الوثائق الأثرية التي بحوزتنا:

تل عمريت

يقع تل عمريت عند الحدود الشمالية لسهل عكار على بعد سبعة كيلومترات جنوبي مدينة طرطوس، وهو عملياً موقع صغير لا تتجاوز مساحته اليكتارين .

سورية البرونز الوسيط المكتشفة في التوضعات الأولى للسبر الطبقي أو ضحت وجود مقبرة مؤلفة من ثمانية مدافن مبنية من الأحجار ولها شكل حواصل بيضوية (الشكل رقم ١/٢) بالاضافة إلى وجود مجموعة من الجرار الجنائزية المخصصة في أغلب الظن لحديثي الولادة [١٦] .

الأثاث الجنائزي يتألف بشكل أساسي من أوان فخارية ثنائية اللون (Bichrome) عائدة إلى النصف الأول من فترة البرونز الوسيط والمعاصرة لنمط من الانتاج الفخاري المميز لشمالي سورية وسهل العمق ومناطق كليكية والمعروف باسم (North Syrian Cilician Painted Wares) [١٧] .

تل سيميريان (تل أبو علي)

يقع تل سيميريان إلى الشمال من نهر الابرش عند وادي سيميريان في القسم الشمالي لسهل عكار ، وهو عبارة عن موقع منخفض لا تتجاوز مساحته ثلاثة هيكتارات. السبر الطبقي المنفذ عند المنحدر الشمال الغربي للتل كشف عن وجود عدد من الأرضيات العائدة إلى فترة البرونز الوسيط الثاني والمصحوبة بكسر فخارية محلية مشابهة لما اكتشف في تلي الكزل وعرقا (١٨) .

تل الكزل

يقع الكزل في وسط القسم السوري من سهل عكار إلى الشمال من نهر الكبير الجنوبي وعلى الضفة اليمنى لنهر الأبرش وهو عبارة عن تل مرتفع تتجاوز مساحته الثمانية هكتارات .

سويات البرونز الوسيط المعروفة تدل على وجود تحصينات كشف عنها عند الحدود الشمالية الشرقية للموقع تتألف بشكل أساسي من جدار حجري يتقدمه منحدر (Glacis) من التراب المصفور القاسي.

العناصر الفخارية غالبيتها من انتاج محلي وهي غنية كما سوف نرى لاحقاً بالزخارف والأشكال (١٩) .

تل عرقا

يقع تل عرقا عند الحدود الجنوبية لسهل عكار إلى الجنوب من النهر الكبير الجنوبي وعلى الضفة اليمنى لنهر عرقا وهو عبارة عن تل مرتفع تتجاوز مساحته السبعة هكتارات.

سويات البرونز الوسيط كشف عنها بشكل واسع وهي تتألف من العناصر التالية :

- السوية الرابعة عشرة المؤرخة في فترة البرونز الوسيط الأول ، تتكون من مجموعة من الأفران المنزلية المربوكة طبقياً مع عدد من الحفر والأرضيات .
- أما في السوية الثالثة عشرة المؤرخة في فترة البرونز الوسيط الثاني ، فإننا نلاحظ أن معالم القبور الجماعية والفردية .

- أما فيما يخص طبيعة الانتقال بين سويتي نهاية البرونز الوسيط الثـاني وبداية البرونز الحديث الأول ، فقد لوحظ وجود طبقات متهدمة مصحوبة بالهيـلرات وحرائق، مما دفع المنقبين إلى افتراض حدوث كارثة أوقفت الاستيطان بـأجزاء هامة من الموقع (٢٠) .

الانتاج الفخاري لهذه السويات غني ومتنوع ويحمل كما سوف نرى الكثير مـن الصفات المحلية (٢١) .

المسوحات الأثرية بين عامي ١٩٨٦ و١٩٨٧

كان الهدف من المسوحات التي اجريت في منتصف الثمانينات هو التحقـق مـن امكانية تعميم التسلسل الطبقي الذي كشف عنه في تل عرقا على كافة مواقع سهل عكار و بالتالي محاولة فهم طبيعة الاستيطان والعلاقة القائمة بين المواقع السـاحلية مـن جهـة ومواقع سورية الداخلية من جهة أخرى (٢٢) .

النتائج كانت إيجابية في بعض النواحي وسلبية في بعضها الآخر وسوف أعرضـها كخلاصة لهذا البحث وقد انقسمت هذه الأعمال الأثرية إلى ثلاثة محاور رئيسية :

١- المسح الأثري.

٢- تنظيف المقاطع والأسبار الاختبارية .

٣- دراسة وتصنيف الفخار .

المسح الأثري

يمكن تصنيف المواقع في ثلاث مجموعات (بشكل عام راجع الخارطة المنشـورة في الشكل رقم ١) :

- المجموعة الأولى تتألف من ثلاثة مواقع رئيسية يتمحور حولهـا الاسـتيطان في سهل عكار وهي تل الكزل في النصف الشمالي من السهل ، تـل عرقـا في النصف الجنوبي وتل جاموس عند الحدود الشرقية .

هذه التلال تتراوح مساحة كل منها بين ثمانية وعشرة هيكتارات وهي تسيطر بشكل كامل على الطرق الرئيسية المارة على طول الساحل السوري وعلى الأخص على المحور المتجه شرقاً نحو مناطق سورية الداخلية .

- المجموعة الثانية تتألف من أربعة تلال تتراواح مساحتها بين ثلاثة وخمسة هيكتارات وهي تلال مندرة ، صفرون، فراش وبصيصة .

هذه التلال تلعب دوراً في مراقبة الطرق الثانوية وتقع تحت سيطرة احدى تلال المجموعة الأولى .

- المجموعة الثالثة والأخيرة تتمثل بتسعة مواقع صغيرة لا تتعدى مساحة كلٍ منها اليهكتار أو اليهكتارين (تل لحة ، تل شاص ، تل زبيب ، تل أبو عبيد ، تل سيمريان، تل عدس ، تل عقدو، تل قبيبة وخربة اليهودية) هذه التلال موزعة حول تلال المجموعتين الأولى والثانية ويمكن اعتبارها كمراكز زراعية أوصناعية وهي لا تبعد في أغلب الأحيان سوى بضعة كيلومترات عن مراكزها الرئيسية.

دراسة المقاطع والأسبار الاختبارية :

تم القيام بدراسة بعض المقاطع وتنفيذ بعض الأسبار الاختبارية في موقعي تل لحة وتل بصيصة .

تل لحة : يقع تل لحة على الضفة اليمنى لنهر الأبرش على بعد كيلو مترين ونصف جنوب غربي تل الكزل وهو ينتمي إلى المجموعى الثالثة (ابعاده تصل إلى ١٣٠X ١٢٠ م) و تقوم فوق سطحه بقايا لقرية صغيرة بالغضافة إلى مقبرة مهجورة .

تركزت الأعمال الأثرية في الجهة الشرقية من التل في المناطق التي تضررت نتيجة الأعمال الزراعية وذلك بإجراء سبر بطول خمسة أمتار وبعرض ثلاثة أمتار ونصف بالإضافة إلى دراسة المقطع المقابل للسبر والموجه شمال جنوب .

النتائج يمكن أن نلخصها بالنقاط التالية :

١- الكشف عن حاصل شبه دائري مبني من الحجر يعود إلى فترة البرونز الوسيط الثاني والذي يمكن أن يكون القسم الداخلي من التحصينات الغربية للموقع .

٢- تفريغ ودراسة حفرة بأعماق تصل إلى ثلاثة أمتار عائدة غالباً ما إلى بداية فترة البرونز الوسيط.

٣- دراسة مفصلة لبقايا مبنى جدرانه من اللبن يعود إلى فترة البرونز القديم الرابع وذلك من حيث طريقة بنائه ، توضع الأرضيات وطبيعة الانهيارات. وقد تبين بنتيجة الدراسة التفصيلية لمجمل المقطع الطبقي إن كثافة سويات فترة البرونز القديم الثالث والرابع تصل إلى سبعة أمتار.

٤- الكشف عن أجزاء من بناء يعود إلى نهاية فترة البرونز القديم الثالث وبداية فترة البرونز القديم الرابع .

* * *

بعد هذا العرض العام يمكننا أن نستخلص مجمل النتائج بالنقاط السبع التالية :

١-إن ندرة البقايا المعمارية والفخارية العائدة إلى النصف الأول من الألف الثالث (باستثناء تلال المجموعة الأولى) تجعلنا نعتقد أن المنطقة في مجملها قد شهدت نمواً وازدهاراً في غضون النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد (أي فترة البرونز القديم الثالث) . هذا الازدهار يمكن ربطه زمنياً مع قيام عدد من المواقع الهامة في سورية الداخلية مثل تل النبي مندو ، المشرفة ، تل العشارنة وتل مرديخ ..

٢-هذا النمو بلغ ذروته في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني حيث نلاحظ بوضوح أن كافة المواقع التي تمت دراستها كانت مأهولة في بداية فترة البرونز الوسيط .

٣-بالإضافة إلى ذلك ، يمكننا أن نلاحظ أن السيطرة على الموارد المائية (سدود ، حواجز وأقنية للري) على طرفي نهري الأبرش والعروس، كانت معاصرة لهذا النمو، مما

يجعلنا نفترض وجود محاولات لاستثمار أكبر عدد من المساحات المزروعة وما يعزز هـذا الاعتقاد هو ما تم كشفه من حواصل في تل لحة وتل عمريت لخزن تلك المنتجات(٢٣) .

٤-ما نلاحظه عند الدراسة الدقيقة لتوزع مواقع المجموعة الأولى أن المسافة الـتي تفصل تل جاموس عن تلي عرقا والكزل متساوية وتصل إلى حوالي ٢٠ كم (٢٤).هـذه المسافة تساوي مسيرة يوم إذا اعتبرنا أن القوافل تستطيع أن تجتاز هذه المسافة بزمن قـد يصل إلى ست أو سبع ساعات (٢٥) من هنا نستنتج أن أماكن تواجد المواقـع الثلاثـة مدروس لكي يكون محطات تجارية رئيسية تتوزع من خلالها الطرق على النحو التالي :

- اعتباراً من تل الكزل نحو مواقع عمريت ، تل سوكاس ورأس الشمرة .
- اعتباراً من تل عرقا نحو تل إردة ، البترون وجبيل .
- اعتباراً مـن تل جـامـوس نحو سـورية الداخليـة ومواقع تل النبي منـدو والمشرفة(٢٦).

٥- تقاليد البناء مجهولة حتى الآن ولكن وجود عدد من بقايا الاسوار في مواقع تـل عرقا ، تل الكزل وتل فراش يسمح لنا بافتراض وجود تحصينات تحيط بالمراكز الرئيسـية مؤلفة من جدران كبيرة من الحجر أو من اللبن (جدران لها أساسات حجرية في أغلـب الظن) تتقدمها منحدرات من التراب القاسي (Glacis) .

٦-العادات الجنائزية تراعي بشكل عام التقاليد السورية - الفلسطينية فهناك المدافـن الفردية والجماعية المحفورة ضمن التراب والمصحوبة بأثاث جنائزي يتألف بشكل أساسـي من الأواني الفخارية في تل عرقا بالإضافة إلى الجرار الجنائزية الكبيرة المخصصة في أغلـب الأحيان لدفن حديثي الولادة (٢٧) . أما بخصوص المدافن / الحواصل المكتشـفة في تـل عمريت (الشكل رقم ١/٢) فإننا نميل إلى الاعتقاد بأنهـا بـالأصل كـانت تسـتعمل كحواصل وتم الدفن فيها في فترات لاحقة (٢٨) .

٧-تقاليد صناعة الفخار شهدت اعتباراً من نهاية فترة البرونز القديم الثالث قفزة نوعية هامة ، فقد ظهرت أنواع جديدة من التقنيات أعطت المظهر المعدني لنوعية من النتاج الفخاري وما نلاحظه في هذه الفترة هو :

- الزوال التدريجي للزخارف الممشطة .

- تعميم استعمال الدولاب السريع .

وقد استمر استعمال هذه التقنيات الجديدة طيلة سبعة قرون أي حتى نهاية فترة البرونز الوسيط الثاني بالرغم من التحديد الجذري للاشكال بين فترتي البرونز القديم الرابع و بداية فترة البرونز الوسيط الأول .

أما من حيث الأشكال والزخارف فإننا نستطيع أن نميز الأنماط التالية :

آ - الفخار ثنائي اللون (Bichrome) العائد إلى بداية فترة البرونز الوسيط والمكتشف بشكل أساسي في تل عمريت (الشكل رقم ٣/١-٢) .

ب - الفخار الملمع (Burnished) باللون الأسود والعائد أيضاً إلى بداية فترة البرونز الوسيط والمكتشف في تلال عمريت ، عرقا و الكزل (الشكل رقم ٣/٣-٤) .

ج - الفخار الملمع بخطوط ناعمة (Lustré) وباشكال مختلفة منها العامودي والأفقي والمتصالب . ينتشر هذا النوع من الزخارف في أغلب المواقع الممسوحة وعلى كامل فترة البرونز الوسيط (الشكل رقم ٣/٥-٧) .

د- الفخار المحزز والمزخرف بزخارف نافرة أو محززة على شكل حلقة أحادية أو مزدوجة تحيط بجسم الإناء (الشكل رقم ٣/٨-١٠) .

هـ - الفخار البسيط غير المزخرف منتشر بطبيعة الحال في جميع مواقع سهل عكار وهو يتألف من أنماط عديدة نذكر منها : الطاسات ذوات السطوح اللينة (Profil en "s") أو السطوح الحادة (profil caréné) ؛ الأباريق البسيطة أو الحلقية ؛ الجرار المتوسطة والكبيرة والمتنوعة في أشكالها (الشكل رقم ٤/١-٢) .

٨- يبدو لنا أن الفترة الانتقالية بين البرونز القديم الرابع وبداية فترة البرونز الوسيط الألو تمت بصورة هادئة دون أي هزات كبيرة وذلك بعكس ما نلاحظه في مواقع سورية الداخلية ، في حين أن الانتقال بين فترتي البرونز الوسيط الثاني وبداية البرونز الحديث الأول يتميز بضمور كافة المواقع باستثناء تل الكزل وهذا يعود في أغلب الأحيان إلى تحول منطقة سهل عكار اعتباراً من منتصف القرن الخامس العشر قبل الميلاد إلى نقطة انطلاق للحملات المصرية في سورية .

دمشق ١٥ تشرين الأول ١٩٩٢

الحواشي

(*) أعد هذا البحث للندوة العالمية حول تاريخ سورية والشـــرق الأدنى القـــديم، (٣٠٠٠- ٣٠٠ق.م) التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (١٧- ٢٠ تشرين الأول ١٩٩٢).

(**) أخص بالشكر الدكتور عدنان البني لمساعدته في إنجاز الاسبار في موقع تل الكزل وأعمال المسوحات الأثرية في سهل عكار والأستاذ نسيب صليبي لتقديمه المعلومات القيمة عن أعماله في موقـع عمريت .

(١) راجع بهذا الخصوص المطبوعة الضخمة :
E. Rena : Mission de Phénicie, Paris , 1864, PP. 19-151 (Campagne d'Arados) .

(٢) تمت هذه الجولة في عام ١٨٩٥ ، راجع بهذا الخصوص :
M. Van Baerchem et E. Fatio : Voyage en Syrie , *Méntale du Caire,* Le Caire, 1914.
وبالأخص الفصول التي تخص الرحلة من طرابلـــس إلى تلكلـــخ (ص ص ٣٨-٤٢) ومـــن طرطوس إلى خان عبدة (ص ص ٩٧- ٩٨)

(٣) راجع بهذا الخصوص
R. Dussaud: *Topographie historique de la Syrie antique et medievale* , BAH, IV , Paris, 1927,pp. 117-125.

(٤) W.F. Albright et R.P Dougherty: Form Jerusalem to Baghdad Down The Euphrates ; BASOR , 21,1926, PP. 1-21.

(٥) M. Dunand : Les sculptures de la *favissa* du temple d'Amrit; BMB, VII, 1944-1945, PP. 99-107 et BMB, VIII, 1946- 1948, PP. 80 –107.
M.Dunand : Recherches archeololgiques dans la region de Maeathus, note Preliminair ; *AAAS,* III , 1953, PP. 165-170 .

(٦) راجع الدراسة الهامة التالية :
R. Braidwood : Report in Two Sondages on the Coast of Syria , South of Tartous: *Syria, XXI*; 1940, PP . 183 –226.

(٧)　راجع التقارير الأولية :

M. Dunand , N. Saliby et A. Khirichian :les fouilles d'Amrith en 1954, rapport preliminaire; *AAAs*, IV-V, 1954-1955, PP . 189-204.

(٨)　راجع التقارير الأولية :

M.Dunand et N. Saliby: A la recherche de simyrra; AAAS, VII, 1957, PP. 3-16.

(٩)　راجع التقارير الأولية :

J. Sqpin: Peuplement et milieu de vie dans la vallee du Nahr el-Abrach (principalement a l'age du Bronze); AG, fasc. 39-58.
P. Sanlaville: Prospection geomorphologique et prehistorique danx la region de Tartous (Septembre- Octobre 1989) ; Syria, LXVII, 1990 ,PP.455-456.

(١٠) A. Abou Assaf: Archaologische Gelandebgehung in den Bezirken Homs. Tartus , Lataqiya und Raqqa: *AfO,* XXVI, 1978-1979, PP.176-177.

(١١) J.Sapin : Archaologische und geographische Gelandebehung im Grabenbrunch von Homs; *AfO*, XXVI, 1978-1979, PP. 147-176.
J. Sapin:La Trouee de Homs. Prospection geographique et archeologique; *Contribution francaise a l'archeologie syrienne 1969-1989,* Damas, 1989, PP. 107-112.

(١٢)　ج ب تالمان / م المقدسي: التحريات الأثرية في فجوة حمص ، مواقع سهل عكار السوري " المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية ١٩٦٩ - ١٩٨٩" ، دمشق ، ١٩٨٩، ص ص ٩٤-٩٧.

J.-P. Thalmann: Prospection de la plaine du "Akkar Syrien , 1986-87; *AfO.* XXXVI-XXXVII, 1989-1990, PP. 344-346.

(١٣)　راجع الدراسات التالية :

L.Badre: Tall Kazel 1987; *AfO*, XXXVI-XXXVII, 1989-1990-PP.258-260.
L.Badre: Recent Phoenici e *Punici*, Rome, vol . 2, Rome, 1991,PP.627-639.
L.Badre: Kazel, in H. Weiss(ed). Archaeology in Syria; *AJA,* 95,1991,PP. 734-735.
L.Badre , E. Gubel, M.Al- Maqdissi et H. Sader: Tell Kazel Syria, Excavations of the AUB Museum, 1985-1987, Preliminary Reports; *Berytus,* XXXVIII, 1990,PP.9-124.

L. Badre:les fouilles de Tell Kazel (cote syrienne), 1985-1994; OE, 3, 1994,PP.76-77.

(١٤) J.P.Thalmann:Tell "Arqa (Liban Nord), Compagnes I-III (1972-1974), chantier I, rapport preliminaire; Syria, LV, 1978, PP. 1-151.
J.-P Thalmann:L'age du Bronze a Tell "Arqa (Liban- Nord) ;*OE*,2,1991,PP.20-21.

(١٥) راجع الحاشية رقم ١٢

(١٦) بالنسبة للمدافن / الحواصل ، راجع المساقط المنشورة في الدراسة التالية :
N. Saliby: "Amrit; *Archeologie et Histoire de la* Syrie II, La Syrie de l'epoque achemenide a l'avenement de l'Islam, ed .J.-M. Dentzer et w. Orthmann, Saarbrucken, 1989,p.28/ fig .8.

(١٧) راجع بهذا الخصوص :
M.Dunand, N. Saliby et A.Kirichian :Les fouilles d'Amrith en 1954,rapport preliminaire;AAA,IV-V, 1955, pl. III/2 et 4 .
J.N. Tubb : The MB II A Period in Palesine , its Relationship with Syria and its Origin; *Levant*, 15, 1983, p. 51, fig. 1 (3-4) .
M. Al-Maqdissi : Apropos de trois vases du Bronze moyen I d' Amrith (Syrie), note preliminaire; NCS, 1, 1986 .

(١٨) R. Braidwood: Report in Two Sondages on the Coast of Syria, South

(١٩) الكسر الفخارية قيد الدراسة من قبل المؤلف .

(٢٠) بالنسبة لمجمل سويات البرونز الوسيط راجع :
J.- P. Thalmann : Tell ' Arqa 1978- 1979, rapport provisoire ; *BMB*, XXX, 1978, pp. 61-75.
J.-P. Thalmann : L'age du Bronze a Tell ' Arqa (Liban- Nord); *OE*, 2, 1991,pp. 20-21.
J.-P. Thalmann : L'age du Bronze a Tell ' Arqa, bilan et perspectives (1981-1991); *Berytus*, XXXIX, 1991, pp. 32-34.

(٢١) بالنسبة للمنتجات الفخارية راجع :

J.-P. Thalmann : Tell ' Arqa 1978-1979, rapport provisoire; *BMB*, XXX, 1978, p. 64/fig. 2 et p. 66/fig. 4.
J. -P. Thalmann : L'age du Bronze a Tell ' Arqa, bilan et perspectives (1981-1991); *Berytus,* XXXIX, 1991, p. 33/fig.8.

(٢٢) بالنسبة للمقالات المنشورة عن هذه المسوحات راجع :

جب تالمان / م المقدسي : التحريات الأثرية في فجوة حمص، مواقع سهل عطار السوري " المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية ١٩٦٩-١٩٨٩" ، دمشق، ١٩٨٩،ص ص ٩٤-٩٧. والترجمة الفرنسية لهذه المقالة تحت عنوان :

J.-P. Thalmann et M. Al-Maqdissi : Prospection de la Trouee de Homs, les sites de la plaine du 'Akkar syrien; *Contribution francaise a l'archeologie syrienne 1969-1989,* Damas, 1989, pp. 98-101 .
J.-P. Thalmann: Prospection de la plaine du 'Akkar syrien ; *AfO*, XXXVI-XXXVII, 1989-1990, pp. 344-346 .

م المقدسي: الكؤوس السورية المزخرفة في فترة البرونز القديم IV ، حصيلة مؤقتة و بعض المعطيات الجديدة " الحوليات الأثرية العربية السورية " ٤٠، ١٩٩٠ ، ص ص ٣١-٥٠.

(٢٣) راجع نتائج المسوحات المنشورة في المقالات التالية :

J. Sapin : Peuplement et milieu de vie dans la vallee du Nahr el-Abrach (principalement a l'qge du Bronze) ; AG, fasc. 3,PP. 39-58.

(٢٤) بخصوص طبيعة القوافل التجارية في الألف الثاني قبل الميلاد والمسافات التي تستطيع أن تجتازها في اليوم الواحد ، راجع الدراسة الهامة المنشورة في الكتاب التالي :

J. Cl. Margueron : Problemes de transports au debut de l'age du Bronze; Reflets des deux fleuves, volume de melanges offerts a Andre Finet , ed M. lebeau et Ph . Talon , Leuven, 1989, pp.119-126.

(٢٥) بطبيعة الحال اجتياز هذه المنطقة لا يخلو من الصعوبات التي تزيد من التوقيت الزمني الذي يجب أن يقطع بين موقعين . من بين هذه الصعوبات اجتياز النهر الكبير الجنوبي أو نهري العروس والأبرش .

(٢٦) هنا لا بد من التنويه إلى أن المسافة بين تلي جاموس والنبي مندو تصل إلى ٤٠ كم مما يجعلنا أمام افتراض وجود موقع هام لم يكشف عنه حتى الآن يقع في منتصف المسافة أي في سهل البقيعة (منطقة أم الدوالي – الريحانية – المشيرفة) .

(٢٧)   راجع الوثائق التي نشرت عن تل عرقا :

J.P. Thalmann : Tell " Arqa 1978-1979, rapport provisoire; *BMB*, XXX,1978,pp.66-67 et pls IV- VI .

(٢٨)   أما بالنسبة للوثائق التي نشرت عن تل عمريت فراجع :

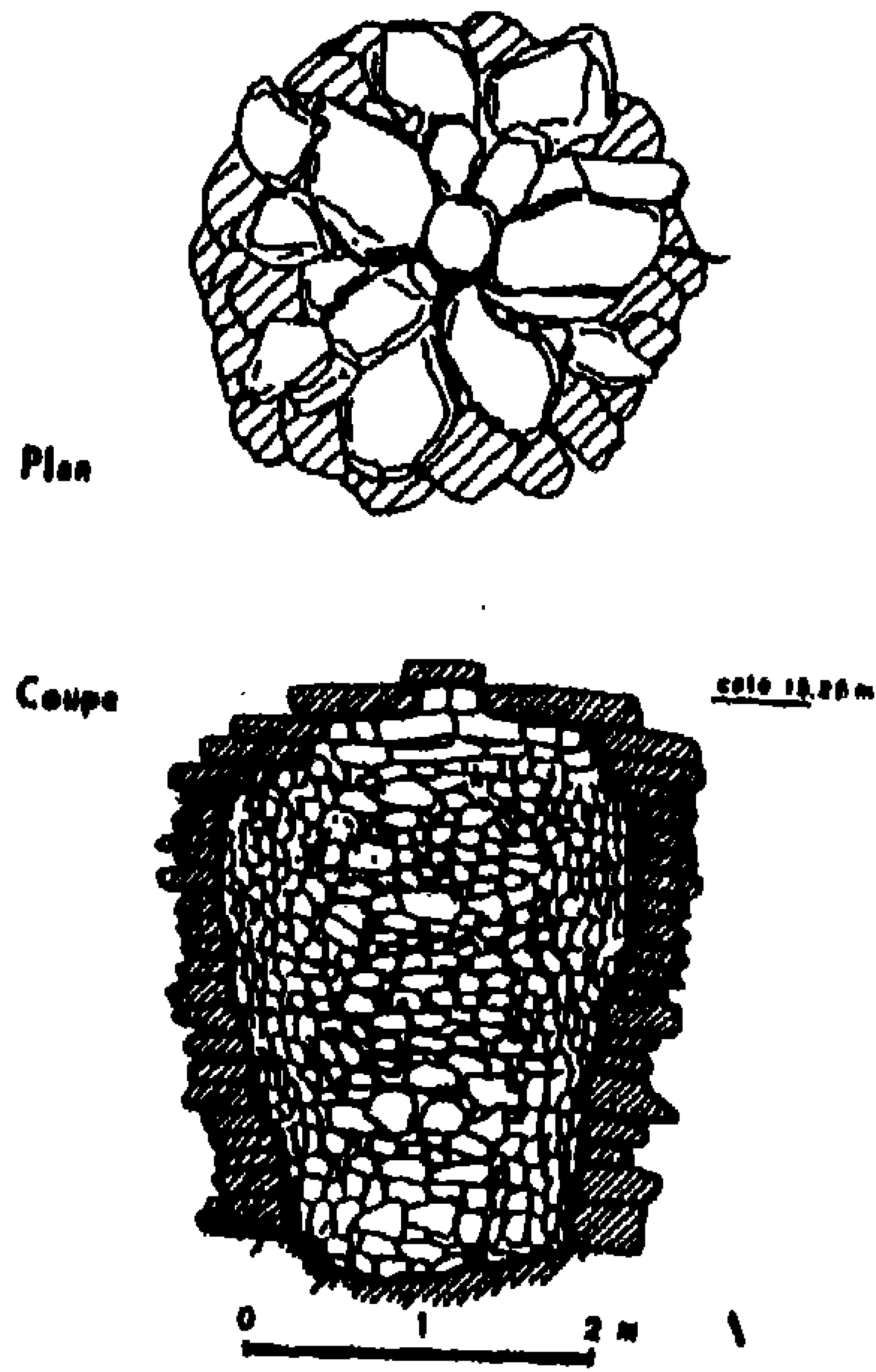
N.Saliby : " Amrit; *Archeologie et Histoire de la* Syrie II, La Syrie de l'epoque achemenide a l'Islam, ed. J.M. Dentzer et W. Orthmann, Saarbruckeb, 1989, p. 28/fig.8.

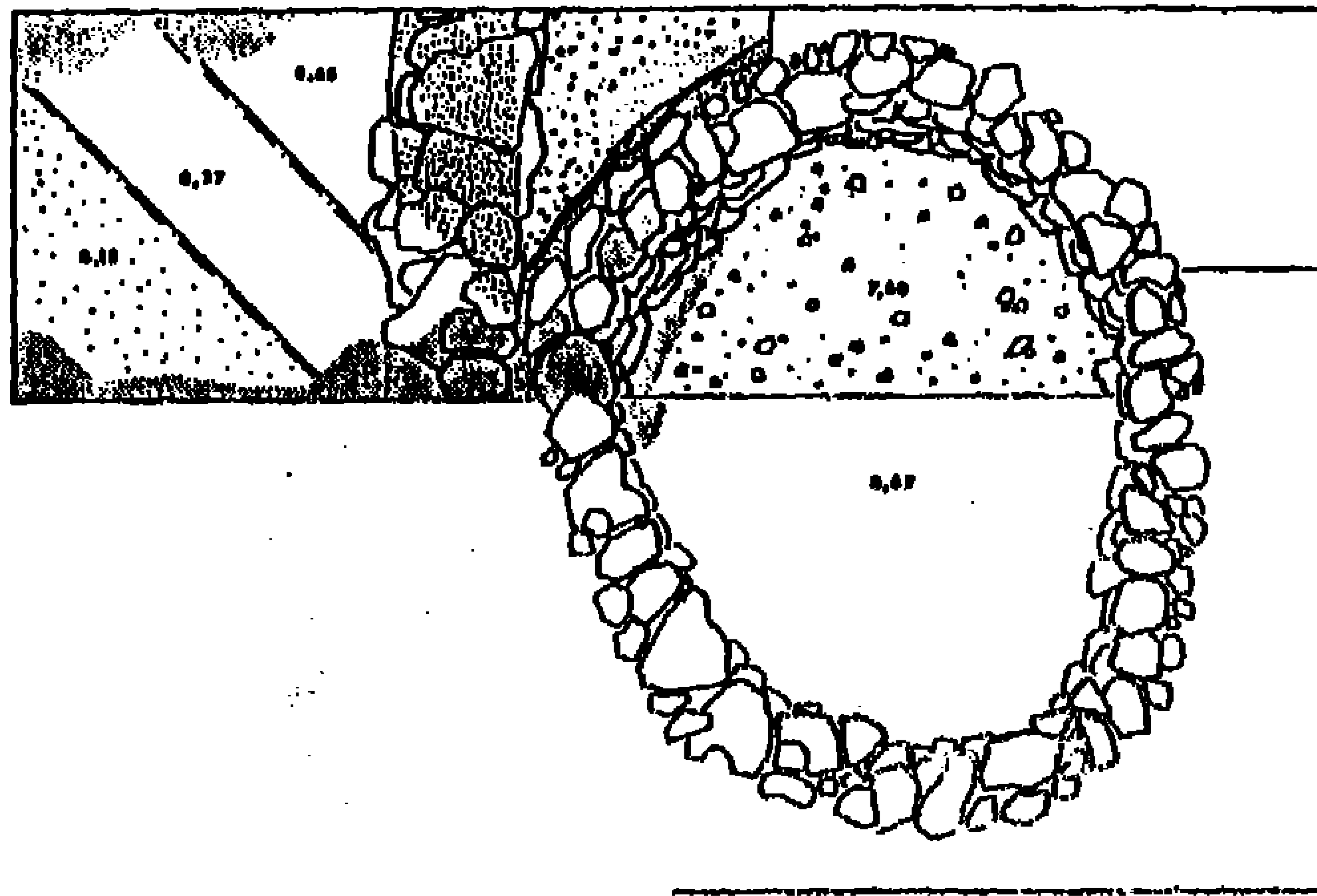
قائمة الاختصارات

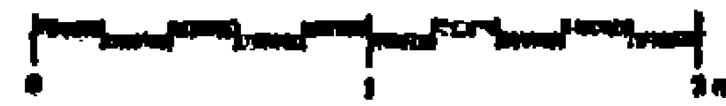
AAAS
Annales Archeologiques Arabes Syriennes.
AfO
Archiv fur Orientforschung.

AG
Annales de Geographie.
BAH
Bibliotheque Archeologique et Historique.
BASOR
Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
BMB
Bulletin du Nusee de Beyrouth.
JESHO
Journal of the Economic and Social History of the Orient.
BNCS
Notes de Ceramologie Syrienne.
OE
Orient-Express.

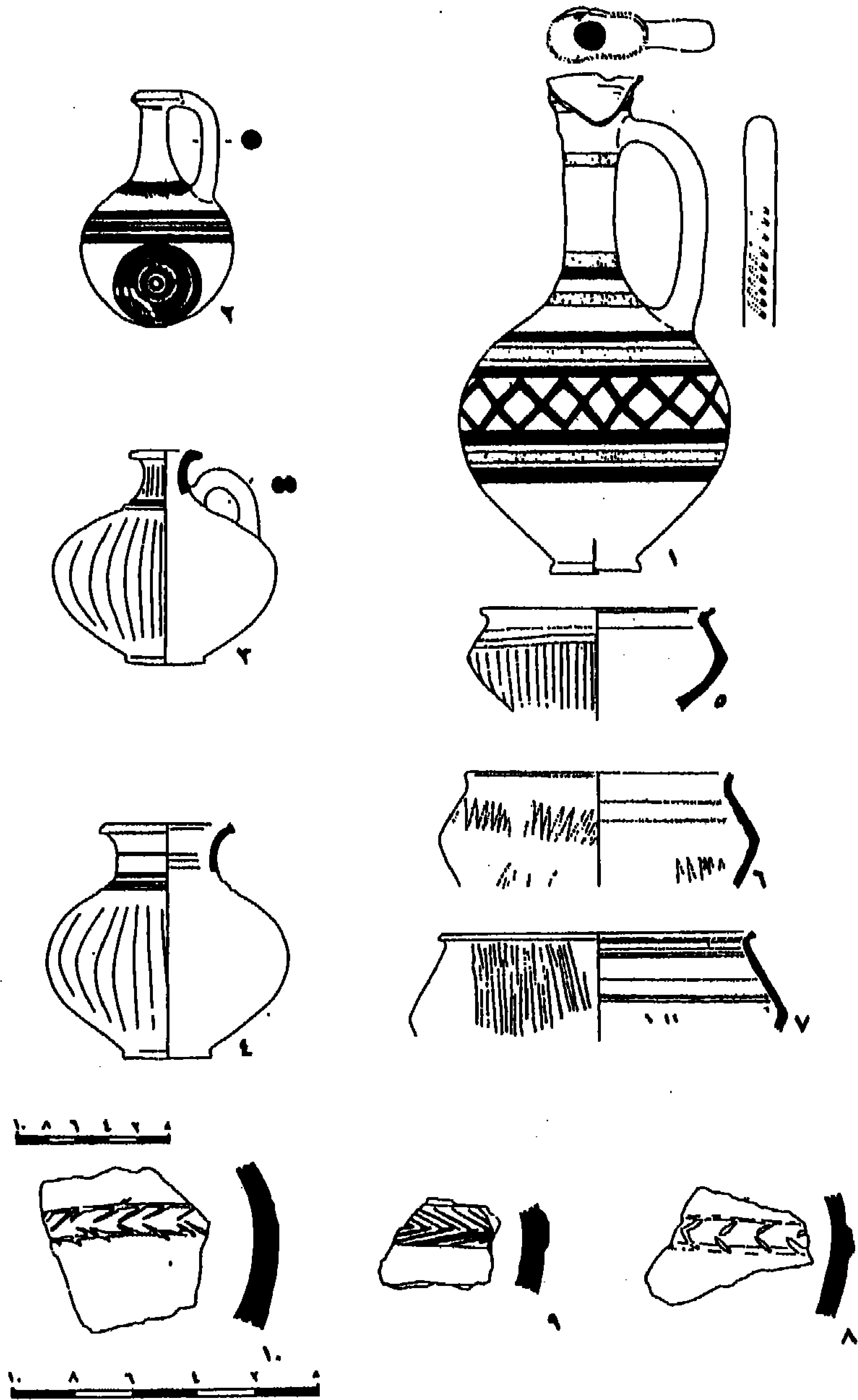
الشكل رقم ١ : خارطة تبين توزع المواقع و التلال الاثرية في سهل عكار العائدة الى فترة البرونز الوسيط .



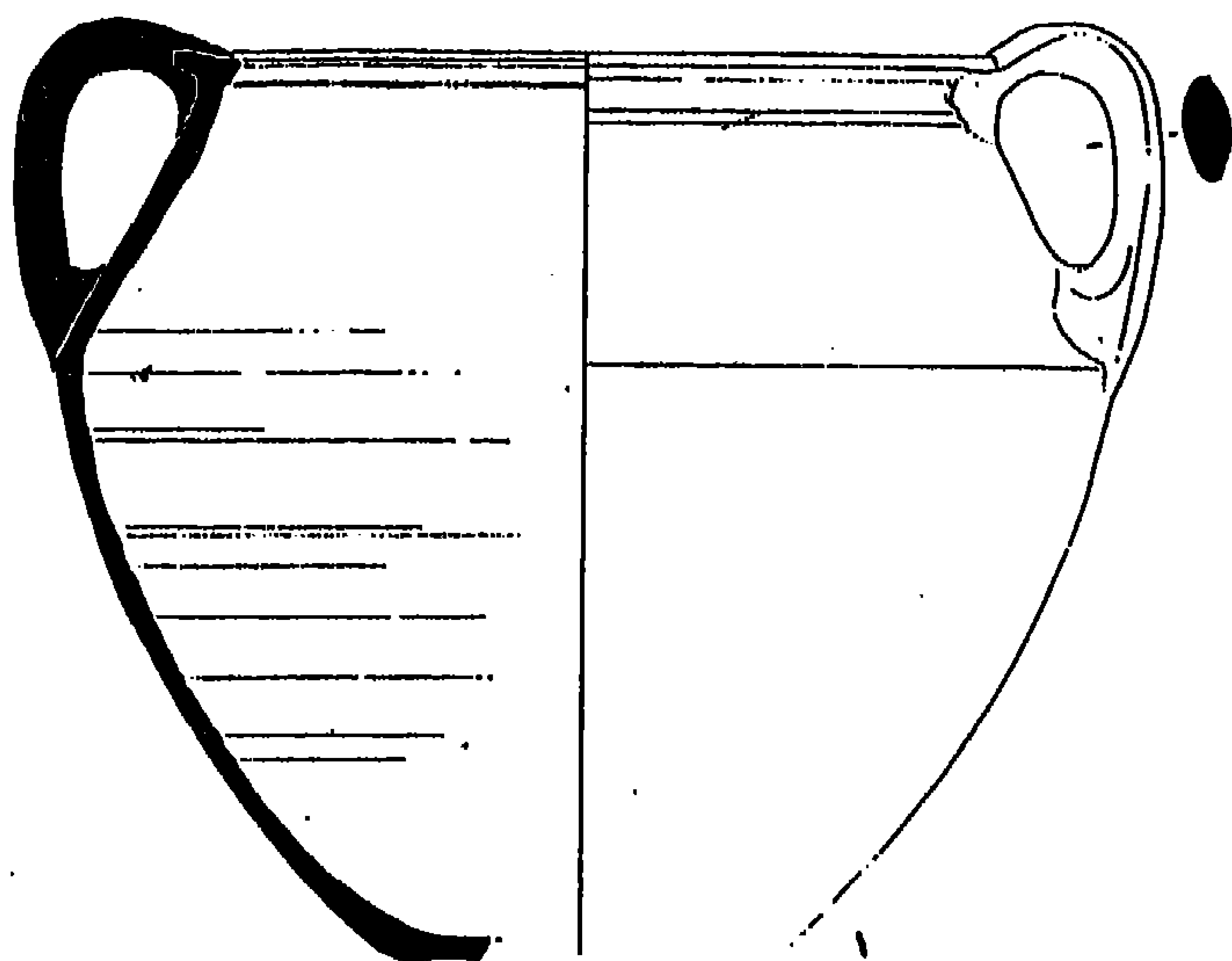


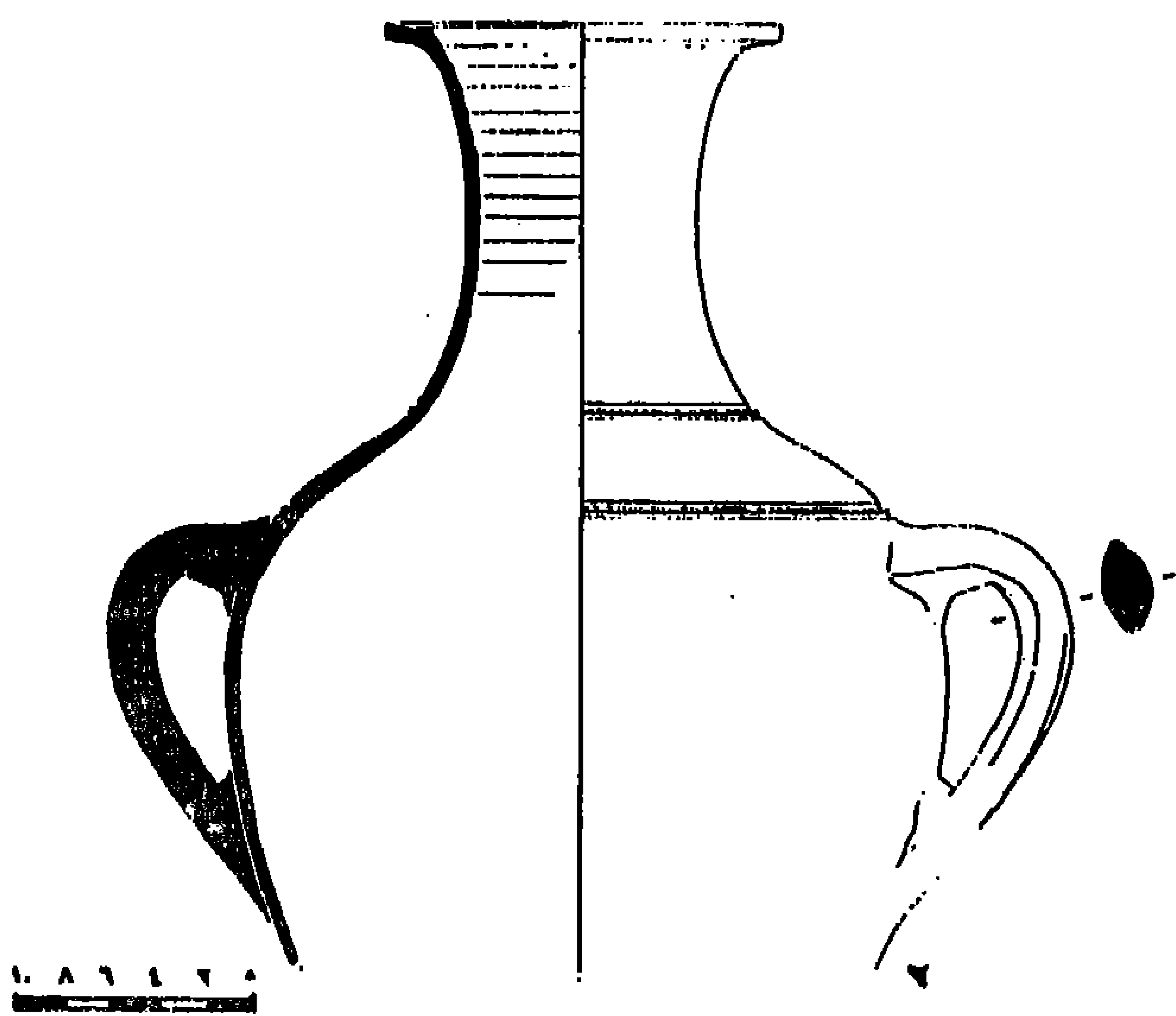


الشكل رقم ٢ : (١) مدفن مبني من الاحجار ، لهه شـــــكل حاصـــل نقلا عن ه ن صليبي ١٩٨٩ / ص ٢٨
ب الشكل ٥٨ ، (٢) حاصل حجري من تل لحة ، حفريات ١٩٨٧ .



الشكل رقم ٣ :(١–٤) منتجات فخارية من تل عمريت ، (٥–١٠) تل الكزل .





الشكل رقم ٤ : جرتان من تل لحة ، حفريات ١٩٨٧ .

III. Prospections archéologiques dans la partie syrienne de la plaine de 'Akkar au nord de Nahr al-Kabir al-Janoubi, réalisées en 1986 et en 1987 par une mission syro-française (DGAM/IFAPO) sous la direction de J.-P. Thalmann et Michel Al-Maqdissi[10].

Les résultats montrent l'abondance d'un matériel daté entre le début du Bronze ancien III et la fin du Bronze moyen II. Les sites occupés au Bronze moyen se répartissent en trois catégories :

I. Grands tells avec une superficie entre 5 et 8 ha : Tell Kazil, Tell Arqa et Tell Jamous.

II. Tells moyens avec une superficie qui varie entre 2 et 5 ha : Tell Bsaissah, Tell Frash, Tell Mandarah et Tell Safroun.

III. Petits tells d'une superficie inférieure à 2 ha : Khirbet 'Aqdo, Khirbet al-Kounaitra, Tell 'Abou Abbid, Tell 'Adas, Tell Shass, Tell Laha, Tell al-Muntar, Tell Koubaybah et Tell Zbib.

---

10 J. P. Thalmann & M. Al-Maqdissi : Prospection de la trouée de Homs, les sites de la plaine du 'Akkar syrien; *Contribution française à l'archéologie syrienne, 1969-1989*, pp. 98-101, Damas, 1990 et J.-P. Thalmann : Prospection de la plaine du 'Akkar syrien 1986-1987, *AfO*, XXXVI-XXXVII, 1989-1990, pp. 344-346.

I. Le niveau 14, le plus ancien, est daté du Bronze moyen I. Il est composé d'un petit foyer domestique installé sur un sol horizontal avec plusieurs fosses profondes remplies de céramique.

II. Le niveau 13, daté du Bronze moyen II, est marqué principalement par une nécropole composée de plusieurs tombes (individuelles ou collectives) de deux types : dans des fosses en pleine terre pour les adultes ou dans des jarres pour les nouveau-nés.

D'après les indications publiées par J.-P. Thalmann, la transition du Bronze moyen II au Bronze récent I (niveau 12) est marquée par une dénivellation consécutive à une destruction ou à un incendie généraux. Par contre, la transition du Bronze ancien IV au Bronze moyen I est caractérisée par une transformation stratigraphique homogène sans aucune rupture majeure.

F. Tell Arda

Tell Arda est un grand site situé à 10 km au sud-est de Ras al-Mina (Tripoli). Il a une forme ovoïde de 300 m de long sur 200 m de large, soit une superficie de 4,5 ha environ.

Les travaux réalisés montrent l'existence d'une occupation assez étendue aux époques suivantes : médiévale, byzantine, romaine, Bronze récent, Bronze moyen II, fin du Bronze ancien et Néolithique[7]. Notons que nous possédons très peu d'information sur la nature du niveau du Bronze moyen et les rapports préliminaires attestent la présence d'une série de tombes dans le secteur I au nord-ouest du tell.

G. Prospections de la Plaine de 'Akkar

La région de 'Akkar est une bande de plaine côtière située entre les villes de Tartous et de Tripoli. Elle a la forme d'un triangle de 30 km de côté, situé sur le versant méditerranéen de la trouée de Homs.

La région de 'Akkar a fait l'objet de trois types de travaux de prospection :

I. Prospection sommaire réalisée par une mission syrienne sous la direction du D^r A. Abou Assaf[8].

II. Prospections de caractère géo-archéologique réalisées de 1972 à 1978 inclus, par une mission française sous la direction de J. Sapin[9].

B.M.B., XXX, 1978, pp. 61-75 ; J.-P. Thalmann : Tall 'Arqa. *AfO*, XXVIII, 1981-1982, pp. 206-208.; J.-P. Thalmann : Les niveaux de l'âge du Bronze et de l'âge du Fer à Tell 'Arqa (Liban); *Atti del I Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici*, Rome 1979, Vol. 2, pp. 217-221, Rome, 1983 et J.-P. Thalmann : L'âge du Bronze à Tell 'Arqa, bilan et perspectives (1981-1991), *Berytus*, XXXIX, 1991, pp. 21-38.

7 H. Salamé-Sarkis : Ardé-Ardata dans le Liban-Nord, une nouvelle cité cananéenne identifiée, *MUSJ*, 1972, XLVII, pp. 123-145 et H. Salamé-Sarkis : Chronique archéologique du Liban-Nord II. 1973-1974 (6. les fouilles de Ardé-Ardata); *BMB*, XXVI, 1973, pp. 99-102.

8 A. Abou Assaf : Archäologische Geländebegehung in den Bezirken Homs, Tartus, Lataqiya und Raqqa, *AfO*, XXVI, 1978-1979, pp. 176-177.

9 Cf. principalement : J. Sapin : Archäologische und geographische Geländebehung im Grabenbrunch von Homs, *AfO*, XXVI, 1978-1979, pp. 174-176; J. Sapin : Peuplement et milieu de vie dans la vallée du Nahr el Abrach (principalement à l'âge du Bronze), *Annales de Géographie*, fasc. 3, 1980, pp. 39-58; J. Sapin : La Trouée de Homs, prospection géographique et archéologique, *Contribution française à l'archéologie syrienne*, 1969-1989, pp. 107-112, Damas, 1990 et J. Sapin : Un domaine de la couronne dans la Trouée de Homs (Syrie) : Origines et transformations de Tiglat-Phalazar III à Auguste, *Transeuphratène*, I, 1989, pp. 21-54.

C. Al-Muntar

Le site ancien est situé au milieu du village de al-Muntar sur la rive droite de Sarout 'Ain al-Sharki, à 16 km au sud-sud-est de Tartous et à quelques mètres de la côte. Il a la forme d'un petit tell circulaire de 150 m de diamètre, soit une superficie de 1,5 ha environ.

Les résultats ont révélé la présence d'une occupation du début du Bronze moyen[4].

D. Tell Kazel

Ce site important est situé au milieu de la plaine de 'Akkar, sur la rive droite de Nahr al-Abrash et à 28 km au sud-sud-est de la ville de Tartous. Le tell, de forme presque triangulaire de 300 m de long sur 275 m de large, a une superficie de 7 ha environ, avec trois accès situés au nord, à l'est et au sud.

Les résultats des fouilles montrent la présence de plusieurs niveaux superposés allant de l'époque mamelouke au Bronze ancien III.

Le niveau du Bronze moyen n'a pas été réellement fouillé, seuls quelques sondages profonds ont été faits principalement sur la bordure septentrionale du tell[5] :

I. Le sondage du chantier nord fut réalisé en 1956 à quelques mètres au nord du sommet du tell. Les fouilleurs distinguent au fond deux couches du Bronze moyen :

- la première couche, la plus récente, doit être située vers la fin du Bronze moyen 3 ou le début du Bronze récent, avec plusieurs intrusions de céramique du Bronze récent II/III et du Fer II.
- la deuxième couche est datée, d'après la céramique, du Bronze moyen 2/3.

II. Les sondages au nord du chantier nord-ouest, effectués en 1962, assurent la présence d'une occupation caractérisée principalement par un rempart à casemates. Les structures de ce rempart sont endommagées par des constructions postérieures datées du Bronze récent II-III, voire du Fer I et II.

III. Les sondages réalisés en 1985 au nord du chantier nord-est dit «Area III» révèlent la présence d'un système de fortification caractéristique du Bronze moyen, composé d'un rempart en pierre large de 0,80 m. Ce dernier est précédé d'un glacis incliné de 45° et composé d'un épais remblai de terre battue jaune.

E. Tell Arqa

Ce site important est situé au sud de la plaine de 'Akkar, sur la rive droite de Nahr Arqa, à 25 km au nord-est de Tripoli. Le tell a une forme tabulaire de 320 m de long sur 230 m de large, soit une superficie de 6,5 ha environ.

Les niveaux d'occupation fouillés couvrent une longue séquence archéologique allant de l'époque mamelouke jusqu'à la fin du Bronze ancien III. Le Bronze moyen comporte deux niveaux d'occupation dégagés principalement dans le premier chantier avec une documentation claire et riche caractérisée par la présence des éléments suivants[6] :

---

4 *Ibid.*

5 Cf. principalement : M. Dunand, A. Bounni & N. Saliby : Fouilles de Tell Kazel, rapport préliminaire, *AAAS*, XIV, 1964, pp. 1-14 ; L. Badre, E. Gubel, M. Al-Maqdissi & H. Sader : Tell Kazel, Syria, AUB Museum Excavations 1985-87, Preliminary Report, *Berytus*, XXXVIII, 1990, pp. 9-97 et L. Badre, E. Gubel, E. Capet & N. Panayot : Tell Kazel (Syrie), rapport préliminaire sur les 4e-8e campagnes de fouilles (1988-1992), *Syria*, LXXI, 1994, pp. 259-346.

6 Cf. principalement : J.-P. Thalmann : Tell 'Arqa (Liban Nord), campagnes I-III (1972-1974) chantier I, rapport préliminaire, *Syria*, LV, 1978, pp. 1-151 ; J.-P. Thalmann : Tell 'Aqa 1978-1979, rapport provisoire,

LA PLAINE DE 'AKKAR AU BRONZE MOYEN (2000-1600 av. J.-C.)

(Les données archéologiques)

Michel Al-Maqdissi
(Ministère de la Culture-Damas)

(Résumé)

A. 'Amrit (le tell antique)[1]

Le tell antique d'Amrit est situé sur la rive gauche de Nahr 'Amrit, à 7 km au sud de la ville de Tartous et à 0,7 km de la côte. Il a une forme presque carrée de 130 m de long sur 120 m de large, soit une superficie de 1,5 ha environ.

Les rapports préliminaires montrent la présence de quatre niveaux d'occupation principaux[2] :

I. Un grand bâtiment en pierre dégagé à la surface du tell, daté du Fer III.

II. Une série de petites structures en pierre datées de la deuxième moitié du Fer II.

III. Une nécropole datée entre la fin du Bronze ancien et le début du Bronze récent.

IV. Un gisement de céramique de la fin du Bronze ancien.

La nécropole du Bronze moyen est caractérisée par la présence de deux types de tombes :

I. Une série de huit tombes en pierre en forme de silo ovoïde.

II. Une série de quatre jarres funéraires de nouveau-nés, posées sur un lit de tessons.

B. Tell Abou Ali (Tell Simirian)

Tell Abou Ali est situé sur la rive gauche de Nahr Simirian à 19 km au sud-est de Tartous et à 6,5 km de la mer. Il a une forme elliptique de 200 m de long sur 150 m de large, soit une superficie de 2 ha environ.

Les résultats publiés sommairement prouvent la présence d'une stratification allant du milieu du Fer II jusqu'à la fin du Bronze ancien II. L'occupation du Bronze moyen, dégagée dans le carré III du grand sondage en escalier sur la pente nord-ouest du tell, apporte très peu d'information : un sol mince associé à du matériel céramique daté du Bronze moyen II[3].

---

1 Pour la documentation graphique, cf. la partie arabe de cette même revue.

2 Cf. principalement : M. Dunand, N. Saliby & A. Kirichian : Les fouilles d'Amrith en 1954, rapport préliminaire, *AAAS*, IV-V, 1954-1955, pp. 189-204 ; M. Dunand & N. Saliby : A la recherche de Simyra, *AAAS*, VII, 1957, pp. 3-16 et N. Saliby : 'Amrit, *Archéologie et Histoire de la Syrie II*. La Syrie de l'époque achéménide à l'avènement de l'Islam, éd. J. M. Dentzer et W. Orthmann, pp. 19-30, Saarbrücken, 1989.

3 R. Braidwood : Report in Two Sondages of the Coast of Syria, South of Tartous, *Syria*, XXI, 1940, pp. 183-226.

Abbildungslegenden

Abb . 1 : ar - Raqqa / ar Rāfiqa Nordtor der Stadtmauer , nach der Ausgrabung 1984 (Foto : Deutsches Archäologisches Institut Damaskus / Michael Meinecke) .

Abb . 2 : ar - Raqqa / ar Rafiqa , Große Moschee : Zisterne bei der Frei - räumung 1991 (Foto : Deutsches Archäologisches Institut Damaskus / Anwar Abdel Ghafour) .

Abb . 3 : ar - Raqqa , Palastgürtel : Ostausläufer mit Grabungsareal Ost und den Palästen B (planiert) , C und D (in ausgegrabenem Zustand) an der Stelle des heutigen Hammelmarktes , Luftaufnahme 1980 (courtesy Stadtverwaltung von Raqqa).

Abb . 4 : ar-Raqqa, Grabungsareal Ost: Gesamtplan, Zustand 1992 (Zeichning : Norbert Hagen mit Horst Bidiak) , Maßstab 1 : 3000 .

Abb . 5 : ar - Raqqa , Grabungsareal Ost : Ostpalast , nach dem Teil - Wiederaufbau 1989 (Foto : Norbert Hagen) .

Abb . 6 : ar-Raqqa, Grabungsareal Ost: Ostkomplex ,Stuckdekor , ergraben 1991 (Foto : Deutsches Archäologisches Institut Damaskus , Anwar Abdel Ghafour)

Abb . 7 : Münze des Hārūn ar - Rašīd aus dem Westpalast , geschlagen 189 / 804 - 5 in ar Rāfiqa (Foto : Deutsches Archäologisches Institut / Michael Meinecke) , Maßstab 1 : 2 .

Abb . 8 : ar - Raqqa , Grabungsareal Ost : Westpalast Betraum der Palastmoschee , nach der Ausgrabung 1986 (Foto : Deutsches Archäologisches Institut Damaskus / Klaus Anger) .

Abb . 9 : ar - Raqqa , Grabungsareal Ost :Westpalast , Südwestecke der Südterrasse mit Stuckdekor, während der Ausgrabung 1985 (Foto : Deutsches Archäologisches Institut Damaskus / Peter Grunwald) .

Abb . 10 : ar - Raqqa , Grabungsareal Ost : Glasinventar aus dem Nord - komplex , geborgen 1987 (Foto : Deutsches Archäologisches Institut Damaskus / Angelika Kohlmeier) .

Abb . 11 : ar - Raqqa , Nordostkomplex : Portal des Hauptgebäudes bei der Ausgrabung 1989 (Foto : Deutsches Archäologisches Institut Damaskus / Michael Meinecke) .

Abb . 12 : ar - Raqqa, Tall Aswad : Keramikofen während der Ausgrabung 1985 (Foto : Deutsches Archäologisches Institut Damaskus / Peter Grunwald) .

Raqqa eine zusätzliche Priorität .

Weiterfuhrende Literatur :

- [Ausstellungskatalog] Land des Baal . Syrien - Forum der Völker und Kulturen , herausgegeben von Kay Kohlmeyer - Eva Strommenger (Mainz 1982) ; arabische übersetzung (Wien 1985) .
- Waqae an - nadwat ad - dauliya li - tārīh ar - Raqqa wa ātārhā , ar - Raqqa , 24 . - 28. Tišrīn Awal 1981 (2 Ausgaben : Damaskus 1984 ; ar - Raqqa 1984)
- Damaszener Mitteilungen 2 , 1985 , mit Beiträgen von Norbert Hagen Jan-Christoph Heusch , Murhaf al - Khalaf , Kay Kohlmeyer , Michael Meinecke und Kassem Tweir .
- Jan Christoph Heusch - Michael Meinecke . Die Residenz des Harun al - Raschid in Raqqa . Qasr Hārūn ar - Rašīd fi r - Raqqa (Damaskus 1989) : deutsch - arabischer Kurzführer anläßlich der Eröffnung des restaurieten Ostpalastes (erhältlich im Museum von Raqqa) .
- Bilād al - Shām during during the Abbasid Period (132 A . H . / 750 A . D . - 451 A . H. /1059 A . D .) . Proceedings of the fifth International Conference on the History of Bilād al - Shām , 7 - 11 Sha'ban 1410 A . H . / 4 - 8 March , 1990 , 2 Bände (Amman 1412 A . H . / 1991 A . D .) : arabischer Teil herausgegeben von Muhammad Adnan al - Bakhit ; englisch - französischer Teil herausgegeben von Muhammad Adnan al - Bakhit - Robert Schick .

Die Ergebnisse des Forschungsprojektes in ar - Raqqa werden in einer Serie von Abschlußberichten vorgelegt , die im Rahmen der Publikationsorgane der Station Damaskus des Deutschen Archäologischen Instituts herausgegeben werden . Der Anfangsband , der die Dokumentation der frühislamischen Keramikwetrkstätte des Tall Aswad enthalten wird , soll voraussichtlich 1994 erscheinen .

Eine fünfte Anlage am Nordrand des Gartenareals wurde in insgesamt drei Kampagnen mit Sondagen und Flächengrabungen untersucht.

Dabei handelt es sich um den letzten Teil einer ehemals etwa 300 x 400 m großen T - förmigen Baugruppe, dem sogenannten Nordost komplex dessen Mauern noch über zwei Meter hoch anstanden (Abb. 11). Diese Mauern gehören offenbar zu Substruktionen eines auf die Aussicht auf den nördlich vorgelagerten Garten bezogenen Gebäudes mit zwei parallelen Innenhöfen.

Planierungsmaßnahmen im Zuge von Straßenbauarbeiten veranlaßten zudem im Sommer 1985 eine Notgrabung an einem markanten Hügel südlich des Tall al - Bī^{c} a, unweit der Nordostecke der hellenistischen Stadtgründung Nikephorion (dem umayyadischen Raqqa). Diese Tall Aswad (der schwarze Tall) genannte Anhöhe, die sich durch zahlreiche Keramikfragmente und starke Ascheschichten auszeichnet, erwies sich als Produktionsstätte frühislamischer Keramik, zumal hier erstmals auch ein Töpferofen (Abb. 12) freigelegt werden konnte. Da die in großer Zahl geborgene stratifizierte Keramik dem Inventar der bearbeiteten Palastanlagen weitgehend entspricht, ist diese Keramikwerkstätte offenbar ebenfalls in die Zeit des Kalifen Harun ar - Rašīd zu datieren.

Zudem wurde in der letzten Kampagne des Frühjahres 1992 ein weiterer teilweise bereits planierter Hügel westlich des Tall Aswad untersucht, der aufgrund zahlreicher Glasklumpen in Verbindung mit Ascheschichten wiederum auf eine industrielle Fertigungsstätte schließen ließ. In der Tat kam dort eine weitläufige Werkstätte mit einem Glasofen zutage, die nach Aussage der Münzen sowie der Keramikfunde offenbar bis ins 9. Jahrhundert zurückreicht.

Damit ist der Nachweis gelungen, daß die Blütezeit der Stadt ar - Raqqa unter Hārūn ar - Rašīd nicht nur zur sprunghaften Ausdehnung des Siedlungsgebietes führte sondern parallel auch von einer gesteigerten industriellen Tätigkeit begleitet wurde.

Das inzwischen als weitgehend abgeschlossen zu betrachtende Grabungsprojekt des Deutschen Archäologischen Instituts Damaskus hat demnach dazu beigetragen, die wichtige Rolle von ar - Raqqa für die Kunstentwicklung der islamischen Welt neu zu definieren angesichts der überregionalen kunsthistorischen Bedeutung wäre zu hoffen, daß diese wichtige Ruinenstätte als Zeugnis einer ruhmreichen Vergangenheit mit den noch nicht überbauten Restbereichen auch in Zukunft erhalten bleiben könnte. In diesem Zusammenhang beansprucht auch die Präsentation der Grabungsfunde im Museum von ar -

vierzig Jahre in Benutzung stand, zumal mit der Gründung der neuen Residenzstadt Sāmarrā am Tigris im Jahr 221 / 836 sich dem Hofstaat der ᶜAbbāsidenkalifen neue Bauaufgaben stellten.

Diese zeitliche Einordnung am Anfang des 9. Jahrhunderts kam auch auf die anderen untersuchten Anlagen des Palastgürtels übertragen werden. So auch auf die westlich des öffentlichen Platzes gelegene, als Westpalast bezeichnete Anlage, bei der sich deutlich gegeneinander abgesetzte funktionale Bereiche unterscheiden lassen. Einem dem östlichen Parallelgebäude entsprechenden Repräsentationstrakt sind mehrere Wohnhöfe zur Seite gestellt, an die sich im Norden ein Sakraltrakt mit einem integrierten Moscheeraum (Abb. 8) anschließt. In dem Repräsentationstrakt mit der charakteristischen Dreiraumgruppe und vorgelagerten, ehmals arkadenartig geöffnetenTerrassen sind die Stuckrahmen der Türöffnungen zumeist noch über 1 m hoch erhalten (Abb. 9). Insgesamt konnte an dieser Anlage der komplette Ausstattungszyklus aus über 30 Stuckbordüren und -feldern geborgen werden, der nach Restaurierung im Nationalmuseum von Damaskus heute im Museum von ar-Raqqa ausgestellt ist.

In der Kampagne des Jahres 1987 konnte schließlich auch die Nordbebauung des öffentlichen Platzes untersucht werden. Dort liegt eine große quadratische, arbeitsintern als Nodkomplex bezeichnete Anlage von 150 m Seitenlänge die im Süden der von Hiraqla heran-geführte Kanal und im Norden eine am Palast D vorbeiführende Straße Begrenzt. Mit insgesamt neun Schnitten ließ sich das Planschema der Anlage weitgehend bestimmen. Hierbei handelt es sich um eine von Norden aus zugängliche zweigeteilte Anlage, deren Innenhöfe von Raumzeilen umgrenzt werden. Diese aufgrund der Ausstattung. als Wohnungen anzusprechenden Raumreihen weisen auf eine Nutzung als Kaserne. Die Mitte des Westflügels bestimmt ein zentraler Wohntrakt, bei dem sich über 30 Räume um drei Höfe gruppieren. Dieser abgeschlossene Raumtrakt diente offenbar als Wohnung des Kommandanten der Anlage, in der entsprechend den benachbarten Palästen ebenfalls repräsentative Dreiraumgruppen auftreten - allerdings in weitaus bescheideneren Proportionen.

Den erfreulich hohen Lebensstandard der Hofbeamten des Hārūn ar-Rašīd bezeugen überraschend qualitätvolle Kleinfunde, die aus den Latrinen neben der nördlichen Dreiraumgruppe geborgen wurden. In den Latrinenschäften fanden sich nämlich in über 6 m Tiefe unzählige Fragmente von mindestens 135 Glasgefäßen, teilweise mit ausgesprochen luxuriösem Dekor (Abb. 10).

ar - Raqqa deutliche Hinweise . Die Nutzung des Areals außerhalb der 155 / 772 gegründeten ʿabbāsidischen Stadt wird nämlich erst durch ein Kanalsystem ermöglicht , das der Kalif Harun ar - Rašīd anlegen ließ : Zwei Hauptkanäle erschließen das mit Gärten und Palästen durchsetzte Gebiet außerhalb der Stadtmauern ein von westen herbeigeführter Euphratkanal und ein von Norden zugeleiteter Balīḫ - Kanal . Der Westkanal ist Knapp nach der Abzweigung vom Euphrat , etwa 8 Km westlich der Stadt , von einer großen Palastanlage mit einer 500 m im Durchmesser messenden Ringmauer geschützt , die nach arabischen Quellentexten dem Kalifen Hārūn ar - Rašīd zugeschrieben werden kann . Nach neuen Untersuchungen handelt es sich bei dieser Hiraqla genannten Anlage um ein zur Erinnerung an den erfolgreichen Feldzug Harun ar - Rašīds des Jahres 190 / 806 errichtetes Siegesdenkmal .

Der durch Hiraqla geführte Kanal , der auch den Ostausläufer des Palastareals am Fuße des Tall al - Bīʿa durchzieht , kann demnach mit dem aus Schriftquellen bekannten an - Nīl des Hārūn ar - Rašīd identifiziert werden . Darüber hinaus ist belegt , daß der Kalif in Folge der Verlegung seiner Residenz von Baġdād nach ar - Raqqa auch mehrere Paläste errichten ließ .
Folglich kann die Aktivierung des Areals außerhalb der ʿabbāsidischen Stadt und damit auch die Bebauung mit Palastanlagen dem Kalifen Hārūn ar - Rašīd zugeschrieben werden . Bei den Bauten des Gartengürtels außerhalb der Stadt handelt es sich also um Paläste des Kalifen und seines Hofstaates , der 796 mit Hārūn ar - Rašīd von Baġdād nach ar - Raqqa zog . Zu diesen Anlagen aus der Blütezeit von ar - Raqqa gehört auch der mit seiner prominenten Lage hervorgehobene , inzwischen durch einen Teilwiederaufbau konservierte Ostpalast (Abb . 5) mit dem nördlich anliegenden Gebäude . Dafür sprechen auch die Münzfunde, die zu einem auffallend großen Teil auf Hārūn ar - Rašīd bezogen sind . Aufschlußreicherweise sind in ar - Rāfiqa geschlagene Kupfermünzen des Jahres 189 / 804 - 5 (Abb . 7) besonders zahlreich , die für diesen Teil des Palastareals eine Hauptnutzungszeit am Anfang des 9 . Jahrhunderts bezeugen .

Mit der Rückverlegung der Kalifenresidenz nach Baġdād im Jahr 192 / 808 dürften die Paläste nur mehr sporadisch als Sommersitz benutzt worden sein . Jedenfalls sind bei den Grabungen auch einige vereinzelte Münzen der unmittelbaren Nachfolger des Hārūn ar - Rašīd gefunden worden . Allerdings legt der numismatische Befund nahe , daß das Palastareal insgesamt nur maximal

Architekturbefunde in die Fläche ausgedehnt werden konnten Diese ersten Testgrabungen bestätigten die aus Geländebeobachtungen und älteren Luftbildern (Abb . 3) erschlossene Disposition eines an drei Seiten umbauten Platzes , an dessen Nordseite ein Bewässerungskanal vorbei führt .

Da als Folge der Grabungstätigkeit des Jahres 1982 der Bebauungsplan vorläufig ausgesetzt wurde , konnten in neun weiteren Kampagnen bis zum gegenwärtigen Zeitpunkt insgesamt fünf größere Anlagen und zwei frühisla - mische Produktionsstätten für Keramik bzw . Glas genauer untersucht werden . Den Schwerpunkt der Untersuchungen , die in den letzten Jahren auch von der Deutschen Forschungsgemeinschaft gefördert wurden , bildet der Südostausläufer des Palastgürtels mit der von Gebäuden umgrenzten öffentlichen Platzanlage (Abb . 4) .

Als besonders aufschlußreich erwies sich dort das bereits 1982angeschni - ttene , als Ostpalast bezeichnete Gebäude an der Ostseite der Platzanlage , das mit einer Grundfläche von etwa 70 x 40 m weitgehend freigelegt werden konnte. Bei diesem Gebäude handelt es sich um eine nach Süden auf die Euphratauen ausgerichtete Hofanlage . Die gesamte Südseite wird von drei gro - ßen , untereinander verbundenen Repräsentationsräumen eingenommen . Alle Türgewände des Repräsentationstraktes waren usrprünglich mit Stuckfr -iesen dekoriert , die jedoch schon früher , offenbar beim Abbau der aus Backsteinen aufgemauerten Türrahmen weitgehend zerstört worden sind .

Zum Schutz der freigelegten Lehmziegelmauern und zur Präsentation der Ruine ist ein rekonstruierender Teilwiederaufbau durchgeführt worden , der nunmehr vor Ort einen räumlichen Eindruck dieser Anlage vermitteln kann (Abb . 5) . Die Einweihung dieses wiedergewonnenen Baudenkmals konnte im Früjahr 1989 feierlich begangen werden .

In einem inhaltlichen Zusammenhang mit dem repräsentativen Funktionen vorbehaltenen Ostpalast steht offenbar das nördlich anschließende , als Ostkomplex bezeichnete Gebäude , das durch schräge Mauerführung und relativ kleine Räume gekennzeichnet ist . Nach den ersten Untersuchungen der Anfangskampagne wurde die Grabung an dieser Staelle mit systematischen Schnitten in den beiden letzten Jahren wieder aufgenommen . Obwohl das Raumsystem nicht völlig erschlossen werden Konnte , scheint es sich aufgrund des reichen Baudekors (Abb . 6) weniger um ein wohngebäude als vielmehr um eine öffentlich nutzbare Anlage zu handeln .

Für die genauere zeitliche Einordnung gibt die Gesamttopographie von

Maße auch der für ar - Raqqa typischen mittelalterlichen Glasurkeramik .

Die beiden deutschen Archäologen hatten bei ihrem kurzen Aufenthalt in ar - Raqqa allerdings übersehen , daß außerhalb des Mauerrings der ^{c}Abbāsidenstadt ein bis zu 3 m breites Ruinengelände mit damals fast ungest - örten großen Palastanlagen existierte . Die Ausdehnung dieses Palastareals wurde erstmals durch ein 1924 aufgenommenes Luftbild erkennbar . In dem bereits 1934 unter Denkmalschutz gestellten Ruinengelände außerhalb der ^{c}Abbāsidischen Stadtanlage wurden in einer über 25 Jahre andauernden Grabungstätigkeit zwischen 1944 und 1970 insgesamt vier monumentale Palastanlagen (A / B / C / D) archäologisch untersucht . Die zunächst von fra - nzösischen Archäologen begonnenen Grabungen wurden wenig später von der Generaldirektion der Altertümer und Museen Syriens Weitergeführt . Die wichtigsten Grabungsfunde sind heute im Damaszener Nationalmuseum und einige auch im Museum von ar - Raqqa ausgestellt .

Mit diesen Ausgrabungen konnte angesichts der Weitläufigkeit des Rui - nengeländes und der großzügigen Dimensionen der einzelnen Anlagen nur ein vergleichsweise bescheidener Teil der alten Bebauung untersucht werden . Das ist umso bedauerlicher , als ar- Raqqa in einer letzten Entwicklungsphase - auf - grund einer beispiellosen industriellen und landwirtschaftlichen Reaktivierung der Region - innerhalb von nur zwei Jahrzehnten zu einer Großstadt mit über 100.000 Einwohnern anwuchs , die auch das Palastgebiet sukzessive immer wei - ter überlagerte .

Als sich die Stadt auch auf ein letztes bislang freigebliebenes Areal westlich des Tall al - Bī^{c} a auszudehnen drohte (Abb . 3) , wurde die Damaszener Station des Deutschen Archäologischen Instituts von der Genera - ldirektion der Altertümer und Museen Syriens aufgefordert , hier eine Notgra - bung durchzuführen . Diese Aufforderung wurde auch deshalb gerne aufge - griffen , weil somit die 75 Jahre zuvor bereits geäußerte Absicht zur Erforschung der ^{c}Abbāsidischen Kalifenresidenz nachträglich verwirklicht werden konnte .

Die im Spätsommer 1982 aufgenommenen Notgrabungen waren zunächst methodisch durch die gegebene akute Gefährdung des Geländes zwischen dem östlichen Siedlungsrand der Stadt und dem Tall al - Bī^{c} a bestimmt :Da es galt , die historische Bebauung eines etwa 600 x 400 m großen Areals zu klären , war eine Flächengrabung von vorneherein ausgeschlossen . Stattdessen wurden gegeneinander versetzte Nordsüdschnitte angelegt , die nach Maßgabe der

einem aufwendigen Arbeitsprogramm in den letzten Jahren durch die Antike - ndirektion von ar - Raqqa restauriert . Im Zuge dieser Restaurierung wurde schließlich im Sommer 1984 auch das bislang verschüttete nördliche Haupttor der Stadt (Abb . 1) freigelegt . Von der heute verlorenen Außenmauer zeugt nur noch ein isolierter Torbau an der Südostecke der Stadtbefestigung , der Bāb Baġdād (das Baġdād - Tor) . Dieses Stadttor ist allerdings aufgrund der auffallend reichen Ziegelornamentik nicht der Gründungsperiode der Stadt zugehörig , sondern dem 12 . Jahrhundert zuzuweisen .

Der Gründungszeit des 8 . Jahrhunderts ist jedoch die verfallene Freitag - smoschee zuzuzählen . Die bis heute aufrechtstehenden Bauteile , die Hoffass - ade des Betraumes und das Minarett stammen allerdings nicht von dem Urspr - ungsbau , sondern sind nach Aussage einer Bauinschrift erst im Zuge einer Restaurierung nach der Mitte des 12 . Jahrhunderts aufgeführt worden . Sie sind somit eindeutige Belege fürdas Weiterleben der Stadt bis ins hohe Mittela - lter . Auch diese Moschee wird seit mehreren Jahren von der Antikendirektion von ar - Raqqa restauriert und neuerdings unter der Mitwirkung des Deutschen Archäologischen Instituts auch detailliert archäologisch untersucht (Abb . 2) .

Ein weiteres Denkmal des 12 . Jahrhunderts ist der " Mädchenpalast " (Qasr al -Banāt) , der von der Generaldirektion der Altertümer und Museen Syriens ausgegraben und teilweise wiederaufgebaut wurde .

II - Die Residenz des Hārūn ar - Rašīd

Die hier einleitend kurz vorgestellte Euphratstadt ar - Raqqa war bereits Anfang des Jahrhunderts als Grabungsplatz von deutschen Wissenschaftlern in Erwägung gezogen worden . Die bereits genannten deutschen Archäologen Friedrich Sarre und Ernst Herzfeld hatten die Ruinen der Stadt 1907 auch deshalb ausführlich untersucht und dokumentiert , um eine geplante Grabung an dieser Stelle vorzubereiten . Dieses Vorhaben wurde jedoch zugunsten von Sāmarrā im mesopotamischen Kernland aufgegeben (also für jene 221 / 836 in überaus monumentalen Dimensionen angelegte Palaststadt , die als Kalifen - residenz das Erbe von Baġdād und ar - Raqqa übernahm) . Als wesentliche Argumente gegen eine Ausgrabung wird die mittelalterliche Überbauung der ᶜAbbāsidenstadt und vor allem die durch unzählige Raubgrabungen auch damals schon gestörte Fundsituation angeführt . Diese Raubgrabungen galten nicht nur den als Baumaterial begehrten Backsteinen , sondern in besonderem

zu erkennen : 1 . der frühgeschichtliche Tall , 2 . die antike Stadt und 3 . die islamische Stadt .

Den Ursprung der städtischen Siedlung am Kreuzpunkt alter Handelsstraßen bzw . an der Mündung des Balīḫ - Flusses in den Euphrat markiert der Tall al - BĪ^{c}a . Auf diesem ausgedehnten Ruinenhügel mit einem Durchmesser von fast 700 m , der nach Schriftquellen vermutlich mit der altbabylonischen Stadt Tuttul aus dem 2 . Jahrtausend vor Christus identifiziert werden' Kann , finden seit 1980 jährliche Ausgrabungen der Deutschen Orient Gesellschaft statt .

Südlich des Tall al - BĪ^{c}a gründete der Seleukide Nicator Anfang des 3 . Jahrhunderts vor Christus am Ufer des Euphrat eine neue , Nikephorion genannte Stadt . Die im 6 . nachchristlichen Jahrhundert mit einem neuen Befestigungsring verstärkte Stadtanlage wurde im jahr 18 / 639 für den Islam erobert undin ar - Raqqa (die Flußniederung) umbenannt .

Im Zentum der antiken Stadt wurde nach der islamischen Eroberung eine erste Freitagsmoschee errichtet , deren Minarett 1907 beim Besuch von Friedrich Sarre und Ernst Herzfeld noch aufrecht stand . Heute ist dieses Areal fast vollständig überbaut , einschließlich des alten Friedhofs , auf dem das Grab des Uwais al - Qaranī, eines Gefährten des Propheten verehrt wurde . Am Südrand des Friedhofs wurden bereits 1983 in Zusammenarbeit mit der Antikendirektion von ar - Raqqa sowie der Deutschen Orientgesellschaft eine Reihe von Sondagen durchgeführt , bei der Reste der spätantiken Stadtmauer des 6 . Jahrhunderts nach Christus freigelegt werden konnten .

Ein wichtiger Neuansatz in der Stadtentwicklung war erreicht als der ^{c}Abbāsidenkalif al - Mansur im Jahr 155/ 772 westlich neben ar - Raqqa/ Nikephorion in monumentalen Dimensionen eine neue Stadt , genannt ar - Rāfiqa (die Gefährtin) , gründete . Diese nach Aussagen früher Chroniken nach dem Vorbild der nur zehn Jahre älteren Hauptstadt des ^{c}Abbāsidenreiches Baġdād - angelegte Neugründung übernahm nicht nur allmählich die Funktion der älteren Schwesterstadt , sondern spätestens im 10 . Jahrhundert auch deren Namen : ar - Raqqa . Ein Vierteljahrhundert nach ihrer Neugründung erhielt die Grenzfestung am Euphrat überregionale Bedeutung , als der Kalif Hārūn ar - Rašīd im Jahr 180 / 796 seine Residenz von Baġdād nach ar - Raqqa verlegte .

Von der Gründungszeit zeugt der noch auf einer Länge von über 2500 m erhaltene , ursprünglich jedoch über 4500 m lange Befestigungsring und die alte (zweite)Freitagsmoschee . Die Hauptmauer der Stadtbefestigung wurde in

ar - Raqqa - die islamische Stadt

Michael Meinecke

Die Stadt ar - Raqqa ist in ihrer historischen Entwicklung durch die zentrale Lage am mittleren Euphrat bestimmt :
ar - Raqqa gilt als Hauptstadt der Jazīra / die Insel genannten Region zwischen Tigris und Euphrat im Schnittpunkt von Syrien und Mesopotamien mit den benachbarten und rivalisierenden traditionsreichen arabischen Kulturzentren Aleppo und Mosul . Diese dominierende geographische position , die gleichermassen den Zugang zu Syrien wie zu Mesopotamien und nach Anatolien im Norden gewährleistete , veranlasste den ᶜabbāsidischen Kalifen Hārūn ar - Rašīd von 180 / 796 bis 192 / 808 seine Residenz von Bagdād nach ar - Raqqa zu verlegen . In dieser Zeit , also für 12 Jahre , war ar - Raqq'a das Machtzentrum der gesamten islamischen Welt .

Ihrer historischen Bedeutung als einer der Hauptstädte des frü hislamischen Weltreichs entsprechend , hat sich ar - Raqqa neuerdings Zu einem , Schwerpunkt der archäologischen Feldforschung entwickelt . Bereits 1907 wurden alle Ruinen der Stadt von den deutschen Forschern Friedrich Sarre und Ernst Herzfeld ausführlich dokumentiert und bearbeitet . Darüber hinaus werden die Denkmäler von ar - Raqqa seit fast fünfzig jahren systematisch von französischen , deutschen und vor allem syrischen Kollegen archäologisch untersucht und seit uber einem Jahrzehnt auch in zunehmendem Maße restauriert . Im Rahmen dieses umfassenden Forschungs - und Restaurierungsprogramms ist seit 1982 auch das Deutsche Archäologische Institut Damaskus in ar - Raqqa tätig . Die Grabungen finden in dem von der rezenten Stadterweiterung bedrohten frühislamischen Palastareal statt , das mit dem Kalifen Hārūn ar - Rašīd in Verbindung gebracht werden Kann .

I - Tuttul , Nikephorion , ar - Raqqa und ar - Rāfiqa

Da die Gesamttopographie der Stadt für die Einordnung und Bewertung der Grabungsbefunde von grundlegender Bedeutung ist , sollen einleitend zunächst die drei Hauptphasen der Stadtentwicklung kurz definiert werden , bevor schließlich die wesentlichen Grabungsergebnisse vorgestellt werden . Diese drei topographischen Hauptkomponenten sind auch heute noch deutlich

Date	Ebla	Mari	Lagash	Uruk	Akkad
	Kun-Damu	Ishtup-Ishtar	Enannatum I		
	Adub-Damu				
	Igrish-Khalab	Iblul-Il	Entemena		
2400		Nizi			
	Irkab-Damu	Enna-Dagan	Enannatum II		
		Ikun-Ishar	enentarzi	Lugaltarsi	
2350	Ishar-Damu	Khida ar	Lugalanda		
			Uruinimgina	Lugalzagesi	
					Sargon

fig. 1) The dynasties of the Ancient Near East

Igrish-Khalab	
Irkab-Damu	Arrukum
	Ibrium
Ishar-Damu	
	Ibbi-Zikir

fig. 2) kings and viziers of Ebla

of the city in a physical sense as well, while the temples (at least at Ebla) had a somewhat limited degree of economic autonomy. The personnel of the temple were few in numbber and without any weight in the palace organisation. It was the king, queen and some princes who performed even the ordinary Bloody sacrifices. It is clear that, in northern Syria, the Temple never functioned as the state nucleus .

According to theories developed about twenty years ago which are continuously reiterated and which are said to be confirmed precisely by Eblaite data presented in a distorted fashion, the process of development in external areas of southerm Mesopotamia would have been set in motion by long-distance trade, seen as a true first mover of social change .

Without doubt, the search to acquire certain precious goods was a reason for contact between distant cultures and a stimulus towards certain changes. But the commercial circuit which revolved around Ebla was marked by ceremonial exchanges between courts, limited to a somewhat small number of goods and, in some cases, crowned by dynastic alliances through marriage (Ebla princesses were sent as wives to the kings of states such as Kharran , Emar, Nagar and Kish) .

Recently it has been claimed that the palacial societies of Northern Syria adopted a complex administration so as to match the organisational models proposed by the successors of Sargon of Akkad .

Ebla , instead , shows how in Northern Syria the formation of a regional in the state had already begun at the beginning of the 24 th century (as was verified inthe previous century with regard to Southern Mesopotamia), superimposing itself on the widespread organisation of the city - states .

The contribution to the study of state formation during the third millennium BC made by the Ebla archives is, therefore, remarkable .

encountered also in Mesopotamia, in contemporary Lagash (and - in all likelihood - also in more ancient centres sush as Uruk and Shuruppak), demonstrates how this phases represents what one might almost call an obligatory point of development in the formation of an urban centre, in the Near East as in Crete .

The administrative structure was identified with the Palace and the so-called "large numbers" which recur in the texts (in evaluating them we must remember that they belong to an archaic state) show to what extent the economy of Ebla was centralised. One text alone records roughly 2,000kg of silver, 140,000 sheep, 9,000 bovines, 1,400,000 measures of cereals (the equivalent possibly of 31,000,000 litres, enough to support 42,000 people on two litres a day), 5,600 vases of oil (containing perhaps from 150,000 to 170,000 litres) .

Mention has alrealy been made of quite extraordinary quantities of silver compared to those of the Mesopotamian area, not only in the third but also in the second millennium. One text summarises the silver accumulated the reign of Igrish-Khalab: 1,348 kg, beside about 18 kg of gold. The silver collected during the mandate of vizier Ibrium (first half of the reign of the last king : Ishar-Damu) totalled approximately 2,000 kg .

Therefore, a society functioning in terms of an élite headed by the Palace. From here the work of 5,000/6,000 men in the immediate vicinity of the city was organised, while within the Palace itself, roughly 1,000 women were employed in weaving and grinding grain. Other workers were spread out in peripheral centres, while there was also a notable rural population. Once a regional state, Ebla included other urban centres in its territory, such as Karkemish on the Euphrates, to-day at the Syrian-Turkish border .

The way followed in urban formation in the Syrian area has some particular characteristics compared with that identified for Mesopotamian cities. In Mesopotamia, during the so-called first urbanisation, the centre of social aggregation was the Temple, also the centre of control of economic goods. With the second urbanisation the large organisational centre became the Palace, but the temple structures, now however controlled by the royal dynasty, continued to play a dominant role in the economy . Lagash is the best documented example of this .

For the outlying areas, in the second half of the fourth millennium, we have the case of Malatya which was affected by the odd echo of the southern urban experience. Here the temple was included in an administrative centre which appears to have been dominant .

In Syria, Some centuries later, with the second urbanization - and this is the situation represented also by Ebla and Mari - the Palace occupies the centre

those of equals, and those with Nagar, which commanded a regional state covering the Khabur basin, were intensified. Lastly, contact was made with Kish, the principal centre in the Babylonia .

It was stated above that the establishment of the Eblaite state is reflected for us in the administrative documents. The annual accounts of deliveries are divided into four parts. The first section deals with the deliveries made by the vizier himself, which at the time of Ibrium consisted of more than 100 kg of silver, between 1.5 and 5 kg of fold, objects made of precious metals and more than a thousand pieces of clothing. There then follows the section regarding deliveries made by the "lords" which had become rather modest in this period and which totalled form 1/6 to 1/10 of the vizier's deliveries. The third section lists gifts, including modest ones, made by the kings of friendly states and, lastly, the fourth records occasional deliveries. The total sum of the seventeen annual documents of Ibrium gives us : 3,731 kg o silver, 86 kg of gold and more than 30,000 pieces of clothing .

With Ibbi-Zikir, who succeeds his father Ibrium, there is a marked increase in all fourteen documents attributes to him (although we lnow from a summary tablet that his mandate lasted seventeen years), so much so that the quota attributed to Ibrium is more than doubled. We reach a correct appreciation of the information if we keep in mind the fact that, at Ebla, the ratio of gold to silver was 1:5 (only half of the norm in use in Mesopotamia between the third and the second millenniums), so the delivery of a small amount of silver could be compensated by an increase in gold. Annually we have from 423 to 733 kg of silver, 179 kg of gold and 51,600 pieces of clothing. This is the period of Ebla's greatest well-being .

The growth of amounts of silver recorded in the annual socuments concerning consignments is impressive and entirely in line with the incoming goods. In the very first documents of Ibrium there are roughly 50 kg of silver outgoing, rising in a much later document to 130 kg, while 210 kg remain "in the treasury". With Ibbi-Zikir we go from 220 to 270 kg of silver outgoing, with 600 kg remaining " in the treasury " .

Arrukum had been chosen as vizier from amongst the" lords" ,and so was Ibrium. Ibbi-Zikir, instead, succeeded his father, one might say, by direct inheritance and his position would later have been taken by his own son, Tubukhu-Hadda who was already entrusted with important responsibilities, had Ebla not been annihilated. Alongside the royal family, therefore, we see appearing, from a certain period on, another family, within which the second most important position in the state is passed down from father to son .

We have no private archives from Ebla, but only those of the Palace in which, moreover, there are real administrative gaps. Most of the documents concerning the assigning of fields to members of the royal family and officials go back to the first vizier, Arrukum . For the following decades we have practically only lists of deliveries of agricultural produce vfrom the villages. This situation, however, cannot cause doubts regarding the overall picture which emerges from the whole epigraphic documentation at our disposition .

Ebla society was highly centralised, and the fact that this tendency is

Thanks to this method we are able to deline roughly the strategies applied by the Eblaite administration in creating their system of control of the state and its economic activities .

For Igrish- Khalab, the third from last king, we have mainly documents relating to goods delivered to the Palace by the "lords" who were responsible for administrative centres and economic sectors, such as that of raising cattle. These texts rarely appear to be annual. It is under the following sovereign, Irkab-Damu, that we find the bases for a more efficient administration. Monthly accounts are drawn up regularly for the distribution of cloth ; further, the need for accounts relating to longer administrative periods begins to make itself felt and so three annual accounts are drawn up relating to deliveries to the Palace and two, again annual, registering outgoing quantities of gold And silver.

Arrukum must have stayed in office for roughly six or seven years. With Ibrium, who succeeded him towards the end of Irkab-Damu's reign, and who also came from the ranks of the "lords", the main types of document achieved a format which the Ebla administrators then left virtually unaltered until the destruction of the city more than thirty years later.

In creating or perfecting these document types, an administrative reform came about which placed almost total control of the administration in the hands of the vizier, while the "lords" saw their responsibilities diminish. In effect, the deliveries made by the viziers increased while the contributions of the "lords" decreased. This went hand in hand with a marked development of Ebla which progressed from city-state to a regional state .

We reach this conclusion by a combination of economic data, such as the extraordinary increase in the goods in circulation and political situations which emerge from the epistolary documents, such as those concerning relations with Mari and other regional states .

Royal inscriptions, the primary source for the reconstruction of the political history of the Ancient Near East, are completely lacking at Ebla. This, however, cannot be attributed to chance, although this does govern archaeological discoveries to a certain extent. It was the administrative need to stimulate processes of cultural development which led to the adoption of writing, and the Eblaite scribal school consequently equipped itself, ignoring other typologies such as commemorative inscriptions or foundation documents .

The letter sent by Enna-Dagan, king of Mari, most probably to Irkab-Damu claims the successes of Enna-Dagan's predecessors, amongst whom we have the glorious Iblul-Il who raided the entire valley of the Middle Euphrates, subduing part of it, and obliging Ebla amongst others to pay a heavy tribute so as to avoid direct military confrontation. It was precisely during the reign of Enna-Dagan, however, that Ebla's tributes to Mari decreased notably, finally ceasing altogether. Irkab-Damu succeeded in drawing Emar, which Iblul-Il had repeatedly destroyed, into its sphere of influenec and turning it into Ebla's port on the Euphrates. To seal this new political relationship, a princess of Ebla was married to the king of Emar. With king Ishar-Damu relations with Mari became

them are dated to the time of Ibrium and fourteen to the period of Ibbi-Zikir. There is a preparatory phase also for this kind od document under Arrukum. The earliest documents, thirty or so, are in the main monthly documents or of an occasional nature .

The Ebla archives are certainly amongst the largest and most complete of the ancient world (the Classical age has left us nothing comparable, not even the papyrus archives of Egypt ; for parallels we must look to the Middle Age), but they are not an isolated case in the Ancient Near East. Their importance is due to their great antiquity .

Scholars working on such documents do not, therefore, have an easy task. We are not only dealing with determining the significance of administrative terms of more than 4000 years ago in languages (both Eblaite and Sumerian) which are only partially known to us. The fact is that the texts are extremely bare and thus extremely difficult to evaluate since any understanding of the historical or administrative context is arduous .

It is as though a whirlwind had hit the papers of a modern archive, mixing and ripping them to pieces. The primary cause for this destruction is the fire in the Royal Palace which resulted from the conquest that brougth the life of Ebla to an end in the third millennium BC. If we consider only the central archive, we have 1,727 complete or mainly complete tablets but 9,483 sizeable fragments and thousands of even smaller pieces. For an understanding of many categories of document, these minute fragments are irrelevant, but for others (as letters and lexical lists) they are essential .

First of all, the tablets must be put in order once again, classified by content and type. While the smaller tablets may relate to individual accounts or contain even annual totals for an entire administrative sector, the very shape of the large tablets (thick or thin samples, more or less sharp corners, how rounded on the reverse side, etc.) suggests the type to which they pertain. Success in reconstructing the fragmentary tablets is determined by their content. It is difficult to reconstruct the monthly tablets for cloth which are numerous and contain various stereotyped sections. The limiited number of annual accounts, instead, enables us to reorder almost all the fragments. The lists of offerings, the tablets relating to farming administration, of which only a selection have been preserved, and the lexical lists have, in the main, already been restored .

The main problem in using these documents for an historical reconstruction is due to the fact that the texts are not dated by year. Formulas for annual date were the norm only from the Akkadian dynasty on. It is a paradox, but this mass of epigraphic material risks not being interpreted properly in the historical-economic sense precisely because no chronological order can successfully be applied to it .

It is therefore necessary to carry out careful prosopographic studies, to place events regarding the same individual in order and, therefore, compare data obtained from the various types of text of text. As Ronald Syme, the great scholar of the Roman Empire said, defendings his prosopographic investigations : "one uses what one has, and there is work to be done ".

would appear to have been a king of Lish, one of the principal centres of the Babylonia, later incorporated by Sargon into the kingdom of Akkad. Given this, the fifty years of the Ebla archives are to be dated before the advent of Sargon and, therefore, more or less from 2400 to 2350 BC. We may, however, also imagine a superimposition of the last years of Ishar-Damu with the first of the reign of Sargon. Here, to simplify matters, we are dealing in round figures but it should be borne in mind that some specialists in chronology tend to lower both Egyptian and Mesopotamian traditional dates by a few decades .

The central archive, therefore, relates to the last three kings. Of the better documented administrative sectors (those relating to the delivery of precious metals to the Plalace and to the distribution of textiles and precious metals to members of the palacial administration and to other cities) we may now say with certainty that the archives cover forty odd years without any gaps, while only single documents exist for the preceding years .

We may not exclude the possibility that writing had already previously been introduced at Ebla. It is, however, certain that it was under the third from last king, Igrish-Khalab, and his successor Irkabdamu, that the Eblaite scribal school reached the same level as those of the palace administrations of Mesopotamia. The acquisition of Sumerian lexical material dates back to this period. The complex system of cuneiform writing, which used not only syllabic signs but also Sumerian logograms with which terms could be indicated by a single sign, requires at least partial knowledge of that language. Thus, the Ebla scribes copied list of words by subjects. They also compiled further lists in which the words were ordered according to their initial sign. One of these manuscripts was then chosen as the basis for bilingual lists, a true dictionary (the very earliest of the human history) where the Sumerian term is followed by the translation (or one of the possible translations) in Eblaite .

Three groups of texts are crucial for the internal chronology of the administrative documents :

1) monthly accounts relating to the delivery of cloth : almost 600 large tablets, between 18 and 22 cm per side, covering the mandate of the three ministers, or viziers:Arrukum, Ibrium and Ibbi-Zikir, a total of forty odd years ;

2)the annual accounts of gold and silver objects delivered by the Palace: thirty-two large tablets, the most recent of which measure 36 cm per side and hold more than thirty columns on each face. This typology was created by the vizier Ibrium and eighteen tablets can be attributed to him while another fourteen are dated to Ibbi-Zikir, his son and successor. Already at the time of Arrukum, however,the idea of annual accounting of this sector of the administration existed and two tablets, although differing in form and in the presentation of certain ley registrations, are to be taken as evidence of this ;

3) the annual accoual accounts registering deliveries of silver, gold and copper, as well as cloth,by the viziers and the "lords" (the highest officials of the state) and by city-states which were in friendly terms with Ebla. Seventeen of

The marriage ceremony for the royal couple includes a ritual journey, lasting several days, to the tombs and cult places of certain ancestors scattered over the Ebla plain almost as a way of defining the territory and giving legitimacy to their possession. Hamana, the fifth king, was worshipped at a place called Uduhudu ; Shagishu, Ibbini-Lim and Ishrud-Damu (respectively the eighth, tenth and eleventh sovereigns) had a mausoleum at Binash. The list of ten kings prescribes offerings at Darib, today Atareb, roughly 30 km north of Ebla .

It is, therefore,certain that the people who founded Ebla and who-as the personal names show- spoke a Semitic language (that is a language related to Akkadian, Aramaic, Arabic and other languages of the same area) , had lived in the region for centuries. But it is likely that they were superimposed on peoples of different linguistic origin. Personal and place names with suffixes such as- *i / u G (u / a),* respectively Galigu and AdaNEg (u), or personal names written with two syllabic signs: *Mu - na* , *Mu - wa* , *Mu - za*, *Zi - ma*, *Zi - ti* , *Zi - za* , *Zu - ba* cannot easily be interpreted as Semitic .

Alos among the names of gods, starting with that of the principal deity Kura, some stand totally alone and do not recur in other Semitic panthea. The Eble. The Ebla pantheon appears to be a mixture of Semitic and substrata elements. The three gods invooked inan edict emitted by the king are : the god of the city Kura; the sun god Shamash (whose name is always Written with the Sumerogram Utu), guarantor of oaths and, at Ebla, feminine as in Ugaritic and Arabic; and, lastly, Hadda, the storm god of the north-western Semitic peoples whose cult centre was to be found at Aleppo already during the third millennium. Among the most venerated local gods we have Hidabal whose name, notwithstanding appearances, for reasons of writing seems difficult to be interpreted as Semitic .

The archives cover roughly 45 / 50 years, corresponding to three generations of kings : Igrish-Khalab, Irkab-Damu and Ishar-Damu. We know that Igrish-Khalab was a contemporary of Iblul-Il of Mari (who probably died at the beginning of Irkab-Damu's reign); but it not possible to establish a synchronism between Iblul-Il and the kings of central-southern Mesopotamian states .

A further synchronism is provided by the alabaster cover of a vase found in the administrative area of the Palace (where a small archive was also preserved). which is inscribed with the cartouche of Pepi I, the third pharaoh of the 6th dynasty . The titles which appear on the cartouche are those inuse in the first half of the Pepi I's long reign which spanned more than forty years. This find gives us the *terminus post quem* for the destruction of the Palace .

Traitionally, the first half of the period of Sargon of Akkad, beieved to have reigned for fifty-six years and to have succeeded to the throne towards 2340 BC, is taken to conincide with the second half of the reign of Pepi I, In reality, however, no synchronism exists between the Egyptian dynasty and those of Mesopotamia .

Sargon of Akkad never appears in the Ebla texts, whereas Iahkunnunu is mentioned (in a document which can be dated to the last king of Ebla) who

Ebla : the formation of an urban civilization

Alfonso Archi - University of Rome, La Sapienza

Ebla represents one of the earliest chronological points which written documentation enables us to reach back to.

The dynasty goes back to before 2600 BC, therefore to the age of the mythical Gilgamesh and of Cheops, the pharaoh. We know this from two lists. The first list in regressive chronological order ten deceased personages defined as "deified kings". The second, a writing exercise which open with the name of the last king : Ishar-Damu, mentions the ten names of the first list and adds a further fifteen. Four of these latter are names of people to whom offerings are made in the two versions of the ritual for the marriage of the royal couple (P. Fronzaroli, Archivi Reali di Eble, Testi XI, Roma 1993, nos. 1 and 2). They were evidently seen as the most illustrious ancestors and the king and queen, on that particular occasion, placed themselves under their protection to ensure the continuation of the dynasty .

It is possible that not all of fifteen names reflect a dynastic sequence and the transmission of supreme position from father to son . Some may have been heads of tribal groups the union of which gave rise to Eblaite urban society. However, if we attribute from ten to fifteen years to each of each of these leaders and dynasts, and even supposing some of them to have been alive at the same time, we arrive at roughly the halfway point of the 27 th century BC.

we are not interested here, however, in establishing records. What is important is that the Ebla archives demonstrate the functioning of an ancient urban centre, the earliest along with Lagash in southern Mesopotamia which was roughly contemporary (first half of the 24th century). It is true that earlier archives exist but these do not, given the sporadic and brief nature of the documents, enable us to reconstruct the economic-administrative system of which they were both expression and product .

It is to this dynasty that we owe the formation of Ebla as an urban centre during the phase known as "second urbanisation", generally taken as beginning to wards the 26th century. Stimuli coming from the Sumerian aerea during the last centuries of the fourth millennium contributed to the spreading of a model of territorial organisation based on urban centres. Only much later, however, with the adoption at the beginning of the 24th century of cuneiform script, created in Sumer as an administrative intrument, is state control consolidated in Syria .

However, a proto-urban fortified centre in the Eblaite area, at Tell Afes (about 12 km north of Ebla) is dated to the late Chalcolithic phase (2nd half of the fourth millennium).

Contents

UNIVERSITY OF ALEPPO AND ALEPPO ARCHAEOLOGICAL SOCIETY
ARABIC SCIENCE HERITAGE INSTITUTE

ADIYAT HALAB

An annual book devoted to the study of Arabic Science and civilization issued by Aleppo University in collaboration with Aleppo Archaeological society.



Volumes Eighth and Nineth.

1998.

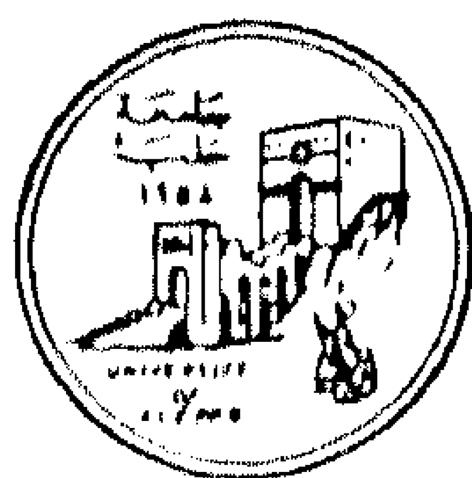
UNIVERSITY OF ALEPPO
ARABIC SCIENCE HERITAGE
INSTITUTE

AND

ALEPPO ARCHAEOLOGICAL
SOCIETY

ADIYAT HALAB

An annual book devoted to the study of Arabic Science and civilization issued by Aleppo University in collaboration with Aleppo Archaeological society.



مطبعة جا

Volumes Eighth and Nineth .

1998.